موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرابعُ والعِشرونَ

سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجمعِ القُرآنِ الكريمِ بالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّالِثَ عشَرَ

سُورَةُ الرَّعۡدِ

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرّعد: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عَدَمُ التَّمْييزِ بين مَن يَسْتحِقُّ العِبادَةَ ومَن لا يَسْتَحقُّها، فُقْدانٌ للتَّمْييزِ

اعلم أنّه تعالى لمّا بيّنَ أنّ كلَّ مَن في السّماوات والأرض ساجدٌ له سُبحانَه، بمعنى كونهِ خاضعًا له، عادَ إلى الرّدِّ على عَبدةِ الأصنام[1]، مُقرِّرًا بطريق الاستفهامِ التّقريريِّ أنّه ربُّ السّماواتِ والأرضِ، ومُنكِرًا عليهم في جملةٍ مِنَ الاستفهامات الإنكاريّةِ فقدانَهُمُ البَداهةَ؛ لعدمِ تمْييزِ عقولِهم بين مَن يستحِقُّ العبادةَ ومَن لا يَستحِقُّها، أو بين الإله الحقِّ والشّركاءِ الّذين لا يملِكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا يخلُقون بل يُخلَقون، ويَفتقدونَ كلَّ مُقوِّماتِ الرُّبوبيَّةِ، الّتي هي حقٌّ مُطلَقٌ للّه الواحدِ القهّارِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَوِي﴾: أصلُ (سوي) يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بينَ شَيئَينِ. يُقالُ هذا لا يُساوي كذا؛ أي: لا يُعادِلُهُ. وفُلانٌ وفُلانٌ على سَويةٍ مِن هذا الأمرِ؛ أي: سَواءٌ[2]. والتَّسويةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ. وتأتي بمعنى العَدلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيتُ بين الشَّيئَين: إذا عَدَلت بينَهما[3]، وهي أيضًا: تقويمُ الشَّيءِ وتَعديلُه، تقولُ: سَوَّيتُ الشَّيءَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/26.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوا).

فاستَوى؛ أي: قَوَّمتُهُ فاستَقامَ[1]. والمقصودُ بـ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِى﴾ في الآية: استنكارُ جعْلِ الأشياءِ المُتَضادَّةِ مُتساويةً.

2) ﴿شُرَكَآءَ﴾: أصلُ (شرك) الشِّركَةُ، وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثنَين لا يَنفَرِدُ به أحدُهُما. يُقالُ: شارَكتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرتَ شَريكَهُ. وأشرَكتُ فُلانًا، إذا جَعَلتَهُ شريكًا لَكَ[2]. والشِّركُ: يأتي بمعنى المُشارَكَة، وهي الانضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكَين، يُقالُ: شَركتُهُ في الأمرِ وشارَكتُهُ: إذا انضَمَمتُ إليهِ وخالَطتُهُ، وصِرتُ شَريكًا لَهُ[3]. والشِّركُ باللّه تعالى ضربان: ضربٌ يُجعَلُ للّه فيه شريكٌ. وهذا - والعياذُ باللّه منه - وصفَه تعالى بأنَّه ظُلمٌ عظيمٌ، والثّاني: الشِّركُ الصَّغيرُ؛ وهو مراعاةُ غيرِ اللّه في بعض الأمورِ، وذلك كالرّياء والنِّفاق. والمقصودُ بالشُّركاء في الآية: النُّظراءُ والأندادُ في الخَلْقِ[4] الّذين عبدوهُم من دون اللّه.

3) ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾: أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على تَشابُهِ الشَّيءِ وتَشاكُلِهِ لَونًا ووَصْفًا[5]. والاشتِباهُ: على وزنِ افتِعال، ومعناه: الالتِباسُ، وهو مَصدَرُ اشتَبَهَ الأمرُ، يَشتَبِهُ، اشتِباهًا؛ أي: اختَلطَ وأشكَلَ[6]. والمقصودُ بقوله ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ في الآية: اختلطَ الأمرُ وأشكلَ؛ أي: لم يَقدِروا على التّفريق بينَ الخَلْقَين.

4) ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾: أصلُ واحدٍ يدُلُّ على الانفرادِ[7]، فهو الَّذي لا يَتَجَزَّأُ، ولا يُثَنَّى، ولا يَقبَلُ الانقِسامَ، ولا نَظيرَ لَهُ ولا مِثل[8]، وإذا وُصِفَ اللّه تعالى به فمعناه: هو الَّذي لا يصِحُّ عليه التَّجزّي ولا التَّكثُّر[9]، فهو مُنفَرِدٌ بالذّات، في عَدم المِثلِ والنَّظيرِ[10]، والواحِدُ: اسمٌ بُني

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شرك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/52.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحد).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (وحد).
(9) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(10) ابن الأثير، النّهاية: (وحد).

لِمُفتَتَح العَدَدِ، تَقولُ: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ[1]، والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ في الآية: الفردُ الّذي لا ثانيَ له؛ أي: المُتَوَحِّدُ بالخَلْقِ[2].

5) ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾: أصلُ القَهرِ يدُلُّ على غَلَبَةٍ وعُلوٍّ. يُقالُ: قَهَرَه يَقهَرُه قَهرًا فهو قاهِرٌ، وقَهّارٌ للمُبالَغة. وأقهَرتُ الرَّجُلَ إذا وجَدتُه مَقهورًا، أو صارَ أمرُهُ إلى القَهر[3]، والقَهّارُ صفةٌ للّه ﷻ ثابتةٌ بالكتاب، وهو الَّذي يقهَرُ كلَّ شيءٍ، فيَغلِبُهُ ويصرِفُهُ لِما يشاءُ كيف يشاءُ[4]. وهو المقصودُ بـ ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ في الآية.

۞ المَعنى الإجماليّ:

الآلِهةُ المُتَّخذَةُ مِن دونِ الله زَيفٌ وضَلالٌ، والمَعْبودُ هو الله ذو الجَلالِ

يقولُ الحقُّ ﷻ: قُلْ يا محمَّد للمُشركين الَّذين يعبدونَ مع اللّه غيرَهُ: مَن خالقُ السَّماوات والأرضِ ومُدبِّرُ أمرِهِما؟ قُل: اللّه هو الخالِقُ المدَبِّرُ لهما، ثمَّ قُلْ لهم مُلزِمًا بالحُجَّةِ: أتَّخذتُم غيرَه معَبودينَ لكُم، وهُم لا يَقدِرونَ على نَفْعِ أنفُسِهم أو ضَرِّها، فَضلًا عن نَفْعِكم أو ضَرِّكم، وترَكتُم عبادةَ مالِكِها؟! قلْ لهم: هل يستوي الكافِرُ الَّذي هو أعمى البَصيرةِ، والمؤمِنُ الَّذي هو البصيرُ المُهتدي؟ أم هل يستوي الكُفرُ الَّذي هو ظُلماتٌ، والإيمانُ الَّذي هو نورٌ؟ أم جَعَلوا للّه سُبحانَه شُركاءَ معه في الخَلقِ خَلَقوا مِثلَ خَلْقِ اللّه، فاختلطَ عندَهم خلْقُ اللّه بخَلْقِ شُركائِهم؟! قُلْ لهُم: اللّه وحدَهُ هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ لا شريكَ له في الخَلْقِ، وهو الواحِدُ القهّارُ الَّذي يستحِقُّ الألوهيَّةَ والعبادةَ، لا الأصنامُ والأوثانُ الَّتي لا تضرُّ ولا تنفَعُ[5].

---

(1) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (وحد).

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/116.

(3) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (قهر).

(4) الخطابيّ، شأن الدّعاء، ص: 315، والبيهقيّ، الأسماء والصّفات، ص: 315.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/493، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/446، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/16، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 415.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ فِي الآيةِ الكريمةِ:

تـذْكـيرٌ بالحقّ الّـذي يَعرفونَه ويُنكرونَه، مع الـتَّوبـيخِ على صَنيعِهم

هذه الآيةُ الكريمةُ عامرةٌ بعددٍ منَ الاستفهامات، مُترابطةٌ ترابطًا يُظهرُ ما بينها من وثاقةِ الاتّصالِ؛ لأنّها إمّا مُؤكِّداتٌ للمعنى الأوّل المقصودِ أصلًا، وإمّا أنّها بمثابةِ إقامةِ الدّليل على مُقرّراتِه، على ما سيَظهرُ عند تناوُلِ كلِّ واحدٍ منها، ثمّ هي جميعُها تقرعُ مَسامِعَ الّذين جعلوا بينَهم وبين ربِّهم صُدودًا، وأقاموا بينَهم وبينَه سُدودًا، فتركوا عبادتَه إلى عبادةِ مَن لا يستحقُّ، ودعَوا مَن لا يجيبُ دعاءَهم؛ لأنّه لا يملِكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، هنا تأتي الجُملُ الاستفهاميّةُ في الآية؛ لِتُقرِّرَهُم بالحقِّ الّذي يَعرفونَه ويُنكرونَه، ولِتُنكرَ عليهم وتوبِّخَهُم على صَنيعِهم بهذا الإعراضِ عن ربِّهم، وبئسَ ما صَنعوا.

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ فِي المَطلَعِ:

تَقريرُ المُشركين بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو الله، دونَ سِواه

أوّلُ استفهامٍ فيها قولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وجوابُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ وهو استفهامٌ تقريريٌّ، غرضُه: تقريرُهُم بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو الله، لا أحدَ سواه. وقد كان المشركون - والخطابُ هنا لهم - مُقرّينَ بهذه الرُّبوبيّةِ، ومُعترفين بأنّ الله تعالى هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، وإنّما حَسُنَ تقريرُهُم بما هُم به مُقِرّون في الأساس؛ لأنّهم لم يَبْنوا على هذا الأساس إيمانًا كاملًا بالله وحدَه، يُنْجيهم من عذابِه، وإنّما أشركوا معه آلهةً أخرى؛ "لاعتقادِهِمُ الباطلِ أنّها تقرِّبُهم إلى الله زُلفى"(1).

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/153.

تَوْجيهُ تَجاهُلِ العارِفِ في المَطلَعِ:

سَوقُ المَعلوم مَساقَ غيرِ المَعلوم، محضُ تَقريعٍ وتَوْبيخٍ

في توجيه السّؤالِ بهذه الصّيغةِ: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لا يعني أنّه يَستفهمُ استفهامًا حقيقيًّا؛ لكونِه مَعلومًا؛ بدليل إردافِه بالجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾، ولكنّ الهدفَ من سَوقِ السّؤالِ هنا، وهو معلومُ الجوابِ، مساقَ غيرِ المعلوم؛ لِما يحملُه من هدفِ تقريرِهم، وأيضًا ما يحملُه من تمهيدٍ لِما سيأتي بعدَه مِن استفهاماتٍ توبِّخُهم وتُقرِّعُهم على انصرافهم عن عبادة مَن يُقرّون برُبوبيّته.

نُكتةُ تَصْديرِ الاسْتفهامِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

للمَقولِ قيمةٌ في مَضْمونِه، تَستحقُّ التَّأمُّلَ

في تصديرِ جُملة الاستفهامِ بالأمرِ ﴿قُلۡ﴾ دلالةٌ على أهمّيّةِ المَقولِ وقيمةِ ما يحملُه من معنًى ومضمونٍ؛ بل قُلْ: الأهمّيّةُ البالِغةُ لجملة الاستفهام[1]، ولِما قصدَتْه من غرَضِ لفْتِ أنظارِهم إلى خطأ انْصرافِهم عنِ الإيمانِ الكاملِ باللّه وعن عبادته، مع إقرارِهم برُبوبيّتِه، و"تقريعِهم على الإشراك تقريعًا لا يَسَعُهم إلّا تَجَرُّعُ مَرارتِه"[2].

إيثارُ الاسْتِفهامِ بالأداةِ ﴿مَن﴾:

المَعْبودُ هو اللّه الأكملُ، لا جملةُ مَعْبوداتِهم الّتي لا تَعقِلُ

أوثِرَ تَوجيهُ السّؤال بـ ﴿مَن﴾ الاستفهاميّةِ الّتي يُستفهَمُ بها عنِ العاقل، دون (ما) الّتي يُستفهَمُ بها عن غير العاقِل؛ لأنّ المقصودَ تقريرُ أنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو اللّه، فالسّؤالُ مطروحٌ لتقرير هذا الجوابِ المُتَعَيَّنِ الّذي ليس منه بدٌّ، وهو ما ورد الجوابُ به في الجملة ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾، وهو ليس استفهامًا حقيقيًّا كي يُسألَ عنه بـ (ما)، من حيث إنّ في جملة مَعبوداتِهم ما لا يَعقِلُ؛ بل هو استفهامٌ تقريريٌّ جوابُه مُحدَّدٌ مُتعيَّنٌ كما عرفتَ.

إيثارُ اسْمِ الرّبِّ على لَفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

أوثِرَ في التّعبير هنا اسْمُ الرّبِّ على لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾؛

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/112.

لأنّ المَقامَ مَقامُ رُبوبيّةٍ، فالاستفهامُ التّقريريُّ مُتَّجَهٌ تقريرِ خالقِ السّماواتِ والأرضِ ومَن فيهما، ومُدبِّرُ أمورِهِما وأمورِ ما فيهما ومَن فيهما، وأيضًا لأنّ المقصودَ بالخطاب هُمُ المشركون، وهُم كانوا يُقرّون بالرُّبوبيّة.

في مَقام الخالقيّة والعناية الكاملةِ، يُؤثَرُ التّعبيرُ بالرّبوبيّة

وَجهُ إضافةِ الرّبِّ إلى السّماواتِ في السّياقِ:

الّذي يظهرُ أنّ الإضافةَ هنا هي إضافةُ تشريفٍ وتعظيم فضلًا عنِ التّخصيص؛ إذ لا مُنازِعَ له سبحانَه في خلْقِهما، والمُخاطَبون كانوا بذلك يُقِرّون ويَعترفون؛ فتوجَّهَ القصدُ إلى لفْتِ أنظارِهِم إلى الإيمان الكاملِ بمَن يُقرّون له برُبوبيّتِهما، ونَبْذِ الشّركاءِ الّذين عبدوهُم من دونِه.

الإضافةُ في الجملةِ الآنفةِ تَشريفٌ وتَخْصيصٌ

وَجهُ عطْفِ الأرضِ على السّماواتِ:

عَطفُ الأرضِ على السّماواتِ هنا تبعًا لها، حيث الغرَضُ هنا دعوتُهم إلى التّوحيد ونبذِ الشّركِ، ولمّا كان خلقُ السّماواتِ أعظمَ من خلْقِ الأرضِ، كان توجيهُ النّظرِ إلى خلقِها أهمَّ في تحقيق المَقصِدِ، ثمّ ذكرَ الأرضَ تبعًا لها، ولأنّها شريكتُها وتاليتُها عند الدّعوةِ إلى النّظر والاعتبارِ، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 185]، وكما قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101]، وهذا فضلًا عن أنّ دلالةَ السّياقِ مُرجِّحةٌ لهذه التّبعيّةِ، كما لفتَنا الكرمانيّ؛ حيث كانَ الأسبقَ الأهمَّ والأسبقَ ذكرًا في السّورة ذِكرُ العُلْويّاتِ منَ البَرق والسّحابِ والصّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائكةِ وتسبيحِهم[1].

الأرضُ شريكةُ السّماواتِ في الدّعوةِ إلى النّظرِ إلى خلْقِها، والاعتبارِ بها

تَبعيّةُ الأرضِ للسّماواتِ في الخَلقِ سِرٌّ كونيٌّ دالٌّ على عظمةِ الله وقُدرتِه

سِرُّ العُدولِ عن تَكرارِ لفظِ الرّبِّ مع الأرضِ:

تمَّتِ الإشارةُ إلى أنّ ذكرَ الأرضِ قد وردَ تبعًا لذكر السّماواتِ،

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 152.

لكونِها تاليتَها في الخَلق، وشراكةُ الخلقِ هذه والتّبعيّةُ فيها هي السّرُّ في العُدول عن تَكرار لفْظِ الرّبِّ مع الأرض، والاكتفاءِ بذكرها أوّلًا.

دَلالةُ قَصْديّةِ التّصريحِ بجوابِ الاسْتفهامِ المَجازيِّ:

تَلْقينُهُم الجوابَ عندَ النّكوصِ عنِ التّصريحِ به، وحكايتُهُ عندَ إعلانِهِ

التّصريحُ بالجوابِ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ مَرجِعُه إلى واحدٍ من احتمالَين:

الأوّل: تلقينُهُمُ الجوابَ إنْ هُم كفّوا عنه، فلم يُجيبوا به مُكابرةً وعنادًا؛ لأنّهم في الواقع يُقرّونَ به. "وحينئذٍ لا يُرادُ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ الجوابُ، ولكنْ تحريضُهُم إلى الجواب وتلقينُهُم كما هو المُتعارَفُ في المُناظَرةِ حين يريدُ الخصمُ التَّعنُّتَ والمُكابرةَ"(1) وحينئذٍ لا يستطيعونَ إنكارَه؛ لأنّه الجوابُ المُتعيَّنُ الّذي يستوي في تقريره هو ﷺ والخَصْمُ(2) ويؤيّدُ هذا الاحتمالَ ويُرجِّحُهُ تَوالي الاستفهامات المُرتّبةِ عليه.

الثّاني: أن يكونَ أمرًا بحكايةِ قولِهم واعترافِهم، بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو اللّه. وهذا الاعترافُ قد حكاه القرآنُ في غير مَوضعٍ، منه قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25] وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، "كأنّه قيلَ: احْكِ اعترافَهُم، فَبَكِّتْهم بما يُلزِمُهُم منَ الحُجَّةِ، وألقِمْهُمُ الحَجَرَ"(3)، والسّياقُ كما رجَّحَ الوجهَ السّابقَ، فقد أبى اختيارَ هذا الوجه(4).

نُكتةُ إظْهارِ الاسْمِ الأعظمِ ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾:

في إظْهارِ اسمِه الأعظَمِ، إشعارٌ بعِلّةِ القُدرة الباهرة

في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أظهرَ الاسمَ الجليلَ في المعاني الفخمةِ في النّفوس تفخيمًا لشأنِ المَخلوق، وتعظيمًا له، وتربيةً للمَهابةِ بما يتضمّنُه من إشعارٍ بعِلّةِ القُدرةِ الباهرةِ المُعجِزةِ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/482.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/483، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/121.

دَلالةُ تَكرارِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

تفرُّعُ الاسْتِفهامِ الإنكاريِّ على سابقِه التّقْريريِّ

كرَّرَ فعلَ الأمر ﴿قُلۡ﴾ مع الاستفهام الجديد ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وهو استفهامٌ مُتفرِّعٌ ومُرتَّبٌ على الاستفهام السّابقِ وجوابِه: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾؛ "لقصد الاهتمامِ بذلك التّفريعِ لِما فيهِ منَ الحُجّةِ الواضحةِ"[1].

فائِدةُ حذْفِ الجارِّ والمجرور (لهم) بعدَ (قل):

السّؤالُ الموجَّهُ مَنطقيٌّ، ولا حاجةَ في إجابتِه إلى تفكيرٍ

عادةُ القرآن حَذفُ الجارّ والمجرور (لهم) بعد (قل) في السّؤال، وفي الجواب المُشتمِلِ عليه؛ وذلك للإيجاز[2]، وليبقى السّؤالُ مَفتوحًا ومَطروحًا لكلِّ مُنكِرٍ، وليس فقط الّذين شوفِهوا بالقرآن إبّانَ نزوله. وفي حذفِه كذلك دلالةٌ على منطقيّة السّؤالِ الموجَّهِ، ومناسبتِه للحال، وأيضًا على تعيُّن الجوابِ ووجوبِه وإقناعِه، وكأنّ الجوابَ لبروزه لا يحتاجُ إلى وقتٍ للتّفكير فيه. ومن هذا النّمطِ هذه الاستفهاماتُ الخمسةُ المُشتمِلةُ عليها الآيةُ، مَحَلُّ التّفسيرِ.

دَلالةُ الاسْتِفهامِ في ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾:

تَوبيخُهم لاتّخاذِهم شركاءَ عاجِزين، وتركِهم عبادةَ الله القادرِ المَكِين

نوعُ الاستفهام هنا إنكاريٌّ وتوبيخيٌّ، وذلك أنّه لمّا كان هذا الاستفهامُ ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾ مُرتَّبًا على الاستفهام التَّقريريِّ السّابقِ ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فقد ألزمَهُم به وبكَّتَهم. وقصدَ بالاستفهام إنكارَ الواقعِ، كما في قولكَ: أَضَرَبْتَ أباكَ - إنكارًا لواقعٍ مُحرَّم ما كان ينبغي أن يكونَ - لا إنكارَ الوقوع[3] على معنى: إذا تقرَّرَ أنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ، ومَن فيهما وما فيهما هو الله، فلماذا تتّخذونَ من دونه أولياءَ؟ فإنّ هذا التّقريرَ يُلزمُكم أن تُفردوه بالإيمان والعبادة، لا أنْ تُشركوا معه غيرَهُ، وكأنّه لا عقولَ لكُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/113.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/153.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12.

دُخولُ الفاءِ العاطِفةِ بين همزةِ الاسْتِفهامِ والفعْلِ:

عَطفَتِ الفاءُ ما بعدَها على محذوفٍ قبلَها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على محذوفٍ قبلَها بينها وبين همزة الاستفهام، والتّقديرُ: أبعدَ أنْ عَلِمتُموهُ ربَّ السّماواتِ والأرض اتّخذتُم من دونه أولياءَ[1].

التَّعْبيُر عنِ الاتّخاذِ بالماضي:

اتّخاذُهم للأولياءِ أمرٌ مُتَحقّقٌ

عبَّرَ بالماضي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾؛ لتحقُّقِ وقوعِه، فهو هنا يُعبِّرُ عن واقعٍ قد حصلَ بالفعل، فقدِ اتّخذوا أولياءَ من دون اللّه.

دَلالةُ ﴿مِّن﴾ في قولِه ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾:

ما يُعبَدُ من دون الله لا يَستحقُّ العبادةَ

الظرف (دونَ) من ظروف الأمكنةِ، ولا تَتَصرَّفُ - على المشهورِ - إلا بالجرِّ بـ (مِنْ)، وهي؛ أي: ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ زائدةٌ؛ لتأكيدِ أنّ ما يعبدُهُ هؤلاء بدلًا مِنَ اللّه ليس فقط أقلَّ وأدنى، ولكنّه أيضًا غيرُ مُستحِقٍّ للعبادة.

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ على (غيره):

لله وحدَه العلوُّ والكمالُ، وللشّركاءِ الدّونيّةُ والتّردّي والخبالُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ (دون) على (غيره)، فلم يقُلْ مثلًا: (من غيره)؛ لأنّ كلمةَ (دون) مع دلالتِها على ما تدلُّ عليه (غير)، فإنّها تضيفُ بُعدًا آخرَ، وهو دَلالتُها على الدّونيّةِ والسَّفَلِ في المَنزِلة. وهكذا الحالُ، فكلُّ إلهٍ اتّخذوهُ من دون اللّه هو كذلك.

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ (الأولياء):

بيانُ أنّ تَنْكيرَهم لِتَحْقيرِهم

تنكيرُ كلمةِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُرادٌ به تحقيرُ شأنِ أوليائِهم وتقليلُه؛ فأين هذه الأصنامُ العاجِزةُ منَ الإلهِ الخالِقِ القويِّ القادرِ؟!

سِرُّ تَقْديمِ المجرورِ ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ على ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

مُقتضَى التَّقْديمِ التّشريفُ

قدّمَ المجرورَ ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ على ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، مع أنّ الأصلَ تقديمُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/522. وهذا مذهب الزّمخشريّ فيها، سواءٌ في هذا المثال أو في أمثاله، وغيرُه يرى أنّ الهمزةَ مُقدَّمةٌ من تأخير، لكونِ الصّدارةِ من حقّها.

المرفوعِ ثمّ المنصوبِ ثمّ المجرورِ؛ وذلك لأنّه أُضيفَ إلى ضمير ﴿ٱللَّهُۚ﴾، فالضّميرُ في المجرورِ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ عائدٌ على ﴿ٱللَّهُۚ﴾، وقدِ اقتضى هذا تقديمَه؛ لكونِه الأشرفَ، فالأشرفُ قطْعًا هو ما أُضيفَ إليه ضميرُ ﴿ٱللَّهُۚ﴾[1]، ثمّ أنّ مَحطَّ شناعةِ الفعلِ اتّخاذُ الأولياءِ من دونِ اللّه، فضلًا عن عُمومِ الاتّخاذِ.

وَجْهُ التَّعبيرِ عن ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ بالجمْعِ:

أوْثانُهُم وآلهتُهُم كثيرةٌ مُتنوِّعةٌ، ولكنّها لا تُغني عنهم شيئًا

عبَّرَ عنِ الأولياء بالجمْعِ الدّالِّ على الكثرةِ (أفْعِلاء) كـ(أغنياء)؛ أخْذًا منَ الواقع؛ لأنّهم في الواقع اتَّخذوا من دون اللّه آلهةً، لا إلهًا واحدًا؛ فأوثانُهُم كثيرةٌ مُتعدِّدةٌ، بتعدُّدِ قبائلِهم وأفرادِهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بالأولياءِ دونَ الأربابِ:

التَّوبيخُ على الوصْفِ الأعَمِّ، مُقتضٍ لحُصولِه على الوصْفِ الأخَصِّ

آثرَ التّعبيرَ بلفظ الأولياءِ دونَ الأربابِ؛ لأنّ التّعبيرَ به أعمُّ منَ التّعبيرِ بالأربابِ، من حيث إنّ الوليَّ والنّاصرَ قد يكونُ ربًّا، وقد لا يكونُ، فهُم وُبِّخوا على الوصْفِ الأعمِّ، وهو طلبُهُمُ النّصرةَ من غيرِ اللّه، فيلزمُ منه الذّمُّ على الوصفِ الأخصِّ، وهو اتِّخاذُهُم أربابًا من دون اللّه من بابٍ أحرى. وعلى هذا؛ فلو قال: (اتّخذتُم من دونه أربابًا) لأفادَ التّوبيخَ على هذا الوصْفِ الأخصِّ، لا على ما دونَه، وهو مُطلَقُ النّصرةِ[2].

دَلالةُ جملةِ الصّفةِ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾:

عَجَبًا لمعبودٍ لا يملِكُ جلْبَ نفْعٍ لنفسِه، ولا دفعَ ضُرٍّ عنها

جملةُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ صفةٌ لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، فالجُملُ بعد النّكرات صفاتٌ، والمقصودُ منها لفتُ أنظارِ المُخاطَبين، وتنبيهُ السّامِعين للنّظرِ في تلك الصّفةِ والتّدقيقِ فيها، فإنّهم إنْ تَدَبَّروا عَلِموها، وعَلِموا أنّ مَن كانَت تلك صفتَهُ فليسَ بأهلٍ لأنْ يُعبَدَ[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/425، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 2/336.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/425، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 2/336.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/113.

دَلالةُ نفْي الملكيّةِ للنّفس:

دلَّ التّعبيرُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ﴾ بنفْي ملكيّةِ الأولياء لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، دون أن يقولَ لهُم: (لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ)؛ للدّلالة على بالغِ عجْزِهم، فإنْ كانَت معبوداتُهُم لا تملكُ أن تجلبَ لنفسِها نفعًا، ولا أن تَدفعَ عنها ضُرًّا، فكيفَ تستطيعُ فعلَ ذلك لعابِديها؟ إنّ فاقدَ الشّيءِ لنفسِه، لا يملِكُ أن يُعطيَه غيرَهُ.

فاقدُ الشّيءِ لنفسِه، لا يملِكُ أن يُعْطيه غيرَه

تَوْجيهُ عطْفِ الضُّرِّ على النّفع في السّياقِ:

عَطَفَ الضُّرَّ على النّفع، وكان يمكنُ أن يكتفيَ بالنّفع فيدلَّ عليه، وذلك "استقصاءٌ في عجْزِهِم"(1)؛ أي: بالإتيان على جميع الحالاتِ الّتي تُظهرُ حالةَ هذا العَجْزِ.

استِقصاءُ حالاتِ عجْزِ الأولياء، منَ البيانِ المُفصِحِ عنِ المُرادِ

سِرُّ تَنْكِيرِ النّفعِ والضُّرِّ:

تنكيرُ النّفعِ والضُّرِّ هنا؛ لإفادةِ العُموم، فـ﴿نَفۡعٗا﴾ و﴿ضَرّٗاۚ﴾ نَكِرتانِ وقعَتا في سياقِ النّفي، فأفادَتا العُمومَ؛ والمعنى: لا يملِكونَ لأنفسِهم جلبَ نفعٍ قليلًا كان أم كثيرًا، ولا دفعَ ضرٍّ قليلًا كان أم كثيرًا.

النّكرةُ في سياقِ النّفْيِ مفيدةٌ للعُمومِ

نُكتةُ تَقْديمِ نفْيِ النّفعِ على نفْيِ الضُّرِّ:

قدَّمَ نفيَ النّفعِ هنا على دفعِ الضُّرّ، مع أنّ الأصلَ تقديمُ درْءِ المَفسدةِ على جلْبِ المَنفعةِ؛ لأنّ المَقامَ يَقْتضيه في إثباتِ عجْزِ الأولياء؛ وذلك أنّ النّفعَ هو المقصودُ بالذّات مِنَ التّصرُّفات وبذلِ الجهود، فإذا عَجَزَ الأولياءُ عمّا يكون الحرصُ عليه أكثرَ - وهو جلبُ النّفع - فإنّهم عن غيره أعجزُ بطريق اللّزوم، ولا يتحقّقُ هذا المعنى هنا لو قدَّمَ نفيَ الضُّرِّ على نفيِ النّفعِ؛ "لأنّه لا يَلزَمُ من عدم القُدرةِ على دفعِ الضُّرِّ عدمُ القُدرةِ على جلْبِ النّفعِ... فقدَّمَ النّفعَ ليكونَ الثّاني تأسيسًا، وزيادةً في بيان عجْزِهم"(2).

تَقْديمُ النّفعِ لكونِ تحصيلِه الغايةَ مِنَ التّصرُّفاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/113.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/425.

عِلّةُ تَكرارِ لفظِ (لا) في قوله ﴿وَلَا ضَرًّاۚ﴾:

تـأكـيـدُ نـفْـيِ اسْتطاعةِ دفْعِ الضُّرِّ

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَرًّاۚ﴾ زائدةٌ لتأكيد نفْيِ استطاعتِهِم دفعَ الضُّرِّ عن أنفسِهم؛ إثرَ الإخبارِ عن عدم استطاعتِهم جلْبَ النّفعِ لها.

نُكتةُ تَكرارِ (لا) النّافية:

(لا) الثّانيةُ تُفيدُ التّصريحَ المُفيدَ، بعُمومِ النّفيِ بالتّأكيدِ

تَكرارُ (لا) أفادَ ورودَ النّفيِ على وقوع فِعلَيِ النّفعِ والضُّرِّ حالَ الاجتماع، وفي حالِ الانفرادِ؛ فالمعنى: لا يوقِعون شيئًا منهما[1]. فالتّأكيدُ بـ (لا) الثّانيةِ يفيدُ التّصريحَ بعُموم النّفيِ، إذ بدونِها ربّما يُحمَلُ اللّفظُ على نفيِ الاجتماع[2].

بَلاغةُ الفصْلِ في جملة ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

إقامةُ الدّليلِ على صِحّةِ كَونِ رُبوبيّةِ السّماواتِ والأرضِ لله

جُملةُ ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ استفهامٌ ثالثٌ، هو بمثابةِ إقامةِ الدّليلِ المُؤكِّدِ على صحّةِ الجوابِ الّذي أُجيبَ به عنِ الاستفهامِ الأوّلِ المُقرِّرِ بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرض هو ﴿ٱللَّهُۚ﴾، وهذا هو علّةُ فصْلِه، وعدمِ عطفِه.

تَوْجيهُ الاسْتفهامِ في ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

لا عـقـلَ لِمَـن يُـسـاوي بـيـنَ الـضّـدّيـن؛ العمَى والبصرِ

الاستفهامُ في قوله ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ إنكاريٌّ مُتضمِّنٌ معنى النّفيِ[3]، وفيه أيضًا تهكُّمٌ بالكافرين وتوبيخٌ لهم[4]؛ لأنّ حالَهُم في العمى عنِ الحقِّ، باتّخاذِهم أولياءَ من دون اللّه، أشبهَ حالَ الأعمى الّذي لا يُبصِرُ النّورَ الّذي أمامَه. ومن جملة أهدافِهِ أيضًا: إظهارُ مزيّةِ المُؤمنينَ باللّه على أهل الشّرك، بنفْيِ التَّسوية بينَهما، بعدَ أن أبطلَ في الاستفهامَين السّابقَين استحقاقَ آلهتِهم العبادةَ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/428.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/270.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/152.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3921.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.

سِرُّ تَقْدِيمِ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ على ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾:

ناسبَ وصْفُ العمى ما عُرِفَ من شَنيعِ كُفْرِهم

قدَّمَ الأعمى على البصير؛ لأنّ المُرادَ نفيُ مُساواتِه به[1]، ولمناسبتِه الحديثَ عنِ الكُفرانِ والجحودِ، باتّخاذِ أولياءَ من دون الله تعالى، فقَدَّمَ ما يوائِمُهُ من وصْفٍ، وهو العمى، بما يحملُهُ من دلالة نفْيِ النّظَرِ والتّأمُّلِ.

دَلالةُ ﴿أَمْ﴾ في ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾:

اسْتِنْكارُ حالةٍ أُخرى من حالاتِ التّسْوِيةِ بين الضِّدَّين

﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ بمعنى (بل)، وهي هنا للإضراب الانتقاليِّ في التّشبيه، حيث انتقلَ الكلامُ بعدَها لتشبيهٍ آخرَ[2]، فبعدَ أن شبَّهَ كلًّا مِنَ المُؤمنِ والكافرِ بالأعمى والبصير؛ لغرَضِ نفْيِ التّسويةِ بينَهما، انتقلَ ليُشبِّهَ الكفرَ والإيمانَ بالظّلماتِ والنّورِ، لنفس الغرَضِ، وجعلَ ذلك تشبيهًا - على قول ابنِ عاشور - بيانُهُ: أنّ "نفيَ التّسويةِ بين الحالَين، يتضمَّنُ تشبيهًا بالحالَين، وهذا من صيغ التّشبيهِ البليغِ"[3]. وسيأتي أنّ هذا من باب الاستعارةِ التّصريحيّةِ[4].

تَوْجيهُ الاسْتِفهامِ في جملةِ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾:

لا يَستَوي الكفرُ والإيمانُ، كما لا تَستَوي الظّلماتُ والنّورُ

الاسْتفهامُ هنا كالاستفهامِ السّابقِ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، فهو أيضًا إنكاريٌّ مُتضمِّنٌ معنى النّفي؛ أي: نفْيُ التّسويةِ بين الكفر والإيمانِ يُشبهُ عدمَ التّسويةِ بين الظّلمات والنّور، وفيه أيضًا ذمٌّ وتقبيحٌ للكفرِ ومدحٌ للإيمان، وتهكُّمٌ بالكافرين ومدحٌ للمُؤمنين.

بَلاغةُ الاسْتِعارتَين التّصْريحيتَين في سياقِ الآية:

بَلاغةُ المَجازِ في التّنفيرِ منَ الكفرِ، والتَّرغيبِ في الإيمانِ

في جملتَي الاستفهام ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ استعارتان تصريحيّتان أصليّتان؛ إذِ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/152.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.
(4) والخلاف في هذا حكاه الشّهاب في حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/230.

استعارَ في الأولى لفظَ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ للكافر، ولفظَ ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ للمُؤمن، وصرَّحَ بالمُستعار - المشبَّه به - فيهما بعد حذفِ المشبَّه فيهما أيضًا، وكذلك فَعَلَ في الجملة الثّانيةِ، فقدِ استعارَ لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ للكفر، ولفظَ ﴿وَٱلنُّورُۗ﴾ للإيمان، وحذفَ اللّفظَين المُشبَّهين، وصرَّح باللّفظَين المُستعارَين. وهدفُ هاتين الاستعارتَين بيانُ علاقةِ المُشابَهةِ بين المُشبّهِ والمُشبّهِ به في الجُملتَين تنفيرًا وتحذيرًا ممّا يحملُهُ المشبّهُ فيهما من سوءِ المعنى وحَقارَتِه، ولفتًا إلى ما يحملُه المشبَّهُ به من وضاءَةٍ ومَلاحةٍ ترغيبًا فيه.

وفي هذه الاستعارة تتحدَّدُ الصّلةُ الوثيقةُ بين الكفرِ والعَمى، وتتحدَّدُ كذلك شدّةُ ضلالِ الكافر، فهو أعمى في ظلام، والعمى وحدَه حاجبٌ لرؤيتِه شيئًا. فكيف إذا كان هذا الأعمى في ظلامٍ فهو أشدُّ عُرضةً للهلاك، حيث لا يتّقي بنفسه الشّرَّ، وتراه لتخبُّطِه في الظّلام يحكمُ على الأشياء أحكامًا خاطِئةً. والمُؤمِنُ بصيرٌ، والإيمانُ نورٌ. وهنا كذلك تتحدَّدُ الصّلةُ القويّةُ بين الإبصار والنّور؛ بمعنى: الإيمانِ، وتتحدَّدُ كذلك درجةُ هِداية المُؤمنِ؛ لأنّه مُبصِرٌ في نورٍ[1].

قال عبدُ القاهر الجرجانيُّ: "استعارةُ النّورِ للبيان والحُجّة، فهذا شَبَهٌ أُخِذَ من محسوسٍ لمَعقول، ألا ترى أنّ النّورَ مُشاهَدٌ مَحسوسٌ بالبصر، والبيانُ والحجّةُ ممّا يُؤدّيه إليك العقلُ من غير واسطةٍ منَ العين أو غيرها مِنَ الحواسِّ... والنّورُ يُستعارُ للعلم نفسِه أيضًا والإيمانِ، وكذلك حُكمُ الظّلمة، إذا استُعيرَت للشُّبهةِ والجهلِ والكفر؛ لأنّه لا شُبْهةَ في أنّ الشُّبَهَ والشّكوكَ مِنَ المعقول، ووجهُ التّشبيه أنّ القلبَ يحصُلُ بالشُّبهةِ والجهلِ في صفة البصرِ، إذا قَيّدَه دُجَى اللّيل فلم يجدْ مُنصرَفًا، وإنْ استُعيرَت للضّلالة والكفر، فلأنّ صاحِبَهُما كمَن يسعى في الظّلمة، فيذهَبُ في غير الطّريقِ، وربّما دُفِعَ إلى هُلْكٍ، وتردَّى في أُهويةٍ"[2].

العُدولُ مِنَ الاسْتفهامِ بالهمزةِ إلى الاسْتفهامِ بـ ﴿هَلۡ﴾:

عَدَلَ عنِ الاستفهام بالهمزة إلى الاستفهام بـ ﴿هَلۡ﴾ لإفادةِ تحقيقِ نفْيِ المُساواةِ

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/212.

(2) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 66 - 67.

إنكارُ وُقوعِ الاستواءِ بينَ المتُضادَّين

بين الأعمى والبصير[1]، فضلًا عن إنكارِ وقوعِ الاستواءِ بينَ المُتضادّين، فالاستفهامُ بـ ﴿هَلۡ﴾ يفيدُ إنكارَ وقوعِ الشّيءِ، فضلًا عنِ النّفي[2].

عِلّةُ إظْهارِ حرف ﴿هَلۡ﴾ بعدَ ﴿أَمۡ﴾:

إظْهارُ (هل) بعدَ (أم) يُفيدُ تَحْقيقَ الاسْتِفهامِ

العلّةُ في إظهار حرفِ الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ بعدَ ﴿أَمۡ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾؛ هي "إفادةُ تحقيقِ الاستفهام، وذلك ليسَ ممّا تُغني فيهِ دلالةُ (أم) على أصل الاستفهام، ولذلك لا تَظهَرُ الهمزةُ بعدَ (أم) اكتِفاءً بدلالة (أم) على تقديرِ استفهامٍ"[3].

سِرُّ جمْعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طَريقُ الحقِّ واحدٌ، وسُبُلُ الضّلالِ مُتشعِّبةٌ

جمعَ الظّلماتِ لتعدُّدِ طرُقِ الشّكِّ وكثرةِ مَداخلِه، وأفردَ النّورَ لاتّحادِ طرقِ الإيمان[4]؛ إذ إنّ الإيمانَ مُنحصِرٌ في اتّباع الصّراطِ المُستقيم، الّذي بلغَهُ الرّسولُ الكريمُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: 52 - 53].

نُكتةُ تقْديمِ الظّلماتِ على النّورِ:

تَقْديمُ ذِكْرِ الأدنى على الأعلى في نفْيِ التّسْويّةِ بينَهما

نُكتةُ تقديمِ الظّلماتِ على النّورِ يُشبهُ سرَّ تقديمِ الأعمَى على البصيرِ؛ إذِ المقصودُ هنا أيضًا يُشبهُ المقصودَ هناك، وهو نفيُ التّسْويةِ بينَهما[5]، وليجاورَ كلٌّ بما يُناسبُهُ، فيُقدِّمُ ما يُقابلُ الأوّلَ، ويُؤخِّرُ ما يُقابلُ الآخِرَ.

بَلاغةُ الطِّباقِ بين الأضْدادِ في السّياقِ:

اسْتِعْمالُ الطِّباقِ لِتَبْشيعِ صورةِ الكُفرِ في عددٍ منَ الأضْدادِ

في هذه المُتقابِلات بالتّضادِّ (النّفعِ والضُّرِّ)، و(العمى والإبصارِ)، و(الظّلماتِ والنّورِ) طباقُ الإيجاب، وهدفُهُ: إبرازُ الفرقِ بينَ كلِّ واحدٍ

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/154.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/436، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/360.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/154.

منها وما يُضادُّه، ونفيُ التّسْويةِ بينَهما، تحذيرًا وتنفيرًا من سيِّئِها، وترغيبًا وتحفيزًا للنّهوضِ بطيِّبِها.

تَوْجيهُ الاسْتِفهامِ في جملةِ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ﴾:

(الخَلْقُ) أولَى عِللِ الرُّبوبيّةِ، ولا يَسْتوي مَن خَلَقَ ومَن لم يَخْلُقْ

﴿أَمۡ﴾ هنا مُنقطِعةٌ؛ أي: بمعنى: (بل) الّتي للإضراب، والإضرابُ هنا انتقاليٌّ؛ إذِ انتقلَ من غرض نفْيِ التّسْويةِ بين كُلٍّ منَ الأعمى والبصير، والظّلماتِ والنّورِ، إلى غرضٍ آخرَ، وهو الإنكارُ عليهم؛ حيثُ جعلوا للّه شركاءَ ليسَت لديهم أولَى عِللِ الرُّبوبيّة وهي الخَلْقُ، كما دلَّ عليه قولُه سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1].

وهناك همزةٌ مُقدَّرةٌ مفيدةٌ للاستفهام الإنكاريِّ التّهكُّميِّ التّوبيخيِّ دلَّت عليها ﴿أَمۡ﴾؛ أي: بل أجَعَلوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾؟ والإنكارُ هنا للواقع[1] إنْ كانَ مُتَّجِهًا إلى جعلِهم للّه شركاءَ، أو هو للوقوعِ إنْ كانَ مُتَّجِهًا إلى قوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾؛ لأنّهم لم يجعلوا للّه تعالى شركاءَ خَلقوا كخلقِه[2].

فنُّ التَّهكُّمِ في جملةِ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾:

الالْتِفاتُ عنهم تهكُّمٌ بهم، وازْدِراءٌ لحالِهم

في توجيه هذا الاستفهامِ إليهم بأسلوبِ الالتفاتِ عن خطابِهم إلى الغَيبةِ مُعرِضًا عنهم، وكأنّهم غيرُ موجودين، ما يدلُّ على التَّهكُّم بهم، وتوبيخِهِم[3]، وإهمالِ شأنِهم؛ وهُم أهلٌ لذلك؛ لأنّهم أوّلًا: جعلوا للّه شركاءَ. ثانيًا: وليتهم إذ جعلوا له شركاءَ كان لشركائِهم منَ الصّفاتِ ما يبعثُ على إشكال الأمرِ عليهم واشتباهِه، فيكونُ لهم عذرٌ في عبادتِهم، لكنْ أنَّى لهُمُ العُذرُ في عبادتِهم، وما عبدوا إلّا أصنامًا لا حراكَ فيها، ولا تملِكُ لنفسِها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3922.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/13.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/371.

نفعًا ولا ضرًّا، فأينَ هي منَ الإلهِ الّذي خلقَهُم؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النّحل: 17].

سِرُّ تَقْديمِ الاسْمِ الأعْظَمِ، والتّصْريحِ به:

جَعْلُ الشّركاءِ مَحلَّ الإنكارِ تأكيدٌ لوَحدانيّةِ الله وإقرارٌ

قدَّمَ الاسمَ الجليلَ (اللّه) فقالَ: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، ولم يقُلْ: (أم جعلوا شركاءَ للّه)؛ لأنّ جَعْلَ الشّركاءِ له سبحانَه هو مَحلُّ الإنكارِ[1]، وفيه إظهارٌ لِعِظَمِ ما اقترفوه من إثم؛ إذِ استهانوا بمَن له الصّفاتُ العُلى، خالِقُ الكونِ، وما فيهِ ومَن فيه جلَّ تعالى عمّا يَصفون.

عِلّةُ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿شُرَكَآءَ﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

التّحْقيرُ بالتّنْكيرِ مِن أساليبِ التّوبيخِ والنّكيرِ

نكَّرَ ﴿شُرَكَآءَ﴾ فقالَ: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، ولم يقُلْ: (الشُّرَكاء) تحقيرًا لهم، وتقليلًا من شأنِهم؛ فهُم أحقرُ وأقلُّ مِن أن يُعرَّفوا، مع أنّ مِن أغراض التّعريفِ أحيانًا الذّمَّ والتّحقيرَ، لكنّه حين يُنالُ بالتّنكير، فهو أقوى كما لا يَخفَى.

بَديعُ تَرتيبِ الاسْتِفهاماتِ، والحِكْمةُ فيه:

اللهُ ربُّ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شريكٍ مُتَّخذٍ، فهو باطلٌ وغيٌّ

اشتملَت هذه الآيةُ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ على خمسةِ اسْتِفهاماتٍ، وهي مُترابطةٌ مُتراتِبةٌ؛ فالاسْتِفهامُ الأوّلُ منها تقريريٌّ، غرَضُه تقريرُهُم بأنّ ربَّ السّماوات والأرض هو اللّه، وما بعدَه مِن استفهاماتٍ هي للإنكار، بعضُها لإنكار الوقوعِ، وبعضُها لإنكار الواقعِ[2]، وفيها أيضًا إقامةُ الدّليل على إبطال اتّخاذِ شُركاءَ للّه، وتدعيمِ أنَّه لا إلهَ سِواه. وبهذا التّرابُطِ تظهرُ خاصيّةُ التّماسُكِ النّصّي بين هذه الجُملِ الاستفهاميّةِ، فهي

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/155.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/152.

على تعدُّدِها، وتنوُّعِ أغراضِها خادِمةٌ للاسْتِفهامِ الأوّلِ المُقرِّرِ أنّ ربَّ كلِّ شيءٍ هو اللّه وحدَه دونَ سواه.

لا يَتَشابَهُ خلْقُ اللهِ مع غيرِه، إلّا على المُشرِكين المُذبذَبين

دَلالةُ الفاءِ في قولِه تعالى ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ عاطفةٌ، عطفَت جملةَ ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ على جملةِ: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾، وكلتاهُما صِفتان لـ ﴿شُرَكَآءَ﴾[1]، وتحتملُ الفاءُ أن تكونَ للسّببيّة؛ أي: تشابَهَ الخَلْقُ بسَبَبِ ذلك[2].

قِمّةُ التّشابُهِ حُصولُ المُشاكَلةِ بينَ المُتشابِهين حدَّ الالْتِباسِ

التّعبيرُ بالفعْلِ ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ ماضيًا بصيغةِ (التَّفاعل):

تدلُّ صيغةُ التّفاعُلِ على التّشارُكِ في الفعل؛ يعني أن يُسهِمَ كلُّ واحدٍ منَ الطّرفَين بنسبةٍ في الفعل، تأمّلْ هذا في قولِك: تشارَكَ فلانٌ وفلانٌ، أو قولِك: تقاتَلَ فلانٌ وفلانٌ. وعليه فقد دلَّت صيغةُ ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ على شِدّةِ المُشاكَلَةِ بين الطّرفَين بما يَلتَبِسُ حتّى لا يَفصِلَ فيه بينَ أحدِ الشّيئين والآخر[3].

إيثارُ لفْظِ الخَلْقِ في السّياقِ الحكيم:

مَعبودٌ مَخلوقٌ، يَفنَى ويزولُ، فأين العقولُ؟

وآثَرَ هنا التّعبيرَ بلفظ الخَلْق، لِلَفْتِ نظرِهم إلى كونِهم يَعبدونَ آلهةً مَخلوقةً، لا خالقةً، فماذا فيها من مُقوِّماتِ الرُّبوبيّة والألوهيّة، وهي مَخلوقةٌ؟

سِرُّ تكرارِ لفظِ الخَلقِ بمُشتقّاتِه:

الشّيءُ إذا تكرَّرَ تقرَّرَ

كرَّرَ لفظَ الخلقَ باشتقاقاتٍ مُتعدِّدة؛ ليؤكِّدَ دليلَ الخالقيّة، وأهمّيّتَه في إثباتِ صحّةِ الرُّبوبيّةِ، فمَن ليس خالقًا، هو قطعًا ليس ربًّا، فإذا أُضيفَ إلى ذلك كونُه مَخلوقًا، لم يبقَ له من حظِّ الرّبوبيّة شيءٌ.

وتوسُّلًا لتقرير هذا حرصَ القرآنُ على أن يَقرعَ هذا اللّفظُ مَسامِعَهم بصيغٍ شتّى واشتقاقاتٍ مختلفةٍ، ليتقرَّرَ مرادُهُ في لحظ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/115.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/484.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/314.

دليلِ الخَلقِ كمُقوِّمٍ أساسيٍّ في صحّة الرُّبوبيّةِ، والشّيءُ إذا تكرَّرَ تقرَّرَ، كما يُقال.

بَلاغةُ التّشبيه في ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾:

دَلالـةُ التّشبيه عـلى المُبـالـغـةِ في إثبـاتِ عجْزِ آلهتِهِم

إذا كان التّشبيهُ أحدَ الوسائلِ البلاغيّةِ في التّصوير والتّقريبِ؛ فإنّه قد استُعمِلَ هنا مُبالغةً في إثباتِ العَجزِ لآلهتِهِم على سبيل الاسْتدراجِ، وإرخاءِ العِنانِ، حيثُ أنكرَ عليهم أوّلًا اتّخاذَهُم من دونِه شركاءَ، ووَصفَها بأنّها لا تملِكُ لأنفسِها نفعًا ولا ضَرًّا، ثمّ أنكرَ عليهِم ثانيًا على سبيل التَّدرُّجِ وصْفَ الخَلقِ أيضًا[1].

دَلالةُ شِبْه الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ في السّياقِ:

ما كانَ للشّركاء خَـلـقٌ كـخَـلـقِ الـلّـه تـعـالى، حـتّـى يَـلـتـبـسَ الأمرُ عليهم في عبادتهم

للتّعبيرِ بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دورٌ مُتمِّمٌ لِما قامَت به جملةُ التّشبيهِ السّابقةِ، ثمّ التّعبيرِ بصيغة ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾، حيث تعاضدَت ثلاثتُها على تصوير شِدّةِ التّشابُه بينَ خلْقِ الشّركاءِ - لو كان - وخلقِ اللّه، تصويرًا بليغًا؛ بدا معه كأنّ شدّةَ المُشاكَلة بينَهما قد بلغَت حدًّا لم يَدَعْ لهُم من سبيلٍ في وجوبِ التَّعلُّقِ بشركائِهم والوثوقِ بهم، وكأنّها - لقوّتِها - واقعٌ قد فُرِضَ عليهم فرضًا، بما يوجِبُ لهُم العذرَ فيما فعلوا. ويُساعدُ هذا المعنى ما ذكرَهُ القونويُّ من تضمُّنِ ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ معنى الاشتباه؛ تعليلًا منه لتعدّيهِ بالحرف (على)؛ أي: يَشتبهُ الأمرُ عليهِم حدَّ الالتباس، "فيَظنّون أنّهُم مِثلُه تعالى في استحقاقِ العبادةِ، لكونِهم مِثلَهُ في الخالقيّة"[2].

تَوْجيهُ جملةِ الأمرِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

إفْحامُ المُشركين بـتـقـريـرِ كـوْنِ الـخـالـقيّةِ لله وحدَه

قولهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أمرٌ موجَّهٌ للرّسول ﷺ، بأنْ يقولَه للمُشركين الّذين لن يملكوا معه سوى التّسليمِ؛ إذ ليسَ في إمكانهم ادّعاءُ أنّ آلهتَهم تَخلقُ شيئًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/122.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/485.

دَلالةُ قولِهِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على القَصْرِ:

قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، يفيدُ حصْرَ خلْقِ كلِّ المَوجوداتِ باللّه تعالى، فلا خالقَ غيرُهُ، والقصرُ هنا مُستفادٌ من تقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾، مُعرَّفًا بالألف واللّام[1].

لا خالِقَ إلّا الله، وكلُّ مَخلوقٍ هو دليلٌ على بديع ما سَوّاهُ

بَلاغةُ الفَذْلَكةِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

جملةُ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فذلكةٌ لِما تقدَّمَ ونتيجةٌ له، فإنّه لمّا جاء الاستفهامُ التّوبيخيُّ في ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وفي ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾، كان بحيث يَنتُجُ أنّ أولئك الّذين اتّخذوهُم شركاءَ لله، والّذين تَبيَّنَ قُصورُهم عن أن يَملِكوا لأنفُسِهم نَفعًا أو ضَرًّا، وأنّهُم لا يَخلُقونَ كخلقِ اللهِ إنْ هُم إلّا مَخلوقاتٌ لله تعالى، وأنّ اللّه خالِقُ كلِّ شيءٍ، وما أولئكَ الأصنامُ إلّا أشياءُ داخِلةٌ في عُمومِ كلِّ شيءٍ، وأنّ اللّه هو المُتوحِّدُ بالخلْقِ[2].

أصْنامُهم شيءٌ ممّا خلقَ الله، فكيف تُعبَدُ من دونِه؟

تَكْرارُ إظْهارِ الاسْمِ الأعظَمِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إظهارُ الاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ وتَكرارُه مظهرٌ لتربيةِ المَهابةِ في قلوبِ المُخاطَبين؛ لعلَّهم أن يفيقوا من غيِّهم، ويثوبوا إلى رشدِهِم.

تَربيَةُ المَهابةِ والهَلَعِ في القلوبِ المُنكِرة، بذِكْرِ الاسْمِ الجَليلِ (الله)

إيثارُ اسْمِ الفاعلِ ﴿خَٰلِقُ﴾:

التّعبيرُ باسْمِ الفاعل هنا دالٌّ على ثبوت حُكمِ الخالقيّةِ لله، ودوامِها له جلّ في علاه؛ إذ إنّه ليسَ لأحدٍ سواهُ أن يَخلُقَ.

ليسَ لأحدٍ أن يَخلُقَ إلّا الله، خالقُ الوجود، ومُوجِدُ كلِّ مَوجود

دَلالةُ لفْظِ ﴿كُلِّ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دالّةٌ على العُموم، فما مِن شيءٍ إلّا هو مَخلوقٌ لله ﷻ، بما في ذلك هُم وآلهتُهُم.

سِرُّ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

تَنكيرُ ﴿شَيۡءٖ﴾ دالٌّ على أنّ كلَّ ما في الكون كَبُرَ أو صَغُرَ، هو من

خلْقُ الله تعالى، يشمَلُ عمومَ المَخلوقاتِ

(1) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/485.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/115.

كلُّ شيءٍ كَبُرَ أو صَغُرَ، فهو من خلْقِ الله تعالى

خلْقِ اللّه، بما في ذلك أصنامُهم، فما هي "إلّا أشياءُ داخِلةٌ في عُموم كلِّ شيءٍ"[1].

بَلاغةُ وصْلِ جملةِ الفاصِلةِ:

مُسَوِّغُ الوَصْلِ بين الجُملتَين، كونُهما مَقولَ القولِ

جملةُ الفاصلةِ وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على أنّه من جملة مَقولِ القولِ؛ والمعنى: أنّه ﷺ مأمورٌ بأن يقولَ لهُم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وأن يقولَ لهُم: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[2]، وهذا هو الأظهرُ.

بَلاغةُ القصْرِ في قوله ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾:

الـوَحْـدانـيّـةُ والقَهرُ صِفتان لِتَجلّيات عظَمةِ الله الخالِقِ

دلّ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ على قصر هاتين الصِّفتَين عليه، إذ هو وحدَه دونَ غيره المُتفرِّدُ بالوَحدانيّةِ والقهر، بحسبِ ما أفادَه تقديمُ الضّمير المُنفصِلِ ﴿وَهُوَ﴾ عليهما مع تعريفِهما، كما في قولِك: هو المُنطلِقُ[3].

إيثارُ اسْمَي ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ و﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ دونَ غيرِهما:

مَن لا مثلَ له، ومَن يقهَرُ ولا يُقهَرُ، هو الإلهُ الأجْدَرُ

أمّا اسمُ ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ فالغرَضُ منه دفعُ دعوَى التّشريكِ الّتي عملتِ الآيةُ باستفهاماتِها المُتعدّدةِ على إبطالِها؛ أي: هو الواحدُ الّذي ليسَ له مثيلٌ ولا شبيهٌ، فلا يُجانِسُهُ شيءٌ، وكلُّ ما سواهُ لا يَخلو عن مُجانسٍ يُماثِلُه، وأين رُتبةُ مَن يُماثِلُ من رُتبةِ مَن لا مثلَ له؟[4]، وأمّا اسمُ ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ فمُرادٌ منه بيانُ أنّهُم وآلهتَهم مَقهورون تحتَ قُدرةِ اللّه، فكيف يكونُ المَقهورُ إلهًا؟ كما أنّ فيه إشارةً إلى ما يُعرَفُ بـ "بُرهانِ التّمانُعِ فإنّ أربابَهُم مُتعَدِّدونَ، فلو كانَت لهم حياةٌ، وكانوا مُتَصرِّفينَ في المُلكِ لأَمكنَ بينَهم تَمانُعٌ، وكانَ كُلٌّ منهُم مُعرضًا لأنْ يكونَ مَقهورًا، فكيفَ وهُم جَمادٌ! فَثَبتَ قطعًا أنّه لا شيءَ منهُم يَصلُحُ للإلهيّةِ على تقديرٍ مِنَ التّقاديرِ"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/116.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/372.
(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/485.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/314.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/314.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرّعد: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانَت سورةُ الرّعد قد ركّزَت منذ بدايتِها على مَقصدِ التّوحيد، ونبْذِ الشّركِ، وساقَت على ذلك الدّليلَ يَتلوه الدّليلُ، والمثالَ يتبعُه المثالُ، وخاطبَتِ المُشركين بالتّقريعِ والتّهكُّمِ والإنكارِ، وحاكمَتْهم إلى البَديهيّات، ووجَّهَت إليهم الاستفهاماتِ مُتعدّدةَ الأغراض، تصريفًا وتفنُّنًا، وتلوُّنًا في الخطاب، لعلّهُم أن يثوبوا إلى رُشدِهم، ويَعودوا إلى صوابِهم، لمّا تمَّ ذلك فيما مَضى، ولمّا كان ذلك كُلُّه لم يُؤثِرْ شيئًا على أهل الباطلِ، فلم يُراجعوا أنفسَهم، ولم يُلبّوا نداءَ الفطرةِ فيهم، فقسَت قلوبُهُم، وانطمسَت عقولُهم، عادَتِ الآياتُ إلى ضرب الأمثالِ، فعسى أن يكونَ في إعادة ضَرْبِها عِظةٌ لمُتَّعِظٍ، وعِبرَةٌ لمُعتبرٍ، فساقَت هنا مَثلَين للحقّ النّافعِ، والباطلِ الزّاهقِ، فقال سُبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ ... إلي آخر الآية.

عَـوْدٌ إلى ضَـرْبِ الأمـثـالِ؛ للاعْـتِـبـارِ والاتّـعـاظِ، بما يَنفعُ ويَبْقَى

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَالَتۡ﴾: أصلُ السَّيْلِ يدُلُّ على جَرَيانٍ وامتِدادٍ[1]، والسَّيلُ اسْمٌ لا مَصدَرٌ، وجَمعُهُ سُيولٌ يُقالُ: سالَ الشَّيءُ سَيلاً وسَيَلانًا جَرَى. وهو الماءُ الكَثيرُ السّائلُ[2] ويُطلَقُ السّيلُ على المَوضِعِ الّذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سيل).
(2) ابن سيده، المُحكم: (سيل)، والرّاغب، المفردات: (سال).

تَجتَمِعُ فيه مياهُ الأوديةِ ونَحوها، ثمّ تَجري منه لِتَنتَقِلَ إلى مكانٍ أخفَضَ مِنه. والمُرادُ بالسَّيل في الآية: جَريانُ الماءِ في الأودية[1].

2) ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾: أصلُ الوادي: المَوضِعُ الَّذي يَسيلُ فيه الماءُ، وأودِيةٌ: جمعُ وادٍ، وسُمّي واديًا لخروجِه وسَيلانِه، والوادي كلُّ مَفرَجٍ بين جبالٍ وآكام، وتلالٍ يكونُ مَسلَكًا للسَّيل أو مَنفذًا[2]. والمُرادُ بـ (الأودِيَة) في الآية: الحَفيرُ المُتَّسِعُ المُمتَدُّ مِنَ الأرضِ الَّذي يَجري فيهِ السَّيلُ[3].

3) ﴿بِقَدَرِهَا﴾: أصلُ (قدر) يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبلَغُ الشَّيءِ ونِهايَتُهُ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا؛ أي: نِهايَتُهُ. ويأتي بمعنى التَّقدير، وهو: بيانُ كَمّيةِ الشَّيءِ، يُقالُ: قَدَرَ الشَّيءَ بالشَّيءِ، يَقدُرُه، قَدرًا، وقَدَّرَه؛ أي: قاسَهُ وبَيَّنَ مِقدارَهُ[4]. والمُرادُ ﴿بِقَدَرِهَا﴾ في الآية: بملئِها ما أطاقَتْ[5].

4) ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾: أصلُ كلمةِ الاحتِمالِ مِنَ الحَملِ، وهو: الرَّفعُ، يُقالُ: حَمَلَ الشَّيءَ على ظَهرِ الدّابَّةِ يَحمِلُهُ حَمْلًا وحُمْلانًا[6]؛ أي: رَفَعَهُ ووَضَعَهُ عليه، فهو مَحمولٌ وحَميلٌ[7]، والحَملُ: ما كانَ على ظَهرٍ أو رَأسٍ، ويأتي الاحتِمالُ والتَّحَمُّلُ بمعنى التِزامِ الشَّيءِ والتَّكَفُّلِ بِهِ، تَقولُ: احتَمَلَ عنه الدَّينَ وتَحَمَّلَهُ إذا التَزَمَ به وضَمِنَهُ[8]. والمقصودُ بالاحتمالِ في الآية: الرَّفعُ؛ أي: رفعَه على وجهِ الماءِ[9].

5) ﴿زَبَدٗا﴾: أصلُ (زبد): يدلُّ على تولُّدِ شيءٍ عن شيءٍ[10]، مِن ذلك: زَبَدُ الماءِ: ما يَطفو عليه مِن تَراكُمِ أمواجِهِ، وقَد أزبَدَ الماءُ يُزبِدُ؛ أي: صارَ ذا زبدٍ[11]. والزَّبَدُ أيضًا: لعابٌ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3923.
(2) الخليل، العين: (ودي)، والرّاغب، المفردات: (وادي)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ودي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/118.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قدر).
(5) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 406.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمل).
(7) ابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حمل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(9) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/18.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبد).
(11) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (زبد).

أبيض على مِشفرِ الجَمَلِ[1]، والزُّبدُ اشتُقَّ منه لمشابَهَتِه إيّاهُ في اللَّونِ[2]. ومنَ البابِ الزَّبدُ، وهو العَطيةُ. يُقالُ زَبدتُ الرَّجُلَ زَبدًا: أعطَيتُهُ[3]. والمُرادُ بالزَّبَدِ في الآية: هو الغثاءُ الَّذي يَعلو على وجه الماءِ[4].

6) ﴿رَّابِيًا﴾: أصلُ (ربو): يدلُّ على الزّيادةِ والنَّماءِ والعُلوِّ، تَقولُ مِن ذلك: رَبا الشَّيءُ يَربو، إذا زادَ، ومِنه أَخذَ الرِّبا الحَرامِ[5]، والرّابيةُ: ما ارتفعَ منَ الأرضِ[6]، ورَبا الرّابيَةَ يَربوها، إذا عَلاها[7]. والمقصودُ بقوله ﴿رَّابِيًا﴾ في الآية: عاليًا عليه، مُرتَفِعًا فوقَه[8].

7) ﴿يُوقِدُونَ﴾: أصلُ (وقد): يدُلُّ على اشتِعالِ نارٍ. وقَدَتِ النّارُ تَقِدُ واتَّقَدَتْ وتَوَقَّدَتْ، وأوقَدتُها أنا[9]. والوَقودُ يُقالُ للحَطَبِ المجعولِ للوُقودِ[10]، وهو أيضًا: ما تَرى مِن لَهَبِها لأنّه اسمٌ، والوُقودُ المَصدَرُ[11]. والوُقودُ: فِعلُ النّارِ إذا وقَدَتْ. والوَقْدُ: نَفسُ النّارِ. ووَقدَةُ الصَّيفِ: أشَدُّهُ حَرًّا[12]. والمقصودُ بقوله ﴿يُوقِدُونَ﴾ في الآية: يُشعِلون النّارَ.

8) ﴿حِلۡيَةٍ﴾: (حلو) ثلاثة أصول، الثالث منها: الحَلْيُ: يدُلُّ على تحسينِ الشَّيءِ[13]. وهو كلُّ حِليَةٍ حلَّيتَ بِهِ امرأةً أو سَيفًا أو نحوَه مِن مَصوغِ المعدنيّات أوِ الحِجارَة. والجميعُ حُلي[14]. وحِليَةُ الشَّيءِ صِفَتُهُ[15]. والمُرادُ بـ ﴿حِلۡيَةٍ﴾ في الآية: ما يُتحَلَّى به ويُتَزيَّنُ.

9) ﴿مَتَٰعٍ﴾: أصلُ المَتعِ: الامتدادُ والارتفاعُ[16]، يُقالُ: جبلٌ ماتِعٌ: طويلٌ شاهِقٌ. وقد مَتَعَ النَّهارُ مُتوعًا: ارتفعَ وبلغَ غايةَ ارتفاعِه قبلَ الزَّوالِ. والمتوعُ هو امتدادُ الشَّيء مع قوَّتِه

(1) الخليل، العين: (زبد).
(2) الرّاغب، المفردات: (زبد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبد).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/464.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ربو).
(6) الخليل، العين: (ربو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربي).
(8) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وقد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وقد).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (وقد).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلو).
(14) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حلي).
(15) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حلو - حلي).
(16) الرّاغب، المفردات: (متع).

وكمالِ حالهِ: كتلك الموصوفات حيث يُلحَظُ فيها الامتدادُ طولًا أو بقاءً مع جَودةٍ وكمالِ حالٍ؛ ولذا استُعملَ في ما يبلُغُ به الشَّيءُ ذلك من قوَّةٍ باطنةٍ وزادٍ وأسبابهما[1]. والمَتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حوائجه، مِن ذلكَ المَسكوكُ الَّذي يَتعامَلُ به النّاسُ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ[2]. والمقصودُ بـ ﴿مَتَٰعٍ﴾ في الآية: ما يُتَمَتَّعُ به ويُنتَفَعُ مِنَ المعادن الثَّمينةِ والأواني ونحوِها ممّا يُصنَعُ مِنَ الذّهب والفضّة للمُترَفين.

10) ﴿يَضۡرِبُ﴾: أصلُ الضَّرب: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ وإصابَتُهُ بِه، يُقالُ: ضَرَبَهُ بالعصا، يَضرِبُهُ، ضَربًا؛ أي: أوقَعَها عليه[3]. والضَّربُ الصِّنفُ مِنَ الأشياء؛ يُقالُ: هذا مِن ضَربِ ذاك؛ أي: مِن نَحوِه، وجمعُه ضروبٌ[4]، وضَربُ الأمثالِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وتَمثيلُه بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَ اللهُ مثلًا؛ أي: وصَفَ وبَيَّنَ، قيلَ مأخوذٌ: من ضَربِ الدِّرهَم؛ أي: صَوغُه لإيقاعِ المَطارِقِ، سُمّي بِهِ لتَأثيره في النُّفوس. وقيلَ: إنَّه مأخوذٌ مِنَ الضَّريبِ؛ أي: المَثيلِ. تَقولُ: هو ضَريبُه، وهُما من ضَريبٍ واحِدٍ؛ لأنَّه يَجعَلُ الأوَّلَ مِثلَ الثّاني[5]. والمُرادُ بقوله ﴿يَضۡرِبُ﴾ في الآية: يُبَيِّنُ ويُمَثِّلُ[6].

11) ﴿جُفَآءٗ﴾: أصلُ الجَفاءِ: ابتِعادُ الشَّيءِ عَنِ الشَّيءِ، يُقالُ: جَفا الشَّيءُ يَجفو جَفًا وتَجافٍ؛ أي: ابتَعَدَ، وكُلُّ شَيءٍ إذا لَم يَلزَم شَيئًا فهو جافٍ عَنهُ[7]، والتَّجافي والمُجافاةُ: التَّباعُدُ والإبعادُ، والجَفوَةُ: البُعدُ بينَ الشَّيئَين[8]، والجُفاءُ ما نَفاهُ السَّيلُ وأبعَدَهُ[9]، ويُقال: أجفَأتِ القِدرُ بزَبدِها: إذا ألْقَت زَبَدَها عنها، ومنهُ اشتقاقُ الجَفاءِ[10]، وضِدُّ الجَفاءِ: القُربُ والاتِّصالُ واللُّزومُ[11]. والجَفاءُ: الغِلظَةُ، يُقالُ: جَفا الثَّوبُ يَجفو إذا غَلُظَ[12]، والجافي: غَليظ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(2) الخليل، العين: (متع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جفو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جفو).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جفو).
(10) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 227.
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جفو).
(12) ابن الأثير، جامع الأصول: 10/64.

الطَّبعِ، ويأتي الجَفاءُ بمعنى: الإعراض، جَفوتُ الرَّجُلَ إذا أعرَضتُ عنه[1]. والمقصودُ بالجُفاء في الآية: الطَّريحُ المَرمي[2].

12) ﴿فَيَمْكُثُ﴾: أصلُ المُكثِ يدُلُّ على تَوَقُّفٍ وانتِظارٍ وتلبُّثٍ في المكانِ[3]، يُقال: رَجُلٌ مَكيثٌ قد مَكُثَ مَكاثَةً: وهو الرَّزينُ الّذي لا يَعجَلُ في أمرِه[4]. والماكِثُ: المُنتظِرُ[5]. والمقصودُ بالمكث في الآية: الاستقرارُ في المكان.

المَعنى الإجماليّ:

فَضْلُ الله تعالى دائمٌ، مُستمرٌّ، مُثبِتٌ لرُبوبيّتِه الكاملةِ

ضربَ اللّه سُبحانَه مثَلًا للحَقِّ والباطلِ بماءٍ أنزَلَه منَ السَّماء، فجَرَت به أوديةُ الأرضِ بقدرِ صِغَرِها وكِبَرِها، فحمَلَ السَّيلُ غُثاءً طافيًا فوقَه لا نفْعَ فيه، وضربَ مَثَلًا آخرَ: هو المعادِنُ يوقِدونَ عليها النّارَ لِصَهرِها؛ طلَبًا للزّينةِ - كما في الذَّهَبِ والفِضَّةِ - أو طلَبًا لمنافعَ يَنتفِعونَ بها - كما في النُّحاسِ - فيخرجُ مِنها خَبَثُها ممّا لا فائدةَ فيه، كالّذي كان مع الماءِ، بمِثلِ هذا يضرِبُ اللّه المَثَلَ للحقِّ والباطلِ؛ فالباطِلُ - كغُثاءِ الماءِ والمعادِنِ - يتلاشَى أو يُرمَى؛ إذ لا فائدةَ منه، والحقُّ - كالماءِ الصّافي والمعادِنِ النَّقيَّةِ - يبقَى في الأرضِ للانتفاعِ به، كما بيَّنَ لكم هذه الأمثالَ، كذلك يضرِبُها للنّاسِ؛ ليتَّضِحَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهُدَى منَ الضَّلالِ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الفصْلِ بالاسْتِئنافِ الابتدائِّي:

تَسْجيلُ حِرمانِ المُشركين، منَ الانتفاعِ بالأدلّةِ الهاديةِ

قولُه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ كلامٌ جديدٌ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مَسوقٌ لضربِ مثَلٍ جديدٍ للحقِّ والباطلِ، وفائدتُه "تسجيلُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (جفا).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (مكث).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكث).
(5) الخليل، العين: (مكث).
(6) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 251.

حِرمانِ المُشركين منَ الانتفاعِ بدلائلِ الاهتِداءِ الّتي مِن شأنِها أن تَهدي مَن لم يَطبَعِ اللّه على قلبِه، فاهتدَى بها المُؤمنونَ"[1].

التّعْبيرُ عنِ الإنزالِ بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

التّمثيلُ بما هو مُحقَّقٌ، أوْقَعُ في القلوبِ، وأبلَغُ في إظْهارِ الغُيوبِ

عبَّرَ عنِ الإنزال بالماضي في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لِتَحقُّقِ وقوعِ ما جرى به المَثَلُ؛ فإنزالُ الماءِ منَ السّماء مُشاهَدٌ مَلموسٌ من جميع المُخاطَبين، و"التّمثيلُ بما هو كائنٌ مُحقَّقٌ أوقعُ في القلوب، وأبْلَغُ في إظْهار الحقِّ والغُيوب"[2].

إضْمارُ فاعلِ الإنزالِ (جلَّ في علاه):

الإضمارُ طلبًا للإيجازِ، مُفيدٌ في الإبانةِ عنِ المُرادِ

أضمرَ فاعلَ ﴿أَنزَلَ﴾ فلم يقُلْ: (أَنْزَلَ اللّه)؛ لكونِه مَعلومًا، واقتضاءُ غرَضِ الإيجازِ ألّا يذكُرَ ما يُمكِنُ الاستغناءُ عن ذكرِه.

معنَى ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماءُ مُبتدأُ إنزالِ الماءِ، ومَنْبعُ العطاءِ العُلويِّ الأوْفَى

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغايةِ؛ فبدايةُ إنزال الماءِ إنّما يكونُ منَ السّحاب الّذي في السّماء. وفي لفظ ﴿مِنَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ حرفيّةٌ؛ لأنّ مباديَ الماء لمّا كانَت مِنَ السَّماءِ جعل نفسَهُ مِنَ السَّماءِ[3].

بَلاغةُ الإطْنابِ في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

مِن عاداتِ القُرآنِ في التّمثيلِ التّصْريحُ بإنزالِ الماءِ منَ السّماءِ

عادةُ القرآن الكريم عندَ الإخبارِ أوِ التّمثيلِ بإنزال الماءِ؛ فإنّه يصرِّحُ بكوْنِه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، مع أنّ التّعبيرَ بـ ﴿أَنزَلَ﴾ وحدَها كافٍ في الدّلالة على كوْنِه منَ السّماءِ، والّذي يظهرُ أنّ مَرجِعَ ذلك إلى الآتي:

أوّلًا: التّنبيهُ ولَفْتُ الأنظار إلى هذه النّعمةِ الّتي بها قِوامُ حياةِ النّاس، وهي نعمةُ إنزالِ الماء منَ السّماء، فتحيا به الأرضُ الميّتةُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/116.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/485.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي عناية القاضي: 5/231.

فيحيا النّاسُ بحياتِها، ولا جَرَمَ فقد سمَّى اللّه تعالى إنزالَه رِزقًا في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾ [غافر: 13].

ثانيًا: الآيةُ واردةٌ في التّسجيل على المُشركين، والنّعْي عليهم عدمَ إيمانِهم وعدمَ انتفاعِهم بالأدلّة المُعينةِ على الاهتداءِ إلى اللّه، ففي تذكيرِهم بهذه النّعمةِ الّتي لا يجهلونَ قدرَها؛ لحاجتِهم إليها دومًا - حيثُ لم تكنْ عندَهم أنهارٌ - تذكيرٌ تصويريٌّ، وكأنّهُم وقتَ الخطابِ يَنظرون إلى السّماء يَنزلُ منها الماءُ، ربّما كانَ ذلك أدْعى إلى الاعتبار ومراجعةِ حالِهم.

ثالثًا: التّنبيهُ على ما تمرُّ به دورةُ تكوينِ المياه، فقد باتَت هذه الدّورةُ مَعروفةً من قِبَلِ مَن له صلةٌ بالعلم، حيث تتبخَّرُ مياهُ الأنهار والبحارِ، بفعْلِ حرارةِ الشّمسِ؛ لتتكثَّفَ في السّماء، فيتكوَّنَ السّحابُ الّذي يَنزلُ منه الماءُ. وقد أُشيرَ إليه قريبًا في قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرّعد: 12]؛ أي: الثِّقالَ بالماء الّذي يَنزلُ على الأرض مرّةً ثانيةً بقَدرِ اللّه، وهكذا دَوالَيك في دورةٍ مُتكرِّرة.

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

إيثارُ السَّماءِ على المُزْنِ، أوِ السّحابِ، أبلَغُ في الدّلالةِ

المرادُ بالسّماء هنا معناها العُرفيّ(1)؛ أي: الّذي كان يعرفُه العربُ، وهي القبّةُ الزّرقاءُ. وفي إيثار التّعبيرِ بها دونَ المُزنِ أوِ السّحابِ، مع أنّ الماءَ يتكوّنُ فيه؛ لكوْنِ السّحابِ موجودًا في السّماء، فهو جزءٌ منها، باعتبار أنّ السّماءَ كلُّ ما علا وارتفعَ، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه الكلّيّةُ أوِ الحاليّةُ. وغرضُهُ النّظرُ إلى السّماء نفسِها، لا باعتبار كونِها مَهبطَ الماءِ فقط؛ بل باعتبارِها مَهبِطَ الوحْي أيضًا. وقد يشيرُ إلى هذا الرّبط قولُه تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: 22].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/486.

تَقْديمُ شبْهِ جملةِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول ﴿مَآءً﴾:

السَّماءُ مَهبطُ النِّعمِ، غِذاءً للبدنِ، والقلبِ، والرّوحِ

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فلم يقُلْ: (ماءً مِنَ السَّماءِ)؛ اهتمامًا بالسّماء نفسِها، كما سلفَتِ الإشارةُ إليه، لا باعتبار كونِها مَهبطَ الماءِ فقط؛ بل باعتبارِها مَهبِطَ الوحْيِ أيضًا؛ والشّاهدُ أنّها هنا لم تَرِدْ في مَقامِ الإنعام، ولكن في سياق تعنيفِ المُشركين على شِرْكِهم، وعلى عدمِ اعتبارِهم بالأدلّةِ الواضحةِ على الإيمان، على مَحمَلِ: هلّا آمنتُم بغِذاءِ القلبِ والرّوحِ المُنزَلِ منَ السّماءِ، وهو القرآنُ، كما تنعّمتُم بغذاءِ البدنِ المُنزَلِ منها أيضًا، وهو الماءُ.

إيثارُ لفْظِ الماءِ على الغَيْث:

التَّعْبيرُ بالماءِ أعمُّ مِنَ التّعبيرِ بالغيثِ أوِ المطرِ

آثَرَ التّعبيرَ بـ (الماء) دونَ الغيثِ؛ لأنّ الغيثَ إنّما يُعبَّرُ به في مَقامِ الإنعامِ والرّحمةِ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشّورى: 28]، فعبَّرَ هنا بالماء باعتبارِ أنّه الاسمُ الأعمُّ الّذي يعمُّ ما كانَ رحمةً كالغيثِ، أو نقمةً وعذابًا كالتّعبيرِ بالمطرِ[2].

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ الماءِ في قوله ﴿مَآءً﴾:

الماءُ المُنزَلُ كثيرٌ، ولم يَنْضَبْ عَطاؤه منذُ فجرِ التّاريخِ

نكَّرَ الماءَ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للدّلالة على كثرتِه؛ لقولِه بعدها: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾، وكثرتُهُ دليلُ الدّوامِ.

وَجْهُ العطْفِ بحرفِ (الفاء):

بيانُ أنّه ما إنْ يَنْزِلِ المطرُ حتّى يسيلَ في الأوديةِ مُتَدَفّقًا

قولُه تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾، وفيه عبَّرَ بالفاء دلالةً على سُرعة الاستجابة، على معنى: أنّه بمُجرَّدِ نزولِ الماءِ، يتجمَّعُ بكثرةٍ في الأوديةِ على هيئةِ سَيْلٍ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195.

(2) صنّفَهُ ابن عاشور ضمن عادات القرآنِ، وقال: ما سمّى اللهُ مطرًا في القرآن إلّا عذابًا. يُنظر: التّحرير والتّنوير: 1/124.

تَوْجيهُ التّعبيرِ بلَفْظِ ﴿فَسَالَتْ﴾ في السّياقِ:

الماءُ المُنزَلُ كثيرٌ طاغٍ، وسَيَلانُه تدفُّقٌ للحياةِ، ونفعٌ للمَخلوقاتِ

في التّعبير بـ ﴿فَسَالَتْ﴾ دلالةٌ على كثرة الماءِ الّذي جرى فيها، فـ(سال) يُقالُ للماء إذا طَغَى وجَرَى. والسّيلُ هو الماءُ الكثيرُ الجاري[1].

دَلالةُ جمْعِ ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

بِتَجمُّعِ الماءِ في الأوديةِ، تَبْدو كأنّها أنهارٌ مُتدفِّقةٌ

دلَّ جمْعُ الأوديةِ - وهو جمعُ قِلّةٍ ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾ - على قلّتِها عددًا، وهو المُناسِبُ؛ لأنّ تجمُّعَ الماءِ الكثيرِ، يُناسبُه العددُ القليلُ منَ الأودية الّتي تجمَعُه، حتّى إنّه ليَبْدو بعدَ تجمُّعِه فيها كأنّها أنهارٌ، ولا يناسبُ هنا جمعُ الكثرةِ (وديان)؛ لأنّه سيُفهمُ منه تشتُّتُ الماءِ وتوزُّعُه لا تجمُّعُه، وهو خلافُ المَقصود.

سِرُّ تَنْكيرِ الأوديةِ في قوله ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾:

الأوديةُ يَسيلُ فيها الماءُ بالتّناوُبِ، فيتجمَّعُ السّيلُ إلى وادٍ هنا، ثمّ لآخرَ هناك

السّرُّ في تنكير ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾ هو الدّلالةُ على تناوُبِها؛ بمعنى: أنّ الماءَ يسيلُ فيها بالتّناوب[2]، ولا يسيلُ في جميعها مرّةً واحدةً، فهذا لا يحقِّقُ المقصودَ؛ إذِ المقصودُ هو التّعبيرُ عن كثرة الماءِ وقلَّةِ الأودية؛ ليناسبَ كثرتَه واجتماعَه. جاء في الكشّاف: "فإنْ قلت: لمَ نُكِّرَتِ الأوديةُ؟ قلتُ: لأنّ المطرَ لا يأتي إلّا على طريق المُناوبةِ بين البقاعِ، فيسيلُ بعضُ أودية الأرضِ دونَ بعض"[3]. ويُشعِرُ التّنكيرُ أيضًا باختلاف هذه الأودية، وتنوُّعِها حجمًا، وسَعةً، كما يدُلُّ قولُه تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾.

فائدةُ الحالِ في قولِه تعالى ﴿بِقَدَرِهَا﴾:

اسْتِقبالُ الوادي للماءِ وسَيَلانُه فيه، بحسبِ سَعتِهِ

أكثرُ العلماءِ[4] على أنّ ﴿بِقَدَرِهَا﴾ صفةٌ لـ ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾؛ لكونها نكرةً، فالجملةُ بعدَها صفةٌ. لكنْ نصَّ ابنُ عاشور على أنّ قولَه تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ هو في مَوضِع الحالِ من ﴿أَوْدِيَةُۢ﴾، وعلّلَ ذكرَهُ بأنّه من

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سيل).
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/231.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/523.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/38، والعكبريّ، التّبيان: 2/756.

مَواضِع العِبرَةِ، وهو أنْ كانَت أخاديدُ الأوديةِ على قدرِ ما تحتمِلُهُ منَ السّيولِ، بحيثُ لا تَفيضُ عليها، وهو غالِبُ أحوالِ الأوديةِ. وهذا الحالُ مَقصودٌ في التّمثيل؛ لأنّه حالٌ دالٌّ على انصراف الماءِ لنفعٍ لا ضُرَّ معَه؛ لأنّ منَ السّيولِ جَواحِفَ، تَجرُفُ الزّرعَ والبيوتَ والأنعامَ[1].

ومِن هنا فالتّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ له دلالتُه في التّركيب، وهو النّصُّ على اختلاف الأوديةِ طولًا وقِصَرًا، وضيقًا واتّساعًا، بحيث يأخذُ كلُّ واحدٍ منها قدرَ ما يحتمِلُهُ منَ السّيول، حتّى لا يزيدَ عليها الماءُ فيفيضَ، فيمكنَ أن يوقِعَ ضررًا بالبيوت وبالزّروع وبالأرواح أيضًا، كما هو مُشاهَدٌ مَعلومٌ؛ أي: أنّ كلَّ وادٍ يستقبلُ الماءَ، بحسب سَعتِه، ويحتمِلُهُ بملئِه؛ الكبيرُ بِكِبَرِه، والصّغيرُ بِصِغَرِه[2]، وبمقداره الّذي عرفَ اللّه أنّه نافِعٌ لِلمَمطورِ عليهم غيرُ ضارٍّ[3].

بَلاغةُ الاحْتِراسِ في قوله ﴿بِقَدَرِهَا﴾:

ذكــرُ لـفـظِ (بِقَدَرِها)، يَدْفعُ تَـوهُّـمَ زيـادةِ الـسَّـيـلِ، عن طاقةِ الأوديةِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ على الاحتراس[4]، وذلك أنّ ذكرَهُ يدفعُ توهُّمَ زيادةِ ماءِ السّيل عن طاقة احتمالِ الأوديةِ، فيكونُ دلالةً على المَضرَّة دونَ المَنفعةِ، فالسّيلُ عندما يزيدُ عن طاقة الوادي، فإنّه ينتشرُ ليجتاحَ كلَّ ما يقابلُه من بيوتٍ وزروعٍ ومَتاجرَ، وهو خلافُ المَقصودِ منَ المَثَل.

بَلاغةُ التّشْبيهِ التّمْثيلّي في السّياقِ:

الـصّـورةُ التّمثيليّةُ أدْعى للتَّفكُّرِ، وأبلَغُ في الرّدْعِ

لمّا كانَ المقصودُ في جملة ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ التّشبيه بالهَيئَةِ كلِّها، جيءَ في حكاية ما تَرتَّبَ على إنزال الماءِ بالعطف بفاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/118. ولأنّ صاحبَ الحال ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾ نكرةٌ، فالأرجحُ تقديرُ مُسوِّغ لأن يكونَ صاحبَ الحال، وتقديرُه: أوديةٌ كائنةٌ بِقَدرِها لتكونَ النّكرةُ مَخصوصةً بالوصف، وهو إذن مُسوِّغُها، أو أن يكونَ المُسوِّغُ هو تقديرَ مضافٍ، أي: فسالَت مياهُ أوديةٍ. وابنُ عاشور طوى السّببَ فلم يذكرْه.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/409.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/523.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/113.

التّفريعِ في قولِه: ﴿فَسَالَتۡ﴾ وقولِه: ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾، فهذا تَمثيلٌ صالِحٌ لِتجزئةِ التّشبيهاتِ الّتي تَركَّبَ منها، وهو أبلغُ التّمثيل(1). والتّمثيلُ إنْ "كانَ وعظًا كان أشفَى للصّدر، وأدْعَى إلى الفكرِ، وأبلغَ في التّنبيه والزّجر، وأجدرَ بأن يُجلّيَ الغيايةَ(2)، ويُبصّرَ الغايةَ، ويُبرِئَ العليلَ، ويَشفي الغليلَ"(3).

بَلاغةُ المَجازِ في قوله تعالى: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾:

الأوديةُ لا تَسيلُ، وإنّما يَسيلُ الماءُ الّذي فيها

يمكنُ حملُ قولِه تعالى: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ على المجازِ اللُّغويِّ في كلمة ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾، مُرادًا بها الماءُ، وعليه فالمَجازُ هنا مُرسَلٌ، علاقتُه المحلّيّةُ، حيثُ أطلقَ المَحلَّ وهو ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾، وقصدَ الماءَ الجاريَ فيها، أو يكونُ المجازُ هنا منظورًا فيه إلى الإسناد؛ أي: إسنادِ السّيلِ إلى الأودية، وعليه فالمَجازُ هنا عقليٌّ؛ لأنّ الأوديةَ لا تسيلُ، وإنّما يسيلُ الماءُ الّذي يكونُ فيها، وهو شبيهٌ بالتّعبير بجرْيِ الأنهارِ، فالأنهارُ لا تجري، وإنّما يجري الماءُ الّذي فوقَها. وهذا شرحُ ما لخصَّه الشّهابُ بقوله: "فإطلاقُه - أي: لفظ الأوديةِ - على الماء الجاري، إمّا مجازٌ لغويٌّ بإطلاق اسْمِ المَحلِّ على الحالِّ، أو عقليٌّ، والتَّجوُّزُ في الإسناد"(4).

سِرُّ إسْنادِ السَّيلانِ إلى الوادي دونَ الماء:

تَصويرُ أنّ الواديَ يَسيلُ فعلًا؛ لكثرة تَدفُّقِ الماءِ

الغرَضُ البيانيُّ منَ الإسناد في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ تصويرُ المَشهدِ للسّامعِ أوِ القارئِ بهيئةٍ تُشعِرُ على سبيل التّخيُّل، بأنَّ الواديَ يَسيلُ فعلاً لكثرة تدفُّقِ الماءِ وارتفاعِ نِسبتِه في جانبَيِ الوادي؛ فيُتوهَّمُ في لحظات الانبهارِ، أنّ الأوديةَ تجري أيضًا مع الماء(5).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/117.
(2) الغياية: كلُّ ما أظلَّك من فوق رأسِك كالسّحاب ونحوه.
(3) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 87.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/231.
(5) القمّاش، من لطائف ونكات البلاغة العربيّة، ص: 164.

ومن بديعِ هذا إضفاءُ السّيلان على الأودية، وهي لماء السّيولِ فيها، أنَّ الأوديةَ حينما تسيلُ فيها السّيولُ العارِمةُ، توقِعُ في خيال المُشاهِدِ المُندَهِشِ أنّ الأوديةَ والجبالَ أنفُسَها تسيلُ مع حركة المياهِ الجارفةِ فيها. وفي ذلك نقلٌ للأسماء أوِ الصِّفات من مَواضِعها الطّبيعيَّةِ وإضفاؤها على غيرها[1].

دَلالةُ حرفِ (الفاء) في السّياقِ الكريم:

اِحْتِمالُ السَّيْلِ للزّبدِ الرّابي، ظاهرةٌ طبيعيّةٌ مألوفةٌ

دلّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ على سرعة احتمالِ السّيلِ للزّبَد الرّابي؛ أي: الغُثاءُ المُنتَفخُ من عِظم رَغوتِه؛ فإنّه بمُجرَّدِ سيلانِ الأوديةِ بالماء، تحوَّلَ إلى غُثاءٍ عظيمِ الرَّغوة.

إيثارُ لفظِ ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾ (فعلًا ماضيًا):

الزَّبَدُ مُلازِمٌ للسَّيل، وهو مُتحقِّقُ الحصولِ

آثَرَ التّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾؛ ومعناه: حَمَلَ، جاءَ فيه افتَعَلَ بمعنى المُجرَّدِ كاقتَدَرَ وقَدَرَ[2]؛ للدّلالة على تحقُّق وقوعِه، فالزَّبَدُ عادةً ما يلازمُ السّيلَ؛ لأنّ اندفاعَ الماءِ يجمَعُه، ثمّ يذهبُ جُفاءً أو يَطفو فوقَ سطحِه مُنتفِخًا، ليبدِّدَهُ الهواءُ، أو أنّ التّعبيرَ بالماضي مع ترقُّبِ ما لم ينزِلْ منه، هو تغليبٌ للموجود على غير المَوجودِ، أو تنزيلٌ للمُنتظَرِ مَنزِلةَ الواقعِ[3].

وَجْهُ وُرودِ السّيلِ مَعرفةً لا نكرةً:

السّيلُ مَعرِفةٌ؛ لكونِه مفهومًا مِنَ الفعلِ قبْلَه، أو للعَهدِ الذِّكريِّ

أوردَ لفظَ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾ مَعرفةً لا نكرةً؛ لأنّه عنى به ما فُهِمَ منَ الفعلِ - ﴿فَسَالَتۡ﴾ - وهو لو ذُكِرَ لكان نكرةً، فلمّا أُعيدَ أُعيدَ بلفظِ التّعريفِ، نحوَ: رأيتُ رجلًا فأكرمتُ الرّجلَ[4]، أو أنّه عُرِّفَ لكونِه معهودًا؛ أي: عهدًا ذِكريًّا، في قوله: ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾ سواءٌ حملْنا اللّفظَ على مجازِه المُرسَلِ، بأنْ يكونَ المُرادُ به الماءَ، أو حملنا

(1) القمّاش، من لطائف ونكات البلاغة العربيّة، ص: 164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/373.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/373، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/276.

الإسنادَ على المجاز العقليِّ، فسنَفهَمُ أنّه الماءُ أيضًا، بقرينة نسبةِ السّيلانِ إليه[1].

سِرُّ العُدولِ عن جمعِ لَفْظِ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾:

يَنْدَفعُ السّيلُ مُتّصِلًا دفعةً واحدةً

وإنّما لم يجمعْ لفظَ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾، كما جمعَ لفظَ ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾؛ فيُقالُ: (فاحْتَمَلَتِ السُّيولُ)؛ لأنّه في الأصل مصدرُ الفعل (سال)[2] وأفردَه؛ لأنّ السَّيلَ يندَفعُ مُتّصلًا بقوّةٍ مرّةً واحدةً، ويجتازُ أوديةً مُختلِفةً مُتعدِّدةً مُتنوِّعةً فَجَمَعَ.

سِرُّ تَنْكِيرِ لَفْظِ ﴿زَبَدًا﴾:

حَقَّرَ الزَّبَدَ، ونَوَّعَ مادّتَهُ؛ لتدقيقِ الوصْفِ، واسْتبانةِ العِظَةِ

تنكيرُ الزّبدِ في قولهِ تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ للتّحقير؛ بوصْفِه يعمُّ كلَّ ما يَجرفُه السّيلُ في مَسيرِه، ويستغرقُ كلَّ ما يقابلُه في طريقه، لاحتمال السّيلِ - لأجل ما اختُصَّ به منَ الحركة، والانحدارِ، وقوّةِ الاندفاعِ - زَبَدًا رابيًا مُتنوِّعًا يَعلو على ظهر الماءِ.

لفْظُ (الزّبد) بين الحقيقةِ والمَجاز:

يُرادُ بالزّبدِ الرّغوةُ، أو ما يَعمُّ الغُثاءَ وغيرَه

الزَّبَدُ معروفٌ وهو الرَّغوةُ الّتي تطفو فوقَ الماء، ومن صفاته الخِفّةُ[3] الّتي تسوِّغُ له هذا الطّفو، ويحدثُ نتيجةَ تفاعلاتٍ مُعيّنةٍ بين ماء السّيل، وما يحملُه في طريقه من أتربةٍ، وحشائشَ، ومُخلّفاتٍ، وغُثاءٍ؛ أي: العشبُ اليابسُ كما ذكرَ القونويُّ، الّذي يرى كذلك، أنّه مَجازٌ إنْ أُريدَ به ما يعمُّ الغُثاءَ وغيرَهُ ممّا يحصُلُ من اضطراب الماء[4]؛ أي: يكونُ مَجازًا مُرسَلًا، علاقتُه المُسببيَّةُ؛ لأنّ الزَّبَدَ مُسبَّبٌ عنه، فيكونُ من باب إطلاقِ المُسبَّبِ وإرادةِ السّبب. لكنْ إنْ أُريدَ بالزَّبَد هنا معناه المذكورُ؛ أي: الرّغوةُ الّتي تطفو فوق الماء، فهو تعبيرٌ حقيقيٌّ لا مجازَ فيه، وهو الأظهرُ.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/487.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/487.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/315.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/487.

دَلالةُ وصْفِ الزَّبدِ بالرّابي في الآيةِ الكريمةِ:

لا يَدْخلُ في الزّبدِ الرّابي، ما كان ثقيلًا لا يَطْفو

الرّابي معناه المُنتفِخُ العالي[1]؛ وذلك بسببِ خفّتِه وتخلُّلِ الهواء في أثنائِه. ووصفَ الزّبدَ بالرّابي ليُخرِجَ ممّا احتملَه السّيلُ ما يكون ثقيلًا لا يَطفو كالأشجار الثّقيلةِ[2] والمَعادنِ ونحوِها، ممّا لا يصلحُ للطَّفو بسبب ثِقلِه، وفيها المفيدُ بلا شكٍّ، فيكونُ منَ الباقي الّذي ينفعُ النّاسَ، فلا يذهبُ جُفاءً كالزَّبَد.

بَلاغةُ تَشْبيه الحقِّ بالماءِ والجوهرِ الصّافي، والباطلِ بالزّبدِ:

الصّالحُ النّافعُ يبقَى، والباطلُ عمرُه قصيرٌ، وخطرُه حقيرٌ

هنا جزءٌ منَ التّشبيه المُركَّبِ الكائنِ في الآية، ضُرِبَ فيه مثلٌ للحقّ والباطل؛ إذ شبّهَ فيه الحقَّ بالماء الصّافي؛ إذ لا يناسبُه مثلًا إلّا أنْ يكونَ صافيًا خالِصًا نافعًا "خاليًا منَ المَضرّة، ولا يكونُ كبعض الأمطار والسّيول الجَواحِف"[3] أمّا الباطلُ فما أبلغَ تمثيلَهُ بالزَّبَد؛ لأنّ الزَّبَدَ قد يبدو فوق الماء، كأنّه زينةٌ لها، لكونِه مُنتفِخًا طافيًا، غير أنّه مع أوّل تدفُّقٍ للهواء، يذهبُ أدراجَ الرّياح، وكأنّه لم يكنْ موجودًا، بل لم يكنْ شيئًا مذكورًا، وهكذا الباطلُ قد يتبهرجُ ويتبخترُ في زينته، فيُغري ضعافَ النّاس، لكنَّه مع أوّلِ عاصفةٍ للحقّ، لا ترى له من أثرٍ، إلّا أثرَ الخيبةِ والوبالِ على أهله، فشابَهَ الزَّبَدَ الّذي لم يصمدْ أمامَ أوّلِ عاصفةٍ منَ الرّياح، وهكذا الحالُ، فإنّه لا يبقى إلّا الصّالحُ النّافِعُ، وأمّا الباطلُ فعمرُهُ قصيرٌ وعظيمُه حقيرٌ، وإنْ أوهمَ خلافَ ذلك.

جَوازُ أن يكونَ المَثَلُ للقرآنِ والقلوبِ:

الماءُ مثلُ القرآنِ، لِما فيه من حياةِ القلوبِ

كما تمَّ توجيهُ إجراء المَثَلِ على أنّه للحقّ والباطل، فإنّه يمكنُ أن يكونَ أيضًا للقرآن وللقلوب، والسّياقُ يحتملُهما معًا، ولا يبعدُ الجمعُ بينَهما، وتحريرُ إجراءِ المَثَلِ عندئذٍ أنّ "الماءَ مثلُ القرآنِ لِما فيه من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/123.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/523.

حياة القلوبِ، وبقاءِ الشّرعِ والدّينِ، والأوديةُ مَثَلٌ للقلوب، ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾ على سِعةِ القلوبِ وضيقِها، فَمِنها ما انْتُفِعَ به فَحَفِظَهُ ووَعاهُ وتدبَّرَ فيه، فَظَهَرَت ثمرتُهُ، وأدركَ تأويلَهُ ومعناهُ، ومنها دونَ ذلك بطَبَقَةٍ، ومنها دونَهُ بطَبقاتٍ. والزَّبَدُ مثلُ الشُّكوكِ والشُّبَهِ وإنكارِ الكافرين أنّه كلامُ اللّه، ودَفعِهم إيّاهُ بالباطلِ. والماءُ الصّافي المُنتَفِعُ به مِثلُ الحقِّ"[1].

دَلالةُ العطْفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾:

أهمّيّةُ العطْفِ في التّشريكِ في ضَرْبِ الأمثالِ

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على جملة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للتّشريك بينَهما في ضرْبِ المَثَلِ، لِما هو نافِعٌ وغيرُ نافعٍ، فالعطفُ "لِضربِ مَثلٍ آخرَ"[2].

معنَى (من) المُدْغَمةِ في (ما) في السّياقِ:

بيّنَ السّياقُ ما يَنْشأُ من إيقادِ النّارِ

(من) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ ابتدائيّةٌ دالّةٌ على مُجرَّدِ كونِه مبتدأً وناشئًا منه؛ أي: نشأ منه. وجوِّزَ كونُها للتّبعيض؛ أي: هو بَعضُهُ؛ وردَّهُ أبو السّعود بأنّهُ يُخِلُّ بالتّمثيلِ[3].

فائِدةُ (ما) الموصولةِ في السّياقِ الحكيمِ:

التّعبيرُ بـ (ما) أخصرُ وأجمعُ وأعمُّ

(ما) موصولةٌ، وفائدتُها هنا الإيجازُ، فالتّعبيرُ بها أخصرُ وأجمعُ[4]، فضلًا عن كونِه يدلُّ على العُموم؛ وذلك أنّ الموصولَ جَمَعَ بإيجازٍ كلَّ أنواعِ المعادنِ منَ الذّهبِ والفضّةِ ونحوِهما، دون الحاجةِ إلى تفصيلِها، والخروجِ عن حدّ الإيجازِ.

سِرُّ العُدولِ عنِ اسْمِ الذّهبِ والفضّةِ إلى الموصولِ:

إبرازُ قِلّةِ الاكتراثِ بالذّهبِ والفضّةِ، بعدمِ ذكْرِ اسمِهما

التّعبيرُ بالموصولِ والعُدولُ عن تسميةِ الذّهبِ والفضّةِ إلى الموصوليّةِ، بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ومِنَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/117.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/119.

الّذي توقِدون عليه، لتحقيقِ غرضَين، فضلًا عن غرضِ الإيجاز الّذي مرَّ ذكرُه، وهما:

الأوّل: أنّ جملةَ الصّلة ﴿يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ﴾ مقصودةٌ بالذِّكر؛ لأنّ الوقودَ هو سببُ حصول الزَّبدِ، ومِن ثَمَّ ففي النّصِّ عليه غرضٌ وحاجةٌ.

الثّاني: إبرازُ قلّةِ الاكتراثِ بالذّهب والفضّة بالعُدول عن ذكر اسمهما تهاونًا بهما وترفُّعًا، وبالنّصِّ على الإيقاد عليهما في النّار المُستَلزِم للطّرقِ بالمَطارِق، وفيه منَ الإهانة ما هو ظاهرٌ، والغرضُ الحدُّ من ولَع النّاسِ المُبالَغ بهما، فإنّ اسمَيْهما قدِ اقترنا بالتّعظيم في عُرفِ النّاس[1]، وهذا لا ينافي كونَه ضُرِبَ مَثَلًا للحقّ؛ لأنّ مَقامَ الكبرياءِ يقتضي التّهاوُنَ به، مع الإشارة إلى كونِه مَرغوبًا فيه مُنتَفَعًا به بقوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾، فَوَفّى كُلًّا منَ المَقامَين حقَّهُ[2].

التّعبيرُ عنِ الإيقادِ بالمضارع ﴿يُوقِدُونَ﴾:

الصّهرُ يحتاجُ دَوامَ تَسليطِ النّارِ على الشّيءِ المَصْهورِ

في التّعبير بالمضارع دَلالةٌ على استمرار الإيقادِ وتجدُّدِه؛ لأنّ إذابةَ المَعادن وصَهرَها يحتاجُ وقتًا طويلًا، ودَيْمومةً في تسليط النّارِ عليها، والمُتحقِّق باستمرارِ الإيقادِ.

تَوْجيهُ القراءةِ القرآنيّةِ في ﴿يُوقِدُونَ﴾ و(توقِدونَ):

بجماعِ القراءتَين يُرادُ عُمومُ النّاسِ

قرأ أكثرُ القرّاء (توقِدونَ) على الخطاب، وتوجيهه أنّه لاتّساقه مع ما قبلَه منَ الخطاب، وهو قولُه: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾، في حين قرأه حمزةُ، والكسائيُّ، وحفصٌ عن عاصم، وخلفٌ ﴿يُوقِدُونَ﴾ على الغَيبة؛ وتوجيهُه أنّه لاتّساقه مع ما قبلَه منَ الغَيبة في قوله: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، ويجوزُ على القراءتين - الخطاب والغَيبة - أن يُرادَ عُمومُ النّاسِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/119، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/232.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277.
(3) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 5/16.

سِرُّ تَعْدِيةِ الإيقادِ بـ (على) وإسْنادِه إلى (الهاء):

عُدّي ﴿يُوقِدُونَ﴾ بـ ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ لأنّ الغرضَ ليس الإخبارَ عن إيقاد النّارِ، وإنّما عمّا أوقِدَت عليه النّارُ ولأجلِه، وهو الذّهبُ والفضّةُ، ولذلك أسندَ الضّميرَ إليها فقال: ﴿يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ﴾، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: 38].

ليسَ الغرَضُ الإخبارَ عن إيقادِ النّارِ، وإنّما عمّا أوقِدَت عليه النّارُ

سِرُّ العُدولِ عن ذِكْرِ إخراجِ ما يوقِدون عليه منَ الأرضِ:

ولم ينصَّ على إخراجِ ما يوقِدون عليه في النّار منَ الأرض، كما نصّ على نزول الماء منَ السّماء؛ فلم يقُل مثلًا: (وأخرج منَ الأرض ما توقِدون عليه في النّار)، كما قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ "لِعَدَمِ دَخْلِ ذلك العُنوانِ في التّمثيل، كما أنّ لعُنوانِ إنزالِ الماءِ منَ السَّماءِ دخلًا فيه"[1].

ما يوقِدون عليه في النّارِ غيرُ داخلٍ ضِمْنَ التّمثيلِ الوارِدِ في الآيةِ

دَلالةُ شِبْهِ الجُملةِ ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ في أثناءِ السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: كائنًا ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾، أو هو مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾، والنّصُّ على النّار مع كوْنِ الإيقادِ لا يكونُ إلّا بها، هو التّأكيدُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38][2]، وفيه كذلك "إشعارٌ بالمُبالَغة في الاعتِمالِ للإذابَة"[3]؛ لأنّ الإذابةَ تتطلَّبُ نارًا مُكثّفةً تُصدِرُ حرارةً عاليةً، تتمكّنُ من إذابة المَعادنِ كالذّهب والفضّة ونحوِهما.

إذابةُ المَعادنِ كالذّهبِ والفضّةِ، تَستدعي نارًا مَخصوصةً

نُكتةُ تقْديمِ ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ وتأخيرِ ﴿زَبَدٞ﴾:

قدَّمَ الخبرَ ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ على المبتدأ ﴿زَبَدٞ﴾ للاهتمام به؛ لأنّه مَوضِعُ اعتبارٍ أيضًا ببديع صُنعِ اللّه تعالى، إذ جَعَلَ الزّبدَ يَطفو على أرقّ الأجسامِ، وهو الماءُ، وعلى أغلظِها، وهو المَعدِنُ فهو ناموسٌ

في التّقديمِ تَشويقٌ للمُتأخِّرِ، وترقُّبٌ مع اهتمامٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/40.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14.

من نَواميسِ الخِلقَةِ، فبالتّقديم يَقعُ تَشويقُ السّامعِ إلى ترقُّبِ المُؤخَّر، وهو المبتدأ[1].

بَلاغةُ التّشْبيهِ التّمثيلّي في جملة ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ﴾:

تمثيلٌ آخرُ لأهْلِ الحَضَرِ، إثْرَ التّمثيلِ السّابقِ لأهلِ البَدْوِ

وهنا تسوقُ الآيةُ الكريمةُ تمثيلًا آخرَ موجَّهًا لسُكّان القُرى من أهل الحَضرِ، الّذين لم يشاهدوا سيولًا تُساعدُهم على فهم المُرادِ بالمَثَل السّابقِ، كأهل مكّةَ الّذين كان لدَيْهم "صَوّاغونَ... فقَرَّبَ إليهم تَمثيلَ عدمِ انتِفاعِهِم بما انتَفعَ به غَيرُهم، بمِثلِ ما يُصهَرُ منَ الذّهب والفضّة في البَواتِقِ، فإنّه يَقذِفُ زبدًا يَنتَفي عنهُ، وهو الخَبَثُ، وهو غيرُ صالِحٍ لشيءٍ، في حين صَلاحِ مَعدِنِه لاتّخاذِهِ حِليَةً أو مَتاعًا"[2]. ووجهُ هذا التّشبيه أيضًا، أنّ هذه المعادنَ في أصلها كالزّبد، يشيرُ إلى أنّ ابتداءَ خِلقتِها كذلك، إلّا أنّها صارَت هكذا بالإخلاص؛ ليكونَ أدخلَ في الحكمة، وأظهرَ في كمال القُدرة[3].

التَّعْبيرُ عنِ الابتغاءِ بالمصدرِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

مِن نِعَمِ الله على النّاس، تَسْخيرُهُ ما تشتدُّ رغبتُهُم إليه

لفظُ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ منصوبٌ على المفعول لأجله؛ أي: يوقدون النّارَ على الذّهب والفضّة؛ لأجل الحصولِ على حِليةٍ أو مَتاعٍ، وهو الأظهرُ والأوفقُ للمَقام، أو هو مصدرٌ في مَوضع الحال؛ أي: مُبتَغين حِليةً[4]، وصاحبُ الحال هو ضميرُ الفاعِلين في ﴿يُوقِدُونَ﴾. وعبَّرَ بالمصدر ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ للدّلالة على جِدّية الطّلب والاجتهادِ فيه، فمِثلُ الذّهب والفضّة يُبذَلُ لأجلِهما الوُسعُ والطّاقةُ. وأيضًا "لإيضاح المُرادِ منَ الصّلة، ولإدماجِ ما فيه من مِنّةِ تَسخيرِ ذلك للنّاس؛ لشدّة رَغبتِهم فيهما"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/118.
(3) العلويّ، الطّراز: 1/204.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/40.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

سِرُّ تَنْكِير ﴿حِلۡيَةٍ﴾:

نكَّرَ لفظَ ﴿حِلۡيَةٍ﴾ تحقيرًا لها، نظرًا إلى الشَّغفِ الزّائدِ بها من قِبَل النّاسِ، فضلًا عن كونها مُتنوّعةَ الأشكال والهيئات، بحسب أماكنِ لُبسِها، واستعمالاتِها الأخرى.

شَغفُ النّاس بالمُحقَّرِ من الزّينة مَعهودٌ معلومٌ

وَجْهُ العطْفِ بـ ﴿أَوۡ﴾:

عَطَفَ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾؛ للدّلالة على التّنويع؛ فالذّهبُ والفضّةُ لا يُتّخذان فقط حِليةً للتّزيُّن، ولكنّ بعضَ المُترَفين يتّخذون منها أوانيَ وتُحفًا ونحوَ ذلك.

تَنَوُّعُ استعمالاتُ الحِليةِ زينةً، وغيرَها

سِرُّ تَنْكِير ﴿مَتَٰعٖ﴾:

سرُّ تنكيرِ ﴿مَتَٰعٖ﴾ هو نفسُه سرُّ تنكيرِ ﴿حِلۡيَةٍ﴾، وهو المَهانةُ والتّحقيرُ، مُعاكسةً لغرضِ النّاسِ منهما؛ إذ إنّ أغراضَهم منهما هو التَّنعُّم، والتّرفُّعُ والتّمايزُ على النّاس.

تحقيرُ ما يَصْرِفُ النّاسَ عن شُكْرِ ربِّهِم منَ النِّعَمِ

إيثارُ لفْظَيْ ﴿حِلۡيَةٍ﴾ و﴿مَتَٰعٖ﴾:

ويعودُ إيثارُ لفظَيْ ﴿حِلۡيَةٍ﴾ و﴿مَتَٰعٖ﴾؛ لأنّهما أكثرُ ما يُستعمَلُ فيهما الذّهبُ والفضّةُ من قِبَلِ المُترَفين. وهما مَظنّةُ شَغفِ النّاس زينةً وادّخارًا.

الحِليةُ والمَتاعُ زينةُ المُترَفين، ومُتعةُ المُتَنَعِّمين

تَنْكِيرُ لفْظِ ﴿زَبَدٞ﴾:

نَكَّرَ لفظَ ﴿زَبَدٞ﴾، ونوّنَه تحقيرًا وتهاونًا، وهو كذلك؛ لأنّه الخبثُ المفصولُ عنِ الجوهرِ الرّاقي، والغُثاءُ المُضرُّ الّذي لا نفعَ فيه.

ما لا فائدةَ فيه مُحقَّرٌ، لا اعتبارَ له ولا قيمةَ

إيثارُ الوَصْفِ بلَفْظِ ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾:

آثرَ الوصفَ بلفظِ ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾ للدّلالة على المُطابقةِ بين المَثَلين في الدّلالة على الغرَضِ، فالمِثلُ هو الشّبيهُ والنّظيرُ[1].

أرادَ المُطابقةَ بين المَثَلَين للإيضاحِ والبيانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).

عَوْدُ الضّميرِ في لفْظِ ﴿مِّثۡلُهُۥ﴾ في السّياقِ:

زَبَدُ الحِلية كزبدِ السّيلِ غُثاءٌ لا نفعَ فيه

يعودُ الضّميرُ في ﴿مِّثۡلُهُۥ﴾ إلى الزّبد في قوله تعالى: ﴿زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾؛ أي: أنّ زبدَ الذّهب والفضّةِ مثلُ زبدِ السّيل، كلاهما لا ينفعُ؛ لكونِهما خُبثَ الأشياءِ.

بَلاغةُ التّعريضِ والكنايةِ في جملةِ التّشْبيهِ:

تبشيرُ أهلِ الحقِّ بأنّهم باقونَ، وإنذارُ أهلِ الباطلِ بأنّهم هالِكونَ

إنّ المَثَلين المَذكورَين في الآية، وما يَحملانَه من تشبيهاتٍ ومَجازاتٍ داخلةٍ في جملتَي التّشبيه التّمثيليِّ، والمقصودُ بهما في النّهاية تبشيرُ أهل الحقِّ بأنّهم هُم النّافعون الباقون، وإنذارُ أهلِ الباطل بأنّهم خَبثٌ زائِلٌ مَطرودٌ مَتروكٌ، "فصارَ التّشبيهُ تعريضًا وكنايةً عنِ البِشارةِ والنِّذارَةِ، كما دلَّ عليه قولُهُ عَقِبَ ذلك: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾"[1].

بَلاغةُ الفَذْلكةِ في جملةِ الاعتراضِ:

ضَرْبُ الأمثالِ إبرازٌ للحقِّ، وإعلاءٌ له على الباطل

جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ مُعترِضَةٌ، وهي في الوقتِ ذاتِهِ (فَذْلَكةُ) التّمثيلِ ونتيجتُهُ الّتي بيّنَتِ الغرضَ منه وكشفَتْه؛ أي: مِثلَ هذه الحالةِ يكونُ ضَربُ مَثَلٍ للحقِّ والباطلِ[2].

بَلاغةُ التّشبيهِ في جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ﴾:

حَذْفُ المضافِ (مثل) في الجملتَين؛ للإنباءِ عنِ التّماثُلِ بين طرفَي التّشبيهِ

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ كافُ التّشبيه؛ أي: مِثلُ ذلك الضّربِ البديعِ المُشتمِلِ على نُكتٍ رائقةٍ ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾؛ أي: يضربُ مثَلَ الحقِّ ومثَلَ الباطل، وحَذَفَ المضافَ (مثل) في المُتعاطِفين؛ للإنباء عن كمال التَّماثُلِ بين المُمثَّل (المُشبَّه)، والمُمثَّل به (المُشبَّه به)، كأنّ المَثَلَ المضروبَ عينُ الحقِّ والباطل[3]. وهذه بلاغةٌ ومبالغةٌ في تصوير التّماهي بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/124.

المُشبَّه والمُشبَّه به، وكأنّهما شيءٌ واحدٌ، فضلًا عمّا فيه من إيجاز الحذفِ الّذي سوَّغَه ظهورُ القرينة الدّالّةِ عليه[1]، وهي الفعلُ ﴿يَضۡرِبُ﴾؛ فمعناه يُمثِّلُ، يريدُ أنّ الحقَّ مُشابهتُه للسّيل من جهةِ صفائِه وركودِه، وكثرةِ الانتفاع به، وأنّ الباطلَ يشبهُ الزّبدَ في خفّتِه، وجفافِه، وطيرانِه بهبوب الرّيحِ، وقلّةِ الجدوى فيه[2].

سِرُّ التَّعبير باسْمِ الإشارةِ (ذلك) في السّياقِ:

إعلاءُ قدْرِ التّمثيلِ المذكورِ في الآيةِ، وتفخيمُ شأنِه

اسمُ الإشارةِ (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ دالٌّ على البُعدِ، ومقصودٌ به هنا رفعُ شأن هذا المَثَلِ، والدّلالةُ على مدى أهمّيّتِه في تقرير الموازَنةِ المَقصودةِ بين كلٍّ منَ الحقّ والباطلِ.

التَّعْبيرُ عنِ الضّربِ بالمضارِعِ ﴿يَضۡرِبُ﴾:

تجدُّدُ ضَربِ الأمثالِ وتَكرُّرُه، لتحقيقِ أغراضِها

دلَّ التّعبيرُ بالمضارع هنا، على تجدُّدِ ضربِ الأمثال، لكُلٍّ منَ الحقّ والباطل، ترغيبًا في الأوّل وتنفيرًا منَ الثّاني، وهو أمرٌ مُتكرِّرٌ في الكتاب العزيز وملحوظٌ.

إظهارُ الفاعلِ لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّـهُ﴾:

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ، مُفادُهُ التّأنيسُ والتّشريفُ والتّخويفُ

والتّصريحُ بلفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ هنا إضافةً إلى تشريف المَثيلِ بهذا الإظهار يُحقِّقُ غرضَين آخرَين: أحدُهما: زرعُ المَهابة في قلوب أهلِ الباطل، والآخرُ: بثُّ الطّمأنينةِ والأنسِ في قلوب أهلِ الحقِّ.

وَجْهُ تعريفِ الحقِّ والباطلِ:

صَلاحيةُ ضرْبِ التّمثيلِ لكُلِّ حالةٍ يوازَنُ فيها بين حقٍّ وباطلٍ

عرَّفَ كلًّا منَ الحقّ والباطلِ بـ (أل) الجنسيّةِ؛ لأنّ هذا المَثَلَ، وإنْ ضُربَ هنا لصورةٍ مُعيّنةٍ، غير أنّه صالحٌ لاستغراق كلِّ أفرادِ كليْهما، فهو كالقانون العامِّ، بحيث يمكنُ استدعاؤه والاحتكامُ إليه، في كلّ حالةٍ تتمُّ فيها الموازنةُ بين حقٍّ وباطلٍ.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/204.

التّقديمُ للاهتمامِ، ومُراعاةِ السّياقِ

عِلّةُ تَقْديمِ الحقِّ على الباطلِ:

تقديمُ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ على ﴿وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾؛ لكونِه الأوّلى بالاهتمامِ، فهو النّافعُ الباقي، والباطلُ زاهقٌ مُنتَهٍ، كما أنّ الجملةَ هنا بمثابةِ التّمهيدِ لإعلانِ نتيجةِ الموازَنةِ عَقِبَ الانتهاءِ مِنَ التّمثيلِ، وهي النّتيجةُ المَنصوصُ عليها في الآية: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، فقد قَدَّمَ فيها أهلَ الحقِّ على أهلِ الباطلِ.

الدّعوةُ إلى مُراجعةِ النّفسِ، فرصةٌ للاهتبالِ، قبلَ انْصِرامِ الآجالِ

بَلاغةُ الطِّباقِ بين الحقِّ والباطلِ:

في المُقابلةِ والتّضادِّ بين الحقّ والباطل في جملة الفَذْلَكةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ طباقُ الإيجابُ، وفيه دعوةٌ لأنصارِ الباطلِ لأجلِ مُراجعةِ النّفسِ، فكيفَ بهم حين يرونَ أنفسَهُم مَحْمولين في كفّة الباطلِ، بائِسين، يواجهُهم الصّالِحون في كفّة الحقِّ فرحينَ بفضلِ اللّه؟

مَرتبةُ البيانِ والتّفصيلِ عَقيبَ مَرتبةِ الإجمالِ

دَلالةُ (الفاء) في قولِه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ لجملةٍ على جملةٍ، حيث عطفَت جملةَ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ على جملةِ ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾، وأفادَت هنا التّعقيبَ والتّفريعَ على التّمثيلِ؛ لأنّ مَرتبةَ البيانِ والتَّفصيلِ عقيبَ مَرتبةِ الإجمالِ[1].

التّأكيدُ وتَفْصيلُ المُجمَلِ من فوائدِ الافْتِتاحِ بـ (أمّا)

افتتاحُ الجملةِ بـ ﴿فَأَمَّا﴾ في السّياقِ:

افتُتِحَت الجملةُ بـ ﴿فَأَمَّا﴾ الدّالّة على التّفصيل الّذي يعقُبُ الإجمالَ[2]؛ أي: الواردَ في الجملةِ السّابقةِ، ومن فوائد الافتتاحِ بـ (أمّا) أيضًا "التّوكيدُ وصرفُ ذهنِ السّامعِ إلى الكلامِ؛ لِما فيه من خفيِّ البِشارةِ والنِّذارةِ، ولأنّه تمامُ التّمثيلِ"[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

سِرُّ التَّناوُبِ في تَقْديم الزّبدِ وتَأْخيره:

الزّبدُ هو المَنْظورُ لأعينِ النّاسِ، أمّا الجوهرُ فهو النّافعُ الباقي

السّرُّ في البدء بالزّبدِ في البيان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ﴾، مع أنّه مُتأخِّرٌ في الكلام السّابق؛ أي: في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾؛ لأنّ الزّبدَ هو الظّاهرُ المنظورُ أوّلًا لأعين النّاسِ، أمّا الجوهرُ فهو مُستترٌ خلفَه؛ لأنّه هو الباقي النّافعُ المُستمِرُّ، ولذا أُخِّرَ، أو لأنّه جرَت العادةُ في التّقسيم أن يُبدأ بالمُتأخِّر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، وهي طريقةٌ فصيحةٌ يُبدأُ في التّقسيم بما ذُكِرَ آخرًا، اللهمّ إلّا إذا اقتضى المقامُ البدءَ بالسّابق، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 105 - 108] وكأنّه يبدأُ في التّفصيل بما هو أهَمُّ في الذّكر[1].

عِلّةُ تعريفِ لفْظِ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ في السّياقِ الكريم:

التّعريفُ بـ (أل) العهديّةِ للدّلالةِ على (الزّبد) المذكور قَبْلًا

عرَّفَ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ لينصرفَ إلى الزّبد المذكورِ، فـ (أل) للعهد[2]، والمعهودُ هو الزّبدُ المذكورُ سابقًا في المَثَلَين، باعتبار الاشتراكِ في المعنى العامِّ فيهما، وهو الخَبثُ، والاشتراكِ في الدّلالة أيضًا على عدم النّفعِ.

نُكتةُ تَقْديم ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ على الفعل:

لا يَلي (أمّا) التّفصيليّة إلّا الأسماءُ دونَ الأفعالِ

تقدَّمَ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ على الفعل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾؛ لِتقدُّم ﴿فَأَمَّا﴾ التّفصيليّةِ المُتضمِّنةِ معنى الشّرطِ عليه؛ فإنّه لا يليها إلّا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/374، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/232، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/466.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.

الأسماءُ، ومع إفادتِها التّفصيلَ هي مُتضمِّنةٌ معنى الشّرط، ومُفيدةٌ للتّوكيد والاهتمام، فلو وليها الفعلُ لَتوهِّمَ أنّها فقط الشّرطيّةُ، وأنّ الفعلَ المذكورَ هو فعلُ الشّرط[1]، والحالُ ما قد عرفتَ من كونِها لا يَليها إلّا الاسمُ، ويكونُ مبتدأً، و﴿ٱلزَّبَدُ﴾ بعدَها مبتدأً، وخبرُهُ ﴿فَيَذۡهَبُ﴾ والجملةُ في محلّ جزمٍ جوابُ الشّرط.

سِرُّ إفرادِ الزّبدِ في قوله ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾:

الاشـــتراكُ في المـعـنى عِـلّـةُ الإفرادِ

السّرُّ في إفراد الزَّبَد، مع كونِهما زبَدَين؛ زبدَ السّيل وزبدَ ما يوقدون عليه، هو "اشتراكُهما في مُطلَق الزّبديّةِ، فهما واحدٌ باعتبارِ القَدْرِ المُشترَكِ"[2].

دَلالةُ الفاءِ الثّانيةِ في قوله ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾:

أفــادَتِ الـفـاءُ التّفصيلَ، وهو مُفيدٌ في الإبانةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ رابطةٌ لجواب شرطِ ﴿فَأَمَّا﴾، فهي شرطيّةٌ مع إفادة التّفصيلِ.

التَّعْبيرُ عنِ الذّهابِ بالمضارعِ ﴿فَيَذۡهَبُ﴾:

لا بـقـاءَ طويلًا للزّبدِ؛ لانْعِدامِ نفْعِه

دلَّ التّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ على الاستمرار والتَّجدُّدِ، فحيثما وُجِدَ الزَّبدُ فإنّه يَذهبُ.

إيثارُ لفْظِ ﴿جُفَآءٗ﴾ على غيرها في السّياقِ:

لا يَـغُـرَّنَّـكَ انتفاخُ الباطل وبهرجتُه، فإنّه زاهقٌ مُتلاشٍ

الجُفاءُ: هو الطّريحُ المَرمي، الّذي يُلقيه السّائلُ ويقذفُ به، ليبقى الجوهرُ - ماءً كان أم ذهبًا ونحوَه - صافيًا خاليًا منَ الخبثِ والأكدارِ. وفي التّعبير به تعريضٌ بالمُشركين[3]، ووعيدٌ لهم بأنّهم وشِركَهُم سيُطرحون كما يَطرحُ السّيلُ زبدَه، فيَذهبُ جُفاءً؛ لأنّ سنّةَ اللّه قد جرَت ألّا يبقى إلّا النّافعُ، وهو الحقُّ، وأمّا الباطلُ وإنِ انتفخَ وظهرَ، فإلى حين.

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 525.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.

نُكتةُ العطْفِ بالواوِ في سياقِ الآيةِ:

وَجْهُ العطْفِ تمامُ التّفصيلِ، وهو مِنَ البيانِ الأصيلِ

ونُكتةُ العطف بالواو في جملة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ على جملة ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾، لكونِه تمامَ التّفصيل: أمّا كذا، وأمّا كذا.

إيثارُ ﴿مَا﴾ الموصولةِ في السياقِ:

التّعبيرُ بـ (ما) الموصولةِ أخصَرُ وأجْمَعُ

أوثِرت ﴿مَا﴾ الموصولةُ لدلالتِها على الاختصار والجمع، فقد شملَت كلَّ ما ينفعُ، وهو كثيرٌ جدًّا وعصيٌّ على الحصْرِ، وقد جُمِعَ كلُّهُ في دلالة ﴿مَا﴾.

إيثارُ التَّعبيرِ عنِ النّفعِ، وعنِ الماءِ بالمضارعِ:

نفعُ النّاسِ عِلّةُ بقاءِ الأشياءِ، وعدمِ انْدِثارِها

عبَّرَ عنِ النّفع بصيغةِ المضارع ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ لتجدُّدِه واستمرارِه، "وعَبَّرَ به عنِ الماءِ، فقال: بـ ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: الماءِ الماكِثِ في الأرض"؛ للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وهو البقاءُ في الأرض، وتَعريضًا للمشركين بأنْ يَعرِضوا أحوالَهم على مَضمونِ هذه الصِّلة؛ ليعلَموا أنّهُم ليسوا (ما يَنفعُ النّاسَ)، وهذه الصِّلةُ موازِنَةٌ للوَصْفِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105][1].

إيثارُ لَفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على (الخلْقِ):

المَثَلُ مضروبٌ للنّاسِ، لا لكلِّ المَخلوقاتِ

أوثِرَ لفظُ النّاس على لفظ الخَلْقِ، مع كونه أعمَّ، والنّفعُ بالماء حاصلٌ لكلّ مَن يعيشُ عليه من حيواناتٍ وطيورٍ ونباتٍ وكثيرٍ مِنَ الكائنات الحيّة؛ لكون المَثَلِ مَضروبًا للنّاس، وليس لبقيّة الخَلْق، ولأنّهُم هُمُ المَقصودون بالتّقسيم والتّفصيلِ في المَثل، فمِنهُم أهلُ الحقّ، ومنهم أهلُ الباطل.

معنَى الفاءِ في قوله ﴿فَيَمۡكُثُ﴾:

الفاءُ بمعنَى مهما يَكُنْ من شيءٍ، وهي تَعرِضُ المعنَى الشّرطيَّ بإيجازٍ

الفاءُ واقعةٌ في جواب شرطِ ﴿وَأَمَّا﴾، القائمةِ مقامَ أداةِ الشّرط وفعله، إذ هي بمعنى: مهما يكنْ من شيءٍ فكذا، كما يرى سيبَوَيْه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/235.

إيثارُ لَفْظِ المكوثِ في السّياقِ المُدرَجِ في الآيةِ:

الماءُ يَستقرُّ في الأرضِ؛ لينتفعَ به

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿فَيَمۡكُثُ﴾؛ لأنّ المُكثَ يدلُّ على الاستقرار والثّبات بالمكان زمنًا مع ترقُّب وانتظار(1)، وهذا الزّمنُ قد يطولُ وقد يقصرُ، لكنّ السّياقَ هنا دالٌّ على أنّ المُرادَ بالمُكثِ المدّةُ الطّويلةُ الّتي قد لا تنتهي بذهاب الماءِ في عيون الأرضِ وعروقِها، "فالمُرادُ بالمُكث في الأرض، ما هو أعمُّ منَ المُكثِ في نفسِها، ومنَ البقاءِ في أيدي المُتَقَلِّبينَ فيها"(2).

ولفظُ المُكثِ أكثرُ التّعابير مُلاءمةً للسّياق؛ لكوْنِ الماءِ يَستقرُّ في الأرض لينتفعَ به، ثمّ يواصِلُ دورتَه المعروفةَ، ليعودَ إليها من جديدٍ مرّةً أخرى، وهكذا دواليكَ، وهذا سرُّ التّعبيرِ عنه بالمضارع.

دَلالةُ التّعريفِ بـ (ال) للّفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

تعريفُ الأرضِ لإبراز دَوْرِها في المَثَل المَسوقِ في الآيةِ

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للاعتناء بذكرها مُعرَّفةً في مُقابل ذكرِ السّماءِ في بداية الآية: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، إذ بهذا التّقابُلِ يحصلُ التّكاملُ، فما يُنزِلُه اللّه مِنَ السّماء لينفعَ النّاسَ، يَمكثُ بعدَ ذلك في الأرض للتَّمكُّنِ مِنَ الانتفاعِ به، مع استمرارِه في بقيّة الأجيالِ عبرَ الدّورةِ المَعروفةِ للماء مِنَ التَّبخُّرِ والتَّجمُّعِ في السّحب، ثمّ النّزولِ ثانيةً إلى الأرض.

فنُّ التَّفصيلِ المتَّصِلِ، وتقسيمُ اللّفِّ والنّشر، والتّنكيت:

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فنونٌ من القولِ، وأسرارٌ من البلاغة، تحريرُها في الآتي:

أوّلًا: فنُّ التّفصيل المُتّصِلِ الّذي يعقُبُ الإجمالَ:

ما يَنفعُ النّاسَ هو الّذي يبقى في الأرض ويَرسو

فصَّلَ بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/125.

﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ما أجملَه سَلفًا مِن كونِ السّيلِ يحملُ معه الزّبَدَ، وكذا الذّهبُ والفضّةُ الموقَدُ عليهما النّارُ، يخرجُ منهما الزّبَدُ. بعد ذلك جاء التّفصيلُ هنا ببيان أنّ الزّبدَ في كليْهما لا يبقى، وإنّما يبقَى ما ينفعُ النّاسَ، وهو الماءُ والجوهرُ الصّافيان، وهذا تفصيلٌ مُتَّصلٌ يعقُبُه إجمالٌ(1).

ثانيًا: الجمْعُ والتّقسيمُ مع الجمْعِ:

كلُّ ما لا نفعَ فيه، يذهبُ جُفاءً، وكلُّ ما يُنتفعُ به يَمكثُ

فقد "جَمَعَ أوّلًا الماءَ والفِلزَّ في حُكم كونِهما جامعَين لمعنَى ما ينتفعُ به النّاسُ، ولِما لا نفعَ فيه، فإنزالُ الماء على القَدرِ المُحتاجِ إليه خالصٌ للنّفع، وحميلُهُ - الّذي هو زَبدُ السّيل - لا نفعَ فيه، وكذا الفِلزُّ: ما يُتّخذُ منه الحُلي والأواني هو المُنْتَفَعُ به، وخبثُه الّذي هو زبدُهُ ممّا لا نفعَ فيه، ثمّ فصلَ ثانيًا حُكمَ كُلٍّ مِنَ اللّذَيْن لا نفعَ فيهما على طريق الجمعِ بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ إلى آخره؛ أي: كلُّ ما لا نفعَ فيه من زبدِ الماءِ، وزبدِ الفِلزِّ يذهبُ جُفاءً، وكلُّ مِنَ المُنتفَعِ بهما - وهما الماءُ المُنزَلُ بقَدرٍ، والفِلزُّ المُتّخذُ منه الحُلي والمتاعُ - يمكثُ في الأرض"(2).

ثالثًا: اللّفُّ والنّشرُ المشوّشُ:

بدأ بالأهمِّ في هذا المَقامِ، وهو إبطالُ الباطلِ

ذلك أنّ الآيةَ لمّا نبّهَت على عُلوّ هذا المثلِ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، شرعَ في شرحِه، فبدأ بما هو الأهمُّ في هذا المَقام، وهو إبطالُ الباطلِ الّذي أضلَّهم، ومضَى في تقسيمه على طريق النّشرِ المُشَوَّشِ(3)؛ أي: غيرِ المُرتَّبِ، حيث فصّلَ أوّلًا ما يتّصلُ بالثّاني، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾، ثمّ رَجَعَ وفصَّلَ ثانيًا ما يتّصلُ بالأوّل، فقال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/495.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/318، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/113.

رابعًا: بَلاغةُ التَّنْكيتِ في السّياقِ الحكيمِ:

وجْهُ النّفعِ في الماءِ أظهرُ؛ لعدمِ إمكانِ الاستغناءِ عنه؛ بخلافِ الذّهبِ

يَظهرُ هذا في إيثارِ الآيةِ عدمَ ذكْرِ وجْه الشّبهِ مع الذّهب والفضّة وزبدِهما، وذكْرَهُ مع الماءِ وزبدِه، وذلك بقرينةِ قوله تعالى: ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فهذا لاشكَّ مقصودٌ به الماءُ، وذلك لوجود نُكتةٍ في المذكور ظاهرةٍ، وهي أنّ وجهَ النّفع في الماء أظهرُ؛ لعدم إمكان الاستغناءِ عنه من جميع النّاس؛ بخلاف الذّهب. وكذلك أيضًا مقابلُه وهو زبدُه، فهو أظهرُ في التّمثيل من زبدِ الذّهبِ، من حيثُ إنّ زبدَ الماء يُرى للجميع، بخلاف زبدِ الذّهب والفضّة، فقد لا يَطلّعُ عليه إلّا الصُّنّاعُ، ولَفتَ ابنُ عاشور إلى نكتةٍ أخرى وهي الاستغناءُ؛[1] ولعلّه يعني به الاستغناءَ بالمذكورِ اكتفاءً، لتحقيقِ غرضِ الإيجازِ.

بَلاغةُ التّشْبيه في قوله ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾:

رفعةُ شأْنِ المثَلِ المَضروبِ في الآيةِ، وسائرِ أمثالِ القرآنِ

المُشارُ إليه في اسم الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هو المَثَلُ الواردُ في أوّل الآيةِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ أي: مَثَلُ ذلك الضّربِ البَديع ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، وهو المَقصودُ بهذا التّذْييل؛[2] أي: مَقصودٌ به بيانُ رِفعةِ شأنِ المَثَلِ المَضروبِ المُستهَلِّ، بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾.

سِرُّ إيثارِ التّعبير باسْمِ الإشارةِ (ذلك):

القيمَةُ العاليةُ لأمثالِ القرآنِ في تَصْويرِ مُراداتِه

عبَّرَ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ تنويهًا بشأنِ المَثَلِ المَضروبِ، ولَفتًا إلى قيمة التّمثيلِ، وبيانًا لحِكمتِه، وما يحملُهُ مِنَ العِبرِ والمَواعظِ[3] والحُججِ المُقنِعةِ؛ لأنّه يَحتكِمُ في التّمثيل والتّصويرِ إلى أشياءَ مَلموسةٍ، يراها النّاسُ ويُعايِشونَها ويعلمونَها، ويَقفونَ على نتائجِها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.

نُكتةُ تَكرارِ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾:

التَّكرارُ بغرَضِ التّفخيمِ والتّأكيدِ، له أثرٌ في الدّلالةِ مُفيدٌ

تكرّرَت جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾ مرّتين في الآية، والتَّكرارُ بجانب كونِ الجملةِ الثّانيةِ مُؤكِّدةً للجملة الأولى فيه دلالةٌ على "تفخيمِ شأنِ التّمثيلِ"[1] المَضروبِ في الآية.

بَلاغةُ فَصْلِ الجملةِ بالاسْتِئنافِ الابتدائِّي:

علاقةُ العُمومِ والخصوصِ بين الجُملتَين، هي عِلّةُ الفصْلِ

بينَ قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ والجملةِ السّابقة: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، (كمالُ اتّصالٍ)، وهو مُسوِّغُ الفصلِ هنا؛ لأنّها مُؤكِّدةٌ لها؛ إمّا باعتبار ابْتِناءِ هذا على التَّمثيل الأوّلِ، وإمّا بجَعْلِ ذلك إشارةً إليهما[2] ويُزادُ على هذا أنّ العلاقةَ بين الجُملتَين هي علاقةُ العُموم والخصوصِ، فلفظُ الأمثال لفظٌ عامٌّ؛ لكونه جمعًا مُعرَّفًا بالألف واللّام، وعليه فالجملةُ الثّانيةُ "أعمُّ من جملة ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ لدلالتِها على صِنفٍ مِنَ المَثَل دونَ جميع أصنافِه، فَلَمّا أُعقِبَ بمَثَلٍ آخرَ وهو ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾، جيءَ بالتّنبيه إلى الفائدة العامّةِ من ضربِ الأمثالِ. وحَصَلَ أيضًا تَوكيدُ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾؛ لأنّ العامَّ يَندَرِجُ فيه الخاصُّ"[3].

سِرُّ النّصِّ على لفْظِ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في السّياقِ:

إظْهارُ كمالِ اللُّطْفِ بضربِ الأمثالِ للنّاس، لعلَّهم يَهتدون

في النّصِّ على ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ دلالةٌ على إظهارِ كمالِ اللّطفِ الإلهيِّ، والعنايةِ بالنّاس وإرشادِهم حرصًا على هدايتِهم[4]، وهذا هدفٌ مُهمٌّ لوقوع التّمثيلِ في القرآن الكريم، في كلّ بابٍ يليقُ به؛ لأنّه بالأمثال تتّضحُ المُشتَبهاتُ، وتتحقّقُ المُتَخَيّلاتُ[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/490.

نُكتةُ تعريفِ (ال) للّفظِ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾:

من صيغ العُمومِ الجمعُ المُعرَّفُ بالألفِ واللّامِ

تعريفُ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ بالألف واللّام لإفادة العُموم[1]، فالجمعُ المُعرَّفُ بالألف واللّام أحدُ صيغِ العُموم، وهو يُناسِبُ سَعةَ الأمثال وتنوُّعَها.

التَّعْبيرُ عنِ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ بالجمْعِ:

الشُّمولُ والعُمومُ سِرُّ جمْعِ اللّفظِ الكريمِ

جَمَعَ لفظَ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مع أنّ المذكورَ في الآية مَثَلان فقط، قصْدًا إلى بقيّة الأمثالِ المَذكورةِ في السّورة وفي غيرِها أيضًا، فاللّفظُ عامٌّ كما مضى، وهو يشيرُ إلى أهمّيّة ضربِ الأمثالِ في كلِّ مَوضِعٍ تصلحُ له في إظهار كمالِ العنايةِ بالنّاس، والحرْصِ على صلاحِهم وهِدايتِهم.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

(يوقدون) و(يُشعلون) و(يُضرِمون):

الإيقادُ للفعل، والإشعالُ لِما انتشرَت نارُه، والإضرامُ لسرعة الإشعالِ

يوقدون: الوَقدُ: ما ترى من لَهَبِ النّار[2] والوُقودُ، هو الحَطبُ، وكلُّ ما أوقِدَ بِهِ فهو وقودٌ[3] ويَضرمون: الضّرمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حَرارةٍ والتِهابٍ. من ذلك الضِّرامُ مِنَ الحَطبِ: الّذي يَلتهِبُ بسرعةٍ[4].

ويُشعلون: الشَّعلُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على انتِشارٍ وتفرُّقٍ في الشّيءِ الواحدِ من جوانبِه. يُقالُ أشعَلتُ النّارَ في الحَطبِ، واشتَعَلَت النّارُ. واشتَعَلَ الشّيبُ. قال اللّه ﷻ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4]. والشَّعيلَةُ: الفَتيلةُ إذا كانَت مُشتَعِلَةً، وقيلَ: بَياضٌ يَشتَعِلُ، قال تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4] تشبيهًا بالاشتِعالِ من حيثُ اللّونُ[5].

وبعدَ هذا العرضِ نستطيعُ تلمُّسَ الفروق بين ثلاثتِها، وهي دقيقةٌ جدًّا؛ لأنّ التّقارُبَ الدّلاليَّ بينَها وثيقٌ للغاية على هذا النّحو:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(2) الخليل، العين: (وقد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وقد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضرم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شعل).

يوقدون: يدلُّ على الفعل نفسِه، ويشيرُ إلى استعمالِه تعبيرًا عن نفس الفعلِ بلا زيادةِ معنًى عليه، قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: 80]، والوقودُ يكون بحطبٍ وبغيرِ حَطبٍ، فكلُّ ما يتمُّ به الإيقادُ داخلٌ فيه، ولذلك استعملَه القرآنُ مع الإيقادِ على المَعادن في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وهي تحتاجُ إلى نارٍ ثقيلةٍ ومُستمرّةِ التَّوقُّدِ، وهو ما لا يكفي فيه الحطبُ وحدَه، بل يحتاجُ إلى موادَّ أخرى تدومُ وتطولُ، فالحدّادون مثلًا رأيناهُم قديمًا يَستعملون نوى التّمر؛ لأنّه أبقى وأدومُ، كما استعملَه القرآنُ أيضًا في الإيقاد على الطّين في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: 38]، والإيقادُ على الطّين مِثلُ سابقِه يحتاجُ إلى موادَّ أخرى أشدَّ منَ الحطب وأثقلَ، ليطولَ بقاؤه مُتوقِّدًا، ليتمَّ تصلُّبُ اللّبِن، فيقسو، ويكونَ أقوى تحمُّلًا.

وأمّا الإشعالُ فيُطلَقُ على النّار المُنتشرَةِ المُتشعِّبة، وهو يختلفُ عنِ الإيقاد الّذي يُطلَقُ على النّار المُجتمِعة، لتكونَ أشدَّ حرارةً، ولذا استعملَ القرآنُ لفظَ الاشتعال مجازًا في انتشار الشّيبِ في الرّأس في قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]، وكأنّ الاشتعالَ يكونُ بموادَّ خفيفةٍ، كالحطبِ وما دونَه، كسيقان النّباتِ اليبسةِ، فإنّها لِخفَّتِها تنتشرُ نارُها وتتطايرُ. وأمّا الإضرامُ فيكونُ بالحطب سريعِ الاشتعال، وكأنّه لا يُقالُ: أُضرِمَتِ النّارُ في كذا، إلّا مصحوبًا بالسّرعة في الفعل لسرعة الوصولِ إلى الغرض. ومِن هنا فإنّ لفظَ الإيقاد أنسبُ لسياق الآية؛ لدخولِ كُلِّ ما يَتِمُّ به الإيقادُ فيهِ، ولذلك استعملَه القرآنُ مع الإيقاد على المَعادن في الآية.

الابْتِغاءُ والطّلبُ:

كـلُّ ابْـتِـغـاءٍ طـلـبٌ، ولـيسَ كلُّ طلبٍ ابْتِغاءً

في المُعجم اللّغويِّ، يُعرَفُ كلٌّ منهما بما يُعرَفُ به الآخرُ؛ وذلك لتقاربِهما الدّلاليِّ الشّديدِ، قال ابنُ فارس في بيان معنى الطّلب:

"الطّاءُ واللّامُ والباءُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على ابتِغاءِ الشَّيءِ"[1] وكذلك في بيان معنى الابتغاءِ قيلَ: هو الطّلبُ. يُقال: "بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبَه"[2] لكن يُفرّقُ بينَهما بأنّ الابتغاءَ هو نوعٌ مخصوصٌ منَ الطّلب، فهو الطّلبُ الّذي بُذِلَ في سبيل تحصيلهِ جهدٌ مُميّزٌ، وليس كذلك كلُّ طلبٍ"؛ فالابتغاءُ افتِعالٌ منَ البغي.

وقد غلبَ اختصاصُ هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواء كان الطّلبُ مَحمودًا أم مذمومًا. ثمّ إنّه يُحمَدُ بحمدهِ ويُذَمُّ بذمِّهِ؛ أي: أنّ الطّلبَ متى كان لشيءٍ مَحمودٍ فالابتغاءُ فيه محمودٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: 28]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، ومنه أيضًا الآية الّتي معنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرّعد: 22]، ومتى كانَ الطّلبُ مذمومًا كانَ الابتغاءُ فيه مذمومًا، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التّوبة: 48][3].

وعلى هذا يكونُ بين الطّلبِ والابتغاءِ عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ، فكلُّ ابتغاءٍ طلبٌ، وليسَ كلُّ طلبٍ ابتغاءً. وعليه يكونُ اختيارُ لفظ الابتغاءِ أنسبَ للسّياق بوصفِ الحِلية والمَتاعِ ممّا يُطلَبُ، ويُبذَلُ في سبيل تحصيلِه جهدٌ مُميَّزٌ.

المكوث والبقاء:

كلُّ مُكثٍ بقاءٌ، وليسَ كلُّ بقاءٍ مُكثًا

المُكثُ يدلُّ على الاستقرار والثّباتِ بالمكان زمنًا، مع ترقُّبٍ وانتظارٍ[4] وهذا الزّمنُ قد يَطولُ وهو المعنى المناسِبُ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقد يَقصرُ كما في قوله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).

تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: 22]، وقد يكونُ على الدّوام كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزّخرف: 77].

وأمّا البَقاءُ فهو ثباتُ الشّيءِ على حالهِ الأولى، والبقاءُ المُطلَقُ هو للّه وحدَه[1]، وهو أيضًا يطولُ ويقصرُ، وفي طولهِ قد يمتدُّ إلى معنى الدّوام[2]، وعليه يكونُ هنالك اشتراكٌ في أصل المعنى بين المُكثِ من حيثُ معناه الثّباتُ والاستقرار بالمكان، والبقاءِ؛ أي: في المكان، وهو الثّباتُ فيه كذلك، وكلاهما يشتركان كذلك في طولِ الزّمن أو قصرِه، غير أنّ المُكثَ ينفرِدُ بمعنى التَّرقُّبِ والانتظارِ. ومِن ثَمّ يكونُ بينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ، فكلُّ مُكثٍ بقاءٌ، وليسَ كلُّ بقاءٍ مُكثًا. ومعنى التّرقُّبِ والانتظارِ المُصاحبَين للاستقرار في الأرضِ يناسبُ اختيارَ لفظِ المُكثِ، لِما ينفعُ فيها.

(1) الرّاغب، المفردات: (بقي).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بقي).

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [الرّعد: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين الزّبدِ وما يَنفعُ النّـاسَ، وبين مآلِ المُستَجيبين والمُعرِضين

لّما ضَرَبَ اللّه الأمثالَ المُؤَثِّرةَ القويّةَ للنّاس لعلّهم يَعلمون فيؤمنون، افترقَ المخاطَبون حيالَها إلى فريقين؛ فريقٌ استجابَ لربِّه، واتّعظ بالأمثال، وأفادَ من مَراميها، وفريقٌ عميَ وتغافلَ عنِ الاعتبار بها وبمقاصدِها، فجاءَتِ الآيةُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ لتُبيِّنَ مآلَ المُستجيبين المُعتبِرين، ومآلَ المُعرِضين المُعانِدين الّذين لم يَستَجيبوا لربِّهم. فللمُستَجيبين الحُسنى، وللمُعرِضين الحسرةُ والنّدامةُ وعذابُ جهنّمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾: أصلُ (فدي) أنْ يُجعَلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى لَهُ، يُقالُ: فَدَيتُهُ أفديهِ، كأنَّكَ تَحميه بنَفسِك أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عنهُ[1]، والفِدَى: جَمعُ فِديَةٍ. والفِداءُ: ما تَفدي به وتُفادي. والفِعلُ: الافتِداءُ[2]. وافتَدى: إذا بَذَلَ ذلك عن نَفسِه، والمُفاداةُ: هو أن يَرُدَّ أسرَ العِدَى، ويَسترجِعَ منهُم مَن في أيديهم[3]. وتَفادَى القومُ: استَتَرَ بعضُهم ببعض مَخافةً، وتَفَدَّيتُه وفَدَّيتُه واحدٌ[4]. والمقصودُ بـ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾ في الآية: إعطاءُ شيءٍ بدلًا عَن حَقٍّ للمُعطَى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(4) الخليل، العين: (فدي).

2) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: أصلُ (مهد) يدُلُّ على تَوطِئَةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[1]. والمهدُ: التَّوثيرُ، ويُقالُ للفِراش: مِهادٌ لوَثارته. يُقالُ: مَهَّدتُ لنَفسي، ومَهَّدتُ؛ أي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا، ويُقالُ: مَهَدتُ لنَفسي خيرًا؛ أي: هيَّأتُه ووطّأته[2]. والمَهدُ أيضًا: للصَّبيِّ، وكذلك المَوضِعُ إذا مُهِّدَ ووُطِّئَ[3]. والمِهادُ اسمٌ أجمَعُ منَ المَهد، كالأرض جَعَلَها اللّٰه مِهادًا للعباد، وجمعُ المِهاد مُهُد وثَلاثَة أمهدة[4]. والمُرادُ بـ ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ في الآية: اسمٌ لشيءٍ يُمَهَّدُ؛ أي: يوطَّأُ ويُسَهَّلُ لِما يَحِلُّ فيه. وإنَّما سَمَّى جهنَّمَ مِهادًا تَهكُّمًا؛ لأنَّ العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهم وظهورَهم[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

للمُؤمنين الطّائعين الجزاءُ والنّعيمُ، وللعُصاةِ النّارُ والعذابُ الأليمُ

بيَّنَ اللّٰه سُبحانَه في هذه الآية عاقبةَ أهلِ الحقِّ، وعاقبةَ أهلِ الباطلِ، فقال: للّذينَ أجابوا ربَّهم، فآمَنوا به، وأطاعوه ورَسولَه، الجزاءُ الحسَنُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخرة، والّذين لم يُؤمِنوا بربِّهم، ولم يطيعوه ورَسولَه، لو أنَّهم يَملِكونَ كُلَّ شَيءٍ في الأرض، ويَملِكونَ مِثلَه معه، لقدَّموه فداءً؛ لتخليصِ أنفُسِهم من عذابِ النّارِ يومَ القيامةِ، فلن يُتَقبَّلَ منهُم، أولئك يُحاسَبونَ على كُلِّ ما أسلَفوه مِن عمَلٍ سيِّئٍ، ومَسكَنُهم ومَقامُهم جهنَّمُ تكونُ لهم فِراشًا، وبِئسَ الفِراشُ الَّذي مَهَدوه لأنفُسِهم[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

فائِدةُ الاسْتِئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

بيانُ جَزاءِ الفريقَين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ

تعودُ فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ هنا إلى بيان جزاءِ كُلٍّ من أهل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (مهد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/505، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/307، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/449، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 416.

الحقِّ وأهلِ الباطلِ، بعد أن سلفَ في المَثَلين السّابقَين تمثيلُ كُلٍّ من الحقّ والباطل للمُمثَّل لهم، بما يعظِّمُ من قدرِ الحقِّ ويحبِّبُه للنّاس، ويشنِّعُ الباطلَ ويبغِّضُه لديهم. وكأنّ سائلًا سألَ: إذا كانَ هذا شأنَ كُلٍّ منَ الحقّ والباطل، فما جزاءُ مَن امتثلَ للحقّ، وما جزاءُ مَن هوى إلى الباطل؟ فكانَ الجوابُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾، وحينئذٍ يكونُ بين هذه الجملةِ وما قبلَها شِبْهُ كمالِ اتّصالٍ، وقد يكونُ تقديرُ السّؤال: ما فائدةُ ضربِ الأمثال؟ والجوابُ: الفائدةُ أنّها حين تُضربُ يظهرُ أنّ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وحينئذٍ يكونُ في ذكر جملة الاستئنافِ البيانيِّ، "زيادةُ تنبيهٍ لِلتّمثيلِ ولِلغرضِ منه، مع ما في ذلكَ مِن جزاءِ الفَريقَين؛ لأنّ المُؤمنينَ استجابوا للّه بما عَقَلوا الأمثالَ، فجوزوا بالحُسنى، وأمّا المُشركون فأعرَضوا، ولم يَعقِلوا الأمثالَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43]، فكانَ جَزاؤُهم عذابًا عظيمًا، وهو سوءُ الحساب"(1).

إيثارُ الاسمِ الموصولِ عن ذِكْرِ المؤمنين والكافرين:

تَعليلُ جزاءِ كُلٍّ مِنَ الفريقين بارِزٌ في الصِّلتَين

لم يصرِّحْ هنا بذكر الفريقَين؛ المؤمنين أهلِ الحقّ، والكافرين أهلِ الباطل، وإنّما عَدَلَ إلى المَوصولَين وصِلَتَيهما في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ إيماءً إلى أنّ الصِّلَتَين - الاستجابةَ وعدمَ الاستجابة - سَببانِ لِما حَصَلَ للفريقَين(2)، فكان الموصولُ هنا مدحًا لأهل الحقِّ، والموصولُ الثّاني ذمًّا لأهل الباطلِ.

دَلالةُ تَقديمِ جملةِ الخبرِ (المُسنَدِ) على المُسنَدِ إليه:

فائِدةُ التَّقديمِ الحصْرُ، وهو مِن فَصيحِ البَيانِ

في تقديم جملةِ الخبرِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ ما يفيدُ الحصْرَ(3)، وفيه تحقيقٌ لغرَضٍ مُهمٍّ هو التّنويهُ بشأن الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.

استَجابوا[1]، وتفخيمُ أمرِهم؛ لكونِهم استجابوا لربِّهم، وانْتَفعوا بضرب الأمثالِ، بخلاف غيرِهم.

التَّعْبيُر عنِ الاسْتِجابةِ بالفعْلِ الماضي:

الاسْتِجابةُ للهِ سِمةُ الصّالحين، ماضيا وحاضِرًا

عبَّرَ في جملة الصّلة بالماضي فقال: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾ دلالةً على تحقُّق ذلك فيهم في الماضي، واستمرارِه أيضًا في الحال، كما هو معروفٌ من دلالة الصّلةِ عندما تكونُ فعلًا ماضيًا. ووَسْمُهُم بحتميّةِ الانقيادِ والاستجابةِ إعلاءٌ لمكانتهم بوصْفِهم خاضعينَ، مُنقادينَ، طائعينَ لربِّهم، وهذه صفاتُ المؤمِنِ الحقِّ.

بِناءُ الفعْلِ على صيغةِ الاسْتِفعالِ:

بيانُ أنّ اسْتِجابَتَهم كانت عن طلَبٍ، ورغْبةٍ، وطاعةٍ

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾؛ معناه: أجابوا، والسّينُ والتّاءُ فيه لتقوية الفِعل[2]. وتدلُّ على معنى الطّلب؛ أي: أنّهم طالِبونَ للإجابة، راغبونَ فيها انقيادًا وطاعةً.

دَلالةُ اللّامِ وتعلُّقُها مع مجرورِها:

تَحقيقُ القولِ في المُتعلَّقِ، وما يترتَّبُ عليه من مَعانٍ

اللّام هي لامُ الاسْتِحقاقِ، والأصحُّ في مُتعلَّق اللّام الجارّة ومجرورِها، أنّه محذوفٌ، والجملةُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، والمبتدأُ هو ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وذلك لأنّ الجملةَ استئنافيّةٌ، كما مضى توجيهُها على هذا. ويجوزُ كونُ الجارِّ والمجرور مُتعلِّقَين بـ﴿يَضۡرِبُ﴾[3]، وحينئذٍ يكونُ ضربُ الأمثالِ هو ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾، واللّامُ داخلةٌ على المُمثَّل له[4]، ولا يُساعدُ هذا الرّأيَ جمعَ لفظ الأمثالِ، مع كون الّذي مرَّ في الآية السّابقة مثلَين فقط، فصيغةُ الجمع إذن غيرُ مُلائِمة[5] وهذا معناه أنّ ضربَ الأمثال مُرادٌ به النّاسُ، وليس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/534.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/375، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/126.

فقط المُستجيبين وقسماءَهم. ثمّ إنّ تخريجَ الآية على الاستئنافِ أقوى، وفصاحةُ النّظم تَستدعيه[1]؛ لأنّ فيه بيانًا لجزاء الفريقَين، وهي النّتيجةُ والغايةُ، كما أنّ التّخريجَ عليه يَخلو مِنَ الاعتراض المذكورِ. ولذا فإنّ علماءَ الوقف والابتداءِ نَصّوا على لزوم الوقفِ على ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، فهو عندَهم وقفٌ تامٌّ[2] بحسب ما يرجِّحُه أيضًا قولُه تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، فـ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هي الجنّة، وعليه يكونُ معنى الآية: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ الجنّة، فيَلتئِمُ السّياقُ، بخلاف التّخريج الآخرِ، فإنّ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ عليه تكونُ صفةً لمصدرٍ محذوف؛ أي: الاستجابة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، ولا معنى حينئذٍ لهذا الوصف؛ لأنّ كلَّ استجابةٍ للّه هي حُسنى.

التَّعْبيرُ بلفْظِ (الرّبّ) في السّياقِ الأكرمِ:

في التّعبير باسْمِ الرّبِّ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إشارةٌ إلى إنعامِه سُبحانَه عليهم بتوفيقِهم إلى الاستجابة، وتنويهٌ بشأنِهم في عدم الغفلةِ عنِ الاستجابة لربِّهم كما فعلَ غيرُهُم.

مِن نِعَمِ الله على العبد، أن يُريَهُ الحقَّ حقًّا، ويَرْزُقَهُ اتّباعَه

عِلّةُ إضافةِ الرُّبوبيّة إلى ضميرِ المُستجيبين:

في إضافةِ اسْمِ الرّبِّ إلى ضميرِهم تشريفٌ لهم، وإعزازٌ لمكانتِهم، وإعلاءٌ لشأنِهم، وهم أهلٌ لهذه المَكرُمةِ لاستجابتِهم داعيَ ربِّهم.

الاستجابةُ للرّبّ الرّحيمِ تشريفٌ واصطفاءٌ وتكريمٌ

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ صيغةً ومعنًى:

الحُسنى مُؤنَّثُ أحسن - أفعلَ التّفضيل منَ الحُسن - لكنّه هنا ليس على بابه، لذا فالمُرادُ بالحُسنى الحالُ البالغةُ أقصى درجاتِ

لا شيءَ أوْفى بوصْفِ (الحُسنَى) منَ الجَنّةِ

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 8/500.
وقال الطّيبيّ في هذا الموضع: الفصاحةُ على انقطاعِ ما بعدَ الفاصلة عنها، ولهذا انحطَّ قولُ امرئ القيس:
ألَا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألَا انجَلي *** بصُبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثَلِ
عن قول أبي الطّيب:
إذا كانَ مدحٌ فالنّسيبُ المُقَدَّمُ *** أكُلُّ فصيحٍ قالَ شِعرًا مُتَيَّمُ
(2) الدّاني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 107، والأشمونيّ، منار الهدى، ص: 407، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/375.

الحُسنِ ونهايتِه الّتي لا غايةَ في الحُسن بعدَها[1]، ولا شيءَ أوفَى بهذا الوصف منَ الجَنّة، ولا أحقَّ به منها.

إيثارُ الإجْمالِ في جزاءِ المُسْتَجيبين:

ولم يَزِدْ في جزاء الّذين استجابوا على النّصِّ بأنّ لهُمُ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، كما فصَّلَ في جزاء الّذين لم يَستجيبوا؛ إيثارًا للإجمال والاختصارِ؛ وللدّلالة على أنّ جزاءَ المُستجيبين، لا يدخلُ تحتَ الوصْفِ[2]، فهو أعلَى مِن كلِّ وصْفٍ يُمكنُ أن تذهبَ إليه نفسٌ.

الــــوَصْـــفُ بـ (الحُسنى) أعلَى من كـلِّ وصْـفٍ مُحتَملٍ

دَلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ ابتدائيّةٌ أوِ استئنافيّةٌ[3]، والجملةُ بعدَها مُستأنَفةٌ. واسْمُ الموصول مبتدأٌ، وخبرُه جملةُ ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾[4]، واستأنفَ ولم يعطفْ لانتفاءِ الشَّراكةِ بين مَن يَستجيبُ ومَن لا يَستجيبُ، فضلًا عنِ الإيذان برديء فعلِهم أنّهم لم يستجيبوا.

لا شَراكةَ بين مَن يَسْتجيبُ لربِّه، ومَن لا يَسْتجيبُ

فائِدةُ تَكرارِ الموصولِ في السّياقِ الكريمِ:

ذِكْرَ الموصولَ مع الجملة الثّانيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ ذمًّا لهم، وقصدًا لجملة الصّلةِ؛ لأنّها تحملُ سببَ عدمِ اعتبارِهِم بالأمثال، تمامًا كالموصول وصِلَتِه في الجملة الأولى[5].

ذِكْـرُ الموصولَ لِـذَمِّـهـم، بما تحملُه جملةُ الصّلةِ

تَوْجيهُ جملةِ النّفْيِ بالحرف ﴿لَمۡ﴾ دونَ غيرِه:

صيغَتْ جملةُ النّفي مُصدرَّةً بـ ﴿لَمۡ﴾ النّافيةِ دونَ غيرِها، كـ(لا)، و(لن) للدّلالة على أنّهم لم يستجيبوا لربِّهم في ماضيهم، وأيضًا في حاضرِهم؛ بخلاف (لا) فهي لنفيِ الحال والاستقبال، و(لن)

دَلالـــةُ (لـم) عـــلى نـفْـيِ اسْتِجابتِهِم، ماضيًا وحاضرًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3926.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/126.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/43، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.

لنفيِ الاستقبال، كما هو مَعلومٌ. وفي النّفي بها دعوةٌ لهم إلى تدارُكِ حالِهم، حيثُ لم يقضِ عليهم نصُّ الآية بعدمِ الاستجابة أبدًا.

التّعْبيُر عن نفْيِ الاسْتجابةِ بالمضارع:

نفيُ الاسْتِجابة دائمٌ؛ لدوامِ رُكونِهم إلى الكفْرِ والكنودِ

عبَّرَ بالمضارع الّذي دخلَت عليه ﴿لَمۡ﴾ النّافيةُ الجازمةُ؛ للدّلالةِ على نفْيِ الاستجابةِ في الماضي، واستمرارِهِ في الحال.

بَلاغةُ طِباقِ السّلْبِ بين ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾ و﴿لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

بضدِّها تَتميّزُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ

بينَ قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾ في الجملة الأولى وقولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ في الجملة الثّانية ما يُعرَفُ بطِباقِ السّلبِ النّاتجِ عنِ اختلافِهما إيجابًا في الأولى؛ إذ أثبتَ الاستجابةَ لفريق أهلِ الحقّ، وسلبًا في الثّانية حيثُ نفاها عن أهل الباطلِ.

نُكتةُ العُدولِ منَ الرُّبوبيّةِ إلى الضّميرِ في ﴿لَهُۥ﴾:

حِرمانُ الكافرين مِن شَرَفِ الإضافةِ إلى اسْمِ الرّبِّ

يُلحَظُ من جملة الفروقِ بين الجملة الأولى والثّانية، أنّه في الأولى أظهرَ اسْمَ الرّبِّ، وأضافَه إلى ضمير المُخاطَبين، تشريفًا لهُم، وهو ما لم يحدُثْ في الجملة الثّانية، فقد عبَّرَ بالضّمير؛ مَنْعًا للتّكرار بلا داعٍ، وبيانًا لكونِهم ليس من شأنِهم أن يستجيبوا لحقٍّ[1]، وأيضًا كي لا يَحوزوا شرفَ الإضافةِ الّتي حازَها أهلُ الحقِّ.

بَديعُ إخْفاءِ عَذابِ الّذين لم يَسْتَجيبوا:

تهويلُ عَذابِهم بإخْفاءِ نوْعِه

في سَوق الجملةِ الامتناعيّة: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ دونَ أن يُصرِّحَ بنوع العذابِ، دلالةٌ على هوْلِه؛ بحيث لا تساعدُ على وصْفِه العبارةُ الصّريحةُ ولا الإشارةُ[2] وهذا من جملة الفروقِ بين الجُملتَين كذلك. ومن جملة الفروقِ بين الجُملتَين العُدولُ بتقديم المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾؛ إذ إنّه في سبيل الإخبارِ عن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/1327.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.

وعيدِهِم "أُجري على أصل نظمِ الكلامِ في التّقديم والتّأخير؛ لقلّةِ الاكتراثِ بهم"(1).

دَلالةُ ﴿لَوۡ﴾ الشّرطيّةُ في هذه الجُملةِ القُرآنيّةِ:

تفيدُ ﴿لَوۡ﴾ الشّرطيّةُ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ الامتناعَ المُتكرِّرَ؛ أي: امتناعَ وقوعِ الجزاءِ، لامتناعِ وقوعِ الشّرط، فهي مفيدةٌ هنا عدمَ وقوعِ الفداء؛ لأنّه ليسَ لهم ما في السّماواتِ والأرضِ، فضلًا عن ضعْفِه، ودالّةٌ على فداحةِ عذابِهم، وهوْلِ عقابِهم.

لـن يَـقـعَ الـفِـداءُ منهم؛ لاسْتِحالةِ حيازةِ ما في السَّماواتِ والأرضِ

وَجْهُ التّوكيدِ بـ ﴿أَنَّ﴾ في سياقِ الآيةِ:

في التّعبير بـ ﴿أَنَّ﴾ التّوكيديّةِ دلالةٌ على أنّ الأمرَ ليس مَبنيًّا على المُبالغة؛ بل هو حقيقةٌ، لو حصلَ المُمتنَعُ - وهو غير حاصلٍ -، فلو أنّ لديهم ما ذكرَتْه الآيةُ، ما تردّدوا في التّضحيةِ به، فداءً لأنفسهم، ممّا يلاقونَه من عذابٍ.

لا شيءَ يَـعْـدِلُ الـنّـفْـسَ عـنـدَ صاحِبِها، وكلُّ شـيءٍ دونَـهـا يهونُ

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، وفيه أنّ اللّامَ الجارّةَ هي لامُ شبْهِ المُلْكِ الدّاخلةُ على ضميرِهِم، وهي ملكيّةٌ قُصِدَ بها التّحسيرُ، وفي تقديمِهما دلالةٌ على الاخْتصاصِ، والاختصاصُ هنا مُجرَّدُ فرْضٍ؛ لأنّ الكلامَ مُعلَّقٌ على مُستحيلٍ، وهو أن يَملِكوا ما في الأرض وضِعفَه، وهو مُستحيلٌ حُصولُه.

الاخْـتِـصـاصُ والـتّـحْـسيرُ في الـتّـعـبـيرِ مِـنَ البيانِ الأثيرِ

إيثارُ ﴿مَّا﴾ الموصولةِ في الجملةِ:

أوثِرَت ﴿مَّا﴾ الموصولةُ؛ لكونِها جامِعةً للمَقصود مع تحقيق الإيجاز؛ لاستغراقِها عمومَ موجوداتِ الأرض، بما تحملُه من دلالة الإبهامِ والعُمومِ.

حَصَلَ المقصودُ بـالإعـمـامِ، وحقّقَ الإيجازَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

وَجْهُ تعريفِ لفْظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ذُكِرَتِ الأرضُ مُعرَّفَةً؛ لتفخيمِها والتّنبيهِ إلى أهمّيّتِها

أفاد تعريفُ الأرض في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ التّفخيمَ على معنى: أنّ هذه الأرضَ الفخمة، المُشتمِلةَ على المَنافعِ العظيمةِ، لو أنّها في ملكِهم لضَحّوا بها؛ فداءً لأنفسِهم منَ العذاب.

فائِدَةُ التّوكيدِ بلَفْظِ ﴿جَمِيعٗا﴾ في السّياقِ:

لن يَضِنّوا على فِداءِ أنفسِهم، بكلِّ ما في الأرض، لو امْتَلكوه

أفادَت كلمةُ ﴿جَمِيعٗا﴾ التّوكيدَ؛ أي: توكيدَ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فمِنَ المُؤكَّدِ أنّهم لن يَضِنّوا على فداءِ أنفسِهم، بكلّ ما في الأرض لو مَلَكوه. ففي لفظِ التّوكيدِ بيانُ شدّةِ اضطرارِهِم لأدنى شيءٍ يَفتدونَ به أنفسَهم، أيًّا كان.

سِرُّ عطْفِ ﴿وَمِثۡلَهُۥ﴾ بالواوِ في الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ المبالغةِ في إظْهارِ الرّغبةِ، في فداءِ النّفسِ بكلِّ نفيسٍ

قولهُ تعالى: ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ معطوفٌ على ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والعطْفُ بالواو بقصْدِ الجمْعِ والتّشريكِ والمُبالغةِ في إظهارِ رغبتِهم في التّضحيةِ بالنّفيس والسّعي للفداء بالعزيز، بل بما في الأرض جميعًا على فرضِ تملُّكِهم إيّاه، لغرضِ الأمانِ منَ العذابِ.

دَلالةُ الإطْنابِ في السّياقِ بقوله ﴿مَعَهُۥ﴾:

تَهْويلُ العذابِ الواقِعِ عليهم بالنّصِّ على المَعيّةِ

نصَّ على قوله تعالى ﴿مَعَهُۥ﴾ وهو ظرفٌ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ لوقوعهِ مَوقِعَ الحال من قوله تعالى: ﴿وَمِثۡلَهُۥ﴾[1]، وفائدةُ النّصِّ على المعيّةِ "التّصريحُ بفرض كينونَتِهما لهم بطريق المعيّةِ، لا بطريق التّعاقُبِ؛ تحقيقًا لكمال فظاعة الأمر"[2].

معنَى اللّامِ في قوله ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾:

الإنكارُ يَستدعي التّوكيدَ، في السّياقِ الرّشيدِ

اللّامُ هي الواقعةُ في جواب ﴿لَوۡ﴾، وهي مُفيدةٌ للتّأكيد؛ لأنّ المُشركين كانوا مُنكِرين للبعث، ومُنكِرين أن يذلَّهم شيءٌ، أو يوهِنَ

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/143، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/110.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/33.

قواهم شيءٌ"[1]. وقد حكى القرآنُ عنهم هذا في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35].

بِناءُ الافْتِداءِ على صيغةِ الافْتِعالِ:

المحبوبُ بالذّات أقوَى منَ المحبوب بالعَرَض

بَنى صيغةَ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾ على الافتعال، فلم يقُلْ: (لفدوا) دلالةً على استعدادِهم لبذْلِ أقصى طاقاتِهم في البذل والتّضحية، بكُلِّ ما يَملِكون، ولو كانَ ما يملكونَه كلَّ ما في الأرض وضعْفَه بل وأكثرَ؛ "لأنّ المَحبوبَ بالذّاتِ لكلِّ إنسانٍ هو ذاتُهُ، وكلُّ ما سواهُ فإنّما يحبُّهُ لكونِه وسيلةً إلى مَصالِحِ ذاتِه، فإذا كانَتِ النّفسُ في الضَّرَرِ والألمِ والتَّعبِ، وكانَ مالكًا لِما يُساوي عالَمَ الأجسادِ والأرواحِ، فإنّه يَرضى بأنْ يَجعلَهُ فِداءً لنفسِه؛ لأنّ المحبوبَ بالعَرَضِ، لا بدَّ وأنْ يكونَ فِداءً لِما يكونُ محبوبًا بالذّات"[2].

دَلالةُ شِبْهِ الجملةِ ﴿بِهِۦٓ﴾ في السّياقِ:

دَلالةُ الباءِ على المبذولِ بدخولِها عليه

الباءُ الجارّةُ في قوله تعالى: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ هي باءُ العِوضِ الّتي تدخلُ على المَتروك أوِ العِوضِ المبذولِ.

عِلّةُ إفرادِ الضّميرِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

أفردَ الضّميرَ؛ ليدُلَّ على أنّه شامِلٌ ما في الأرض وزيادةً

أفردَ الضّميرَ المجرورَ ﴿بِهِۦٓ﴾ مع أنّ الّذي تقدَّمَه شيئان؛ وهما: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنّهما لتلازمِهما قد صارا بمنزلةِ شيءٍ واحدٍ، أو لإجراءِ الضّميرِ مَجرَى اسْمِ الإشارةِ، بأن يُؤوَّلَ المَرجِعُ المُتعدِّدُ بالمذكور[3] أو يكونَ الضّميرُ عائدًا إلى ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ لكونِه شاملًا ما في الأرض وزيادةً[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/31.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/188.

فائِدةُ الإتيانِ باسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَنزلتُهم عاليةٌ في الكفْرِ لا في الإيمانِ

جيءَ باسْمِ الإشارة الخاصِّ بالبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ للدّلالة على بُعدِ مَنزلتِهم في الكفر، وفي عدم الاستجابةِ لله.

ومِن أسباب الإتيانِ به كذلك "التّنبيهُ على أنّهم أحرياءُ بما بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِنَ الخبرِ بسببِ ما قَبْلَ اسْمِ الإشارةِ مِنَ الصّلةِ"[1]؛ أي: هُم جديرون بأن يكونَ لهم سوءُ الحساب؛ لكونهم لم يستجيبوا لربِّهم.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾:

رَفَضوا الاسْتِجابةَ، فخَصّوا أنفسَهُم بسوءِ العذابِ

أفادَ تقديمُ شِبهِ الجملةِ مِنَ الجارّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ على قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قصْرَ سوءِ الحسابِ عليهم، واختصاصَه بهم، وإخراجَ أهلِ الحقِّ منه، بحيث لا ينالُهُم منه شيءٌ.

تَعْريفُ السّوءِ بالإضافةِ:

أبرزَ المَوْصوفَ؛ ليحملَهُم على الارتِداعِ

عَرَّفَ السّوءَ بالإضافة فقال: ﴿سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وهو من إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ؛ إبرازًا للموصوف، وهو ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾، لعلَّه أن يُحدثَ فيهم هزّةً فَيرتدِعوا. والمُرادُ بـ ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ ما يَحُفُّ به "من إغلاظٍ وإهانَةٍ للمُحاسَبِ. وأمّا أصلُ الحسابِ فهو حَسَنٌ؛ لأنّه عَدلٌ"[2] ومن صوَرِ سوءِ الحسابِ المناقشةُ فيه، والسّؤالُ عنِ النّقيرِ والقِطميرِ، وما يُصاحبُهُ من تقريعٍ وتوبيخٍ، ويُشيرُ إليه قولُه ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ»[3].

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ دونَ (العقابِ والعذابِ):

الحِسابُ هو العَدْلُ، وقد لا يَقتضي عِقابًا

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ دون العقابِ في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/123.
(3) البخاري، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (6536).

﴿ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنّ المقصودَ بسوء الحساب، ما يسوءُ الإنسانَ، مُتزامِنًا مع الحساب، وليس شرطًا أن يكونَ ما يسوءُ عقابًا، فقد يسوءُ الإنسانَ، ما لم يبلُغْهُ من مراتبَ منَ الكمال، كان يَطمحُ في الوصول إليها، وإنْ كانَت تُعَدُّ عند غيرِه - ممّن لم يكنْ له نفسُ طموحِه - منَ المَكرماتِ.

فائِدةُ التّذْييلِ بجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

قابَلَ تمنّيهُمُ الافتداءَ، بتَثْبيتِ سوءِ عذابِهم

جملةُ التّذييل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ مُقرِّرةٌ لمفهوم ما قبلَها من عدمِ خلاصِهم من سوء العذابِ، لو افتدَوا به، ومُؤكِّدةٌ له[1] ومُبرِزةٌ عسيرَ مآلِهم؛ وشنيعَ مصيرِهم؛ إذ قوبِلَت تَفديتُهُم أنفسَهُم بما في الأرض - لو كانت ملكَهم - بسوء الحسابِ.

دَلالةُ تَكرارِ العطْفِ بحرفِ (الواو) في الجُملِ الثّلاثِ:

حيازتُهُم لأنواعِ العذابِ بالجمْعِ والتّزامُنِ، لا بالتّعاقُبِ

دلَّ العطفُ بالواو - وهي لِمُطلَق الجمع - بين الجُملِ الثّلاثِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ على حيازتِهم لأنواعِ العذابِ الثّلاثةِ المذكورةِ. ونصّ الرّازيُّ على عذابٍ رابعٍ، هو المفهومُ من قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾[2].

عَطْفُ الإنشاءِ على الإخبارِ في جملةِ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾:

بئسَ المآلُ مآلُ مَن يُفضي إلى النّارِ، وبئسَ القرارُ

فيما يخصُّ الجملةَ الثّالثةَ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ فإنّها معطوفةٌ بالواو، وذلك على رأيِ مَن يرى جوازَ عطفِ الإنشاء على الخبر، أمّا على رأيِ مَن لا يجيزُه، وهُم أكثرُ البيانيّين، فإنّ الواوَ تكونُ للحال؛ والمعنى: بيانُ مآلِ حالِهم، بأنّه بئسَ المِهادُ.

إضافةُ المأْوَى إليهم:

طولُ الصُّحبةِ والمُلازَمةِ، هي مُسوِّغُ الإضافةِ

معنى قوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾؛ أي: مكانُهم ودارُهم،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/31.

فالمَأوَى اسمُ مكانٍ، وإضافةُ هذا المكان إليهم دلالةٌ على طول المُلازَمةِ له، بل دوامِها؛ بوصْفِها مأواهم، ومحلَّ استقرارِهم.

إيثارُ لفْظِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ على (النّار):

الجَمْعُ بين التّعذيبِ بالألمِ، والتّعذيبِ بالتّجهُّمِ

في تفسير عربيّة لفْظِ (جهنّم) يُحتملُ أنّه مُشتَقٌّ مِنَ الجهم أو الجهومة، وهو الشّيءُ المخوفُ العابِسُ الكريهُ[1].

وعندئذٍ يكونُ ما يحملُه لفظُ ﴿جَهَنَّمُ﴾ من معنى الكراهية والبُغض والخوف هو مُسوِّغَ اختيارِهِ هنا؛ فلكونِهم كرهوا الاستجابةَ لربّهم، يعاقِبُهُم الله في جهنّمَ الّتي يحملُ اسمُها المعاني الموصوفة المذكورة جزاءً وفاقًا.

بَلاغةُ التَّعبير بفعْلِ الذّمِّ ﴿وَبِئۡسَ﴾:

إردافُ الذّمِّ بسوء المصير، مَسلكٌ في التّنبيهِ والتّحذيرِ

الفعلُ ﴿وَبِئۡسَ﴾ وُضِعَ للدّلالة على الذّمِّ، ويقابلُه (نِعمَ) الدّالُّ على المَدح، وهو فعلٌ جامدٌ غيرُ مُشتقٍّ، لا يدخلُه التّصريفُ[2]، وأصلُهُ مِنَ البؤس[3] وهو يعبِّرُ هنا عنِ الذّمِّ، وقُبحِ المآلِ، وشدّتِهِ، ومَشقّتِهِ.

تَوْجيهُ الإيجازِ بحذْفِ المَخصوصِ بالذّمِّ:

الحذْفُ اختِصارًا يكونُ بتقدُّمِ ذِكْرِ ما يدلُّ على المَحذوفِ

المخصوصُ بالذّمِّ محذوفٌ، وحذفُه يكونُ للاختصار، وحَذَفَ المخصوصَ بالذّمّ مُكتفيًا بالمذكورِ لورودِ ما يدلُّ عليه، وهو جهنّمُ؛ أي: بئسَ المِهادُ جهنّمُ[4].

إيثارُ لفْظِ المِهادِ مُعرَّفًا في السّياقِ الحكيمِ:

التّهكُّمُ بالمُعذَّبين، بتَسْمية جهنّمَ مِهادًا

المِهادُ هو ما يُمهَّدُ من فراشٍ لأجل النّوم عليه، ومنه مَهدُ الطّفلِ.
و(أل) التّعريفيّةُ فيه للعهدِ، والمعهودُ معروفٌ لكونهِ مذكورًا، وهو ﴿جَهَنَّمُ﴾، ومن أغراضِ ذكره اسمًا لِجهنَّمَ وتعريفِه: التّهكُّمُ؛ لأنّ

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4138.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4138.

(3) السّيوطيّ، الإتقان: 2/221.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233.

العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهُم وظهورَهُم[1] وعندئذٍ لن يستطيعَ المُلقَى في جهنّمَ أن يتصرَّفَ لحظةَ وضْعِه في النّار، كما لا يستطيعُ الطّفلُ الوليدُ أن يتصرَّفَ في مِهادِه[2].

تَوْجيهُ المُتشابِهات في ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾:

في تنوُّعِ التّعبيرِ استِقْصاءٌ لألوانِ العذابِ، وإنذارٌ بِعِظَمِها

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ هذه ثلاثةُ أوصافٍ لجهنّمَ مسبوقةٌ بفعل الذّمِّ (بئس)، وكلُّها تدُلُّ على سوءِ حالِ أهلِ النّار، والاختلافُ بينَها هو من باب التَّفنُّن، واستقصاءِ أحوالِ العذابِ، وعيدًا وإنذارًا للكافرين، وتفصيلُ ذلك:

أنّ التّعبيرَ بـ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ قد وردَ في عددٍ منَ الآيات، منها قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾ [البقرة: 206]، وقولُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران: 12]، وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

والمِهادُ هو ما يُمهَّدُ من فراشٍ لأجل النّوم عليه، ومنه مهدُ الطّفلِ. والمعنى: بئسَ المِهادُ جهنّمُ، وهو دلالةٌ على العذاب الّذي يأتيهم من تحتِهم؛ ليكونوا مَشْمولين بالعذاب من كلِّ جهاتِهم، ومن أغراضِ ذكرِه اسمًا لجهنّم وتعريفِه التّهكُّمُ؛ لأنّ العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهُم وظهورَهُم[3].

وأمّا القرارُ فالمُرادُ به المَقرُّ الّذي يكونُ فيه المُستقرُّ، على معنى بئسَ القرارُ مَقرُّهم، وهو تعبيرٌ عن طول المَقامِ السَّيِّىءِ. وقد وردَ في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم: 28 - 29] وفي قوله:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7274.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾ [ص: 59 - 60]، وكأنّه أرادَ أن يُؤكِّدَ على وصْفِ دارِ البَوارِ والهلاكِ، بكونِها أيضًا بئْسَ المَقرُّ، لزيادةِ تبئيسِهم لعلَّهم يَرجعون.

وأمّا المصيرُ فهو المَرجِعُ والمَآلُ، والتّعبيرُ بـ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126] كثيرٌ في الكتاب العزيز؛ والمعنى: بئْسَ المصيرُ مصيرُهُم.

إذن هذا التّنوُّعُ وذاك التَّفنُّنُ في ذمِّ جهنّمَ، المقصودُ منه التّهديدُ والوعيدُ والإنذارُ، عساهُم أن يَرتدعوا ويثوبوا إلى رشادِهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الحسابُ والعقابُ والعذابُ:

الحسابُ العدلُ في المُحاسَبة، وكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليسَ كلُّ عذابٍ عقابًا

الحسابُ: في الأصل العدُّ، ثمّ أُطلِقَ على عدِّ الأشياءِ الّتي يُرادُ الجزاءُ عليها أو قضاؤُها، فصارَ الحسابُ يُطلَقُ على الوفاء بالحقِّ. يُقالُ: حاسبَه؛ أي: كافأه أو دفعَ إليه حقَّه، ومنه سُمّي يومُ القيامة يومَ الحساب[1] وعلى هذا، فهي تسميّةٌ دالّةٌ على العدل والوفاء بالحقِّ، وهو اسمُ مدحٍ. وهذا هو الفرقُ بينَه وبينَ كُلٍّ منَ العقابِ والعذابِ؛ أنّه يعني المحاسبةَ بالعدل الّتي قد يَؤولُ معَها الأمرُ إلى العقابِ.

وأمّا عنِ الفرق بين العقابِ والعذابِ فهو أنّ العقابَ يُنبِىءُ عَنِ استِحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنّ الفاعِلَ يستَحقُّهُ عَقيبَ فعلِه، أمّا العذابُ فيجوزُ أن يكونَ مُستَحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ[2] ومعنى هذا أنّ بينَ العقاب والعذاب - من حيث اللّغةُ - عمومًا وخصوصًا مُطلَقًا، فكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليسَ كلُّ عذابٍ عقابًا. أمّا عن عذاب اللّه في الآخرة فلا فرقَ بينَه وبينَ العقابِ؛ لأنّ اللّه تعالى لا يُعذِّبُ إلّا عنِ استحقاقٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/249.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

ولِتضمُّنِ دلالةِ الحسابِ العدلَ والوفاءَ بالحقّ ناسبَ اصطفاءَه في الآية للدّلالةِ على مُجازاتِهم بصنيعِهم، وهو أشدُّ وقعًا على المُعذَّب؛ فلسانُ حالِه: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27].

المَأوَى والمَنزِلُ والمَثوى:

المأوَى دالٌّ على التَّجمُّع، والمثوى عـلى عـدَمِـه، والمَنزِلُ دالٌّ على الاستقرارِ

المَأوَى: هو كلُّ مكانٍ يأوي إليه شيءٌ ليلًا أو نهارًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، ومن أصولِه الدّالِّ عليها التَّجَمُّعُ، كما هو مَلحوظٌ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ [المؤمنون: 50]، قالَ الخليلُ: التَّأوّي التَّجَمُّعُ، يُقالُ: تَأوَّتِ الطَّيرُ: إذا انضَمَّ بَعضُها إلى بَعضٍ[1] وهو ضَمٌّ مع ضعفٍ ما - كما في الإيواءِ للنُّصرة والحياطة، وكما في تأوّي الجُرْحِ، فإنّ تقاربَه للبرءِ، يتمثَّلُ في تضامِّه. وكما في الأوي إلى المَنزِل، وكذا إيواءُ الرّجل، وكذا المَأوَى المَنزِل، فكلُّ ذلك لا يُستعمَلُ فيه (أوَى) إلّا لضعفٍ ما - كالحاجةِ إلى الحماية من عدوّ أو مَخوفٍ أو جوٍّ يضرُّ التّعرُّضُ له، وكالحاجة إلى الرّاحة[2]، وقَد أُطلِقَ المَأوَى في التّنزيلِ على الجنَّة، وهو على الأصلِ في استعمالِه، وعلى نارِ الجَحيم، وهو من بابِ التَّهكُّم، ونُكتَتُه بَيانُ أنَّ مَن كانَت النّارُ مَأواهُ لا يَكونُ لَهُ مَلجأً يَنضوي إليه، ولا مَأمَنٌ يَعتَصِمُ به[3] وهو علّةُ اختيارِه في الآية دونَ غيرِه منَ الألفاظ المُشابهة له.

المَثوَى: الثَّواء: الإقامَةُ مع الاستِقرار، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزّمر: 60] وقال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ [فصّلت: 24]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ

---

(1) الخليل، العين: (أوى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو - أوى).
(3) رضا، تفسير المنار: 10/93.

﴿جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزّمر: 72]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][1]، فهو من ثَوَى بالمكان إذا أقامَ به إقامةَ سُكنى أو إطالةَ مُكث، وقد بيّنَ الثّواءَ بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][2] ونَلحظُ أنّ القرآنَ قد خصَّه بأهل النّار، ولم يذكرْهُ مع أهل الجنّةِ. فسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب هو (مَثوَى) بمعنى مكانِ الثّواءِ والإقامةِ (جهنّم) للكفّار حسب السّياق[3].

والمَنزِلُ - بكسر الزّاي -: الدّارُ مَوضِعُ النّزول[4] والنُّزُلُ - بضمّتين -: ما يُعَدُّ للنّزيل والضّيف مِنَ القِرى. وإطلاقُ اسمِ النُّزُلِ على العذاب استعارةٌ، علاقتُها التَّهكُّمُ، كقول عمرو بن كلثوم:

قَرَيناكُم فَعَجَّلنا قِراكُم *** قُبَيلَ الصُّبحِ مِرداةً طَحونا[5]

والدّارُ: المَنزِلُ اعتبارًا بدَوَرانِها الّذي لها بالحائطِ، ويُقالُ لِكُلٍّ مِنَ الدّنيا والآخرة دارٌ[6] وأطلقَ على النّار بإضافتِها إلى صفتِها في قولِه سبحانه: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28][7]، أمّا الجَنّةُ فقد أطلقَ عليها ﴿ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: 24] مُطلَقًا دونَ الحاجةِ إلى وصفٍ في قولِه سبحانه: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: 24]، وأحيانًا مع وصفٍ حسبَ السّياق، كما في قولِه تعالى: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127].

وبعدَ هذا العرض، نرصدُ الفروقَ بين أربعتِها، مع تأكيدِ التّقارُبِ الدّلاليِّ بينَها؛ لكونِها جميعًا دالّةً على الإقامة بالمكان مع طولِ مُكثٍ.

أمّا لفظُ المَأوَى فملحوظٌ في دلالتِه معنى التَّجمُّع، وهو ما يميّزُهُ من بقيتِها، سواءٌ كان هذا التَّجمُّعُ في الدّنيا كتجمُّعِ أهلِ الكهف، وكما يُطلَقُ الآنَ على التَّجمُّعِ السّكانيِّ لِمَن فقدوا ديارَهُم: (منازل الإيواء)، أو كانَ هذا التَّجمُّعُ في الآخرة، كتجمُّعِ أهلِ الجنّةِ فيها للأُنس ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [السّجدة: 19]، أو تجمُّعِ أهل النّارِ ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: 72].

(1) الرّاغب، المفردات: (ثوى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/70.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثوى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/45. وينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، ص: 73.
(6) الرّاغب، المفردات: (دار).
(7) يُنظر قول ابن عاشور في التّحرير والتّنوير حول التعبير بالدّار لأهل النّار: 14/140.

وأمّا لفظُ المَثوَى فملحوظٌ فيه أنّ القرآنَ لم يَستعملْهُ إلّا في حقّ أهلِ النّارِ، ولم يُعبِّرْ به عن أهل الجنّةِ، وقد ألمَحَ ابنُ عاشور إلى دلالة التّعبيرِ به، وهو أنّ أهلَ النّارِ "مُتراصّونَ في النّار، وهُم في مَثوَى؛ أي: مُحلّ ثواء"[1]، ففيه معنى التّحقيرِ لهم.

أمّا المَنزِلُ فهو الدّارُ، والدّارُ هي محلُّ الاطمئنانِ والاستقرارِ، ولذا فإنّ التّعبيرَ به لا يخرجُ عن هذا المعنى، إلّا مقصودًا به غرضٌ آخرُ كالتَّهكُّم ونحوِه، وهو المَفهومُ منَ التّعبير به عن جهنّمَ بكونِها نُزلًا للكافرين، مع أنّ التّعبيرَ به لا يكونُ إلّا في معنى الإكرامِ؛ إذ أصلُهُ: إعدادُ القِرى للضّيف.

ومثلُ المَنزِلِ التّعبيرُ بالدّار، فالدّارُ مَحلُّ الاستقرارِ والاطْمئنانِ، ومِن ثَمّ أطلقَ على الجنّة لفظَ (الدّار)، بخلاف جهنّمَ، فما أُطلِقَ عليها لفظُ الدّارِ إلّا موصوفةً بما يدُلُّ على سوءِ ما فيها، كدار البوارِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/140.

﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرّعد: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين من لم يستجيبوا لربّهم، ومن يفتقدون ميزانَ العدل في الحُكم على النّاس

لمّا قَسّمتِ الآيةُ السّابقة النّاسَ إلى مستجيبين وغيرِ مستجيبين، ووعدت كلًّا بما يستحِقُّه؛ فَلِلمُستجيبين الحُسنى، وهي الجنّة، ولغيرهم العذابُ الشَّديد الّذي يستأهل أن يَفْتَدوا أنفسَهم منه بكلّ ما في الأرض، وأكثر منه لو كانوا يملِكونه، ولمّا كان ذلك كذلك، لفتتِ الآيةُ هنا إلى السَّبب في الاستجابة وعدمها، فبيَّنت أنَّ إبصارَ الحقّ، ورؤيتَه حقًّا على وجهه الذي هو عليه، ثمّ الانتفاعَ به واتّباعَه كان سببَ الاستجابة، وأنَّ العمى عنه وعدمَ رؤيتِه حقًّا كما هو، كان سببًا في الزَّيغ عنه وعدمِ الاستجابة له، وهذا حالُ الآخرين الّذي أُنكر عليهم مَن سوَّى بين مَن يعلمُ الحقَّ المُنَزَّلَ مِنَ اللّه تعالى ويعملُ به، وبين مَن لا يعلمُه، أو يعلمُه ولكنّه يعمل خِلافَه، كما أُنكِر سابقًا على مَن سوَّى بينَ الأعمى والبصير، وسَوَّى بينَ الحَقّ والباطل.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُ﴾: العلم: إدراكُ الشّيء بحقيقته، ومعرفتُه على ما هو عليه. وأصلُ عَلِمَ يَدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، ومنه العَلامَةُ. والعِلْم نوعان: نظريٌّ وعمليٌّ؛ فالنّظريّ ما إذا عُلِمَ فقد كَمُل، نحوُ العِلْم بموجودات العالم، والعمليُّ ما لا يتمُّ إلّا بأن يُعمَل، كالعِلْم بالعبادات[1]. ومعنى العِلْم في الآية: الاعتقادُ الجازم المُحَقّق للإيمان الكامل في الحَقّ المُنزّل على النّبيّ ﷺ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (علم).

2) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: نقيضُ الباطل. وأصلُ (حقّ) يَدُلُّ على إحْكام الشَّيْءِ وصِحَّتِه. ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فَرْعٍ إلَيْه، بِجَوْدَةِ الاسْتِخْراجِ وحُسْنِ التَّلْفيقِ. ومنه يُقالُ: حَقَّ الشَّيْءُ وجَبَ وثبت[1]. ومِن معانيه: الاعتقادُ للشّيء المُطابقُ لما عليه ذلك الشّيء في نفسه، كقولنا: اعتقادُ فلانٍ في البعث والثّواب والعقاب والجنّة والنّار حَقٌّ[2]. والمرادُ بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في الآية هو ما يرجع إلى هذا المعنى، أي: الاعتقاد الجازم، واليقين الكامل، المُحَقِّقُ للإيمان بالله ورسولِه والقرآن.

3) ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: الذّكر خِلافُ النّسيان، وهذا أصله، تقول: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ. ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ وبكسرها، أيْ: لا تَنْسَهُ[3]. والذِّكر: هيئةٌ للنّفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه مِنَ المعرفة[4]. ومن خلال هذا يستدعي هذا المحفوظَ مِنَ الذّاكرة وقتَ الحاجة. والمقصودُ بالذّكر هنا في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أحدُ لوازِمه، وهو العِلْم والعِظَةُ والاعتبار.

4) ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: الألباب: جمع لُبّ؛ وهو العقلُ الزّاكي، وأصْل اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدَةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[5]، واللُّبُّ مِن كلّ شيءٍ: هو الخالص منه، وسُمّي العقلُ لُبًّا؛ لكونه خالصَ ما في الإنسان مِن قوّةٍ، كاللّباب مِنَ الشّيء[6].

المَعْنى الإجْماليّ:

تستنكر الآيةُ افتقادَ الميزانِ العادل في الحُكم على النّاس، فهلِ

لا يستوي عند الله عالم مُتفرّد، وجاهل مُتمرّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقَّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (حقَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(5) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 51، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبب).
(6) الرّاغب، المفردات: (لبب).

الّذي يستخدم عقلَه فيما خُلِقَ لأجله مِنَ الانتفاع به، فيعلمُ أنّ ما جاءك - أيّها الرّسول - مِن عند اللّه هو الحَقّ، فيؤمنُ به، كَمَن يغفُل عن حكمة اللّه في مِنْحَه آلةِ العقل؛ فيصبحُ كالأعمى عنِ الحَقّ، الذي لم يرَه أصلًا، فضلًا عن أن يؤمنَ به؟! لا يستويان. فالحال أنَّه لا يتّعظُ، ولا يُدْرِكُ الأشياءَ على ما هي عليه إلّا أصحابُ العقولِ الزّاكيَة، التي تُحْسِن النَّظر، فتقودُ أصحابَها إلى الإيمان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الاستفهام في ﴿أَفَمَن﴾:

التّسويّة بين العالِم والجَهول، انتقاص مِن قدر العالِم وغُلول

الاستفهام هنا إنكارٌ على مَن يُساوون بين مُبْصِرِ الحَقّ ومُتّبِعه، ومَن عميَ عنه، وتبكيتٌ لهم؛ إذ لا يستقيم في نظر العقلاء أولي الألباب هذان الفريقان؛ الذين يعلمون ويعملون، والّذين يتعامَون عنِ الحَقّ ولا يعملون به، أبَعْدَ هذا التَّفاوتِ الظّاهِرِ بينَ فريقي الاستجابة وعدمِها، وبعد ضَرْب الأمثال في نفي المماثلة بينَهما، يمكن لعاقلٍ أن يدّعيَ هذه المماثلةَ؟! وفيه ما فيه مِن إنكار هذه التّسوية. "كأنَّه قيل: أبَعْدَ ما بُيّن حالُ كُلٍّ مِنَ الفريقين ومآلُهما، يُتَوهَّم المماثلةُ بينَهما؟!"[(1)].

دلالة الفاء في قوله: ﴿أَفَمَن﴾:

في الفاء وجوه:

تنوّع دلالاتِ حروف المعاني دليلٌ على سعة العربيّة وغناها

الأوّل: أنّها استئنافيّة، وجملةُ الموصول مستأنَفَة[(2)]، ومقصودُ الاستئناف: تقريرُ ما ورد قبلَه في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 18] مِنَ التّمييز وعدم التّسوية في الجزاء بينَ المستجيبين للّه، ومَن لم يستجيبوا له. ثمَّ سَوْق صورةٍ أُخرى ودليلٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/16.

(2) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/530، والدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 2/116.

آخَر على عدم جواز التّسوية - في حُكم العقل - بينَ المستجيبين وغيرهم، وهي صورةُ عدمِ التّسوية كذلك بينَ مَنِ انتفعوا بعقولهم التّي منحهمُ اللّه إيّاها، فعَلِموا الحقَّ وأذعنوا لسلطانه، وبين مَن أهملوها أو عاندوها وجحدوا نعمةَ اللّه فيها.

والثّاني: أنّها فاء العطف، والنّيةُ في همزة الاستفهام التّأخيرُ عنها، كما هو مذهب الجمهور، ومذهبُ الزّمخشريّ فيها أنّه يجعلُها عاطفةً على محذوف مُقدّر بعد الهمزة، وتقديره هنا: أيستوي المؤمن والكافر؟ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾[1]. وقيل: إنّه لا يمكن تقديرُ فعلٍ هنا، وفيه حُجّةٌ على ضعف مذهبه[2].

والثّالث: أنّها فاءُ التّفريع[3] الدّالّةُ على كَوْن ما بعدَها كلامًا مُتفرّعًا على ما قبلَها، وما قبلَها هي جملة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 18]، فهي مُتفرّعة عليها.

سرّ اختيار العلم دون غيره:

خير العلم ما كان جامعًا بين النّظر العقليّ، واليقين القلبيّ

وإنّما عبّر بالعلم في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ دون التّعبير بالرّؤية أو النّظر - مثلًا على قيمتهما واعتبارهما أيضًا - ؛ لأنّ المرادَ العِلْمُ الجامع بينَ النّظر الصّحيح والاعتبار به، المُفضي إلى اليقين القلبيّ، أي: حتّى يستقرَّ علمًا يقينيًّا في القلب، يتحقّق به الإيمانُ.

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/115. وتقديم همزة الاستفهام على الفاء العاطفة إنّما النّية فيه تأخيرها عنَ الفاء في قول الجمهور - عدا الزّمخشريّ -، لأنّ تقديمها مخالف للأصل في تقديم حرف العطف على الاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ﴾ [آل عمران: 101]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التكوير: 26]، وذلك أنَّ أدوات الاستفهام هي جزء مِن جملة الاستفهام، والعاطف لا يُقدّم عليه جزءٌ من المعطوف، وإنّما خُولِف هذا في الهمزة، لأنّها أصل أدوات الاستفهام، فكان تقديمُها - منويًّا بها التّأخير - تنبيهًا على أنّها الأصل في الاستفهام، وأنّ لها صدر الكلام. ينظر: الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/350. وللاستزادة: سيبويه، الكتاب: 3/187، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 1/328.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/616.

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233، ومحيي زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 5/117، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

دلالة المضارع في قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾:

الحثّ على النّظر العلميّ، من مأمورات القرآن المتجدّدة باطّراد

يهدف التّعبير بالمضارع هنا ﴿يَعۡلَمُ﴾ إلى الإخبار عن أولي الألباب، بأنّهم مستمرّون على ما هم عليه مِن نافع العِلْم، ثمّ إلى تحفيزهم وحَثّ غيرهم على مواصلة البحث والنّظر، الّذي يساعد على تجدّد هذا العِلْم النّافع.

دلالة التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾:

اشتمالُ المُنزَل على الكتاب الشّريف والهَدي النّبويّ المُنيف

ولمّا كان في (ما) مِنَ الدّلالة على العموم والشّمول وعدم الاختصاص، بخلاف (الّذي)، فقد أوثِرت هنا؛ ليَشْمَلَ التّعبيرُ بها كلّ ما أنزلَه اللّه ﷻ على الرّسول مِنَ الحَقّ المُوحَى به إليه؛ قرآنًا كان أو سُنّةً. وفي هذا تنبيهٌ لِمَن يتجاوزون في حَقّ سنّة الرّسول ﷺ، أو لا يُقَدّرونها قَدْرَها، وتحذيرٌ لهم بأنّهم على خَطْر عظيم؛ لأنّهم يُهمِلون بعضَ ما أنزل اللّه على رسوله ﷺ.

دلالة التّعبير بالإنزال:

تفخيم شأن المُنزَّل وتعظيمُه، من فصيح البيان

دلّ التّعبيرُ بالإنزال في قوله: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ مبنيًّا للمفعول على تفخيم شأن المُنَزَّل - وهو القرآن -، وهو إنّما اكتسب فخامتَه وعَظَمتَه مِن عَظَمَة مُنزِّله سبحانَه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحِجر: 9] ثُمّ لِما يحمله من دلائل على صدق المُنزَّل عليه ﷺ؛ إذ هو معجزتُه المُفحِمةُ الباقيةُ في جميع الأجيال، حتّى قيام السّاعة، ثمّ هو عظيم - أيضًا - لِعَظَمَة ما يحملُه مِن هدايات وأحكام.

والتّعبير بالإنزال فيه دلالةٌ على عموم المُنَزَّل على الرّسول ﷺ؛ مِنَ القرآن سواء منه السّورة التي نزلت مُفَرّقة، أو التي نزلت مَرّة واحدةً؛ كسورة الأنعام، فالتّعبير بالإنزال أعمّ مِنَ التّعبير بغيره، كالتّنزيل مثلًا[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).

وتتنوّعُ أساليب القرآن الكريم المُصرّحة بهذا الإنزال مِنَ اللّه بِطُرق في عديدة في التّعبير متنوّعة، ما بين إنزال وتنزيل، وتضعيفٍ وتخفيف، كما في ﴿نَزَّلَ﴾ [آل عمران: 3] و﴿نَزَلَ﴾ [الشعراء: 193]؛ للدّلالة على هذا الإنزال بأساليب شتّى، وبطرقٍ مِنَ الدّلالة متنوّعة.

دلالة التّعدي بحرف الجرّ (إلى):

في القرآن من وسائل الإقناع، ما يكفي طالبَ الهداية للانتفاع

عُدّي الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بحرف الجَرّ (إلى) الدّالِّ على انتهاء الغاية، دونَ حرفِ الجَرّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء، بما يجعلُ (إلى) عند النّظر للوَهْلة الأولى، أَوْلى لمناسبتها للإنزال؛ لأنّ الغرضَ هنا هو مُجَرّد الإخبار بإنزال القرآن على الرّسول ﷺ من ربّه، إخبارًا يكفي في تحقيق الإيمان به، ويُقْنِعُ مَن يُعْمِل عقلَهُ، ليَعْلَمَ بأنّهُ الحَقّ المُنزَّل. وهذا الغرضُ تكفي فيه (إلى)، بخلاف ما لو كان الغرضُ هو الافتخارُ والتّشريفُ، أوِ الاحتجاجُ بهذا الإنزال، فإنّه قد تُساعِد في تحقيقه (على)، بما تَدلُّ عليه مِنَ الاستعلاء.

وأيضًا: في إيثار التّعبير بـ ﴿إِلَيۡكَ﴾ في هذا الموضع، وفي غيره من المواضع المُناظِرة، دونَ ﴿عَلَيۡكَ﴾ [آل عمران: 7] الوارد في آياتٍ أُخرى، إشارةٌ إلى ثِقَل المسؤوليَّة، وشِدّة المُهِمّة والتّكليفِ المَنوطِ به ﷺ. وفي الجملة: كُلّ مَوضِعٍ خوطِب فيه النّبي ﷺ بقوله: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: 99] فَفيهِ تَكْليف، وإذا خوطِب بقوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ [النحل: 64] فَفيهِ تَخْفيف[1].

دلالة كاف الخطاب في ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تشريفه ﷺ بتوجيه الخطاب إليه، تكريمٌ وتَجِلّةٌ

وكاف الخطاب في ﴿إِلَيۡكَ﴾ للنّبيّ ﷺ، وفي الخطاب بها دلالة على شرفه ﷺ، وعُلوّ منزلته عند ربّه، التي استحقّ بها أهليّة الخطاب.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور:

في تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، دلالةٌ على القَصْر

---

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/1107، والكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 217.

براءة الرّسول ﷺ، من فِريَة اختلاقِ القرآن

والاختصاص؛ لبيان أنّ المُنزَّل عليه ﷺ، إنّما هو مِن ربّه لا غير، وهو كذلك الحقّ لا غير؛ لأنّه الكتابُ الأوحد الّذي ضمن حِفظَه مُنَزِّلُه سبحانَه، وصانه مِنَ التّغيير والتّحريف.

سرّ التّعبير بالرّبوبيّة دون لفظ الجلالة:

القرآن نعمة ربّ العالمين، على الرّسول الأمين، وعلى أمّة المسلمين

إيثار التَّعبير بالرَّبّ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، على التّعبير بالاسم الجليل (اللّه)؛ لما أنَّ المقام مقامُ إنعامٍ وامتنانٍ على الرّسول ﷺ، بإنزال القرآن عليه، الّذي جعله اللّه تعالى له سلوةً عندما تُحيط به الشّدائدُ، ويَكْثُرُ العِناد مِنَ المُخاطَبين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: 32].

سرّ التّعبير عن القرآن بالحقّ:

القرآن هو الكتاب الحقّ، بما يحمله من دلائل الصّدق

وَصْفُ القرآن بالحَقّ في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾، لدلالةٍ يقتضيها السّياق، وذلك أنّ الآية تنعي على أولئك الذين تعامَوا عن رؤية الدّلائل الظّاهرة المُفضية إلى الإيمان باللّه تعالى، ومنها هذا الكتابُ الحَقّ الأبلجُ الواضح، الذي يحمل مِنَ الهدايات والأدلّة على صدق الرّسول والرّسالة، ما لا يحتاج إلى كدٍّ نظرٍ ولا كثير بحث؛ لأنّه الحَقّ الذي لا يلتبس بغيره، فلا تَضِلّ عنه العقولُ، ولا تزيغ عنه الأبصارُ. وقد اختُصّ القرآنُ دون غيره مِنَ الكتب باسم (الحَقّ)، لكونه ثابتًا لا يناله تحريفٌ ولا تبديل، كما نال غيره مِنَ الكتب؛ ضرورةَ أنّ اللّه تعالى هو الذي ضَمِن حفظه، وجعل مِن وسائل هذا الحفظ: أن يسَّر سبلَ حفظِه في صدور النّاس، وفي سطور المصاحف، ترجمة لوعده الصّادق سبحانَه، إذ قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9].

دلالة الكاف في: ﴿كَمَنۡ هُوَ﴾:

لا يستوي مَن يعلم ويؤمن، ومَن يتعامى ويكفر

الكاف هنا للتّشبيه، ومَقْصِد التّشبيهِ: هو نفي تسوية مَن يعلم

ويؤمن، بمَن يتعامى ويكفر[1]، ومِن هذا المنطلق فليس التّشبيه مقلوبًا، ومثله التّشبيه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النّحل: 17]، فهو لنفي التّساوي بين الطّرفين. وقد يكون المُسَوّغ لجعل مَن هو أعمى مُشَبَّهًا به، والمشبَّه به أقوى في وجه الشّبه من المشبَّه كما هو معلوم؛ أنَّ المقام مقامُ ذَمٍّ لَمن تعامَوا عنِ الحَقّ، وهم في الذَّمّ أقوى، فَصَحّ التّشبيهُ على ذلك دون حاجة إلى دعوى القلب.

سرّ العلاقة بين ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

غــرض ســورة الــرّعــد وصــف الــقــرآن بــأنّــه الــحــقّ، وإثــبــات ذلك

تُعتَبر هذه الآيةُ تأكيدًا لما قرّرته الآيةُ الأولى في مطلع السّورة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: 1]، مِن وصف القرآن بكونه الحَقّ، فهما تدلّان معًا على أنّ غرضَ السّورة والمقصودَ منها؛ هو وصْفُ المُنَزَّل بأنّه الحَقّ، وإقامةُ الدّليل عليه. إذًا فبينَ الآيتين اتصالٌ ظاهرٌ في المعنى[2]، ومِن آثاره الواضحة، أنّهما اشتركتا في صيغة التّعبير وأسلوبه، وهو القَصْر، على معنى أنَّ القرآن هو الحَقّ لا غيرُه مِنَ الكتب، وهو قصرٌ إضافيٌّ بالنّسبة إلى كتبٍ معلومةٍ عندهم، مثل: قصّتي رُستم وإسفنديار اللّتين عرفَهما النَّضْرُ بن الحارث. أو هو قَصْرٌ ادّعائيّ، غرضُه المبالغةُ؛ لعدم الاعتداد بغيره مِنَ الكتب السّابقة، أي: هو - وحده - الحَقّ الكامل[3].

بلاغة الاستعارة:

مَـن لا يـرى ما يحمله القرآنُ مِنَ الحقّ، فهو كالأعمى المُطبق

في قوله تعالى: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾، لمّا كان الحقّ مِنَ الوضوح بمكان، بحيث لا يخفى على أحد، فقد استُعير لفظُ العَمَى لِمَن أنكر

---

(1) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام، تنبيهًا على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ [السجدة: 18].

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/79.

الحَقّ بعد ظهوره، للمُشابهة بينَه وبين مَن لا يرى شمسَ الضُّحى في الأفق، وهي طالعة تملأ الأرض ضياءً.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَعۡمَىٰٓۚ﴾ دون (لا يبصر):

الوصف بالعمى أبلغ؛ لأنّ مَن لا يبصر قد لا يكون أعمى

قولُه: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾، أي: كمَن لا يعلَمُ ذلك، إلّا أنّه أُريدَ زيادةُ تقْبيحِ حالِه فعُبِّرَ عنه بالأعْمى[1]، وإيثار التّعبير بالعمى في اللّفظ المُستعار، دون التَّعبير بعدم البصر؛ لأنَّ الأوَّل أمكنُ في الدّلالة على المبالغة في التّعبير عن عدم الرُّؤية، حيثُ إنّه يدلّ على عدم الرّؤية مطلقًا؛ لفقدان حاسّة البصرِ، بخلاف مَن يوصف بعدم البصر، فلرُبما كان عدمُ إبصارِه لعارضٍ مؤقَّتٍ، أو لذُهول، أو انشغالٍ يصرف التّركيزَ للإبصار، دون أن يكون فاقدَ البصر، ويدلّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

ومنه قول شوقي:

لَقد أنَلتُكَ أُذنًا غيرَ واعيةٍ *** ورُبَّ مُنتَصِتٍ والقَلبُ في صَمَمِ

أو أن يكون لفظ العَمى هنا متّجهًا كذلك إلى انعدام البصيرة، وهو ما يُعْرَف بعمى القلب، فيكون معنى: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ أي: كَمَن لا بَصَر له ولا بصيرة؛ "لأنه لا يعمل، وإن كان عالمًا فهو لا ينتفع بالأمثال، فكأنّه قيل: لا يستويان مثلًا أصلًا"[2].

بلاغة الاحتباك:

دلالة المذكور على المحذوف، من بلاغة البيان المألوف

في الآية احتباك، حيث حُذِفَ المقابلُ مِنَ الجملتين؛ للدّلالة عليه في الجملة الأُخرى، والتّقدير: أفمن ينظر فيعلم، كمن هو أعمى ولا يعلم[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/16.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/327.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/428، بوصف حَذْفِ التّقابل، وقال في تقديره: "أي: أفمن ينصر فيعلمُ أنما أُنزل إليك مِن ربّك الحقّ، كمن هو أعمى جاهل".

دلالة الفصل:

عدم إدراك الحقّ، لعدم إعمال العقل

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بين هذه الجملة وما قبلَها شبهُ كمالِ اتّصال؛ لأنَّها "تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء، بأنَّ سبب عدم علمهم بالحَقّ، أنّهم ليسوا أهلًا للتَّذَكّر؛ لأنّ التّذَكّر مِن شعار أولي الألباب"[1].

دلالة أسلوب القصر:

الانتفاع بالدّلائل العظيمة، مُسَبّب عن إعمال العقول السّليمة

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ للقَصْر، وهي أداة قصرٍ حقيقيٍّ دالٍّ على أنّ التّذكّر والاتّعاظ والاعتبار، إنّما هو مقصورٌ على أولي الألباب، أي: أصحاب العقول السّليمة النّافعة.

سرّ اختيار ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دون غيره:

أولو الألباب لا يغفلون، وإن غفلوا عادوا سراعا للتّذكّر

التّعبير بالتّذكر هنا، وإيثاره على التّفكر ونحوه؛ لما له من دلالة على ما هو من طبع كلّ إنسان، في كونه قابلًا لأن تعتريَه الغفلةُ في بعض الأحيان؛ ولا ضَيْرَ على أولي الألباب في هذا؛ لأنّ هذا العارض معهم لا يَطول؛ بل سريعًا ما يزول، فيُذَكِّرون أنفسَهم ويراجعونَها حتّى لا تَرْكَنَ إلى الغفلة، وهذا مِن دواعي كونهم منتفعين بنعمة العقل، التي منحهم اللّه إيّاها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201]. وفيه تعريضٌ بالمشركين والغافلين أبدًا، بأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّذكُّر، فعقولهم بما سيطر عليها مِن داعي الغفلةِ والهوى، قد حُجِبَت عن أن تَعِظَ صاحبَها فتُذَكّرَه.

سِرّ اختيار ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دون (يذَّكرُ):

أولوا الألباب يتذكّرون، ولا يحتاجون إلى مُذَكّر

وإنّما ناسب أن يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، مع أنّه في موضع آخر قال: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52]؛ لأنّ الحديث هنا عنِ المؤمنين الموقنين بالحَقّ، وهؤلاء إذا ما أصابتهم غفلةٌ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

يحتاجون إلى جهد كبير للرّجوع والعودة واليقظة منها، كما قال تعالى في حقّهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201] فهم رجّاعون، ومِن ثمّ التّعبير بـ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يكفيهم، ولا يحتاج في حقّهم إلى التّعبير بـ (يَذَّكَّر) الذي هو أكثر مبالغةً؛ لما في بنيته مِنَ التّضعيف المُكرّر في حرفين، وهو ما أفرز زيادةً في المعنى ليست موجودةً في ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، ولذلك غايرَ لمّا اختصّ الكلامُ في موضع سورة إبراهيم بالمُجرمين ومصيرهم وما ينتظرهم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾ [إبراهيم: 49 - 51] فقد قال بعد هذا: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52] فأولو الألبابِ منهم أحوجُ إلى أن يذَّكّروا ما سيؤول إليه حالُهم، ليتّعِظوا ويتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم.

سرّ التّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون (أصحاب الألباب):

العقل لا يوصَف بالمصاحبة؛ لطروء العوارض عليه

وإنّما عَبّر بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، دون (أصحاب الألباب)؛ لأنّ الصّاحب هو الملازم؛ إنسانًا كان، أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا(1)، ومِن ثَمّ فما لم تكن ملازمة، لا يقال لها: صحبة، ولذلك قيل عنِ المؤمنين حالَ كونِهم ملازمين الجنّة في الآخرة - خالدين فيها -: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [البقرة: 82]، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، وقيل عن الكافرين: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة: 39]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]، أمّا العقول والألباب وسائرُ ما لا يُلازم صاحبَه؛ بل

(1) الرّاغب، المفردات: (صحب).

تعتريه المفارقةُ له قليلًا أو كثيرًا، فلا يقال له: صاحب. كما في التّعبير بأولي الألباب، ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطّلاق: 4]، فالمرأةُ لا تُلازمُ الحَمْلَ أبدًا.

سرّ التّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون (أولو العقول):

وإنّما عَبّر عنهم بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دونَ (أولو العقول)؛ لأنَّ المقصود هنا ليس اتّصافُهم بالعقل الّذي هو حاصلٌ لنوع الإنسان، وإنّما العقل النّافع لصاحبه، الذي يُحكِم به تفكيرَه؛ لتستقيمَ تصرفاتُه على الجادّة، فهذا هو الذي يقال له: (لُبّ). وقد وصف القرآنُ أصحابَ العقول الّتي لا ينتفعون بها بحيث تقودهم إلى الكُفر باللّه، والافتراءِ عليه، بأنّهم لا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179].

ليس كلّ عاقل لبيبًا، ومَن لم ينتفع بعقله فليس بلبيب

سرّ اختيار: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، دون (أولو النُّهى):

وسرّ التّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، هنا وصفًا لهم دون (أولو النُّهى)؛ لكونهم أفادوا بالفعل مِن توجيه عقولهم السّليمة، والتزموا خيارَها الصّائب، حين آمنوا بالحقّ الّذي علموا أنّه منزَّل مِنَ اللّه.

انتفاع أولي الألباب بالعقل، أفضى بهم إلى الحقّ والهداية

سرّ ختام الآية بتذكّر أولي الألباب:

ختم اللّه تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ تنويهًا بشأن المؤمنين الّذين أعانتهم عقولُهم لبلوغ الحقّ، فعرفوا اللّه، وآمنوا به، وأذعنوا لأوامره، واجتنبوا نواهيَه. وفي المقابل فيه تعريضٌ بالمشركين، واتّهامٌ لهم بالخِفّة والغَفلة، وأنّهم ليسوا مِن أصحاب العقول الفاعلة المُبْصِرة.

العقل المُتذكّر موصلٌ للإيمان، ولا يَكْفُر إلّا مَن عَطّل عقلَه

❁ الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

العقل واللُّب:

كلّ لُبٍّ عقلٌ، وليس كلّ عقلٍ لُبًّا

العقلُ: هو الحابِسُ عن ذَميم القَوْلِ والفِعْلِ، فـ(الْعَيْنُ والقافُ واللّامُ) أَصْلٌ واحِدٌ مُنْقاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ على حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ[1].

واللُّبُّ: هو الخالص من كلّ شيء، فـ(اللّامُ والباءُ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على لُزومٍ وثَباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجَوْدَةٍ[2].

ويُفْهَم مِن هذا التّأصيل اللّغوي أنّه قد روعِيَ في تسميته عقلًا كَونَهُ يحصر مَعْلومات المَوْصوف بِهِ، كما روعي في تسميته لُبًّا كونَهُ مِن خالص صِفات المَوْصوف به[3].

فاللُّبّ: هو العقل الزّاكي الذي ينتفع به صاحبه، ولا يكفي أن يكون صاحبه فردًا من أفراد الجنس العاقل؛ لأنَّ اللّبّ هو الخالص المُنتَقَى مِن كلّ شيء، الخالي مِنَ الشّوائب، فإطلاقُه على العقل؛ "لكونه خالصَ ما في الإنسان مِن قوّةٍ، كاللّباب مِنَ الشّيء"[4].

ونخلص: إلى أنَّ بين العقل واللّب عمومًا وخصوصًا مطلقًا: فكلُّ لُبٍّ عقلٌ، وليس كُلّ عقلٍ لُبًّا.

أولو الألباب، وأولو النّهى:

أولو الألباب عقولُهم زاكيَة، وأولو النُّهى عقولُهم عنِ القبيح نائية

النّاظر في استعمال القرآن الكريم لهذين الوصفين يجد فرقًا بينهما؛ فكلُّ وصفٍ منهما له دلالة في الاستعمال؛ فالوصف بأولي الألباب يدلُّ على سلامة عقولهم في التّوجيه، وأنّها قد قامت بذلك بالفعل، وممّا يؤكّد ذلك استعمالُ القرآن لوصف (أولي الألباب)، الّذين هم أهل الصّفاء الرّوحي المُكْتَسب مِنَ التَّقوى والحِكْمة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لب).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 84.
(4) الرّاغب، المفردات: (لب).

والرُّسوخ في العلم، في مواضع عديدة مِنَ القرآن الكريم، منها: في مقام حديث القرآن عنِ الرّاسخين في العلم في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]، وأيضًا في مخاطبة أهل الحِكْمة بقوله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]، وفي خطاب أهل التّقوى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]، وفي مقام الاعتبار، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: 111]، وفي مقام التَّدبّر لآيات الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190].

وأمّا الوصف (بأولي النُّهى) فإنَّه يُطلَق على أصحاب العقول، حالَ كونها صالحةً لأن تَنْهَى صاحبَها عن فعل القبيح، وسُمّيت بذلك؛ لأنّ "مِن شأنها النَّهيَ عمّا لا ينفع، فضلًا عمّا يَضُرّ"(1). وقد ورد ذِكرُ هذا الوصف في القرآن مرّتين في سورة طه، الأولى في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: 54]، فبعد أن ذكر النّعم التي سَخّرها سبحانَه للخَلْق، عطف إلى الدّعوة إلى الاتّعاظ وتَرْكِ الأباطيل والانتهاءِ منها، والإقبالِ على الحقّ بتَذكّر النَّشأة الأولى في قوله تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه: 55]، والثّانية: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه: 128]، جاءت في سياق التّذكير بالأُمم السّابقة، ونهي العقلِ عنِ السَّير في طريقها(2).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/365.

(2) محمّد الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 163.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين المُبْصِر للهدَى والأعمى، وكونُ توثيقِ الحُكم بالدّليل أحكمَ سبيل

لمّا نفتِ الآيةُ السّابقةُ المساواةَ بين مَن يعرف الحَقّ ويُذعِنُ له، وبين مَن ينكرُه ويرفضُه، وأنكرت على مَن يتوهّم هذه التّسوية، جاءت هذه الآيةُ، لتقيمَ الدّليل على صِحّة الحُكم، ولِتُظهِرَ أنّ "ذلك النَّفيَ المُرادَ به تفضيلُ أحدِ الفريقين على الآخَر هو نفيٌ مُؤيّد بالحُجّة"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: أي: يُؤَدّونه بتمامه، فالوافي من كلّ شيء: هو الّذي بلغ التّمامَ، فيُقال: دِرهمٌ وافٍ، وكَيلٌ وافٍ، أي: بلغ تمامَه. ويأتي ماضيه ثلاثيًّا (وفَى)، ورباعيًّا (أوْفى)، وهو ما جاء في القرآن[2]، والمراد بالوفاء بالعهد: أداؤه كما وقعتِ المعاهدةُ عليه، وعدمُ الإخلال به.

2) ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾: أصل النَّقْض: "انْتِثارُ العَقْدِ مِنَ البِناءِ والحَبْلِ والعِقْدِ. وهو ضِدُّ الإبْرام، يقال: نَقَضْتُ البِناءَ والحَبْلَ والعِقْدَ ... ، ومِن نَقْضِ الحَبْلِ والعِقْدِ استُعيرَ نَقْضُ العَهْدِ"[3]. وينقضون: ضِدّ يوفون، فإذا كان الأوّل معناه: الأداء على وجه التّمام، فالثّاني معناه: التّرك والإخلال بالأداء.

المَعْنى الإجْماليّ:

أولو الألباب تتطابق أقوالُهم وأعمالُهم، فيوفون بالعهد ولا ينقضونَهُ

أولئك الّذين مدحَهُم اللّه حين وصفهم بأولي الألباب؛ لأنّهم أدركوا الحَقَّ والتزموه، وهم - أيضًا - الّذين يوفون بعهد اللّه تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/124.
(2) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(3) الرّاغب، المفردات: (نقض).

الّذي أخذَهُ عليهم حين أشهدهم على أنفسهم فأقَرّوا بربوبيّتِه، وهو العَهْدُ المَدْلولُ عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ﴾ [الأعراف: 172]، ثُمّ هم كذلك يوفون بكلّ عهودِهم معَ اللّه، ووصاياه لهم فيما أمر وفيما نهى، وفي كُلّ ما قام عليه الدّليل والحُجّة أنّه مِن دينه سبحانَه وشرعِه. "فلا يخالفون العهدَ الذي عاهدوا اللّه عليه إلى خلافه، فيعملون بغير ما أمرهم به، ويخالفون إلى ما نهى عنه"[1]. ثُمّ هم - أيضًا - أولئك الّذين لا يقطعون المواثيقَ الّتي أبرموها مع العباد باسم اللّه، فلا يجوز لهم بحال أن يخالفوا عن شرع اللّه فيهم، فهو عَهْدُه الذي قَطَعَه عليهم، وتعبَّدَهُم به.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفصل في الآية عمّا قبلها:

نعوت أولي الألباب نبعت مِن تميّز عقولهم، لا مِن مجرّد وجودِها

قد يتوهّم كثير مِنَ المُقصِّرين أنَّه مشمولٌ في هذا الوصف ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بمقتضى أنَّ اللّه تعالى قد ركَّب في رأسه عقلًا، فجاءت هذه الجملة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾؛ لتزيل هذا التَّوهُّم، ولِتوقِظَ هذا الواهِمَ، ولِتُنَبِّهَهُ إلى أنّ أولي الألباب لهم نعوتٌ خاصّة، نَبَعَت مِن تَمَيّز عقولِهم، لا مِن مُجَرّد وجودِها، فعقولُهم المُتَمَيّزةُ الزّاكيَةُ قادَتْهم إلى أن يَتَّصِفوا بأسمى الصّفات، ويتَخَلّقوا بأسمى الأخلاق، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، حتّى كأنّها أجابت عن سؤالٍ تقديرُه: مَن هم أولو الألباب؟ وهل يشمل جنسَ الإنسانِ باعتبار كونِهم ذوي العقول؟

وعليه: ففي الآية (شبه كمال اتصال)، وأيضًا فإنّ هذه الآيةَ تُعْتَبر تعليلًا واحتجاجًا للحُكْم السّابق الوارِدِ في الآية السّابقةِ، مِن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/419، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/525.

نفي التّسويَة بينَ الفريقين المتقابِلَين، المُستَجيبَين للحَقّ، والغافِلَين عنه. والمقصودُ مِن هذا التَّعليل "تفضيلُ المؤمنين على المشركين، فيكونُ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ مُسنَدًا إليه، وكذلك ما عُطِف عليه، وجملة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ مسندًا"[1].

دلالة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تحفيز الأجيال المتعاقبة، للاقتداء بطريق أولي الألباب الصّائبة

الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾، يجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لأولي الألباب، أو بدلًا منه، أو بيانًا له، أو هو استئنافٌ ابتدائيٌّ[2]. وفي كلّ الحالات؛ فالموصول مع صلته فيه تعظيمٌ لهم ومدحٌ، قدِ استحَقّوه بوفائهم بعهودهم ومواثيقِهم، ومِن قبلُ بيقظة عقولهم. كما أنّ التّعبيرَ بالموصول في الآية مفيدٌ للعموم؛ ليكون في ذلك تحفيزٌ لكلِّ الأجيال، ولجميعِ المُخاطَبين، للتَّحَلّي بالصِّفات التي تَضَمَّنَتْها الصّلةُ، والامتثالِ لها، إذا أرادوا أن يكونوا مِن أولي الألباب، وأهلًا لهذا المَدح، ويَلْحَقوا بركب هؤلاءِ المُفْلِحين، وينالوا ما نالوه مِن ثناءٍ وجزاءٍ حَسَنٍ، في الدُّنيا والآخِرَة.

سرّ اختيار الفعل ﴿يُوفُونَ﴾:

الهِمَم الوفيّة العالية، توّاقةٌ دومًا للقِمَم السّامية

في اختيار الفعل ﴿يُوفُونَ﴾ دونَ غيره - ممّا قد يُظنّ أنّه يمكن أن يقوم مقامَه، كالفعل (يؤدّون) مثلًا - سِرٌّ يكشف عنه مدلولُه؛ إذ هو يَدلُّ على أداء الشّيء بتمامه، دونما زيادةٍ ولا نقصانٍ، أي: على وجهه الأتمّ، الّذي يُعَبِّر عن مقام الإحسان، الّذي هو أرقى المقامات، وليس مُجرّدَ الأداء الّذي يَحمِل أقلّ ما تَبْرأُ به الذّمّةُ. وممّا يُذْكَر - أيضًا - في سِرّ اختيار الفعل ﴿يُوفُونَ﴾، أنّ الوفاء متعلّقٌ بعهد اللّه، وعهد اللّه على نوعين: إمّا بما عاهدوا اللّه عليه، أو بما عَهِدَ اللّه به إليهم، وهذان النّوعان لا يفي بأدائهما على أكمل وجهٍ، إلّا فِعْلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/124. وينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/33.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/43، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/124.

الوفاءِ. وأيضًا أنّ هذا المقامَ لا يتحمّل زيادةً ولا نقصًا، ولا سيّما العهودُ الشّرعية؛ لذلك كان اختيارُ صِفةِ الوفاء هي الأولى.

دلالة التّعبير بالمضارع:

خيرُ أعمال البرّ أدومُها وإن قلّ

غير خافٍ أنّ صيغة المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ دالّة على الاستمراريّة، وتجدّد النّشاط للوفاء بعهد اللّه، حتّى يصبحَ هذا الوفاء لطول محافظة الموفي عليه، كأنَّه عادةٌ وسجيّة، فلا يتكلّف له، ولا يَحول عنه، مهما كانت الْمُغْرَيات، ولا ينصرف عنه إلى غيره مهما كانتِ الصّوارفُ والشّواغل.

سرّ التّعبير بالصّلة ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾:

التّعبير بتمكّن صفة الوفاء، وتجدّدها مع العهود الطّارئة

عبَّر بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾؛ للدّلالة على تعظيم هؤلاء في تمكّن صفة الوفاء منهم، فلا يعتريهم مانعٌ من تجدّد الوفاء في تعاملهم معَ العهود التي أبرموها مع غيرهم، ولا سيما أنّ الموانع في تنفيذ الوفاء بها أمرٌ وارد حسب طبيعة النّفس قوةً وضعفًا في الالتزام بالوفاء بالعهود؛ أمّا ما ورد في سورة البقرة فجاء في آية البرّ الّذي اشتمل على مفردات الإيمان القلبيّة والسّلوكيّة، وكان الحديث فيها عن إعطاء المال وإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة، إلى غير ذلك من الأفعال المطلوبة في ذاتها، والّتي تتجدّد آنًا بعد آن؛ أمّا الوفاء الّذى عُبِّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ﴾ [البقرة: 177] فهو صفةٌ دائمة يتحلّى بها أهلُ الإيمان، فلا تنفك عنهم؛ فتحولّت مِنَ الوصفيَّة إلى العَلَميَّة.

دلالة الباء:

التزام المؤمن بعهد الله صفةٌ لازمة له، مع وجود العوارض

الباء في قوله: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ للمصاحبة، على معنى أنَّ وفاء أولي الألبابِ بعهد اللّه ملازمٌ لهم ملازمة الصّاحب للصّاحب، فهم يستصحبونه ويستدعونه في كلّ موقف للّه فيه عهد؛ بأمر أو بنهي.

ويمكن أن تكون الباء للسّببيّة، على معنى: أنهم يوجِدون الوفاءَ

لكلّ شيءٍ ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، أي: بسبب العقد المؤكّد مِنَ المَلِك الأعلى، بأوامره ونواهيه، فيفعلون كلًّا منهما كما رسمَه لهم، ولا يوقِعون شيئًا منهما مكان الآخر(1).

سرّ اختيار لفظ (العهد):

الوفاء بعهد الله تعالى يُلْتَزم، دون أن يحتاج إلى التّوثيق والتّأكيد

قوله تعالى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، العهدُ: هو الوعدُ والالتزامُ الموثَّقُ المُؤكَّد، بإظهار العزم على تحقيقه، مِن يمينٍ أو تأكيد، ومِن ثَمّ فإنّه يَلْزم مُراعاته وأداؤه(2)، ولهذا اختير دون ما قد يشترك معه مِنَ الألفاظ في أصل المعنى، كالعقد والميثاق، وذلك لخصوصيّة المعنى الدّقيق المذكور فيه، وأيضًا لأنّ العهد يحمل معنى الاحتفاظ بالشّيء ومراعاته والوصيّة به، ولا يحتاج إلى التّوثيق والتّأكيد؛ لأنّ أولي الألباب يُقْبِلون على الوفاء بعهد اللّه دون تردّد، ودون حاجة إلى تأكيده؛ يؤكّد هذا أنّه لم يَرِد في القرآن الكريم أسلوبُ الوفاء بالميثاق، بأن يقول: (أوفوا بميثاق اللّه)، كما قال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 91].

سرّ التّعبير عنِ الإيمان بقوله: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

لا تكليف إلّا بشرعٍ موثوق، ولا شرع إلّا بإيمان صدوق

في قوله تعالى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ عَبّر عنِ الإيمان بالعهد؛ لأنّ العهد هو العقد المُتَقَدّم على الأمر، بما يُفْعَل أو يُجْتَنب(3). وهذان عهدان بالنّسبة للمؤمن: عهد عامّ قديمٌ قِدَم البشريّة، وهو عهد: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172]، وعهد جديد، وهو تجديد للعهد القديم، منبثق عنه، وتحقيقُه بالإيمان باللّه تعالى إيمانًا تكليفيًّا، يقتضي الإصغاء لأوامره ونواهيه، فهذا "عهد إيمانيّ موثّق بما أخذَتَه - أيّها العبد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/328.

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عهد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/125.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/328.

- على نفسك مِن التزام"[1]. وعلى كلٍّ فالإيمان مُتقدّم على الأمر والنّهي، وهذا مُسَوِّغُ تسميتِه عهدًا.

كما أنَّه يُفيد أثرًا آخَرَ، وهو أنّه لا تكليفَ إلّا بشرعٍ نابع مِنَ الإيمان، فالإيمانُ مُتقدّم على التّكليف، وهذا ترتيبٌ طبيعيّ وُجوديٌّ، يمثّلُه الإيمانُ، وهو الأصل، ثمّ التّكليفُ، وهو فرع الأصل، ولمّا كان الأصل كائنًا في الوجود قبلَ الفرع، فقد صحّ أنّه لا تكليفَ - شرعيًّا - بلا إيمان.

دلالة إضافة ﴿بِعَهۡدِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

عهد الله آكَدُ وأوثق، والالتزام به أوجبُ وألصقُ

مرَّ بأنَّ العهد هو الالتزام والوعد الموثّق المُؤكّد الذي يَلۡزَم مُراعاتُه وأداؤه، وإنَّ تأكيدَه يزداد، ووثاقتَه تعلو، والالتزامَ به أوجب، إذا كان منسوبًا إلى الله ومضافًا إليه، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، وكذا في غيره من نصوص القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]، وقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، وقولِه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ [النّحل: 95].

دلالة التّعبير بالمصدر:

الالتزام بعهد الله في كلّ الزّمان، ولا حصر له في آن دون آن

يدلّ التّعبير بالمصدر (عهد) على لزوم اقتفاءِ آثارِ عهدِ الله تعالى أينما كان، للوفاء به، بلا تقييد بزمن معيّن، ولا مكان معيّن، وفي ذلك تنبيهٌ لَمن يختارون للنّشاط في العبادة زمنًا معينًا، مِن غير دليل يَنصّ عليه، ليَخۡرجَ بذلك ما كان منصوصًا على فضل زمنه، كشهر رمضان، أو عشرِ ذي الحِجّة، أو المُحرّم، ثمّ في غير هذه الأوقات التي حددوها للنّشاط في العبادة، يُقصِّرون ويَعبثون كما يريدون. وقس على ذلك مَن ينشطون فقط في أماكن معينة كالحَرم مثلًا.

(1) الشّعراويّ، خواطري حول القرآن الكريم: 12/7276.

ثمّ نرى لهذا المصدر هنا خصوصيّة الإضافة، إمّا لمفعوله، فيكون المراد ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما عاهدوا اللّه على فِعْله، أو هو مضاف إلى فاعله، والمعنى: ما عهِد اللّه به إليهم. وعلى كِلا الوجهين فالمراد به - أولًا - الإيمانُ الذي أخذه اللّه على الخلق يومَ أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172][1]، ثمّ يدخل فيه كلُّ عهد مُؤكّد منضبط بأصول الشّرع، قد تَفَرّع عنه، سواء في المعاملة مع اللّه، أو مع عباده.

دلالة عطف الجُمَل:

الوفاءُ وعدمُ النّقض متلازمان، بالمضادّة أو بعطف العامّ على الخاصّ

يدلّ عطف جملة: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، على جملة: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ على تأكيد مضمونِ جملةِ الوفاء بعهد اللّه، إمّا بطريق المُضادة، أو بطريق عطف العامّ على الخاصّ، أو بكليهما معًا.

فأمّا طريق المضادّة: فلأنّ جملة ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، قد نفت ضِدّ ما أثبتته الأولى، فحصل التّأكيدُ لمعنى الأولى بنفي ضِدّها.

وأمّا طريق العموم والخصوص: فعلى القول بأنَّ الميثاق أعمّ مِنَ العهد؛ لأنّه يشمل المواثيقَ الحاصلةَ بينَ النّاس؛ مِن عهود وأيمان، فحصل التّأكيدُ باعتبار المغايرة بالعموم والخصوص، ومن دلالات العطف هنا التّعريضُ بالمشركين؛ لاتّصافهم بضدّ ذلك الكمال، الّذي حصل لأولي الألباب المؤمنين، بسبب وفائهم بعهد اللّه، وعدمِ نقضهم مواثيقَهم[2]. وعلى هذا فالجملتان تتعاونان في سبيل وجوب الوفاء بالعهد وتحريمِ نقضه.

بلاغة الاستعارة المكنية:

جملة (وَلا يَنقُضون الْميثاقَ) بعد (يوفون بِعَهْدِ الله)، قرينةٌ دالّةٌ على الاستعارة

مِنَ الأسرار البلاغيّة لذِكْر جملة: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، وعدمِ الاكتفاء بالوصف السّابق: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، أنّها قرينة دالّة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

الاستعارة المكنيّة في (العهد)، وبحسب تعبير الزّمخشريّ: "ساغ استعمالُ النّقض في إبطال العهد، من حيث تسميتُهُمُ العهدَ بالحبلِ على سبيل الاستعارة؛ لما فيه من إثبات الوصلةِ بينَ المتعاهدين، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفِها، أن يسكتوا عن ذِكْر الشّيء المُسْتَعار، ثُمّ يَرْمزوا إليه بذِكر شيء من روادفه، فيُنَبّهوا بتلك الرّمزة على مكانه، ونحوه قولُكَ: شجاعٌ يفترس أقرانَه، وعالِمٌ يغترف منه النّاسُ، فقد نبّهت على الشّجاع والعالِم بأنّهما أسدٌ وبحرٌ"[1].

دلالة النّفي:

بيان محافظة أولي الألباب على عدم نقض مواثيقهم، حالًا واستقبالًا

دلَّ النّفيُ بـ (لا) الدّاخلةِ على المضارع في قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾، على نفي نقضِ أولي الألباب مواثيقَهم على الدّوام، حالًا واستقبالًا، فهم دائمو المحافظة على عدم نقض مواثيقهم، التي يُلْزِمون أنفسَهم بها، ومستمرّون على هذا حالًا واستقبالًا.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع المَنفيّ:

صفات أولي الألباب الرّاسية، لا يُغيّرها طولُ الآجال الفانيَة

التّعبير بالمضارع منفيًّا في قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم مستمرّون على ذلك، محافظون على مواثيقهم التي ألزموا أنفسَهم بها، فلا ينقضونها أبدًا، مهما تقلّبت بهمُ الأيامُ، أو طالتِ الأعمار، فقد صار هذا جُزءًا مِن أخلاقهم وسجاياهم، لا يتخلّف فيهم.

سرّ اختيار لفظ (النّقض) دون (النّكث):

تشديد الخطاب إذا تعلّق التّكليفُ بالمؤمنين، وتخفيفه إذا تعلّق بالكافرين

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، اختير فيه لفظُ (النّقض) دون (النّكث) مع قربهما في المعنى[2]، فقال: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، ولم يقل: (وَلا يَنكثونَ المِيثاقَ)؛ لأنّ تسميَتَه ميثاقًا يحمل التّعبيرَ عن نفسه، كما يحمل الجوابَ عنِ السّؤال المُثار، إذِ الميثاقُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 13/126.

(2) المعجميّون كما في مقاييس اللّغة لابن فارس، واللّسان لابن منظور، يعرّفون كلًّا منهما بالآخر، ولتقاربهما جُمِع بينَهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النّحل: 92]، لكن تظهر الفروق الدّقيقة بالتّأمل، ورصد المواضع والسياقات التي تَرِد فيها الألفاظ محلّ الدّراسة.

التزامٌ وثّقَهُ المَرءُ على نفسه، كالعقود المُبرَمَة بينَ النّاس بعضِهم مع بعضٍ، والمعاهداتِ المُؤكَّدَةِ بينَ الأفراد أو المجتمعات. والإخلالُ به حينَئِذٍ أَوْلى به أن يُسَمّى (نقضًا) لا (نكثًا)، فهو مأخوذ مِن قولك: نَقَضْتُ الحَبْلَ والبِناءَ[1]، أي: إذا حَلَلْتُ الحبلَ بعد فَتْلِه، أو هَدَمْتُ البناءَ بعد قيامه. ولذا آثرَه القرآنُ في التّعبير على النَّكْث، كما جاء في الآية هنا: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: 91]، ولا خِلافَ في أنّ آية النّحل خطابٌ للمؤمنين الّذين لا يُنْتَظَر منهم إلّا الالتزامُ بأيْمانهم مطلقًا، ولهذا دلالتُه التي ستذكر بعد.

وأمّا النّكثُ وإن كان نقضًا كذلك إلّا أنّه أخفّ، ولذا استعمله القرآن حِسًّا في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحل: 92]، واستعمله معنًى في الإخبار عن نقض الكفّار أيْمانهم وعهودَهم مع المؤمنين فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التّوبة: 12].

والحاصل: أنّ ما كان في خطاب المؤمنين سُمّي نقضًا، وما كان في الإخبار عن الكفّار سُمّي نكثًا. ولأنّ مخاطبة المؤمنين يناسبها التّشديد في التّكليف، والحَسْم في التّعبير، فقد دلّ على أنّ النّقض أشدّ تكليفًا، وأقوى تعبيرًا مِنَ النّكث، لنخلُص من هذا إلى أنّ النّقض أقوى مِنَ النّكث في الاستعمال القرآنيّ. وممّا يؤكّد هذا المعنى: أنّ البنيَة اللّغويّة في كلٍّ منهما تدلّ على ذلك، فصِفات الضّاد والقاف في (نقض) تُنبئُ عنِ الشّدّة والقوّة، بخلاف الكاف والثّاء في (نكث)، فلا يتأتّى فيها ذلك.

الالتزام بعدم نقض المواثيق واجب، سواء تعلّقت بالخالق أو بالمخلوق

دلالة (أل التّعريفيّة):

(أل) التّعريفيّة في ﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ جنسيَّةٌ مفيدةٌ للاستغراق، حيثُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقض).

يستغرق اللّفظُ هنا جميعَ المواثيق. قال ابن عاشور: "التّعبير بالميثاق أعمّ مِنَ التّعبير بـ (عهد الله)، فيشمل المواثيقَ الحاصلةَ بينَ النّاس مِن عهود وأيْمان"[1]. وقد تكون (أل) للعهد؛ لتَختصّ بمواثيق النّاس التي يُلْزِمون بها أنفسَهم، في حين يختصُّ عهدُ الله بما يكون مِنَ الله تعالى للعبد.

سرّ اختيار التّعبير بالميثاق دون العهد:

الميثاق ما وثّقه العبد، وألزم به نفسَه

يمكن أن يكون السّرُّ في ذلك، هو الجمع بينَ ما يُلْزِم الله تعالى به عبادَه، وهو المُسَمّى عهدَ الله، وما يُلزِم المَرءُ به نفسَه ويوثّقه، وهو المُسَمّى ميثاقًا. وهو أحد الوجوه في التّفريق بين العهد والميثاق على ما مرَّ، وما سيأتي.

سرّ الجمع بين الوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق:

المكلّف بين أمرٍ يجب التزامُه، ونهيٍ يجب اجتنابُه

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، غاير بينَ الجملتين، حيث عبّر في الأولى بالعهد، وفي الثّانية بالميثاق، وربط الأولى بالوفاء، والثّانية بنفي النّقض، حتّى يبرزَ معهودُ القرآن في الأمر والنّهي، فإذا كانت الأولى راجعةً إلى فِعْل المأمورات، فالثّانية راجعة إلى ترك المنهيات، وشريعة القرآن هي كذلك أوامرُ ونواهٍ.

سرّ الجمع بين العهد والميثاق:

الميثاق أعمّ مِنَ العهد، وبينهما عموم وخصوص

جُمِعَ بينَ العهد والميثاق في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾؛ لأنّ الميثاق أعمّ مِنَ العهد، فهو يشمل المواثيق الحاصلة بين النّاس مِن عهود وأيْمان، ممّا أفاد التّأكيد باعتبار المغايرة، بالعموم والخصوص[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

دلالة البدء بالوفاء بالعهد:

الوفاء بعهد الله هو العمل بكلّ ما هو برّ، والانتهاء عن كلّ ما هو شرّ

البَدءُ بالوفاء بالعهد في الآية مقدَّمًا على مقابله، وهو عدم نقض الميثاق؛ أدلُّ على تمكّن الإيمان في القلوب، حتّى يبدوَ اللّائق بحال المؤمنين الصّادقين أولي الألباب، أن تكون حياتهم كلّها تحقيقًا للمصالح وتَحلّيًا بالجمال، بحيث لا يكون للمفاسد ولا للرّذائل في حياتهم وجود، فيضطروا معه إلى تقديم ما هو أَوْلى، وهو دَرءُ المفسدة، فإنّه - بلا ريب - مُقدّم عند المفاضلة على جَلْب المصلحة.

كما يدلّ البَدءُ بالوفاء بالعهد، على أنّه أصل لكلّ ما سيجيء بعدَه، فمن يحافظ على عهد اللّه، سيفعل كلَّ بِرّ، وينتهي عن كلّ شَرّ.

سرّ تعدّد صفات أولي الألباب:

تشريفُ أولي الألباب، بتعدُّد صفاتِهم الطّيّبةِ، تنويةٌ بعلوّ شأنهم

كلّ ما ذُكر مِن صفاتٍ معطوفٍ بعضها على بعض، بعد قوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ﴾ هي راجعةٌ إلى أولي الألباب، وقد دلّ تعدُّدها على شرفهم، فتَعَدُّد الصّفات للموصوف الواحد، مِن دواعي تشريفِه، إذا كانت الصّفات ممّا يُمتدح بها.

سرّ ترك إضافة الميثاق إلى لفظ الجلالة:

الميثاق ما يكون بين النّاس مِن التزامات، والعهد ما شرّعه الله

في ترك إضافة الميثاق إلى اللّه، فلم يقل: (وَلا يَنْقُضونَ ميثاقَ اللّه) احتمالان؛ الأوّل: أن يكون المراد بالميثاق: ما يكون بينَ النّاس بعضِهم مع بعض، ولذا لم تصلُح الإضافة. وممّا يؤكّد ذلك، ورودُ الميثاقِ في القرآن مصرّحًا فيه بالإضافة إلى ضمير المخاطَبين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: 84]، ونحوه في آياتٍ أخرى في سورة [البقرة: 63، 93]، و[الحديد: 8]. والثّاني: أن تكون الألف واللّام نائبة مناب الإضافة إلى ضميره، أي: (ولا ينقضون ميثاقه)[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/428.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العهد والعقد والميثاق:

لا غرو أنّ بين ثلاثتها تقاربًا شديدًا في المعنى، وتقاطعًا قد يصعب الفكاك منه، إلّا بتقدير أنّ إحداها أوفى معنًى مِنَ الأخرى، أو أبلغ دلالةً، ونحو هذا.

تتقارب في المعنى، والتّفاوت بينَ ثلاثتها، يُقدّر بكون إحداها أوفى بالمعنى

فالعقدُ وإن كان عهدًا، والعهد وإن كان عقدًا؛ إلّا أنّه يمكن التّفريق بينهما، بأنّ العقد أبلغُ مِنَ الْعَهْد، فإنّك تَقول: عَهِدتُ إلَى فلان بِكذا، أي: ألزمتُه إياه. وتقول: عقدتُ عليهِ وعاقدتُه: ألزمتُه باستيثاق. وتقول: عاهَدَ العَبْدُ ربَّه، ولا تَقول: عاقد العَبْدُ ربّه؛ إذْ لا يجوز أن يُقال استوثَقَ مِن ربّه[1].

وأمّا الميثاق والعهد؛ فلشِدّة ارتباطِ كلٍّ منهما بالآخر، قيل: هما مترادفان[2]، معَ أنّ النّاظر في سياق الآيات يجد فرقًا بينهما؛ فالميثاق توكيدُ الْعَهْد، من قَوْلك: أوثقتُ الشَّيء، إذا أحكمتُ شَدّه. والعَهْد يكون حالًا مِنَ المُتعاهِدَيْن، والميثاقُ يكون مِن أحدهما[3]. ويمكن أن يكون الفرقُ بينهما هنا فيما يحتمله سياقُ الآية، أنّ العهد: ما يُلزِم اللّه تعالى به عبادَه كالصّلاة مثلًا، والميثاقَ: ما يُلْزِم المَرءُ به نفسَه كالنُّذور. أو أنّ العهد: ما يكون بينَ اللّه والعبد، والميثاقَ: ما يكون بينَ العبدِ والعبد.

وفّى، وأوفى:

(وفَّى) أبلغ من (أوفى)، فالأوّل للتّأدية والإعطاء، والثّاني للعهد والكَيْل والميزان

النّاظر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بين (وفَّى) و(أوفى)، فقد خُصّص الفعلُ ﴿أَوۡفَىٰ﴾ [آل عمران: 76] بالعهد والكَيْل والميزان، فممّا ورد في العهد قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.

وممّا جاء في الكيل والميزان قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأنعام: 152]، إلى غير ذلك مِنَ الآيات التّي وردت في هذا السّياق. أمّا الفعل ﴿وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: 37] فاستُعمل في القرآن بمعنى: التّأدية والإعطاء، تقول: وفَّيتُه أجرَه كلّه، أي: أعطيتُه إيّاه وافيًا؛ لذلك وردت في مقام مجازاة العبد على عمله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [هود: 111]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: 57].

ومِنَ الفروق بينهما: أنَّ (وفَّى) بالتّضعيف أبلغ مِن (أوفى)؛ لأنّ (فعَّل) وإن شارك (أفعل)، إلّا أنّه لمّا كان دالًّا على التّقصّي شيئًا بعد شيء، كان أدلَّ على المبالغة، وقد راعى القرآن هذا المعنى عندما تحدّث عن توفية اللّه أجورَ عبادِه في الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: 10]، ومدح إبراهيمَ عليه السلام بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: 37]؛ وذلك لأنّه وفَّى بكلّ ما أُمِر به على وجه التّمام والكمال.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بينَ الوفاء بعهد الله، والصّفات المُنبثقة عنه، كالصّلة والخشية

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة مِن صفات أولي الألباب، أنّهم ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، وكانت هذه الصّفة أصلًا تترجمُه صفاتٌ أُخرى متفرّعةٌ عنها؛ ككونهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، أَرْدفَها هنا بفرعين آخرين، يعودان إلى الوفاء بعهد اللّه، هما: أنّهم يَصلونَ ما أمر اللّه بوصله، وأنّهم يخشون ربّهم، ويخافون عقابَه يومَ الحساب.

وكذلك أيضًا: لمّا كان قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مقتضيًا أنّه لا ينضوي تحت وصف (أولي الألباب)، إلّا مَن كانوا مؤهّلين لذلك، ذكر هنا بعضَ الصّفات الّتي مكّنتهم من هذا الوصف، فكان مِن جملتها: أنّهم يَصِلون ما أمر اللّه بِوَصْلِه، وأنّهم يخشون ربّهم، ويخافون عقابَه يومَ الحساب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصِلُونَ﴾: الاتّصالُ ضِدُّ الانفصالِ والتّركِ والهِجران، و"(الْواوُ والصّادُ واللّامُ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على ضَمِّ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ حَتَّى يَعْلَقَهُ"[1]، ومعناه: اتّحادُ الأشياء ووصلُ بعضِها ببعض، كاتّحاد طرفي الدّائرةِ، ويُستَعمل الوَصْلُ في الأعيان والمحسوسات، كما يُستَعمل في المعاني[2]، ومِن استعماله في المعاني كلمة ﴿يَصِلُونَ﴾ في الآية؛ إذِ المُرادُ بها هنا مُلازمةُ المُكلَّفِ لأوامر اللّه، وبلوغُه مرادَ اللّه منها علمًا وعملًا وانقيادًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصل).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (وصل).

2) ﴿وَيَخۡشَوۡنَ﴾: الخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ. "(الْخاءُ والشّينُ والحَرْفُ الْمُعْتَلُّ): يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ"[1]؛ فالخشيةُ وإن كانت تعود في معناها إلى الذُّعْر والخَوف، لكنّها في واقعِها هي أشدُّ أنواعِه وأخصّها، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ للمَخْشي، كأثرٍ للعِلْم بمقامه العظيم[2]. وعلى هذا فمعنى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ يخافون ربَّهم خوفَ إجلالٍ وتعظيم ومهابةٍ.

3) ﴿وَيَخَافُونَ﴾: الخوفُ ضِدّ الأمن، و"(الخاءُ والواوُ والفاءُ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، يُقالُ: خِفْتُ الشَّيْءَ خَوْفًا وخيفَةً، والياءُ مُبْدَلَةٌ مِنْ واوٍ لِمَكانِ الْكَسْرَةِ"[3]، وأصله: يدلّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ من شيءٍ ما، سواء كان هذا الشّيء المَخوفُ مُتعلّقًا بالأمور الدّنيويّة أو الأُخرويّة، وحقيقتُه: أنّه شعور ينتاب الإنسانَ عند توقّع حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ، عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة، ولذا قوبِل بينَه وبينَ الرّجاء في قوله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]، من حيثُ إنّ الرّجاء ينشأ عن توقّع محبوبٍ عن أمارَة مظنونة، أو معلومة[4]. ومعنى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: يفزعون منه وجلًا وذُعْرًا، ومن ألّا يكونوا مِنَ المقبولين.

المَعْنى الإجْماليّ:

تقديمُ أعمالِ البِرّ، وصِلة الأرحام، إخلاصًا لله، وخشيَةً منه وخوفًا

بيّنت هذه الآيةُ أنّ مِن صفات أولي الألباب، الموفين بعهد اللّه: أنّهم يَصِلون أنفسَهم وأعمالَهم، بكلّ ما أمر اللّه به أن يوصَل مِن أعمال البِرّ والمعروف، فيستجيبون لأوامر اللّه ورسوله، ومِن ذلك أنّهم يَصِلون أرحامَهم، ويعودون مَرضاهم، ويُحسِنون إلى كلّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خشي)، وابن الهائم، التبيان، ص: 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خوف)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 101.

مُسْتَحِقّ للإحسان مِنَ النّاس، بما يَستَحِقّه أو يزيد، يفعلون ذلك حُسْبَةً للّه، وخَشْيَةً منه، وهَيْبَةً لجلاله، وتعظيمًا له، وخوفًا مِن عقابه يومَ الحساب، لو أنّهم خالفوا أمرَه، أوِ انتهَكوا حُرماتِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو العاطفة:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾، الواو عاطفة لجملة الصّلة، على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، باعتبارها فرعًا مِن فروعها، وأثرًا مِن آثارها.

وصل ما أمر الله بـه أن يوصل، من جملة الوفاء بعهد الله

سرّ تكرار اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أُعيدَ اسْمُ المَوْصولِ تنويهًا بشأن ما في حَيّزه من جملة الصّلَة، وما عُطِف عليها من صفات؛ ولبيان أنّها بذاتها جديرةٌ بالاهتمام، وأنّها لعَظَمتِها كافيةٌ في مدح مَن اتّصف بها، والاهتمام به، وأيضًا لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبَى الدّارِ لا تَتَحَقَّقُ لَهُم إلّا إذا جَمَعوا كُلَّ هَذِهِ الصِّفاتِ[1].

لكلّ صفة فُضْلى قيمةٌ مستقلّةٌ عُليا، تمتاز بها وتتحدّد

دلالة الإتيان بالفعل ﴿يَصِلُونَ﴾ بعد ﴿يُوفُونَ﴾:

دلّ الإتيان بصفة الوصل، بعد الوفاء بالعهد، في قوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ ومقدِّمًا إيّاها على جملة الصّفات الأُخرى، دلّ على كونها أدخلُ الصّفاتِ في معنى الوفاء بالعهد، وأبرزُ وأخصّ ما يُعَبّر عنها، وهو من باب عطف الخاصّ على العامّ؛ وفيه بيانٌ لأهميّة هذا الخاصّ.

فائدة عطف الخاصّ على العامّ، وأثره في السّياق

سرّ اختيار الفعل ﴿يَصِلُونَ﴾ دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، أوثِرَ التّعبيرُ بالوصل على غيره؛ لكونه أدلَّ على شِدّة الالتصاق والالتحام، بما أمر اللّه بوصله والالتزام به بلا محيدٍ عنه، ثمّ لكونه لفظًا شاملًا، يشمل معناه كلّ ما أمر اللّه به من حقوق النّاس بعضِهم على بعض،

التّعبير بلفظ (يَصِلونَ)، أدلُّ على التّمكّن وعلى العموم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

فيدخلُ فيه مِنَ التّفاصيل صلةُ الأرحام، وموالاةُ المؤمنين، والإيمانُ بجميع الأنبياء، وجميعُ حقوقِ النّاس، وسائرُ الأواصرِ والعلائق الّتي أمرَ اللّه بالمودّة والإحسان لأصحابها[1].

بلاغة الاستعارة التّبعيّة:

مُجمَلُ البرّ بالنّاس، مشمولٌ في كلمة الوصل، ومستوعبٌ فيها

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، دلّتِ الاستعارةُ التّبعيَّة في قوله: ﴿يَصِلُونَ﴾ على كافة أنواع القُرْب مِنَ النّاس، والإحسانِ إليهم، والتّلَطّفِ في معاملتهم، ومُراعاةِ حقوقِ اللّه فيهم؛ بمنحِهم حقوقَهم وعدمِ هضمِها، فالوصلُ في حقيقته يكون للأشياء المحسوسة، ومجازًا في غير المحسوس.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَآ﴾ دون (الّذي):

لا تفريقَ في الطّاعة بينَ أوامر الله، فكلٌّ قطعيِّ الدّلالة، واجبُ التّطبيق

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿مَآ﴾ دون (الّذي) في قوله تعالى: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ على شُمول المأمورِ به وعمومِه، دونَ تعيين أمر معيّن، حتّى يَعُمّ جميعَ وجوهِ الصّلة مِنَ الأرحام والقرابات، ويدخلَ فيه وصلُ قرابةِ رسولِ اللّه ﷺ، وقرابةِ المؤمنين الثّابتةِ بسبب الإيمان بالإحسان إليهم، ونصرتِهم، والذّبِّ عنهم، والشّفقةِ عليهم، والنّصيحةِ لهم، إلى غير ذلك مِن وجوه الصّلة[2].

دلالةُ جملة الصّلة:

المدحُ بالوصل إطنابًا وتعريضًا، مِن فصيح البيان

وإنّما أطنب مادحًا في التّعبير عن صفة الوصل، فقال: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، ولم يكتف بقول: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾؛ لما في الصّلة مِنَ التّعريض بأنَّ واصِلَها آتٍ بما يُرضي اللّه، ففيها ثناءٌ على المؤمنين، بأنّهم يصلون الأرحام، وأنّهم لم يقطعوا أرحامَ قومِهم المشركين، إلّا عندما حاربوهم وناوَؤوهم.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/186، والشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/127.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/503.

وفي هذا الإطناب أيضًا تمهيدٌ للانتقال بالثّناء على المؤمنين بوصلهم الأرحامَ، إلى ما ورد في الآية التّالية مِنَ التّعريض بالمشركين الّذين قطعوا أواصرَ القرابةِ بينَهم وبينَ رسول اللّه ﷺ؛ ومَن معه مِنَ المؤمنين، وأساؤوا إليهم في كلّ حال، وكتبوا صحيفةَ القطيعةِ مع بني هاشم[1].

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿أَمَرَ﴾ دون غيره:

مادّة الأمرِ دالّة على الحَتميّة بلا تأوّل

دلّ التّعبيرُ بمادّة الأمرِ دون صيغته، في قوله: ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، على وجوب وصْل ما أمر اللّه بوصلِه، بحيث لا يحتمل شيئًا آخرَ إلّا الوجوب، أمّا التّعبيرُ بالصّيغة فهو قابل بالقرائن، إلى أن يَؤولَ بالنّدب أوِ الإرشاد.

سرّ التّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهُ﴾، دون لفظ (الرّب):

كلّ الهيبة والجلال، في اسم (الله) ذي الجلال

دلّ التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾، على الهَيْبة والجلال؛ ليكون التّعبير به أدعى إلى التزام ما أمر اللّه بوصله.

دلالة التّعبير بالضّمير ﴿بِهِۦٓ﴾:

زيادة تقرير المقصود بالوصل، في سياق الجملة

دلّ التّعبير بالضّمير المجرور، في ﴿بِهِۦٓ﴾، بحيث لم يكتفِ بقوله: ﴿أَن يُوصَلَ﴾، على زيادة تقرير المقصود بالوصل، وهو الأرحام وما في معناه، بعد تقريره بالموصوليّة[2].

دلالة المصدر المؤوّل بدلًا مِنَ الصّريح:

أفضل الأعمال ما دام واتّصل، لا ما انقطع وانفصل

في إيثار المصدر المؤوّل ﴿أَن يُوصَلَ﴾، على المصدر الصّريح (بوصله)، فائدةٌ مترتّبة على المضارع ﴿يُوصَلَ﴾، وهي إفادة تجدّدِ النّشاطِ للوصل، لو اعتراه مِنَ العوائق ما يقطع استمرارَه[3]، أو مِنَ الصّوارف والشّواغل ما يُثبّط الهِممَ نحوَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/329.

دلالة عطف جملة ﴿وَيَخۡشَوۡنَ﴾، على ما قبلها:

عطف العامّ على الخاصّ للاهتمام بالخاصّ

الوصل المطلوب هنا هو جزء من خشية اللّه، وداخلٌ فيها، وذلك مِن عطف العامّ على الخاصّ؛ اهتمامًا بشأن الخاصّ في إفراده بالذِّكر، وكأنّه قد أمر به مَرّة بالأمر الخاصّ، ومَرّة بإدراجه ضمن الأمر العامّ بالخشية.

سرّ التّعبير بلفظ (الخشية) دون غيره:

لا يُخشى إلّا العظيمُ، وهو الأحقّ بالخشية والتّعظيم

عبّر في الإخبار عنِ الممدوحين بصفة الخشية للّه، وليس بوصف الخوف أو غيره؛ إيغالًا في مدحهم بأنّهم لعلمهم بعَظَمة ربّهم، وتهيّبهم لجلاله، فهم ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ لأنّ الخشية: هي الخوف مع العِلْم بعَظَمة المَخْشي.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَيَخۡشَوۡنَ﴾:

أولو الألباب الموفون بعهد الله، خشيتُهم لله مُتجدّدة

دلّ التّعبير بالمضارع ﴿وَيَخۡشَوۡنَ﴾، على تجدّد خشيتِهم للّه تعالى، حتّى لوِ اعتراها ما يُعطّلها حينًا؛ فإنّهم ينشطون لها مِن جديد، فهو" كناية عنِ الاستمرار"[1].

دلالة التّعبير بالرّبوبية دون الألوهيّة:

خشيتك لربّك، من جملة نعمه عليك

وإنّما كان التّعبير هنا بالرّبوبية الدّالّة على الشّفقة والرّحمة والإنعام، دون التّعبير بالألوهيّة الدّالّة على الهيبة والجلال؛ للدّلالة على أنّ خشيتهم لربّهم هي مِن إنعام ربّهم عليهم، وإحسانه إليهم، حيثُ وفّقهم إلى معرفة مقامه، وتهيُّب جلالِه، فقَدَروه قَدْرَه حتّى استحقّوا بذلك أن تكون تلك الخشية مِن مسوّغات مدحهم. وممّا يضاف إلى ذلك، أنّ لفظ الخشية، يحمل معنى الخوف العظيم؛ فجاء التّعبيرُ بلفظ الرّبوبيّة ليُخفّف حِدّة هذا الخوف. كما أنّ من مقتضيات التّعبير بالرّبوبيّة - أيضًا - طمأنةُ الخاشين؛ بإعذار اللّه لهم، لو اعترض طريقَ خشيتِهم للّه ما يعوقه بعضَ الوقت؛ فإنّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.

سبحانه لا يعاجلهم بعقوبة، ولا يغلق في وجههم أبوابَ العَودة إليه؛ بل يواصل إحسانَه إليهم، حتّى يعودوا إلى صوابهم.

دلالة الإضافة، في قوله: ﴿رَبَّهُمۡ﴾:

شرف الإضافة إلى الرّبّ، وكفى به فخرًا

في إضافة ضميرهم إلى (ربّ)، ما يقتضي شرفَهم، فهي إضافة تشريف وتكريم.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

المغايرة بين معنى الجملتين المُتعاطفتين، تعميمًا وتخصيصًا

في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، نلحظ في ذِكْر جملة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، وعطفِها استقلالًا على جملة: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، وعدمِ إدراجها ضمنًا في قوله: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، ما يدلّ على المغايرة بينَ مضمون الجملتين، ومع هذه المغايرة فقد جمعوا بينَ هاتين الصّفتين، المتفرّعةِ إحداهما مِنَ الأُخرى تفرّعَ الخاصّ مِنَ العامّ، فإذا كانت خشيتُهم لربّهم تعني مهابتَهم له، وتعظيمَهم إيّاه، فإنّ خوفهم مِن عقابه هو صفة أُخرى خاصّة، وإن كانت مِن لوازم الصّفة الأعمّ منها، وهي صفة الخشية لربّهم.

سرّ اختيار التّعبير بالفعل ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

الالتزام بالتّكليفات، بوّابة الأمن يوم القيامة

دلّ التّعبيرُ بالخوف مِن سوء الحساب، مغايرًا للتّعبير بالخشية مِنَ الرّب على اختلاف المقامين، فترجمةُ الخوفِ مِن سوء الحساب يوم القيامة، هو الالتزام بالتّكليفات، دونما زيادة مضرّة، أو مَنقَصَة مُخِلّة. أمّا الخشية؛ فترجمتُها التّعظيمُ والمهابةُ للّه؛ لأنّه اللّه المُستَحِقّ لذلك، قبلَ النّظر إلى ثواب، أوِ الوجلِ مِن عقاب.

دلالة التّعبير بالمضارع:

فضيلة الخوف من عقاب الله، في المداومة عليه

دلّ التّعبير بالمضارع في ﴿وَيَخَافُونَ﴾، على استمرارهم على طاعاتهم، وتجدّد نشاطهم حينًا بعد حين، حذرًا مِن عقاب يوم القيامة.

سرّ تقديم الخشية على الخوف:

مِن أسرار تقديمِ الخشية على الخوف، في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ

الخشية أصل، والخوف فرع

﴿رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أنّ الخشية مِنَ الله أصلٌ، والخوفَ مِن عقابه فَرْعُه، ولا وجودَ للفرع استقلالًا عن وجود الأصل.

سرّ اختلاف متعلّق الخشية والخوف:

التّعبير بالخشية دالٌّ على مهابة متعلّقها بخلاف متعلّق الخوف

إنّما جَعَل متعلّق الخشيةِ ﴿رَبَّهُمۡ﴾، ومتعلّقَ الخوفِ ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، دون العكس؛ لما مضى ذِكْره من أنّ الخشية تعني: العِلْمَ بعظمة المَخشيّ لتَهَيُّبه، وهو مناسبٌ لأن يكون متعلّقه ﴿رَبَّهُمۡ﴾، ولمّا كان متعلّق الثّانية - وهو ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ - أقلَّ مكانة مِن سابقه، فقد ناسبه التّعبيرُ بالخوف.

سرُّ اختيار التّعبير بلفظ ﴿سُوٓءَ﴾:

السّوء ما يسوء الإنسان، وإن كان عند غيره خيرًا

أوثِرَ التّعبيرُ بلفظ ﴿سُوٓءَ﴾، في قوله تعالى: ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، دون أن يستخدم تعبيرًا آخر، مثل: (شرّ الحساب)؛ لأنّ التّعبير به هنا هو الأدلّ، فليس كلّ ما يَسوء يُسَمّى شرًّا، فقد يسوء الإنسانَ - مثلًا - قلّةُ الثّواب، أو عدمُ بلوغِ كمالِ المُراد، مع كونه ليس شرًّا.

سرّ ذِكر كلمة ﴿سُوٓءَ﴾، دون الاكتفاء بـ (يخافون الحساب):

من دوافع العمل النّصُّ على الجزاء

سرّ التّنصيص على هذا الوصف ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ كونه تحذيرًا يحمل الدّافعَ لهم إلى ترك العمل السّيء، الّذي قد يؤول بهم إلى سوء الحساب.

دلالة حذف المضاف (يوم) وإبقاء المضاف إليه ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾:

سوءُ الحساب بتقدير الله، يكون شديد اللّأواء والعذاب

الحساب في الأصل العدّ، ثمّ أُطلق على عدّ الأشياء الّتي يُراد الجزاءُ عليها أو قضاؤها، فصار الحسابُ يُطلق على الوفاء بالحَقّ، يقال: حاسبه، أي: كافأه أو دفع إليه حَقّه، ومنه سُمّي يومُ القيامة يومَ الحساب[1]، فهي تسمية دالّة على العدل والوفاء بالحَقّ، وهو اسم مدح.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/249.

وعليه، فلو قال: (سوء يوم الحساب) لجعل للعدل سوءًا، فلا يستقيم المعنى، ولا يتّفق ومقصودَ تسميةِ يوم القيامة بـ (يوم الحساب)، بما يحمله مِن معنى العدلِ، المقتضي المدحَ، كما سُمّي مدحًا أيضًا بـ (يوم الدّين) أي: يوم الجزاء. وخصوصًا أنّ السّياق في الآية مسوقٌ لَمدح الّذين يخافون ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: ما يَحتفّ به ممّا قد يسوؤهم، لا أنّه هو نفسُه يسوؤهم، ولذلك لمّا اختلف السّياقُ وكان المقامُ مقامَ ذَمّ للمُخْبَر عنهم، صرّح فيه باليوم فقال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: 16]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26].

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾، دون العقاب:

أوثِر التّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ دون العقاب، في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّ المقصود به ما يسوء الإنسان متزامنًا مع الحساب، وليس شرطًا أن يكون ما يسوء عقابًا، فقد يسوء الإنسانَ ما لم يبلغه مِن مراتب الكمالِ الّتي كان يطمح في الوصول إليها، وإن كانت تُعَدُّ عند غيره - ممّن لم يكن له نفس طموحه - مِنَ المَكرُمات، وأيضًا: هو أنّ العقاب نتيجةُ الحساب.

الحساب لا يعني العقابَ، ولكلّ منهما مسلكٌ وباب

الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

الخشية والخوف:

لا شكّ أنّ بينَ الكلمتين تقاربًا دلاليًّا، فهما من بابٍ واحد، ومِن شِدّة التّقارب بينهما ظُنّ أنّ بينهما ترادفًا، وقد فُرّق بينهما بما يلي:

أولاً: قيل: إنّ الخشية أعلى مِنَ الخوف، وهي أشدّ أحوالِ الخوف، فإنّها مأخوذة من قولهم: شجرةٌ خشيَةٌ، أي: يابسة، وهو فواتٌ بالكليّة. والخوف من قولهم: ناقةٌ خَوْفاء، أي: بها داء، وهو نقصٌ وليس بفوات؛ ولذلك خُصّتِ الخشيةُ باللّه، في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

الخشية أبلغُ دلالةً مِنَ الخوف، وأقرب إلى المقصود في السّياق

ثانيًا: وفُرِّق بينهما أيضًا بأنّ الخشية تكون مِن عِظَم المُختَشَى، وإن كان الخاشي قويًّا. والخوف يكون مِن ضعف الخائف، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا[1].

ويدلّ لذلك أنّ (الخاء والشّين والياء) في تقاليبها، تدلّ على العظمة، نحو: شيخ: للسّيّد الكبير، وخَيْش: لما غَلُظَ مِنَ اللّباس، ولذا وردتِ الخشية غالبًا في حَقّ اللّه تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 74] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

قال السّيوطيّ: "وأمّا قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ ففيه نُكْتَةٌ لطيفة، فإنّه في وصف الملائكة، ولمّا ذَكَر قوّتَهم وشِدَّة خَلْقِهم عبّر عنهم بالخوف، لبيان أنّهم وإن كانوا غلاظًا شدادًا، فهم بين يديه تعالى ضعفاءُ، ثمّ أردفه بالفوقيّة الدّالّة على العَظَمة، فجمع بينَ الأمرين، ولمّا كان ضعف البشر معلومًا، لم يحتج إلى التّنبيه عليه"[2]، فالملاحظ أنّ الاختلاف بينَهما، راجعٌ إلى اختلاف المقام فيهما؛ فعند إرادة إظهار ضعفِ الخاشي، كما في جانب الملائكة، قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، حتّى لا يتطرّق توهّمُ أنّ الملائكة أقوياءُ لا يَضْعُفون، وعند إرادة إظهار عظمة المَخشيّ، قال في جانب النّاس ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لأنّ ضعف الإنسان محسوس لا يحتاج إلى تنصيص[3].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/363.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 4/78 - 79.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ [الرّعد: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلة التّحفيز لصالح الأعمال، وكونها تدوم بالهمّة والمصابرة

لّما كان الاستمرار على التّخلّق بعظيم الصّفات، وكريم الخلال في الآيات السّابقة، وكان للمداومة عليها ثقلٌ قد تضعف معه العزائمُ، وكان هذا كلّه يفتقر - بلا ريب - إلى الهِمَم العالية، والصّبرِ الجليل الجميل، جاءت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لبيان ذلك.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: الابتغاء (افتعال) مِنَ البغي، وقد غلب اختصاص هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواءٌ كان الطّلب محمودًا أو مذمومًا، وهو هنا مِنَ الابتغاء المحمود، أي: طلبًا حثيثًا في سبيل رضا ربّهم، وإخلاصًا له[1].

2) ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾: الدّرء: "الميل إلى أحد الجانبين"[2]، وأصل (دَرَأ) دَفْعُ الشَّيْءِ[3]، ومَن يميل إلى أحد الجانبين، فإنّه يدفع عنه. تقول: قوّمتُ دَرْأَهُ، ودَرَأْتُ عنه: دفعت عن جانبه[4]. ومعنى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ أي: يدفعون. قال تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعونها بها، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ [النّور: 8]، أي: يدفع عنها الحَدّ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) الرّاغب، المفردات: (درأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درى).
(4) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 2/626.

3) ﴿عُقۡبَى﴾: (العَيْنُ والقافُ والباءُ) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه. والأَصْلُ الآخَرُ: يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ"[1]، وأصل العَقِبُ: مؤخَّرُ الرِّجل، ثمّ صار يُطلق على آخِر كلّ شيء، وما يتبقّى منه، فيقال لآخِر الشّهر: عقبه ... ، "والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّان بالثّواب نحو: ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾. والعاقِبةُ إطلاقُها يَختصّ بالثّواب نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تُستَعمل في العقوبة نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17]، ومعنى: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبتها الحسنة"[2].

۞ المَعنى الإجماليّ:

تقاطع الصّبر مع جميع الطّاعات، دليلٌ على أهميّته، وخصوصًا في الأزمات

ثمّ تواصِل الآياتُ مدحَ أولي الألباب، بتعديد صفاتهم، فكان منها: أنّهم الصّابرون على طاعة اللّه وعن معاصيه؛ إخلاصًا للّه وطلبًا لمرضاته، ومن مقتضيات هذا: أنّهم محافظون على صلاتهم، بكامل أركانها ومطلوباتها الظّاهرة والباطنة، ومُنفقون مِن أموالهم ما يُزكّيها فرضًا ونفلًا، سِرًّا وعلانيّةً، حسبما يكون الخير والأفضل، ويدفعون ما يقع منهم مِن زلّات وهَفَوات، بفعل حسنات تمحو أثَرَها، بالارتداع عنها وتذكير النّفس بسوء عاقبتها، إن كانت مُجرّد همٍّ لم يُتَرجَم إلى فعل، أو بالاستغفار والتّوبة منها بعد فعلها ووقوعها، أولئك الجديرون بدخول الجنّة وسكناها، ونِعمَ ما هي.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة عطف هذه الآية على ما قبلها:

العلاقة بين الأصل الأخلاقيّ وفرعه

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، الواو عاطفة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).

لجملة الصّلة، على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، باعتبارها فرعًا مِن فروعها، وأثرًا مِن آثارها.

دلالة إعادة ذكر الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

إعادة الموصول محقّق لشرف الموصوف

أُعيدَ اسْمُ المَوْصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ تنويهًا بشأن ما في حيّزه مِن جملة الصّلة وما عطف عليها من صفات؛ لبيان أنّها بذاتها جديرةٌ بالاهتمام، وأنّها لعظمتها كافيةٌ في مدح مَنِ اتّصف بها والاهتمام به، وأيضًا: لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبَى الدّارِ لا تَتَحَقَّقُ لَهُم إلّا إذا جَمَعوا كُلَّ هَذِهِ الصِّفاتِ[1].

سرّ التّعبير بالصّبر وحذف متعلّقه:

العمل الجليل، يحتاج إلى الصّبر الجميل

دلّ قوله تعالى: ﴿صَبَرُواْ﴾ بعدما مضى من سرد صفات أولي الألباب، وما ألزموا أنفسَهم به من عبادات وأخلاق، على أنّه لا يقوى على المُداومة عليها، ولا يُلقّاها إلّا الّذين صبروا عليها، وصبروا عن أضدادها، وقد حُذِف متعلّق ﴿صَبَرُواْ﴾ لإفادة العموم، والمراد: صبروا على كلّ ما تكرهه النّفس مِنَ المصائب الماليّة والبدنيّة، وعمّا يخالف هوى النّفس من حُبّ الانتقام ممّن آذاه، ومِنَ العموم أيضًا ما يتعلّق بالتّكاليف الشّرعيّة، وما يتبعُ الالتزامَ بها من عقبات ومعوّقات.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿صَبَرُواْ﴾:

بيان مكانة صفة الصّبر، وتمكّنها منهم

جاءت الصّلةُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لما يلي:

أوّلًا: التّنويه بشأن هذه الصّفة؛ لإظهار دورها في المحافظة على بقية الصّفات المذكورة؛ إذ جميعُها مُفتقِر إلى الصّبر؛ لضمان دوامِ الاستمرار عليها، فصِفةُ الصّبر متقدّمة في الوجود على بقيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

الصّفات السّابقة واللّاحقة، فكان مسوّغًا لاستئثارها بالتّعبير بصيغة الماضي دون سواها.

ثانيًا: أنّ ما تقدّم مِنَ الصّلات التّي جاءت بالمضارع قُصِد بها الاستصحابُ والتَّلَبُّس، أمّا هذه ﴿صَبَرُواْ﴾ فقد قُصِدَ بها تقدّمها على ذلك؛ لأنّ حصول تلك الصّفات مترتّبٌ على حصول الصّبر فيها، وتقدّمه عليها[1].

ثالثًا: ومِنَ المسوّغات - أيضًا - إفادةُ تحقُّقِها في المُخبَر عنهم، وتمكُّنِها مِن أنفسهم[2].

رابعًا: وكذلك لمّا كان اسمُ الموصول هنا في معنى اسم الشّرط، فقد ساغ التّعبير في الصّلة بالماضي، مخالفًا ما سبقه مِنَ التّعبير بالمضارع، "لأنّ الماضي كالمضارع في اسم الشّرط، فكذلك فيما أشبهه"[3].

سرّ التّعبير بالابتغاء دون ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾:

أولـو الألبـاب، وطَرقُ الأبواب

الابتغاءُ هو الاجتهادُ في الطّلب، والنّصب فيه إمّا على الحال، أي: طالبين وجهَ اللّه ورضاه، أو على المفعول لأجله، أي: أنّهم صبروا لأجل أن يجتهدوا في طلب رضى ربّهم، فيكون الابتغاء هنا برزخًا بين صبرهم وبلوغهم رضا ربّهم، من حيث إنّ هذا الاجتهاد في الطّلب هو المَدخل الّذي سيحقّق لهم رضا ربّهم، لما فيه مِن طَرْق الأبواب، الّذي يتبعه إفاضةُ الوَهّاب عليهم بالرّضا والقَبول والتّوفيق. وقد قيل[4]:

أَخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحاجَتِهِ *** ومُدْمِنِ القَرْعِ للْأَبْوابِ أَنْ يَلِجا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/141.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/134.

(4) البيت لمحمد بن بشير البصري الخارجيّ، ينظر: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء: 2/867.

بلاغة التّعبير بقوله: ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾:

بيان الاحتراس في الآية الكريمة، بين المعنى والغرض

ليس التّعبير بقوله: ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، من قبيل الصّفة الإلهيَّة، وإنّما المقصود به: "الْجِهَةُ الَّتي تُقْصَدُ عِنْدَهُ تَعالَى بِالْحَسَناتِ لِتَقَعَ عَلَيْها الْمَثوبَةُ، كَما تَقولُ: خَرَجَ زَيْدٌ لِوَجْهِ كَذا"[1]، وليس من جهةٍ يكافئها اللّه بالحسنات إلّا الجهةُ المرادُ بها وجهُ اللّه بالإخلاص له دون سواه، وبهذا انتفت سائرُ الجهات التي تُنافي الإخلاصَ للّه في صبرهم، كالرّياء ونحوه.

فكانت هذه الجملة ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ احتراسًا دفعَ به توهّم أن يكون صبرُهم لأيّ سبب آخر غيرِ طلب ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنّ الإنسان قد يُقدم على الصّبر لأغراض أُخَر:

أحدها: أن يصبر ليقال: ما أكملَ صبرَه، وأشدَّ قوّتَه على النّوازل.

ثانيها: أن يصبر لئلّا يُعابَ بسبب الجَزَع.

ثالثها: أن يصبر لئلّا تحصُل شماتةُ الأعداء.

رابعها: أن يصبر لعلمه أن لا فائدة للجَزَع.

فكلّ هذه الوجوه لم تكن داخلة في الصّبر لابتغاء وجه اللّه[2].

سر التّعبير بالرّبوبيّة دون الألوهيّة:

النّعم من آثار الرّبوبية وتجليّاتها

في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، عبّر باسم الرّبّ المُشعِر بالإنعام، وأضاف ضميرهم إليه، وآثره في التّعبير هنا دون الاسم الجليل (اللّه) المُشعر بالمهابة؛ لما أنّ المقام مقامُ إنعام ومَنٍّ مِن ربّهم عليهم؛ إذ وفّقَهم للتّخلّق بأعظم الأخلاق، وأخصّ الصّفات، وأعانهم عليها بأن مَكّن في نفوسهم الصّبرَ، لدوام المحافظة عليها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/380.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/41.

دلالة العطف:

العلاقة التّكامليّة الوثيقة بين الصّبر والصّلاة

دلّ عطفُ قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على قوله: ﴿صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ على مدى التّلازم، ووثاقة العلاقة بينَ الصّبر والصّلاة، وهو المُعَبّر عنه في مواضع أُخرى في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]، فالمحافظة على الصّلاة تحتاج إلى الصّبر، وهو كذلك يحتاج إلى محفِّز الصّلاة، ومِن ثَمّ كان النّبيّ ﷺ يَهْرَع إليها عندما تشتدّ عليه الأمور، فعن حذَيْفَةَ رضي الله عنه، قال: «كانَ النَّبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ، صَلَّى»[1].

سرُّ ترتيب إقامة الصّلاة بعد الصّبر:

من أسرار التّرتيب بين إقامة الصّلاة وسابقها ولاحقها

رَتَّب في الذّكر الإخبارَ عن إقامتهم الصّلاة على الإخبار بصبرهم، وهو من عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنّ إقامتهم الصّلاة هو أثَرٌ لصبرهم على طاعة الله، ثمّ قدّم في التّرتيب أيضًا الصّلاة على الزّكاة وما تلاها، إثْرَ الإخبار عن صبرهم؛ لما للصّلاة مِن حَقّ التّقديم والأسبقيّة المُطلقة على سائر العبادات، وذلك أنّ الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعدَ الشّهادتين، والمحافظةُ عليها خيرُ معين على المحافظة على ما بعدَها، كالزّكاة وغيرها، وخيرُ معين أيضًا على البُعد عمّا يُغْضِب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45].

سرّ التّعبير بـ (إقامة الصّلاة)، دون أدائها:

لا يكفي في أداء الصّلاة إبراء الذّمة؛ بل إعلاء الهمّة

يحرص القرآن الكريم على الأمر بإقامة الصّلاة بصيغة الأداء؛ وذلك لأنّ المطلوبَ صلاةٌ تقوم على مراعاة الأركان الظّاهرة المعروفة، وكذلك الأركان الباطنة مِنَ الخشوع والخضوع الّذَين

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، برقم: (1319).

يليقان بمقام المثول بين يدي ربّ العباد، وهذا كلّه لا يكفي فيه مجرّدُ الأمر بالأداء؛ من حيث إنّ المطلوب للصّلاة أداءٌ خاصّ تعلو به الهِمّة، لا أداءٌ تبرأ به الذّمّة. وممّا يؤكّد ذلك أنّ الله تعالى لم يمدح إلّا المقيمين للصّلاة، في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]، ولم يَرِد ذِكْر المُصلّي إلّا في حقّ المنافقين، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 4 - 5]، وعلى هذا فالمصلّون كُثُر، والمُقيمون للصّلاة قليل.

دلالةُ التّعبير بالماضي في ﴿وَأَقَامُواْ﴾:

دلالة التّعبير بالماضي، في قوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دونَ المضارع، وهو الصّيغة السّائدة في الصّلاة الماضية؛ للتّنويه بشأن الصّلاة، وتمكُّنها في نفوسهم، وللدّلالة أيضًا على تحقّقهم بإقامة الصّلاة، والمحافظة على أدائها بكامل حقّها ومُستَحَقّها.

مِنَ الوفاء بعهد الله، التّحقّق بإقامة الصّلاة

سرّ التّعبير عنِ الزّكاة بالإنفاق:

دلّ التّعبيرُ بالإنفاق في الآية دون النّص على الزّكاة؛ ليشملَ الزّكاةَ وسائرَ مظاهرِ الإنفاق الواجبِ منه، كالإنفاق على العيال، والمندوبِ، كالوقف وصدقة التّطوّع.

في المال حقٌّ سوى الزّكاة، يتحقّق بالإنفاق في سُبُل الخيرات

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿وَأَنفَقُواْ﴾:

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ دون المضارع، على ما دلّ عليه إيثارُ الماضي على المضارع في ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ﴾، وهو التّنويه بشأن صفة الإنفاق، والدّلالة على تحقُّقها فيهم، وتمكُّنها مِن نفوسهم وقلوبهم.

مِنَ الوفاء بعهد الله تحقُّق الإنفاقِ في سبيل الله

دلالة الجمع بين إقامة الصّلاة والإنفاق:

للجمع بين إقامة الصّلاة والإنفاق في الآية عهدٌ قرآنيّ، يدلُّ

معهود القرآن في الجمع بين الصّلاة والإنفاق

على اشتراكهما في قَدْر الأهميّة، وإن تقدّمت الصّلاةُ في هذا، كما يدلُّ على وثاقةِ الارتباط وقوّة العلاقةِ بينَهما، وتكاملِ دورهِما في إبراز الصّورة التَّعبديَّة في الإسلام؛ فالصّلاةُ عبادةٌ روحيّةٌ بدنيّة، والإنفاق بالزّكاة وغيرِها عبادةٌ ماليَّة، وبهما تكتمل الصّورةُ، ولذا أخذ الصَّديق ﷺ من هذا الارتباط حُجَّةً ودليلًا على قتال مانعي الزّكاة، فقال: "واللّه، لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فَإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المَالِ"(1).

سرّ التّعبير بـ (مِنْ) التّبعيضيّة في الزّكاة:

الإنــفــاق المطلوبُ، يكون ببعض ما تملك لا بجميعه

دلّ التّعبير بـ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا﴾: على أنّ الإنفاق المطلوبَ إنّما يتحقّق بإخراج جُزء مِنَ المال المملوك، وليس كلّ المال، وهذا الجزءُ مُقدَّر معلومٌ في الزّكاة المفروضة، ونصيبٌ لا ينبغي أن يوقِع الضَّررَ بالمُنفِق، ولا بالمُنفَق عليهم في الإنفاق التّطوّعي، ولذا نُصّ على ألّا يتجاوزَ الثّلثَ فيما يتعلّق بالوصيّة(2)، وفي هذا دليلٌ على وسطيّة الإسلام وسماحته؛ لأنّه احترم الملكيّة الخاصّة للإنسان وحافظ على جهده وكسبه، ولم يجعله مشاعًا للكُسالى والمُتسوّلين.

دلالة الإتيان بـ (ما) دون (الّذي) في قوله: ﴿مِمَّا﴾:

تزكية المَحيز مِنَ المـال، تتحقّق بالإنفاق منه

أوثِر التّعبير بـ (ما) الموصولة، دون (الّذي) في قوله: ﴿مِمَّا﴾؛ للدّلالة على عدم تعيين نوعٍ معيّن مِنَ المال المطلوب الإنفاق منه، فيشمل ما كان مالًا عينيًّا؛ كالذّهب والفضّة والنّقود المتداولة، ويَشْمَل غيرَها مما كان مِنَ الزّروع أو الماشية أو التّجارة ونحوها.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1335)، ومسلم في صحيحه، برقم: (20).
(2) لحديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان رسُولُ اللهِ ﷺ يعُودُني عام حجّةِ الوداعِ مِن وجعٍ اشتدّ بي، فقُلتُ: إنّي قد بلغ بي مِن الوجعِ، وأنا ذُو مالٍ، ولا يرِثُني إلّا ابنةٌ، أفأتصدّقُ بِثُلُثي مالي؟ قال: «لا»، فقُلتُ: بِالشّطرِ؟ فقال: «لا». ثُمّ قال: «الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كبيرٌ، أو كثيرٌ، إنّك أن تذر ورثتك أغنياء، خيرٌ مِن أن تذرهُم عالةً يتكفّفُون النّاس». أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1233).

سرّ التّعبير بالفعل ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ دون غيره:

المالُ لله والعبد أمين عليه

في التّعبير بالرّزق في الآية منسوبًا إلى اللّه تعالى - بضمير العظمة (نا) - على أنّه فاعلُه في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، تنبيهٌ للإنسان إلى أنّ ما في حَوْزته مِن مالٍ مملوكٍ له، إنّما هو مِن رزق اللّه إيّاه، وهو الذي وهَبَه له، وأنّه لم يَنَلْه بفرط ذكائه، ولا لعلم عندَه قد حُرِمَه الخَلْقُ كافّةً، وأنّ اللّه تعالى قد جعله على هذا المالِ مُستَخلَفًا، فلينفقه في محلّه، فهو عنده أمانة. وعلى هذا دأبَ القرآنُ على تذكير الإنسان، بأنّ اللّه هو رازقه، ومنه قولُه سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 31]، وقولُه: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [النمل: 64]، وغيرُها مِنَ الآيات الكثيرة في هذا السياق.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

ما كـان لـك من رزق الله، حتمًا سيأتيك ولا يخطئك

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ دون المضارع، على تحقّق وصولِ كلّ رزقٍ مقدَّر إلى صاحبه؛ فهو له مضمون، وما عليه إلّا السَّعيُ والأخذُ بالأسباب في سبيل تحصيله، مع توكّلٍ صادقٍ على مُسَبِّب الأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: 22].

سرُّ التّعبير بـ (نا) العظمة:

تنويع الصّيغ تنشيطٌ للسّامعين، وتنبيهٌ للغافلين

في العدول إلى التّعبير بـ (نا) العظمة دون لفظ الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، التفاتٌ مِنَ الغيبة إلى التّكلم، وسببُه التّنويه بشأنهم، مِن حيث إنّهم يُقرّون بأنّ ما لديهم مِن رزق إنّما هو مِنَ اللّه، وفيه أيضًا تنبيهٌ للغافلين الذين يظنّون أنّهم حازوا ما حازوه مِن رزق، لا لسببٍ غيرِ ذكائِهم وفطنتِهم وخبرتِهم، فشابهوا بذلك قارون حينَ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإنفاق ينبغي أن يكون مِنَ الحلال المُطلق الّذي لا تشوبه شائبةٌ، حتّى يستحقّ هذه الإضافة.

الاهـتـمـام بـالمـقـدَّم، من أسباب التّقديم

دلالة ذكر ﴿مِمَّا﴾ بعد الفعل ﴿وَأَنفَقُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، قُدّم الفعل على ﴿مِمَّا﴾؛ لأنَّ الغرضَ الإخبارُ عن إنفاق المنفقين ومدحهم به، ولكن لمّا كان الاهتمام بالرّزق المنفَق منه تغلُّبا على شُحّ النّفس التي جبلت على الضَّنّ به، قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3، الأنفال: 3، الحجّ: 35، القصص: 54، السّجدة: 16، الشّورى: 38]، وسِرّ ذلك أنّه حيثما تكون دائرةُ الاهتمام؛ فثَمّ التَّقديم.

شـرف المقصد وتـحـقـيـق الـغـايـات، مـحدّد الإسـرار أو الإعــلان بالصّدقات

سرّ التّعبير بالسّرّ في قوله ﴿سِرًّا﴾ دون (خفاءً):

الملحوظ في تركيب الآيات التي تتكلّم عنَ الإنفاق في القرآن الكريم، وتحثُّ عليه وترشد إلى طريقته؛ أنَّها تُقابل السّرّ فيه بالعلانية: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: 274 ، الرّعد: 22 ، إبراهيم: 31 ، فاطر: 29]؛ وذلك لأنّ السّرّ معناه: كتمانُ الحديثِ عنِ النَّفقة في النَّفس[1]، وذلك حيث يكون هذا السّرّ أفضلَ مِن مقابله وهو العلانيَةُ، أي: الإعلان بها والتَّحَدّث عنها، والعبرة في الإسرار بالإنفاق أو الإعلان راجعٌ إلى تحقيق الغاية وشرفِ المَقْصِد، فقد يكون الإسرارُ بها أفضلَ وهو الأصل، وقد يكون الإعلانُ بها هو الأفضل، إن وجد هنالك مسوّغ مشروعٌ، ومقصدٌ شريفٌ منشود.

أمّا الخفاء، فلا يناسب هنا إلّا مِن حيثُ المعنى العامّ، وليس هو المعنى الأدقّ للتّعبير عمّا جاء في هذا السّياق، وذلك أنَّ الآياتِ الّتي استخدمت صيغة الإخفاء يظهر عليها أنّها متّجهة إلى ذات الصّدقة أو النّفقة، وليس إلى الحديث عنها، وهو معنى متحصّل من معنى الخفاء، إذ هو: ما يستر به كالغطاء[2] ومُتَحصّل أيضًا من مقابلتها بالإبداء - وهو الكشف والإعلان - في قوله تعالى:

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سرر).

(2) الرّاغب، المفردات: (خفي).

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271].

سرُّ اختيار ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ دون ظاهرة:

في القرآن السّرّ مقابَلٌ بالعلانيّة، والظّاهر مقابَلٌ بالباطن

عادة القرآن الكريم في الحديث عن الإنفاق: مقابلة السّر بالعلانية كما مضى؛ لأنّ المراد بهما كتمانُ الحديث عنه أو إعلانُه، وأمّا الظّاهر في القرآن فهو مقابَلٌ بالباطن، وليس بالسّرّ، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20].

بديع الطّباق:

المقابلة بين السّر والعَلَن، وأثرُها في الإيضاح والبيان

في المقابلة بينَ السّر والعَلَن في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾، طباقٌ لفظيٌّ، "والمقصودُ تعميم الأحوالِ في طلب الإنفاق، لكيلا يظنّوا أنّ الإعلانَ يَجُرّ إلى الرّياء، كما كان حال الجاهليّة، أو أنّ الإنفاق سَرًّا يُفضي إلى إخفاء الغنيّ نعمةَ اللّه، فيَجُرُّ إلى كُفران النّعمة، فربّما توخّى المَرءُ أحدَ الحالين، فأفضى إلى تَرْك الإنفاق في الحال الآخر، فتعَطّل نفعٌ كثيرٌ، وثوابٌ جزيل، فبيّن اللّه للنّاس أنّ الإنفاق برٌّ لا يُكَدّرُه ما يَحُفّ به مِنَ الأحوال"[1]، فالسِّرُّ حيثُ يَحْسُن السّرّ، كما في إنفاق مَن لا يُعْرَف بالمال، إذا خشيَ التُّهمَة في الإظهار، أو مَن عُرِف به لكن لو أظهره ربّما دخلَه الرّياء والخُيلاءُ، وكما في الإعطاء بمن تمنعُه المروءةُ مِنَ الأخذ ظاهرًا، وتَحْسُن العلانيةُ إذا كان الأمرُ على خِلاف ما سبق ذكره، ولذلك قال بعضُ العلماء: "إنَّ السّرّ مخصوصٌ بالتَّطوع، وإنّ العلانيَةَ بأداء الواجب"، وقيل لبيان ذلك: إنّ السّرّ ما يؤدّيه بنفسه، والعلانيَة: ما يُؤدّيه إلى بيت المال، أو بيتِ الزّكاة في أيّامنا[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/233.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/141.

الإنفاق يكون في السّرّ والعلن، وفي كلِّ خير

دلالة التّنكير:

دلَّ التَّنكير في لفظي: ﴿سِرًّا﴾ و﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على شُيوع خيريَّة الإنفاقِ في الحالتين، طالما كان القصدُ شريفًا؛ كما دلَّ على مشروعيّته في عموم الحالتين.

الإنفاق في السّرّ هو الأصل، ما لم يكن الإعلانُ به أفضل

دلالة البَدء بالسّرّ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، قُدّم السّرُّ على العلانيّة في الآية؛ للدّلالة على أنّه الأصل في الإنفاق؛ لما فيه مِن بُعْدٍ عن تهمة الرّياء والتَّصنُّع، وأنَّ الإعلان بها هو الطّارئ عندما يبدو أنّه الأفضلُ لمقصدٍ شرعيّ.

من صفات أولي الألباب دَفْعُ السّيّئات بالحسنات

دلالة عطف ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾:

هذه الصّفة عُطِفت على ما سبق، عطفَ الخاصّ على العامِّ؛ تنويهًا بشأنها؛ وذلك أنّهم لا يستمرئون السّيّئة ولا يَفْرَحون بها، ولذلك فهم لا يُشْفِعونها بسواها، وإنّما يدفعونها بالحسنة، كإزاحة الهَمّ بها والعُدولِ عنها إن لم تقع، والإقلاعِ عنها، والاستغفارِ منها إن وقعت، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾، [المؤمنون: 96]، وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت: 34].

ومن أسرار ذكرِ هذه الصّفة بعد الصّفات السّابقة مع كونها داخلةً فيها ومتضمّنة، الدّلالةُ على أهميّتها في تكفير السّيّئات التي يقع فيها الإنسان، وهو عُرضة لهذا بمقتضى تكوينه البشريّ، وبمقتضى أحوال الحياة التي توجب على الإنسان الاحتكاكَ والالتحامَ ببني جِنسه، فيُعَرّضُه هذا للوقوع في السّيّئات واللَّمَم.

سرّ اصطفاء ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ دون (يدفعون):

السِّرُّ في اختيار كلمة ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ دون (يدفعون)؛ لشمولها كافّةَ المعاني المحتملة في معنى مدافعة الحسنة للسّيّئة وتكفيرِها،

كالعُدول عنِ السّيّئة بعد العزم عليها، والاستغفارِ منها، وأيضًا مقابلة الإساءة بالإحسان، بأن يصل مَن قَطَعَه، ويعطيَ مَن حَرَمه، ويعفوَ عمّن ظَلَمَه، وذلك فيما بينَ الأفراد، وكذلك بين الجماعات، بخلاف ما لو عُبّر بالدَّفع، فقد لا ينصرف معناه إلّا إلى هذا المعنى الأخير، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، وهو مفهوم قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: 96]، وقوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 34][1].

كلمة (يدرءون) مِنَ الألفاظ الجامعة لكلّ معاني المُدافعة

سرّ العدول عن الماضي إلى المضارع:

عدل عنِ الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾؛ لإفادة تجدّد النّشاط نحو مدافعة كلّ ما يعرض لهم مِن سيّئات، وهو أمرٌ لا شكّ مُتكرّر، لما مضى تعليلُه مِن كونه مِن مقتضى الطّبيعة البشريّة، ولما تُلْجِىء إليه ظروفُ الحياة ومعاملةُ الخَلْق، وكلّ ذلك يحتاج إلى دواءٍ لعلاج هذه الأمراض المجتمعيّة؛ فكان قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ هو الدّواء النّاجع الجامع لعلاجها.

المداومة على صفة المدافعة، مِن مقتضى الطّبيعة البشريّة

بلاغة الاستعارة:

في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ استعار الدَّرء، ومعناه: الدّفع والطّرد؛ لإزالة أثرِ السّيّئة ومحوها حتّى لكأنها لم تقع. ووسائل هذا الدّفع لتحقيق إزالة الأثر ظاهرةٌ فيما يلي[2]:

الدّرء هو الدّفع والطّرد؛ لإزالة أثر السّيّئة ومحوها

أولًا: أن تُتْبِع السّيّئة إذا صدرت بفعل الحسنات؛ فإنّ ذلك كطَرْد السّيّئة، قال ﷺ: «يا أبا ذرّ، اتّق اللّه حيثما كنت، وأتبِعِ السّيّئةَ الحسنةَ تمحها»[3]، وخاصّة فيما بينَه وبينَ ربّه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: (1987) وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك، برقم: (178)، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

ثانيًا: ألّا يقابل مَن فعل معه سيّئةً بمثلها؛ بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 34]، وهذا يكون بين الأفراد وبين الجماعات.

ثالثًا: العدول عن فعل السّيّئة بعد العزم عليها؛ فإنَّ ذلك العدولَ حسنةٌ، قال ﷺ: «ومَن هَمّ بسيّئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة»(1).

بلاغة الطّباق:

استخدام المقابلة لتبشيع صورة السّيّئة

بينَ الحسنة والسّيّئة طباقٌ لفظيٌّ إيجابيٌّ، حيث قوبلت كلٌّ مِنَ الحسنة والسّيّئة بالأُخْرَى، وهي ضِدُّها، والغرض: هو تبشيع صورة السّيّئة في الأذهان، - بمقابلتها بالحسنة - ؛ تنفيرًا منها، وحضًّا على ضِدِّها، وهي الحسنة.

دلالة الإفراد في الحسنة والسّيّئة:

الموفون بعهد الله، لا تتكاثر سيّئاتهم

دلّ الإفرادُ دون الجمع في لفظي السّيّئة والحسنة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114] على سرعة سعي الممدوحين في تكفير ما يصدر عنهم من مخالفة، بإتباعها بحسنةٍ تمحو أثرها، وأنّهم لا ينتظرون حتّى تتراكمَ عليهم السّيّئاتُ؛ فيَألَفَها القلبُ، وتعتادَها النَّفسُ، فيُجَدّدون لكلّ سيّئة توبةً واستغفارًا وعملًا صالحًا، حتّى تُمْحَى ولا يكون لها أثرٌ، وقد تتبدّل بصدق التّوبة إلى حسنة، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70].

دلالة موقع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

عند الله جزاء الإحسان بالأحسن، ولهم الحسنى وزيادة

وهذه الجملة الخبريّة تحمل نتيجة الاتّصاف بما سبق من صفات، بأنّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموفون بعهد اللّه، الموصوفون بما ذُكِر ﴿لَهُمۡ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (6126)، ومسلم في صحيحه، برقم: (131)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فهو جزاؤهم الّذي يستحقّونه، بما سلف منهم مِن أعمال صالحة.

دلالة فصل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ عمّا قبلها:

شبهُ كمالِ الاتّصال مُعبرًا عن بلوغ الآمال

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ استئناف مسوق لبيان جزائهم؛ فكأنَّ سائلًا سأل: بعد ذكر صفاتهم الحسنة: ما جزاؤهم؟ فجاءت الإجابة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وهذا المعنى لا يتأتّى بإثبات حرف العطف؛ لذلك كان الفصلُ أبلغَ.

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

المنزلة السّامية حقّ للمتّصفين بالصّفات العالية

دلّ التّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، على بُعْد منزلتهم في الخير بما اتّصفوا به مِن أوصاف، وعلى بُعْد منزلتهم في الجنّة، وأنّهم في مكان منها شريفٍ منيفٍ، وللإشارة إلى تميّزهم عن غيرهم مِنَ المؤمنين أكملَ تمييز.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور على المبتدأ:

من دلالات تقديم المؤخّر إفادة القصر

أفاد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ القصرَ والحَصْرَ، على معنى: أنَّ هؤلاء وحْدَهم هم الحَقيّقون بـ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾. "أي: هي لهم، لا للمُتّصفين بأضداد صفاتهم، فهو قصرٌ إضافيٌّ"(1).

سرّ التّعبير عن الجزاء، بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

دلالة كلمة (عقبى) على خير الجزاء

عَبَّر عنِ الجزاء المُعَدّ لهم في الجنّة بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لما فيه مِنَ الدّلالة على الخير، فالعُقبى والعاقبة قدِ اشتهر استعمالُهما في آخرة الخير، وعلى هذا جرى الاستعمال القرآنيّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

سرّ اختيار ﴿عُقۡبَى﴾ دون العاقبة:

المقابلة هي سرّ تغليب عقبى على العاقبة

و(العُقبى) و(العاقبة) وإن كانت بمعنًى، إلّا أنّه آثَرَ ﴿عُقۡبَى﴾ دون العاقبة، كما في قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]؛ لمقابلته بقوله في الآية الآتية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

الرّاجح في المراد بالدّار، أنّها الجنّة؛ لأنّها سكنٌ دائمٌ وقرار

عبّر بالدّار دون غيرها؛ لأنّها تحتمل معنيين؛ فتُطلق على دار الدّنيا، ويكون المرادُ بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ الخاتمةَ الّتي خُتِمت بها هذه الدّار، وهي عمل كلّ عاملٍ فيها؛ فمن عمل خيرًا كانت عاقبتُه خيرًا، ومَن عمل سوءًا كانت عاقبتُه بلاءً ونَكالاً، وهذا المعنى مبنيٌّ على أنّ معنى (العاقبة): خاتمةُ كلِّ أمرٍ وغايتُه، ويؤكّد هذا قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ بإضافة العاقبة لهم، ولم يجعلها عليهم، بمعنى: أنّ هذه العاقبةَ ممّا يملكها الإنسانُ ويحرِصُ على اقتنائها إذا كانت خيرًا، ويَنفُر منها ويولّيها ظَهْرَه إذا كانت شَرًّا، ولكنّها تُحمَل عليه حملًا، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286][1]. وتُطلق ﴿ٱلدَّارِ﴾ على الجنّة، ويكون التّعبير بها لما في لفظها من إفادة القرار؛ لأنّ ﴿ٱلدَّارِ﴾ سكنٌ وقرارٌ لا خُروجَ بعدَه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: 48]، وهذا المعنى هو الرّاجح في المراد بـ ﴿ٱلدَّارِ﴾، يُؤكّد ذلك قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، فهي بمثابة البيان لهذه الدّار.

دلالة الإضافة في: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

الجنّة هي عقبى الدّار، للصّالحين الأبرار

الإضافة في قوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، هي مِن إضافة الصّفة إلى الموصوف، وهي دالّة على تمكّن الصّفة مِن موصوفها تمكّنًا تامًّا، فالعقبى الخيرُ أو الحسنةُ، هي الوصفُ الثّابت للجنّة، فكلّها خيرٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/104.

بلا شَرٍّ، وصَفْوٌ بلا كَدَرٍ. والدّار هي الآخِرةُ، ويمكن أن تكون دارَ الدّنيا، وعقباها على كلٍّ هي الجنّة؛ لأنّها مستَقَرُّ الصّالحين، وآخِرُ ما يَؤوبون إليه، ليبدأ فيها نعيمُهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الابتغاء والطّلب:

إذا جدّ الطّلب كـان ابـتـغـاءً، وبـينَ اللّفظين تـقـاربٌ دلاليّ شديد

في المعاجم اللُّغويَّة يُعَرّف كلٌّ منهما بما يُعَرّف به الآخَرُ، وذلك لتقاربهما الدّلاليّ الشّديد، قال ابن فارس في بيان معنى الطلب: "(الطّاءُ واللّامُ والباءُ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على ابْتِغاءِ الشَّيْءِ"[1]، وكذلك في بيان معنى الابتغاء قيل: هو الطلب. يقال: "بَغَى الشَّيءَ يَبْغيه: طَلَبَه"[2]، لكن يُفَرّق بينَهما بأنّ الابتغاء هو نوع مخصوص مِنَ الطّلب، فهو الطّلب الذي بُذِلَ في سبيل تحصيله جهدٌ ممَيَّزٌ، وليس كذلك كلّ طلبٍ، "فالابتغاء افتعال مِنَ البغي. وقد غلب اختصاصُ هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواءٌ كان الطّلب محمودًا أو مذمومًا. ثمّ إنّه يُحْمَد بحمده، ويُذَمّ بذمّه؛ أي: إنّ الطّلب متى كان لشيء محمود فالابتغاء فيه محمود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء: 28]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، ومنه أيضًا الآية التي معنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، ومتى كان الطّلَبُ مذمومًا، كان الابتغاء فيه مذمومًا، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ [التوبة: 48][3]، وعلى هذا يكون بينَ الطّلب والابتغاء عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ ابتغاءٍ طلبٌ، وليس كلُّ طلبٍ ابتغاء.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلب).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو).

(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).

السّر والإخفاء:

السّرُّ يقوم بالإرادة، والخفاء بالعادة، وكلّ إعلان ظهور، وليس كلّ ظهور إعلانًا

السّرُّ خِلافُ الإعلان، وهو يعني: إخفاء الشّيء. يعني: السّرُّ والإخفاء مِن جنسٍ واحد، لكنّ القرآن عادةً يَذْكُر السّرَّ مُقابَلًا بالإعلان، ومنه قوله: أي: يُخرجون صدقاتِهم في السّرّ والعلن حسبما يكون الخير، أي: إنّهم قد يتحدّثون بها، وقد لا يتحدّثون، على ما مضى في الإيضاح البلاغيّ، كما أنّ مِن خصائص السّرّ أيضًا أنّه يُستعَمل في الأعيان والمعاني، ولذلك يُطْلَق على الحديث المُنكَتم في النّفس[1]، وأكثرُ استعمالِه في القرآن في المعاني، بخلاف الإخفاء، فاستعمالُه في المحسوسات ملحوظٌ، كما تقول: "أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوْب"[2]، ولا تقول: أسررتُه، وتقول: ساررتُه الخبرَ، لا خافيتُه. فمِثلُ هذا يقال له: سِرٌّ أو إسرار، ولا يقال له: خَفاء أو إخفاء، ومِن هذا الضّرب قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ [التوبة: 78]، وقولُه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ [الملك: 13]، والإخفاء وإن كان هو والسّر مِن باب واحد، غيرَ أنَّ السِّرَّ أخصُّ منه؛ لأنّه يدلّ على الانكتام، وأمّا الخفاء فهو أقلّ مِنَ السّرّ دلالةً، ويُعَبِّرُ عن هذا الفرق قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه: 7]، فلمّا كان الخفيّ أقلَّ معنًى مِنَ السّرّ، قارن السّرّ في المقايسة، بما هو أرقى، فكان الأرقى هو (الأخفى)، وليس الخفيّ. وقد لخّصَ الكَفَويُّ الفرقَ بينَهما بقوله: "السِّرُّ: هوَ ما يُكتَم؛ كالسّريرة والجِماع والذِّكر والنِّكاح والإفصاح بِهِ، والزِّنا ... ، وما يُسِرُّه المَرْءُ في نَفسه مِن الْأُمور الَّتي عزم عليها هو السِّرّ، وأمّا الْإِخْفاء، فَهوَ الَّذي لم يبلغ حَدّ العزيمة[3].

(1) الرّاغب المفردات: (سرر).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 514.

العلانية والظّهور:

الظُّهور يكون بِقصد وبِغير قصدٍ، تَقول: استتر فلانٌ ثمَّ ظهر، ويدلّ هَذا على قصدٍ للظّهور، ويُقال: ظهرَ أمرُ فلانٍ، وإن لم يقْصد لذَلِك، فَأمّا قَوْلُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرّوم: 41]، فَمَعْنَى ذَلِك: الْحُدوث، وكذلكَ قَوْلك: ظَهرت في وجهه حمرَةٌ، أي: حدثت، ولم يَعْنِ أنَّها كانَت فيهِ فظهرت[1]. ويأتي (ظهر) في القرآن مقابلًا لـ (بطن)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، وقوله: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: 120].

الظُّهور بقصدٍ وبغير قصدٍ في الأعيان والمعاني، الإعلانُ بقصد وأكثرُه في المعاني

وأمّا العلانيةُ، فهي ضِدّ الإسرار، وتأتي مقابلةً لها في القرآن كما مضى ذكرُه، وهو يدلُّ "على إظْهارِ الشَّيْءِ"[2]، أي: بقصد، كما أنَّ أكثره يكون في المعاني دون الأعيان[3]، كما في قوله تعالى: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 9]. وعلى هذا: فالفرق بينهما، أنَّ الظُّهور يكون بقصدٍ وبغير قصدٍ، والإعلانُ يكون بقصد، كما أنَّ الظُّهور يكون في الأعيان والمعاني، والإعلانُ يكون أكثرُه في المعاني.

متشابه النّظم بين آية [الرّعد: 22]، و[القصص: 54]:

الآيتان تتشابهان، مع اختلاف في التقديم والتأخير، والذّكر والحذف

قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، تتشابهت هذه الآية مع قوله تعالى من سورة القصص: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: 54]. والنّاظر في هاتين الآيتين يجد اختلافًا بينهما مع وجود التّشابه، وذلك من ناحية التّقديم والتّأخير، والتّعبير عنَ الإنفاق بالماضي في سورة الرّعد، وبالمضارع في سورة القصص،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علن).
(3) الرّاغب، المفردات: (علن).

ومِن ناحية الذِّكر والحَذف، حيثُ ذُكِر ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في سورة الرّعد، ولم تُذْكَر في سورة القصص.

أمّا عن سرّ التقديم والتأخير بين الآيتين؛ فالنّاظرُ في موضع القصص يجد أنّ السّياق فيها أكثرُ تعلُّقًا بالمستقبل، وكان دَرءُ الحسنة والسّيّئة أكثرَ تعلّقًا بالصّبر، لذلك ناسبه التّقديم، بخلاف سورة الرّعد؛ فالأمر مبني فيها على ترتيب الأوصاف دون النّظر إلى تعلّقها بالزّمن.

وأمّا عن سِرّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في سورة الرّعد، فجاء موافقًا لسياق الآية، حيث بُنِيَت على التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ومِنَ المعلوم أنَّ الإنفاق أكثرُ تعلّقًا بإقامة الصّلاة؛ لذلك جاء التّعبير ماضيًا، مِن باب التّناسق مع سياق الآية، بخلاف موضع القصص فهو مبنيٌّ على المستقبل، بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: 54]؛ فالتّعبير هنا يُشير إلى المستقبل، لذلك جاء بالمضارع من قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ [القصص: 54].

وأمّا عن ذِكْره لقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في سورة الرّعد دونَ القصص؛ فذلك لأنّ سورة الرّعد ذَكَرت صفةَ الإخلاص في أعمالهم بقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، والإخلاصُ يقتضي أن يكون الإنفاق سِرًّا كالإنفاق علانية، بخلاف موضع سورة القصص، فَخَلا منه الحديثُ عن ذِكْر هذه الصّفة صراحةً؛ لأنّها سَرت في سياق الآيات قبلَها، بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: 54].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرعد: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين عقبى الدّار، وبين جنّة القرار، حيث الأنس بالأخيار

لمّا أخبر الله تعالى في الآيات السّابقة أنّ المُتّصفين بما مضى تفصيلُه مِن صفاتٍ لهم عقبى الدّار، وهو لفظٌ مجمل، أتى بعد ذلك بما يفصّله ويُبيّنُه في هذه الآية، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾.

ولمّا كان التَّنَعُّم بعقبى الدّار لا يكمُل إلّا بوجود الأحباب والأُنس بصالحيهم وبالقائمين على المكان، قال: ﴿يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَلَحَ﴾: أصلُ (صلح) يدلُّ على خِلاف الفساد، والصَّلاحُ: ضِدّ الفساد، وهما مختصّان بالأفعال في أكثر الاستعمال، وقوبل الصّلاح في القرآن تارةً بالفساد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: 85] وتارةً بالسّيّئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102][1]. والمراد في الآية: الصّالحون الّذين يعملون الصّالحات ولا يفسدون، مِن آبائهم وأزواجهم وأبنائهم.

2) ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾: الذَّرْءُ: إظهارُ الله تعالى ما أبداه، يقال: ذَرَأَ الله الخَلْقَ، أي: أوجدَ أشخاصَهم، و"(الذّالُ والرّاءُ والهَمْزَةُ) أصْلانِ؛ أَحَدُهُما: لَوْنٌ إلى البَياضِ، والآخَرُ كالشَّيْءِ يُبْذَرُ ويُزْرَعُ"[2]. وفي اشتقاقها ثلاثة أقوال: قيل هو من: ذرأ الله الخلق، فترِك هَمْزُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صلح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).

نحو: رَويّة وبَريّة. وقيل: أصلُه ذرويّة. وقيل: هو فعليّة مِنَ الذّرّ، نحو: قمريّة، ويُطلَق لفظُ الذُّرّية في الأصل على: الصّغار مِنَ الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41]، ويستعمل للواحد والجمع، وأصلُه الجمع[1]. والمقصود به في الآية: الأبناء لا غير؛ لقرينة النّص على الآباء في الآية.

المَعْنى الإجْماليّ:

التّنويع في مظاهر التّنعيم، في جنّات النّعيم

بيّنتْ هذه الآيةُ الجزاءَ المُعدَّ في الآخرة لأولي الألباب، الّذين سبقت صفاتهم بحسن عاقبة الدّارِ، الّتي هي الجنّةُ العاليةُ ذاتُ القطوف الدّانية، الّتي يستقرّون فيها بلا انقطاع، ومعهم - زيادةً في تنعيمهم وأُنسهم - الصّالحون مِن أهلهم المُقَرّبين، وهم آباؤهم وأمّهاتُهم وأزواجُهم وأولادُهم، وفوقَ هذا يدخل الملائكةُ عليهم مِن كلّ جهة ومنزلٍ لهم في الجنّة؛ للسّلام والتّحية، والتّهنئة بدخول الجنّة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ عمّا قبله:

كمال الاتّصال بين هذه الجملة وما قبلها، وأثره في المعنى

دلّ الفصل في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، عمّا قبلَه على كمال الاتّصال بينهما؛ لأنّه إمّا أن يكون بدلًا مِن قوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، أو بيانًا له، فعقبى الدّار هي ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾.

سرّ التّعبير بالجمع دون الإفراد:

جمع الجنّات بسبب تعدُّدها، توازيًا أو ترقّيًا

التّعبير بالجمع في ﴿جَنَّٰتُ﴾ دون الإفراد (جنّة)؛ مُشْعِرٌ بأنّهم يتنقّلون في عقبى الدّار بينَ عددٍ مِنَ الجنّات؛ إمّا على سبيل التّرقّي، أو بالتّوازي في نفس الوقت، ويساعدُه قولُه تعالى بَعْدُ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ذرو).

ويحتمل أن يكون الجمعُ بسبب تَعَدّد الدّاخلين فيها مِن أهل الصّلاح من أهلهم؛ سواء بالأصالة أو بالشّفاعة، إذ هم عدد كما يُنبئ عنه قولُه: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾، وقد لا يكونون في مستوى واحد مِنَ الصّلاح يُؤهِّلُهم لأن يكونوا جميعًا في جنّة واحدة، ولكن في جنّات متفاوتةِ الدّرجات، ويكون الأنسُ بينَهم بالتّزاور في الجنّات. وممّا يؤكّد ذلك أنّ الجنّات سبعٌ، وفي كلّ واحدة منها مراتبُ ودرجاتٌ متفاوتةٌ، على حسب تفاوت الأعمال وأصحابِها، فَلِكُلّ طبقةٍ منهم جَنّة مِن تلك الجنّات.

دلالة وصفها بـ ﴿عَدْنٍ﴾:

جنّة عدن للمتّقين، خلودٌ ونعيمٌ واستقرارٌ للمؤمنين

دلّ وصفُ الجنّات بـ ﴿عَدْنٍ﴾ على استقرارهم فيها منعّمين، بحيث لا يعتريهم فيها ما ينغّصُهم ولو كان قليلًا، وأيضًا لمناسبة معنى ﴿عَدْنٍ﴾ للمقام؛ فالعَدْنُ هو الإقامة والاستقرار، يقال: عَدَن بمكان كذا، إذا استقرّ، ومنه المَعْدِن لمُسْتَقرّ الجواهر، أي: جنّات يُقيمون فيها، فهذا الوصف يَدُلّ على الاستقرار المُطْمَئِنّ لأهل الجنّة.

سرّ التعبير بالفعل ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ دون (يسكنونها):

أوّل مطالعة الخير، أقوى لحظات السّعادة

أوثِرَ التّعبير بـ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ دون (يسكنونها)؛ لأنّ أبهجَ حالاتِ الإنسان تكون عند مطالعة ما يُسْعِدُه أوّلَ مَرّة؛ فتلك لحظةٌ لا تُنسَى، فإذا طال العَهْدُ بالسّكنى توطّنتِ النّفسُ على ما ألِفَتْهُ، فتُصبِحُ السّعادةُ والبَهْجَةُ عادةً وطبيعةً، ولا تكون على درجتها في الحالة الأولى، ولأنّ السُّكنى لا تكون إلّا بعد الدّخول، فهي مرحلة تاليَة بعدَ الدّخول.

دلالة التّعبير بالمضارع:

ميزَةُ الجنّة أنّ نعيمَها مُتَجدّد، غيرُ مقطوع ولا ممنوع

في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عبَّر بالمضارع لاستحضار حالةِ البَهْجَة المُتَجدّدة، وهذا في حَدّ ذاته مِن مظاهر التّنعّم.

دلالة الواو في ﴿وَمَن صَلَحَ﴾:

إكرام أهل الجنّة بمعيّة مَن يُحبّونهم ويؤنِسونهم مِنَ الصّالحين

الواو في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ واو المَعيّة، وفي التّعبير بها دلالةٌ على "زيادة الإكرام، بأن جعل أصولَهم وفروعَهم وأزواجَهم المُتأهِّلين لدخول الجنّة لصلاحهم، في نفس الدّرجة الّتي هم فيها؛ فمَن كانت مَرتبتُه دونَ مراتبهم لَحِقَ بهم، ومَن كانت مرتبتُه فوقَ مراتبهم لَحِقوا هم به، فلهُمُ الفضل في الحالَين"(1)، وقد تكون دلالةُ المَعيّة في أصل دخول الجنّة، وإن تفاوتت الدّرجات.

سِرّ التّعبير بـ ﴿وَمَن﴾ دونَ (الّذي):

يلحق بأهل الجنّة كلّ الصّالحين مِن أهلهم

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿وَمَن﴾ دون (الّذي) في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ لإفادته العموم، حيثُ يَلْحَق بهم كلُّ مَن صَلَح مِن أهلهم، ولا يتأتّى ذلك مِنَ التّعبير بـ (الّذي)؛ لأنّه يُلَمَح منه التّخصيصُ.

سِرُّ اختيار فعل ﴿صَلَحَ﴾:

الصّلاح مَطلَبٌ نبيلٌ، ويكون اقترانُه دائمًا بالإيمان

اختيرَ التّعبيرُ بالصّلاح دون غيره؛ لأنّ الصّلاح اسمٌ عامٌّ يُطلَق على ما يُضادّ الفسادَ، وعلى سلوك طريق الهدى، وهو مُختصّ بالأعمال(2)، ولذلك يقترن عادةً في القرآن الكريم ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فكان في التّعبير به دلالةُ ما يتضمَّنُه مِن عموم عملِ الصّالحات، والبُعْدِ عمّا يُضادُّها مِنَ المُفسِدات والمُنكرات. كما أنّ النّص على الصّلاح والتّقيّد به، فيه "قطعٌ للأطماع الفارغة، لِمَن يتمسّك بمُجَرّد حَبلِ الأنساب"(3)؛ لأنّ مجرّد القرابة دون عملٍ صالح يُسوِّغ الدّخولَ في أصل الجنّة، غيرُ كافٍ في الإلحاق، لكنّها تُفيدُ في التّرقّي بشفاعة أقاربهم مِن أهل الجنّة، حيثُ يُراد إكرامُ الشّافعين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/131.
(2) الرّاغب، المفردات: (صلح)، الكفويّ، الكلّيّات، ص: 561.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/18.

سِرُّ التّعبير بالماضي ﴿صَلَحَ﴾:

رسوخ صفةِ الصّلاح، مِن دلائل المَبرّة والفلاح

في التّعبير بالماضي ﴿صَلَحَ﴾، دلالةٌ على تحقّقهم بالعمل الصّالح، وتَمَكُّنِهم منه، ورسوخِ صفة الصّلاح في كلّ ما يصدر عنهم، مِن قول أو فعل.

دلالة عطف الآباء والأزواج والذّرّيّة على أهل الجنّة:

بيان علوّ شأن أهل الجنّة، وكرامتهم على ربّهم

دلّ عطفُ الآباء والأزواج والذُّرّية على أهل الجنّة في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، على عُلوّ شأن أهلِ الجنّة وكرامتِهم على رَبّهم، مِن حيثُ إنّ اللّه تعالى يُلۡحِق بهم الصّالحين مِن أهليهم الّذين كانوا يَحۡتَفون بهم في الدّين، وكانوا يُؤۡنِسونَهُم، وبهم يعتزّون ويَتَقوّون، وإن لم يكونوا - أي: الأتباع - في نفس رُتبتِهم مِنَ الفضل؛ لكنّهم يُلۡحَقون بهم إكرامًا لهم وتفضُّلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: 21].

سرّ التّرتيب في الآية:

مراعاة التّرتيب الوجوديّ، في سياق الآية الكريمة

النّاظر في ترتيب هذه الأصناف: ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، يَجِدُ أنّه قدَّم الأقدمَ وجودًا، ومَن كان السّببُ في غيره، فالآباءُ أوّلًا؛ لأنّهم السّببُ في وجودهم، ثمّ ذَكر أزواجَهم؛ لأنّهم معهم السّببُ في وجود ذُريّاتهم، ثمّ تأتي الذُّرّيّة أخيرًا باعتبارهم مُسَبَّبينَ عنهم.

دلالة التّعبير بالجمع:

الجمع في الأصناف لشُمول كلّ مَن حقّقوا الأوصافَ

الجمعُ في الآباء ليَشۡمَلَ الأمّهاتِ، وفي الأزواج ليَشۡمل الزّوجاتِ المُتعدّدات، دونَ تمييزٍ بينهنّ إلّا مِن حيثُ وجودُ الصّلاح أو عدمُه، ثمّ الجمعُ في الذّرّيّة؛ ليَشۡمَلَ كلَّ مَن صَلَحَ منهم، ذكورًا وإناثًا، وفيه إشارةٌ إلى سعة كرم اللّه تعالى على عباده، بتوسيع دائرة القرابة الصّالحة في الجنّة، وفيها بشارةٌ للمُطيع بكلِّ ما يزيدُه سرورًا

وبهجة؛ فإذا بشّر الله المُكَلف بأنّه إذا دخل الجنّة يحضر معه أهلُه، يعظُم سرورُه، وتَقْوَى بهجتُه، ولبيان أنّ مِن أعظم سرورِهم أن يجتمعوا، فيتذاكروا أحوالَهم في الدّنيا، ثمّ يشكرونَ الله تعالى على الخَلاص منها[1].

سرّ التّعبير عن النّساء بالأزواج:

الرّجل والمرأة زوجان، لا فردان، لما في الزّوجيّة من معنى التّكامل

يعبّر عنِ امرأة الرّجل بالزّوج، كما يُعبّر عنِ الرّجل أيضًا بالزّوج، فالمرأة زوج الرّجل، والرّجل زوج المرأة، مِن حيثُ إنّ كلّ واحد منهما كان فردًا قبلَ أن ينضمّ إليه الآخرُ ويقترنَ به، ثمّ صارَ زوجًا بهذا الاقتران. وهذا هو الأصل كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90]، ولا يقال: زوجة بالتّاء إلّا عند وجود اللّبس، ولم يذكر في القرآن بالتّاء مطلقًا. وفيه إشارةٌ إلى حَثّ النّساء على الزّواج؛ لتنالَ وصْفَ الزّوجيّة، الّذي لا يتأتّى إلّا بالزّواج، ويكون سببًا مع الصّلاح في نعيم الجنّة.

سرّ التّعبير عنِ الأبناء بلفظ ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾:

دلالة الذّرّيّة على الانتشار في البَرية

عبَّر عنِ الأبناء بالذّرّيَّة للدّلالة على انتشارهم وتَفرُّقِهم، كما ينتشرُ الذَّرُّ، فهو مأخوذ منه على قول[2].

دلالة ذكر هذه الأصناف دون التّعبير عنهم بالأهل:

التّفصيل دلالةٌ على الاستقلال في التّفضيل

لفظُ (الأهل) يشمل كلّ مَن يجمعُهُم نَسَبٌ، ومعهم الزَّوجاتُ أيضًا[3]، غيرَ أنّ القرآن الكريم آثَر التّفصيلَ؛ للدّلالة على أهميّة كلِّ فئةٍ، أهميّةً مستقلّةً، بحيثُ لا تَسُدّ فئةٌ منها مَسَدّ فئةٍ أُخْرى، فكلُّهم مطلوبون مَحْبوبون، وكلُّهم مِن وسائل نعيم أهل الجنّة، فلا تطيبُ الجنّة، ولا تحلو ببعضهم دونَ بعضٍ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/143.
(2) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث: (ذرو).
(3) الرّاغب، المفردات: (أهل).

سرّ عدم إعادة الفعل (يدخُلوُن):

ذِكْــرُ الآبــاءِ والأزواجِ والذّرّيّات لا بالقَصْد، ولكن للتّبعيّة لأهل الجنّة

قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ الآية، معطوف على ضمير فاعل ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، والمعطوف مشترك مع المعطوف عليه في الحُكم، وتابعٌ له، ولأنّه كذلك لم يُعِدّ معه الفعلَ (يدخُلوُن)، وهذا من جهة الصّناعة النّحويّة، وأمّا مِن جهة البلاغة والتّركيب؛ فَعَدمُ إعادتِه راجعٌ إلى كون الآباء والأزواجِ والذّرّيّاتِ، ليسوا مقصودين في الخطاب، وذِكْرُهم إنّما ورد للتّبعيّة لأهل الجنّة، من حيثُ كونُ إلحاقِهم بهم مِن مُكَمّلاتِ نعيمِهم، وطيبِ عيشِهم في الجنّة، وللتّفريق بينَ ما كان أصلًا، وما كان تبعًا.

دلالة الواو في: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ﴾:

مـن وسـائل التّنعيم دخولُ الملائكة عليهم، للـتّرحيب والتّكريم

الواو في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم﴾ واو الحال، والجملة دالّة على التّرقّي في تنعيم أهل الجنّة، على معنى: أنّه فوق إلحاقِ أهلِهم بهم؛ لإسعادهم بالأُنس بهم، فإنَّ الملائكة - الّذين هم عباد الرّحمن المقرّبون منه، الطّائعون له أبدًا - زيادةً في إكرامهم ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم﴾، ونظيرُ هذا في الدّنيا: أن يرسلَ الملكُ وفدًا مِن كبار حاشيتِه، وأعظمِ المُقرّبين لديه، لاستقبال بعضِ ضيوفِه، والتّرحيبِ بهم، وتبشيرِهم، فلا غَرْوَ أنّه وسيلةٌ مُعَبِّرة عن عُلوّ مكانتِهم لَديه.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

ثـبـوت دخـول الملائكة عليهم للتّحيّة والإكرام والتّبجيل

التّعبيرُ بالجملة الاسميّة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ﴾ يَدلّ على ثُبوت دخولِ الملائكةِ عليهم؛ للتّرحيب والتّحيّة والإكرام، ومِن كلّ باب، واستدامته بلا تَقَيّد بزمن.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَدۡخُلُونَ﴾:

دلّ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡخُلُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ﴾ على تجدّد هذا الدّخول، والظّاهر: أنّه

مُتَرتّب على تَجَدُّد وفودِ الملائكة المُرَحِّبين بالمسلمين، على معنى: أنّه كلّما انتهى وفدٌ مِنَ الملائكة مِن مُهمّته، يتبعُه وفدٌ آخر. والظّاهرُ: أن يكون لكلّ وفدٍ منهم خصوصيّةٌ في التّرحيب وتقديم الهدايا، وإلّا كان تكرارًا يدعو إلى السّآمَة، وهو خِلاف المقصود بلا شَكّ.

تجدّدُ دخولِ الملائكةِ على أهل الجنّة، واستمراره باطّراد

سرّ التّعبير بالفعل ﴿يَدۡخُلُونَ﴾:

يبدو أنّ السِّرّ في التّعبير بـ ﴿يَدۡخُلُونَ﴾، دون (يزورون)؛ لكونِ هؤلاء الملائكةِ لا يُطيلون المَقام، كما يفعل الزّائرُ، ولكنّهم فقط يدخلون عليهم للتّرحيب والسّلام والبِشارة، وسؤالِهم عمّا إذا كانوا يحتاجون شيئًا، كما يَفْعَل عادةً المَلِكُ بضيوفه مِن أهل الصّفوة، فإنّه يُسَخِّر لهم مَن يَتَفَقَّدُ أحوالَهم، وكذلك للإشارة إلى فضل أهل الجنّة على الملائكة، ولو عبَّر بالفعل (يزورون) لكانتِ الملائكة هي الأفضل؛ لأنّها كانت ستحتاج إلى مَن يقوم على ضيافتهم منهم.

سببُ دخول الملائكة، التّرحيبُ والسّلامُ، لا طولُ المَقام

دلالة التّقديم والتّأخير:

دلّ تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾، على قوله: ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾، على اختصاصهم بهذا، وقَصْره عليهم، فالملائكةُ يدخلون عليهم هم، لا على غيرهم، ممّن لا يتّصفون بصفاتهم.

قَصْرُ دخول الملائكة على الموصوفين بالصّفات المَذكورة

بلاغة الكناية:

التّعبير بقوله: ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ هو كناية عن كَثْرة غَشَيان الملائكة إيّاهم، بحيث لا يخلو بابٌ مِن أبواب مساكنهم لا تدخل منه ملائكةٌ؛ لكونه جالبًا لِمَسَرّتهم، فكان كثيرًا في الأمكنة. ويفهم منه أيضًا كثرتُه في الأزمنة، فهو مُتكَرّر؛ لأنّهم ما دخلوا من كلّ باب، إلّا لأنَّ كلّ بابٍ مشغولٌ بطائفة منهم، فكأنّه قيل: مِن كلّ بابٍ في كلِّ آن[1].

غرض دخول الملائكة على أهل الجنّة، توخّي مسرّتهم وأنسهم

سرّ التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ دون (جميع):

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿كُلِّ﴾ دون (جميع)، في قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/132.

﴿بَابٍ﴾؛ لكونه مُفيدًا للاستغراق والشّمول، أمّا التّعبير بـ (جميع) وإن كان مِن صيغ العُموم كذلك، إلّا أنّه قد يكون أغلبيًّا لا مُستَغرِقًا، ولذلك لمّا أراد اللّه تعالى الاستغراقَ في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: 99]، وقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30]، نصّ على (كلّ) قبلَ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: 99] و﴿أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30].

الدّخول من كلّ الجهات، وعَبْرَ كلّ الأبواب، يُفيدُ الاستغراقَ والشّمولَ

دلالة التّعبير بالإفراد ﴿بَابٍ﴾ دون الجمع (أبوابٍ):

الّذي يظهر في هذا، أنّ المقصود كلُّ باب مُعَدٍّ لهم خصوصًا، وليس كلّ أبوابِ الجنّة، فلو قال: (أبوابها)، لأفهم أنّ المعنى: كلّ أبواب الجنّة، وهو غيرُ مقصود؛ إذِ المقصودُ أبوابُهم هُم في الجنّة. ويؤيّد هذا المعنى، الآثارُ الواردةُ في تحديد باب للصّائمين، لا يدخُل منه غيرُهم، وهو باب الرّيّان[1].

لكلّ فريق من أهل الجنّة أبوابٌ مخصوصة

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيّة:

الأبناء والذّرّيّة:

الأبناء والذّرّيّة مِن باب واحد، حيثُ يُطلقان على نسل الإنسان، مع فرقٍ سيذكر بَعدُ، قال ابن منظور: "الذّرّيّةُ: اسْمٌ يَجْمَعُ نَسْلَ الإنسان مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى، وأصلها الْهَمْزُ، لَكِنَّهُم حَذَفوهُ فَلَم يَسْتَعْمِلوها إلّا غَيْرَ مَهْموزَةٍ، وقيلَ: أصلها مِنَ الذَّرِّ، بِمَعْنَى: التَّفْريق؛ لأنّ اللّه تعالى ذَرَّهُم في الأرض"[2]. ويُفرّق بينهما: بأنّ لفظ الذّرّيّة مِنَ الأضداد، بحيث يَجيء تارَةً بِمَعْنى الْأَبْناء، وتارَةً بِمَعْنى الآباء، وليس كذلك لفظ الأبناء، وممّا جاء فيه لفظ الذّريّة بمعنى الآباء،

كلّ الأبناء مِنَ الذّرّيّة، وليس كلّ الذّرّيّة مِنَ الأبناء

(1) فعن سَهْلٍ بن سعد رضي الله عنه، عَنِ النَّبي ﷺ قالَ: «إنّ فِي الجنّةِ بابًا، يُقالُ لهُ: الرّيّانُ، يدخُلُ مِنهُ الصّائِمُون يوم القيامةِ، لا يدخُلُ مِنهُ أحدٌ غيرُهم، يُقالُ: أين الصّائِمُون، فيقُومُون، لا يدخُلُ مِنهُ أحدٌ غيرُهُم، فإذا دخلُوا أُغلِق، فلم يدخُل منه أحدٌ». أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1797)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1152).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذرر).

قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، وممّا جاء فيه لفظُ الذّرّيّة بمعنى الأبناء، قولُ اللّه تعالى على لسان زكريّا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]؛ كما أنّه أوسع مدًى، وأشمل مِنَ الأبناء؛ لأنّه يشمل أيضًا أولادَ البنات، ويُستَدلّ له بِأنّ اللّه تعالى جعل سيّدنا عيسَى عليه السلام، مِن ذُرّية سيّدنا نوح وسَيِّدنا إبْراهيم عَلَيْهِما الصَّلاة والسَّلام، بِجِهَة الأُمّ[1].

أمّا لفظ الأبناء فهو جمع ابن، وهو كلّ ما وُلِد ذكرًا، ولذلك قالوا: لا يتناول لغةً أبناءَ البنات، كما قالَ الشّاعِر[2]:

بَنونا بَنو أبْنائِنا وبَناتُنا *** بَنوهُنّ أبْناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

وعلى هذا فأولاد البنات مِنَ الذّرّيّة وليسوا مِنَ الأبناء.

ويُطلَق لفظُ الأبناء على كلّ ما ترتّب على غيره بالسّببيّة أو التّبعيّة أو المُلازَمة أو المشابهة، فيقال: ابنُ الصّحراء؛ لمَن يداوم سلوكَها، وابنُ السُّرى؛ لمَن يُكثِر مِنَ السّير ليلًا، وتقول: هو ابنُ فلان، بمعنى: أنّه منسوبٌ إليه، ولهذا يقال: النّاس بنو آدمَ؛ لأنّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل؛ لأنّهم منسوبون إليه، وبناءً على ذلك: فالابن منظورٌ فيه إلى الاختصاص بالنّسب ومداومةِ المصاحبة، والذّرّيّة منظورٌ فيها إلى الخَلْق والكَثْرة والتّفرّق عن أصل واحد، وعلى هذا، فبين اللّفظين عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَق، فكُلّ الأبناء مِنَ الذّرّيّة، وليس كلّ الذّرّيّة مِنَ الأبناء[3].

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 462.

(2) بيت مشهور، ذُكر في ديوان الحماسة، ولم ينسب إلى أحد، ينظر: المرزوقيّ الأصفهانيّ، شرح ديوان الحماسة، ص: 369.

(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 12، والرّاغب، المفردات: (ابن) و(ذرو).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملة مشهد المتّقين في الجنّة، وبيان التّبشير والإكرام مِنَ الملائكة الكرام

لمّا قال سبحانه في الآية السّابقة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، بيّن في هذه الآية سببَ دخولهمُ الجنّة - بعد أن ذكر من قبلُ إلقاءَ التّحيّة عليهم، وتبشيرهم بسلامٍ دائم، يدوم بدوامهم في جنّات عدن - وهو صبرهم على طاعة اللّه، وعن معاصيه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَبَرۡتُمۡۚ﴾: أصل (صبر) يدلُّ على الحبس والإمساك في ضيق، يقال: صَبَرْتُ الدّابّةَ: حبستُها بلا عَلَف، والصَّبْرُ لفظ عامّ، وهو حبسُ النّفسِ على ما يقتضيه العقلُ والشَّرع، وهو الصّبر على الطّاعة، أو حبسها عمّا يقتضيان حبسَها عنه[1]، وهو الصّبر عنِ المعصية. ومنه نوع ثالث: وهو الصّبر على البلايا والمصائب، وتعريفه: هو تركُ الشّكوى مِن ألم البلوى لغير اللّه، لا إلى اللّه[2]. وفي الآية: لفظ الصّبر يجمع المعانيَ الثّلاثة.

2) ﴿فَنِعۡمَ﴾: أصل (نعم) يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيب عَيْشٍ وصَلاحٍ، و(نِعْمَ) كلمةٌ تُسْتَعْمَلُ في المَدْحِ، كما تُستعمل (بِئْسَ) في الذَّمّ، يقال: إنْ فَعَلْتَ ذاكَ فَبِها ونِعْمَتْ، أي: نِعْمَتِ الْخَصْلَةُ هي. وقد وردت في القرآن الكريم في مقام المَدح، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص: 30]، وقولُه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 40][3].

(1) الرّاغب، المفردات: (صبر).
(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 131.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نعم).

المَعنى الإجْماليّ:

سلامُ الملائكة على أهل الجنّة، وتبشيرُهم بحُسْن العاقبة، كِفاءَ صبرهم

بيّنت هذه الآيةُ تحيّةَ طوائفِ الملائكة الّذين يتوافدون على أهل الجنّة، مِن أبوابهم الخاصّةِ بهم، المُعَدّة لهم، وبُشْراهُم لهم هي السّلامُ؛ ليطمئنوهم بأنّهم في عاقبتهم الحسنة في الجنّة سالمون، مِن كلّ آفة أو تنغيص، آمنون مِن كلّ خَوف، ويُعْلِن لهم الملائكةُ أنّ تلك المنزلةَ إنّما استحقّوها بصبرهم على طاعة اللّه، وبصبرهم على ترك المعاصي، وعلى ما ينزل بهم مِن بلاء، فَلْيَنْعَموا في دار القرار، بالجنّة عقبى الدّار.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل هذه الجملة عمّا قبلها:

بلاغة شبه كمال الاتّصال في الجملة

هذه الجملة وقعت تعليلًا لدخول الملائكة على أهل الجنّة، أي: يدخل الملائكةُ عليهم؛ لأجل أن يُحيّوهم بالسّلام، ويُبشّروهم به أبدًا، ما داموا في عقبى الدّار. وعلى هذا ففي الجملة شبهُ كمالِ اتّصال.

دلالة حَذْفِ القول في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾:

حَذْفُ القول للعِلْم به، مِن فصيح البيان

جملة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ مقولُ قولٍ محذوف للعِلْم به؛ لأنّ هذا لا يكون إلّا كلامًا مِنَ الدّاخلين الجنّةَ[1]، وفيه إشارة إلى أنّ دخول الملائكة عليهم، هو في حَدّ ذاته سلامٌ وأمنٌ، وتحيّةٌ حيّةٌ ولو لم ينطقوها، ولهذا لم يجئ: (يقولون سلام عليكم)، بل جاء هكذا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾[2].

سرّ التّعبير عن تحيّة الملائكة، بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾:

تأنيس أهل الجنّة بالسّلام، مِن دواعي التّبجيل والاحترام

سِرّ التّعبير عن تحيّة الملائكة بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، القصد منه تأنيسُ أهل الجنّة، وتبشيرُهم بالسّلام والأمان في دار مقامهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/132.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/106.

دلالة التّنكير في ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾:

التّلطّف بأهل الجنّة، في صيغة الخطاب

دلّ التّنكير بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ دون التّعريف: (السّلام عليكم)، على التّلطّف بهم[1]، وعلى عِظَم هذا السّلام، وفخامَةِ شأنه؛ لأنّه مِنَ اللّه تعالى، وبإلقاءِ خاصّةِ ملائكته، وهذا وفْقَ ما اعتاده العربُ في أنّ السّلام دعاءٌ وطلب، وهم في ألفاظ الدّعاء والطّلب إنّما يأتون بالنّكرة إمّا مرفوعةً على الابتداء، أو منصوبةً على المصدر[2].

دلالة تعدّي السّلام بـ (على) دون اللّام:

قول (سلامٌ عليكم) محمول على الحكاية أو التّضمين

إنّما عُدّي ﴿سَلَٰمٌ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكُم﴾ دون (اللّام)، في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، أي: دون (سلامٌ لكم) لسببين؛ الأوّل: كونه تحيّةً، والتّحيّةُ واردة هكذا، ومَحْكيةٌ كما صدرت مِنَ الملائكة[3]. أمّا قول: (سلام لكم)، فقد يُحْمَل على الدّعاء وليس التّحيّة، فضلًا عن كونه خلافَ ما صدر عنِ الملائكة، إذا حُمِلَ على الحكاية. الثّاني: تَضَمَّن السّلامُ معنى الأمان، أي: أمان عليكم.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

ثبوتُ السّلام لأهل الجنّة واستقراره؛ ليبقى لهم الرّغد الدّائم

دلّ التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ على ثبوت السّلام لهم واستقرارِه، دونَ تقييدٍ بحَدَثٍ ولا زَمَنٍ، فهو ثابتٌ لهم أبدًا.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾:

صبرهم سبب نعيمهم، وأُسّ فلاحِهم في العقبى

الباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ هي باء السَّببيَّة، وقد دَلّت على السّبب الّذي مِن أجله حَظوا بعقبى الدّار، والمعنى: نالكم هذا التّكريم بالسّلام، بسبب صبركم، ويجوز أن تكون الباء بمعنى البدل، أي: بدلَ ما احتملتُم مِن مشاقّ الصّبر ومتاعبه، هذه المَلاذّ والنِّعَم[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/178.

(3) وحكى نحوه ابنُ عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ [يونس: 10]، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

الصّبر مركز كلّ الصّفات، وسبيل الحماية والنّجاة

سرُّ اختيار الصّبر دون بقية الصّفات المذكورة لهم:

أوثِرت صفةُ الصّبر سببًا للمنزلة العظيمة الَّتي حَلّوا فيها؛ لأنّها الصّفةُ المَركزيَّة لكلّ الصّفات، فكلّ الصّفات تحتاجُها، فصفاتُ الطّاعة ومقاماتُها تحتاج الصّبرَ، وإلّا ما استطاع المُطيعُ المواصلةَ والاستمرارَ على مَشَقّة التَّكليف، وكذا البُعْد عنِ المعصية والصّفاتِ الدّالّةِ عليها تحتاج الصّبرَ، وإلّا ما استطاع المُكلّفُ مقاومةَ الإقبالِ على المعاصي والشّهوات والمنكرات؛ لأنّ الصّبر هو المَطيّة الذّلولُ الّتي بلغت بالمؤمنين هذا المبلغَ الكريم.

كمالُ الأجرِ في التّحقّق بالصّبر؛ لأنّهُ مفتاحُ ما يُرْجَى

سرّ العدول إلى المصدر المؤوّل ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾:

عُدِلَ عنِ المصدر الصّريح (صبركم)، إلى المصدر المؤوّل ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾، للدّلالة على تحقّقهم بصفة الصّبر، وأنّهم قد بلغوا منها رتبةَ الكمال، وأنّهم مع كلّ طاعة يفعلونها في زمنها، يتحقّق الصّبرُ معهم؛ فكأنّه يتجدّد في زمن الطّاعات، ولا يتأتّى ذلك مِنَ المصدر الصّريح.

المخصوص بالمَدح معلومٌ، ممّا سوّغ حذفَه اختصارًا

دلالةُ حذفِ المخصوص بالمَدح:

قوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فيه أنّ المخصوص بالمَدح محذوف؛ لدلالة مقام الخطاب عليه. والتّقدير: (فنعم عقبى الدّار دار عُقْباكم)[1].

(عقبى الدّار) وعْدٌ وتحقيقٌ، لِمَن هو به حقيق

سرّ اختلاف فاصلة هذه الآية عن سابقتها:

الاختلاف بينَ الفاصلتين، سببُه التّرتيبُ الوجوديُّ، قبل دخول الجنّة وبعدَه؛ لأنّ قوله في الآية الأولى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، كان مُجرّد وعْد لهم، بأنّه ستكون لهم عقبى الدّار، وذلك قبلَ أن يدخلوها، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فهو وصف للجنّة بعدَ أن دخلوها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/132.

الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

السّلام والتّحية:

كلّ سلامٍ تحيّةٌ، وليس كلّ تحيّة سلامًا

النّسبة بينَ التّحيّة والسّلام، هي نسبة عموم وخصوص مُطلَق، فكلُّ سلامٍ تحيَّة، وليس كلّ تحيّة سلامًا؛ وذلك أنّ التَّحية أعمّ مِنَ السَّلام، حيثُ يدْخل في التَّحية قول: "حيّاكَ اللّه، ولَكَ الْبُشْرَى، ولَقيتَ الْخَيْر"، كما قال الْمُبَرّد. فهذا تحيّة، ولا يُقال له (سلام). قال أبو هلال: "إنَّما السَّلام قَوْلُكَ: سَلامٌ عَلَيْك"[1]. وممّا يؤكّد الفرق بينهما: استخدام القرآنِ للّفظين معًا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ﴾ [النور: 61] فاجتماعُهما في آية واحدة دليلٌ على التّفريق بينهما، وأيضًا على أنّ التّحيّة أعمّ مِنَ السّلام.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرّعد: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ نعيمِ أهلِ الجنّةِ، بِمَن نقضوا عهدَ الله، فكانت عاقبتُهم إلى خسار

لمّا ذكر الله تعالى في الآيات السّابقة صفاتِ السُّعداء، وذكَر ما يترتّب عليها مِنَ الأحوال الشّريفة العالية، أتبعَها في هذه الآية بذِكْر حالِ الأشقياء، وذِكْر ما يَترتّب عليها مِنَ الأحوال المُخزيَة لهم، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الآية، وعلى هذا تكون المناسبةُ بينهما مِن ذكر الوعيد بعد الوعد، والعقابِ بعدَ الثّواب[1].

وممّا يُذْكَر في المناسبة أيضًا: أنّه بعد أن ذَكَر الله تعالى فيما مضى مِنَ الآيات صفاتِ أولي الألباب، الموفين بعهد الله، الّذين استَحَقّوا به دخولَ جنّات عَدْن يُنَعّمون فيها، ذَكَر في هذه الآية صفاتِ مَن لم يُفيدوا من عقولهم التي مَنَحَهم الله إيّاها، ما يُنَجّيهم يومَ القيامة، فاتّصفوا بضِدّ صفاتِ الأوّلين، مِن نقض عَهْد الله وما تَلاه، فكان جزاؤهم اللّعنةُ وسوءُ الدّار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡطَعُونَ﴾: القطع ضِدّ الوصل، وأصل (قطع) يَدُلُّ على صَرْم، وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ. ومعنى القطع: فَصْلُ الشّيء حِسًّا مُدركًا بالبصر كالأجسام، أو معنًى مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة. ومِنَ القطع بمعنى الفصل الحِسّي: قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الشعراء: 49]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/45.

﴿وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]. ومِنَ القطع بمعنى الفصل المعنويّ: قَطْعُ الوصل كالهجران، وقَطْع الرَّحِم، ومَنع البرّ. ومنه هذه الآية التي معنا: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد: 22][1].

2) ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: هي الإبعاد والطّرد على سبيل السّخط، وأصل (لَعَنَ) يَدُلُّ على إبْعادٍ وإطْرادٍ. ولَعَنَ اللهُ الشَّيْطانَ: أَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ والجَنَّةِ. ثمّ إنّ اللّعنة قد تتعلّق بالدّنيا أو بالآخرة، وقد تكون مِنَ اللهِ أو تكون مِنَ النّاس، فإذا كانت مِنَ اللهِ تعالى في الآخرة فهي عقوبة، والمعنى: الطّرد مِن رحمة اللهِ. أو كانت منه في الدّنيا، فهي انقطاعٌ مِن قَبول رحمته وتوفيقه. وإن كانت مِنَ الإنسان، فهي دعاءٌ على غيره. وأصل ذلك: أنَّ العرب كانت إذا تمرّد الرّجلُ أبعدوه منهم وطَرَدوه؛ لِئلّا تَلْحَقَهم جَرائِرُه، فيقال: هو لَعين بني فُلان[2].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

الذين لا يلتزمون ما عَهِدَهُ اللهُ إليهم مِنَ الإيمان به وإطاعةِ أوامرِه، ولا يَحْرِصون على صِلَة الأرحام؛ بل يقطعونها، ولا على المعاملة بالمعروف بينَهم وبين العباد، ويَسْعَون في الأرض بالفساد بدلَ الإصلاح، أولئك على النّقيض مِن فريق النّاجين أهلِ الجنّة، فَحَقَّت عليهم لعنةُ اللهِ بالطّرد مِن رحمته، وحَقّت لهم العاقبةُ السّيّئةُ في النّار، فهي قرارُهم الّذي استحَقّوه بسوء أعمالِهم.

استحقاق اللّعنِ، وسوءِ الدّار، بنقض العهدِ معَ العزيز الجبّار

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾:

الواو هنا هي واو العطف، فقد عطفت جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾،

الوفاء والنّقض، ضِدّان لا يجتمعان

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث، والرّاغب، المفردات: (لعن).

على جملة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، والجامع بينَهما: المضادّة التّامّة، فبينا الفريقُ الأوّل المعطوفُ عليه ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، فإنّ هذا الفريق الثّاني المعطوف ينقضونه ويُبطلونه، والغرضُ مِن ذلك: إظهارُ الفَرْق بينهما؛ ليكون ذلك أدْعَى لأهل الإيمان، للتّمسُّكِ بالأعمال الصّالحة.

سرّ ذكر الواو هنا وحذفها في سورة البقرة:

زيـــادة حـرف مـعـنـى في السّياق، يفتح أفقًا آخرَ للدّلالة

أمّا ذِكْرُ الواوِ في سورة الرّعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾، فقد وردت في سياق المقابلة بين صفات مَن يعلمون الحَقّ - وهم أولو الألباب - وجزائهم، وصفاتِ مَن عَموا عنه وجزائهم؛ فلمّا ذَكَر صفاتِ الصّنف الأوّل وجزاءَهم، وأُريد بيانُ صفاتِ الصّنف الآخر وجزائهم، وكان بينهما جهةٌ جامعة مِن ناحية، وتضادٌّ مِن ناحية أُخرى؛ لذلك ناسب ذِكْرُ الواو.

وأمّا عدمُ ذِكْر الواوِ في آية سورة البقرة، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾، فلِما بين هذه الجملة وما قبلَها مِن كمال الاتّصال؛ لأنّها جاءت بيانًا لصفات الفاسقين في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: 26]، فكانت هذه الآيةُ بيانًا لصِفة الفاسقين، والصّفةُ والموصوفُ كالشّيء الواحد؛ لذلك ناسبَ عدمُ ذِكْر الواوِ.

دلالة التّعبير باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تنفير المُخاطَبين مِـنَ الاقـتـداء بالنّاقضين

عبّر باسم الموصول هنا ذمًّا لهم، وللدّلالة على أنّهم طائفةٌ مستقلّةٌ، لا صِلَة لها بمَن سبق؛ بل هي على التّضادّ معهم في السّلوك وفي الصّفات وفي المعتقد. وفيه أيضًا ما فيه مِن تنفير المُخاطَبين مِنَ الاقتداء بهم.

سرّ التّعبير بالنّقض للعهد دون النّكث:

أوثِرَ التّعبيرُ بالنّقض دون النّكث، في قوله تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ

ٱللَّهِ﴾؛ لتعلُّقه بعهد اللّه، وعهدُ اللّه ميثاقٌ مُؤكّد، يُلْزِم المَرءُ به نفسَه، سواء كان ذلك بينَه وبين اللّه، أو بينَه وبينَ النّاس، كالعُقود المُبرمَة مع بعضهم البعض، ولذا فالتّعبير بالنّقض أولى؛ لأنّه أقوى دلالةً مِنَ النّكث، فهو مأخوذ من قولك: نقضتُ الحبل: إذا حللتُه بعد فتله، ونقضت البناءَ: إذا هدمتُه بعد قيامه، فالنّقض إذًا يعني: الإفسادَ التّامّ للشّيء الذي كان قائمًا متماسكًا. وممّا يُؤكّد ذلك أنّ البُنيَةَ اللّغويّة للنّقض تدلّ على هذه الشّدة، وذلك من خلال صفات القاف والضّاد، بخلاف النّكث، فالكاف والثّاء لا يحملان هذه الشّدّة؛ لبُعْدِ صفاتهما عن ذلك.

التّعبير بالنّقض أقوى، وأدلّ على المراد مِنَ السّياق

دلالة الاستعارة المكنية:

الدّالّ على الاستعارة المَكْنيَّةِ هنا هو كلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾، حيثُ إنّه مِن لوازم المُشَبَّه به المَحذوف، وهو الحبل، للمُشَبَّه، وهو العهد. وكلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾ مجازٌ في إبطال العهد، "وهي استعارةٌ مِن مُبْتَكرات القرآن، بُنِيت على ما شاع في كلام العرب في تشبيه العهد، وكلّ ما فيه وصلٌ بالحبل، وهو تشبيهٌ شائع في كلامهم ... ووجه اختيار استعارة النّقض الذي هو حَلُّ طيّات الحَبل إلى إبطال العهد؛ أنّها تمثيلٌ لإبطال العهد رويدًا رويدًا، وفي أزمنة متكرّرة ومُعالَجة"[1].

النّاقضون للعهد، لا ينظرون إلى الأدلّة أصلًا

سرّ تكرار ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾:

ذِكْرُ قوله: ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ هنا ليس تكرارًا؛ لاختلاف المقامين، حيث ذُكِر أولًا مع الموفين بعهد اللّه، وذُكِر ثانيًا مع النّاقضين عهدَ اللّه، فلا تكرار. وبينَ التّركيبين طباقٌ لفظيٌّ، تُفَسِّره المضادّةُ بينَ جملتي: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، و﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾، وذلك لتبشيع صورة النّاقضين، في مقابلة نصاعة صورةِ الموفين.

بشاعة صورة النّاقضين، مقابَلةً بنصاعة صورة المؤفين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/368.

دلالة القيد: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾:

أبشع صور نقض العهود، إذا كانت موثّقة

ذُكِر في الآية قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، مع أنّ العهد لا يكون إلّا به؛ وذلك زيادةً في تشنيع النّقض، أي: من بعد توثيق العهد وتأكيده[1]، وليُفرّق به بينَ العهود المُؤكَّدة بأنواع المُؤكِّدات، كالقسَم والتّوثيق، وغيرِ المؤكّدة[2]. وممّا يُذْكَر في ذلك: أنّه لا مانعَ أن يكون المُرادُ بالعهد هو ما كلّف اللّه به العبدَ، والمُراد بالميثاق: الأدلّة المُؤَكّدة؛ لأنّه تعالى قد يُؤَكّد إليك العهدَ بدلائل أُخْرى، سواءٌ كانت تلك المُؤكّداتُ دلائلَ عقليَّةً، أو سمعيَّةً[3].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾:

نقض العهود جريمة، وخصوصًا إذا وُثّقت باسم الله

دلّتِ الإضافةُ في قوله: ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾، على زيادة النّعْي على المُخْبَر عنهم سلوكَهم في نقض عَهْدِ اللّه لهم بالإيمان به، وسائرِ ما يتبَعُه مِن أركان الإيمان، وشعائرِ الإسلام؛ لأنّ الوفاء بالعهود أمرٌ لازم، فكيف إذا كانت موثقةً، ثُمّ كيف إذا كانت موثَّقةً باسم اللّه؟

سر ترتيب الصّفات في هذه الآية الكريمة:

مراعاةُ الخصوص والعموم، مُعينٌ على البيان

رتّب القرآنُ الكريم هذه الصّفات ترتيبًا بليغًا، حيثُ بدأها بالفعل ﴿يَنقُضُونَ﴾، وبعدَه ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾، وبعدَه ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾، والنّاظر فيه يجد أنّه جاء على أكمل وجهٍ وأحسنِ ترتيب؛ لأنّه قد بَدَأ أوّلًا بنقض العهد، وهو أخصّ هذه الأفعال، ثُمّ ثنّى بقطع ما أمر اللّه بوصْلِه، وهو أعمّ مِن نقض العَهد وغيرِه، ثُمّ ذَكَر بعدَ ذلك الإفسادَ الذي هو أعمّ منهما، وأيضًا بُدِء بالنَّقض؛ لأنّه يدلُّ على فَكِّ ما وصَلَه المَرْءُ وركّبَه؛ لأنّ النّقض مأخوذٌ مِن نقض الحَبْل، والمراد: حَلُّ ما أُبْرِم، وقَطْعُ الحبلِ، يعني: جعله أجزاء، وبذلك

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/133.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/139.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/46.

يكون حَلّ العَهْدِ والتّخَلي عنه أبلغُ مِنَ القطع؛ لأنّ فيه إفسادًا لِما عَمِلَه الإنسانُ بنفسه(1).

سرّ اختيار التّعبير بالفعل ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾ دون غيره:

الفساد إتلاف كلّ ما خلقه الله صالحا في ذاته

وإنّما اختير التّعبير بالفساد في الأرض دون غيره؛ لأنّ الفساد على نوعين: ماديّ يقوم على إتلاف ما هو صالح في ذاته بإنشاء اللّه له صالحاً "فالفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده"(2) واللّه تعالى قد خلق لنا الحياة ومقوّماتها صالحة في ذاتها، فمن يتدخّل فيها بعد ذلك بتعطيل ما هو صالح في ذاته، إنّما يكون قد أفسده، ومعنويّ يكون بمعنى الدّعاء لغير دين اللّه، وقد يجمع بينهما بالظّلم في النّفوس والأموال وتخريب البلاد.

سرّ التّعبير بالمضارع:

حرصهم على الفساد مُتَجَدّد لا ينقطع

في التّعبير عنِ الإفساد بصيغة المضارع: ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾؛ دلالةٌ على استمرارهم عليه، وتجدُّد نشاطِهم نحوه، والواقعُ يُؤكّد ذلك في سلوك المشركين والمنافقين، حيثُ عبّر القرآنُ عنهم بقوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33].

سرُّ تقييد الفساد بكونه في الأرض:

تبشيع حالهم بالنّصّ على محلّ إفسادهم

في قوله تعالى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، النّص على كون فسادهم في الأرض، مع أنّه لا يُتَصَوّر في غيرها، نحو ما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]؛ زيادةً في تبشيع حالهم لإفسادهم في الأرض، والنّصِ على مَحلّ فسادهم، خصوصًا أنّهم خالفوا حكمةَ اللّه في خلقهم، فاللّه تعالى خلق النّاس ليَعْمُروا الأرضَ، لا ليفسدوها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/208.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7305.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي: طلب منكم إعمارَها، لكنّكم خالفتم هذا فأفسدتم فيها، فحَقّ عليكم العقاب.

وممّا يُذكر في سِرّ ذلك: الإشارةُ إلى سَفَه عقولِ هؤلاء؛ لأنّهم لو كانوا يعقلون، ما أفسدوا المكانَ الّذي يعيشون فيه، فحياتُهم منه، ومنافعهم فيه، وهو جدير بالإصلاح لا بالفساد. وفيه دلالةٌ على أنّ فساد هؤلاء يتعدّاهم إلى غيرهم مِن فئات المجتمع، وهذا خطر عظيم.

سرُّ ذكر بعض المتناقضات للصّفات السّابقة:

التّرتيب تقابليٌّ مع الصّفات المذكورة في السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ظاهرٌ أنّ التّرتيب في الآية جاء على نسق التّرتيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، ولكن بطريق المقابلة، فإنّ كلّ صفة هنا تقابل ما يضادّها هناك، لكنّه لم يقابل صفتي (خشية اللّه وخوفِ يوم الحساب)؛ وذلك لكون المُخْبَر عنهم لا يؤمنون باللّه أصلًا، ولا يؤمنون بيوم القيامة.

وقيل: هو لم يتعرّض لهما صراحةً، ولكن تعرّض لهما ضمنًا لدلالة النّقض والقطع على ذلك. وكذلك لم يتعرّض لنفي الصّبر، ليقابل به صبرَ الموفين بعهد اللّه؛ "لأنّه إنّما اعتبر تحقُّقَه في ضمن الحسنات المعهودة، ليَقَعْنَ معتدًّا بهنّ، فلا وجهَ لنفيه عمّن بينَه وبين الحسنات بُعْدَ المَشرقين، لا سيّما بعد تقييده بكونه ابتغاءَ وجهه تعالى، كما لا وجهَ لنفي الصّلاة والإنفاق بناءً على أنّ المراد منه إعطاءُ الزّكاة ممّن لا يحوم حولَ الإيمان باللّه تعالى، فضلًا عن فروع الشّرائع، وأمّا دَرْءُ السّيّئة بالحسنة، فانتفاؤه عنهم ظاهر، ممّا سبق"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/139.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

دلّتِ الإشارةُ إليهم باسم الإشارة الدّالّ على البُعد، على بُعْد منزلتِهم في الشّرّ، وأنّ ما سلف ذِكْرُه مِن صفاتهم، كان سببًا في ذلك.

بُعْدُ المنزلة، لكن في الشّرّ المُهْلِك، والضّلالِ المُرْدي

بلاغة القصر:

في تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾، في قوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، ولم يقل: (اللّعنة لهم)؛ إفادةُ الحصر والقصر، على معنى قَصْرهم على اللّعنة، فما إلى الفرار منها مِن سبيل.

مَن أصابته اللّعنةُ، طُرِد مِنَ الرّحمة

سرّ التّعبير بقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، ولم يقل: (عليهم اللّعنة):

في التّعبير عنهم بقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، ولم يقل: (عليهم اللّعنة)؛ دلالةٌ على استحقاقهم اللّعنة، فكأنّهم استحقوا اللّعنةَ وتملّكوها، وأنّ "اللّعنة عشقَتْهم عِشْقَ المالِ للمُلوك"[1]. ودلالةٌ أيضًا على التّهكّم بهم، وكأنَّ اللّعنة هي لهم وفي مصلحتهم، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7] بدل (فعليها).

عشق اللّعنة لهم، عِشْقَ المال للملوك

دلالة التّعبير باللّعنة دون الطّرد والإبعاد:

أوثِرَ التّعبيرُ باللّعنة، لأنّه أشمل وأوسع، فهو لا يدلّ فقط على الطّرد والإبعاد، مع كونه أصلَ معناه في اللّغة؛ بل يدلّ أيضًا على إيقاع العقوبة في الآخرة[2]، ولو عبّر بالطّرد والإبعاد، لما أفاد إيقاعَ العقوبة.

التّعبير باللّعنة أشملُ وأوسعُ مِن غيره

بلاغة ختام الآية بقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾:

يُلْحَظ أنّه لم يقل: (ولهم سوء عاقبة الدّار)، وقال: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ "لأنّ العاقبة إذا أُطلقت يُراد بها الجنّة"[3].

ائتلافُ الفاصلة ومناسبتها لمحلّها، مِن فصيح البيان

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7306.

(2) الرّاغب، المفردات: (لعن).

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/236.

دلالة تكرير ﴿لَهُمۡ﴾ مرّتين:

كرّر ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، ولم يقل: (لهم اللّعنة وسوء الدّار)؛ "للتّأكيد والإيذانِ باختلافهما واستقلالِ كلّ منهما في الثّبوت"[1].

هما جزاءان مُستحقّان، ولكلّ منهما خصوصيّتُه وأهوالُه

بلاغة المقابلة:

السّرُّ في التّعبير يكمن في تذييل الآية بقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، ليقابلَ به ختامَ الآيةِ السّابقة: ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، مقابلةُ الجزاءِ للجزاء، والألفاظِ للألفاظ، فقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، هو جزاء هؤلاء النّاكثين عهدَهم مع اللّه، كما كان جزاءُ الموفين بعهد اللّه ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فالسّوء هنا هو النّار، مقابل العاقبة هناك، وهي الجنّة.

مقابلة الجزاء للجزاء، والألفاظ للألفاظ

سرّ اختلاف الفاصلة بين آيتي البقرة والرّعد:

الّذي يبدو أنّ سرّ اختلاف الفاصلتين راجع إلى وجه المقابلة في الموضعين، فلمّا كانت المقابلة في آية الرّعد هي مع قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، قال هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، أمّا في آية سورة البقرة فإنّ المقابلة فيها مع صفات المتقين، التي انتهت بذِكر جزائهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: 5]، فكانتِ المقابلة بعد سرد صفات الفاسقين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27].

من أسرار المقابلة في فاصلتي الآيتين

وممّا يُذْكَر في سِرّ اختلافِ فاصلة الآيتين: أنّ آية سورةِ البقرة تتحدّث عن صفات الفاسقين، الذين خرجوا عنِ الإيمان إلى الكفر؛ بارتكابهم لهذه الصّفات الذّميمة، فحالُهم كحال مَن عنده رأسُ مالٍ مُهيّأ للتّجارة مِن أجل الزّيادة والنّماء؛ فنَقَصَهُ مِن سوء تدبيره، فكانتِ الخسارةُ الفادحةُ له، قال تعالى عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/19.

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]، أمّا آية سورة الرّعد، فكانت في سياق المقابلة بينَ صفات مَن يعلمون الحقّ، وهم أولوا الألباب، وبينَ صفات مَن لم يُبصِروا الحَقّ وعَموا عنِ الهدى، فجعل اللّه جزاءَ الصّنفِ الأوّل في سورة الرّعد ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، وجعل عقوبةَ الصّنف الثّاني الإبعادَ عن هذه الجنّةِ، والطّردَ مِن رحمة اللّه، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ [الرّعد: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا تأسَوا على ما فات، ولا تفرحوا بما هو آت، فكلٌّ بحكمة وقَدَر

لمّا كانت الحياةُ الدّنيا ومتاعُها ممّا يفتِنُ النّاسَ ويُفسدُ عليهم فطرتهم، ويَحْجِبُ عنهم وجهَ الحَقّ، فيَضِلّ كثيرٌ منهم طريقَه إلى اللّه، جاء قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ مُنبّهًا هؤلاء الضّالّين المُتكالبين على الدّنيا، إلى أنّهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وأنّ الأرزاق بيد اللّه سبحانَه، يبسطها لمن يشاء ويقبضها عن من يشاء[1].

ومِنَ المناسبة أيضًا: لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآية السّابقة صفاتِ النّاكثين عهدَهم مع اللّه بالكفر وما يتبعه مِن صفات سيّئة؛ كقطع كلّ ما أمر اللّه بوصله، والإفسادِ في الأرض، ثمّ ذَكَر جزاءَهم بأنّ لهم سوءَ الدّار، وكان الواقع أنّ كثيرًا مِن هؤلاء مُنَعّمون في الدّنيا برَغَد العيش وكَثْرة المال، ممّا قد التّساؤل عن حكمة ذلك: لماذا يرزقهم اللّه، مع ما هم فيه مِن كفر وفساد؟ تأتي هذه الآية لتنفيَ الرَّبط بينَ الجهتين، وتبيّنَ أنّ المسألة لا علاقة لها بالكفر والإيمان، وأنّ البسطَ في الرّزق والتّضييقَ فيه، راجعٌ إلى حكمةٍ عُليا تخفى علينا، ويعلمها اللّه، وتقرِّرُها مشيئتُه، وتنفِّذُها قُدرتُه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡسُطُ﴾: أصل بَسَطَ يدلّ على امْتِدادِ الشَّيْءِ، في عِرَض أَوْ غَيْرِ عِرَض. فالْبِساطُ: ما يُبْسَطُ، والبَساطُ: الأَرْضُ، والبَسْطُ: النَّشْرُ والتّوسيع، فتارةً يتصوّر منه الأمران، وتارةً يتصوّر منه

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/107.

أحدهما، فمِنَ البَسْط بمعنى النَّشر أن يقال: بَسَطَ الثّوب: نشره، ومنه: البِساط. ومِنَ البَسط بمعنى التّوسعة كلمة: البَساطُ للأرض الواسعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: 19]، ومنه أيضًا بَسْطُ الرّزق، أي: توسعتُه، فقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسِّعُه[1].

2) ﴿وَيَقْدِرُ﴾: ضِدّ يَبْسُط، ومعناه: يُضَيّق ويُشَدِّد، يقال: قَدَرْتُ عليه الشّيءَ: ضَيّقتُه، كأنّما جَعَلْتُه بِقَدَر، بِخِلاف ما وُصِفَ بغير حساب. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: 7] أي: ضُيّق عليه، ومنه أيضًا آية الرّعد: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، وآية الأنبياء: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87] أي: نُضَيّق عليه[2].

3) ﴿وَفَرِحُواْ﴾: الْفَرَحُ: خِلافُ الحُزْن، وهو انشراح الصّدر بلَذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللّذّات البَدنيّة الدّنيويّة، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: 23][3]، ويَرِد الفرحُ في القرآن الكريم أكثرَ ما يَرِد في مقام الذَّمّ؛ لما يتبعه مِن أشَرٍ أو بَطَر، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: 76][4]، لكنّه ذُكِر في مقام المَدْح في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58].

4) ﴿مَتَٰعٌ﴾: المتاع: كلّ ما حصل التَّمَتُّع والانْتِفاع بِهِ على وجهٍ ما، وأصل (مَتَع) يَدُلُّ على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ. وعَرّفَه الكَفَويُّ بأنّه: ما يُنْتَفَع بِهِ انتفاعًا قَليلًا غيرَ باقٍ؛ بل يَنْقَضي عَن قريب[5]، كالأشياء الّتي يستعملها الإنسانُ ثمّ تُستَهْلَك عن قريب؛ كالملابس والفُرُش ونحوِ هذا. ومُتْعَةُ الطّلاق والحَجّ والنِّكاح كلُّها مِن ذَلِك؛ لأنّها تنقضي عمّا قريب، ولذلك يذكر القرآنُ متاعَ الدُّنيا مهما كان كثيرًا بوصف القليل، أي: في جانب متاع الآخرة، كقولِه سبحانه: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: 77]، وقولِه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التوبة: 38] أي: هو في جنب الآخرة غيرُ مُعْتَدّ به[6]. وعلى هذا جاء التَّصريحُ في

(1) الرّاغب، المفردات: (بسط).
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فرح).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 508.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 804.
(6) الرّاغب، المفردات: (متع).

آية الرّعد: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي: عَرَض زائلٌ سينتهي، فما قيمتُه بجانب متاع الآخرة الباقي أبدًا؟!.

❁ المَعنى الإجماليّ:

حكمة بَسْطِ الرّزق وقَبْضِه، وبيان أنّ الدّنيا متاع، والآخرة خيرٌ وأبقى

تُقَرِّرُ الآيةُ الكريمة أنّ مسألة بَسْطِ الرّزقِ أو تَضْييقه، إنّما يكون بحسب ما تقتضيه الحكمةُ الإلهيّةُ، فبمقتضاها يوَسّعُ اللّه الرّزق لِمَن يشاء مِن عباده، ويُضيّق على مَن يشاء، فاليقينُ في هذه الحكمة يجب أن يَسْتَقِرّ إجمالًا في قلب المؤمن، أمّا تفصيلًا؛ فالأغلبُ فيه خفاءُ الحِكْمة عنِ العباد، وعليه فربّما يَبْسُط اللّه الرّزقَ للكافر إملاءً واستدراجًا، وربّما يُضَيّقُه على المؤمن زيادةً لأجره ورفعةً لقَدْره ومَكانته. وإذا كان الأمرُ كذلك، فلا يَغْتَرّ أحدٌ بِبَسْط رزقِ الكافر، ولا يَقْنَط بقَدْره على المؤمنُ، وليَثِقْ في حكمة اللّه العليا في ذلك.

وأمّا مَن يَفْرَحون بمتاع الحياة الدُّنيا، وبِبَسْط اللّه لهم في الرّزق، بحيث يأخذون منه دليلًا على عُلوّ مكانتِهم عند اللّه، ورِفْعَةِ شأنهم عنده، وانعدامه للآخرين؛ فليعلموا أنّه متاعٌ قليلٌ، وعَرَضٌ زائل، وليُفيقوا مِن وهْمِهم هذا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

سرّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

شبه كمال الاتّصال بينَ الجملة وسابقتها، وأثره في الدّلالة

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، جملة استئنافيّة، جاءت للجواب عن سؤال الحكمة النّاشىء مِن بَسْط الرّزق للكافرين، المُتّصفين بالصّفات المذكورة في الآية السّابقة، ولِتَبيين حِكْمةِ اللّه تعالى في بَسْط الرّزق وقَبْضه، وإزالةِ الرّواسب الكائنة في بعض العقول المُعَطَّلة، التي تَربِط بينَ الصّلاح وعَدَمِه، بِبَسْط الرّزق وعَدَمِه.

دلالة تقديم المسنَد إليه ﴿ٱللَّهُ﴾:

دلّ تقديمُ المسنَد إليه ﴿ٱللَّهُ﴾، على المُسْنَد ﴿يَبۡسُطُ﴾، على

الاهتمام به وتقويَةِ الحُكْمِ وتأكيده[1]، وعلى حَصْر الرّزق في كونه مِنَ اللّه وحْدَه[2] لا غير، ردًّا على مَن يعتقدونَ أنَّ أرزاقهم بيد الخَلْق، لا بيد اللّه، ورَدًّا على مَن يستعبِدون ذَوي الحاجة، بإيهامهم أنّ أرزاقهم بأيديهم، فلا أحدَ يَبْسُط الرّزق للخَلْق ويَمْنَعُه عنهم - لحكمة يعلمها - إلّا اللّه تعالى.

مَلْمَحُ التّقديم والتّأخير في الجملة، وأثرُه في المعنى

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

دلّ التّعبيرُ بالجملة الاسميّة: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ﴾، على ثُبوت هذا الحكمِ، بأنّ اللّه تعالى هو الّذي: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾.

الحكم في البَسْط والقَبْض، ثابتٌ لله وحْدَه

بلاغة الاستعارة التّبعيّة:

في التّعبير بـ ﴿يَبۡسُطُ﴾ هنا استعارةٌ تصريحيّة تبعيَّة عنِ الكثرة والتّوسِعَة.

مَن بسطَ الله له العطاءَ، عاش في سعة وهناء

سرّ اختيار الفعل ﴿يَبۡسُطُ﴾ دون (يوسّع):

في اختيار الفعل: ﴿يَبۡسُطُ﴾ دون (يوسّع) سرٌّ يكشف عنه معنى البَسْط، إذ هو يعني: السّعة والانتشار، فهو إذًا يتضمّن السّعةَ، وأوسع منها في الدّلالة.

في التّعبير بالبَسْط دلالةٌ على التّوسعة والانتشار

سرّ اختيار التّعبير بلفظ ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ دون غيره:

في ترجيح اختيار التّعبير بالرّزق على غيره؛ لِما فيه مِن معنًى شموليٍّ لمطلق العطاء الجاري في الدّنيا والآخرة[3]، في السّماء كالمَطر، أوالأرض كالنّبات وسائرِ ما يتعيّش به الإنسانُ، وأيضًا لشموله لمُطلق العطاءِ الحِسّيّ، كإعطاء المالِ والوَلَدِ، والمعنويّ كالعلم.

التّعبير بالرّزق شامل لكلّ العطايا، مِن رَبّ البرايا

دلالة التّعبير باسم الموصول (مَنْ):

دلّ التّعبيرُ باسم الموصول (مَنْ)، في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ على العموم، وعدم التّعيين، مقيّدًا بالمشيئة.

دلالة الموصول على العموم، وعدمِ التّعيين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/140. ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/528.
(3) الرّاغب، المفردات: (رزق).

دلالة التّعبير بالمشيئة دون الإرادة:

المشيئة أخصّ، والإرادة أعمّ

أوثِرَ التّعبيرُ بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ دون الإرادة؛ لأنّ المَشيئة مختصّة بالآنيِّ الحاضرِ دونَ غيره، والإرادةَ تتضمَّن ما تتضمنُه المشيئةُ وأوسعُ، فهي أعمُّ، والمَشيئةُ أخصُّ؛ مِن حيثُ إن الإرادة تشمل ما يتعلّق بالآن وغيره، أو بحسب تعبير العَسْكَريّ: "الإرادة تكون لما يتراخَى وقتُه ولما لا يتراخى، والمَشيئةُ لما لم يتراخَ"[1]، وعلى هذا، فمناسبة ترجيح اختيار المشيئة على الإرادة واضحة، وهي حَثّ الإنسان على المعاملة المناسبة مع مقدور اللّه الحالي، وعدمِ الرّكون إليه؛ لأنّه قد يَتغيّر، فالّذي بُسِطَ له في الرّزق عليه أن يسعى إلى المحافظة عليه بدوام الشُّكر، وأداءِ حقوق اللّه وحقوق العباد فيه، حَذَرًا مِن أن يتحوّل البَسْطُ إلى قَبْضٍ، والعطاءُ إلى مَنْع. والّذي قُدِرَ عليه رِزْقُه، يقابلُه بصبر ورِضًا، ودعاءٍ إلى اللّه تعالى، ورجاءٍ فيه، بأن يتحوّل هذا الضّيقُ إلى سعة، والمنعُ إلى عطاء ورخاء.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ دونَ (يُضَيّق):

التّعبير بـ (يقدر) دالّ على الضّيق الشّديد، وهو أنسب للمقابلة

اختير التّعبير بـ ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ دونَ (يضيّق)؛ لأنّ المقصودَ الضّيقُ الشّديدُ المَدلولُ عليه بـ ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ ليكون لافتًا للنّظر، وأوفقَ للمقابلة ببسط الرّزق، وليس المرادُ مطلقَ ما يُسَمّى ضيقًا، وإن لم يكن شديدًا، فهذا لا يلفت النّظرَ؛ لكونه ممّا يُطاق، ولِضَعْف مقابلتِه ببسط الرّزق، ولِكَثْرة المُتّصفين به مِنَ النّاس، فأكثرُ النّاسِ مِنَ الطّبقة المتوسّطة غيرِ الباذخة، وغيرِ شديدة الفقر.

دلالة حذف متعلّق ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

حذْفُ المَتعلّق اختصارًا للعِلْم به، مِن فصيح البيان

في قوله: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ حُذِفَ المُتعلّق اختصارًا للعِلْم به، لأنّ المعنى: أنّه يَبْسُط الرّزقَ لِمَن يشاء، ويَقْدِرُه ويُضَيّقُه على مَن يشاء،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.

وهذا مِن لازم المعنى، "لأنّه إذا وسّعه إذا شاء، لِزَمَ منه تضييقُه إذا لم يشأ"[1].

دلالة التّعبير بضمير الغَيبة في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

التّنَدُّرُ بالكافرين واستهجانُهم؛ لانعدام فهمِهم

أوثِرَ التّعبيرُ بضمير الغَيبة في قوله: ﴿وَفَرِحُواْ﴾، وهو في حَقّ الكافرين؛ استهجانًا لهم، وصَرفًا عن أن يوجّه لهم الخطابُ؛ لكونهم غيرَ مؤهّلين له. وفيه كذلك "إشارةٌ إلى أنّهم أقلّ مِن أن يفهموا هذه الدّقائقَ، لعنجَهية نفوسِهم، فَهُم فرحوا بما لهم في الحياة الدّنيا، وغَفِلوا عنِ الآخِرة"[2].

دلالة الواو، في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

يقابلون النّعمةَ بكُفْرِها، وذلك مِن أقبح الكفر

الواو في قوله: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ للاستئناف، والقَصْد بهذا الاستئناف: الإخبارُ عن سوء حالِهم بعدَ أن بَسَط اللّه لهم في الرّزق، حيثُ فَرِحوا به، وأشِروا، وبَطِروا، بَدلَ أن يشكروا ربّهم، ويُخْلِصوا له[3].

سرّ التّعبير بضمير الغائب، في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

عدمُ أهليَّتِهم للخطاب، ولا لمعرفة الصّواب

في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ عبّر عنهم بضمير الغائب؛ تحقيرًا لهم، لكونهم ليسوا أهلًا للخِطاب، وكونهم مِنَ الغباء بمكان، بحيث لا يفهمون حكمةَ اللّه في بَسْط الرّزق وقَبْضه، كما أنّهم لا يأخذون منه عبرةً تهديهم إلى اللّه وتَرُدُّهم إليه، لا ما تلبَّسوا به مِن كُفْرٍ وعنادٍ ومُكابَرةٍ.

بلاغة المجاز المُرسل:

الاحتراس وسِرّ تعلّق فرحِهم بالحياة الدّنيا

في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، كونُ الفرحِ متّجهًا إلى

---

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/236.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

(3) قال السّمين في الدّر المصون: 7/46: "وقيل: بل هو عطفٌ على صلةِ (الذين) قبلَه، وفيه نظرٌ: مِن حيث الفصلُ بين أبعاضِ الصّلةِ بالخبر، وأيضًا فإنَّ هذا ماضٍ وما قبلَه مستقبلٌ، ولا بدّ مِنَ التَّوافق في الزّمان، إلّا أن يُقال: المقصودُ استمرارُهم بذلك، وإنَّ الماضي متى وقع صِلةً، صَلَحَ للمُضي والاستقبال".

الحياة الدّنيا مجازٌ مرسلٌ عن بَسْط الرّزق؛ لأنّ الفَرح ببسط الرّزق في الحياة الدّنيا، وليس بها، أي: أنّ (الحياة الدّنيا) مجازٌ مرسل، علاقتُه المَحَلّيّة، على اعتبار أنّ بَسْطَ الرّزق كائنٌ فيها، ودَلّ تعلّقُ فرحِهم بالحياة الدّنيا على الاحتراس، ودَفْعِ توهّمِ أنّ فرحَهم كان لغرض دينيّ أو أُخرويّ.

دلالة أسلوب القصر، في الاستثناء المُفَرّغ:

نعيم الحياة الدّنيا ليس إلّا متاعًا زائلًا، وسرابًا خُلّبًا

أسلوبُ القَصْر في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾، دالٌّ على قَصْر نعيم الحياة الدّنيا، على كونه متاعًا، أي: قليلًا زائلًا. والهدفُ: قياس قيمةِ الحياة الدّنيا ونعيمها، وسُرعةِ زوالِها وزواله، بنعيم الدّارِ الآخِرَة الدّائم أبدًا، ليَنْتُجَ أنّ الحياة الدّنيا بما فيها "كعُجالةِ الرّاكب، وزادِ الرّاعي، يُزَوِّدُه أهلُه الكَفَّ مِنَ التّمر، أو الشّيءَ مِنَ الدّقيق، أو نحوِ ذلك"[1]، وهذا المعنى قد جسّده النّبيُّ ﷺ، بقوله: «ما لي ولِلدُّنيا، ما أنا في الدُّنْيا إلّا كَراكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ راحَ وتَرَكَها»[2].

سرُّ التّعبير بـ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ومقايستها بالدّنيا:

دلالة (في) على الظّرفيّة المجازيّة، ودلالتها في السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾، دلّت ﴿فِي﴾ على الظّرفية المَجازيّة؛ لأنّها أفادت معنى المقايسة، وعندما يُقاس شيءٌ بشيء، إنّما يوضَع بجواره. والمعنى: ما الحياة الدّنيا جنبَ الآخرة إذا قيست بها إلّا متاعٌ قليل، أو إذا نسبت أحوال الحياة الدّنيا بأحوال الآخرة، ظهر أنّ أحوالَ الدّنيا متاعٌ قليل[3].

سرُّ التّعبير بالإظهار دون الإضمار:

تحقير الحياة الدّنيا، وتهوينُ أمرِها ومصيرِها

السِّرّ في وضع المُظْهَر موضعَ المُضْمَر في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/140.

(2) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (2377)، وقال: حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ، وابن ماجه في سننه، برقم: (4109).

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/236، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾، ولم يقل: (وما هي في الآخرة إلّا متاع)؛ هو التّحقيرُ والإهانة، بإظهار اسم الحياة الدّنيا، في موضعٍ كان الأنسبُ فيه هو الإضمار؛ لقُرْبِ ذِكْرِ اسمها، تمامًا كما في قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [النّور: 21].

سر اختيار التّعبير بقوله: ﴿مَتَٰعٞ﴾:

لفظ المتاع أدلّ على معنى القِلّة مِن غيره

أوثِرَ التّعبيرُ بالمتاع دونَ غيره لدلالته على معنى القلّة، وعلى الزّوال السّريع عَقِبَ التّنعُّم به، فالمتاعُ: اسم لما يقع بِهِ الانتفاعُ في العاجل. وأصله: التّمتُّع، وهو التّلذُّذ بالأمر الحاضر(1)، بخِلاف لفظِ النّعيم مثلًا، فهو دالّ فقط على حالة التّنعُّم دونما زيادةٍ على ذلك، يعني: قد يَطول وقد يَقْصُر، والأغلب أنّه دالّ على ما يكون طويلًا، ومِن ثَمّ أُطْلِق على ما يكون في الآخرة (نعيم)، وعلى ما يكون في الدّنيا (متاع).

سرّ تنكير ﴿مَتَٰعٞ﴾:

ورود التّنكير، بغرض التّقليل والتّحقير

دلّ تنكيرُ قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ على التّقليل مِن متاع الحياة الدّنيا وتحقيره، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ [آل عمران: 196 - 197](2).

المتشابهُ اللّفظيّ:

اختلاف المباني، وأثره في اختلاف المعاني

تشابه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الإسراء: 30]، وقوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص: 82]، ومع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 62]، ومع قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ: 36]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: 39]، ومع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرّوم: 37]، ومع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الزمر: 52]، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الشّورى: 12].

والنّاظر في هذه الآيات الكريمات يجد اتفاقًا واختلافًا بينها، ومن مواضع الاتفاق اختصاص هذه السّورة بلفظ الجلالة ومعها سورة القصص والعنكبوت والرّوم والزّمر، وذلك من باب التّوافق والتّناسق في سياق هذه السّور، حيث تَكَرّر لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ لتقدّم ذكره في هذه السّور، أما السّور التي ورد فيها لفظ الرَّب فجاء مناسبًا لتقدّم تَكَرّر ذِكر لفظِ الرَّبّ فيها.

وممّا ورد في أمر الزّيادة، قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ و﴿لَهُۥ﴾ فجاءت في سورة العنكبوت موافقة لمقام بسط الكلام على الرّزق المذكور فيها صريحًا، وزاد في سورة القصص: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [القصص: 82] موافقة لذلك، وإن كان لفظ الرّزق فيها ضمنًا، وزاد ﴿لَهُۥ﴾ [سبأ: 39] في الموضع الثّاني من سورة سبأ؛ لأنّه نزل في المؤمنين، وما قبلَه في الكافرين.

وخلاصَةُ القولِ في أسرار التّشابه في هذا الموضع، تظهر في هذه الفروق:

الفرق الأوّل: اسم الجلالة: فقد ورد هكذا باسم ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّوَر التي تكرّر فيها من بدايتها اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مثل سور: [الرّعد: 26، القصص: 82، الرّوم: 37، الزّمر: 52]، وورد باسم الرّب في السّور التّي تكرّر فيها من بدايتها اسم (الرّب)، مثل سور [الإسراء: 30، سبأ: 36، 39][1].

الفرق الثّاني: قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ ورد التّركيب نفسه بصيَغ أخرى مثل: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ [القصص: 82]، ومثل: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 62].

وذلك لأنّ أحوال النّاس في الرّزق ثلاثة:

الأوّل: مَن يُبسَط رزقُه تارةً ويضيّق عليه أخرى، وهو يُفهَم مِن آية العنكبوت بقوله ﷻ:

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/287.

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 62] بزيادة ﴿لَهُۥٓۚ﴾؛ لتقدّم قوله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: 60]، ثمّ فصَّل حالَهم في بسطه تارةً، وقبضه تارةً.

والثّاني: أن يوسَّع على قوم مطلقًا، ويُضيَّق على قوم مطلقًا، ويُفهَم من آية القصص: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص: 82]، وذلك أنّه قد تقدّمها قِصةُ قارون؛ فناسبَه التّعبير بأنّه يبسط الرّزق لِمَن يشاء مطلقًا لا لكرامته، حتّى ولو كان قارون، ويقبضُه لِمَن يشاء لا لهوانه، كالفقراء من الأنبياء صلوات اللّه وسلامُه عليهم.

والثّالث: الإطلاق من غير تعيينِ بَسْطٍ ولا قَبْض، فأُطْلِق مِن غير ذِكْر (عباد)، وهذا القسم تناسبُه بقيّة الآياتِ، بما فيها مِن إطلاق من غير تعيين، وبما يشمل الآدميّين وغيرِهم[1].

الفروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الفرح والحبور والسّرور:

أكثر ذِكْر الفرح في القرآن في مقام الذّمّ، بخلاف غيره

يتقاربُ دلاليًّا كلٌّ مِنَ السُّرور والحُبور والفَرَح، فكُلّ لفظٍ منها دالٌّ على لَذَّةٍ تحصُل في الْقلب عِنْد حُصول نفعٍ، أو توقّعه، أوِ اندفاع ضَرَر، ويُفَرّق بين ثلاثتها: بأنّ السُّرور هو الخالِص المُنْكتِم، والحُبور: هو ما يُرَى حِبْرُه - أي: أثره - في ظاهر الْبَشَرَة، وهما مستعملان في الْمَحْمود، ويكونانِ عَنِ الْقوّة الفكريَّة. وأمّا الْفَرحُ فإنّه يكون عَنِ الْقوَّة الشّهوانيّة. ويُعَرّف بأنّه: انشراحُ الصّدر بلَذّة عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللّذّات البَدنيّة الدّنيويّة، ولذلك فإنّه كثيرًا ما يورِث أشرًا أو بَطَرًا؛ ولذَلِك كثيرًا ما يُذَمّ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 540.

﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76][1]، لكنّه ذُكِر في مقام المَدح في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58].

والنّاظر في آيات القرآن الكريم يجد استعمالَه لهذه الألفاظِ؛ فكلمةُ الحُبور جاءت في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الروم: 15]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف: 70]، والمعنى: تُكْرَمون إكرامًا يُبالَغ فيه؛ فالحُبور إذًا يجمع المَسارَّ كلَّها، مِن حُسْن وجَمالٍ وسُرورٍ ولَذّةٍ ونِعْمَة، مع ظهور آثارِ ذلك في الوجوه، وعلى هذا: فالقرآن الكريم جمع للمؤمنين في الجنّة كلَّ أنواع النّعيم.

وأمّا السّرور فاستُعْمِل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾ [الانشقاق: 7 - 9]، فلفظُ السُّرور جاء في سياق وصف حالِ المؤمنين يومَ القيامة، في مقابل حالِ الفُجّار، وعلى هذا: فالسُّرور يَخْتَصّ بالقلوب، فهو فَرَحٌ خالصٌ خَفي، يظهَرُ أثرُه بِشْرًا وحُبورًا.

وأمّا الفرحُ: فاستُعْمِل في مواضع عديدة مِنَ القرآن، كلُّها في مواضع الذَّمّ لارتباطه باللّذّة العاجلة، ولِمُصاحبتِه للبَطَر في الغالب؛ إلّا في مواضع عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: 170] الآية، وقولُه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: 58]، وقولُه: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 4 - 5]، ففي هذه المواضع الفَرَحُ فيها محمود؛ لأنّه مِن رحمة الله وفَضْله، ونَصْره للمؤمنين[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (فرح)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 508.
(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 133.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ
ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرّعد: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين طعن الكافرين في الدّين، وطلبِهم آيةً تُثبت صِدقَ آخِرِ المُرسلين

لمّا ذكر اللّه تعالى طعنَ المشركين في نُبوّة النَّبيِّ ﷺ، لقوله بالحَشْر والمَعاد، وإنذارِهم بحلول العذاب، وهذا واضح في سياق السّورة في الآيات السّابقة، ذَكَر هنا أنّهم طعنوا في نُبوّتِه ﷺ؛ لأنّه لم يأتِ لهم بمعجزةٍ بيّنة، كما فعل الرّسل مِن قبلُ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ الآية.

وممّا يُذْكَر في المناسبة أيضًا: أنّه سبحانَه بعد أن بيّن أمرَ الّذين فَرِحوا بالحياة الدّنيا، وما بَسَط اللّه لهم فيها مِن رزق، أظهرَ هنا أنّهم - وهم الّذين كفروا - بدلَ أن يَشْكروا اللّه على ما وهبَهم مِن نعمة بَسْطِ الرّزق، فيقودَهم هذا إلى الإيمان، تمادَوا في غَيِّهم، وبَدّلوا نعمةَ اللّه كُفْرًا، فلم يكتفوا بفرحهم واغترارهم ببَسْط الرّزق؛ بل تَعنَّتوا معَ النّبيّ ﷺ، وتجاهلوا معجزتَه الكُبرى القرآنَ، الّذي لم يستطيعوا معارضتَه بمثل أقصرِ سورةٍ منه، وطلبوا مُعجزةً مادّيَّة، كعصا موسى عليه السلام، وإحياءِ الموتى لعيسى عليه السلام، وناقةِ صالح عليه السلام، فَسَجَّل اللّه عليهم هذا الموقفَ، وذمَّهم بما هم أهْلُه، وبيّن لهم أنّه ليس مِن سببٍ لكُفْرِهم إلّا ضلالُهم وتيههُم عنِ الآيات البيّنات، الّذي نتجَ عنه إضلالُهم مِنَ اللّه، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنَابَ﴾: الإنابةُ: الرّجوع عن مُنكرٍ بالتّوبة وإخلاصِ العمل،

وأصل (نوب) يَدُلُّ على اعتياد مكانٍ، ورجوعٍ إليه. وسُمّي النّحلُ نَوْبًا؛ لرجوعها إلى مقارّها[1]. ومعنى ﴿أَنَابَ﴾: تابَ ورَجَع.

المَعْنى الإجْماليّ:

لا آيةَ أبلغُ مِنَ القرآن في ميدان التّحدّي والنِّزال

تكشف الآيةُ عن أنّ الذين فرحوا فَرَحَ أشَرٍ وبَطَرٍ، بما بَسَطه اللّه لهم مِنَ الرّزق؛ هم الّذين كفروا، وتُبَيّن - كذلك - أنّهم لم يُفيدوا مِنَ الأدلّة النّاصعة مِنَ العقل والنّقل على صِحّة النّبوّة، وصِدقِ الرّسول ﷺ، وأنّهم كَذّبوا حين زعموا أنّ عدمَ إيمانِهم، هو لعدم كفاية القرآن كمعجزة، فطلبوا أن يأتيَهم الرّسولُ ﷺ بمعجزة ماديّة، كتلك الّتي كانت لسائر الأنبياءِ مِن قبلُ، فأجابهم القرآنُ عن طَلَبِهم هذا: بأنَّ عدمَ إيمانِهم ليس بسبب قصورٍ في المعجزة القرآنيّة، ولا غيرِها مِن معجزاته ﷺ، ولكن لأنّهم ضَلّوا وسَلَكوا طريقَ الغَيّ، فشاءَ اللّه إضلالَهم؛ فاللّه سبحانَه لا يهدي إليه إلّا مَن أقبل عليه، وتاب وأناب عن كلّ أسبابِ الكُفر والشّرك والبُعد عنِ اللّه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالةُ عطف الآية على ما قبلَها:

يطلبون معجزةً حسيَّةً، والقرآنُ كافٍ عن كلّ معجزة ماديّة

العطف هنا في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ على ما سبقَهُ، "عطفُ غَرضٍ على غَرضٍ، وقِصّة على قِصّة"[2]، أي: بعد أن فَرَغ من قِصّة فَرَحِهم بالحياة الدُّنيا للدّلالة على تعلّقهم بها، دخل في قصّة أُخرى، هي طلبُهم معجزةً حسيّة بدلَ القرآن، للدّلالة على بَلادتهم.

السّرُّ في وضع المُظْهَر موضعَ المُضمَر:

ذَمُّهُم والتّسجيلُ عليهم، توبيخٌ وتقريعٌ لهم

السِّرّ في وضع المُظهر موضعِ المُضْمَر، حيثُ لم يَقُل: (ويقولون)،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وأبو حيّان، تحفة الأريب: (نوب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

وإنّما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتّسجيل عليهم، وذَمِّهم[1] بالصّفة التي بسببها بَطِروا وأشِروا، وبَدّلوا نعمة اللّه كُفرًا، وهي صفةُ الكُفْر.

دلالة تكريرِ الآيةِ مع سَبْق نظيرتها:

التّكرارُ سببُهُ تَعَدُّدُ الأغراض

يبدو أنّ الموضوع مُتعدِّدُ الأغراضِ؛ بحيث اقتضى الحالُ أن يُعاد الكلامُ عنه لتحقيق غرضٍ آخر، بعد أن ذُكِرَ سابقًا لتحقيق غرضٍ سابق، ويظهر الغرضُ في كلتا الآيتين في اختلاف فاصلتيهما، وحاصلُ الاختلاف بينهما: جاء تحقيقًا لغرض الكلام في كلتيهما، فالخطاب في الآية الأولى كان موجّهًا للنّبيّ ﷺ؛ إشفاقًا عليه، وتقويةً لقلبه، وتثبيتًا له. وفي الآية الثّانية - وهي الّتي معنا - كان الكلامُ موجّهًا إلى الكافرين؛ ردًّا عليهم، وكشفًا لسوء نواياهم، وتعجيبًا مِن حالهم. فكان الكلامُ المعادُ أشبهَ بـ "إعادة الخطيب كلمةً مِن خُطبته؛ ليأتيَ بما بقي عليه في ذلك الغرض، بعد أن يفصلَ بما اقتضى المقامُ الفصلَ به، ثمّ يتفرّغ إلى ما تَرَكَه مِن قبل"[2].

دلالة التّعبير بالمضارع:

تكرُّر نفسِ الدّعوى في القرآن، وتعدُّدُ أغراضِها

دلّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾، على تكرُّر هذا القولِ منهم مَرّات ومَرّات، ولذلك أعاده القرآنُ في الإخبار عنه مرّات ومرّات، وكان له في كلّ مَرّة غرضٌ، وفي كلّ مَحلّ رَدّ.

سرّ التّعبير باسم الموصول:

استهجانُهم والتّقليل مِن شأنهم

دلّ التّعبيرُ عنهم باسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، على استهجانهم والتّقليلِ مِن شأنهم، لما تضمَّنَتْه الصّلةُ مِن وصفهم بالكُفر وعدمِ الإيمان، والتّغابي في الطّلب.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/19، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

إشــــارة التّحضيض إلى التّحدّي في مَكْرٍ ودهاءٍ

دلالة استخدام ﴿لَوۡلَآ﴾:

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿لَوۡلَآ﴾ التّحضيضيّة على أمور:

الأوّل: تعجيزُه ﷺ وإحراجُه بهذا الطّلب.

الثّاني: إيهامُ الرّسولِ ﷺ بأنّهم صادقون في إرادتهمُ الإيمانَ به، لو أنّه أجابَهم إلى ما طلبوا.

الثّالث: ويدلُّ أخيرًا على أنّهم قومٌ أصحاب مكرٍ ودهاءٍ؛ حيثُ بَدَوا بهذا التّحضيضِ وكأنّهم يستحثّونه ﷺ على تلبية طلبِهم، وأنّهم حريصون على ذلك، مترقّبون له، وهذا ما كشفه القرآنُ في التّعجيب منهم، والرَّدّ عليهم، كما مضى.

أربــاب البيان يُسْلِمون القياد للقرآن، إذ ما فوقَه معجزةٌ

دلالةُ اقتراحِ الكفّارِ آيةً أُخرى، بعد نزول القرآن:

دلّ اقتراحُ الكُفّار آيةً أُخرى بعد نزول القرآن، على هروبهم مِن مواجهته؛ لأنّ هذه المواجهةَ قد استعصت عليهم؛ بل أهانتهم وبالغَتْ في إحراجهم، خصوصًا أنّ القرآن قد مَدَّ لهم الحبلَ طويلًا جدًّا، عندما اكتفى في طلبه منهم بأن يأتوا بسورة مِن مثله، وبعد أنِ استفزّهم إلى قبول هذا التّحدّي، وقبولِ النِّزالِ، بإعلانه أنّهم لن يستطيعوا ولِو استعانوا بمَن شاؤوا مِنَ الشّركاء والشّفعاء، ولو كانوا أهلَ الأرضِ جميعًا، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 23 - 24]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88].

أمّا المُعجزةُ الحِسّيّةُ، فمِنَ السّهل عليهم ادّعاءُ أنّها مِن قبيل السّحرِ، كما فعل فرعون مع موسى عليه السلام، أوِ الانقضاض عليها

وإهلاكِها إن كانت قابلةً لهذا، كما فعل قومُ صالح عليه السلام بالنّاقة، أو بإرجاع أمرِ المعجزة - ادّعاءً - إلى أيّ سبب آخَر، إلّا أن تكون معجزةً إلهيَّة، وهو ما توقّفت كلّ قرائِحهم عن تدبير مثلِه مع القرآن الكريم.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ عن (المعجزة):

لا يوجد في القرآن لفظ (معجزة)، بل لفظ (آية)

التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ هو أحدُ التّعبيرات القرآنيّة عنِ المُعجزة، حيثُ إنّ القرآن لم يستخدم لفظَ المعجزة، كما أنّ السّنة النّبويّة لم يُستَخدم فيها لفظُ المعجزة بمعناه المعروف، فهو اصطلاح حادثٌ نشأ في ضوء عِلْم الكلام. وللآية في اللّغة وفي استعمال القرآن معانٍ، منها: العَلامَة والدّليل والعِبرة، وهذا كلّه ملحوظ في لفظ الآية حالَ دلالتِها على المعجزة الّتي يُؤيّدُ اللّه تعالى بها رُسُلَه، وتكون حُجّتَهم أمامَ المَدعوّين.

دلالة التّعبير بالإفراد في لفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ دون الجمع:

طلب الآية تعجيزٌ للرّسول، وتحايلٌ على الإيمان برسالته

لإيثار إفراد لفظ الآية أكثر من دلالة؛ منها: أنّه قد يُقْصَد الجِنسُ وليس المفرد. ومنها: إشعارُهمُ الرّسولَ صلى الله عليه وسلم - ادّعاءً وكذبًا - بأنّهم صادقون في الإيمان به لو أنزلت عليه آيةٌ واحدة، حِسّيَّةٌ شبيهةٌ بآيات الأنبياء السّابقين، فآيةٌ واحدةٌ تكفيهم. ومنها: التّعريض بهم؛ لأنّهم طلبوا آيةً واحدة، في الوقت الّذي عَموا فيه عنِ الآيات الكثيرة، والمعجزات الوفيرة، التّي تَأيّدَ بها النّبيُّ صلى الله عليه وسلم، ويكفيه القرآنُ، معجزةُ المعجزاتِ.

سرّ التّعبير بالرّبوبيّة دونَ الألوهيّة:

قولٌ مَحكي، أو مُشار به إلى وجه النّعمة في المعجزة

أوثِرَ التّعبيرُ بالرّبوبيّة دون الأُلوهيّة، فقيل: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: (آية مِنَ اللّه)؛ ربّما لأنّه حكايةٌ لقولهم، وقد نقله القرآنُ كما قالوه، وعليه يكون اختيارُهم له مِن قبيل الاستعطاف؛ لأنّ تأييدَ الرُّسل بالمعجزات مردودٌ إلى الرّبوبيّة، مِن جهة كونِها نعمةً على

الرّسل؛ لكونها مُؤيّدةً لهم، نافيَةً لإحراجهم أمامَ المُخاطَبين، ثمّ إنّها نعمةٌ على المُرْسَل إليهم، مِن جهة أنّها تُعينُهم على الإيمان.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

تعريضٌ به ﷺ، أو بُدوّ الحِقد عليه

في الإضافة إلى ضمير الغائب في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، إعراضٌ عنِ التّكلّم، فلم يقولوا: (مِن ربّنا)؛ تعريضٌ وغَمْزٌ بالنّبيّ ﷺ، بأنّ له ربًّا مزعومًا، وأنّه ليس صادقًا، وأنّ ربّه هذا غيرُ ربِّهم. كما أنّهم أعرضوا عن الخطاب فلم يقولوا: (من ربّك)؛ تشديدًا في اللّوم والعِتاب.

بلاغةُ حَمْلِ الكلامِ على الحكاية أوِ الالتفات:

السّياق إمّا لتجديد نشاط السّامع، أو هو طعنٌ ماكِرٌ في صِدق الرّسالة

تتجلّى تلك البلاغةُ في صورتين؛ الأولى: إمّا أن يكون التفاتًا، وأصل الكلام: (لولا أُنزِلَ عليك)، وهو من حكاية القول بالمعنى، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، أي: قل لهم أقيموا، ونُكْتَة ذلك هي نُكْتَة الالتفاتِ، أي: تجديدِ نشاطِ السّامعِ.

الثّانية: وإمّا أن يكون هذا القولُ صدرَ منهم فيما بينهم، ليُبَيِّن بعضُهم لبعض شُبهةَ انتفاءِ رسالةِ محمّد ﷺ، أو أنّه صدر منهم للمسلمين، طمعًا في أن يَردّوهم إلى الكفر[1].

دلالة موقع جملة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾:

حملُ الكلامِ على التّعجيب والاستنكار

سأل الزّمخشريُّ وأجاب: "فإن قلتَ: كيف طابق قولُهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، قولَه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؟ قلتُ: هو كلامٌ يجرى مَجْرَى التّعجُّبِ مِن قولهم، وذلك أنّ الآياتِ الباهرةَ المُتكاثرة، الّتي أوتيها رسولُ اللّه ﷺ لم يُؤْتَها نَبيٌّ قبلَه، وكفى بالقرآن وحْدَه آيةً وراءَ كلِّ آية، فإذا جَحَدوها ولم يَعْتَدّوا بها، وجعلوه كأنّ آية لم تنزل عليه قطّ، كان موضعًا للتّعجّب والاستنكار، فكأنّه قيل لهم: ما أعظمَ عنادَكم، وما أشَدّ تصميمَكُم على كُفْركم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/130.

﴿مَن يَشَآءُ﴾، ممّن كان على صفتكم مِنَ التّصميم، وشِدّة الشّكيمة في الكُفر، فلا سبيلَ إلى اهتدائهم، وإن أُنزلت كلُّ آيةٍ، ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، كان على خِلاف صفتكم ﴿أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحقّ"[1].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿قُلۡ﴾:

مِن نعمة الله على رسوله تلقينُه الجوابَ على الدّعاوى المُغْرِضة

في التّعبير بقوله: ﴿قُلۡ﴾ دلالةٌ على أنّ اللّه تعالى مِن كَثْرة اعتنائِه برسوله ﷺ لم يَدَعْ له عناءَ الرَّدّ على كلام الكُفّار ودعاواهم ومطالبِهم، الّتي ظنّوها تعجيزًا له ﷺ، فاللّه تعالى يُلَقّن رسولَه ﷺ الجوابَ المُناسبَ، في كلّ موضعٍ طلبوا فيه هذا الطّلبَ، بما يُحقّق الغرضَ القُرآنيَّ المنشودَ مِن وراءِ رَدِّه وجوابِه.

ويمكن أن نَلْمَسَ هذا مِن خلال استعراضِ هذه الآيات، وكيف كان الجواب فيها. وهذه هي الآيات: قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ [الرّعد: 7]، وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾. فنرى للقرآن في كلّ سؤالٍ منها جوابًا مختلفًا مُلقَّنًا للنّبيّ ﷺ، مناسبًا للمقام، ومُحَقّقًا للغَرَض القُرآنيّ منه.

دلالة التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

المُـؤكِّـدات في الجملة وأغراضُها

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، جاءت هذه العبارة ردًّا على الكافرين، وتعجيبًا من حالهم، وهم لا شَكّ منكرون جاحدون، وقد جاء التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ وبمُؤكّدٍ آخر، هو التّعبير باسم الجلالة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/497.

﴿ٱللَّهَ﴾، والعُدولُ عنِ التّعبير بالضّمير عائدًا إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾، فلم يقل: (قل إنّه يضلّ من يشاء).

سرّ التّعبيرِ بالضّلال في قوله: ﴿يُضِلُّ﴾:

كلُّ ما في الكون مِن هداية أو ضلال، فهو مِنَ الله

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، التّعبيرُ بـ ﴿يُضِلُّ﴾ وكذلك مقابله ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾، يدلُّ على أنّ الإضلال والهداية مِنَ اللّه تعالى، فهو يَخْذُل مَن يشاء، ويوفّق مَن يشاء، وأن لا علاقةَ لذلك بنزول الآيات أو عدمِ نزولها، "فلو حصلتِ الآياتُ الكثيرةُ، ولم تحصل الهدايةُ، فإنّه لم يَحْصُلِ الانتفاع بها، ولو حصلت آيةٌ واحدة فقط، وحصلتِ الهدايةُ مِنَ اللّه؛ فإنّه يحصُل الانتفاعُ بها، فلا تشتغلوا بطلب الآيات، ولكن تَضَرّعوا إلى اللّه في طَلَب الهدايات"[1]، والدّليلُ على أن لا علاقةَ للهداية بنزول الآيات، أنّ هنالك مِن انغمس في الهداية انغماسًا دونَ حاجةٍ إلى معجزةٍ، كأُمّ المؤمنين خديجةَ رضي الله عنها، والصّديق أبي بكرٍ رضي الله عنه، وعليٍّ رضي الله عنه، وغيرهم كثير.

فإيمانُ هؤلاء لم يكن بسبب المعجزات؛ بل لإرادةِ اللّه لهم الهدايةَ، ثُمّ ما هَيَّأه لهم مِن أسباب صحبتِهم للرّسول صلى الله عليه وسلم، واطّلاعِهم منه على صِدْقِه، وأنّه أبعدُ عن موارد الكذب، ومَواطِن الرّيبة.

دلالةُ ذِكْرِ المَشيئة فِعْلًا مضارعًا:

الحَثّ على التّوبة، والتّحذيرُ مِنَ التّراخي فيها

مرّ بنا أنّ المَشيئة آنيةٌ، وليست مُتَراخيةً، كما أنّها لا تُفيد الأبَدية، كي لا يُفْهَم من هذه العبارة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، أنّ مَن كان في وقته على ضلال، فسيبقى حتمًا كذلك، فالواقعُ لا يُساعِد أبدًا على هذا الفهم، فكثيرٌ ممّن كانوا منغمسين في الضّلالة، قد فتح اللّه لهم بابًا في صَرْح الهدايةِ، فصاروا أكثرَ النّاسِ إيمانًا، بعد أن كانوا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/39.

أكثرَهم كفرًا وعصيانًا. والسّرُّ في اختيار الصّلة بصيغة المضارع ﴿يَشَآءُ﴾؛ للدّلالة على استمرار المشيئة، حسبَ استمرارِ مُكابرتهم[1].

بلاغة المقابلة بين قوله: ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾:

بيانُ غرضِ الطّباق في الجملتين البَليغتَين

دلّ الطّباقُ في الجملتين على أنّ الإضلال والهدايةَ إنّما هما مِنَ اللّه تعالى، وفي ذلك حَثٌّ على تَرْك كلّ أسبابِ الضّلال، وتَلَمُّسِ أسبابِ الهدايةِ، والفَزَعِ إلى اللّه تعالى لتحقيق هذا، "وإنّما يَسْتَحِقّ هذا الكلام - بحسب مقتضى الظّاهر - أن يقابَل بأن يقال: (ما أعظمَ كفرَكُم، وأشَدّ عنادَكم)، ونحوه، فَوُضِع هذا مَوْضِعَه، إشارةً إلى أنّ المُتَعَجِّب منه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾"[2].

سرّ ذكر المشيئة مع الإضلال، وعدم ذكرها مع الهداية:

عدم تعليق الهداية على المشيئة، تكرمًا وتفضّلًا

لِذِكْر المشيئة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، وعدم ذِكْرها مع قوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، سببٌ واضحٌ؛ لأنّ الإضلال متعلّق بالمشيئة من حيث إنّ العبدَ قد يسعى في طريق الضّلال، ثمّ ينالُه توفيقٌ مِنَ اللّه، فيتحوَّلُ إلى الهداية، وقد يكون لِحِكْمةٍ يعلمُها اللّه، وتُخَصِّصُها المشيئةُ؛ بخلاف مَن أناب إلى اللّه، فتابَ وأقبلَ عليه، فإنّ قبولَه في باب الهداية والثّوابِ مُحَقّقٌ بفضله تعالى، ولا يدخل في باب الاحتمال كالأوّل[3].

وفيه أيضًا تنبيهٌ إلى الهداية، وحَثٌّ للكَفَرة على الإقلاع عمّا هم عليه مِنَ العُتوّ والعِناد[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/237.

(3) جعله البقاعيّ من باب الاحتباك، فقال في نظم الدّرر: 10/336: "ذِكْرُ المشيئة أولًا دَالٌّ على حذفها ثانيًا، وذِكْرُ الإنابة ثانيًا دَالٌّ على حَذْف ضِدّها أولًا". وما قاله لم يظهر أنّه الوجه، لأنّ تعلّق الإضلال بالمشيئة ظاهر، أمّا تعلّقُه بهداية مَن أناب فغير ظاهر، لأنّ اللّه تعالى يقبل من أناب - تفضُّلًا - دون تقييد بالمشيئة، حتّى إنّنا نرى أنّه سبحانه قد أنزل قبولّ توبةِ التّائب منزلةَ الواجبِ عليه تفضُّلًا، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [النساء: 17].

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

دلالة تعدّي الفعل ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

تشريفُ المُنيبين بالتّعدي بالحرف (إلى)

في تعدّي الفعلِ ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾، تشريفٌ لهم[1]، أي: للمُنيبين المُقبلين على اللّه، والمعنى: يهديهم هدايةَ توفيقٍ واصطفاءٍ موصِلةً إليه، وليس مُجَرّد هدايةِ دلالةٍ، فهذه لكلّ النّاسِ، كما قال سبحانه مُخبِرًا عن جِنْسِ الإنسان: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 10]، ولا تختصّ بمَن وُصِفوا بالمُهتدين.

دلالة تقديم الإضلال على الهداية:

التّعريض بضلال الكافرين، هو تقريعٌ لهم، وتهوينٌ من شأنهم

في تقديم الإضلال على الهداية في الآية، تعريضٌ بالّذين كفروا، القائلين: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾، بأنّهم ممّن شاء اللّه إضلالَهم، هذا فضلًا عمّا هو معروف من تقديم ذِكْر المفاسدِ على المصالح؛ لأنّ دَرْءَ المفاسدِ مُقَدّمٌ على جَلْبِ المصالح، ولمّا أن كانتِ الثّانية مترتّبةً على الأولى، فلا حصولَ للهداية دونَ سَلْبٍ للضّلال.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، على قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾:

بلاغة الحصر والتّأكيد، في السّياق المجيد

دلّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، على قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾، على التّأكيد والتّقويَةِ، وعلى الحَصْر أيضًا.

سرّ التّعبير بالإنابة دون الرّجوع:

المُنيبُ مَن دخل في نَوبة الخير

عبّر بالإنابة في قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ دون الرّجوع؛ لأنّ الفعل ﴿أَنَابَ﴾ يدلُّ على خصوص الرُّجوع مِن شَرّ إلى خير، فحقيقةُ معناه: "دخل في نَوبَة الخير"[2].

سرّ التّعبير باسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ دون (الّذي):

دلالة اسم الموصول على العموم، وأثره في السّياق

عبَّر باسم الموصول ﴿مَنۡ﴾، دون (الّذي) في قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾، للدّلالة على عموم مَن تحقّقَت فيهمُ الصّلةُ، وليس على التّعيين، فكلُّ مَن أناب إلى اللّه تعالى، ورجعَ إليه، وأقبلَ عليه، فهو - بفضل اللّه - مقبولٌ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/19.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/528.

سرّ التّعبير بالماضي، دون المضارع:

استدعاء الهداية السّابقة للإنابة

عبّر بالماضي في قوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، دون المضارع: (ينيب)؛ "للإيماء إلى استدعاء الهداية السّابقة للإنابة"[1]، والمراد قولُه: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾، أي: ليُساعِدَ استدعاؤُها على التّحَقّق بالإنابة والتّوبة، فإنّ الإنسان إذا عَلِم أنّ عاقبة الإنابة هي الهُدى وما يترتّب عليه مِن جزاءٍ عظيم، كَدُخول الجنّة والتّنَعّم فيها، ورؤيةِ المَلِك العَلّام، كان ذلك وسيلةً ناجعةً، وقوّةً دافعةً نحو الإقلاعِ عنِ الذّنوب، والإسراعِ بالتّوبة إلى غفّار الذّنوب، وسَتّار العيوب.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابل أهل الضّلالة، أهل القلوب المهتدية، والضّدُّ يُظهر حُسنَه الضّدّ

لمّا ذكرّ اللّه تعالى في الآية السّابقة حالَ مَنِ اختار الضّلال، فأضلّه اللّه، ثمّ ختمَها بقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، بيّن بعدَ ذلك أحوالَ هؤلاء المَهديّين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، مُراعيًا في المناسبة وجهَ "المُضادّة لحال الذين أضلّهم اللّه"[1]، وتعريضًا بكون هؤلاء الضّالّين ليسوا ممّن تطمئنّ قلوبُهم لذِكْر اللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾: الطُّمَأْنينَةُ والاطْمِئْنانُ: السّكونُ بعدَ الانزعاج. وأصل طَمَن: سَكَن[2]. ومعنى ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾: تسكن قلوبُهم، وتستأنِسُ نفوسُهم وتركن واثقةً في معيّة اللّه، بسبب ذِكْره وعبادته.

2) ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾: (القافُ واللّامُ والباءُ) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أحَدُهُما: يَدُلُّ على خالِصِ شَيْءٍ وشَريفِه، والآخَرُ: على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ. فالأوَّلُ: القَلْبُ، قَلْبُ الإنْسانِ وغَيْرِه؛ سُمّي لأنّه أخْلَصُ شَيْءٍ فيهِ وأرْفَعُهُ، وخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وأشْرَفُهُ قَلْبُهُ[3]. وردّ بعضُهم القلبَ إلى الأصل الثّاني، فهو إذًا من قَلْب الشّيء، بمعنى: تصريفه، وصَرْفِه عن وجهٍ إلى وجه، قيل: سُمّي قلبُ الإنسان بذلك لكثرة تَقَلُّبِه. ويُعبّر بالقلب في القرآن، لا عنِ المُضغَة الكائنة في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.
(2) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).

تجويف الصّدر لِتَضُخّ الدّماءَ في سائر الجسم، ولكن عنِ المعاني التي تَخْتَصّ به، مِنَ الرّوح والعِلْم والشّجاعة وغيرِ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواحُ، وقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: عِلْم وفَهْم وعقل، وقولِه: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10] أي: تَثْبُتَ به شجاعتُكم ويَزولَ خَوفُكم(1).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

كفى بالقرآن ذِكرًا، تطمئنّ به قلوبُ المؤمنين، وتأنسُ إلى الله

بيّنت هذه الآيةُ، أنّه إذا كان اللّه تعالى يهدي إليه مَن أقبل عليه وأناب، فإنّ هؤلاءِ المَهديّين هم الذين آمنوا، وهم الّذين تسكنُ قلوبُهم، وتلينُ جلودُهم، وتَهْدأُ نفوسُهم لذِكْر اللّه وتلاوةِ كلامه، اللّذين هما أَوْلى ما تَطمَئِنّ به القلوبُ الثّائرة، وتهدأ به النّفوسُ المُضْطربة. فيكون لهم بذلك خيرٌ وفَرَحٌ، وقُرّةُ عينٍ ومثوبةٌ، وحُسنُ مآبٍ ومستَقَرّ في جنّات النّعيم يوم القيامة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل الآية عمّا قبلَها:

كمال الاتّصال في الآية، مبينٌ عن معنى السّياق

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وهذه البدليّةُ هي سِرّ الفصل، وبذلك يكون بينَ الجملتين كمالُ اتّصال، فالّذين أنابوا إلى اللّه هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

دلالة التّعبير بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

صدقُ اليقين، يُذَلّل صعوبةَ العمل

سِرّ التّعبيرِ بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مَدْحُهم وتشريفُهم بالإيمان، وبيانُ سببِ إنابتهم إلى اللّه، واطمئنان قلوبِهم لذِكْر اللّه، إنّه الإيمان الذي أضاء أفئِدَتَهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب).

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾:

التّعبير بالاطمئنان هنا، اختيارُه مُرْتَهِنٌ بالذّكر والعبوديّة لله

أسباب حصول الاطمئنانِ في القلوب أخذًا مِنَ الآية، هي:

أوّلًا: الإنابة إلى الله، المُحَقِّقةُ للاهتداء إليه، ولها السّبق ذِكْرًا ووجودًا، حيثُ بها تَرِقُّ القلوبُ، وتهفو النّفوسُ إلى التّعَلّق بربّها.

ثانيًا: الإيمان المسبوق بالإنابة.

ثالثًا: ذِكْرُ الله، وأولى ما يدخل في ذِكْر الله قراءةُ القرآن والعملُ به؛ فهذه المُقوّمات على ترتيبها المذكور، هي التي تَمَخّضَ عنها الاطمئنان.

وفي موطن آخَر لم يسبق فيه ذِكْر الإنابة إلى الله، وإنّما دَلَف مباشرة إلى وصف الإيمان غيرِ المسبوق بتهيئة الإنابة، ثمّ إلى ذكر الله، نرى أنّه ذكر الوَجَل بدلَ الاطمئنان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحج: 34 - 35]، والوَجَل: مِن باب التّهيّب وتجليّاتِ صفاتِ الجلال، والاطمئنان: مِن باب السّكينة وتجليّات صفاتِ الجمال، وكأنّ ذِكر الله كي يُحَقّقَ الاطمئنان، يحتاج إلى التّهيئة المذكورة، المُترجَمَة فيما يُعْرَف بأنين المُذْنبين، الذي هو أحبُّ إلى الله مِن تسبيح المدلَّلين.

وإنّما عَبّر بالوَجَل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، والوَجَل ضِدّ الاطمئنان، لاختلاف المقام، ففي مقام الرّجاء والرّغبة وحُسن الظّن تطمئنّ القلوب، وفي مقام الرّهبة والخوف تَوْجَل.

وتفسيره: "أنّهم إذا ذَكَروا العقوباتِ، ولم يأمَنوا مِن أن يُقْدِموا على المعاصي، فهناك وصفَهم بالوَجَل، وإذا ذَكَروا وعْدَه بالثّواب والرّحمة، سكنت قلوبُهم إلى ذلك، وأحدُ الأمرين لا يُنافي الآخر؛

لأنّ الوَجَل هو بذِكْر العقاب، والطّمأنينةَ بذِكْر الثّواب، ويوجد الوَجَلُ في حال فِكْرِهم في المعاصي، وتوجد الطّمأنينة عند اشتغالهم بالطّاعات"[1].

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾:

المُداومة على اطمئنان القلب، رَهْنُ المداومةِ على الذِّكر

في التّعبير بالمضارع ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾ دون الماضي؛ دلالةٌ على حِرْصهم على ذِكْر اللّه بالمُداومة عليه، وتَجَدّد نشاطِهم نحوه، ليَسْتَمِرّ معه اطمئنانُ قلوبهم إليه، ولو كَلَّتِ القلوبُ لحظةً، عادت مِن جديد أكثرَ نشاطًا، وأشدَّ اطمئنانًا.

ويحتمل أن تكون الدّلالة هنا هي إفادة تجدّد الاطمئنان، "حسبَ تجدّدِ الآيات وتعدُّدِها"[2]، وهذا على القول بأنّ الذِّكر هو القرآن، وهو الرّاجح.

وعلى أنّ المُراد به ما هو أعمّ مِنَ القرآن، فالمراد: تجدّدُ الاطمئنان حسبَ التّرقّي في ذِكْر اللّه بأسمائه الحُسنى، وما ورد في المأثور مِنَ الأذكار؛ لأنّ لكلّ ذِكْرٍ منزلًا ومنزلةً، بحسب تجليّات كلّ ذِكْر منها، وبحسب حضورِ قلب الذّاكِر، وتَدَرُّجِه في منازل الذّاكرين.

دلالة الاستعارة التّبعيّة:

التّعريض بالكافرين، توبيخٌ وتقريع

في قوله تعالى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، تعريضٌ بالكافرين، بأنّهم ليست لهم قلوبٌ، لِخُلُوّها مِن ذِكْر اللّه، وكما قال اللّه: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]، وعلى ذلك: فالاطمئنان مستعارٌ لليقين وعدمِ الشّكّ[3].

دلالة إسناد الاطمئنان إلى القلوب دون الصّدور:

القلوب هي الأصل والجوهر، والصّدورُ قوالبُها

في إسناد الاطمئنان إلى القلوب، مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الذي يَطمَئنّ حقيقةً هو الإنسان، وأُسْنِدَ الاطمئنانُ إلى القلوب دون الصّدور؛ لأنّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.

أدَلّ وأقربُ وأمَسّ، مِن حيثُ إنّ ذكر الصّدور في غير هذه الآية، إنّما يكون باعتبارها حاضنة للقلوب لا غير، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: 119] وقوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، وأوضحُ مِن هذا قولُه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46].

سرّ التّعبير عن القرآن بالذّكر:

تشريف القرآن باسم الذّكر، شرفٌ للذّاكرين

في قوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بالقرآن، وإنّما سُمّي القرآنُ (ذِكْرًا) لما فيه مِنَ المواعظ، وأخبارِ الأمم الماضية، والذّكر أيضًا الشّرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44]، أي: شرف؛ لأنّه بلُغَتِهم(1).

دلالة الباء في قوله: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾:

ذكر الله سببٌ لسكون القلب، وراحةِ الرّوح

الباء هنا هي باء السّببيّة، والمعنى: أنّ قلوبهم تطمئنّ وتَسْكُن بسبب ذِكْر الله.

دلالة إضافة الذّكر، إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِۗ﴾:

التّشريف والتّعظيم للذّكر والذّاكر، لشرفهما بالنّسبة إلى الله القادر

هي مِن إضافة المصدر إلى مفعوله، والمعنى: أنّهم تطمئنّ قلوبُهم بسبب أنّهم يَذْكرون الله، وهي إضافة تشريف للذّكر، وهو القرآن على أرجح الأقوال؛ لأنّه المُسَمّى ذِكْرًا في عدد مِنَ الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: 50]، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44].

دلالة تكرار الفعل المضارع: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾:

كلّما تجدّد الذِّكْر تجدّد الاطمئنان

واختير المضارعُ في ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾ مرّتين؛ لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره، وأنّه لا يتخلله شَكٌّ ولا تَردّد(2).

(1) السيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.

دلالة افتتاح جملة التّذييل بـ ﴿أَلَا﴾:

تنبيهُ البشرِ لفضل الذِّكر

"وافتُتِحَت جملةُ ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ بحرف التّنبيه؛ اهتمامًا بمضمونها، وإغراءً بوعيه، وهي بمنزلة التّذييل لما في تعريف القلوب مِنَ التّعميم، وفيه إثارةُ الباقين على الكفر على أن يَتَّسِموا بِسِمَة المؤمنين، مِنَ التَّدبُّر في القرآن لتَطمئنّ قلوبُهم، كأنّه يقول: إذا علمتم راحةَ بالِ المؤمنين، فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلَهم، فإن تلك في متناولكم؛ لأنّ ذِكْر اللّه بمسامعكم"[1]. وفي جملة: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ دلالةٌ على القَصْر، أي: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وحْدَه وهو القرآن ﴿تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[2].

دلالة تكرار ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾:

تكرار الذِّكر لتنبيه الغافلين، وتقريعِ المتُغافلين

إعادةُ قوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ مُظْهَرًا في مَحَلّ الإضمار؛ لأنّ الأصل فيه أن يأتي مضمرًا لقُرب ذِكْره، للتّركيز عليه، والحَثّ على المحافظة عليه، مِن قِبَل الذّاكرين، وأيضًا لتنبيه الغافلين عنه إلى حاجتهم إليه.

دلالة ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾، مضافةً إلى الضّمير، أو معرّفةً بـ (أل):

اختلاف المراد في كلّ منهما، يدلّ على ثراء التّركيب وتنوّعه

كرّر لفظَ ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾، مضافةً إلى الضّمير، في قوله: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، حيث الكلامُ مُتّجهٌ إلى قلوب المُنيبين، الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات، فالجملة مختصّةٌ بهم.

وأمّا ذِكْر ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ في الجملة الثّانية: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾، فقد ذُكِرت في إطار القاعدة العامّة، وهي تقرير أنّ بذِكْر اللّه وحْدَه - حصرًا - تطمئنّ كلُّ القلوب، فكانتِ الجملة الأولى بمثابة الحُكْم الفَرْعيّ المُسْتَلِّ مِنَ القاعدة العامّة، والمُنَزَّل عليها، وهي الجملة الثّانية.

أو يقال: إنّ الثّانية هي الحُكْم العامّ، والأولى هي تنزيل الحُكمِ العامّ على حالة مخصوصة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾

[الرّعد: 29]

سَوقُ البُشرى لأهل الإيمان بعد ذِكْرِ صفاتهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ السّابقة حديثٌ عن صفات المؤمنين، وأجلُّها الاطمئنان بذِكر اللّه وحده، فحال قلوبهم هادئةٌ ساكنة مُطمئنَّة، وهذه الآية تَحمل البشرى لهؤلاء المُطمئنّين بأنَّ لهم الجنَّة وما فيها من النَّعيم والهَناءة وحُسن المَرجع والمآب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُوبَىٰ﴾: (طاب) يَطيب (طيبة) بِكَسْر الطّاء و(تَطْيابا) بفَتْح التّاء؛ أيّ: لَذَّ وزَكا، والمعنى: طيبُ العَيشِ لهم، أو: الخيرُ وأقصَى الأُمنيةِ، وطوبى مَصدرٌ مِنْ طابَ طيبًا إذا حَسُنَ، فُعْلى من الطّيب، قَلَبوا الياءَ واوًا للضَّمّة قبلها، والطَّيِّب ضدُّ الخبيث، وطوبى: شجرةٌ في الجنَّةِ، وقيل: بل هي إشارةٌ إلى كلِّ مُستطابٍ في الجنَّةِ[1]، والمعنى المِحوريُّ لهذه الكلمة لُطْفُ وقْعِ الشَّيء على الحِسّ، وصُلوحه في باب ما يُراد منه (مع خُلوِّه من الغِلَظ والحِدّة): كالطّيب بمَعناه المذكورِ (تُستَلَذّ رائحته).

2) ﴿مَـَٔابٖ﴾: المآبُ: المَرجِعُ والمُنقَلَبُ، مِن الأوبِ وهو الرُّجوع، يُقال: آبَ يَؤوبُ أَوْبًا وإيابًا ومآبًا؛ إذا رَجَع؛ أيّ: ولهُم عِند ربِّهم مَرجِع حسَن، ومُنقَلب طيِّبٌ يَنقلبون ويَرجعون إليه في الآخرة وهو الجنَّة[2]؛ والمعنى المِحوريُّ لهذه المادَّة اللُّغويَّة هو: رجوع الشَّيء إلى

(1) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 322، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 412، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أوب).

مُستقرِّه: كما يؤوب النَّحل إلى خلاياه مهْما ابتعد عنها في سُروحه إلى حقول الزُّهور ليَمتصَّ رحيقها، وكما يتجمَّع ماء البئر إلى أعمق مَوضع منها، كُلَّما نَقَص الماء أو نُزِحَ، ومنه: آب الغائب يَؤوبُ أَوْبًا ومَآبًا وإيابًا وأَوْبَةً وأيْبَةً: رَجَع[1].

المَعْنى الإجْماليّ:

ثواب المؤمنين تكريمٌ بحُسن المرجِع

تخبرنا الآية الكريمة أنَّ الّذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ - تصديقًا لهذا الإيمانِ - أولئك لهم حالٌ طَيِّبةٌ، وحُسنُ مَرجعٍ؛ وذلك بما يَنالونَ من رِضوانِ اللّه وكَرامته في الدُّنيا والآخرةِ، فلهم كَمالُ الخيرِ والطُّمَأنينةِ، والفَرَحِ والسُّرورِ، ولهم النَّعيمُ الدّائمُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

سِرُّ فصْل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

المقارَنة والمغايَرة بين حالَتَي الاطمئنان والضَّلال

سِرُّ الفصْل بين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وبين ما قبلها هو مقارنةُ حالٍ بحالٍ، حال المُطمئنّين بِذِكْرِ اللّه الّذين هَداهم اللّه، فآمَنوا وعملوا الصّالحات، وحال الكفّار الّذين أضلَّهم اللّه، مع التَّنبيه على أنَّ مثال الّذين ضَلُّوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لِذِكْرِ اللّه وهو القرآن، لأنَّ قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الرّعد: 27] يتضمَّن أنَّهم لَم يَعُدُّوا القرآن آيةً من اللّه تعالى[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون (مَنْ):

عُلوّ شأن المؤمنين وبيان كرامتهم عند اللّه تعالى

للتَّعبير بِاسْم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون قوله (من آمن) فائدتان: الأولى: المُناسَبة لِما قبلها في الآية

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيب).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/455، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 417، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.

الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ [الرّعد: 28]، والثّانية: الّذين: اسم مَوصول خاصٌّ، يختصُّ بالجَمْع العاقل، أمّا (من) فمُشتركة تُستعمل للمُفرد والمُثنَّى والجمْع والعاقل وغير العاقل(1)، فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصٌّ في المُراد، وكونُه مُختصًّا من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع مِمّا يدلُّ على عُلوِّ الشَّأن(2).

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

ثَبات الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم

إيثار النَّظْم الكريمِ للاسْم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صِلَته فيه إيماءٌ إلى ثَبات ذلك الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادَت المدْح والتَّقْريظ، وإتيانُ الموصول مع الصِّلة بالفعل الماضي قُصِدَ به الالتباس والاستصحاب(3)، إضافةً إلى ذلك، فالاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمان ماضٍ مُحدَّدٍ، عكْس اسم الفاعل الّذي لا يدلُّ على زمان مُحدَّد، كما أنَّ الضَّمير (واو الجماعة) في ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيه قصْديَّة الإيمان والتَّوجُّه إليه بكلِّ حواسِّهم ومشاعرهم؛ فكان الأَوْلى التَّعبير بالاسم الموصول، وذلك لِما فيه من إشارة إلى بيان سبب هذا الجزاء الّذي أعدَّه اللّه للمؤمنين من طيب المُقام في الجنَّة.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دون (يؤمنون):

ثَبات الإيمان في نفوس المؤمنين حتَّى صار الإيمان علامةً لهم

التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ جاء "تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له"(4)، فالإيمان ثابت كالجبال الرَّواسي لا يتزحزح؛ لأنَّه ملَكَ عليهم نفوسهم، فصاروا معروفينَ به.

دلالة إيثار ﴿ءَامَنُواْ﴾ دون (أسلموا):

في اختيار وصْف الإيمان فائدتان: الأولى: مُناسَبة ما قبلها

---

(1) ابن هشام، شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى، ص: 101.
(2) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/186.
(4) ابن جِنّي، الخصائص: 3/334.

الإيمان تنزيهٌ وتوحيدٌ وتوْصيف لعمل القلب المُطمئِنِّ بِذِكْرِ الله

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ﴾ [الرّعد: 28]، فالّذين آمنوا هم الّذين اطمأنَّت قلوبهم بذِكر اللّه، ولو جاء التَّعبير بالفعل (أسلموا) لرُبَّما ظنَّ ظانٌّ أنَّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات قوم غير الّذين وُصِفوا سابقًا بالاطمئنان. الثّانية: الإيمان تنزيه اللّه عن الشِّرك وتوحيده في العَظَمَةِ[1]، كما أنّ الإيمان صفة القلب؛ أيْ: آمنوا بقلوبهم[2]، وهذا مُناسب لقوله ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، فكان وصْف الإيمان هو الأنسَب.

وفيه إشارة إلى إخراج المُنافقين من نَعيم الجنَّة مع إعلانهم أنَّهم مُسلِمون، والحقيقة أنَّهم ليسوا بمؤمنين؛ فكان التَّعبير بالإيمان هو الحَدُّ الفاصِل لتمييز هؤلاء المُنافقين وإخراجهم من حظيرة الإيمان.

دلالة حذْف مُتعلِّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

شُمول مصطلح الإيمان لكلِّ فرْدٍ من أفراده

حَذْفُ مُتعلِّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ إمّا للعِلم به، وهو المَذكور في قوله ﷺ عندما سُئِلَ عن الإيمان؛ فقال: «أنْ تؤمنَ باللّه وملائكتِه وكُتُبه ورُسُله»[3] إلى آخِر الحديث؛ فصار هذا القول بمثابة المُصطلح المعروف؛ فإذا قيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَهمَ المَقصودون من تَعَلُّق الإيمان دون ترْكٍ لأيٍّ فرْدٍ من أفراده.

دلالة عطْف ﴿وَعَمِلُواْ﴾ على ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمان هو الدّاعي الرَّئيس للعمل الصّالح

في هذا العطْف فوائدُ؛ الأولى: الإيمان وإنْ كان يَدخل فيه جَميعُ الأعمال الصّالحة إلّا أنَّ قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ لا يُفيد إلّا أنَّه فَعَل فعلًا واحدًا من أفعال الإيمان، فلِذا حَسُنَ أن يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[4]، كي تتعدَّد الأعمال، الثّانية: العطْف هُنا فيه ترتيب

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/118.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/461.

(3) أخرجه البخاريّ من حديث أبي هريرة ﷺ. البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النّبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعِلم السّاعة، الحديث رقم: (50).

(4) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/57.

بين الإيمان والعمل الصّالح، فالإيمان هو الدّاعي الرَّئيس للعمل الصّالح؛ فالعمل الصّالح هو التَّصديق الحقُّ للإيمان وهو بُرهان عليه، الثّالثة: قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ يُفيد الماضي، فكأنَّه تعالى قال: آمَنوا أوَّلًا ثُمّ داوَموا عليه آخِرًا بالعمل الصّالح بِكُلِّ صوَرِهِ الّتي تدخل تحت مصطلح الأعمال الصّالحات[1]، ويجوز أن يكون من باب عطْف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الإيمان أعمُّ والعمل الصّالح جزءٌ منه.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿وَعَمِلُواْ﴾ دون (وفعلوا):

في العمل قصْديَّة ومُثابَرة وامتداد زمان ليست في الفعل

ورَدَ انتخاب(العمل) دون (الفعل) في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وسِرُّ ذلك أنَّ العمل أخَصُّ من الفعل، فكلُّ عمل فِعلٌ، ولا يَنعكِس[2]، وهذا يَحمل قصْديَّة الفعل والتَّوجُّه إليه، فعملُ الصّالحات صارَ طبيعةً ودَيْدنًا، لأنَّ فيه امتداد زمان[3] غير الفعل، ومِن ثَمَّ عبَّر به، فقال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، حيثُ كان المَقصود المُثابَرة عليها لا الإتيانَ بها مرَّةً أو بسُرعة[4].

عِلَّة حذْف المَوصوف في: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لا يَصدر عن المؤمن إلّا العمل الصّالح

عِلَّة حذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي ذِكْرُ الفعل ﴿وَعَمِلُواْ﴾ قبْل الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالفعل دالٌّ على تقدير مصدَرِه، كأنْ تقول في: قُمْت طَويلًا حَسنًا؛ أيْ: قيامًا طويلًا حَسنًا[5]، فالتَّعبير المُقدَّر (الأعمال)؛ أيْ: الأعمال الصّالحات، ثُمّ إنَّ إقامة الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مَقام المَوصوف تُشعِر بأنَّ الموصوف (الأعمال) حاضرٌ[6] لا غائب، فكأنّ عمَلَ الصّالحات هَمُّهم الآكَدُ الّذي لا يَتحوَّل ولا يَتغيَّر.

(1) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/57.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109 - 110.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/387.
(4) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/387.
(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/202.
(6) البغداديّ، خزانة الأدب: 8/377.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا المُفْرَد:

كـثرة الأعمال الصّالحة مع تَنَوُّعها وتعدُّدها

التَّعبير بالجمْع في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه فائدتان؛ الأولى: الإشارة إلى كثرة المجموع تفخيمًا في مَقام الثَّناء والمدْح؛ لِذا دَرَجَ القرآنُ على استخدام الجمْع في الثَّناء على المؤمنين بعَمَلهم الصّالِح، فلَم تَرِد ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُفرَدَةً أبدًا مع تَكرُّر وُرودها جمْعًا اثنتيْن وستّين مرَّة في الذِّكر الحكيم، وفي ذلك تكثير للأعمال الصّالحات تمهيدًا لمقابَلَتها بواسع مغفرته ورضوانه[1].

والفائدة الثّانية: الجمْع دالٌّ على التَّعدُّد والتَّنوُّع وشُمول كُلِّ ما تستطيعه النَّفْس من خير، فهم لا يُصرّون على عمل واحد فقط، وإنَّما يُحيطون أنفُسَهم بكلِّ ما يُقرِّبهم من ربِّهم، يَنشغلون به، ولا يَتركون فُرْصة من الدَّهْر إلّا وكانوا في مُقدِّمة مَن يَفعلون الصّالحات حتّى صار ذلك طبعًا وسَجيَّة، وكأنَّ الإيمان حتّى يَثْبت ويَقْوى يَلْزَمه كثرة الأعمال الصّالحة وتعدُّدها وتنوُّعها[2].

سِرُّ اختيار ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون مرادفاتها:

الصّالحات خير مُطلَق، أمّا الخيرات فهي نِسْبيَّة

آثر البيان القرآنيُّ التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بلفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنّ الأعمال الصّالحات تَضُمُّ في ثناياها الأعمال الخيِّرات، وتختصُّ بالأفعال[3]، أمّا الخيرات فهي مُقيَّدة، وهي أنَّ خير الواحد شَرُّ الآخَر كالمال الّذى ربّما كان خيرًا لزَيدٍ وشرًّا لِعَمرو، ولذلك وصَفه اللّٰه تعالى بالأمريْن فقال في مَوضع: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: 180]، وقال في موضع آخَر: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [المؤمنون: 55 - 56][4]، فكانت الصّالحات خيرًا مُطلَقًا، أمّا الخيرات فصالحات مُقيَّدَة.

---

(1) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ: 130 - 131.

(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ: 130 - 131.

(3) الرّاغب، المفردات: (صلح).

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/572.

وفيه إشارة إلى أنَّ العمل الصّالح لا يكون صالحًا إلّا إذا كان موافقًا لكتاب اللّه وسُنَّة رسوله؛ بخِلاف الخير فقد يصدُرُ عن غير المُسْلم، نحو الإنفاق على المرضى وبناء المشاريعِ الخَيْرِيَّة؛ فيوصَف بالخيريَّة، ولا يوصَف بالعَمَل الصّالح.

سِرُّ اقتران الإيمان بالعمل الصّالح:

الإيمان مَدخل صالِحٌ للصّالحات وبيان ظاهِر المرْء وباطنه

اقترَنَ العمل الصّالح بالإيمان في القرآن الكريم نَحْو خمْسٍ وسبعين مرَّة، وفي هذا إيذانٌ صريحٌ بأنَّ عمل الصّالحات قَرين الإيمان، فالإيمان يَنبغي أن يَقترِنَ بعمل الصّالحات، لكي يَنجو الإنسان من الخُسران، فليس العَطْفُ تكريرًا لِمُجرَّد التَّأكيد، وإنَّما هو مألوف في العربيَّة، وإنَّما يكون فيه تَنبيهٌ إلى قيمة عمل الصّالحات ومَوضِعها من الإيمان، فكأنّه من التَّخصيص بعد التَّعميم[1]، كما أنَّ الجمْع بيْنهما دالٌّ على بيان عمل الظّاهِر كأعمال الجوارِح مثل الصَّلاة ونحوها، والباطن كمَحَبَّة اللّه وخَشيَتِه ورَجائه[2].

سِرُّ تَنكير لفظة ﴿طُوبَىٰ﴾:

كلمة (طوبَى) في معنى الدُّعاء المُعظِّم للأجْر

التَّنكير في ﴿طُوبَىٰ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم مع العُموم والشُّمول، وفي ذلك "إشارة إلى كُلِّ مُستَطابٍ في الجَنّة من بقاءٍ بلا فناءٍ، وعِزٍّ بلا زوالٍ، وغِنًى بلا فقرٍ"[3]، وسوَّغ التَّنكير هُنا كَون ﴿طُوبَىٰ﴾ في معنى الدُّعاء كـ(سلامٌ عَليك)[4].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿طُوبَىٰ﴾ دون غيرها:

كريمُ الطَّيّبات والملَذّات عطاء اللّه لأهل الإيمان في الجَنَّة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبير عن الثَّواب المُعدِّ للّذين آمنوا بقوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ﴾ لِما تحملُه من تَعدُّد الثَّواب وتَنَوُّعِه لتعدُّد معاني الكلمة، فكأنَّ كُلَّ معنًى تَحمله كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ هو ثواب للمؤمنين؛ فـ﴿طُوبَىٰ﴾

(1) عائشة عبد الرّحمن، التَّفسير البيانيّ: 2/86.
(2) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ: 1/418.
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 528.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20.

فرَحٌ وقُرَّة عيْن لهم، وقيل: غِبْطة لهم، وقيل: حُسنى لهم، وقيل: خير وكرامة، وقيل: عَيْش طيِّب، والمعاني مُتقارِبة، واللَّفظ مُبالَغة في نَيْل الطَّيّبات ويدخُل فيه جميع اللّذات، وتفسيره أنَّ أطيَب الأشياء في كُلِّ الأمور حاصل لهم[1]، كما أنَّ ﴿طُوبَىٰ﴾ مُبالَغة الطّيب كالحُسنى مُبالَغة لِأحْسَن ويُعَبَّر عنها بالجنَّةِ أو شجرةٍ عظيمة فيها[2].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾:

الدّلالة الملْك والاختصاص والاستحقاق

تَتعدَّد معاني اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾؛ فاللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ للملْكِ[3] وللبيان مثلها في: سُقْيا لك[4] ولامُ المِلْكِ هي لام الإضافة والاستحقاق[5]، واللّام أيضًا دالَّة على الاختصاص وهو معنًى لا يُفارقها، وكلُّ المعاني راجعة إليها هُنا[6].

دلالة الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاص المؤمنين بالتَّكريم واستحقاقهم له

في الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ العطايا لهم دون غيرهم؛ كَون اللّام فيها معاني المِلْكِ والبيان والاستحقاق والإضافة، فكأنَّها ملْكُهم وهم المستحقّون لَها، المُهَيمِنون عليها جزاءً من ربِّك عطاءً حِسابًا، وفي هذا من التَّكريم والاحتفاء ما فيه؛ تقديرًا لثَباتهم على إيمانهم، وصبْرِهم على مَشاقِّ الأعمال.

سِرُّ اختيارِ الحُسْنِ: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾:

مُناسَبة الحُسْنِ لأصناف المؤمنين وأذواقهم ومُيولِهم المختلفة

اختار النَّظْم الكريمُ وصْفَ الحُسْنِ دون غيره لِما فيه من أسرارٍ؛ الأوَّل: الحُسنُ عِبارة عن كُلِّ مَرغوب فيه، وأضْرُبه مُختلفة، فهناك حُسن من جهة العقْل، وحُسن من جهة المَيل، وحسن من جهة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/39.
(2) العانيّ، بيان المعاني: 6/47.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/217.
(6) المُراديّ، الجنى الدَّاني، ص: 109.

الحِسِّ[1]، فجاءَتِ اللَّفظة جامعةً لأضرُبِه الثَّلاثة، ودَلالاتِه المختلفة؛ لتُناسِب كلَّ صِنف من أصناف المؤمنين، وأذواقهم وعُقولهم وقلوبهم، الثّاني: لفظة ﴿وَحُسۡنُ﴾ هو وعدُ المؤمنين بالجزاء الطَّيِّب، وتَعريض بالوَعيد القاسي للكُفّار أهل التَّصميم والعِناد؛ فالغرَض التَّرغيب والتَّرهيب، الثّالث: لفظة ﴿وَحُسۡنُ﴾ جاءَت لتَخصيص المَآب، فالمآب يَصلح للجنَّة والنّار، لَكن لمّا قال: ﴿وَحُسۡنُ﴾ دلَّ ذلك على تخصيص الحُسْنِ بالجنَّة لا بالنّار[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَـَٔابٖ﴾:

المآب آخِر أمرِ الإنسان في عالَم الخُلْدِ مع التَّعريض بعاقبة الكفّار

التَّعبير بـ ﴿مَـَٔابٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ فيه فوائد[3]، الأولى: أنَّه آخِر أمرهم وقرارهم كما أنَّ قرار المرء بيتُه الّذي يَرجع إليه بعد الانتشار منه، الثّانية: يُناسِب ما تقرَّر أنَّ الأرواح من أمْر اللّه؛ أيْ: من عالَم المَلكوت وهو عالم الخُلْدِ فمصيرُها إلى الخُلد رجوع إلى عالَمها الأوَّل، الثّالثة: مُقابَلة قولِه تعالى في المشركين: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾، والمُقابَلة دالَّة على البَوْنِ الكبير بيْن العاقِبَتَيْن، الرّابعة: ثَمَّ مَلحظٌ لفظيٌّ وهو موافقة رؤوس الآي، وهو مَبحث مُعتَبَر عند العُلماء، فقَبْلَ لفظة ﴿مَـَٔابٖ﴾، لفظةُ ﴿ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]، وبَعدها ﴿مَتَابِ﴾، وكلمة (الرُّجوع) تُهْدِرُ هذا المَلْحَظ.

سِرُّ اختيار ﴿مَـَٔابٖ﴾ دون (إياب):

المُبالَغة في الرُّجوع والانتهاء مع الدَّلالة على التَّكريم في هذا المَوْضِع

في تَوظيف ﴿مَـَٔابٖ﴾ إشارة إلى نهاية الأَوْب، وأمّا الإياب فإنَّه الرُّجوع ولا يَعني مُنتهى الأَوْب، قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36][4] لِذا آثَرَ القرآنُ الكريم المَصدر الميميَّ (المآب) دون المَصْدر الأصليِّ (الإياب)؛ لأنَّ المَصدر الميميّ فيه من المُبالَغة ما

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/163.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/137.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.

ليس في المَصدر الأصليّ[1]، فالمُراد هُنا الجَنَّة وهي المُنتهى، أمّا الإياب فليس نصًّا في المُنتهى، قُصاراهُ العَودة والرُّجوع دون المُنتهى، وقد يُراد به المُنتهى، وثَمَّ مَلحظٌ في عادات القرآن، فالقرآن لَم يوظِّف (إياب) إلّا في مَوطن العذاب كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: 23 - 26]، أمّا ﴿مَـَٔابٍ﴾ فالغالِب أن تأتيَ في مواطن الرَّحمة والتَّكريم[2] باستثناء مَوضع سورة ص في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: 55]؛ فجاءت في العذاب.

سِرُّ اختلاف مَقطع الآيتَيْن مع اتّفاق المَطْلع:

الإيمان بالله سِرُّ الاطمئنان بِذِكْرِه والعملُ الصّالحُ دليلٌ عليه

اتَّفق مَطلع الآيتَيْن في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثمَّ اختلَفَ المَقْطع بعد ذلك؛ فجاءت الآية الأولى بإيراد صِفة الاطمئنان الّذي هو أثَرٌ من آثار الإيمان الرّاسخ يَتجدَّد حدوثُه كُلَّما تَجدَّد العامل فيه وهو ذِكر اللّه، يؤكِّد ذلك التَّعبير بالمُضارع ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ [الرّعد: 28] الدّالّ على دوام الاطمئنان واستمراره بالذِّكر في جميع أزْمنته وأوقاته؛ لِوجود الطُّمأنينة بعد صِفة الإيمان إيجادًا مُستَمِرًّا دالًّا على ثَبات إيمانهم لِتَرْك العِناد[3]، فصارَتِ الصِّلة باللّه في أقوى الدَّرجات، وصار الأُنس والرّاحة والهدوءُ أسبابًا موصلةً إلى العمل الصّالح الّذي عبَّر عنه بالفعل الماضي ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الدّالّ على الثَّبات والاستقرار في الآية الثّانية، فكأنَّ الاطمئنان بالمُضارع جِسْرٌ للعمل الصّالح.

كما أنَّ في الآية الثّانية جزاءً آخَر غير جزاء الاطمئنان والقرار الّذي يختصُّ به المؤمنون دائمًا، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ تحيَّةً من اللّه تعالى

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.

(2) من ذلك ما وَرَد في سورة الرّعد، ص: 36، وسورة ص: 25، 40، 49.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/336.

لعباده المؤمنين، وتكون هذه التَّحيَّة مقرّرةً لهم بأنَّ لهم السَّلام والاطمئنان والطّيبَ في إقامتهم في الجَنَّة[1].

نكتة ترتيب العمل الصّالح على اطمئنان القلوب:

العمل الصّالح نتيجة مُباشِرةٌ عن الاطمئنان وكلاهما مُنْبئٌ عن الباطن والظّاهر

سِرُّ ترتيب العمل الصّالح في قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على اطمئنان القلوب بِذِكْرِ اللّه في الآية السّابقة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ مع أنَّ العمل الصّالح أعَمُّ، هذا التّرتيب آتٍ من أمرَيْن؛ الأوَّل: التَّرقّي من مَرحلة إلى أُخرى للوصول إلى قِمَّة العمل، فالاطمئنان موصل إلى السَّكينة والتَّعلُّق باللّه، وثمرة ذلك هو الأعمال الصّالحة. الثّاني: مُناسَبة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لـ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، فمَجموع ما سَبَق موصل إلى الجنَّة، والأعمال الصّالحة بعد الإيمان يُناسبها دخول الجنَّة، وهذا ليس قائمًا في الطُّمأنينة وحْدها؛ لأنَّها ليست موصلة للجَنَّة بمُفردها، ومن ثَمَّ كان ترتيب العمل الصّالح في الذِّكر بعدَها مع أنَّه أعَمُّ.

سِرُّ الفصْل بين الثَّوابَيْن بـ ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاص المؤمنين بالثَّواب مع التَّعجيل ببِشارة الجَنَّة

لَم يَرِدِ النَّظْم الكريمُ هكذا (طوبى وحُسن مآب لهم)، وسِرُّ الفصل بين الثَّوابَيْن هُنا التَّعجيل بالبُشرى واختصاصهم بها، فهي لهم وحْدهم، ممّا يُؤنِس النَّفْس ويُدخِلها في دائرة السُّرور والحُبور، ثُمَّ يَحدث التَّرقّي بـ ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، وتَقدير الكلام: حُسن مآبٍ لهم. فدلَّ المَذكور ﴿لَهُمۡ﴾ على المَحذوف، كما أنَّ كلمة: ﴿طُوبَىٰ﴾، لا يكون خَبَرها إلّا الجارّ مع مَجرورِه، نحو: طوبى للصّالح[2]، وتأخير الخَبرِ ﴿لَهُمۡ﴾ لِما بعد المعطوف ﴿وَحُسۡنُ﴾ يُفهَم منه أنَّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ خبرٌ لـ ﴿وَحُسۡنُ﴾ لا خَبر لـ ﴿طُوبَىٰ﴾، وهذا غير المُرادِ.

---

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/3947.

(2) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 1/481.

سِرُّ العدول إلى المصدر في: ﴿وَحُسْنُ﴾:

ثَبات التّكريم واستقراره للمؤمنين مع عِظَمِه

في قوله تعالى: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ بيانُ اسْميَّة كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ المَرفوعة؛ لأنَّ الاسم مَقصورٌ ولا تَظهَر عليه حركة الإعراب، فجاء الاسم (حُسْن) بالرَّفع لبيان الاسْميَّة لا الفِعليَّة، وأنَّ الكلمة مرفوعة على الابتدائيَّة، يقول سيبويه: "ومَثَلُ الرَّفع: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، يَدلُّك على رفْعِها رَفْعُ (حسْن مآب)"[1] وبهذا تكون الجملة اسميَّة، والجملة الاسميَّة أثْبَت وأدلُّ على عِظَم الثَّواب من الجملة الفعليَّة.

دلالة تَعدُّد الثَّواب ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾:

كثرة الأعمال الصّالحة جِسْر إلى تعدُّد الثَّواب

في تعدُّد الثَّواب في ختام الآية إشارة إلى التَّرغيب في الطّاعة، والتَّحذير من المعصية[2]، وفيه دلالة على أنَّ كثرة الأعمال الصّالحة الظّاهرة والباطنة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ موصلةٌ إلى أشَدِّ درجات التَّكريم والهَناءة، فكانت كثرة الأعمال مؤدّيةً إلى تعدُّد الثَّواب، كما أنَّ فيه تعريضًا بالكُفّار، فكان ذلك التَّعدُّد مُفهِمًا لحال القِسم الآخَر، فكأنَّه قيل: ومَن لَم يَطمئنَّ أو اطمأنَّ قلبُه ولَم يُذعِن، بُؤسى لهم وسوءُ مآب[3].

سِرُّ الجَمْع بين: ﴿طُوبَىٰ﴾ و﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾:

المُبالَغة في التَّكريم بتَعدُّد الطَّيِّبات في الجَنَّة

في الجَمْعِ بين الطّيب والحُسْنِ إشارةٌ إلى لذَّة النَّفس والعَين والقلب، وإمعانٌ في التَّكريم ومُقابَلة الحَسَنِ بالأحْسن، وذلك بالجمْع بين الطَّيّب الّذي من سِماته سهولة المُعاشرة، والطُّهر[4]، والمُمازَحة[5]، والخلاص من الشَّوائب، والحَسَن الّذي هو فَرَحٌ لهم وغبطة وقُرّة عين[6]، فيكون الجمْع مُقرِّرًا لهم السَّلام

(1) سيبويه، الكتاب: 1/331.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/337.
(4) الهرويّ، تهذيب اللّغة: 14/31.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: 1/173.
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/110.

والاطمئنان وطيبَ الإقامة في الجَنَّة، لبيان اجتماع طيب الإقامة، وحُسن الثّواب[1].

سِرُّ عدَمِ ورود البشارة بصيغة: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

حُضور ذِكر الرَّسول في سورة البقرة لا الرَّعد مع تَعدُّد أفعال الأمر

مع أنَّ سياق الآية يَحمل البِشارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] حيث ذُكِرَ فعل الأمر ﴿وَبَشِّرِ﴾ [البقرة: 25] هناك لأنَّ للنَّبيِّ ﷺ ذِكرًا في السّياق، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [البقرة: 23 - 25]، فكان المُناسِب أن يكونَ التَّبشير للرَّسول ﷺ زيادة في نِكاية الكفّار المُنكِرين الشّاكّين، إضافةً إلى احْتِواء السّياق على أفعال أمورٍ أخرى مثل: ﴿فَأۡتُواْ﴾ [البقرة: 23]، ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ [البقرة: 23]، ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ [البقرة: 24]، ﴿وَبَشِّرِ﴾ [البقرة: 25]، أمّا سياق سورة الرَّعد؛ فهو سياق خَبَريٌّ مَليءٌ بوصْف الَّذين يَنقضون العهْد، والَّذين آمنوا، فلا يُناسِبه فعل الأمر هُنا.

سِرُّ التَّعبير بـ (المآب) دون (الثَّواب):

مُراعاة السّياق في كلٍّ منهما

لَم يأت النَّظْم بذِكْرِ حُسن الثَّواب كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، وفي تَوجيه ذلك أمورٌ، الأوَّل: حُسْنُ الثَّواب في آية آل عمران مرتبطٌ بحُسْنِ العمل، فنتيجة العمل الإثابة والجزاء الحَسَنُ، فهُم قد ﴿هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، الثّاني: أنَّ كلمة ﴿ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195]

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3947.

تقدَّمَتْها ﴿ثَوَابًا﴾ [آل عمران: 195]، فكان المُناسِب أن يكون ختام الآية مُتَعلِّقًا بحُسن الثَّواب لا المآب، الثّالث: حُسن المآب هو المُناسِب في سورة الرَّعد؛ لأنَّ قَبلَه حديثًا عن دار الكُفّار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرّعد: 25] فجاء تركيب ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرّعد: 25] للكُفّار، والدّار قرار ومآبٌ، فكان المُناسِب أن ينتهيَ السّياق بـ (حُسن المآب) مُضادًّا لقُبْح سوء الدّار، فَلِلمؤمن مكان، وللكافر مكان، الرّابع: المآب محلُّ الثَّواب الجليل، فبينهما علاقة، والقرآن كالكلمة الواحدة كما يقول العُلماء(1).

۞ الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

هُناك فرْق بين الإيمان والتَّصديق من عدَّة أوْجُه:

الإيمان أخَصُّ من التَّصديق

الوجه الأوَّل: أنّ بينَهما فرْقًا من جهَة التَّعدّي، وهو فرْقٌ في اللَّفظ، وذلك أنَّه يُقال للمُخْبِر: صدَّقَه، ولا يُقال: آمَنَه، بل آمَنَ به أو آمَن له، كما قال تعالى: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ [العنكبوت: 26]، وقال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ [يونس: 83]، وقال فرعون: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [طه: 71] إلى غيرها من الآيات، فالصِّدق يتعدَّى بنفْسه بخِلاف الإيمان، فلا يُقال: آمَنْتُه، إلّا من الأمان الَّذي هو ضدُّ الإخافة. الوجه الثّاني: أنَّ لفظَ الإيمانِ ليس مُرادفًا لِلَفظ التَّصديق في المعنى، فإنَّ كلَّ مُخْبِرٍ عن مشاهدة أو غَيب يُقال له في اللُّغة: صَدَقْت، كما يُقال: كَذَبْت، وأمّا لفظ الإيمان فلا يُستعملُ إلّا في الخَبَر عن غائب، وذلك أنَّه مُشتقٌّ من الأمْن، فإنَّما يستعمل في خبرٍ يُؤتَمَن عليه المُخبِرُ، كالأمر الغائب، ولهذا لَم يوجَد قطُّ في القرآن وغيره لفظ (آمَن له) إلّا في هذا النَّوع. الوجه الثّالث: أنَّ

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 1/39.

لفظ (الإيمان) في اللُّغة لَم يُقابَلْ بالتَّكذيب كلفْظ (التَّصديق)، بل المعروف في مُقابلة الإيمان لفظ (الكُفْر)، يُقال: هو مؤمن أو كافر، والكُفر لا يختصُّ بالتَّكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنَّكَ صادقٌ لكن لا أتَّبعك، بل أُعاديكَ وأُبْغِضُك وأُخالِفك ولا أوافقُك، لكان كُفرُهُ أعْظَمَ، فلمّا كان الكُفر المُقابِل للإيمان ليس هو التَّكذيب فقط، عُلم أنَّ الإيمان ليس هو التَّصديق فقط. الوجه الرّابع: أنَّ الإيمانَ في اللُّغة مُشتقٌّ من الأمن الَّذي هو ضِدُّ الخَوف، فهو متضمِّنٌ مع التَّصديق معنى الائتمان والأمانة كما يَدلُّ عليه الاستعمالُ والاشتقاق، أمّا التَّصديق فلا يتضمَّن شيئًا من ذلك[1].

وبناءً على ما سبَق؛ فالإيمان أخَصُّ من التَّصديق، وذلك لأنَّه يختصُّ بالغَيب دون المشاهَدة، ولأنَّه يَجمع معنى الانقياد والطّاعة؛ بخِلاف التَّصديق، ولأنَّ الإيمان يُقابله الكُفر، والتَّصديق يُقابله الكذب.

العمل والفعل:

الفعل تأثير في الشَّيء من جهة مُؤَثِّر، والعمل إيجاد الأثَر في الشَّيء

كلاهُما دالٌّ على الحَدث، ومع ذلك يوجَد بينهما فرْق في الاستعمال القرآنيِّ وإن كان يَجْمعهما معنى التَّأثير في الشَّيء؛ فالفعل هو التَّأثير في الشَّيء من جهة مُؤَثِّر، والعمل إيجاد الأثَر في الشَّيء، يُقال: فلان يَعمل الطّين خزَفًا، ويَعمل الخوصَ زمبيلًا. ولا يُقال يفعل ذلك؛ لأنَّ المُراد من ذلك الشَّيْء هو إيجادُه، ومن الفروق بينهما أنَّ في العمل امتدادًا زمنيًّا، قال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾ [سبأ: 13] إذ كان فِعلُهم بزَمان، وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أيْ: ثابروا على عَمَلها، وأمّا الفعل فيَتميَّز بالسُّرعة، قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [الحجّ: 77]؛ أيْ: استَبِقوا إليه بالمُسارَعة[2].

(1) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 7/290.

(2) القيعيّ، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.

المآب والرُّجوع:

مآب النّاس آخِر أمْرِهم وقرارهم، كما أنَّ قرار المرْء بيتُه يرجع إليه بعد الانتشار منه، والمرجع: انقلاب الشَّيْء إلى حالٍ قد كان عليها[1].

المَرجِع انقلاب الشَّيْء إلى حالٍ كـان عليـها، والمآب آخِر الأمر وقراره

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 492.

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرّعد: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجواب الحاسِم في الرَّدِّ على تعنُّت الكفّار بعد ذِكْرِ عِناد المُشركين

لمّا ذَكر اللّه تعالى في الآيات السّابقة عِناد الكافرين وتعنُّتَهم بطَلَب الآيات من رسول اللّه ﷺ بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 27] كانت هذه الآية بمَثابة الجواب الحاسم في الرَّدِّ على تعنُّتهم؛ لأنَّ رسول اللّه ﷺ ليس بِدَعًا في أمْر الرِّسالة؛ فقال له: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ كما أرسلنا الرُّسل من قَبلك لأمر الهداية وليس لطَلَب المُعجزات(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٖ﴾: الأُمَّة: كلُّ جماعة يَجمعهم أمرٌ ما، إمّا دين واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعُها (أُمَمٌ)، وتُطلَق (الأمَّة) على: جماعةٍ من النّاس أُرسلَ إليهم رسولٌ، سواء آمنوا أم كفروا، وتُطلَق كذلك على عالمِ دَهره المُنفرد بعِلمه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النَّحل: 120]؛ أيْ: قائمًا مقام جماعة في عبادة اللّه، ومن معانيها إطلاقُها على الحين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]؛ أيْ: بعد حين(2)، ومن معانيها: الشِّرْعَة والدّين، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [البقرة: 213]؛ يعني: مِلَّةً.

وممّا يُؤكِّد هذه المعاني أنَّ المعنى المِحوريَّ لهذه اللَّفظة يُطلَق على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 13/139.

(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).

تَضامٌّ شيءٍ أو أشياء مُتجانِسة؛ أيْ: لحاق بعضِها ببعض في حيِّزٍ يُحيطُ بظاهِرها بلُطْفٍ، كما تَضُمُّ تلك الجِلدةُ الرَّقيقة مادّةَ المُخِّ، وكما تتضامُّ القامَة، وقد قال علماء اللُّغة: كلّ شيء يَنضمُّ إليه سائرُ ما يليه فإنَّ العرَب تُسَمّي ذلك الشّيْءَ أُمًّا، والأُمّ لِكُلِّ شيءٍ هو المَجمَعُ والمَضَمُّ[1].

2) ﴿خَلَتۡ﴾: خَلا يَخْلو خَلاءً فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ لا شيءَ فيه، وخَلَّى مكانَه؛ أيْ: مات، وخَلا قَرْنٌ؛ أيْ: مَضى؛ فهو خالٍ، فالخُلُوُّ يُستعمل في الزَّمان والمكان، وأصلُه مِنَ التَّخلّي، وهو: تَعرّي الشَّيْءَ مِن الشَّيْء، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: مَضَتْ وانقَرَضَتْ[2]، والمعنى المِحوريُّ: فَراغُ الحَيِّزِ أو الظَّرْف مِمّا كان أو شأنُه أن يَشغلَهُ مع بقائه هو مُتَماسِكًا، كالمكان والدّارِ الخالييْن، وكالخَلاء من الأرض، ومنه خَلا بصاحِبِه، وإليه، ومعهُ: اجتَمَعَ معه في خَلوة[3].

3) ﴿لِّتَتۡلُوَاْ﴾: التِّلاوَةُ: القِراءَةُ المُتَتابعة المُتَناسِقة في اللَّفظ والمعنى، يُقال: تَلا الخِطابَ: إذا قَرَأَهُ، وتَأْتي بمعنى ذِكْرِ الشَّيْء، فيُقال: تَلا الشَّيْءَ، إذا ذَكَرَهُ، وأَصلُها: الاتِّباعُ، يُقال: تَلا، يَتْلو، تُلُوًّا؛ أيْ: تَبِعَ، والتّالي: التّابِعُ والآتي بعد غَيْرِه، وتِلْوُ كُلِّ شَيْءٍ: ما يَتبعُهُ، ومنه سُمّيت قِراءَةُ القُرْآنِ تِلاوَةً؛ لأنَّ القارئَ يُتْبِعُ آيَةً بعد آيَةٍ[4]، فالمعنى المِحوريُّ هو: اتّباع الشَّيء ما يَسْبِقُه لُحوقًا به من خَلْفِه، كالأعْجاز، وكوَلَد النّاقة يَتبعُ أُمَّه، ومنه تَلَوْتُه: تَبِعْتُهُ، وفلان يَتْلو فلانًا: يَحْكيه ويَتبعُ فِعْلَه: قال تعالى ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشّمس: 1 - 2]؛ أيْ: تَبِعها[5].

4) ﴿مَتَابِ﴾: أَصْلُ (توب): يدلُّ على الرُّجوعِ، يُقال: تابَ إلى اللّه، يَتوبُ، تَوْبًا وتَوْبَةً ومَتابًا؛ أيْ: أنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطّاعَةِ، فقوله: ﴿مَتَابِ﴾؛ أيْ: تَوْبَتي ومَرْجعي وأَوْبتي[6]، والمَتابُ: مَصْدَرٌ ميميٌّ على وزنِ مَفْعَل؛ أي: التَّوبةُ، يُفيدُ المُبالَغةَ؛ لأنَّ الأصلَ في المَصادِرِ الميميَّة أنّها أسماءُ زَمانٍ جُعِلَتْ كِنايةً عن المَصدَرِ، ثُمَّ شاعَ استعمالُها

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيدَه، المُحكَم، والرّاغب، المُفردات: (خلا)، و(خلو).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).

حتَّى صارتْ كالصَّريح، والمعنى المِحوريُّ لِلّفْظة: توقُّف الشَّخص وانقطاعُه عمّا كان يَعمله من الذُّنوب ونحْوِها لرِقّةٍ اعْترَته؛ فالتَّوبة تَرْك التَّمادي في المعاصي: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ [النِّساء: 16][1].

المَعْنى الإجْماليّ:

صبر الرُّسل على أقوامهم نماذج بشريَّة سامية

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ مِثْلَ ذلك الإرسالِ الّذي كان للأنبياءِ السّابقينَ مع أُمَمِهم أرسَلْناك - أيُّها الرَّسولُ - بكتابٍ تُبلِّغُه للنّاسِ وتَقرَؤُه عليهم، كما أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ من قَبلِك، وحالُ قَومِك الجُحودُ بوَحدانيَّة الرَّحمنِ المُنْعِم عليهم بجَلائل الرَّحمة، ومنها رحمة إرسالِك إليهم من أنْفُسِهم، قلْ لهم يا مُحمَّدُ: إنَّ الَّذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، وهو ربّي وحدَه، لا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، عليه تَوكَّلتُ، وإليه مَرجِعي[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفصْل في: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

بيان عَظَمة الإرسال كأنَّه نَسيجُ وحْدِهِ في التَّفرُّد

فُصلَتْ هذه الآية الكريمةُ عمّا قَبلَها؛ لبيان عظَمة الإرسال، فهو إرسال لا يُشبهه إرسال، فكان المُشبَّه به هو عيْن المُشبَّه[3]، فيكون في أقصى البيان والبلاغة، يُضاف إلى ذلك أنَّ في افتتاحها بـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تأْكيدًا للمُشار إليه وهو التَّعجُّب من ضلالتهم إذ عَموا عن صِفة الرِّسالة[4].

سِرُّ إيثار الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تعدُّد دلالات (الكاف) وتنوُّعها بخِلاف (مِثل) المُتمحِّضة للتَّشبيه

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالكاف مع دلالتها على التَّشبيه

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/530، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/41.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.

لِتعدُّد معانيها، فتأْتي للتَّوكيد والتَّحقيق؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وقد جاءت إفادتها للتَّحقيق، من كثرة مجيئها لبيان التَّطابُق، واسْتُعملَتْ في لازِم معناها الأصليِّ الَّذي تُنوسي.

واستعمال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّحقيق والتَّوكيد لا يَقِلُّ عن استخدامها في التَّشبيه[1]، أمّا (مَثَل) فهي نَصٌّ في التَّشبيه، فاتِّساع المعنى هو المُناسب لِتَوْظيف (الكاف) لا (مثل)، إضافة إلى عادة القرآن في تَوظيف ذلك الأسلوب، فاللَّفْظة على مَدار القرآن وفي أغلَب آياته تأْتي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا (مثل ذلك).

نكتة الإشارة للبعيد: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

إفادة التَّفخيم والتَّعظيم إيذانًا بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ للبعيد للتَّفخيم[2]، وهذا دالٌّ على عظَمة العمليَّة الإرساليَّة من مرسِلٍ وهو الله ﷻ، ومرسَل وهو الرَّسول ﷺ، ورسالةٍ هاديَة إلى طريق الحقِّ، فالبُعْدُ بُعْدُ هَيْبة وجَلالٍ، وفيه إيذانٌ بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه في الفضلِ مع كمال تميُّزه وانتظامِه بسببِ ذلكَ في سِلكِ الأمور المشاهَدة[3].

نُكتة استعمال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في القرآن بالمخاطب المفرد:

الإشارة إلى عموميَّة المُخاطَب مع اطِّراد تأكيد الأمر وتحقيقه

النّاظِر في هذا الأسلوب في آيات القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، المُكوَّن من (كاف التَّشبيه) و(ذلك)، يجِدُ أنَّه جاء على صوَرٍ مُتَعدِّدة في المُخاطَبَة، والأصل فيها أن يكون مُناسِبًا للمُخاطَب، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37] مُخاطِبًا صاحبَيْه في السِّجن، وكما جاء على لسان امرأة العَزيز في خِطابها للنِّسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ [يوسف: 32]، وكما هو مَعَنا في هذه الآية

(1) أحمد البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 166.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/237.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.

في خِطاب المفرَد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وقد يَرِدُ أيضًا بتَوجيه الخِطاب إلى جماعة المسلمين كما في قوله تعالى في سورة البقَرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143] وكان مُقتضى الكلام أن يُقال: (كذالِكم) لكنَّه وحَّد الخِطاب خُروجًا عن الأصْل؛ لأنَّ تَعيين المُخاطَب، وهو جمعٌ دلَّ عليه ما وردَ بعد اسم الإشارة ﴿أُمَّةٖ﴾، ولهذا الاستعمال نُكتة أشارَ إليها أبو السُّعود، ذلك أنَّ إفراد حرْف الخِطاب مع تَعدُّد المخاطَبينَ آتٍ باعتبار تَعَدُّد القَبيل أو الفريق أو لعدَمِ القصْد إلى تعيين المُخاطَب[1]، ففي تَوظيفِه عموميَّة وشُيوع لا خصوصيَّة، وإضافةً إلى ذلك فهذا الأسلوب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اطَّرد في تأكيد الأمر وتحقيقه حتّى كأنَّه سُلِب عنه معنى التَّشبيه[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لا (بَعَثْناك):

هَيمنة جَوِّ الرَّحمة والهدوء دون جوِّ الإثارة والقوَّة

سِرُّ تَوظيف (أرسلَ) هُنا أنَّ فيه بَعثًا بِتُؤَدة، وفي الفعل معاني اليُسرِ والسُّهولة والرِّفق[3]، وهذا يُناسِب جوَّ الرَّحمة واللّين الَّذي أشاعه لفظ (الرَّحمن)؛ أيْ: البليغ في الرَّحمة، وكذا تلاوة ما أوْحاه اللّه إلى رسوله، أمّا (بعثَ) ففيها معنى الإثارة[4] والقوَّة وهذا لا يُناسِب التِّلاوة وما أوحي إليه، إضافة إلى أنَّ (انبعثَ) مُطاوِع (أرسلَ)[5]، فكأنَّ البَعث إحياء نتيجةَ الإرسال العظيم الفَخم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ دون (نرسلك):

إبراز قيمة الثَّبات مع بَثِّ الثِّقة في نفْس الرَّسول

الفعل الماضي بزمَنِه دالٌّ على تَحَقُّق الإرسال واستقرارِه؛ لأنَّ الإرسال قد تمَّ واكتمَل، وفائدة الثَّبات والإتمام بَثُّ الثِّقة في قلب الرَّسول ﷺ، والإيذان ببَدْء تبليغ التَّكاليف الَّتي أُمِرَ بتكليفها على الوجْه الأكمَل.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.
(2) الشهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/224.
(3) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

دلالة نون العَظَمة في: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

إبراز القُدرة المُطلَقة والهَيمنة على عمليَّة الإرسال

قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يَدلُّ الإسناد بنون العظَمة على التَّعظيم والتَّشريف[1] لِمُشتَمَلات الإرسال كُلِّه: المرسِل (اللّه ﷻ) والمرسَل (الرَّسول ﷺ) وموضوع الرِّسالة (الإسلام)، فالقِصَّة كُلُّها قِصَّةٌ عظيمة جليلة؛ لما تَضُمُّه من هداية ورشاد للبشريَّة، ثُمَّ إنَّ نون العظَمة تعني التَّأييد له ﷺ، وخِذلان مَنِ اتَّهموه وعادوه، وإيرادُها لتربيةِ المَهابةِ وإدخال الرَّوعة[2] في قلوب الكفّار، وللإعلام أنَّه هو المُتَحَكِّم والمُهيِّمن على عمليَّة الإرسال.

دلالة توْجيه الخِطاب: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

تعظيم قَدْرِ الرَّسول ﷺ وتقوية نفْسه بالتَّأييد المُطْلَق

في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ توجيه الخِطاب للرَّسول الأعظَم ﷺ، وفيهِ تَنويه وتشْريف له[3] وتفخيمٌ لشأْنه الكريم؛ فالرَّسول ﷺ مُشارِك في هداية النّاس بإبلاغ ما أوحي إليه، وفي ذلك التَّنويه تأييدٌ وتقويَة وتسليَة بأنَّ مَن أرسلَك لن يَتركك وحدَك، وإنَّما سيكون ناصِرَك ومؤيِّدَك.

وجه التَّشبيه، والمُشبَّه به: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

قَصْدُ المُبالَغة في بلوغ المُشَبَّه غاية ما يكون فيه وجْه الشَّبه

المُشبَّه به مُتعدِّدٌ، فيجوز أن يكون المُشَبَّه به هو الإرسال المَذكور المفهوم من الفعل (أرسل)؛ أيْ: إرسال الرُّسُل قَبلَك؛ فالمعنى: مِثْلَ ذلك الإرسال أرْسلناك؛ يعني: أرسلناك إرسالًا له شأن وفضْل على سائر الإرسالات[4]، ويجوز أن يكون وجْه التَّشبيه: كما أرسلنا إلى أُمَم وأعطيناهم كُتُبًا تُتْلى عليهم؛ كذلك أعطيْناك هذا الكتاب وأنت تَتْلوه عليهم؛ وثَمَّ اتِّجاه آخَر في بيان المُشبَّه به، فالمشبَّه به هو عيْن المُشبَّه لِقصْد المُبالَغة في بلوغ المُشَبَّه غاية ما يكون فيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/695.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/93.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529.

وجه الشَّبه، بحيث إذا أُريدَ تَشبيهُه لا يُلجأ إلّا إلى تَشبيهِه بنفْسِه، فيكون كناية عن بُلوغه أقصى مراتِب وجْه الشَّبه؛ أيْ: مثْل ذلك الإرسال أرْسلناك[1].

سِرُّ التَّعبير بالظَّرْفيَّة ﴿فِيٓ﴾ دون (إلى):

شرَف الرَّسول ﷺ وعُلوُّ مكانته والنَّعْي على عقول الكفّار

في التَّعبير بالظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ﴾ فوائد: الأولى: الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو من صَميم هذه الأمَّة حتّى لَكأنَّها أشْبَه بالظَّرْفِ الَّذي يَحتويه زمانًا ومكانًا ومجتمَعًا، فهو ليس طارِئًا على هذه الأمَّة، مُستَدْعًى إليها من خارج ذاتها، وإنَّما هو في الصَّميم منها[2]، الثّانية: حرْف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ أشَدُّ مُناسَبة؛ لأنَّ الفِعْلَ (أرسل) فيه معنى الامتداد[3]، والامتدادُ توغُّلٌ وتعَمُّق في الأمَّة، بما يعني التَّداخُل الشَّديد بين الرَّسول وقومِه، وكأنَّ الأمَّة جُعِلَتْ ظَرْفًا لهذا الإرسال، الثّالثة: توْظيف ﴿فِيٓ﴾ نَعْيٌ على عقول مَن كفروا بالمُرسَلين والتَّسجيل عليهم والمُناداة على جَحْدهم للحقِّ مع ظُهور أدلَّته، ويقينهم بصِدْق مَن أُرسِل إليهم؛ لأنَّه يَعيشُ بيْنَهم ويَتقلَّب في أظْهُرهم، وبأنَّ المبعوث واحدٌ من أوْساطهم وذَوي المَكانة فيهم وليس مجهولًا لهم، ولا نائيًا عنهم[4].

سِرُّ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٖ﴾ دون غيرها:

مُراعاة المُناسَبة واتِّساع المعنى في لفظة (أمَّة)

لذلك فائدتان، الأولى: مُناسَبة الجمْع بعد (أُمم)، فلا يَصِحُّ (في قوم قد خلا من قبلهم أُمم)، الثّاني: لفْظة ﴿أُمَّةٖ﴾ فيها اتِّساع في المعنى، فقد يُراد بها القوم، وقد يُراد بها القَرْن؛ أيْ: في قرْنٍ من القُرون[5]، وهذا ما ليس في (قوم)؛ لأنَّ القوم نَصٌّ في جماعة الرِّجال[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.
(2) عبدالكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/119، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/237.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 161.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/16.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).

ومِمّا يُذكر في سِرِّ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ دون غيرها أنّها تَحمل البِشارة لرسول اللّه ﷺ بأنَّ هذا الدّين سَيَنتشر في العالَمين، ويكون أتْباعُه أمَّة بَدَلًا من بعض هذه القبائل الّتي تُعارِض دَعوته.

سِرُّ تنكير لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾:

التَّقليل مع الاتِّفاق الظّاهر على عقيدة الكُفر

لتَنكير لفْظة ﴿أُمَّةٍ﴾ فائدتان: الأولى: التَّقليل، فهُم أمَّة واحدة من مجموعِ أُمَمٍ كثيرة أُرسِل إليها الأنبياء والرُّسل، يُؤكِّد هذا جمعُ كلمة (الأُمَم) بعدها، فالجمع أفاد الكثرة والتَّنوُّع والتَّعدُّد، الثّانية: دلَّ المُفرَدُ على الاتِّفاق والاتِّحاد على أمْرٍ واحدٍ وهو الكُفْرُ بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾.

سِرُّ تَرْك وصْف الوسَط للأمَّة في الآية:

تقبيح أمَّة الكُفرِ، وتعظيم أمَّة العدل والوسطيَّة

لَم يذْكر وصْف الوسَط هُنا كما في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]؛ لأنّ السّياق يتحدَّث عن كُفّار قريش، أهل اللَّجاجة والصَّلف والعِناد مع ذِكرِ كُفرهم بالرَّحمن: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، فلا يُناسِبه ذِكر ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]؛ لأنَّ ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] مدح وتكريم، والتَّكريم لا يُناسِب الكافر، أمّا آية سورة البقرة فلَفظة ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] مُناسِبة أتمَّ مُناسَبة؛ لأنَّ ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] تعني مدحًا وتكريمًا لأمَّةٍ ستكون شاهدة على النّاس، والشَّهادة تقتضي العدل والوسَطيَّة بلا إفراط ولا تفْريط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: 143]، فكانت اللَّفظة مُناسِبةً في هذا السّياق.

دلالة (قَدْ) في: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾:

توبيخ الكفّار لإنكارهم ما حدث للأُمَمِ السّابقة

من سِمات (قد) في اللُّغة الدَّلالة على التَّوكيد والتَّحقيق، وجَعْل الخبَر طلَبيًّا، وتوظيفها في هذا السّياق جاء توبيخًا للكُفّار أهل العِناد، لأنّهم أُنزِلوا منزلةَ مَن يُنْكِر[1] ما حدث للأُمم السّابقة من تعذيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/264.

ودمار، كأنَّ الأخبار تُنوسيتْ فلَم يَعتبروا بها، مع كون (قد) دالَّةٌ على تقريب الزَّمن، فكأنَّ الأحداث قريبةٌ منهم يَعرفونها، وفي هذا تهديدٌ بأنَّ ما نالَ الأمَّة الخالية سيَنالهم أيضًا، فَسُنَّة المُنكِرين واحدة.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿خَلَتْ﴾ دون (مَضَت):

إبراز صورة البُعد وطول العهد مع التَّحذير من العِقاب

الفعل ﴿خَلَتْ﴾ فيه إشارة إلى بُعْدٍ وانقراضٍ، فتفسير الخُلوِّ هُنا معناه الانقراض[1]، والانقراض طولُ عهْد، وهذا معنًى أصيل في ﴿خَلَتْ﴾ وهو غير موجود في (مضت)؛ لأنَّ المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمرور، وفيه تحذير للكفّار بأنَّ مَن لَم يُؤمن سيموت مُتخَلّيا عمَّا كان من الأُنس بأهْله وقُرنائه في دُنياه، وأصله من قولهم: (خلا الرَّجل)، إذا صار بالمكان الَّذي لا أَنيس له فيه وانفرَدَ من النّاس، فاستعْمَلَ ذلك في الَّذي يموت، على ذلك الوجْه[2].

بلاغة المَجاز في: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾:

المبالَغة في التَّهديد، وبيان قُبح جزاء عدم الانتفاع بالأعمال الصّالحة

في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾ مَجازٌ عقليٌّ[3]؛ لأنَّ التَّعبير القُرآنيَّ أسندَ الخُلوَّ إلى المكان، والمقصود أهْلُه والنُّكتة هُنا المبالَغة في التَّهديد والوعيد، وفي الخبَر كناية عن الانقراض والزَّوال، وإلّا فكونها قد خلتْ مِمّا لا يحتاج إلى الإخبار به.

دلالة وصْف ﴿أُمَّةٖ﴾ بجملة ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾:

تحذير مُشركي مكّة من العذاب والفناء الَّذي نالَ الأُمم السّابقة

في الوصْف تعريض بمُشركي مكَّة، وأنَّهم إذا ما استمَرّوا في طُغيانهم، فسيُصيبهم ما أصابَ الأُمَمَ الخالية[4] بسبب حُمْقهم وغَفلتِهم وشِدَّة عنادهم، مع تحذيرهم بالفناء والزَّوال؛ عِلْمًا بأنّ نعتَ النَّكرة دالٌّ على التَّخصيص[5] وكأنّهم خُصّوا بزيادة النَّكال إن هم كفروا بعد ظُهور الأدلَّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/588.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/480.
(5) المراديّ، توضيح المقاصد: 2/947.

القُدْرة المُطلَقة على إحضار الأُمم البعيدة كأنَّها مُشاهَدة

دلالة ﴿مِن﴾:

دلَّت ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٌ﴾ على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة، والتَّوكيد[1] والاستغراق والعموم، وهذا أفاد أنَّ القوم الَّذين أُرسِل لهم الرَّسول ﷺ مَسبوقون مُباشرة بقوم قد هَلكوا، وأفادت ﴿مِن﴾ هُنا تحديد الزَّمن[2]، فهي تعني الزَّمن المُتقدِّم عليهم مُباشرة، وهذا تهديدٌ ووَعيدٌ؛ لأنَّ الزَّمن الَّذي يَسبقهم بعيد، لكن البَعيد مع الكُفر واللَّجاجة يصير قريبًا مُشاهَدًا؛ تهديدًا ووعيدًا، وفرّق بَيْنَ (قَبْل) و(مِن قَبْل)؛ إذ حَذْفُ الحرْف يَجعل الزَّمان مُحتَملًا للقُرب والبُعد[3]، أمّا ﴿مِن﴾ فتُحدِّدُ الزَّمان وكأنَّ المعنى: إذا كانت الأُمم قد خلتْ ومضَتْ من زمان سابق فإنّا قادرون على أن نَجعلهم ماثلينَ أمام أعيُنكم.

مُراعاة اللَّفظ والمعنى مع التَّركيز على القِلَّة في اللَّفظ والكثرة في المعنى

دلالة الإفراد في ﴿مِن قَبۡلِهَآ﴾ والجَمْع في: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ و﴿وَهُمۡ﴾:

أُفرد الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهَآ﴾، وجُمِعَ في قوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ و﴿وَهُمۡ﴾ مُراعاةً لِلَّفظ والمعنى[4]، فاللَّفظ: ﴿أُمَّةٍ﴾، وقد عادَ عليها الضَّمير بالإفراد، أمّا المعنى فَعَلى أنَّهم أفراد وجماعات، فعادَتِ الضَّمائر على المعنى فجُمعَتْ، فقيل: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ و﴿وَهُمۡ﴾، ولو اعْتُني باللَّفظ وحده لقيل: (قبلها)، و(وهي تكفر)، و(وعليها)، و(هي)، لكن السّياق نَوَّعَ الأسلوب لتنشيط الذِّهن وإبرازِ الحدث، فدلَّ الإفراد على القِلَّة من حيث اللَّفظ، ودلَّ المعنى على الكثرة فناسَبه الجَمْع، وفي هذا تَنويع أسلوبيّ قرآنيّ فريدٌ.

إبراز الكثرة والتَّكريم والقُدْرة والتَّحذير مع تسليَةٍ للرَّسول ﷺ

سِرُّ التَّعبير بالجمْع: ﴿أُمَمٌ﴾:

في الجمع فوائد: الأولى: الإشارة إلى التَّعدُّد والتَّنوُّع والكثرة،

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 325.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 296.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/621.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/387.

فليست الأمَّة واحدة؛ وإنَّما هُناك أُمم كُثُرٌ أُرسل إليها الأنبياء والمُرسلون؛ أيّ: "أرسلناك في أمَّة قد تقدَّمَتْها أُمم كثيرة، فهي آخِر الأُمم"[1]، الثّانية: أنّ الجمْع يُناسِب الواقع التّاريخيَّ لإرسال الأنبياء والمرسلين، الثّالثة: الإشارة إلى تكريم اللّه لِكُلِّ الأُمم؛ لأنَّ الغَرَضَ الهداية والرَّشادُ، فلا تختصُّ أُمَّة من دون أمَّة بهذا الفضل، الرّابعة: الإشارة إلى القُدْرة المُطْلَقةُ والهيمنة والتّحكُّم في شُؤون الخَلْق من قِبَل اللّه ﷻ، الخامسةُ: "تَسْلِيَته ﷺ وتَذكيرُه بالصَّبْرِ على قومه"[2]، السّادسة: تحذيرُ الكفّار وتخويفُهم، فَكَما أَوْقَعنا بأْسنا ونِقمَتَنا بأولئك، فلْيَحذر هؤلاء من حُلول النِّقَم بهم، فإنَّ تكذيبهم لك أشَدُّ من تكذيب غيرك من المُرسَلين[3].

دلالة اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ﴾:

بيان مهمّته ﷺ في بلاغ قومه

اللّام هُنا لامُ التَّعليل وقد أَلْمَحَتْ إلى أنَّ المُهِمّةَ الرَّئيسة هي تبليغ قومه ما في الكتاب العزيز من الأوامر والنَّواهي والأخبار الَّتي أَوْحاها اللّه إلى الرَّسول ﷺ، فكأنَّ علَّة الإرسال الإبلاغُ عن ربِّه ورَبْط هؤلاء بأعظَم نصٍّ، ليَنْجذِبوا نحو الحقِّ.

سِرُّ اختيار التِّلاوة دون القراءة:

التِّلاوة أعَمُّ وأشمَل من القراءة

في التَّعبير بالتِّلاوة في قوله: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ﴾ سِرٌّ، وهو أنَّ القِراءة جزء من التِّلاوة، فالتِّلاوة قراءة وزيادة؛ فهي - أي التِّلاوة - تعني التَّتبُّع والموالاة والمُتابعة مع تناسقها في اللَّفظ والمعنى، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتْبَعُ بعضهُ بعضًا[4]، فالتِّلاوة: جَعْلُ الثّاني يَلي الأوَّل بلا فصْل[5]، وهذا معنًى ليس موجودًا في القراءة، والنُّكتة الإشارة إلى مُتابعة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529.
(2) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/355.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/395.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.

النَّبيِّ ﷺ قومَه في تبليغ أوامر الله ونواهيه، وذلك من باب حِرْصه عليهم؛ لأنَّه كما وصَفه ربُّه بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التّوبة: 128].

سِرُّ التَّعبير بالمُضارِع ﴿لِّتَتۡلُوَاْ﴾:

ضرورة الاجتهاد في إيصال الدَّعوة

في تَوظيف الفعل المضارع إشارةٌ إلى ضرورة الاجتهاد ومواصَلة التِّلاوة، ليلَ نهارَ، تحفيزًا لِهمَّة الرَّسول ﷺ في إيصال مَهامِّ الدَّعوة، ففي المضارع دَوامٌ واستمرار، والقيام بما هو مُكلَّف به على الدَّوام لا الانقطاع، وفيه إلهاب وتهييج لأُمَّته بضرورة التِّلاوة والاتِّباع.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالمُضارع تعليمُ الدُّعاة في الأمَّة الصَّبرَ ومواصلة الدَّعوة في تبليغ أمر الله إلى الأمَّة؛ تأسّيا برسول الله ﷺ.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

التَّحريض على الإنصات والاستماع لِما فيه هدايتهم

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المنصوب ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ جاء من قَبيل الإبْهام في: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ ثُمَّ البيان في: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢﴾ [الشّرح: 2]، وفيه ما لا يَخفى من ترقُّب النَّفس إلى ما سيردُ، وحُسن قَبولها له عند وروده عليها[1]، ففي التَّقديم تحريضٌ على ضرورة الإنصات والاستماع لِما فيه هدايتهم.

دلالة تعدّي الفعل ﴿لِّتَتۡلُوَاْ﴾ بـ (على):

لا عُلوَّ من دون مُتابَعة القرآن الكريم

حرْف الجَرِّ (على) من مَعانيه الاستعلاء المَعْنويُّ[2]، والاستعلاء رِفْعة وعلوٌّ، وكأنَّ هذا الكلام المَتْلوَّ يَعلوهم ويَفوقهم شَرَفًا ومكانة، لِما يَحويه من إشاعة النّور والهداية للبشريَّة، وفيه إشارة إلى ضرورة أن يَرتفعوا ليصِلوا إلى مكانته ومنزلته.

سِرُّ التَّعبير بالإضمار في: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

سِرُّ التَّعبير بالإضمار في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾؛ مُراعاة المعنى،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 476.

مُراعاة المعنى، والبُعد عن التَّكرار

فالأمَّة جماعة ناس يَعقلون، فجاء بـ (هم)؛ مُراعاة للمعنى، وفِرارًا من توظيف الاسم الظّاهر ﴿أُمَّةٍ﴾ حتّى لا يكون ثَمَّ تَكرارٌ للَّفْظ ثلاث مرّات من دون نُكتة، ثُمَّ إنَّ من القواعد المُقرَّرة أنَّ تَكرار النَّكِرة يعني أنَّ الكلمة الثّانية غيرُ الأولى[1]، فلو كُرِّرتْ لفظة ﴿أُمَّةٍ﴾ لَجازَ أن يُظَنَّ أنّ (أمَّة) هُنا غير (أمَّة) هُناك، فالتَّعبير بالضَّمير لدَفْع توَهُّم غير المُراد.

سِرُّ التَّعبير عن القرآن بـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

عُلوُّ الشَّأن وكون القرآن من عند الله

السِّرُّ في ذلك وصْف القرآن بعظَمة الشَّأن في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ويُشعِرُ بهذا الوصْف ذِكر المَوصول غير جارٍ على موصوف، إضافة إلى التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾؛ لأنَّه أعرَف وأخَصُّ من (ما) الَّتي تَشترِك في المُفرَد والمُثنَّى والجمْع والمُذَكَّر والمُؤنَّث مع إبهامِها، وتُطلَق على كُلِّ شيءٍ[2]، وما ليس بِشَيءٍ[3]، فكان الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ نصًّا في الإفراد، وكونه مُختصًّا من شأنه أن يكون مَعْهودًا لدى السّامع ممّا يَدُلُّ على عُلوِّ الشَّأن[4]، مع دلالة صِلَة الموصول ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ على أنَّ القُرآن ليس من عند محمَّد ﷺ، فهو وحْيٌ من ربِّه ﷻ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لا (أنزلنا):

إفادة اتِّساع المعنى في الفعل (أوحى)

في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ توظيف للفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لاتِّساع معانيها؛ فالوحْي يُطلَق على الإشارة والكِتابَةِ والرِّسالة والإلْهام والكلام الخَفي وكلِّ ما ألقيته إلى غَيْرِكَ، وكأنَّ الوحْي إنزالٌ وزيادة، إضافة إلى ما اختَصَّ به من الخَفاء والإسرار[5]، وفي الوحْي إلماحٌ إلى تعدُّد طَرائقِ الوحْي على رسول اللّه ﷺ.

(1) العُكبَريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/137.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/228.
(3) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 2/217.
(4) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).

دلالة نون العَظَمَة في: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

إظهار التَّشريف والاهتمام وكمال العِناية

في التَّعبير بنون العظمة في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فوائد: الأولى: تربية المَهابة وإدخال الرَّوعة بإسناده إلى المولى ﷻ[1]، والثّانية: تشريف الموحى إليه وهو النبي ﷺ واستِعظام الإقدام على تكذيبه، الثّالثة: كمال العناية بالموحَى وهو القرآن الكريم، الرّابعة: الهَيمنة والقُدرة المُطلَقة للموحي وهو اللّه ﷻ، الخامسة: مُناسَبة نون العظمة هُنا لِنون العظَمة في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

دلالة تعدّي الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ بـ ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تكريمه ﷺ بانتهاء الوحْي إليه

قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، من معاني (إلى) انتهاءُ الغايَة[2]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الرَّسول هو المُنتَهَى في الوحْي، فلا رسولَ بَعده، وفي (إلى) قصْديَّة وتكريمٌ للرَّسول ﷺ بأنَّه مُستحقٌّ لهذا الإيحاء، فكأنَّ (إلى) دلَّتْ على الاختصاص أيضًا، فضَمَّت معنى اللّام.

دلالة كاف الخِطاب في قوله: ﴿إِلَيۡكَ﴾:

بيان عُلوِّ المَكانة مع الاختصاص والتَّشريف

الكاف تُشير إلى التَّكريم والتَّشريف والاختصاص، فمِثْلك يا مُحمَّد جَدير بأن يَحملَ الأمانة ويُبلِّغها بحيث تكون أنت المُنتَهى، فكاف الخِطابِ دليلٌ على عُلوِّ طبَقَته وسُموِّ رُتْبته[3] مع لذَّة الخِطاب بين الحبيب وحبيبِه.

دلالة العطْف في: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان استمرار أهل الكُفر على كفرهم وعِنادهم

جُملة ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ عطْفٌ على جُملة ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ أيْ: أرسلناك بأوْضح الهداية وهم مُستمرُّون على الكُفْرِ لَم تَدخُل الهداية قلوبَهم، فالضَّمير عائد إلى المُشركين المَفْهومينَ من المقام لا إلى أمَّة لأنَّ الأمَّة منها مؤمنون[4]، وتحتمل الواو الحاليَّة؛ أيْ: حال هؤلاء أنَّهم يَكفرون بالرَّحمن[5].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/334.
(2) المراديّ، الجَنى الدّاني، ص: 385.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/149.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/146.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/187.

سرُّ التَّعبير بالضَّمير ﴿وَهُمۡ﴾ عن الكُفّار:

تخصيص الكُفّار بالذِّكر مع كراهة التّكرار

في الضَّمير من قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، إشارة إلى قوم بأعْيُنهم وهم الكفّار، وفي الضَّمير تحديدٌ وتخصيص للكُفّار المَفهومينَ من السّياق، ولو عبّر بالاسم الظّاهر (وأمَّة تَكفُر) لكان المعنى غيْرَ دَقيق؛ لأنَّ الأمَّة فيها المؤمنون وغيرهم[1]، فكان الأدَقُّ توظيف الضَّمير ﴿وَهُمۡ﴾ لا الاسم الظّاهر ﴿أُمَّةٖ﴾، ويُضاف إلى ذلك مَلْحَظُ كراهة التَّكرار من دون فائدة (أمَّة - أُمم - أمَّة).

سِرُّ التَّعبير بالكُفر لا الشِّرك: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

التّأكيد على أنَّ حالة الكفّار هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة وجُحود النِّعمة

إيثار القُرآن للكُفر دون الشِّرك آتٍ من أنَّ الكُفْرَ ستْرٌ للنِّعمة، والسّياق هُنا سياق الجَحْدِ والإنكار وعدم الإيمان بالرِّسالة والرَّسول والقرآن، مع عِلمهم أنَّ القُرآن كلام اللّه، فكأنَّهم سَتَروا ضياء عقولهم[2] بالكُفر، أمّا الشِّرك فهو اعتراف بوجود الخالق لكنَّ معه خالقًا آخر، فتَجْعل للّه شَريكًا في رُبوبيَّته[3]، فكأنّهم يَصرفون العبادة لغير اللّه، وهذا لا يُناسِب المقام هُنا، فحالَتُهم هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة؛ فكان الفعل (كفر) أنسَبَ من (أشرك).

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان الإصرار في مُعاداة اللّه ورسوله بالاستمرار على الكُفر

الفعل المُضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ دالٌّ على تَجدُّد الكُفر واستمراره، بل والإصرار في مُعاداة اللّه ورسوله بستْرِ النِّعم حالًا بعد حال ووَقتًا بعد وقت، مع استحضار صورة كُفرهم، فكأنَّ المَرءَ يراه ماثِلًا أمام عينيْه، وهذا تصميم على العِناد والعُتوِّ والمُضي فيهما.

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

التَّعبير بالجملة الاسميَّة القائمة على الثَّبات لا الحدوث في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/146.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرك).

عَراقة أهل مكّة في الكُفْرِ بحيث صاروا معروفينَ به

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾، دالٌّ على استقرار الكُفْرِ في نفوسهم ورسوخِهم فيه، وعراقة تمسُّكهم به بحيث لا ينفكّون عنه، فهم عُنوانٌ للكُفْرِ مَوصوفونَ به، يُؤَكِّدُ ذلك أنَّ الاسم موضوعٌ للدَّلالة على ثَبات المعنى من غير أن يَقتضيَ تجدُّدَه شيئًا بعد شيءٍ، وأمّا الفعل فمَوضوعه على أنَّه يَقتضي تجدُّدَ المعنى المُثبَت به شيئًا بعد شيءٍ[1].

سِرُّ الإظهار في: ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾:

تخصيص المعنى وعـدَمُ إطلاقه لمَنْع اللَّبس

في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ نصَّ على الاسم (الرَّحۡمَٰنِ) دون الضَّمير تحديدًا وتخصيصًا للمَكفور به، فالمكفور به هو الرَّحمن، في حين أنَّ التَّعبير لو جاء بالضَّمير فقيل: (يَكفرون به) لعاد الضَّمير على ﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ وهو القرآن في قوله تعالى: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، والضَّمير يعود على أقرَب مَذكور كما يقول النُّحاة[2]، وأقرب مَذكور يُناسِب الضَّمير الهاء في (به) هو الاسم الموصول (الَّذي)، وليس هذا مقصود النَّصِّ القرآنيِّ، ومن ثَمَّ كان التَّعبير بالاسم الظّاهر (الرَّحۡمَٰنِ) دون الضَّمير (به) هو الأحْوَطَ والأنسَب لمُقتضيات المعنى.

سِرُّ تقييد كُفرِهم ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾:

إنـكـار اسم الرَّحمن إنكارٌ لصِفَة الرَّحمانيَّة في الله

ذَكَرَ علماء التّفسير عدَّة رِوايات في سبب نزول الآية الكريمة ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، واستدلّوا منها على هذا التَّقييد: فقد نُقل عن قتادَة، وابن جُريج، ومقاتِل أنَّ الآية نزلَتْ في مُشركي مكَّة لمّا رَأوا كتاب الصُّلح في الحُديبية، وقد كَتب فيه عليٌّ رضي الله عنه: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)، فقال سُهيل بن عمرو: (ما نعرِف الرَّحمن إلّا مُسيلمة)، وقيل: سَمِعَ أبو جهلٍ قولَ

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 181.
(2) الصبّان، حاشية الصبّان: 2/458.

رسول الله ﷺ: «يا الله يا رحمن»؛ فقال: (إنَّ مُحمَّدًا يَنهانا عن عبادة الآلِهة وهو يدعو إلَهيْن) فنزلَتْ[1].

ومنها ما رويَ عن الضَّحّاك، عن ابن عبّاسٍ قال: نزلَتْ في كفّار قريش حينَ قال لهم النَّبيُّ ﷺ: اسْجُدوا لِلرَّحْمنِ، فقالوا: وما الرَّحْمنُ؟ فأنزَل اللّه تعالى هذه الآية، وقال: قُلْ لهم يا محمَّد: إنّ الرَّحمن الَّذي أنكَرْتُم مَعرِفتَه ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

نكتة اختيار اسم (الرَّحمن):

إبـراز تـعـدُّد مَظاهر كُفرهم بالله وبالقرآن مع قَباحَة ذلك

في اختيار اسم الرَّحمن في قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دون اسم الجلالة (اللّه) فوائد، منها: إثبات أنَّ الرَّحمن من أسمائه الحُسنى ونُعوته العُليا، وقد كانوا يَتجافونَ هذا الاسم الكريم[2].

ومنها: الدَّلالة على أنَّ كُفرَهم بالرَّحمن تضمَّنكُفرَهم بالقُرآن ومَن أُنزِل عليه، وكان الكُفر بالمُنْعِم في غاية القَباحة[3].

ويفيد أيضًا الإشارة إلى كثرة حِلْمِهِ وطول أناته عليهم، وتقبيح حالهم في مُقابَلتهم الإحسان بالإساءة والنِّعمة بالكُفْرِ بأَوْضَح صورة، وهم يدَّعون أنَّهم أشْكَرُ النَّاس لِلإحسان وأبعَدُهم من الكُفران[4].

إضافة إلى الإشارة إلى أنَّ الإرسال ناشئٌ من الرَّحمة، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107][5]، ولِكُفرهم بالرَّحمن حُرموا هذه الرَّحمة.

السّادسة: بيان أنَّهم لَم يَشكروا نعمة هذا الوحْي الَّذي هو مَدار المَنافِعِ الدّينيَّة والدُّنيويَّة[6].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/153.
(2) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 2/458.
(3) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 10/339.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/339.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/283.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/283.

سِرُّ تقديم كُفرهم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان اللَّجاجة والتَّصميم على كُفران كُلِّ دعوة للوَحدانيَّة

مَجيءُ الآية على أصل التَّرتيب اللُّغويِّ، فعل وفاعل ومُتعلّقاتهما، في قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، حيث لَم يَقُل: (وهم بالرَّحمن يَكفرون) فيه إشارة إلى أنَّ كُفرَهم ليس واحدًا، وإنَّما الكُفْرُ متعدِّدٌ فكُفرهم بالرَّحمن يَلزمه كُفْرٌ بما أنزله من القرآن الكريم، وبمَن أرسله الرَّسول الكريم، أمّا أسلوب القصْر المُتمثِّل في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ على الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ فلا يُعطي هذا المعنى؛ وإنَّما يَقصر الكُفران على اسم الرَّحمن، وهذا ليس مُرادَ النَّصّ القرآنيِّ.

دلالة الأمر في: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾:

الإشعارُ بامتِثال رسول الله ﷺ تبليغ الدَّعوة وحِفْظِ الله له

في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ أَمْرٌ، وفي دلالته فوائد، الأولى: الإشارة إلى تنفيذ أمر اللّه بالمواجَهة الصَّريحة وتبليغ ما أُرسِل به، فَلِلوَحدانيَّة رسولٌ يَذودُ عنها بكلِّ قوَّة وشُموخ. الثّانية: التَّأكيد على إعلان نُبوَّته ورسالته ﷺ في مواجَهة إنكار المُشركين. الثّالثة: الدَّلالة على وقوف اللّه بجانب رسوله في تبليغ الدَّعوة كما قال لِموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]، فكأنَّه يقول للرَّسول: بَلِّغ الدَّعوة وأنذِر عَشيرتك من دون خَوف فنَحْنُ معك تأييدًا ونُصْرَةً.

دلالة الضّمير في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

التَّأكيد على وحدانيَّة الله وإن تعدَّدَت أسماؤه

ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ عائد إلى (الرَّحمن)؛ أيْ: "إنَّه إله واحدٌ وإن اختلَفَتْ أسماؤه"، وفيهِ الرَّدُّ على الكافرين المُنكرين لاسْم الرَّحمن، كَما أنَّ الإتيان به جاء على جهة المُبالَغة في تعظيم وصْف الرَّحمن، وفيه تشويق للنَّفس؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان مُبهَمًا فالنُّفوس مُتطلِّعة إلى فَهْمه، ولأجْل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يَكاد يَرِد إلّا في المَواضع البَليغة المُختصَّة بالفخامة[1].

(1) العلويّ، الطّراز: 2/76.

سِرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

إقراره ﷺ بربوبيّته ﷻ مع التَّعريض بالكُفّار في شِركهم

ورَدَ التَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾ دون اسم الجلالة (الله)، والسِّرُّ في ذلك الاعتماد المُطلَقُ على مَن ربّاه وتَولّى أمره وتَوْجيهه، فهو سُبحانه المُتولّي شأنَه وحاله؛ لذلك أُمِرَ ﷺ أن يقول: "إنَّه هو المُربّي لي بالإيجاد وإدرار النِّعَم، والمحسِنُ إليَّ لا غيره، لا أكفُر إحسانَه كما كفَرْتُموه أنتم"[1]؛ فلَفْظة (رَبّ) فيها مُبالَغةٌ في الوصْف[2] وإقراره بالرُّبوبيَّة تمسُّك بالعقيدة، وتصميمٌ على مُعاداة عادات الكفّار في اتِّخاذ الشَّريك، مع التَّعريض بكُفْرهم وعِنادهم، كما أنَّ الرَّبَّ سبب في وصول الرَّسول ﷺ إلى درجة الكمال؛ لأنَّ الرَّبَّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيءِ إلى كَماله شيئًا فشيئًا[3].

دلالة الإضافة إلى المُتَكلِّم ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

التَّشريف والتَّكريم لرسول الله ﷺ مع العناية به

في الإضافة إلى المُتَكلِّم من قوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ فائدتان؛ الأولى: إضافة (رَبّ) لياءِ المُتكلِّم إضافة تشريف وتكريم للرَّسول ﷺ، وهُم لا يستحقّون هذا التَّكريم والتَّشريف في موقف العِناد والمُكابرة، فالموقف موقف مواجهة ودفاع عن العقيدة ضدَّ المُنكِرين والجاحدين، ومن ثَمَّ كانت الإضافة للياء هي الأنجَع، الثّانية: إذا كان التَّعبير: (قُل هو ربّي وربُّكم)، فإنَّه لا يَحْسُنُ أن يكون تمهيدًا لِما يأتي وراءه من نَظْم، فبَعْده: (عليه توكَّلت)، ولو قال (ربُّكم) لكان التَّعبير: (عليه توكَّلوا)، أو: (توكَّلنا)، وهُم يَكفرون، فكَيف يتوكَّلون؟

دلالة التَّعبير بالجُملة الاسميَّة: ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

شِدَّة اليقين مع عظَمة جوِّ التَّربية وأمانة التَّبليغ

التَّعبير بالجملة الاسميَّة فيه فوائد، الأولى: مَنْح الموقف الاستقرار والثَّبات والثِّقة في مَوعوده ﷻ، والتَّصميم على مُجاهَدة الكفّار بهَدْم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

مُعتَقداتهم، والثّانية: أنّ بناء الجُملة على الاسم ضَمير الشَّأن ﴿هُوَ﴾ يَرسم فخامة الموقف وعظَمة جوِّ التَّربية الَّذي تَلقّاه الرَّسول ﷺ، ويُظهِر شِدَّة تعلُّقه بربِّه، الثّالثة: أمانة الرَّسول ﷺ في التَّبليغ عن ربِّه، فربُّه مَن لقَّنه التَّعبير عن الرُّبوبيَّة بهذه الطَّريقة الفَذَّة.

سِرُّ الاحتراس بقوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

التَّأكيد على الوحدانيَّة بعد الرُّبوبيَّة

في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى إبطال إشراكهم مع اللّه تعالى في الإلهيَّة غيرَه، فهو احتراسٌ لِرَدِّ قولهم: إنَّ مُحمَّدًا ﷺ يَنْهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهَيْن؛ فكان قوله: (لا إله إلّا هوَ) دالًّا على أنَّ المَدعوّ بالرَّحمن هو المَدعوّ باللّه؛ إذْ لا إله إلّا إله واحد[1].

نُكتة العُدول عن التسمية بالرّحمن:

مُناسَبة سياق الهلاك في المُلك للَفظة (الرَّحمن)، وأثَر الرُّبوبيَّة في الرَّحمة في الرَّعد

العُدول عن ذِكرِ الرَّحمن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ مع مناسَبة ذِكر الرَّحمن في الآية كما في سورة المُلك؛ للمُناسَبة وتَشاكل السّياقَيْن، ففي سورة المُلك قبْل الآية جوٌّ من الإهلاك أو توقُّعه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: 28 - 29]، فكان الألْيَق بالمَقام ذِكر صِفة الرَّحمة للخالق، فهو الَّذي يُنَجّيهم من الهلاك، إضافة إلى أنَّ كلمة الرَّحمن تَكرَّرت وصْفًا للّه في آيات عديدة، فكان ذِكْرُ الصِّفة مُتابِعًا لجوِّ الرَّحمة المُنقِذ من الإهلاك، أمّا ذِكْرُ (الرَّحمن) في سياق سورة الرَّعد فيَنْبو عنه النَّظْم؛ لأنَّه تَكرار مُخِلٌّ، "وهم يَكفرون بالرَّحمن، قُلْ هو الرَّحمن" ولا معنى مُفيدًا في هذا السّياق، فالمُناسب تأكيد قيمة الرَّحمة كأنَّ الرُّبوبيَّة سببُها؛ لذا تلاها قوله ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ فناسَب كلٌّ موضِعَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/141.

دلالة التَّعبير بجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

الجمع بين توحيدَي الرُّبوبيَّة والألوهيَّة

في جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدانيَّة مُطلَقة، فلا شريك له ولا مُنازع، أمّا ﴿هُوَ رَبِّي﴾ فالمُراد بها الرُّبوبيَّة، فقد جَمعَت الجملتان "التَّوحيدَيْن: توحيدَ الألوهيّة، وتوحيدَ الرُّبوبيّة"[1]، ولا تُغني جُملةٌ عن جملة، فلكلٍّ دَوْر في تنزيه الخالق ﷻ.

سِرُّ التَّعبير عن الوحدانيَّة بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

عدَمُ التَّكرار مع النَّصِّ على الإلهيَّة وعدمُ النَّظير

في ذلك فائدتان، الأولى: البُعد عن التَّكرار الَّذي يُثقل الأسلوب، فالتَّعبير المُحتمل (هو ربّي ربّي الواحد)، وهذا أسلوب يَنبو عنه نَظْم القرآن الكريم، والثّانية: (ربّي الواحد) جملة احتماليَّة الدَّلالة على الوحدانيَّة، أمّا جُملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنصٌّ في عدم وجود إله غير اللّه، والثّالثة: في العبارة القرآنيَّة "مَدُّ التَّعظيم في نحو: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويُسمى مَدّ المُبالَغة، وإنَّما سُمِّي مَدّ المُبالغة لأنَّه طَلَبٌ للمُبالَغة في نَفْي إلهيَّة سوى اللّه تعالى، وهذا مذهب معروفٌ عند العرَب لأنَّها تمدّ عند الدُّعاء وعند الاستغاثة وعند المُبالغَة في نفْي شيء"[2].

دلالة القصْر في جُملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ :

قصر الإلهيَّة على الله وحدَه وإزالة الشَّكِّ والإنكار

قصر الصِّفة على الموصوف في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فصِفة الألوهيَّة مقصورةٌ على ذات اللّه سبحانه قصْرًا حقيقيًّا؛ أيْ: وما إلهٌ قطُّ في الوجود إلّا إله موصوف بالوحدانيَّة لا ثاني له، وهو اللّه وحدَه لا شريك له، والغرَض هُنا تقرير الكلام وتَمْكينُه في الذِّهن لدَفْع ما فيه من إنكار أو شكٍّ[3].

دلالة جَمْعِ وصْفَي الرُّبوبيّة والوحدانيَّة:

الجمْع بين وصْفَي الرُّبوبيَّة والوحدانيَّة في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/418.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/336.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/5.

الإقرار بالوحدانيَّة والتَّمهيد للتَّوكُّل عليه

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار للوحدانيَّة ونفْيٌ لِما عسى أن يُتوَهَّم من أنَّ في الوجود إلهًا لكن لا يستحقُّ العبادة[1]، إضافة إلى أنَّ جُملة: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ نتيجة للألوهيَّة والوحدانيَّة، لأنَّه لمَّا توحَّد بالرُّبوبيَّة كان التَّوكُّل عليه، ولمَّا اتَّصف بالرَّحمانيّة كان المَتاب إليه، لأنَّ رحمانيَّته مظِنَّةٌ لقَبوله تَوبة عبدِه[2].

دلالة العدول عن التَّعبير بـ (لا إله إلّا الله):

التَّفرُّد بالألوهيَّة ومَنْع الوهْم واللَّبس

عبَّر النَّظْم الكريمُ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتَّأكيد على وحدانيَّته سبحانه، ولدَفْع تَوهُّم ما قد يكون محتملًا، فالإتيان بلفظ الجلالة (اللّه) هُنا قد يوهِمُ غير المُراد؛ وهو أنَّ هُناك إلهَيْن معبودَيْن، أوَّلهما الرَّبُّ، وثانيهما اللّه، فكان التَّعبير بالضَّمير هو المانِع من اللَّبس والتَّعدُّد.

نُكتة الاكتفاء بِذِكْرِ الوحدانيَّة:

التَّركيز على الوحدانيَّة ونَفْي تعدُّد الآلهة

في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اكتفاء بذِكر الوحدانيَّة، مع وجود بعض الصِّفات الأخرى في نحو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: 163] و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾ [آل عمران: 6] ونحو ذلك، والاكتفاء بالوحدانيَّة هُنا فيه إشارة إلى أنَّ الغرَض التَّركيزُ على التّوحيد وعدَم الشَّريك في المُلْك، ومَجيءُ صِفات أخرى في هذه الآية يُزاحِم الوحدانيَّة في هذا السّياق، وفائدة أخرى وهي أنَّ المُشركين عندما وُصِفَ اللّه بالرَّحمن قالوا: وما الرَّحمن؟ فظنّوا أنَّ للرَّسول إلَهيْن، وهذا مُحتَمل هُنا لضَعْف عقيدتهم الَّتي بَنَوْها على الشِّرك من خلال فَهمهم الخاطئ من لفظ الرَّحمن، فظنّوا وجودَ آلهة مع الإله الواحد الأحد، فاكْتَفى القرآن بِذِكْرِ الوحدانيَّة دون زيادة عليها، فكانت الوحدانيَّة مُغْنيَة عن ذِكْر وصْفٍ آخَر.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/428.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/139.

بلاغة الاعتراض في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

الاعتراض أكّد به اختصاص التّوكُّل عليه سُبحانه وتفويض الأمور عاجلًا وآجلًا إليه، ثُمَّ إذا كان وصْف الرَّحمن يُفيد المُبالَغة في الرَّحمة فقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يدلُّ على شِدَّة الانتقام من الكافرين، وهو تمهيد أيضًا لقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، ثُمَّ هو اعتراضٌ لتَوكيد ﴿هُوَ رَبِّي﴾ فظهرَتْ بلاغة الاعتراض[1].

اختصاص التَّوكُّل عليه مع بلاغة الانتقام

علاقة جُملة ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ بما قَبلَها:

الفصْل هُنا جاء بالجملة الاعتراضيَّة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى أنَّ التَّوكُّل على الله أساسُه الوحدانيَّة الحقَّةُ، فالمُتَوكِّل معتمِدٌ على قويٍّ واحد لا شريك له؛ فبيْن الجُملتيْن تلاحُم قويٌّ؛ لأنَّهما سبَب ونتيجة.

التَّوكُّل لا يكون إلّا على الواحد الأحد

بلاغة القصْر بتقديم: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ تقديم للجارِّ والمجرور، وذلك التَّقديم دالٌّ على الاختصاص[2] والقصْر، وهو قصر حقيقيٌّ لصِفةٍ على مَوصوف، فلا مُتَوَكَّلًا عليه إلّا اللّه، هو يَكفيني ويَحميني عند مُجاهدَتِكم ودَفْعكم، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: أَخُصُّك وحدَك يا اللّه بالتَّوَكُّل عليك؛ لأنَّك نِعْمَ الوكيل، وفيه رسالة للكُفّار بالاستغناء عنهم، فلا حاجة له إلى تأْييدهم؛ لأنَّهم لا يَملكون نفْعًا ولا ضَرًّا، ويُضاف إلى ذلك "المُطابقة اللَّفظيَّة في تَناسُب الآي وتشاكُلِها"[3] بمناسَبة ما بَعدها في تقدُّم الجارِّ والمَجْرور: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

قصْر التَّوكُّل على الله ﷻ والاستغناء عن نُصرة الكفّار

نكتة اختيار صِفة التَّوكُّل:

جاء النَّظْمُ الكريم بصِفة التَّوكُّل دون غيرها في قوله تعالى:

المُناسَبة اللَّفظيَّة مع الاستسلام التّامِّ للخالق

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) العلويّ، الطّراز: 2/40.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، لمناسَبتها للرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ رَبِّي﴾، فالتَّوكُّل عليه من عَطاءات الرُّبوبيَّة[1]، ويُضاف إلى ذلك ما يَحتمله لفْظ التَّوكُّل من المعاني اللُّغويَّة الَّتي تَدُلُّ على الاستسلام التّامِّ من العبد لربِّه، فهو حافظه وكافيه، وعليه الرُّكون والالتجاء إليه[2].

سِرُّ التَّعبير بالماضي لا المضارع في: ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾:

إبــــراز ثـبـات التَّوكُّل ودوامِه والـثِّـقـة بالله تعالى

في الفعل الماضي إيماءَةٌ إلى الثَّبات والاستقرار، فلا زَحْزحة ولا زَعْزعة، وهذا يُناسِبه الفعل الماضي، ثُمَّ إنَّ الفعل الماضي يَضُمُّ في جَوْفه الفعلَ المضارع الدّالَّ على دوام التَّوكُّل واستمرارِه، فمَن ثَبَتَ تَوكُّله في الزَّمن الماضي لزِمه استمرار التَّوكُّل ودوامه لِما رأى وسَيَرى من خيرات ونِعَم الرَّبِّ المُنْعِم والمُتفضِّل.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ دون ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾:

مُناسبة ضمير المُتكلِّم لسياقه مــن الإفـــراد والجمْع

جاءت الإضافةُ إلى ضمير التَّكلُّم ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ دون ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: 29]؛ لأنَّه حديثٌ عن نفْسِه لا عن جماعة مُؤمنة؛ لذا كان الإفراد، إضافة لِما يَليه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾؛ أيْ: مَتابي لا (مَتابُنا)، أمّا في سورة المُلْك فالسّياق يُناسِبه ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: 29]؛ لأنَّها تُناسِب الفعل الماضي المُسنَد إلى (نا) الفاعلينَ قَبلَها: ﴿ءَامَنَّا﴾ [الملك: 29] في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: 29]، فكان ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: 29] مُماثِلًا له في الضَّمير، وهذا من التَّشاكُل اللَّفظيِّ في نظْم الآية الكريمةِ.

سِرُّ القصْر بالتّقديم في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾:

المُـشـاكَـلـة اللَّفظيَّة وقصْر الـتَّـوبـة إلـيـه وحدَه

في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ تقديم للجارِّ والمجرور، وفي هذا التَّقديم فائدتان، الأولى: مُناسَبة المَعطوف للمعطوف عليه، فالجملة السّابقةُ عليها: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ تقدَّم فيها الجارُّ والمجرور، لذا كان من المُناسِب تقديم الجارِّ والمجرور في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، فثَمَّ مُشاكَلةٌ بيْن

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/139.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (وكل).

الجملتَيْن. الثّانية: ذلك التَّقديم دالٌّ على الاختصاص[1] والقصْر، قَصْر حقيقيّ لِصِفةٍ على مَوصوف، فلا مَتاب إلّا إلى اللّه، هو وحدَه مَن نَتوب إليه ونستغفرُه؛ لأنَّه المعبودُ بحقٍّ، وله الحساب وحده، وله الثَّواب والعِقاب لا شريك له.

المَتاب أخَصُّ من المرجِع

سِرُّ اختيار ﴿مَتَابِ﴾ دون (المَرجِع):

المَتاب في القرآن أخَصُّ من المرجع، فالمَرْجِعُ يكون لكلِّ إنسان سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا؛ ففيه عموم، ودليل ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: 55] للمؤمن والكافر، وكذا: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨﴾ [المائدة: 48]، أمّا المَتاب فإنَّه يَختصُّ بالمؤمنين كما هُنا، وفي الآية الحاديَة والسَّبعين من سورة الفُرقان: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الفرقان: 71]، وكلاهما دالٌّ على انتهاء المَقْصدِ، لكن المَتاب فيه رجوعٌ مع تَوبة، أمّا المرجِع فلا يشترط فيه توبة.

الانتهاء والمَصير إليه ﷻ

دلالة تعدّي ﴿مَتَابِ﴾ بحرْف الجَرِّ (إلى):

في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، تَضمَّن ﴿مَتَابِ﴾ معنى الرُّجوع إلى ما يأمر اللّه به فعُدّي المَتاب بحرْف الجَرِّ (إلى)[2]، إضافة إلى ذلك فحرْف الجَرِّ (إلى) يَدُلُّ على انتهاء الغاية المكانيَّة والزَّمانيَّة، بمعنى أنَّ المَصير إلى اللّه، فهو المُنتهى والمَرْجِعُ؛ فكان المُناسِب حرْفَ الجَرِّ (إلى).

في المصدر الميميّ فضل مبالَغة غير موجودة في الصَّريح

سِرُّ التَّعبير بالمصْدَر الميميّ ﴿مَتَابِ﴾:

سِرُّ التَّعبير بالمصْدر الميميّ ﴿مَتَابِ﴾ أنَّ المَتاب فيه فضْل مُبالَغة ليست في التَّوبة[3]، والمُبالَغة آتيَةٌ من الفرْق بين المَتاب والتَّوبة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.

فالمتاب؛ أيْ: التَّوبة التّامَّة، وهو الجمع بين تَرْك القبيح وتَحرّي الجميل، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾[1] فكان المَتاب توبةً وزيادة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَتَابِ﴾ دون (مَتابي):

التَّخفيف اللَّفظيُّ مع التَّناسُب في نهايات الآيات

أوثِرَ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَتَابِ﴾ دون (متابى) من باب التَّخفيف، ذلك أنَّ أصل ﴿مَتَابِ﴾: مَتابي - بإضافة ياء المتكلِّم - فحُذفَت الياء تخفيفًا وأُبقيَت الكسرة دليلًا على المحذوف[2]، ويُضاف إلى ذلك ملاحظَة التَّناسُب بين نهاية الآية ﴿مَتَابِ﴾، ونهاية الآية الَّتي تَليها ﴿عِقَابِ﴾ بحذْف الياء هي الأخرى.

دلالة الأمر بشهادة التَّوكُّل والتَّوبة في الآية:

فضل التَّوبة، وأهميَّة الإقلاع عن الذَّنب مع أهميَّة السَّعي لتبليغ الدَّعوة

أمرت الآية الكريمة النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام بإظهار حال التَّوكُّل والتَّوبة في قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، وفي هذا الأمر فوائد[3]، الأولى: إبانةٌ لفضل التَّوبة ومِقْدارِها عند الله تعالى وأنَّها صِفَةُ الأنبياء. الثّانية: بَعْثٌ للكَفَرة على الرُّجوع عمّا هُم عليه بأبْلَغ وجْه وألْطَفِه، فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أُمِر بها وهو مَعصومٌ مُنزَّهٌ عن شائبة اقتراف ما يُوجبها من الذَّنب، فتَوْبتهم وهم عاكفون على أنواع الكُفر والمعاصي ممّا لا بُدَّ منه أصْلًا، الثّالثة: بيان قيمة التَّوكُّل والاستسلام للخالق سُبحانه، الرّابعة: في الأمر بالتَّوكُّل إبرازٌ لقيمَة السَّعي والعمل للدَّعوة مع اتِّخاذ الأسباب لذلك.

سِرُّ الاكتفاء بـ ﴿مَتَابِ﴾ دون (متابكم):

رعاية الفاصِلة مع لُزوم (متابكم) لـ (متاب)

في الاكتفاء بقوله: ﴿مَتَابِ﴾ أسرارٌ لفظيَّة ودلاليَّة، أوَّلًا: عَدَمُ ذِكْرِ (متابكم) للمُحافظة على نهايات الآيات كما سَبَق في ﴿مَـَٔابِ﴾ وفيما يَأْتي في ﴿عِقَابِ﴾، ثانيًا: الكلام دالٌّ عليه التِزامًا، فإذا ذُكِر

---

(1) الرَّاغب، المُفردات: (توب).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

﴿مَتَابِ﴾ فإنَّ لازِمه (متابكم)[1]، ثالثًا: المَتاب عودة مع تَوبة، وتوبة الكُفّار المُجادِلين عن كُفرهم غير ظاهرة.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرسال بعثٌ بتُؤَدَة، والبعث فيه معنى الإثارة

الإرسال فيه بعث بِتؤَدَة، وفي الفعل معاني اليُسر والسُّهولة والرِّفق[2]، أمّا (بعثَ) ففيها معنى الإثارة[3] والقوَّة، إضافة إلى أنَّ (انبعث) مُطاوِع (أرسل)[4]، فكأنَّ البعْث إحياءٌ نتيجة الإرسال العظيم الفخْم.

الأمَّة والقوم:

القوم جماعة بينهم رابِطٌ من لُغةٍ أو جِنس والأُمَّة أعَمُّ

القوم: الجماعة، فقوم كلِّ أحَدٍ رهْطُه الَّذين جماعَتهُم واحدة ويَتكلَّمون بلُغة واحدة، وقوم كُلِّ رسول أُمَّتُه المَبعوث إليهم، إذ كان الرُّسل يُبعَثون إلى أقوامهم، وقوم محمَّدٍ ﷺ هُمُ العَرَب، وأمّا أُمَّتُه فهُم الأقوام المَبعوث إليهم وهُم النّاس كافَّةً.

(خلَتْ) و(مضَتْ):

المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمُرور، والخلُوُّ فيه إشارة إلى البُعد والانقراض

الفعل ﴿خَلَتْ﴾ فيه إشارة إلى بُعدٍ وانقراضٍ[5]، وهذا معنًى أصيل في ﴿خَلَتْ﴾، وهو غير موجود في (مضت)؛ لأنّ المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمُرور، وفي ﴿خَلَتْ﴾ تحذير للكُفّار بأنَّ مَن لَم يُؤمن سيَموت مُتخلّيا عمّا كان فيه من الأُنْسِ بأهله وقُرنائه في دُنياه، وأصْله من قولهم: (خلا الرَّجُلُ)، إذا صار بالمكان الّذي لا أنيس له فيه، وانفرَد من النَّاس. فاستعْمَلَ ذلك في الَّذي يموت، على ذلك الوجْه[6].

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/238.
(2) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/96.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/588.

التِّلاوة والقراءة:

القراءة جُزء من التِّلاوة، والتِّلاوة قراءة وزيادة

أصل التِّلاوة إتْباعُ الشّيءِ الشّيءَ، يُقال: تَلاه إذا تَبِعه، وتكون التِّلاوة في الكلمات يتْبعُ بعضها بعضًا؛ أمّا القراءة فأصلُها الجمْع، تقول: (قرأتُ الكتاب قراءةً)؛ أيْ: (جمعْتهُ) وضَمَمتُ بعضَهُ إلى بعض، والتِّلاوة في كتاب الله اختُصَّتْ بالتَّدبُّر والتَّفَكُّر لِما فيها، أمّا القراءة فتأتي لمُطلَق التَّلفُّظ[1].

وعلى ذلك فالقراءة جُزء من التِّلاوة الّتي هي قراءة وزيادة؛ فهي - أيِ التِّلاوة - تعني التَّتبُّع والموالاة والمُتابَعة مع تناسُقها في اللَّفظ والمعنى، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتْبعُ بعضهُ بعضًا[2]، فالتِّلاوة: جعْلُ الثّاني يَلي الأوَّل بلا فَصْلٍ[3]، وهذا معنًى ليس موجودًا في القراءة؛ لأنَّ القراءة ضَمُّ الحُروف والكلمات بعضها إلى بعض في التَّرتيل[4].

(1) الدُّوريّ، دقائق الفروق اللُّغويَّة، ص: 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.
(4) الرّاغب، المفردات: (قرأ).

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ [الرّعد: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ تعظيم الوحي بعد ذِكرِ عِلَّة إرسال الرّسول ﷺ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة عِلَّة إرساله ﷺ بقوله تعالى: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ذَكَرَ في هذه الآية تَعظيم هذا الوحْي وأثَرَ هذه العظَمة القرآنيَّة في تَسْيير الجبال وتقطيع الأرض وتَكليم الموْتى، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾.

ومن المُناسبة أنَّه سُبحانه لمّا بَيّن لهُم في الآيات السّابقة عظيمَ ما أودعَ في السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما من الآياتِ، وبَسَطَ ذلك وأوضَحه، أردَفَ ذلك بآيةٍ أخرى جامعةٍ للآياتِ؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ فكان ما جاء قَبْلًا تمهيدًا للآية(1).

ومن المُناسَبة أيضًا في سياق السّورة ذاتها: أنَّ هذه الآيةَ ترتبط بما قبلَها ارتباطَ التَّفصيلِ والإجمالِ والتَّدليل على كذبهم وادّعائهم، فقد طَلَب الكفّارُ آيةً خارقةً تنزل على الرَّسول الكريم ﷺ تقودهم إلى الإيمان، لأنَّهم قلِقونَ، غيرُ مطمئنّين، وهذا واضحٌ من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرّعد: 27]، فتأتي الآيةُ مكذِّبةً لزَعمهم، مُفَصِّلةً، قائلةً: لو كان من شأن أيِّ قرآنٍ أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/139.

تسيَّرَ به الجبالُ أو تُقطَّع به الأرضُ، أو يُكلَّم به الموتى، لكان في هذا القرآنِ، لكنَّكم أهلُ لَجاجةٍ وكُفرٍ لن تؤمنوا بما جاء به الرَّسولُ ﷺ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُيِّرَتْ﴾: السّين والياء والرّاء أَصْلٌ يَدُلُّ على مُضيٍ وجَرَيانٍ، والمعنى المِحوريُّ امتدادٌ طوليٌّ مُطَّردٌ مع دقَّةٍ ما، والانتقال من مكان إلى مكان وامتداد وانتشار من هذا إلى ذاك، ومن السَّيْر: الذَّهاب: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 11]، والتَّسْيير ضرْبان: أحدُهما بالأمْر والاختيار والإرادة من السّائر، نحْو: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ [يونس: 22]، والثّاني بالقَهْر والتَّسخير، كتَسخير الجبال[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التَّكوير: 3]، ومعنى التّسْيير في الآية النَّقْلُ عن أماكنِها[2].

2) ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: الجَبَل وتِدٌ مِنْ أَوْتاد الأرض إذا عَظُم وطالَ مِنَ الأَعْلام والأطْواد، جَمْعُهُ: أَجْبال وجِبال وأَجْبُلٌ، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النَّبأ: 6-7]، واستُعيرَ منه واشتُقَّ بحَسَبه، فقيل: فلانٌ جبَلٌ لا يَتَزحْزح؛ تَصوُّرًا لَمعنى الثَّبات فيه، والمَقصودُ بالجِبال هُنا جِبالُ مكَّة، والشّام[3].

3) ﴿قُطِّعَتْ﴾: القَطْعُ: فَصْل الشَّيء مُدْرَكًا بالبَصَر كالأجْسام، أو مُدْرَكًا بالبَصيرَةِ كالأشياء المَعقولة، يُقال: قَطَعْتُ الشَّيْءَ قَطْعًا، وقَطَعْتُ النَّهر قُطوعًا: عَبَرْتُه، وقَطَعَ ماءُ الرَّكِيَّة قُطوعًا وقِطاعًا؛ أيْ: انْقَطَعَ وذهَبَ، والقافُ والطّاءُ والعيْنُ أصلٌ صَحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ عَلى صَرْم وإبانةِ شَيءٍ مِنْ شَيءٍ، يُقالُ: قَطعْتُ الشَّيْءَ، أَقْطعُه قَطعًا، والمعنى هُنا شُقِّقَتْ فجُعِلَتْ أنهارًا وعيونًا، ويُراد بـ ﴿قُطِّعَتْ﴾ أيضًا تَبْعيد القَريب أو تَقْريب البَعيد[4].

4) ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾: اليَأْسُ: القُنوطُ، وقَطْعُ الأمَلِ، وقيلَ: اليَأْس نَقيضُ الرَّجاءِ، واليأْس: انتِفاءُ الطَّمَعِ، وقد يَئِسَ من الشّيْءِ يَيْأس، وفيه لُغة أخرى: يَئِسَ يَيْئِسُ، بالكَسْرِ فيهما، عَلى يَفْعَلُ ويَفْعِلُ، واليَأْس: العِلْمُ، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أيْ: أفَلَم يَعْلَموا[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سار).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سير).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/531.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (يئس).

5) ﴿يَزَالُ﴾: زال، ويُقالُ: زالَ الشَّيْءُ: إذا تُرِك عَن مَكانِه ولَم يَبْرَحْه؛ ويُقالُ: ما زالَ يَفعل كَذا وكَذا، ولا يَزال يَفعَل كَذا، كَقوْلِك: ما بَرِح، وما فَتِئَ، وما انْفَكَّ، ومُضارِعُه: لا يزال، ولا يُتكلَّم بِهِ إلّا بحرْفِ نَفيٍ، قالَ ابْن كيْسان: "لَيس يُراد بـ (ما زالَ) و(لا يَزالُ) الْفِعْل من (زالَ يَزولُ) إذا انْصَرف من حالٍ إلى حالٍ، وزالَ من مَكانِه، ولَكِن يُراد بهما مُلازَمَةُ الشَّيْءِ، والحالُ الدّائمَة"[1].

وقولهم: ما زالَ، ولا يَزالُ خُصَّ بالعبارة وأُجْريَ مجرى (كان) في رَفْع الاسم ونَصْبِ الخبَر، وأصْلُه من الياء (زَيَّلت) ومعناه: معنى ما بَرِحت[2].

6) ﴿تُصِيبُهُم﴾: أصابَ يَصوبُ صَوْبًا؛ إذا نَزَلَ، وأصابَ: نالَ، والإصابة: المُوافَقَة، وأصْل ذلِك من قَوْلهم: صابَ السَّهْم، وأصاب جاء في الخَير والشَّرِّ، والإصابة في الخيْر اعتبارًا بالصَّوْب؛ أيْ: بالمَطَرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهْم[3].

7) ﴿صَنَعُواْ﴾: الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل وحِذقُه، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فِعل صُنْعًا، ولا يُنسَب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسَب إليها الفِعْل، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [النّمل: 88]، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38]، وقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 37][4].

8) ﴿قَارِعَةٌ﴾: (قرع)، مُعْظَم الباب: ضَرْبُ الشَّيءِ، يُقال: قَرَعْتُ الشَّيءَ أَقْرَعُهُ: ضَرَبْتُه، والقارِعة: الشَّديدة من شدائدِ الدَّهْر، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقْرَعُ النَّاس؛ أيْ: تَضْرِبهم بشِدَّتها، والقارِعة: القيامة، لأنَّها تَضْرِب وتُصيب النَّاس بإقراعها[5].

9) ﴿تَحُلُّ﴾: "حَلَّ بالمكان وحَلَّه (يَحلُّه) بِضَمِّ الحاء وكَسْرِها حُلولًا: نَزَلَ"، فهو من حَلّ المُسافِرِ عُقَدَ أحْمالِه ليَنزِل بالمكان، ثُمّ جُرِّد استعمالُه للنّزول وهو نَقيض الارتِحالِ، والحَلُّ: الحُلولُ والنُّزول[6].

10) ﴿دَارِهِمْ﴾: الدّارُ: المَحَلّ الَّذي يَجمَع البناءَ والسّاحة، والمنزلُ المَسكون الَّذي يُحيط

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زيل).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (زال).
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (صوب).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرع).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب المفردات: (حلل).

بساكِنيهِ، وكلُّ مَوْضعٍ حَلَّ به قوم فهو دارُهم، وكلّ موضعِ حُلولٍ له حَرَم يُحيط به وإن لَم يَكُن جدارًا، قالَ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، وقال: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء: 5]، وكلُّ ما جاء في القرآن بلَفْظ (دار) أو (ديار) مُضافًا فهو من دورِ هذه الدُّنيا[1].

11) ﴿لَا يُخْلِفُ﴾: الإخلافُ أن لا يَفيَ بالعَهْد، وأن يَعِدَ الرَّجلُ الرَّجلَ العِدّة فلا يُنجِزها، ورجل مُخلِفٌ؛ أي: كثير الإخلاف لوَعْدِه، والإخلاف: أن يَطلبَ الرَّجل الحاجَة أو الماءَ فلا يَجِد ما طَلَب، ويُقال: للَّذي لا يَكاد يَفي إذا وَعَد: إنَّه لمِخْلافٌ[2].

12) ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: أصْله من الوَعْد، والميعاد لا يكون إلّا وَقتًا أو مَوْضِعًا، والوَعْد مصْدَر حقيقيٌّ، والعِدَةُ: اسمٌ يوضَعُ مَوْضع المَصْدر، وكذلك المَوْعِدة، قال اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التّوبة: 114][3].

المَعْنى الإجْماليّ:

بيان عظَمة القرآن وبعض مَظاهر إعجازه

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية عظَمة القرآن بَعدما بيَّن ما صرَّفه للنّاس من حُجَج وبراهين، بأنَّه لو كان ثَمَّ كتابٌ من الكُتب السَّماويَّة تُزال به الجبالُ عن أماكنها، أو تُشقّق به الأرض فتَسْتحيل أنهارًا وعيونًا، أو يُقرأ على الموتى فيَصيروا من الأحياء؛ لكان في هذا القرآن من الخصائص والمُؤَثِّرات، ما تَتمُّ معه هذه الخوارقُ والمعجزاتُ، ثُمّ أبانَ القرآن أنَّ اللّه تعالى قادِرٌ على الإتيان بما اقتَرَحوه، لكنَّه لَم يُرِدْ ذلك، ثُمَّ أتبَع ذلك بالتَّيْئيس، فكان على المؤمنين أن يَعلَموا أنَّ هؤلاء لن يؤمنوا لاستكبارهم وعُتوِّهم، ومشيئة اللّه هي النّافِذة في إيمان مَن يُؤمن وكُفر مَن يكفر، ثُمَّ كان التَّهديد بالابتلاءات والقَوارِع الَّتي تُصيبهم، أو تَنزِلُ قريبة منهم،

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وعد).

وبعد الابتلاءات والقوارِع، كانت التَّسليَة لرَسول اللّه ﷺ بأنَّ النَّصر آتٍ لا مَحالة بفَتْح مكَّة وعذابِهم وغير ذلك من أنواع النَّصر، فهذا موعود اللّه تعالى ولا مِريَة فيه، واللّه ﷻ لا يَترُك إنجازَ ما وعَدَ عندما يَحين وقتُه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾:

بيان أنَّ رسالته ﷺ ليست بِدَعًا من رِسالات الرُّسل عليهم السلام

جاءت الواو هُنا لرَبْط أوْصال قِصَّة تحدّي الكفّار للرَّسول ﷺ؛ لأنَّ الواو لمُطلَق الجمْع[2] في القصَّة، والعطْف بالواو جاء على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾؛ لأنّ المقصود من الجُملة المعطوف عليها أنَّ رسالته لَم تَكُن إلّا مثل رسالة غيره من الرُّسل عليهم السَّلام.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَلَوۡ﴾ دون غيرها:

بيان أنَّ القرآن كتاب هداية ورَشاد

الحرف (لو) في عُرف النُّحاة حرْف يُفيد امْتِناع الجواب لامتِناع الشَّرْط، وقد آثَرَ القرآن تَوْظيف ﴿وَلَوۡ﴾ لبيان أنَّه كتاب هداية ورشاد لا كتاب مُعْجزات حسّية؛ أيْ إنَّ أيّ كتابٍ لو اشتمَل على المُعجزات الحِسّية من تَسْيير الجبال وغيرها، لَكان القرآنُ الكتابَ الأجدرَ بهذه المُعجزات، لكن هذا لا يكون.

علاقة ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ بـ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾:

التَّفسير بَعد الإبهام ببيان مَطالِبهم المتَعدِّدة

تعلَّقت جملة ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ بقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 27]، عن طريق التَّتْميم؛ فتكون جملة ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ تَتِمّة للجواب عن قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 27]،

---

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3739، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/145 وما بعدها.

(2) المراديّ، توضيح المقاصد: 1/132.

وتَظهر العَلاقة أيضًا من التَّعريف بعد الإبهام، ذلك أنَّ آية: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 27] عامّة غيرُ مُحَدَّدة، فجاءت آية ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ لتُحَدِّدَ مَطالِبَهم المُتعدِّدة وتُعرِّفها فيكون أوْقَعَ في النَّفس، لِما اشتمل عليه من التَّفسير بعد الإبهام، والنَّفس لِمِثْله أشْوَق، ولِما فيه من الإجمال والتّفصيل، فيكون أبْلَغ دلالة وأوْكَد[1].

نُكتة التَّعبير بالقُرآن: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾:

بيان عُلوِّ شأن القرآن ورِفعتِه وشُموله واتّساعِه

يكمن سِرُّ تسميَة هذا الكتاب قُرآنًا من بيْن كُتُبِ اللّه لكونه جامعًا لثَمرة كُتُبِه، بل لِجمْعه ثمرة جميع العُلوم، لذا كان التَّعبير عن الكُتُبِ السّابقة بالقرآن[2]، وبعبارة أخرى فهو يَضمُّ كمالاتِ غيره من الكُتُبِ[3]، وفي هذا بيانٌ لعُلوِّ شأن القرآن ورِفْعته وشُموله واتّساعه بحيث ضَمَّ ما حَوَتْه الكتبُ السّابقة عليه من ثمرات العُلوم والمعارف.

دلالة التَّنكير وتَنوينه: ﴿قُرۡءَانٗا﴾:

بيان عظَمة القرآن وكونه غاية في التَّذكير، ونهاية في الإنذار والتَّخويف

جاء لفظ ﴿قُرۡءَانٗا﴾ مُنكَّرًا للتَّعظيم، فتعظيم هذا المُوحَى وأنَّه لو كان ثَمَّ قُرآنًا تُسيَّر به الجبال عن مقارِّها، أو تُقطَّع به الأرض حتّى تَتزايَل قِطَعًا قطعًا، أو تُكلَّم به الموتى فتَسمَع وتُجيب، لكان هذا القرآن؛ لكونه غايةً في التَّذكير، ونهايةً في الإنذار والتَّخويف[4].

سِرُّ حذْف جواب ﴿وَلَوۡ﴾:

إفادة العموم والشُّمول

الحذْف من شجاعة العربيَّة[5]، وحذْف جواب (لو) في القرآن شائع مُستفيض[6]، وحذْف الجواب أبلَغُ من ذِكْرِه، لأنَّ النَّفس تذهب كلَّ مَذْهب في القصْد من الجواب، فهو شيء لا يحيط به الوصْف،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/74.
(2) الرّاغب، المفردات: (قرأ).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/318.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/155.
(5) ابن جنّي، الخصائص: 2/362.
(6) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/353.

فلا يتصوّر مطلوبًا أو مكروهًا إلّا ويجوز أن يكون الأمرُ أعظمَ منه، وهو مَبنيٌّ على عِلْم المُخاطَب، وتخفيفٌ من ذِكر ما لا فائدة منه، ولو عُيِّن شيءٌ اقتُصر عليه لَخَفَّ أمرُه[1]، بمعنى أنَّ التَّعبيرَ يكون قاصرًا عن إدراك الحقيقة، وقد قَدَّره العُلماء بـ: (لكان هذا القرآن)، أو (ما آمنوا)، وحذْف جواب ﴿وَلَوۡ﴾ في الآية الكريمة دالٌّ على أنَّ القرآن الكريم في غاية ما يكون من الصِّحَّة، فاكتفى بمعرفة السّامعين من مُرادِه[2].

سِرُّ تخصيص الأمور الثَّلاثة في الآية:

تعنُّت كفّار مكَّة بطلَب هذه الخوارق

يظهر سِرُّ التَّخصيص في قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أنَّ هذه الأشياء الثَّلاثة من بين الخوارق المفروضة هي الَّتي سأل عنها الكفّار، ذلك أنَّ كفّار قريش، أبا جهل وابن أبي أُميَّة وغيرَهما جَلَسوا خلْف الكعبة، ثُمَّ أرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: (لو وَسّعْت لنا جبال مكّة فسيّرْتها حتّى تتّسع أرضُنا فنحترثَها فإنَّها ضيّقة، أو: قرِّب إلينا الشَّام فإنّا نتَّجِر إليها، أو: أخرج قُصيًّا نكلّمه). ويؤيِّد هذه الرِّواية أنَّه تكرَّر فرْض تكليم الموتى في سورة الأنعام: ﴿۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [سورة الأنعام: 111][3]. فكان في ذِكْرِ هذه الأشياء إشارة إلى تهكُّمهم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿سُيِّرَتۡ﴾ دون غيره:

بيان حركة التّسيير والاستمرار فيها، وكونها موازية لحركة الجبال يوم القيامة

التَّعبير بالفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ دون (زُحزحت) أو (حُرِّكت) في قوله: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ له كبيرُ دلالةٍ؛ لأنَّ أصل الفعل (السّين والياء والرّاء)، وهي أصول تَدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ، يُقال: سارَ

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/188.
(2) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 11/203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/143.

يَسيرُ سَيْرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا[1]، فالفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ فيه مُضِيٌّ وجريانٌ واستمرارٌ.

وثَمَّ سِرٌّ آخَرُ يتعلَّق بأحداث يوم القيامة، وتخصيص الفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾؛ فالجبال ستُسَيَّر يوم القيامة لتكون سرابًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾ [النّبأ: 20]، فإذا كان ذلك كائنًا يوم القيامة؛ فالقُرآن قادرٌ على أن يُحدِثَ ذلك في الدُّنيا لو كان كتابَ معجزاتٍ حِسّية لكن لن يكون؛ لأنّه كتاب هُدًى ونورٍ، وهذه المعاني لا تتأتّى من (زُحزحت) أو (حُرِّكت)؛ لأنَّ أوْصاف الجبال في يوم القيامة لا تتأتّى إلّا من التَّسْيير.

دلالة التَّعبير بالمبنيّ للمَفعول: ﴿سُيِّرَتۡ﴾:

التَّركيز على الحدَث (تَسْيير الجبال)، بصرف النَّظر عن مُحدِثه

في البناء للمَفعول تركيز للاهتمام بالحدث، بصرْف النَّظر عن مُحدِثِه[2]، وفي هذا إشارة إلى تركيزهم على حاجتهم في إحداث مَطلوبهم: (تَسْيير الجبال)، دون النَّظر إلى المُحدِث، وفيه إيجازٌ، وتمهيدٌ للمَطلوبات التّالية.

دلالة التّعبير بحرف الجرِّ في ﴿بِهِ﴾:

الإشارة إلى قوَّة التَّسيير والمُضِيّ

دلَّ التَّعبير بـ (الباء) دون الظَّرْف (مع) في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ على قوّة التّسيير والمُضيِّ؛ لأنَّ الباء للسَّببيَّة، فدلَّت الباء على قوَّة القرآن، ومُحاولة الكُفّار تَعجيز الرَّسول ﷺ، و(مع) لا تُفيد هذا المعنى، قُصاراها الدَّلالة على المَعيَّة، فإذا سُيِّرت الجبالُ معه فلا تأثير له فيها، ومن ثَمَّ كانت (الباء) هُنا هي الأكثر مُناسَبةً للإعجاز.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾:

الاهتمام بذِكْر المُقَدَّم (قرآنًا)، والتَّركيز على عمَله

التّقديم هُنا للاهتمام[3] بذِكرِ المُقدَّم ﴿قُرۡءَانٗا﴾، والتَّركيز على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(2) عائشة عبد الرّحمن، التَّفسير البيانيّ للقرآن الكريم: 1/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.

عمله؛ وهو تَسيير الجبال؛ لأنَّ المعنى في حرْف الجَرِّ هو السَّببيَّة، والسَّببيَّة فيها اتِّصاق كبيرٌ بالحدَث فكان معنى الحرْف وتقدُّمه عاملَيْن مُهمّيْن في الاهتمام والاختصاص.

سِرُّ التَّعبير بالجمْع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾:

الدَّلالة على الكثرة والتَّعدُّد وبيان أنَّ الجمْع هو الأوفَق بمُرادات النّصِّ والتَّركيب

سرّ التّعبير بالجمْع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ دون المفرَد له ثلاث فوائد، الأولى: الجمْع دالٌّ على الكثرة والتَّعدُّد، الثّانية: المُفرَد هُنا (الجبَل) لو قيل به لَدلَّ على عهْد ذهنيٍّ بجبَل بعَيْنه، والقرآن لا يَقصد جبلًا بعيْنه؛ وإنَّما يقصد أيَّ جبل، الثّالثة: التّناسُب الحاصل بين الجمْع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ والتَّشديد في الفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾، فالتَّشديد دالٌّ على التَّكثير، والتّكثير يُقابل الجمع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾؛ فكان الجمْع هو الأوْفق هنا بمُرادات النّصِّ والتَّركيب.

دلالة ترتيب الأمور الثَّلاثة في الآية:

الأسبقيَّة في الزَّمن سِرُّ ترتيب هذه الأشياء الثَّلاثة الواردة في الآية

يَتعلَّق سِرُّ التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ بفوائد؛ الأولى: حكاية كلامِهم، فقد بَدَؤوا بتَسْيير الجبال، ثُمَّ تَقْطيع الأرض، ثُمَّ تَكْليم الموتى، فعَرَض القرآن مقالتهم كما هي من دون تغيير أو تبديل، الثّانية: يتعلَّق بالزَّمن والتّاريخ، فقد قال الكفّار فيما قيل من أسباب النُّزول: سَيِّر لنا الجبال كما سُيِّرَتْ لداود (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، واقطَع لنا الأرض كما قُطِّعت لسليمان (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وكلِّم لنا الموتى، كما كان عيسى يُكلِّمهم، فنزلت هذه الآية[1]، فداود أسبَقُ من سليمان ومعه تَسيير الجبال، وبعده سليمان ومعه تقْطيع الأرض، وأخيرًا عيسى ومعجزتُه تكْليم الموتى، فكان التَّرتيب الزَّمنيُّ عاملًا رئيسًا في ترتيب هذه الأشياء الثَّلاثة الواردة في الآية دون تقديم أحَدها على الآخَر، الثّالثة: تَسيير الجبال أقرَبُ وأعجَبُ لعِظَم جِرْمها وكونها جَمادًا لا يَقبل الاتِّصاف

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3739.

بصِفَة الحيوان، والسَّيْر من صِفة الحيوان، ولَم يَقع ذلك فيها بوجْه، ثُمَّ يَليه تقطيع الأرض لكثرة وقوعه، ويَليه تكليم الموتى؛ لأنَّه قد وَقَع لعيسى عليه السلام وغيره[1].

وممّا يُذكر أيضًا في سِرِّ التَّرتيب أنَّ تَسْيير الجبال له أهمّية في حياتهم نظرًا لطبيعة مكَّة الجبليَّة؛ فَقُدِّم لأهمّيته، وأمّا تقطيع الأرض وتكليم الموتى فهو من باب تعنُّتِهم ولَجاجهم في الإعراض عن دعوة الرَّسول ﷺ.

دلالة ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾:

تَنوُّع مَطالبهم بين مُشاهَد وغائب

جاء التَّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ لأنَّها تَدُلُّ على منْع الخُلوِّ لا لمَنْع الجمْع، ولها معانٍ عِدَّة منها: الدَّلالة على التَّفصيل والتَّقسيم والتَّفريق المُجرَّد[2]، فدلَّ هذا على كثرة مَطلوباتهم وتنوُّعِها بين مُشاهَدٍ (تسيير الجبال، وتَشْقيق الأرض) وغائبٍ (تكليم الموتى)، وتدلُّ ﴿أَوۡ﴾ على تأخُّرهم في السُّؤال لطَرْح مَطلوبات إعجازيَّة يَصعب تحقُّقها في الواقع المُشاهَد.

دلالة التَّعبير عن التَّشْقيق بـ ﴿قُطِّعَتۡ﴾:

إرادتهم رؤية التَّقطيع أمام أعْيُنهم

جاء الفعل المُتعلِّق بالأرض ﴿قُطِّعَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾؛ لأنَّ التَّقطيع فصْل الشَّيْء عن الشَّيْء مُدْرَكًا بالأبصار أو مُدْرَكًا بالبصيرة[3]؛ فكأنَّهم يُريدون أن يَروا بأعيُنِهم عمليَّة التَّقطيع والتَّشقيق مع دلالة التَّشديد في الفعل ﴿قُطِّعَتۡ﴾ على كثرة التَّقطيع وتَتابُعِه، بخِلاف التَّشقُّق فقد يكون ظاهرًا وقد يكون غير ظاهِر، وأيضًا لأنَّ التَّقطيع يَسبِقه التَّشقُّق؛ فَكُلُّ تقطيع يَشمَل التَّشقُّق لذا عُبِّرَ به.

معنى الباء في: ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾:

الباء هُنا دالَّة على معنى السَّببيَّة؛ والمعنى: قُطِّعت بسببَه الأرضُ،

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 228، وابن هشام، أوضح المسالك: 3/341.

(3) الرّاغب، المفردات: (قطع).

بيان التِصاق التَّقطيع بالأرض وبيان سَبَبِه

وتَحتمل الإلصاق بمعنى أنَّ التَّقطيعَ مُلتَصِق تَمامًا بالأرض، مُختلِط بها، والإلصاق أو الإلزاق بتعبير سيبويْه[1] هو المعنى الرَّئيس للباء، فما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله، وكِلا المَعنيَيْن مُراد في هذا السّياق، فالباء دالَّة على قوَّة العمل وشِدَّته.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

بيان التَّركيز على العمل والتَّناسُب بين ثلاثة المَطلوبات

التَّقديم هُنا للاهتمام بِذِكْرِ المُقدَّم وهو القرآن، والتَّركيز على عمله وهو تقطيع الأرض؛ لأنَّ المعنى في الجارِّ هو السَّببيَّة أو الإلصاق، إضافة إلى المُناسبة بين ثلاثة الأشياء: (تسْيير الجبال، وتقْطيع الأرض، وتكْليم الموتى) في تقديم الجارِّ والمجرور على نائب الفاعل دوْمًا (الجبال، الأرض، الموتى)، ثُمَّ في تقديم الجارِّ والمجرور إبهام، وكان الإفهام بَعْد الإبهام أوْقَعَ في النَّفس[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

إفادة العَهْديَّة والجِنسيَّة

نوع (أل) في كلِمة ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ عهْديَّة؛ فهُم يُريدون أرضَ مكَّة أو أرض الشّام[3] كما في أسباب النُّزول، وإذا جازَ أن تكون (أل) جنسيَّة، فأرضهم هي كلُّ الأرض، فلا أرض إلّا هي؛ كرامةً ومَهابة لها، وعادة القرآن أن يأْتيَ بالأرض مُفرَدةً دوْمًا في كلّ آياته؛ لأنَّ المُفرَد أخَفُّ وزنًا ونُطْقًا من الجمْعيْن: (الأراضي) أو (الأراضين).

فائدة ذِكْرِ التّقطيع بعد التّسيير:

بيان قوَّة التَّأثير والتَّأثُّر بين الأرض والجبال

هذا من قبيل عطْف العامِّ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ على الخاصِّ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، وهو من المعاني الّتي أثبَتَها النُّحاة[4] للواو، وذلك لبيان أنَّ الأرض هي سبب وجود الجبال، فلولا الأرض ما كانت جبال، والجبال هي سببَُ ثَبات الأرض، فالجبال كالأوْتاد بالنِّسبة للأرض كما قال تعالى:

(1) الكتاب، سيبويه: 4/217.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/183.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/447.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 466.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النّبأ: 7]، فالعلاقة بينهما تأثير وتأثُّر، كلٌّ يفيد الآخَر، فإذا كان العامُّ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ سببًا لعمل ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، فالخاصُّ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ أهمُّ جُزء من أجزاء الأرض؛ لأنَّ بالجبال الثَّباتَ والقوَّةَ.

دلالة اختيار ﴿أَوۡ﴾:

بيان كثرة المطلوبات وتعدُّد القائلين

تَدلُّ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ على التَّفصيل والتَّفريق[1]، فدلَّ هذا على كثرة مَطلوباتهم، وفي ﴿أَوۡ﴾ الدّالَّة على التَّفصيل معنًى سياقيٌّ وهو جواز تعدُّد القائلين في المسألة؛ فبعضهم قال بتَسيير الجبال، وبعضٌ آخَر قال بتشْقيق الأرض، وبعضٌ ثالثٌ قال بتَكْليم الموتى، فجمَعَ القرآن كُلَّ هذه الأقوال، ونظمَها في سِلك واحد بتَوظيف ﴿أَوۡ﴾ في السّياق، إضافة إلى التَّناسُق بين تَوظيف الحرْف ﴿أَوۡ﴾ مع سابِقه بالعطْف بين تقطيع الأرض، وتسيير الجبال ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾ دون (أحيا):

التَّكليم فيه إحياء وزيادة

إيثار التَّعبير بقوله: ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾ دون (أحيا) يُشير إلى أنَّ التَّكليم إحياء وزيادة، فيُمكِن الإحياء من دون تكليم، وهذا يعني أنَّ التَّكليم فيه فضلُ قوَّة وقُدْرة على الإحياء، فيُستطاعُ الإحياءُ، ولا يُستطاع التَّكليم، فتضمَّن ﴿كُلِّمَ﴾ معنى الإحياء؛ لأنَّه لازِمُه، أمّا الإحياء فلا يتضمَّن الكلام، فعبَّر القرآن عن الموتى بالتَّكليم لا الإحياء.

سِرُّ بناء الفِعْل لِما لَم يُسمّ فاعلُه ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾:

الاهتمام بالحدث بِصَرْفِ النَّظر عن مُحدِثه

البناء للمفعول تركيز للاهتمام بالحدَث، بصرْف النَّظر عن مُحدِثه، وفي هذا إشارة إلى تركيزهم على إحداث مَطلوبهم: (تكليم الموتى)، دون النَّظر إلى المُحدِث، وفيه إيجاز، إضافة إلى مُناسَبة البناء للمَفعول مع المَطلوبيْن الأوَّلَيْن، فالمطلوب الأوَّل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ ببناء

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/173.

الفعل لِما لَم يُسمَّ فاعله، والمطلوب الثّاني: ﴿قُطِّعَتۡ﴾، فجاء المطلوب الثّالث مُناسِبًا للمطلوبَيْن السّابقيْن عليه.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

التّناسُب بين المُتعاطِفات والاهتمام بالتَّكليم

تقديم الجارِّ والمجرور للاهتمام بعمليَّة التَّكليم، إضافة لِما في التَّقديم من مُناسَبة بين المطلوبات الثَّلاثة، فَكُلُّ جارٍّ ومجرور ﴿بِهِ﴾ جاء مُتقدِّمًا على نائب الفاعل، وهذا من التَّناسُب بين المُتعاطِفات، وفي التَّقديم تشويق لِما بَعده حتّى تَنتظره النَّفس بشَوق وشغَف كالشَّوق للمتأخِّر، فيتمكَّن عند وُروده عليها أفضَلَ تمكُّن.

وممّا يُذكر أيضًا أنَّه قُدِّم الجارُّ والمجرور لقصْد الإبهام ثُمَّ التَّفسير لزيادة التَّقرير[1].

فائدة إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

كون لفظة الموتى دالَّة على مَن مات حقيقةً بسَلبٍ للحياة ونَزْعٍ للرّوح

في إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في هذا السّياق ثلاثُ فوائد، الأولى: قُدْرة القرآن على تكليم كلِّ المَوْتى مَن قَرُبَ موتُه ومَن بَعُد إنْ فعل ذلك؛ فلفظة ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فيها طول زمن الموت، وإغراق في الفناء، فلَم يبْق منها أثر[2]، ذلك أنَّ الكُفّار قالوا للنَّبيِّ ﷺ أحْيِ لنا آباءَنا وأجدادنا وفلانًا وفلانًا؛ فنزلَتِ الآية[3]، الثّانية: أنَّ (المَوْتى) جَمْعُ كثرة، مُقارنَة بـ (الأموات) الَّذي يُعَدُّ جمعَ قِلَّةٍ بوزن (أفعال)[4]، فالقرآن يستطيع أن يُكلِّم كُلَّ الموتى لا الأموات فقط، فالأموات بعض الموتى فكانت لفظة (الموتى) ضامَّةً للأموات وزيادة، الثّالثة: الموتى نصٌّ في مَن ماتوا حقيقةً، وقد وردَتْ سبْعَ عشرةَ مرَّة في القرآن بمعنى الموت الحقيقيِّ، أمّا الأموات فتُستخدم لِمَن ماتوا حقيقة،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.
(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 160.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.
(4) العُكبَريّ، اللُّباب في علل البناء والإعراب: 1/321.

وكذا للموت المَعنويِّ بكُفرهم[1]، فكان المُناسِب هُنا توظيف ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ لا (الأموات)؛ لأنّهم يريدون نصًّا مَن مات حقيقة.

وفي التّعبير بـ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ مُبالَغة أكثر ممّا في (الأموات)؛ لأنَّ هذا الجمع (أموات) يأتي مُقابِلًا مع لفظ (أحياء)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: 154]، والآيات في هذا المقام عديدة، أمّا ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ فلَم يَرِد في هذا التَّقابُل.

نكتة التَّذكير في: ﴿كُلِّمَ﴾ بعد ﴿سُيِّرَتۡ﴾ و﴿قُطِّعَتۡ﴾:

تغليب المُذكَّر على المُؤنَّث

من قواعد النَّحو المقرَّرة أنَّ الفاعل إذا كان جمْع تَكسير، فإنَّه يجوز فيه إثبات التّاء وحذْفُها[2]، والوجْه هُنا في حذْف التّاء من هذا الفعل مع إثباتها في الفعلَين قَبلَه على أنَّ الموتى يَشتمل على المُذَكَّر الحقيقيِّ والتَّغليب له؛ فكان حذْف التّاء أحسَنَ[3].

وجْه ارتباط المقتَرحات الثّلاثة بالقرآن:

محاولة المُشركين المُستَميتة للتَّشكيك في القرآن الكريم

في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ ارتبطَتْ هذه المطلوبات بالقرآن دون الرَّسول ﷺ للمحاولة المُستميتة للتَّشكيك في القرآن الكريم؛ لأنَّ الكُفّار يَعلمون عِلْمَ اليقين أنَّ القرآن معجزة الرَّسول الكُبرى فكأنَّهم يقولون: نحن لا نُصدِّقك ولا نُصدّق ما أتَيْت به، فالقرآن في زعمهم كان مبنيًّا على عدم اشتمالِه على الخوارق، فنيطَ ظهورُها به؛ مُبالَغةً في بيان اشتمالِه عليها، وأنَّه حقيقٌ بأن يكون مصْدرًا لكلِّ خارقٍ، وإبانةً لرَكاكة رأيهم في شأنه الرَّفيع، كأنَّه قيل لو أنَّ ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتَضيات الحِكمة لكان مُظهرُها هذا القرآنَ الَّذي

(1) فاضل السَّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 115.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 2/100.
(3) العُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن، ص: 759.

لَم يَعدّوه آية، وفيه من تفخيم شأنه العزيزِ ووَصفهم بركاكة العقل ما لا يَخفى[1].

دلالة تكليم ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ في سورتي الأنعام والرّعد:

التّناسب بين تركيب الآيتَيْن

إيثار التَّعبير بالمبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ مُناسب لِما قبْله ﴿سُيِّرَتۡ﴾ و﴿قُطِّعَتۡ﴾، كما أنَّ فيه تركيزًا على الحدث الحاصل وهو عمل التَّكليم، أمّا في سورة الأنعام؛ فالسّياق كُلُّه مبنيٌّ على الفعل المبنيِّ للمعلوم ﴿نَزَّلۡنَآ﴾ [الأنعام: 111]، ﴿وَكَلَّمَهُمُ﴾ [الأنعام: 111]، ﴿وَحَشَرۡنَا﴾ [الأنعام: 111]، يقول تعالى: ﴿۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام: 111]، ثُمَّ في آية الأنعام كان التَّركيز كذلك على مُحدِث الفعل بدلالة الضَّمائر الموجودة في الأفعال (نا) الفاعلينَ، والفاعل الظّاهر ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأنعام: 111] فناسَبَ كُلُّ فعل سياقَه، وسابِقَه ولاحِقَه.

علاقة ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ بما قبلَها:

بيان أنَّ قُدرة الله لا يُعجزها شيء وأنَّ إظهار المعجزات تابِع لِعِلْمه وحِكْمته

يتعلَّق قوله سبحانه ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ بما قبْله بعلاقة الإضراب عن طريق (بل)، وهو إضراب عن مَطالبهم المُتَعنِّتة إلى بيان أنَّ الأمور كُلَّها بيَدِ الله، وأنَّ قُدْرَته سُبحانه لا يُعجِزها شيء، فلله القُدْرة على كُلِّ شيء، وهو قادر على الآيات الَّتي اقترحوها، إلّا أنَّ عِلْمَهُ بأنَّ إظهارها لا يَزيدهم إلّا طُغيانًا كَبيرًا يمنعه[2] لنُفورِهم عن الحقِّ وتَمَسُّكهم بباطلهم.

التَّعبير بـ ﴿بَل﴾ في: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ دون غيره:

تَرْك الأمر بالكلّيّة لله تعالى

سرُّ التَّعبير بـ ﴿بَل﴾ إضراب على جهة الإبطال، والانتقال إلى موضوع آخَر وهو تَرْك الأمر بالكلّيّة للّه تعالى، فهو تنبيه على انتهاء

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/530.

غرَض، واستئناف غيرِه[1]، وعدَمُ وجود (بل) هُنا يُفكِّك أوْصال التَّركيب ويَقطع الرّابط بين الكلام، فلا يكون التَّركيب صحيحًا إلّا بوجود حرْف الإضراب (بل).

المقارنة بين تعبيرين:

تعدُّد المَطالب وكثرتها حيث جاءت (جميعًا)

وذلك في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ وفي قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154]، حيث آثر التَّعبير القرآنيِّ هنا الحالَ ﴿جَمِيعًاۗ﴾ لأنَّه حيث ذكرَ الجميع ذكرَ جهات متعدِّدة[2]، ومَطالِب شتَّى من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، أمّا مَوْضع سورة آل عمران ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154]، فالأمر لا يَتخلله مَطالبُ شتَّى، وإنَّما قُصِدَ بالأمر النَّصْر على الأعداء وهزيمتِهم، ثُمَّ إنَّ التَّوكيد المعنويَّ ﴿كُلَّهُۥ﴾ [آل عمران: 154] يَقطع تفكير بعض المنافقين بأنَّ لهم بعضَ الأمر، فَسَدَّ الطّريق على تفكيرهم بالتَّوكيد ﴿كُلَّهُۥ﴾ [آل عمران: 154].

دلالة تقديم لفظ ﴿لِّلَّهِ﴾ على ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

قَصْرُ الأمر على الله وحده لا شريك له فيه

تقدُّم الخبَر شِبْهِ الجُملة ﴿لِّلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ إشارةٌ إلى الاختصاص والتَّملُّك، ورَمزٌ إلى التَّخصيص والحَصْر[3] بأنَّ الأمر للّه وحده لا شريك له فيه؛ فدلَّ التَّقديم على القُدْرة المُطلَقة، والعظَمة الحَقَّة، وفي الحصْر تعريضٌ[4] بالكُفّار وآلهتِهم الَّتي لا تَملِك شيئًا.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ دون غيره:

بيان أنّ الأشياء كلّها بأمر الله تعالى

لمّا كان الحدث عظيمًا، وفيه صراع بين الحَقِّ والباطل، وثَمَّ أخْذٌ ورَدٌّ بين طائفة المُشركين، والرَّسول ﷺ، وظَّفَ التَّعبير القرآنيُّ لفظة

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 236.
(2) فاضل السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.
(3) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 146.
(4) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 67.

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ الدّالَّة على عِظَم المَوقِف وقوَّته، إضافة إلى سَعَةِ معناها وتعدُّد مَشاربها، فالأمر يَدُلُّ على وجوه: الأمر؛ أي: القضاء، كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]؛ ويعني: يَقضي القضاء، وكَقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]؛ أيْ: القضاء، والأمر: الدّينُ، كقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 93]، وأصل هذا كلّه واحدٌ، لأنَّ الأشياء كلَّها بأمر اللّه تعالى، فسُمّيت الأشياء أمورًا[1].

فائدة إفراد ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ دون الجمع:

وحـدة الـشَّيء وعدَمُ تعدُّده مع القوَّة والهَيمنة

لُفرَدَة ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ سِرٌّ مَكين، وفيها فائدتان: أولاهما: وحدة الشَّيء وعدَم تعدُّده[2]، فالمَوقف هُنا واحد؛ لذا يُناسِبه الإفراد دون الجمع، وسبب النُّزول شيء رئيسٌ في الفَهم والتَّفسير، والسَّببُ تحدّي الكفّار للرَّسول، فالمَوقف واحدٌ، أمّا الجمع (الأمور) فلا يُناسِب الموقف، ثانيتُهما: أنَّ الأمر هُنا جاء على الإفراد؛ إلْماحًا إلى قوَّة الهَيمنة والسَّيطرة من المُهيمن؛ فصارت كُلُّ الأمور بسبب قُدْرته وعظَمته أمرًا واحدًا.

سِرُّ الاكتفاء بالأمر في: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

مُراعاة السّياق فـي كُـلٍّ من السّورتَيْن

آثَرَ التَّعبير القُرآنيُّ هُنا توظيف لفظة ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ فقط دون (الخلْق)؛ لأنَّه لا خَلْق هُنا، فالآية مبنيَّة على أسلوب الشَّرط ﴿وَلَوۡ﴾ الَّذي يعني الامتناع، أمّا قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54] فزيادةُ لفظة ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ [الأعراف: 54] تُناسِب السّياق حقَّ المُناسَبة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، فالمُتبادر أنَّ الآية واضحَةُ المَعالِم في الخلْق:

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/465.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7340.

خَلْق السَّماوات والأرض، واللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر والنُّجوم فناسَب كُلَّ تعبير مَوقِفه وسياقَهُ، فزادَ لفظة ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ [الأعراف: 54] حينَ كان السّياق مَشحونًا بعمليَّة الخلْق، واكتفى بالأمر وحدَه في الرَّعد حيث لا خَلْق ولا إيجادَ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿جَمِيعًاۗ﴾:

مُراعاةً لتَعدُّد الجِهات والمَطالِب

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ الحالَ ﴿جَمِيعًاۗ﴾ لأنَّه حيث ذكرَ الجميع ذكرَ جِهات متعدِّدة[1]، ومَطالِب شتَّى من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، وهذا لا يدلُّ عليه التَّوكيد المعنويُّ (كُلّه)، وفي الكلمة تأكيد لاستغراق كُلِّ أمرٍ[2]، ثُمَّ كان توظيف ﴿جَمِيعًاۗ﴾ أيضًا دالًّا على تعدُّد الرِّسالات والمعجزات، فكلُّ أمرِ تلك الرِّسالات إنَّما صَدَرَ عن الحَقِّ سُبحانه؛ وهو الَّذي اختار كُلَّ مُعجِزة لتُناسِبَ القوم الَّذين يَنزل فيهم الرَّسول[3].

بلاغة أسلوب الحَكيم في الجواب:

ضرورة الاهتمام بما هو أوْلى

في قوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ توظيفٌ لأسلوب الحكيم، وفيه إشارة إلى أنَّ الإيمان بالله وما أنزل أوْلى من اللَّجاجة ومُحاولة العِناد من دون فائدة مَرجوَّة، فللّه أمر كلِّ مُحَدَثٍ، فهو الَّذي أنزل الكتاب، وهو الَّذي يخلُقُ العجائب إن شاء، وليس ذلك للنّبيِّ ﷺ ولا عند سؤالِكم، فأمرَ الله نبيَّه بأن يقول هذا الكلام؛ إجراءً لكلامهم على خِلاف مُرادِهم على طريقة أسلوب الحكيم، لأنَّهم ما أرادوا بما قالوه إلّا التَّهكُّم، فحمل كلامهُم على خِلاف مُرادهم؛ تَنبيهًا على أنَّ الأوْلَى بهم أن يَنظروا هل كان في الكُتُب السّابقة قرآن يَتأتَّى به مثل ما سألوه[4].

---

(1) فاضل السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/144.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/144.

دلالة الاستفهام في: ﴿أَفَلَمۡ﴾:

مِنَ الحالِ يُعرَفُ المآلُ

جاء الاستفهام في الآية الكريمة حاملًا علامات الإنكار[1] لطَمَع المؤمنين في إيمان الكفّار، والمعنى: أفلَم ييْئَسِ الَّذين آمنوا من إيمان الكفّار من قريش، وذلك أنَّهم لمّا سألوا هذه الآيات طَمِعوا في إيمانهم، وطَلَبوا نزولَ هذه الآيات ليؤمِنَ الكفّارُ، وعَلِم اللّٰه أنَّهم لا يؤمنون، فقال: أفلَم ييْئَسوا من إيمانهم، ويُراد من الاستفهام التَّقريرُ، ويُراد به أخْذ اعتراف المؤمنين باليأس من إيمان هؤلاء المشركين، وقَطْع الرَّجاء في أنْ يكونوا يومًا من المؤمنين.

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ﴾:

شِدَّة تَعَلُّق آمال المؤمنين بإسلام هؤلاء الكفّار

الفاء الواقِعَةُ بعد الهمزة حرْف عطْف[2]، ومن ثَمَّ فالمعطوف يُقَدَّر على حسب السّياق، وتقديره هُنا "أغَفلَوا عن كون الأمر جميعًا للّٰه تعالى فَلَم يَعلموا؟"[3]، والفاء دالَّة على شِدَّة تعلُّق آمال المؤمنين بإسلام هؤلاء الكُفّار وسُرعة ذلك بعد تحقيق مَطالِبهم على الرَّغم من عِلْم المؤمنين بعِناد الكفّار ولَجاجتِهم.

سرُّ التَّعبير بـ (لَم) دون (لا) في: ﴿أَفَلَمۡ﴾:

زَجْر المؤمنين لعدَمِ يأسهم من إيمان الكفّار

آثَرَ القرآن الكريم تَوظيف (لَم) لأنَّها أداةُ جَزْم وقلْبٍ، تَقلِب زمن المُضارع إلى الماضي[4]، وكأنَّ التَّعبير: أما يَئِسْتُم منهم؟ فهُناك شواهِدُ تَدعوكم إلى اليأس من إيمانهم. أمّا التَّعبير بـ (لا) فلا يَمنح التَّركيب القرآنيَّ هذا المعنى وهذا الزَّمن، وكان المؤمنون يَودّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كي يَخِفَّ الجهْد عن

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(2) وفيه أقوال أخرى كأن تكون الفاء استئنافيّة، أو زائدة، والزّيادة لا تكون في القرآن البتّة، أو هي الفصيحة الَّتي أفصحتْ عن شرط مقدَّر، وابن جرير، جامع البيان: 2/399، ومحمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3951.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(4) الأشمونيّ، شرح الأشمونيّ على ابن مالك: 1/317.

الفِئة المُسلِمة؛ فلا يضطهدوهم، ولا يضايقوهم في أرزاقهم ولا في عيالهم[1].

بلاغة المَجاز في إطلاق لفظ اليأْس:

بيان رغبة المؤمنين في إسلام الكفّار مع اليأْس منهم

إيثار ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ هُنا آتٍ من حُسْنِ المُلازَمة في إطلاق لفظ اليأس، والمُراد به العِلم، مع الاستفهام والنَّفي لرَغبة المؤمنين في إسلام هؤلاء مع بُلوغهم العِلم في كون هؤلاء مَيْئوسًا من إيمانهم، والمُلازَمة توجب حُسن المَجاز، فلهذا السّبب حسُن إطلاقُ لفظ اليأس لإرادة العِلْم بطَريق المَجاز المُرسَل بعلاقة اللُّزوم[2].

نُكتة اصطفاء ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ دون (يَقنط):

اليأس أمرٌ قلبيٌّ والقنوط ظُهور آثارِه على ظاهر البدَن

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ الفعل ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ دون (يَقنط) على الرَّغم من تقارُب المعنى بينهما، وذلك لفائدتَيْن، أمّا الأولى فهي التَّوسُّع في المعنى، ذلك أنَّ ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ تَحتمل العِلم[3]، وتَحتمل قطْع الرَّجاء، أمّا (يَقنط) فلا تَحتمل إلّا معنًى واحدًا، وهو قَطْعُ الرَّجاء، أمّا الفائدة الثّانية فهُناك فرْق بين اليأس والقُنوط، فاليَأس مَنبَعُه القلب، والقُنوط ظُهور آثارِه على ظاهر البدَن[4]، وهؤلاء مؤمنون لا يَليق بهم القُنوط؛ فلا يَقنط إلّا الضّالّون.

سرّ التّعبير بالمضارِع ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾:

الإيذان باستمرار الأمل عند المؤمنين في إيمان الكفّار

عبَّر النَّظْم الكريمُ بالفعل المُضارع للإيذان باستمرار الأمل في إيمان الكفّار، فالأمر ظَلَّ مُلازِمًا للمؤمنين بإسلام الكفّار؛ حتّى يَعيش الجميع في إسلام وسلام، فكان التَّفكير في الأمر مرَّة تِلْوَ مرَّة، لا يتوقَّف ولا يَتزحزح، فالفعل المُضارع فعل مُخَضَّبٌ بأمل

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7441.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/42.

(3) جاء في البرهان للزّركشيّ: 1/109: "وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنْ يَأْسٍ فَهُوَ الْقُنُوطُ إِلَّا الَّتِي فِي الرَّعْدِ: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أَيْ: أَلَمْ يَعْلَمُوا". وربما يكون الفعل ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ من الأضداد، لأنّه أفاد العِلم وأفاد عدَم العِلم أيضًا بانقِطاع الرّجاء.

(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.

الإيمان ورجائِه، وفي هذا دليلٌ على سماحة المؤمنين وحِرْصهم على إيمان هؤلاء الكفّار.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (المؤمنون):

ثَبات ذلك الإيمان في نُفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطَبائعهم

إيثار القرآن للاسم الموصول أو الاسم النّاقص ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صِلَته - والصِّلَة هي المُبَيِّنة والمُكمِّلة - فيه إيماءَة إلى ثَبات ذلك الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم، فالجُملة المَوصوليَّة أفادَتِ المَدْح والتَّقريظَ، إضافة إلى ذلك، فالاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمان ماضٍ مُحدَّد، عكْس اسم الفاعل الَّذي لا يدلُّ على زمان محدَّد، "وفي لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ - بناءً على أنَّه موصول، ومن شأْنِ الموصول أن يكون معهودًا نُصْبَ العَيْن للسّامع - إشارةٌ إلى عُلوِّ شأنهم وتَلألُؤهم في ظُلُمات البشَر، كأنَّهم مَعهودون نُصْب العيْن لكلِّ سامِع وإن لَم يَتحرَّ ولَم يَطْلب"[1].

دلالة ﴿أَن﴾ المخفَّفة:

التَّأكيد على جَواز أن يكون (يَيأس) بمعنى يَعلم

دلالة ﴿أَن﴾ المُخفَّفة في قوله: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ التَّحقيق والتَّأكيدُ، فيجِب أن تُسبَق بعِلم[2]، ووَجَب أن يكون الفعل الَّذي تُبنى عليه مُطابِقًا لها في المعنى، بأن يكون من أفعال العِلم واليقين ونحْوِهما، وهذا يُقوّي معنى العِلم في الفعل ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ فإنَّ ﴿أَن﴾ هُنا سُبِقت بما يدلُّ على العِلم وهو ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾؛ أيْ: مِن إيمان جميع الخَلْق ويَعلموا أو يَتبيَّنوا ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾[3].

(1) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.
(2) الحازميّ، فتح ربّ البريّة في شرح نظم الآجرّوميّة، ص: 263.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/461، جاء في المفردات للرّاغب: "ومتى قويَ (الظّن) أو تُصوِّر تَصوُّرَ القويِّ استُعمل معه (أنّ) المشدّدة، و(أن) المخفّفة منها"، ص: 539.

دلالة ﴿لَّوۡ﴾:

الـحِـكـمـة الـعـظـيـمـة في كُـلِّ مـا يَـتـعـلَّـق بـأمـور الـهـدايـة والضَّلالة

لهذا الحرْف دلالةُ القُدْرة المُطلَقة، والحِكمة العظيمة في كلِّ ما يتعلَّق بأمور الهداية والضَّلالة؛ لأنَّ الحرْف يدلُّ (على امتناع تالٍ يَلزَم لثُبوته ثبوتُ تاليه)[1]؛ ويؤدي في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ معنى: (لو شاء الله هداية كلِّ النّاس لَهداهم، لكنَّه جعل ذلك وفْقَ حُكمِه وحِكْمته)، وكذا فـ"التَّصريح بلفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارة الى دَعوة الأذهان إلى رؤية يَدِ القُدْرة خَلْفَ كلِّ الأسباب"[2].

سرُّ التَّعبير بالمَشيئة دون الإرادة:

قوَّة الدَّلالة على أنَّ كُفرهم كان باختيارهم

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ لفظة ﴿يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ المَشيئة لا تكون إلّا مع اختيار؛ لذا لا يُقال إلّا للعالِم أو المُتفكِّر، أمّا الإرادة فتَختصُّ بالعُقلاء وغيرهم؛ فتُستَعمل في الجمادات، قال تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77][3] والجملة قويَّة الدَّلالة على أنَّ كُفرهم كان باختيارهم[4].

دلالة إسناد المَشيئة إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

تـربـيـة الـمَـهـابـة فـي الـنُّـفـوس وإدخال العظَمة في القلوب

آثَرَ القرآنُ لفظةَ ﴿ٱللَّهُ﴾ الاسم الأعظَمَ؛ لتربية المَهابة في النُّفوس، وإدخال التَّعظيم في القلوب؛ فاللَّفظ أدْعى للقوَّة والجَبَروت، إضافة إلى أنَّ اسم الجلالة يدلُّ على القُدْرة التّامَّة الشّاملة الَّتي هي لازِمة للأُلوهيَّة[5] ولا يُؤدّي لفظ (الرَّبّ) هذا المعنى؛ لأنَّ فيه معنى التَّربية والحُنوِّ والشَّفقة المُستفادة من (الرَّبِّ) والمَوقف هُنا يَستدعي الصَّرامة في مواجهة هؤلاء الكفّار الَّذين يَلْتذّون بالكُفر، ويَستشْرِفون آفاقَ الطُّغيان واللَّجاجة، فكان الاسم الأعظم هو الأنسَبَ للسّياق، إضافةً لذلك فكلمة (الرَّبّ)

---

(1) المراديّ، توضيح المقاصد والمسالك: 3/1297.
(2) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 145.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب، ص: 152.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/543.
(5) النّورسيّ، إشارات الإعجاز، ص: 145.

لَم تَرِد في القرآن مُعرَّفة بالألف واللّام ألبتة، وإنّما جاءت معرَّفة بالإضافة فحسب[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهَدَى﴾:

القُدْرة المُطلَقة على الهداية والرّشاد

وقوع اللّام في جواب ﴿لَّوْ﴾ يُقوّي الجُملة ويُؤكّدها ويُزيل أدْنى شَكٍّ في نفس المُتلقّي، فاللّام هُنا دالَّةٌ على القُدْرة المُطلَقة على الهداية والرَّشاد، فهو وحدَه المُتحكِّم في الأمر، يَحكم ما يُريد بعِزَّته وقُدْرته، عِلْمًا بأن جواب ﴿لَّوْ﴾ يجوز أن يَقترن باللّام، وهو الأكثر، وتَرْك اللّام في الجواب قليل[2]، فجاءت الآية على الأكثر لا الأقلّ.

سِرُّ حذْف مفعول ﴿يَشَآءُ﴾:

الدّلالة على الاختصار والإيجاز

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ حَذْفَ المفعول، لدلالة جواب الشَّرْطِ عليه[3]، فجواب الشَّرْط ﴿لَهَدَى﴾، وهذا يعني أنَّ المفعول المحذوف تقديره (يشاء الهدايةَ)، ويَدخل في ذلك قيمة الاختصار والإيجاز[4] في العبارة، وفيه إيماءٌ إلى عدم تأثُّر المَشيئة والإرادة الإلهيَّة بأحوال الكائنات وعدم تأثير الأشياء في الصِّفات الإلهيَّة كما تتأثَّر إرادة البشَر بِحُسْنِ الأشياء وقُبحِها وعظَمتها وصِغرها[5].

لطيفة التَّعبير بـ ﴿لَهَدَى﴾ دون غيرها:

التّنبيه على أنَّ المَقام مقامُ لَجاجة وضلال

عبَّر النَّظم الكريمُ هُنا بالفعل ﴿لَهَدَى﴾؛ لأنَّ المَقام مقامُ لَجاجة وضلال، واستِعْذاب كُفْرٍ، فناسَب ذلك الضَّلالَ ضدُّه، وهو الهداية بلفظة (هدى)، فلفظة (هدى) تُبيِّن قُبْح الضَّلال وتُعرّيه من كلِّ خير، ومن ثَمَّ كان الأنسَبُ هُنا لفظة (هدى)، إضافة إلى أنّ لفظة (هدى) هي ثمرة الدَّعوة ولُبُّها، فكان التَّعبير بها في هذا السّياق هو الأَوْلى.

(1) د السيّد خضر، التّشكيل الجماليّ في النّظم القرآنيّ، ص: 104.
(2) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/422.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 2/156.
(4) القزوينيّ، الإيضاح: 2/159.
(5) النّورسيّ، إشارات الإعجاز، ص: 145.

دلالة التَّعبير بالماضي: ﴿لَهَدَى﴾:

ثبات الهداية وتأكيد القُدْرة على إحداثها حسب الإرادة الحَكيمة

لمّا كانت الهداية بيَدِ اللّه، فهو يهدي مَن يشاء ويُضِلُّ مَن يشاء، ناسَب ذلك أنْ يكون جواب الشَّرْط فعلًا ماضيًا مُقترِنًا باللّام؛ لبيان السَّيطرة والهيمنة، فكأنَّ الهداية حادثةٌ وقتما يُريد، وساعةَ يَشاء، لكنّ هؤلاء لَم يكونوا أهلًا لذلك، فلَم يهدهم مع قُدْرته على ذلك، يُؤكِّد هذا أنَّ الفعل الماضيَ جاء تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له[1].

دلالة التَّعبير عن (الكفّار) بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

أهمِّيَّة إسلام كُفّار مكَّة لأنَّ إسلامهم نَواةٌ حقيقيَّة لنُصرة الدّين

في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ العِبرة ليست بخُصوص اللّفظ بل بعُموم السّبب، فليست الهداية مقصورةً على كفّار قريش وحدهم، وإنّما هي للنّاس كافّة، ثُمّ إنّ التّعبير هكذا قد يجري مجرى المثَل، فيُنْطق وحدَه من دون سياق؛ فيُقال في معرض الكلام: (ولو يشاء اللّه لَهدى النّاس جميعًا)، وذلك التَّعبير من باب المَجاز المُرْسَلِ صاحَب علاقة الكلّية، حيث ذَكر الكُلَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وأراد الجُزء (كفّار مكَّة)، وعِلّة ذلك أنَّ هؤلاء الصَّناديد هُم النّاس قوَّة ومَهابةً دنيويَّةً، فلو أسلموا لكانوا النَّواة الحقيقيَّة لإسلام كُثارِ النّاس غيرهم، وهُناك مَلْحظ آخَر يَتعلَّق بما بَعد هذا المقطع؛ فبعْدَه مُباشرة: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فكان ما بعده ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تخصيصًا لِما قبْلَه ﴿ٱلنَّاسَ﴾.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ دون (كلّهم):

بيان القُدْرة المُطْلَقة للهداية في وقتٍ واحد

للتَّعبير بـ ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ دون (كلّهم) فائدتان، الأولى: مُناسَبة اللَّفظة هُنا لِلَفظة ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾، فإذا كان الأمر للّه جميعًا فهداية النّاس جميعًا من الأمر، الثّانية: لفظة ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ تَدلُّ على اتِّحاد الزَّمن، وهذا يَرسِم صورةَ القُدْرة

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.

المُطلَقة على هداية كُلِّ النّاس في وقت واحد مَجموعينَ، فكأنَّ الحال ﴿جَمِيعًاۗ﴾[1] جاء لرَفْع وهْمِ مَن يَتوهَّم أنَّ اللّه غير قادر على هداية النّاس في وقتٍ واحدٍ، وهذا لا يُفيده التَّوكيد المَعنويُّ (كلَّهم)، فـ"الكلُّ يُفيد الإحاطة دون الاجتماع"[2].

دلالة فصْل مَقاطِع الآية بعضها عن بعض:

تَعدُّد موضوعات المَقطَع وتَداخلُها

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ فصْل المَقاطِع له سببٌ مَكين، وهو تَعدُّد موضوعات الآية الكريمة، فالعُنوان العامُّ للآية الكُفر والإيمان لكنَّها ضمَّت عددًا كبيرًا من الموضوعات؛ مثل: الحوار، وقُدْرة اللّه، والهداية، وإصابة الكفّار بالقوارِع والمصائب، وذِكْرِ عذاب اللّه، موضوعات شتَّى في الآية لكن رابطها الأكبر الكُفر والإيمان، فحَوْل هذي المَقاطِع تَدور الآية الكريمة الّتي "عرضَتْ أكثر من مَوقف، ولأكثر من جماعة، فأوَّلًا: المُشركون، وعِنادهم، وضلالهم، وثانيًا: الَّذين يَعجبون لهذا الحُكْم الَّذي حكمَ به على المشركين سواء أكانوا من المؤمنين أم من المشركين، وثالثًا: المؤمنون الَّذين كانوا لا يزالون على طَمَعٍ في أنْ يَلْحق بهم آباؤهم أو أبناؤهم، ورابعًا: هذا اليأس الَّذي وقَعَ في نفوس كثير من المؤمنين الَّذين كانوا يطمعون في أنْ يَلحق بهم أهْلوهم، وهكذا أشرفَتْ كلِمات اللّه من عَلٍ على النّاس جميعًا مؤمنين، ومشركين، وخاطَبَتْ كُلَّ فريق منهم الخِطاب الملائمَ له، وكان من مُقتضى الحِكمة ألّا تجْمع بينهما في

(1) مفهوم من كلام ابن هشام عن (أجمعون)، يُنظر: شرح شذور الذّهب، ص: 553.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/391.

هذا الموقف جامِعةٌ، الأمر الَّذي أوجَبَ عزْلَ مَقاطع الآية بعضها عن بعض[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾:

تهديد الكفّار ووَعيدُهم على تَعنُّتهم وإصرارهم على الكُفْرِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جاءت الواو استئنافيَّة[2]؛ كي تَفتَتِح موضوعًا جديدًا خاصًّا بالَّذين كفروا وكأنَّها تقول لهم: (وإن لَم تؤمنوا فستظلُّ العُقوبات الدُّنيويَّة موجَّهة لكم صائدة، ففي الإيمان نجاة، وما تَفعلونه يُؤذيكم ويُخزيكم)، ويجوز أن تكون عاطفة؛ أيْ: إنَّ الجملة معطوفة على جُملة ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ على بعض الوجوه في تلك الجُملة، وهي تهديد بالوعيد على تعنُّتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكُّمِهم باسْتِعجال العذاب الَّذي تُوعِّدوا به، فهُدِّدوا بما سيحلُّ بهم من الخوف بحُلول الكتائب والسَّرايا"[3]، إضافة لذلك فإنَّه لمّا عُلم أنَّ بعضهم لا يُؤمن، ضاقَتْ صدور المؤمنين لذلك لِما يُعاينونَه من أذى الكفّار، فأتْبَعه ما يُسَلّيهم عاطفًا على ما قدَّرَه من نتيجة عدَمِ المَشيئة[4] من أنَّهم تُصيبهم قارِعةٌ.

نكتة اختيار التَّعبير بالفعل ﴿يَزَالُ﴾:

بيان عاقِبة الكُفّار إن هُم لَجّوا في طُغيانهم يَعمهون

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الفعل ﴿يَزَالُ﴾ في أصله (زال) يدلُّ بذاتِه على النَّفْي، وعدَمِ وجود الشَّيء؛ من غير أن يحتاج في هذه الدَّلالة للفظٍ آخَر، فكان الفعل بنفْسه من غير تقدُّم نَفْي أو شبهه تحذيرًا لهؤلاء بالزَّوال والاندثار إنْ هُم لجّوا في طغيانهم يعمهون، وثَمَّ مَلمحٌ آخَر وهو عادة القرآن هُنا، فالقرآن مع (يَزال) المضارع لا يستخدم سِوى (لا)، فكانت الآية تعزيزًا لعادة القرآن الكريم.

(1) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 3/125.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن، ص: 130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/145.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

دلالة التَّعبير بالْمُضارِع ﴿وَلَا يَزَالُ﴾:

تنبيه الكفّار إلى استمرار الوَعيد حتّى يأتيَ وعْد الله

يَظهر سِرُّ التَّعبير بالْمُضارع تنبيهًا لهم بأنَّ ذلك عِقاب من الله تعالى ووعيد بأنَّ ذلك دائمٌ فيهم حتَّى يأتيَ وعْد الله، ولعلَّها نَزَلَتْ في مُدَّة إصابتِهم بالسِّنين السَّبع الْمُشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: 155]، عِلْمًا بأنَّ بعض العلماء جَعلوا هذه السُّورة مدنيَّة، وكان التَّأويل عندهم أنَّ القارِعة السَّرِيَةُ من سَرايا الْمُسلمين الَّتي تَخرج لتهديد قريش ومَن حَوْلهم[1].

نُكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا بعضهم:

العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص سَببِه

في العموم بخِطاب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فائدتان؛ الأولى: تَحقُّق وقوع العذاب على كلِّ الَّذين كفروا لا على فريق بعَيْنه، فالمسألة كائنَة إلى أن تقومَ السّاعة، فهُنا "وَعيدٌ لِلكُفّارِ عَلى الْعمومِ"[2]، والثّانية: أنّ ما يَصْدق على بعضهم يَصْدُق على الجميع؛ لأنَّ الجميع يُؤيِّد البعْضَ، فصار الحُكْم عامًّا لِرضا البعض بعمل الكلِّ، يقول الرّازيُّ: "أراد به جميع الكفّار؛ لأنَّ الوقائعَ الشَّديدة الَّتي وقعَتْ لبعض الكفّار من القتل والسَّبْي، أوجَبَ حُصولَ الغمِّ في قلب الكُلِّ"[3].

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا (الكافرون):

ثَبات الكُفْر في نفوسهم، واسْتِمْساكهم به

إيثار القرآن للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع صِلَته؛ فيه إيماءةٌ إلى ثبات الكُفر في نفوسهم، واستمساكهم به؛ فلا مَجال لتَغْيير عقيدتهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادت الذَّمَّ؛ فإتيان الموصول الماضي قُصِد به الالتباس والاستصحاب[4]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلته يَدُلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/145.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/101.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/43.
(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/187.

على اختيارهم الكُفر بإرادتهم من دون تَدَخُّلٍ في اختيارهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَته دون اسم الفاعل هو الأنسب.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

بيان أنَّ كُفرهم صار صِفة لازِمة ثابتة في طِباعهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثمَّة توظيف للفعل الماضي - مع أنَّ المُضارع مُناسِب للفعل ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ - دَلَّ على أنَّ الكُفْرَ صار صفةَ لازِمة لهم، لا ينفكّون عنه، والفعل الماضي هو الَّذي يَرسم صورة الكُفْرِ هُنا، أمّا توظيف المضارع فهو غير مُناسِب؛ لأنّه يُشْعِرُ أنَّ الكُفْرَ جديد حادِثٌ، ثُمَّ إنَّ العدالة الإلهيَّة تقتضي نزول العذاب والقوارِع على مَن ثَبَتَ كُفْرُه ولَجَّ فيه دون غيره من مُحدثي الكُفر، والفعل الماضي هو الَّذي يُترجم هذا التَّناسُب لا المضارع؛ لأنَّه حقيق بالثَّبات.

دلالة إيثار الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ على (أشركوا):

التّأكيد على أن حالة الكفّار هي حالة الإنكار التّامّ واللَّجاجة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيثار للقرآن الكريم لِذِكْرِ الكُفر دون الشِّرك، وهو إيثارٌ آتٍ من أنَّ الكُفر مُناسب للسّياق، وهو هُنا سياق الجحْد والإنكار وعدم الإيمان بالرِّسالة والرَّسول والقرآن مع عِلمهم بأنَّ القرآن كلام اللّه، فكأنَّهم سَتَروا ضياء عُقولهم[1] بالكُفْرِ، أمّا الشِّرك فهو صرْفُ نوْعٍ من أنواع العِبادة لغير اللّه تعالى، وهذا لا يُناسِب المقام هُنا فحالتهم هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة؛ فكان الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ أنسَبَ من أشركوا، إضافة إلى ذلك فهو يتناسَب مع قوله تعالى ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾.

لَطيفة التَّعبير ﴿تُصِيبُهُم﴾ دون (تَمَسُّهُم):

الإصابة أقوى تَمَكُّنًا من المَسِّ

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿تُصِيبُهُم﴾ دون (تمسُّهم)؛ لأنَّ في الإصابة قوَّة وشِدَّة في التَّأثير، عَكْسَ المَسِّ الَّذي قد يكون يَسيرًا سَهْلًا غير مُؤَثِّرٍ فيهم؛ فهو مُطلَق إصابةٍ من دون تقييد بشِدَّة أو ضَعْفٍ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

وعليه يكون المَسُّ أقلَّ تَمكُّنًا من الإصابة[1]، وهو أقلُّ درجاتها[2]، ولِوجود فرْق بين المسّ والإصابة، هو أنَّ المَسَّ اتِّصال أحد شَيْئَيْن بآخَر على وجه الإحساس، والإصابة أصلُها من إصابة السَّهم، فالإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوب؛ أيِ: المطَر، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل (أصاب)، ومنه يُعلم أنَّ الإصابة أبلَغُ من المَسِّ لأنَّه وإن اعتُبِر فيه التَّأثير، لكن تأثير أصاب لمّا كان كالمطر أو السَّهم كان أقوى وأشدَّ[3]، والموقف هُنا موقف شِدَّةٍ وبأسٍ، فلا يُناسبه المَسُّ، يُضاف إلى ذلك أنَّ الفاعل هو ﴿قَارِعَةٌ﴾، وفيها من الهَوْلِ والشِّدّة ما فيها، فلا يُناسِبه الفعل (يمسُّهم) ألبتَّة.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾:

الإيذان باستمرار الإصـــابـــة وتَجدُّدها

عبَّر القُرآن بالفعل المضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾ للإيذان باستمرار الإصابة ودَوامها كأنَّها مُشاهَدة؛ وذلك لِعُتوِّهم وكُفرهم، وهذا يعني أنَّ القارِعة تُصيبهم مرَّةً بعد مرَّةٍ، لا تتوقَّف ولا تَهْدأ، يُضاف إلى ذلك التَّناسُب الحاصل بين المُضارع ﴿يَزَالُ﴾ الدّالِّ على استمرار ما هو واقِع، وبين المُضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾ الدّالِّ على الأمر نفْسه، فالمُضارع يعني عمَلًا تِلْوَ عَمَلٍ.

دلالة الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾:

الإيـمـاء بـأنَّ ما أصـابـهـم كـان بسبب ما قدَّمَتْه أيـديـهـم جـزاءً وِفاقًا

من معاني الباء السَّببيَّة[4]، فالباء في قوله تعالى: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أوْمأتْ إلى أنَّ إصابتهم المُميتة سببُها ما صَنعوا وما قدَّمتْه أيديهم، فالمعنى بسبب ما صنَعوا تُصيبهم القارعة، فالباء هُنا تَرْجمتْ عن الجزاء الوِفاق؛ فلا إصابة بدون اقتراف الكُفر، وفيه إشارة إلى العدالة الإلهيَّة تلك الَّتي لا تُعذِّب أحدًا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/245.

(2) السّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/53.

(3) السّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 2/190.

(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 39.

حتّى تَبعثَ رُسلًا تِلو رُسُلٍ لإخراج النّاس من غياهِب الكُفر إلى سَعة الإيمان.

دلالة استعمال ﴿بِمَا﴾ دون (الّذي):

كثرة ما صَنعوه لمُحارَبة الدَّعوة

(ما) في قوله تعالى ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾: اسم موصول، و(ما) أعَمُّ وأشمل من أخيه (الَّذي)، حتّى قال النُّحاة إنّه يَقع على كُلِّ شيء، ويقعُ على ما ليس بشيء، لأنّه اسم مُبهم شديدُ الإبهام[1]، وهو هُنا دالٌّ على كثرة ما صَنعوه لمُحارَبة الدَّعوة، ومُكافحَة صاحبها اتِّهامًا وتشكيكًا ومُحاربَة، وكأنَّهم ما وُجِدوا إلّا ليَصنعوا ما في وُسْعهم لوَأْد الدَّعوة الإسلاميَّة وصاحبها، فعموميَّة (ما) دالَّة على عموميَّة أفعالهم وصُنعهم؛ لذا كان أوْلى من (الّذي) الَّذي لا يَحمل هذا الإبهام.

نُكتة التَّعبير بالفعل ﴿صَنَعُواْ﴾ دون غيره:

بيان مُحارَبتهم الدَّعوة نتيجة تخطيط وترتيب

في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾ آثَرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بالصُّنع دون العمل؛ لبيان القصْديَّة في مُحاربة الدَّعوة، فليست المُحارَبة عَفْوَ الخاطِر، وإنَّما هي تخطيط وترتيب وعمل دَؤوب لمواجهة الدَّعوة ووَأْدِها، فالصُّنع إجادة الفعل، فكلُّ صُنع فعلٌ، وليس كُلُّ فِعلٍ صُنعًا، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسَب إليها الفعل، وللإجادة يُقال للحاذِق المُجيد: صَنَعٌ، وللحاذِقة المُجيدة: صَناعٌ[2]؛ فكان التّعبير بـ (الصُّنع) أوْلى من التّعبير بـ (العمل) أو (الفعل)، ففي صيغة الصُّنع من الإيذان برُسوخهم في ذلك ما فيها[3].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿صَنَعُواْ﴾:

ثَبات صُنعهم وإيغالهم فيه حتّى صاروا من المُجيدين البارعين

إيثار الفعل الماضي ﴿صَنَعُواْ﴾ على المُضارع (يَصنعون) للإشارة إلى ثبات صُنعهم وإيغالهم فيه حتّى صاروا من المُجيدين البارعين؛

(1) السهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 139.

(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

أيْ: ممّا مُرِّنوا عليه من الشَّرِّ حتّى صار لهم طبْعًا[1]، وتوظيف الفعل الماضي ﴿صَنَعُواْ﴾ إشارة إلى العدالة الإلهيّة بإنزال البَلايا والمصائب، فكلُّ فعل له ردَّة فعل، فإذا صَنعوا عن إجادة فالقارِعة حاضِرة.

دلالة اختيار الفعليَّة ﴿صَنَعُواْ﴾ لا المَصْدَر:

الدَّلالة على تأكيد صَنيعهم في محارَبة الدَّعوة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعليَّة ﴿صَنَعُواْ﴾ دون المصدريَّة؛ لوجود فرْق بينهما، فالفعل يدلُّ على حدث وزمن، أمّا المصْدَر فيدلُّ على حدث دون تعلُّقٍ بزمن[2]، وهذا الفارق هو السَّبب في توظيف الماضي دون المصْدر، فالفعل الماضي دلَّ دلالة قاطعة على أنَّهم صَنعوا ما صنعَوا في حقِّ الدَّعوة، فالفعل يَقينيُّ الثُّبوتِ، أمّا المصْدر فلا دلالة له على الزَّمن؛ لذا وُظِّفَ الفعل دون المصْدر، كما أنَّ الفاعل في ﴿صَنَعُواْ﴾ دالٌّ على قصْديَّة واجتهاد، وهذا غير واضح في المصْدر (صُنْعهم).

دلالة عدم ذِكْرِ مُتعلَّق ﴿صَنَعُواْ﴾:

إشارة إلى العموم والشُّمول

يدلُّ عدَمُ ذِكْرِ العائد في الاسم الموصول ﴿صَنَعُواْ﴾، على العموم في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾، فلَم يَقُل القرآنُ: (صَنعوه) وحذَفَ المفعول[3]، للشُّمول وعدَمِ محدوديَّة الصُّنع، فكأنَّهم صَنعوا كلَّ شيء لإيقاف الدَّعوة وحصْرها أو إماتَتِها، ومِنْ ثَمَّ فالحذْف هُنا جاء حتّى تذهبَ النَّفْس كُلَّ مَذهب فيما صَنعوا، إضافة إلى الاختصار والتَّخفيف.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ دون مرادفاتها:

بيان أنَّ القارِعة شديدةٌ من شدائد الدَّهر مُفزِعة

إيثار لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ هُنا؛ لأنَّها تَقرع القلوب بهَوْلها، ثُمَّ هي الشَّديدة من شدائد الدَّهر وهي الدّاهية[4]، فهي إذَن الَّتي تَقرع النَّاسَ بالأفزاع والأهوال، والسَّماءَ بالانشقاق والانفطار، والأرضَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

(2) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 2/205.

(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/496.

(4) ابن عطيّة المحرّر الوجيز: 5/516.

والجبالَ بالدَّكِّ والنَّسْفِ، والنُّجومَ بالطَّمْس والانكدارِ[1]؛ لذا كانت الأكثرَ مُناسَبة بسبب عُتوِّهم ونُفورهم ومُحارَبتِهم للدَّعوة، ولفظة (النّازلة) لا تُعطي هذا السِّرَّ؛ فالنّازلة تَصْدق على ما عظُم من الحوادث - وهو الأصل - وما سَهُلَ، فالدَّهر هو النّازلة تقول: دَهَرَهُم أمر؛ أيْ: نَزَلَ بهم مَكروه[2]، أمّا القارعة فإنَّها تختَصُّ بالعظائم والحوادث الشَّديدة.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾:

بيان قضديَّة القارعة وكأنَّها عدوٌّ يَقصد إهلاكَهم

في لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ استعارة مَكنيَّة، حيث شبَّه القارعة بالعَدوِّ المُتوجِّه إليهم فكأنَّها جُند من جنود الله سُلِّط على هؤلاء المُكذِّبين المُعاندين، وحذفَ المُشبَّه به وذكرَ صِفة من صفاته وهي الإصابة، فهي تُصيبُهم بأشَدِّ البلايا والمصائب، في أنفُسهم وأموالهم، وتُبيدُ خَضْراءَهم، وقد أسْنَدَ إليها الإصابة تارةً والحلول أخرى؛ فهي مع كونها استعارة بالكناية فهي تَخييل وترشيحٌ أيضًا[3].

دلالة التَّعبير بالمُؤنَّث في ﴿قَارِعَةٌ﴾ وتنكيرها:

قصْد التَّهويل والمُبالَغة والتَّعظيم

التّأنيث هُنا "تأنيث تَهويلٍ ومُبالَغة، ولهذا جاءَتْ أسماء يوم الحشْر كُلُّها مؤنَّثة، كالقيامة والقارعة والحاقّة والطّامّة والصّاخَّة إلى غيرها"[4]، والتَّنكير يتعادل مع التَّأنيث، فالتَّنكير على التَّعظيم والمُبالَغة في اللَّفظة بإضافة التّاء.

دلالة الإفراد في: ﴿قَارِعَةٌ﴾:

وحدة هدف كُلِّ قارِعة في دَحْر الكُفْرِ

آثَرَ النَّظْم القرآنيُّ إفراد لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ دون جمْعها، على الرَّغم من القوارِع الَّتي أصابَت الكفّار، كالهزيمة في غزوة بدْر، وما رَماهم الله ﷻ به من خِزي في غزوة الأحزاب، ثُمَّ ما كان في فتْح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/621.
(2) الخليل، العين: (دهر).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

مكّة[1]؛ للتّهويل والتّخويف والزّجر، فإذا كانت قارعة واحدة تَفعل فيكم الخسْفَ والدّمار والخَراب، فما بالُكم إذا اجتمعَت القوارِع الكُثُرُ؟ وفي هذا إيذانٌ بالقوَّة المُفرِطة لقارعة واحدة، ويُمكن القول إنَّ الإفراد هُنا دالٌّ على وحدة هدَف كُلِّ قارعة من القوارع والهدف دَحْرُ الكُفر وهزيمة الكفّار.

دلالة إسناد الإصابة إلى القارعة:

التَّأكيد على كثرة جنود الحَقِّ

أُسندَت الإصابة لـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ لبيان أنَّ لله ﷻ جُندًا يَنصر به المؤمنين، ويُعذِّب به الكافرين، وفي هذا طمأنة لقلب رسول الله ﷺ، وتثبيت لأفْئدة المؤمنين، وشفاءٌ لِما في صُدورهم، وفي إسناد الإصابة إليها دلالةٌ على المُطاوَعة والاستجابة الفوريَّة، كأنَّها بمُجرَّد أخْذها الأمرَ فعَلَت الأفاعيل في هؤلاء الكفّار، ثُمَّ إنَّ القارعة تُحَوِّلُ المكان من هدوء وسُكون إلى صَخَبٍ وضَوضاء فـ "القارعة هي الشَّيء الَّذي يَطرق بعُنف على هادئٍ ساكِن"[2] ليحوِّل سُكونَه.

نُكتة العدول عن القتل إلى القارعة:

بيان أنَّ القارعة أَعَمُّ من القتل

في قوله: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ عدَلَ النَّظْم الكريمُ عن التَّعبير بالقتل إلى القارعة لوجود فرْق بينهما؛ فالقتل إزهاق للأرواح، ولا يحمل معنى الشُّمول الَّذي تُفيده القارعة، لأنَّ القارعة إزهاق للنُّفوس والأموال والأرض والذُّرّيَّة، وكُلِّ ما يَمتلكونه، وإن "كانت القوارع - في أصلها - الَّتي تَقرع حِسَّهُم ليست إبادَة، ولكنَّها مُغالَبة ودفْع الفساد"[3] فدلَّ ذلك على أنَّ لفظة القتل قاصرة عن تحقيق الهدف، أمّا القارعة فهي الَّتي ترسِم الموقفَ الرَّهيب الَّذي يواجهه الكفّار، إضافة إلى ما سبَق فإنَّ عادة القرآن أن يَستخدم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7348.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3951.

لفظة القارعة في الأحداث الكِبار والأحداث العاصفة، كإهلاك الأقوام، فهي شديدة الوَطْأة، وهذا ما ليس في كلِمة (القتْل) الّتي توَظَّف في كبار الأحداث وصغارها، كما توظَّف على ما ليس بقتل وإنَّما هو الدُّعاء فقط[1]، لذا فالقتل جُزء مِنْ كُلٍّ؛ أيْ: جزء من ﴿قَارِعَةٌ﴾، فضَمَّت لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ القتل في ثَناياها، فكان التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ أنسَب وأملأ للفائدة.

نُكتة تأخير ﴿قَارِعَةٌ﴾ عن قوله: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾:

تقرير أثَرِ القارعة عليهم بسبب ما اقْتَرَفوه من كُفْرٍ وعِناد

تقديم ما حقُّه التَّأخيرُ إنَّما يكون لنُكتة، والنُّكتة هُنا بيان أنَّهم هُم الَّذين أساؤوا التَّصَرُّف، وكفروا وسَتَروا ولَجّوا في طغيانهم، بل وبالَغوا في التَّضييق على أهل الإيمان، فكان ما فعلوه سببًا لنُزول القارعة عليهم؛ وهذا مُطلَق العدل، ومن ناحية أخرى فتقديم المجرور على الفاعل جاء على إرادة "التَّفسير إثْر الإبهام لزيادة التَّقرير والإحكام مع ما فيه من بيان أنَّ مَدار الإصابة من جِهتهم آثِر ذي أثيرٍ"[2].

دلالة اختيار ﴿أَوۡ﴾ دون الواو ونحْوها:

تنويع الأحوال، وبيان أصناف المَضارِّ

جاءت ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ لتنويع الأحوال، أو لأصناف المَضارِّ[3]، وهي هُنا مُناسِبة أشدَّ مناسَبة؛ ذلك لأنَّ المَضارَّ هُنا مُتعدِّدة من إصابة مباشرة، أو تهديد بعذاب عندما تحلُّ قريبًا من دارهم، وفي هذا إنذار شديد، وقد يكون وعدًا بالتَّخفيف إن هُم آمَنوا وتراجعوا عن غيِّهم، فقد تَلينُ بعض القُلوب وترجع عن غيِّها.

سرّ التّعبير بالفعل ﴿تَحُلُّ﴾ دون غيره:

الـدّلالـة على تَـعـدُّد معانيها وشُمولها للتَّنزُّل ونحْوه

للفعل (حلَّ)[4] فروع كثيرة ومسائل، وأصلها كلُّها: فتْحُ الشَّيءِ، لا

---

(1) كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾ [الذاريات: 10]، فهو دُعاء وليس قتْلًا حقيقيًّا.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/445.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلل).

يَشذُّ عنه شيء، يؤكِّد هذا أنَّ المعنى المِحوريَّ للفعل (حَلَّ) يدور حَول فَكِّ ما كان مَشدودًا؛ أيْ: مربوطًا موثَقًا[1]، ويُناسِب الرَّسول إذا عاد الضَّمير عليه لأنَّه سيَحلُّ؛ أيْ: يَفْتح مكَّة وغيرَها من البلاد، ومن ثَمّ كان المناسِب الفعل (يحل) لا (يَنزل) ولا (يَحيق)، فكِلاهما لا يُؤدّيان هذا المعنى الخَفيَّ، ومن ناحية أخرى فإن (حلّ) يَترتَّب على (نَزل)، فهُما لَيْسا بمعنًى واحدٍ طِبْقًا، وهذا مفهوم من كَلام ابن فارس عندما يقول: "وحلّ: نَزلَ، وهو من هذا الباب؛ لأنَّ المسافر يَشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزلَ حلَّ، يُقال: حَلَلْتُ بالقوم"[2]، فصارت دار الكفّار محلًّا للقارعة؛ تهديدًا ووَعيدًا.

دلالة المضارِع ﴿تَحُلُّ﴾ دون الماضي:

استمرار الحُلول ودَوامه

عبَّر القرآن بالفعل المُضارع ﴿تَحُلُّ﴾ للإيذان باستمرار الحلول ودَوامه كأنَّه مُشاهَد؛ وذلك لعُتوِّهم وكُفرهم، وهذا يعني أنَّ القارعة تُصيبُهم مرَّة بعد مرَّة، لا تتوقَّف ولا تَهدأ، فالمُضارع يَدُلُّ على عمل مُتَتابِع، وفي هذا زَجْر وتخويفٌ؛ لأنَّ العمل المُتواصِل تدمير وخسْف وتخويفٌ أو دَفْع ومُغالَبةٌ، وفيه إشارةٌ إلى حَثِّهم على الدُّخول في الإسلام حتّى تُرفع عنهم هذه القوارِع.

سِرُّ الإضمار في: ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾:

تَوسيع المعنى بإرادة القارعة أو الرَّسول مع جنوده

الإضمار دون الإظهار في قوله ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ في هذا السّياق يُحدِث اتِّساعًا في المعنى المفهوم، ذلك أنَّ الضَّمير هُنا يَصلح لأمرَيْن: الأوَّل أن يَعودَ على الرَّسول ﷺ، جاء في التّفسير: أوْ تَحُلُّ أنت يا مُحمَّد قَريبًا مِنْ دارِهِم، هذا تأويل فِرقة؛ منهم: الطّبريُّ وعَزاه إلى ابن عبّاس ومُجاهد وقَتادة[3]، الأمر الثّاني: يعود الضَّمير على

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلل).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.

القارعة، والمَعْنَيان مُرادان، فإذا أظهرنا الاسم ففي ذلك تحديد، وإذا أضمَرنا ففي ذلك توسيع، فكان الإضمار أنسَبَ للآية؛ لأنَّ العذاب سيكون عذابَين: قارعة الله، وقارعة الرّسول وجُنده.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿قَرِيبًا﴾:

جاءت لفظة ﴿قَرِيبًا﴾ هُنا للتّهديد والتّخويف، فالقارعة لن تَحُلَّ في دارهم، لكنَّها ستكون قريبة، وعلى قُربها "يَفزعون منها ويَتطاير إليهم شَرَرُها"[1]، فهي لن تصيبهم مباشرةً، فاللَّفظة هُنا فيها معنى الإنظار مع الإنذار إن لَم يعودوا إلى رُشْدهم وسَليم عقولهم.

الإنـذار والتَّخويف إن لَم يَعودوا إلى رُشدهم ويَنتهوا عن غَيِّهم

سرّ اختيار لفظ ﴿قَرِيبًا﴾ دون (ناحيَتهم):

عبَّر القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَرِيبًا﴾ لِما فيها من اتِّساع المعنى بحذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة، فالتَّقدير مكانًا قريبًا[2] أو زمانًا قريبًا، وهذا يَخلو منه الظَّرْف (ناحية)، فليس له إلّا معنى الجانب، ومن ثَمَّ حَسُنَ توظيف ﴿قَرِيبًا﴾، ثُمَّ إنَّ ﴿قَرِيبًا﴾ من أنواع المُشتقّات فهو صِفة مُشَبَّهة تَدلُّ على ثَبات القُرْب، فإنْ لَم يؤمن هؤلاء فالقارعة قريبةُ الحُلول بهم؛ فهُم بين حَدَثَيْن جليلَيْن، كلاهمُا مُخيفٌ، فإمّا الإصابة والألَمُ؛ وإمّا الفزَع، فكأنَّ اللَّفظة تَحمل في طيّاتها معاني الوَعيد والتَّهديد، وهذا لا يكون في لفظة (ناحيتهم).

اتّساعٌ بحذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾:

توظيف ﴿مِّن﴾ هو الأنسَبُ للسّياق، ذلك أنَّ هذا الحَرْفَ دالٌّ على ابتداء الغاية في المكان[3]، وهذا يُناسِب القُربَ ﴿قَرِيبًا﴾، فالقُرب مَبدؤه (دارهم). أمّا (في) فتدلُّ على الظَّرْفيَّة، والظَّرفيَّة احتواءٌ وتَوغُّل وتَمَكُّنٌ[4]، وكأنَّ القارعة توغَّلَت في دارهم فصارت دارُهم

تـوافُـق معنى حرْف الجَرِّ (مِن) مـع (قـريـبًـا) دون حرْف الجرِّ (في) الـدّالِّ على الظَّرْفيَّة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/123.
(3) الزّمخشريّ، المُفصّل في صنعة الإعراب، ص: 379.
(4) الزّمخشريّ، المُفصّل في صنعة الإعراب، ص: 381.

محلًّا للقارعة، وهذا يُخالف لفظة ﴿قَرِيبًا﴾ الدّالَّة على أنَّ القارعة بجانبهم لا داخل دارهم، فكان الأوْلى توظيف ﴿مِّن﴾ الدّالَّةِ على الابتداء، لا (في) الدّالَّة على الظَّرْفيَّة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿دَارِهِمْ﴾ عن (أرضهم):

بيان أنَّ البلدة صارت ملْكًا لِكُلِّ شخص يَسكن فيها، فهي داره

وظَّف القرآن الكريم لفظة ﴿دَارِهِمْ﴾ هُنا لعدَّة فوائد: الأولى: كَلِمة (دار) دالَّة على شِدَّة قُرْبِ العذاب، فهو ليس قريبًا من أرضهم؛ بل دارهم الَّتي يَسكُنون فيها ويستريحون، أمّا لفظة (أرضهم) فلا تَرْسُمُ صورة القُرب الشَّديد.

الثّانية: دلالة على (أرضهم) مكَّة، وكأنَّ البلدة صارت ملْكًا لكلِّ شخصٍ يسكن فيها، فهي داره، الَّتي تحميه وتَذود عنه.

الثّالثة: لفظة (دار) من الدَّوَران[1]، فاللَّفظة تشرح التَّحوُّل والدَّوران الَّذي سَيَلُفُّ الكون من ظُهور الرِّسالة وغياب الكُفر ودَحْره، فالحياة مُداوَلة.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿دَارِهِمْ﴾ دون (ديارهم):

رَسْمُ صورة الضَّعف أمام ما سيحلُّ بهم من العذاب

أفادَ الإفراد في لفظة الدّار ثلاث فوائد؛ أوّلها: قُدْرة القارعة على تدمير كُلِّ الدّيار، وكأنَّها دار واحدة، فليس في التَّدمير عُسْرٌ. ثانيها: أنَّ الإفراد هُنا يَرْسم صورة القِلَّة والضَّعف أمام ما سَيَحُلُّ بهم من ابتلاء ومصائب وخسْفٍ. ثالثها: أنَّ الإفراد هُنا كائن على أنَّ أئمَّة الكُفْرِ هُم مَن كانوا يُجادِلون الرَّسول ﷺ دون بقيَّة الكفّار، فكان الإفراد قائمًا بسبب قِلَّةِ المُتحدِّثين، وكأنَّ العذاب مُتّجه للكُبراء يَليهم العامَّة والدَّهماء لموافَقَتهم وسُكوتِهم.

ومن القراءة السّياقيّة للَّفظتَيْن نجِدُ ما يَلي:

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).

أوّلًا: قد يُراد بالواحد الجنس؛ فيدلُّ المفرَد على الجمْع، لأنَّ اللَّفظتَيْن جاءتا في سياق قصَّة واحدة[1].

ثانيًا: الإفراد دالٌّ على القِلَّة والهَشاشة؛ أمّا الجمْع فيدلُّ على الكثرة والتَّعدُّد في الغالِب.

ثالثًا: توحيد الدّار دليل على وحدة مَرجوَّة، وجمْعُها دليل التَّفرُّق والتَّشرْذُم[2].

رابعًا: الكلِمتان المُضافتان للضَّمير (هم) لا تأتيان إلّا في موضع العذاب في القرآن[3]، غير أنَّ ﴿دَارِهِمْ﴾ تزيد في الإجلال والخروج من الدّيار[4].

خامسًا: حيثُما كان الحديث مع كِبار القوم دون بقيَّة النّاس؛ فالكلِمة تأتي على الإفراد، وإذا كان الحوار مع المَلأ وعامَّة النّاس؛ فالكَلِمَة تأتي على الجمْع في بعض مواقف القرآن[5].

دلالة اختيار ﴿دَارِهِمْ﴾ دون مرادفاتها:

الــدّار أعَــمُّ وأشــمــل مـن البيوت والمساكن

إيثار لفظة (دار) لأنَّ فيها معنى التَّحوُّل وعدَم الاستقرار[6]، فكانت اللَّفظة مُناسِبة لقَسوة المَوْقِفِ وتحوّلهم من عِزَّةٍ إلى ذِلَّةٍ ومَهانةٍ، إضافة إلى أنَّ كَلِمة (الدّار) أعَمُّ وأشمل من البيوت أو المساكن؛ فهي تؤدّي معنى القَبيلة[7]، كما قال الرَّسول ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُم بِخَيْرِ دورِ الأَنْصارِ؟»[8]، أرادَ بذلك القبيلة، ثُمّ إنَّ (دارَ

(1) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215.
(2) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215.
(3) وردت لفظة (دارهم) في القرآن أربع مرّات، وكلّها في مواطن العذاب، الأعراف، ص: 78، 91، الرّعد، ص: 31، العنكبوت، ص: 37.
(4) وردت كلمة (ديارهم) عشر مرّات، البقرة، ص: 85، البقرة، ص: 243، آل عمران، ص: 195، الأنفال، ص: 47، هود، ص: 67، هود، ص: 94، الحج، ص: 40، الأحزاب، ص: 27، الحشر: 2، 8.
(5) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215، وما بعدها.
(6) المعجم الوسيط: (دار).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(8) البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب الزّكاة، بَابُ خَرْصِ التَّمَرِ، الحديث رقم: (1481).

يَدورُ) تدلُّ على كَثْرةِ حرَكاتِ النّاسِ فيها[1]، وهذا دليل حَيَويَّة وحركةٍ، فكانت القارعة كي تَقطَع كلّ هذا، وهذه المعاني لا تَتأتّى من كلمة البيت أو المسكن.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ لا (منهُم):

بيان قوَّة العذاب وشموله للسّاكن والمَساكن

الإشارة إلى لفظة ﴿دَارِهِمْ﴾ دون (منهُم) معناها أنَّ العذاب لن يَلحق الكفّار والكبَراء والرّاضينَ بكُفرهم، وإنَّما سَيَلحق الأَهْلَ والذَّراري ممَّن يَمتنعون به، ويحتفظون به، فكان (من دارهم) شاملًا المكان وأهلَه، أمّا (منهُم) فلا تشمل الدّار؛ بل تَشمل ذواتَ الكفّار وحدهم.

دلالة الإضافة في ﴿دَارِهِمْ﴾:

التَّخصيص مع شِدَّة تَمَسُّكهم بدارِهم

أفادَت إضافة لفظة (دار) إلى الضَّمير (هم) العائدِ على الكفّار من أهل مكَّة التَّخصيص، فالدّار مُختَصَّة بهم، لا يُشركون أحدًا فيها، وهذا دليل على شِدَّة تمسُّكهم بدارِهم؛ لأنَّ الدّار جزء منهم، فكانت الإضافة، ثُمَّ إنَّ تعريف الدّار بالألِف واللّام لا يُعطي المعنى المُلائم، فلا يَحسُن أن يُقال: أو تَحُلُّ قريبًا من الدّار، فكانت الإضافة هي الأَمْلأ للفائدة؛ وفيها إشارة إلى الاعتراف بالملكيَّة الخاصَّة، حيث نسبَ الدّارَ لهم.

دلالة مخاطبة النّبيِّ ﷺ: ﴿تَحُلُّ﴾:

الخِطاب تقوية له ﷺ وتبشير بالفتْح والانتصار على الكفّار

ذَكَرَ بعض المُفسِّرين أنَّ الضَّمير في ﴿تَحُلُّ﴾ يجوز أن يعود على الرَّسول ﷺ فقالوا: أَوْ تَحُلُّ أنت يا مُحمَّد قَريبًا مِنْ دارِهِمْ[2]، ودلالة تَوجيه الخِطاب إليه ﷺ العناية والاهتمامُ بأمرِه، كما أنَّ في الخِطاب تقويةً له وتبشيرًا بالفتح والانتصار على الكفّار.

وفي هذا إشارةٌ إعجازيَّة غَيبيَّة بإخبار اللّٰه تعالى لرسوله ﷺ بفتْح مكَّة.

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (دور).

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.

دلالة التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى):

(حتّى) غاية لِما قبلها، وفيها زيادة معنى القوَّة والتَّعظيم

جاء التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾، لأنَّها غاية لِما قبْلَها، وفيها زيادة معنى القوَّة والتَّعظيم[1]، والمَوْقِفُ هُنا مَوقف قوَّة وشِدَّة وتعظيم لهذا الوَعد، فكانت ﴿حَتَّىٰ﴾ هي الأنسَبَ لهذا الموقف وليس (إلى)؛ لأنَّها لا تحمل معنى التَّعظيم المُراد في هذا السّياق.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون غيره:

سهولة الإتيان مع دلالة المَجيء على المَشقَّة والشِّدَّة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون المَجيء؛ لوجود فَرْقٍ بينهما؛ "فالمجيء أعَمُّ من الإتيان، ولأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يُقال باعتبار القصْد وإن لَم يَكُن منه الحصول، بخلاف المجيء فيُقال اعتبارًا بالحصول"[2]، فالقرآن الكريم، يستعملُ المجيء لِما فيه صعوبة ومشقَّة، أو لِما هو صَعْبٌ وأشَقُّ ممّا تُستعمل له (أتى)، فهو يقول مثلًا: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: 27]، وذلك لأنَّ المجيء فيه مشقَّة وشِدَّة، وقال: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: 19]. وقال ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71][3] وهذا يُؤَكِّدُ سهولة الأمر في الفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾، ومن الفروق بين هاتَيْن اللَّفظتَيْن ما يتعلَّق بالجانب الإيقاعيِّ في نُطْقهما، وذلك أنَّ لفظة (أتى) أخَفُّ في النُّطْق من (جاء) بما فيها من ثِقل المَدِّ وإطالة الصَّوت به ولعلَّ هذا السَّبب هو السِرُّ في أنَّ لفظة (جاء) لَم تأتِ في القرآن إلّا بهذه الصّيغة، بخلاف لفظة (أتى)، فقد جاء الماضي منها، والمُضارع، والأمر، وفي القرآن: (﴿أَتَىٰٓ﴾ ﴿يَأۡتِي﴾ ﴿ٱئۡتِ﴾ ﴿يَأۡتُونَ﴾ ﴿فَأۡتِنَا﴾ ﴿فَأۡتُواْ﴾)، بخلاف اللَّفظة الأخرى الَّتي لَم تأتِ في القرآن إلّا بصيغة المُضي، ولا مِراء في أنَّ لفظة ﴿يَأۡتِيَ﴾ أخَفُّ من لفظة (يجيء).

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 549.

(2) الرّاغب، المُفردات: (أتى).

(3) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص التّنزيل، ص: 97.

وعلى هذا فسِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ هُنا هو سهولة حصوله للمسلمين، فإذا كان الوَعد المَأتيُّ مضافًا إلى اللّه فهو سَهْلُ التحقُّق يَسيرُهُ.

التّعبير بالمضارع ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون الماضي:

الاستمرار واستحضار صورة الوَعد المَأمول بفتْح مكَّة

في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيَ﴾ إيثار للتَّعبير بالمُضارع، للدَّلالة على الاستمرارِ واستحضار صورة الوَعد المأمول بفتّح مكَّة، فالفعل المُضارع حَمَلَ في جوّفه معاني البُشرى والفتح، إضافة إلى دلالته على المُستقبَل هُنا بقرينة أنَّه لمّا يأتِ بعدُ، ومن ثَمَّ كان الأنسَبَ هُنا لمُعطيات الآية الكريمة.

بلاغة المَجاز في ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

طَمْأنة قلوب المؤمنين المُنْهَكين من محارَبة الكفّار لهم

جاء الوَعد في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ دالًّا على الفتح والنَّصر وظُهور رسول اللّه ﷺ ودينه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وكأنَّ الوعد آتٍ برِضاه من دون إجبار، وفي تشبيه النّصر بالوَعد طمأنةٌ لقلوب المؤمنين المُنهكين من مُحاربة الكفّار لهم في أرزاقهم وأموالهم، ويمكن أن يكون الوعد على سبيل المَجاز المُرسَل على اعتبار ما سيكون تحقيقًا لا شكًّا وظنًّا.

دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿وَعۡدُ﴾:

المُبالغة والقوَّة في المصدر أكثر منها في اسم المفعول

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالمصْدر دون اسم المفعول؛ لوجود فرْقٍ بينهما؛ فالتَّعبير بالمصدر يُقصد به المُبالَغة، لذا جاء المصْدر هُنا (وعْد) دون اسم المفعول (موعود)؛ لأنَّ اسم المفعول يَقبل الشِّدَّة والضَّعف[1]، والمصْدر ليس له طريق إلّا المُبالَغة والقوَّة، فكان هو الأنسَبَ هُنا، لأنَّه وعْدٌ مَحتوم لا مَرَدَّ له، وفيه دلالة على أنَّ ما يُصيبهم حينئذٍ من العذاب أشَدُّ[2].

(1) ابن النّاظم، شرح الألفيّة، ص: 226، وفاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 55.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

دلالة التَّعبير عن إتيان العذاب بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

آثَر التَّعبير القرآنيُّ لفظة ﴿وَعۡدُ﴾ عن (العذاب) لنشْر التَّهكُّم والسُّخرية بهؤلاء؛ لأنَّ الوعْدَ بشارةٌ بخير، واستعمالُه هُنا على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة بتَشبيه العذاب بالوعْد، انتظارًا منهم لخيرٍ قادِم، مع أنَّ مُستقبَلهم مُظلِمٌ.

التَّهكُّم والسُّخرية من هؤلاء الكفّار

دلالة إضافة الوعْد إلى الله: ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

يَكتسب المُضاف قوَّته ممّا أُضيف إليه؛ لذا أُضيفت كلِمة ﴿وَعۡدُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِۚ﴾ إشعارًا بالعظَمة والجلال، وتفخيمًا لهذا الوعْد الَّذي سيتحقَّقُ حتْمًا؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي قَدَّر ووَعَد بمَجيء الأمل بعد اليأس، كي لا يظلَّ اليأس مُسَيْطرًا على حركة المسلمين وعلى نُفوسِهم.

تفخيم وتعظيم هذا الوعْد

دلالة فصْل الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

فُصِلت هذه الجُملة عمّا قبْلها كي تكون كالمَثَل الَّذي لا يحتاج إلى سابِق أو لاحِق، فتُنطَق وحدَها، ففيها استقلاليَّة وكأنَّها حُكمٌ عامٌّ بأنَّ اللّه لا يُخلِف وعْدَه، إذا حقَّقنا أسباب الوعد وصِرْنا أهلًا له.

بيان حُكْمٍ عامٍّ من أحكام الله مع خَلْقه

بلاغة التَّذييل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

جاء التَّذييل هُنا مُصدَّرًا بـ ﴿إِنَّ﴾ تقويةً لقلب الرَّسول ﷺ، ولإزالة الحُزن عنه[1] بسبب ما لاقاه المُسلمون من عَنَت ومَشقَّة على أيدي الكُفّار، ثُمَّ هي وعيدٌ للكُفّار بأنَّ النَّصر حَليف المُسلمين، لكن النَّصر يحتاج صبْر ساعةٍ.

تقوية قلب الرَّسول ﷺ وإزالة الحُزن عنه

دلالة التَّأْكيد في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

التَّأكيد بـ (إنَّ) في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ معناه حتميَّة تحقُّق الوعد تكرُّمًا منه سُبحانه، وإزالة الشَّكِّ في عدَم وقوعه، وقد يكون هذا تهديدًا لهم وتخويفًا من نزول ما وعَدهم اللّه

حتميَّة تحقّق الوعد تفضُّلًا منه سُبحانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/42.

به على كُفرهم وعِنادهم وظُلْمهم[1]، ويَحتمل التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ هنا مُراعاة لإنكار المُشركين[2] بأنَّ النَّصر سيكون في جانب المسلمين، وقد يكون الدّاعي إلى التَّوكيد الرَّغبة في تقويَة مضمون الكلام عند المُخاطَب وتقريرِه في نفْسه، وإن كان غير مُنْكِرٍ له.

دلالة التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّخويف والزَّجْر للكافرين

آثَر النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون اسم (ربّ)؛ لأنَّه يحمل معنى التَّخويف والزَّجر لهؤلاء المُعاندين، بخِلاف لفظ (ربِّ) ففيه إطماع للكفّار والظّالمين، لأنَّ الرَّبَّ من التَّربية والعطاء لا الزَّجر والتَّخويف، وهذا يُعطيهم إحساسًا بالتَّمادي في غيِّهم وضلالهم، فكان اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ هو الأخْوَف والأزْجَرَ لهؤلاء.

دلالة إيثار الإظهار في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس كافَّة

التَّعبير بالاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهَ﴾ دون الضَّمير مع أنَّ ذِكر الضَّمير أخَفُّ[3] له فائدتان: الأولى: تربية المَهابة والخوف في النُّفوس كافَّة، فإنَّه المُتَحكِّم في المَصائر، ومحقِّقُ الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، كما أنَّ إظهار الاسم الجليل للإشارة إلى تعظيم المَوعود وإجلاله[4]، وهذا يعني أنَّ تكرير الاسم في الجملة الواحدة يكون في مَوْضع التَّفخيم[5]. الثّانية: إعادة الاسم دون الضَّمير صورة من صوَر الخروج عن مُقتضى الظّاهر، وهو نَوْع من الإطناب[6]؛ لأنَّه يأتي لزيادة التَّقرير، وتأكيد معنًى من المعاني باللَّفظ نفْسِه، ويقوم

(1) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ: 1/418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/145.
(3) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/226.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(5) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/226.
(6) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/482.

على إعادة الكلِمة نفْسها مرَّتيْن أو ثلاثًا، لِما لها من دلالة قويَّة على المعنى المُراد؛ فهي أحَقُّ بالتَّكرير(1).

نُكتة العُدول عن التَّعبير بتَحقُّق الوعد إلى عدَمِ خُلْف الميعاد:

الألوهيَّة مُنافيةٌ لإخلاف الوعد

لَم يَقُل القُرآن الكريم: إنَّ الله يُحَقِّقُ الميعاد، وإنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ للإشعار بعلَّة الحُكْم، فإنَّ الألوهيَّة مُنافية للإخلاف(2)، كقولك: إنَّ الجوّاد لا يَخيب سائلُه، وكأنَّ النَّفي ردٌّ على مُنْكِرِ الميعاد.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ دون الوعد:

المبالغة والعموميّة والشّمول

للتَّعبير بالميعاد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، دون الوعد فوائد، أوَّلها: كراهة التَّكرار للفظة ﴿وَعۡدُ﴾ باصطفاء ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾، ثانيها: الميعاد أشمَل معنًى من الوعد، فالوعد جزء من الميعاد، وفي الميعاد معنى الوعيد، فضمَّتْ لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ المعنَيَيْن: معنى الوعد بخير، والوعيد بعِقاب، ومن ثَمَّ يَنتفي قول مَن يقول: "إنَّ الله لا يُخلِف وعْدَه، ويجوز أن يُخلفَ وعيدَهُ"(3)، ثالثها: الميعاد مصْدر ميميٌّ، والمصْدر الميميُّ يَحمل معه عُنصر الذّات (النَّفس)(4)، فعندما يقول الحقُّ: ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ فإنَّه يَحمل ذاتًا مُنْتَظرة للميعاد وهي نفوس المؤمنين والكافرين، رابعها: الميعاد مصْدر ميميٌّ بمعنى الحدَث لا بمعنى الزَّمان والمكان وهو اللّائق بمفعوليَّة ﴿يُخۡلِفُ﴾(5)، وكونه ليس بمعنى الزَّمان والمكان دليل على إبهامه وعدَم تحديد وقت له فلا تَعْلمه نفسٌ، قَرُب أو بعد، خامسها: المَصادر الميميَّةُ فيها مُبالَغة وأصلُها أسماء الزَّمان جُعِلَت كناية عن المصْدر(6)، وإن كانت أشدَّ مُبالَغةً من المصْدر.

(1) عبدالرحمن بو درع، نحو قراءة نصّيّة في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(3) عبدالله الغنيمان، شرح فتح المجيد: 141/28.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

سِرُّ إفراد لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا جمْعها:

استواء كلّ المَواعيد عند الله تعالى

إيثار إفراد لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لبيان استواء كُلِّ المواعيد عند اللّه تعالى في السُّهولة واليُسرِ، فليس شيء بصعب وإنَّما كُلُّه هيِّن على اللّه، وقد يكون ذلك لبيان شِدَّة العدل الَّذي سيكون في الميعاد بحيث يَأخذ كُلُّ فريق حقَّهُ ساعة الميعاد، ويَفترق الكافر والمؤمن ساعتَه.

سِرُّ تعريف ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا تنكيره:

الثِّقة في تحقُّقه وعدالته

جاء تَعريف لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ إشارة إلى الوَثاقة في تحقُّقه وحصول العدل فيه، حتّى يكون حاضرًا أمامكم غير غائب، فيَثِق المؤمن بعَطاء اللّه وعَدْله، ويَنالُ الكافر جزاء ما قدَّم من عملٍ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

القرآن والكتاب:

الكتاب يشمل كُلَّ ما هو مكتوب من قرآن أو غيره

الكتاب يُطلَق على القرآن، وقد يُطلق على غيره من الكُتب السَّماويَّة كالتَّوراة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ [الأنعام: 91]، وقد جاء الجمْع بينهما - أيْ بين القرآن والكتاب - والمقصود واحد، وهو القرآن، في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النّمل: 1] فالكتاب هو القرآن، فجمع له بين الصِّفتَيْن: بأنَّه قرآن، وأنَّه كتاب لأنَّه ما يظهر بالكتابة ويظهر بالقراءة[1]؛ إذَن فالكتاب يُطلَق على القرآن لأنَّه مكتوب، ويُطلَق على غيره من الكتب، فالقرآن والكتاب اسْمان عَلَمان للمُنَزَّل على مُحمَّد ﷺ، ووَصْفان لأنَّه يُقرأ ويُكتب، فحيث جاء بلفظ التَّعريف فهو العَلَم، وحيث جاء بلفظ النَّكرة فهو الوصْف[2].

اليأس والقنوط:

القنوط شِدَّة اليأس واليأس أعَمُّ

في الفرْق بين اليأس والقنوط أقوال:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/154.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/207.

الأوَّل: القنوط شِدَّة اليأس، فهو يأس مُفرِط فيكون الفرق بينهما مثل الفرق بين الدُّعاء والاستغاثة، فالاستغاثة دعاء خاصٌّ في حالة خاصَّة وهي داخِلة في الدُّعاء، فيكون القنوط يأسًا؛ ولكنَّه أعظم اليأس وأشدُّه[1].

الثّاني: كِلاهما بمعنى قطْع الرَّجاء من رحمة الله، فإنَّ اليأس من مَنَعات القلب والقنوط ظهورُ آثارِه على ظاهر البدَن، جاء في الكشّاف: ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فُصِّلت: 49]، بولِغ فيه من طريقَيْن: من طريق بناء (فَعول)، ومن طريق التَّكرير، والقنوط أن يظهر عليه أثَرُ اليأس فيَتضاءل ويَنكسر؛ أيّ: يَقطَع الرَّجاء من فضل الله ورَوحه، وهذه صِفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87][2].

الثّالث: اليأس قد يأتي بمعنى العِلم، وهذا ما ليس في (القنوط) الَّتي تدلُّ على معنًى واحد فقط، ودليل معنى العِلم في اليأس قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[3].

الحلول والنُّزول:

الحُلول نتيجة للنُّزول، ولا يكون الحلول إلّا بنزول

يرى جمعٌ من أهل اللُّغة[4] أنَّ الحُلول هو النُّزول، فلا فرْق بينهما، لكن ابن فارس ذَكر أنَّ (حلَّ) الحاء واللّام له فروع كثيرة ومسائل، وأصلُها كُلّها: فتْحُ الشَّيء، لا يشِذُّ عنه شيء، يُقال: حلَلْتُ العُقدة أحُلُّها حلًّا، وتقول العرَب: (يا عاقِدُ اذْكُرْ حلّاً). وحلَّ: نزَلَ، وهو من هذا الباب لأنَّ المُسافر يَشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزَلَ حلَّ، يُقال: حلَلْتُ بالقوم، وحَليلُ المرأة: بَعْلُها، وحَليلَةُ المَرءِ: زوجُه، وسُمِّيا بذلك لأنَّ كُلَّ واحد منهما يَحِلُّ عند صاحبه[5].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 245.
(2) محيي الدين الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلّ).

فنخْلصُ من هذا النَّقل إلى أنَّ الفعلَيْن بينهما اشتراكٌ في أصل المعنى؛ لكن يختَصُّ الفعل (حلّ) بمعنًى زائد؛ وهو الفتح الَّذي ليس في (نزل)، وعبارة ابن فارس: وحلَّ: نزل، وهو من هذا الباب؛ لأنّ المُسافر يشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزل حَلَّ، فكأنّ الحلول نتيجةٌ للنُّزول، ولا يكون الحلول إلّا بنزول.

جميع وكلّ:

لفظة (كُلّ) أقوى صيَغ العموم، وتختَصُّ لفظة (جميع) بالدَّلالة على اتِّحاد الزَّمن

اللَّفظان من ألفاظ العموم[1]، وإن كانت (كُلّ) "أقوى صيَغه، فمادَّتها تقتضي الاستغراق والشُّمولَ، كالإكليل لإحاطَتِه بالرَّأس، والكلالة لإحاطتها بالوالِد والوَلَد"[2]؛ فلهذا كانت أصرَحَ صيَغ العموم لشمولها العاقِل وغيرَه، المُذكَّر والمؤنَّث، المفرَد والمثَنّى والجمْع، وهُما "اسمان يَدخلانِ على ما يعقل وعَلى ما لا يعقل"[3].

وصيغة (كُلّ) تكثر إضافتُها[4]، فإنْ أُضيفت إلى نكِرة مُفرَدة فهي لشمول جزئيّاتها كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185]، وإن أُضيفت إلى مَعرفة فالغالِب أن يكونَ جمْعًا أو ما في مَعْناه، وتكون لاستغراق جزئيّاته أيضًا، كقوله ﷺ: «كُلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته»[5]، وإن أضيفَت إلى مفرَد مَعرِفة كانت لاستغراق أجزائه، كقولك كلُّ الطَّريق آمنَة، وقد يُحذف المُضاف إليه فتُنَوَّن كما في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النّور: 41]، ولفظ (كلّ) يُفيد العموم ابتداءً وتَبعًا، فمثال الأوَّل ما سبَق، ومثال الثّاني قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحِجر: 30]، وأمّا لفظ (جميع) فلا يُضاف إلّا إلى مَعرفة، كقولك: (جميع علماء البلد

(1) الرّازيّ، المحصول: 2/394.
(2) أبو المنذر المنياويّ، الشّرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، ص: 235.
(3) أبو الحسين البصريّ، المُعتَمَد في أصول الفقه، ص: 191.
(4) عياض بن نامي السّلميّ، أصولُ الفقه الّذي لا يَسَعُ الفقيه جهله، ص: 299.
(5) رواه البخاريّ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الجمعة، بَابُ الجُمُعَةِ فِي القُرَى وَالمُدُنِ، الحديث رقم: (893).

حاضرون) ويكثر فيها حذف المُضاف إليه فتُنَوَّن كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ [يس: 53]، وإذا جاءت مؤكِّدةً فإنَّها تُنصَب على الحال غالبًا، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: 55].

ومن الفروق بين اللَّفظتَيْن أن لفظة (جميع) تدلُّ على اتِّحاد الزَّمن[1]، فإذا قيل: قوم جميعٌ؛ أيْ: مُجتمعون[2]، وهذا لا يُفيده (كلّهم)، فـ(الكُلُّ يُفيد الإحاطة دون الاجتماع)[3].

الوعد والميعاد:

تُجمَل الفروق بين الوعد والميعاد في ما يَلي:

الـوعـد تَـرْجـيَـةٌ ويكون في الخير والـشَّـرِّ والميعاد أشمَلُ منه

أوَّلًا: الوَعْد: أصله إنْشاءُ تَرْجية بالخير لإظْهار أمر في النَّفس يوجِب سرور المُخاطَب[4]، وقد يكون في الشَّرِّ، يُقال: وعَدْتُه بنفْع وضُرٍّ، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61]، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: 9] إلى غير ذلك. ومن الوَعْدِ بالشّرّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحجّ: 47].

ثانيًا: الميعاد أشمل معنًى من الوعد، فالوعد جزء من الميعاد، وفي الميعاد معنى الوعيد، فضمَّت لفظة (الميعاد) المعنيَيْن: معنى الوعد بخير، والوعيد بعِقاب.

ثالثًا: الميعاد مصْدر ميميٌّ، والمصْدر الميميُّ يَحمل معه عُنصرَ الذّات (النَّفس)[5]، وليس (الوعد) هكذا.

---

(1) مفهوم من كلام ابن هشام عن (أجمعون)، شذور الذّهب، ص: 553.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/391.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 939.
(5) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.

رابعًا: الميعاد مصدر ميميٌّ بمعنى الحدث لا بمعنى الزَّمان والمكان، وكونه ليس بمعنى الزَّمان والمكان دليل على إبهامه وعدَمِ تحديد وقت له فلا تعْلَمه نفْس، قرُب أو بعُدَ.

خامسًا: المَصادر الميميَّة فيها مُبالَغة ليست في المصْدر (الوعد)، وأصلها أسماء الزَّمان جُعلَت كناية عن المصْدر[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرّعد: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا طَلَب المشركون في الآيات السّابقة من الرَّسول ﷺ بعض الآيات على سبيل الاستهزاء والسُّخرية وكان ذلك شاقًّا على الرَّسول ﷺ، جاءت هذه الآية تَسليَة له ﷺ وتصبيرًا له على سفاهة قومه[1].

ومنها ما ذُكر في الآية السّابقة على هذه الآية مِن طلَب الكفّار سُخريةً واستهزاء أن تُسيَّر الجبال وتُقطَّع الأرض وتُكلَّم الموتى، وهم يَعلمون أنَّ القرآن ليس لهذا، فلا يكون إلّا سَببًا لنَيْلهم الجزاء الأوْفى من العِقاب والدَّمار، فتأتي هذه الآية تأكيدًا وتَسليَة للرَّسول ﷺ بأنَّه مَسبوق في مسألة الاستهزاء، فهو ليس بأوَّل الرُّسل وإنَّما يَسيرُ عليه ما سارَ على الرُّسُل من قَبْله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: الهُزْءُ: السُّخْرية، يُقال: هَزِئَ بِه، يهزَأ بِه، واستهزَأ بِه؛ أيْ: عامَلَهُ فِعلًا أو قَولًا يحصُل بِهِ احتِقارُه ... سواء أشْعَره بذلك أم أخفاه عنه، وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ أيْ: فقد سَخرَ الكُفّارُ برُسُلي الَّذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك[2]، والمعنى المحوريُّ: تحرُّكٌ وتحريكٌ قويٌّ بسببِ الخِفَّة؛ كما في تحريك الرّاحلة والإسراع، ومن ذلك: هَزِئَ به (كمنع وسمع): سَخِر، كتهزّأ واستهزأ. (وأصل هذا من استخفاف المُستهزِئ بالمستهزَأ به وذهاب قيمته عنده)[3].

2) ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾: الإملاءُ: الإمهالُ على جِهةِ الاستدراج، وهو من الملاوَةِ مِن الزَّمَنِ، وأصلُ (ملو): يدلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه؛ أيْ: أمهلْتُ وأطلْتُ المُدَّةَ[4]، والمعنى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/53.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هزأ، هزؤ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 228، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 472، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملا)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/314.

المحوريُّ: اتِّساع ما يجوز شيئًا أو امتداده، كالمُتَّسعِ من الأرض لِما فيه، وكذلك الفلاة، والرَّماد مُمتدٌّ من غيره ويُخْبَز فيه، والفترة المُمتدَّةُ من الزَّمان لَمن يعيش فيها(1).

3) ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: الأَخْذُ: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، وهو خِلاف العطاء، ومعناه "تحصيل الشَّيء في الحوزة بسرعة"(2)، ويُقال: أخذَتْه الحُمَّى، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النّازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 102].

4) ﴿عِقَابِ﴾: العِقابُ والمُعاقَبَةُ: مُجازاةُ الرَّجُلِ بالإيلام بما فَعَل مِن السّوءِ، وهي تختَصُّ بالعذاب، يُقال: عاقَبَهُ بِذَنْبِه، مُعاقَبَةً، وعِقابًا: إذا أخَذَهُ بِه، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تَتْلو الذَّنْبَ، من تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجُلَ؛ أيْ: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقوبات(3)، والمعنى المحوريُّ: لحاقُ غليظٍ بآخِرِ الشَّيءِ أو خَلْفه يَنْغَمِس فيه فيمتدُّ معه، كعَقِبِ القَدَم، وعَقَبُ المَتْنَيْنِ وما ذُكر معهما(4).

المَعنى الإجماليّ:

تسليَة رسول الله ﷺ ببَيان سُنَّةِ الله في المُستهزِئين

تُخبِر الآية الكريمة أنَّ الله تعالى قال لرسوله ﷺ: لا يَحزنك أمرُهم ولا يؤلمك استهزاؤهم فقد استهزأ الكُفّارُ برُسُلي الَّذين أرسَلْتُهم مِن قَبلك؛ فأمهلْتُ الَّذين كَفَروا، مُدَّةً، ثمَّ أحلَلْتُ عليهم عذابي، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعوديَ، فاصبِرْ على أذاهم. وفي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملو).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

هذا إرشاد للنَّبيِّ ﷺ ببيان سُنَّة الله في المكذِّبين، وتسليَةٌ له حتّى لا يَضيقَ قلبُه ذرْعًا، وتبشيرٌ له بالنَّصر وحُسن العاقبة(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

بيان سخريّة الكفّار من صاحب الدّعوة ﷺ

جاءت الواو لتُعطف جملة ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ لِما بينهما من تلازُم، لأنَّ المُثَل الثَّلاثة (تَسيير الجبال، تكليم الموتي، تشقيق الأرض) الّتي فُرضت؛ أُريد بها أمورٌ سألها المشركون النَّبيَّ ﷺ؛ استهزاءً وتعجيزًا لا لتَرَقّبِ حُصولها.

دلالة تعقيب الآية السّابقة بهذه الآية:

طبائع الأقوام الكافرة واحدة في الاستهزاء بالرُّسل

عُقِّبت الآية السّابقة ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ بهذه الآية ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ تسليّة لرسول الله ﷺ وأنّه ليس بِدْعًا من الرُّسل في استهزاء قومه منه؛ فقد استهزأ قومُ نوح به عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: 38]، واستهزأت عادٌ بهود عليه السلام: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ [الشُّعراء: 187]، واستهزأت ثمودُ بصالح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: 66]، واستهزأوا بشُعيب عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87]، واستهزأ فرعونُ بموسى عليه السلام: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ [الزُّخرف: 52](2).

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلَقَدِ﴾:

تأكيد سُخرية الكفّار من المُرسَلين

اللّام موطِّئة للقَسَم(3)، فهي تمكين للشّيء في النَّفس، وتقوية أمره، فكان ذلك تأكيدًا لما أُريد تأكيده وهو السُّخرية من الرُّسل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/544، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/322.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/148.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/121.

صلوات اللّه عليهم، وتأنيسًا لرسول اللّه ﷺ وتعزية، وفي تصدير الجُملة بلام القَسَم وحرْفِ التَّحقيق من الاعتناء بها ما لا يَخفى[1] لزيادة تحقيقِ مضمونها[2].

التّأكيد على وقوع الاستهزاء من الأقوام الكافرة لرُسُلهم

سِرُّ التَّعبير بـ(قد) مع الفعل ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾:

دلَّ التَّعبير بـ (قد) مع الفعل ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ على وقوع الاستهزاء من الأقوام السّابقة، وأكّدَ ذلك بأكثر من مُؤَكِّد لمُجابَهة المُنكِر لِما حدث للرُّسُل الكرام من استهزاء وسُخرية؛ لأنَّ حال مُشركي مكَّة حال مَن يتردَّد في أنَّ سبب هلاك الأُمَم السّابقة هو الاستهزاء بالرُّسل؛ لأنَّهم لو لَم يَتردَّدوا لَأخذوا الحيطة لأنفُسهم ونَظروا في دلائل صِدْق نبوَّته[3].

وفيه زيادة تسليَة للرَّسول ﷺ، فكأنّ (قد) جاءت "لإزالة الشُّكوك وإماطة اللِّثام عمّا أنت بصَدَدِه"[4]، مع مُلاحظة أنَّ (قد) تدلُّ على زمن الحال، مع أنَّ الماضي بعيد عن زمن الحال، لكن الجملة جاءت تنزيلًا له منزلةَ القريب، ليَحصل كمال التَّخويف[5].

قصديَّة الاستهزاء والمُبالَغة فيه

سِرُّ التَّعبير بالاستهزاء: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾:

الفعل (استهزأ) فيه الألف والسّين والتّاء، و(استفعل) فيها الطَّلَب، وكأنَّهم يَطلبون الهُزْءَ بالرُّسل، فهُم مَن يتعمَّدون ذلك، قال الرّاغب: "الاستهزاء ارتياد الهُزء، وإن كان قد يُعَبَّر به عن تعاطي الهُزء، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، إضافة إلى معنى المُبالَغة"[6] في الفعل فكأنَّ هؤلاء يبالغون مُبالغة لا يَتزحزحون عنها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/68.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.
(4) العلويّ، الطّراز: 2/176.
(5) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.

ثُمَّ إنَّ الفعل (استهزئ) أخَفُّ من (يسخر) كما قال ابن عاشور[1]، فصار الاستهزاء أمرًا يَسيرًا لا صعوبة فيه، وقد أشار الزَّركشيُّ إلى الفرّق بين السُّخرية والاستهزاء، فقال: "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسُّخرية قد تكون في النَّفس ولهذا يقولون: سَخِرْتُ منه، كما يقولون: عجِبتُ منه"[2].

ولذلك فالتَّعبير بالاستهزاء هو المُناسِب هُنا دون السُّخرية؛ لأنَّ كُفّار مكَّة يُريدون إلصاق التُّهَم برسول اللّه ﷺ من غير وجود لها، وكانوا يُعلنون ذلك في أنْديَتهم ومجالسهم.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

التَّركيز على عمليَّة الاستهزاء، وتحقير المُستهزِئ

ذلك البناء للتَّحقير، فهُم ليسوا أهلًا للذِّكر، فهو تعريضٌ على نحْوقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾[3] [التَّكوير: 8 - 9] مع أنَّ الفاعل للاستهزاء معروف، وهم كُلُّ الأقوام الَّذين أرسلَ إليهم الرُّسل، مع التَّركيز على عمليَّة الاستهزاء دون المُستهزِئ، وبناء الفعل هنا واشٍ بأنَّ ذلك الاستهزاء صار طبيعة مُتمكِّنةً في الأقوام الَّذين يُرسل لهم الرُّسلُ المُصلحون؛ فلَم يَسلم رسولٌ من ذلك الاستهزاء، فلستَ ببِدْعٍ في ذلك، "والمقصود ممّا سبَق هو ترتّب أثَرِ الاستهزاء لا تعيين المُستهزئين"[4]، إضافة لذلك فالبناء للمفعول دالٌّ على أنَّهم يَطلبون من الآخرين أنْ يهزأ بشخص مُعَيَّن، وهذا عليه إثْمُه وإثم مَنْ أوعز له بالسُّخرية من هذا الشَّخص[5].

دلالة إيثار ﴿بِرُسُلٖ﴾ على (بأنبياء):

الرُّسل أخصُّ من الأنبياء

التَّعبير بالرُّسل في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ﴾ فيه فائدتان،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/381.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/523.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7350.

الأولى: المُناسَبة اللَّفظيَّة بين اللَّفظة والفعل ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ في الآية قبل السّابقة عليها، الثّانية: ثَمَّ فرْقٌ بين النَّبيِّ والرَّسول وهو أنَّ الرَّسول أخَصُّ، فكلُّ رسول نبيٌّ؛ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، فإنَّ الرَّسول يختصُّ بمَن جعله واسطة بينه وبين عباده لتَبْيين أحكام بوحْيٍ مسموع عن مَلَكٍ، والنَّبيُّ قد يُقال لِمَن يُجدِّد على النّاس شريعة مَن تقدَّمه وإن كان يوحَى إليه بإلهام أو مَنام[1].

وفيه إشارة إلى أنَّهم إذا كانوا يَستهزئون بالرُّسل، فمن باب أوْلى يَستهزئون بالأنبياء.

دلالة التَّنكير في ﴿بِرُسُلٖ﴾ دون التَّعريف:

بيان عظَمة الرُّسُل وكثرتهم

للتَّنكير دلالة التَّعظيم والتَّكثير[2]؛ أيْ: برُسل كثيرة؛ فهؤلاء المُرسَلون هُم قوم مُصطفَوْن من خيار النّاس وأفاضلِهم وأنفَسهم، ومَنبع التَّعظيم أنَّهم الصَّفوة، ومنبعُ الكثرة جمْع الكلمة، والجمع مُفيدٌ للتَّعدُّد، وفيه إشارة إلى أنَّه لَم يَسلم من استهزائهم رسول من الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

تعرُّض الرُّسُل للاستهزاء، وتعرُّضه ﷺ لِما تعرَّضوا له

في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾: (من) ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمَحذوف وقَع صِفة لِـ(رُسُل)؛ أيْ: وباللّه لقد استُهزئ برُسل أولي شأنٍ خطيرٍ وذَوي عدد كبير كائنينَ من زمانٍ قبلَ زمانك، على حذْف المضافِ وإقامةِ المُضاف إليه مقامَه[3]، ودلَّت (من) الابتدائيَّة أيضًا على أنَّ كُلَّ رسول تعرَّض لِما تعرَّضتَ له من بَدء الإرسال، وكأنَّ هؤلاء الأقوام صاروا أهل عَراقة في الاستهزاء والسُّخرية، إضافة إلى أن ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ يَدُلُّ على جُمَلَةٍ مَطْويةٍ إيجازًا، تقديرها:

---

(1) الرّاغب، المُفردات: 3/1310.

(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/505، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

واستهزأوا بِكَ، ولقد استهزأت أُمَم برُسل من قبلك؛ لأنَّ قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ يؤذِن بأنَّه قد استُهزئ به هو أيضًا، وإلّا لَم تكُن فائدة في وصْف الرُّسُل بأنَّهم من قبْله؛ فإنَّ ذلك معلوم[1].

دلالة كافِ الخِطاب في: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

تكريم الرَّسول ﷺ وتسليَته

الكاف هُنا صورة من صوَر التَّكريم لرسول اللّه ﷺ، وتسلية وتعزية، ومعهما النُّصرة والظَّفَرُ على هؤلاء الكافرين المُعانِدين.

نكتة إيثار الفاء في قوله: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾:

وصْل زمن الاستهزاء بزمن الإملاء

الفاء هُنا دالَّة على مَطْلِ الزَّمن[2] ووَصْل زمن الاستهزاء بزمن الإملاء، فكأنَّها هُنا بمعنى (إلى)[3]؛ أي: استُهزئ بالرُّسل قبْلك من بداية الإرسال إلى الإملاء، وفي هذا التَّأكيد على استمرار الإملاء على الرَّغم من التَّمادي في الكُفر عسى أن يكون منهم المُؤمنون بعدُ، وتكون الفاء هُنا للسَّببيَّة أيضًا؛ فيكون الاستهزاء سببًا في الإملاء؛ والمعنى: "فتَسبَبَ عن استهزائهم ذلك أنّي أمليَت"[4] رحمةً أو استدراجًا؛ كما قال ربُّنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وقد تكون "للتَّعْقيب دَلَالَةً عَلى أَنَّ تَقْديرَ هَلاكِهِم حاصِل من وقْتِ تَكْذيبِهِم وإنَّما أُخِّرَ لَهُمْ"[5].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾ لا (فأمهلتُ):

تَضاعُف العذاب في الإملاء عن الإمهال مع مُصاحَبة الاستدراج

الإملاء أشدُّ من الإمهال كثيرًا، لأنَّه يَتَضاعف به العذاب[6]، ويُصاحِبه استدراجٌ لزيادَة الإثم والخطأ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا؛ فيؤخَذ بالعقوبة[7]؛ لذا أوثِر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) الخضريّ، من أسرار حروف العطف في الذّكر الحكيم، ص: 70.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/364.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(6) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.

دلالة الإسناد في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

حضور صِفة القُدْرة والهيمنة مع طمأنة الرَّسول ﷺ

التَّعبير بتاء الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ لِمُناسَبة ما بعدَها، الفعل ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ بتاء الفاعل أيضًا، وفيه مُخاطَبة للرَّسول ﷺ: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾، فاستمرَّ الحوار بتاء الفاعل أيضًا، ويُصَوِّر الفعل بتاء الفاعل الحضورَ الفاعل لِصفَة القويّ المُقتَدِر، وفيه أيضًا طمأنةٌ للرَّسول ﷺ بأنَّه مَعهُ وناصِره في كُلِّ مراحِل دعْوَته.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (لهُم):

سبب هلاكهم الجمْعُ بين وصْفي الاستهزاء والكُفر

العدولُ في الصِّلة إلى وصْف الكُفر ليس لأنَّ المُمْلَى لهم غيرُ المُستهزئين، بل لإرادة الجمعِ بين الوَصْفيْن؛ أيْ: فأملَيْت للّذين كفروا مع استهزائهم[1]، والتَّعبير بـ (لهُم) يُفوِّت هذي النُّكتة، ثُمَّ إنَّ التَّعبير بالاسم الموصول مع الصِّلة دالٌّ على أنَّ ذلك لِكُلِّ كافر لا لهُم وحدَهم، إضافة إلى أنَّ "وضْع الظّاهر موضع الضَّمير؛ للإيماء إلى أنَّ عِلَّة الإملاء لهم ثُمَّ أخْذهم هو الكُفر بالرُّسل، تعريضًا بالنِّذارة لمُشركي قريش"[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين):

ثبات الكُفر في نفوسهم، واستمساكُهم به

إيثار القرآن للاسم الموصول (الّذين) مع صِلته فيه إيماءة إلى ثبات الكُفْرِ في نفوسهم، واستمساكهم به؛ فلا مجال لتغيير عقيدتهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادت الذَّمَّ، فإتْيان الموصول الماضي قُصِدَ به الالتباسُ والاسْتصحاب[3]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلَته يَدُلُّ على اختيارهم الكُفْرَ بإرادتهم من دون تَدَخُّلٍ في اختيارهم، وثَمَّ مَلحظٌ آخَر، وهو مُراعاة التَّناسُب، ذلك أنّ هذا السّياق بكامله وظَّف الاسم الموصول مع صِلته دون اسم الفاعل،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/283.
(3) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 187/1.

وهذا ظاهرٌ من الآية التّاسعة والعشرين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والحادية والثّلاثين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكذا الثّانية والثّلاثون.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾:

طول الإمهال رجاء إيمانهم

جاءت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ للدَّلالة على التَّراخي وإطالة الأمَد؛ وجاء التّعبير بها في قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ دون غيرها من حروف العطف لبيانِ أنّه أمدَّ لهم أمَدًا غيرَ قصير، حتّى ظَنّوا أنَّه لا مُؤاخَذة على ما يفعلون، وغرَّهم الغَرور، وحسبوا أنَّ الدُّنيا قد طابَتْ لهم بحذافيرها[1]، والتَّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ فيه فرصة لِمَن راجَعَ نفسَه وعقله ليُدرِك أنَّ ما جاء به الأنبياء حَقٌّ فيؤمن ويَترُك الكُفر والصُّدود.

دلالة التَّعبير بالأخْذ ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾:

قوَّة الأخذ والإشعار بالسُّلطان وشِدَّة الهيمنة

توظيف الأخْذ، فيه فائدتان: الأولى: فيه من الدَّلالة على تَناهي كيفيَّته في الشِّدَّة والفظاعة ما لا يخفى[2]، الثّانية: إشعارهم بالسُّلطان؛ لأنَّ الأخْذ يتضمَّن أنّهم صاروا غير خارجينَ عن سُلطانه؛ فالأخْذ أقصى ما يَدُلُّ على التَّمكُّن، وأن يكونوا في قبضته يُصرِّفهم كيف يشاء[3].

سِرُّ التَّعبير بتاء المُتكلِّم ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾:

شِدَّة الغضب وتحقير الكُفّار مع المُشاكَلة اللَّفظيَّة

فائدة صرْف القول لتاء الفاعل، كما يقول البقاعيّ[4]، دفْعُ الإلباس، وإشارة إلى شِدَّة الغضب، وتوظيفُ تاء الفاعل بدلًا من (نون العظَمة) جاء استصغارًا لهم: ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾؛ أيْ: أهلكْتُهم وهم صاغِرون؛ غضَبًا عليهم وإهانة لهم، إضافة إلى المُشاكَلة اللَّفظيَّة بتاء الفاعل بيْن الفِعليْن ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ و﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾، ثُمَّ ياء المُتكلِّم في ﴿عِقَابِ﴾؛ أيْ: عِقابي.

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3955.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3955.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/10.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَكَيۡفَ﴾:

اتّحاد وقت العقاب مع الاستفهام

دلَّت الفاء العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ﴾ على مَدى مُطابَقة الاستفهام لكيفيَّة الأَخْذ؛ فكأنَّ حَقَّ ذلك الاستفهام أن يَحصل عند ذِكر الأَخْذ[1]، كما دلَّت الفاءُ على السَّببيَّة؛ لبيان أنَّ الكُفْرَ سبب العِقاب بعد الإمهال الطَّويل لهؤلاء الكفّار الصّادّينَ عن دعوة الأنبياء.

سِرُّ الاستفهام بـ ﴿فَكَيۡفَ﴾ دون غيرها:

تشابُه الأحوال والأطْوار مع دلالات التَّعجُّب والوَعيد

في التَّعبير بـ ﴿فَكَيۡفَ﴾ تنبيه على أنَّ حال مَن استهزأ بك - وإن أُمهلَ - حال أولئك الأقوام الغابرين في أَخْذِهم، وهذا وَعيد لهم، وأنَّ حالَكَ حال مَن تَقدَّمك من الرُّسل[2]، استهزاءً وسخريةً، والاستفهام معناه التَّعجُّب بما حَلَّ، وفي ضِمنه وعيدُ مُعاصِري الرَّسول ﷺ من الكفّار[3]، فهو سؤال لا يحتاج إلى جواب، فلقد كان عِقابًا تتحدَّث به الأجيال.

دلالة ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ﴾:

الدَّلالة على الاستمرار المُنذر بالتَّهديد والوعيد

في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ﴾ آثر النّظم القرآنيُّ الإتيانَ بـ ﴿كَانَ﴾ للدَّلالة على الاستمرار[4]، فهي ماضٍ مع دلالته على الدَّوام، فضمَّت زمَنَيْن: الماضي والحاضر، فهي تُشير إلى اقتران مضمون الجملة بالزَّمان الماضي من غير تَعرُّض للانقطاع، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ [النّساء: 96]، ولذلك يُعبَّر عنها بأنَّها تُرادِف (لَم يَزَل)[5]؛ لمُحاوَلة التَّخويف والإيعاد بطول العِقاب وشِدَّتِه فحدوثه ماضيًا لا يعني انقطاعَه وتوقُّفَه في الحاضر.

دلالة التَّعبير بـ ﴿عِقَابِ﴾ دون غيره:

دخول العذاب في معنى العِقاب مع دلالة التَّهديد

في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إشارة إلى أنَّ الجزاء من جنس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/393.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/239.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/100.

العمل، لأنَّ مُسمَّى العِقاب إنَّما يُراد به في الغالب أَخْذٌ بعذاب مُناسب لحال المُجرِم إثْرَ مَعصيته وعَقيبَ جريمته[1] مع اختصاص لفظة ﴿عِقَابِ﴾ بالعذاب في القرآن كما أشار الرّاغب[2]، فالعذاب داخل في مفهوم العقاب، مع دلالة العقاب على التَّهديد والوعيد لِكُلِّ مَن يَفعل ذلك؛ لأنَّ الاعْتِقاب معناه أن يَتَعاقب شيءٌ بعدَ آخَر كاعْتِقاب اللَّيل والنَّهار[3]، فدلَّ اللَّفظ على أنَّ مَن استهزأ بالرُّسل عوقِب، فكأنَّه ﷻ وعَده ﷺ بعقوبة مَن استهزأ به عليه السلام إن أصَرَّ على ذلك[4].

دلالة حذْف الياء في قوله: ﴿عِقَابِ﴾:

حُذفت الياء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لوجود ما يَدُلُّ عليها، والمحذوف مع وجود ما يدلُّ عليه يكون كالمذكور في دلالة المعنى، ولموافقة رؤوس الآي فكلُّها يَنتهي بالياء المكسورة، وكسر الباء دالٌّ عليها، وثَمَّ مَلْحظ ذكَرَه البقاعيُّ[5]، وهو أنَّ حذْف ياء المُتَكلِّم إشارة إلى أنَّ أدْنى شيء من عِقابه وبأدنى نِسْبَةٍ كافٍ في المُراد، وإنْ كان المُعاقَبَ جميعُ العِباد، بدليل ما أصاب الأُمَم السّابقة من غرق وخسْف وصاعقة ونحْو ذلك.

الهيمنة والقُدْرة المُطْلَقة، مع مُراعاة رؤوس الآي

توجيه المُتشابِه اللَّفظيّ في الآيات:

المَوضِع الأوَّل: بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟﴾ [الأنعام: 10].

إنَّ النّاظر في الآيتَيْن يجِدُ اتِّفاقًا في صدْر كُلٍّ منهما مع اختلاف العَجُز؛ ففي سورة الأنعام جاء التَّعبير بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾ [الأنعام: 10]،

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/96.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/10.

لأنَّه سَبَقَهُ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: 5]؛ فالمُلاحظ أنَّه ﷻ أمهلَهم وأنذرهم بعاقبة أمرِهم؛ لذلك كان التَّعبير بالفعل ﴿فَحَاقَ﴾ [الأنعام: 10] هو المُناسب؛ لأنَّ الحوْق إزالة؛ فكان العِقاب في الأنعام أشَدَّ؛ لأنَّ السُّخرية كُفر وزيادة، إضافة إلى أنَّ السّياق في سورة الأنعام سياق طويل استغرَقَ نحو السَّبعين آية حول الكُفّار وعِنادهم؛ لذا كان العذاب أشدَّ، أمّا سورة الرَّعد فالإمهال موجود؛ طَمَعًا من المسلمين في إيمانهم وتَكْثيرهم سوادَ المُسلمينَ؛ لذا عبَّر بـ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وفيها إنظار، والسّياق في سورة الرَّعد لَم يتطاول تطاولَ السّياق في الأنعام فاختلف الجزاءُ، وقد يكون التَّغاير من باب تعدُّد أنواع العذاب، وتعدُّد المواقف، فقوم يُعذبون ويُهلكون، وقوم يُمهَلون لمشيئةٍ ما، فتغايَر النَّظمُ.

الموضع الثّاني: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾ [الحجّ: 44]:

العِقاب أشَدُّ مَوقعًا من النَّكير؛ لأنَّ الإنكار يَقَع على ما لا عِقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، وأمّا مُسَمَّى العقاب، فإنَّما يُراد به في الغالب أخْذٌ بعذاب مُناسِب لحال المُجرم إثْر معصيته وعَقيب جريمتِه، وقد تقدَّم في آية الرَّعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، والاستهزاء أمر مرتَكَب زائدٌ على التَّكذيب من التَّهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكَبة أشنَعُ جريمة، فناسَبها الإفصاحُ بالعقاب. أمّا آية الحَجِّ فإنَّ الوعيد (بها) للمَذكورين بالتَّكذيب ولَم يُذْكر منهم استهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ﴾ [الحجّ: 42 - 44]، فلَم يخبر عن هؤلاء بغير التَّكذيب ليس كالاستهزاء، فقد يُؤمن المُكذِّب ويَصلح حالُه، أمّا المُستهزئ فلا يصلح، وقد كفى اللّه نبيَّه إيّاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحِجر: 95]، فناسَب النَّظم تعقيب كلِّ آية بما يُناسب مرتَكب مَن قدّم، ولَم يكن عكس الوارد ليناسِب[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الاستهزاء والسُّخرية:

الاستهزاء مُبالَغة في السُّخرية

الاستهزاء استفعال في الطَّلب، فكأنَّ فاعلَه يَطلُب الهُزْء، فهو مَن يتعمَّد ذلك، قال الرّاغب: الاستهزاء ارتياد الهُزْء، وإن كان قد يُعبَّر به عن تعاطي الهُزْء، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، إضافة إلى معنى المُبالَغة[1] في الفعل فكأنَّ هؤلاء يبالِغون مُبالغة لا يتزحزحون هُنا عنها، ثُمَّ إنَّ الاستهزاء أخفُّ من السّخرية كما قال ابن عاشور[2]، فصار الاستهزاء أمرًا يسيرًا لا صعوبة فيه، وقد أشار الزَّركشيُّ إلى الفرْق بين السُّخرية والاستهزاء، فقال: "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسُّخرية قد تكون في النَّفس، ولهذا يقولون: سخِرْتُ منه، كما يقولون: عجِبْتُ منه"[3].

وممّا يُذكر في الفرْق بينهما أنَّ بعض عُلماء اللُّغة فرَّقوا بينهما من ناحية التَّركيب؛ فيُقال: (سخر منه، وهزئ به)؛ فاقترن فعل السُّخرية بحرْف الجرِّ (من)، واقترن فعل (الاستهزاء) بحرْف (الباء)، وآيات القرآن تؤكِّد ذلك فغالب استعمال القرآن للفعل (سخر) جاء مُتعدّيا بحرْف (مِن) الدّالِّ على الاعتداء، وفعل الاستهزاء تعدّى بحرْف الباء الّذي يَدُلُّ على الإلصاق.

وممّا يُذكر في الفرْق أيضًا أنَّ السُّخرية توصَف بالشِّدّة ووجود سبب يَدعو إليها بينما الاستهزاء لا يقتضي وجود سبب يدعو إليه، وإنَّما هو إلصاقٌ للعَيب والذَّمِّ بمَن لا يستحقُّه حَسَدًا أو حِقْدًا[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.

(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/381.

(4) محمّد داوود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 284.

الإملاء أشَدُّ من الإمهال

الإملاء والإمهال:

الإملاء أشدُّ كثيرًا من الإمهال، لأنَّه يَتضاعف به العذاب[1]، ويُصاحِبه استدراج لزيادة الإثم والخطأ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا؛ فيُؤخَذ بالعقوبة[2].

العذاب داخل في مفهوم العقاب، والعقاب فيه دلالة على التَّهديد والوَعيد

العِقاب والعذاب:

مُسمَّى العقاب إنَّما يُراد به في الغالب أَخْذٌ بعذاب مُناسب لحال المُجرم إِثْر معصيته وعَقيب جريمته[3] مع اختصاص لفظة ﴿عِقَابِ﴾ بالعذاب في القرآن كما أشار الرّاغب[4]، فالعذاب داخل في مفهوم العقاب، مع دلالة العقاب على التَّهديد والوعيد لِكُلِّ مَن يفعل ذلك؛ لأنَّ الاعْتقابَ معناه أن يَتعاقب شيء بعد آخَر كاعتقاب اللَّيل والنَّهار[5].

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.
(4) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (عقب).

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [الرّعد: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكرت الآيات السّابقة قُدْرته ﷻ على رفْع السّموات وخفْض الأراضين ونصْب الأدلّة على وحدانيته بباهِر الآيات البيِّنات، وقُدْرتَه على الثّواب والعِقاب، وأنّ ذلك ليس لأحد سواه، ناسَب أن تأتيَ هذه الآية للتّأكيد على وحدانيّته ورفْض عبادة الأصنام والأوثان؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ الآية.

ومن المناسبة أيضًا: لمّا ذكر الله الوعيدَ للكافرين والجوابَ عن اقتراحهم الآياتِ على رسول الله ﷺ، أوْرَدَ تعالى على المشركين في هذه الآية ما يَجري مجرى الحِجاج عليهم، وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، وكيف أنّها وصلَتْ إلى حدٍّ لا ينبغي لعاقل أن يَقبلَه ولا يرضى به فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَآئِمٌ﴾: القائم: الحافظ لكلِّ شيءٍ، والمُعطي له ما به قِوامُهُ، وذلك هو المعنى المذكور في قوله، ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾، فهو تعالى مُتولّيها ومُدبِّرُها في جميعِ شُؤونها في الخَلْقِ والأجَلِ والرِّزْقِ، والعالم بأحوالها وأعمالها[2]، والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشَّيْء إلى أعلى ثابتًا، كَقامَة الإنسان، وقيامِه، وثَبات الدّابَّة، والماء في مكانه[3].

2) ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾: الكَسْبُ: الجَمْعُ والتَّحصيلُ، تقول: كَسَبتُ مالًا، واكتسبتُه كسْبًا واكتسابًا؛ أيْ: جَمعْتُه وحصّلتُهُ، وأصلُه: الطَّلَب والسَّعي، ويأتي بمعنى الشَّيء المُكتَسَب،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/107.
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 373، والرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

وفِعل الشَّيْء بالجارحة، ومعنى ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾؛ أيْ: بما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، فلا تَخفَى على اللّه تعالى خافيَةٌ، فيُثيبها إن أحسَنَت، ويُعاقبها إن أساءَتْ[1]. والمعنى المحوريُّ: جَمْع الشَّيء وتحصيلُه (شيئًا بعد شيء) بجُهْدٍ ما أخذًا من حيث كان: كما تأخذ الجوارحُ (الكلابُ والطّيورُ المُعلَّمة الصَّيدَ) فرائسَها (مرَّةً بعد أخرى)، وكما يُجمع المالُ من مظانّه (شيئًا بعد شيء)، ومنه: الكَسْب: طَلَبُ الرِّزق[2].

3) ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾: الاسْمُ: اللَّفظ الدّالُّ على الشَّيء، ويأتي بمعنى اللّفظ الدّالّ على معنى في نفْسه. وأصلُه مِن السُّموِّ، وهو: العُلوّ، أو مِن السِّمَة، وهي: العَلامَة. ومعنى ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾؛ أيْ: سَمّوا مَن له صِفات يَستحِقُّ بها الأُلوهيَّة، وهذا على سبيل الإنكار عليهم؛ لأنَّه ليس للأصنام أسماء الخالِقين ولا صِفاتهم[3]، والمعنى المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء أو شخوصه مُلتَئِمًا ظاهره وأعلاه على ما تحتَه: كالسَّماء المُلتئمة كالسَّقف فوقَنا، وكسَقْف البيت عليه، وأعلى الفرَس دونَه بدنُه وقوائمُه[4].

4) ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾: النَّبَأُ: خبَر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلمٌ أو غلبة ظَنٍّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نبأ حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثّلاثة، تقول: نَبَأ ونَبَّأ؛ أيْ: أخْبَر، والمعنى: أتُخبرونَ اللّه بِشركاء لا وجودَ لهُم في الأرض؟[5]، والمعنى المحوريُّ: ظهور أو طُروء مَسبوق أو مكنوفٌ بخفاءٍ ما[6].

5) ﴿بِظَٰهِرٖ﴾: الأصل في (الظّاهِر): الواضِحُ البَيِّنُ، ويأْتي بِمعنى البارِزِ والمُنْكَشِف، غير أنَّ له هاهُنا تفسيرَيْن؛ أحدهما: أنَّه كلامٌ ظاهِر، وليس له في الحقيقةِ باطِن ومعنى رُجوع إلى حقيقةٍ، والثّاني: أنَّ معناه الباطل الزّائل، من قولهم: ظهر عنّي هذا العَيب؛ أيْ: لَم يَعلق بي ونبا عنّي، ومنه قول أبي ذؤَيْب[7]: (وتِلْكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها)؛ أيْ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كسب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سمو).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(7) البيت من بحر الطَّويل، في ديوان الهذليّين: 1/21، وصدْره: وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنّي أُحِبُّهَا.

باطل وزائل[1]، والمعنى المحوريُّ: بُروزٌ من أثناءٍ أو باطنٍ إلى سَطْح، مع شِدَّة وغِلَظٍ أو قوَّة، كالظَّهر من الأرض، ومن الحيوان والإنسان وكظَواهر الأوديَة والجبل بالنِّسبة لِما دونها[2].

6) ﴿زُيِّنَ﴾: الزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْن، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تَصْيير الشَّيْء زَينًا؛ أيْ: حَسَنًا؛ أيْ: زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ جَعْلَ تلك الأصنام والأوثان والشُّركاء آلِهةً تُعبد من دون اللّه، وقيلَ: الَّذي زَيَّنَ للكافِرينَ مَكْرَهُمُ اللّه تَعالى[3]، والمعنى المحوريُّ: زيادةٌ محببةٌ تعلقُ بظاهر الشَّيء (ناشئة) عمّا يَزخر به باطنُه، كعُرف الدّيك ونبات الأرض عليها، وثمرة النَّخلة لها[4].

7) ﴿مَكْرُهُمْ﴾: المَكْرُ: صَرْفُ الغير عمّا يقصِدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: مَكرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعل جميلٍ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح، وعلى ذلك قوله: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾، والمُراد به هُنا: كفرُهم ومسالكُهم الخبيثة ضدَّ الإسلام والمسلمين[5]، والمعنى المحوريُّ: اختزانُ رقيقٍ أو لطيفٍ في الأثناء فتكْتَنز به ولا يَبرز متميِّزًا. كاختزان الحبوب في البيوت، والماء في أثناء الأرض، والشَّحم في السّاق المُلتفَّة، والنَّدى في الرّطبة الصُلْبة، ومنه المَكْرُ وهو (احتيال في خُفية)، فالمكر هو تدبير (يخْفى ويُخْتَزَن) لأحْداثٍ أو أُمور لِتَقَعَ في المُستقبَل على نحوٍ ما، فاختزان هذه الخطوات المُعَدَّة للمُستقبل هو المكْر (ومَأْخذ هذا من الأصل واضح)، ويكون ذلك التَّدبُّر لخير أو لشرٍّ، وأقرب ألفاظِهم له هو الكيْدُ[6].

المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّنُ لنا الآية الكريمةُ لَونًا من الحِجاج مع المُشركينَ، يتضَمَّنُ توبيخًا لهم، وتعجيبًا من عُقولِهم، فيقولُ سُبحانه: أفمَن هو قائِمٌ على شُؤونِ جَميع العِبادِ - من أرزاقٍ وغيرِها - رقيبٌ على ما يَكسِبونَه من أعمالٍ، حافِظٌ لها، ومُجازٍ عليها، كمَن ليس كذلك من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(5) الرَّاغب، المفردات: (مكر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).

توبيخ المشركين وإثبات الوحدانيّة

هذه الأصنام؟!، وجعَلوا للّه شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم، قلْ لهم - يا مُحمَّدُ: سمّوهم بالأسماءِ الَّتي يَستحقّونَها ما دُمْتُم جعَلْتموهم شركاءَ للّه، ولن يَجِدوا ما يَجعَلُهم أهلًا للعبادةِ، أم تُخبِرونَ اللّه بشُرَكاءَ في أرضِه لا يعلَمُهم، أم تُسَمّونَهم شُرَكاءَ بظاهِرٍ مِن اللَّفظِ مِن غيرِ أن يكونَ لهم حقيقةٌ! بل حُسِّنَ للكُفّارِ قَولُهم الباطِل، وصُرِفوا عن سبيلِ اللّه، ومَن يُضلِلْه اللّه فلا أحدَ يهديه، ويأخذُ بيدِه إلى الحقِّ والرَّشادِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيّ:

دلالة فصْل ﴿أَفَمَنۡ هُوَ﴾:

استحقاقه للعبادة دون سواه وأدلَّة ذلك

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ عَمّا قبْله؛ لأنَّه يجري مجرى الحِجاج على الكفّار، وذلك بما تقرَّر من إثبات قُدْرته تعالى وقيّوميَّته على خَلْقه وأنَّ الأصنام والأوثان ليس لها وجود حتّى تُعبد من دون اللّه.

غرض الاستفهام في: ﴿أَفَمَنۡ﴾:

إنكار المُساواة بين الخالِق والمَخلوق

غرض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ إنكارٌ تلك التَّسويَةِ المُفاد من لفظ شُركاء[2]، وفي ثنايا الإنكار يأتي التَّعجُّب والتَّهكُّم من هذا الفعل المُستغرَب، فالمُساواة بين الخالق والمخلوق أمر تتجنّبه العقول السَّليمة، فالاستفهام اتِّهام لعقول الكافرين؛ لأنَّها وصلتْ إلى حدٍّ لا ينبغي لعاقل أن يقبله ولا يرضى به.

سِرُّ التَّعبير بالفاء في: ﴿أَفَمَنۡ﴾:

إنكار توهُّم المُماثَلة بين الله ومخلوقاته

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أُدخلت الفاء لتوْجيه الإنكارِ إلى تَوهُّم المُماثلة بعدما عُلم مِمّا فَعل تعالى بالمُستهزئين، من الإملاء المديدِ والأخذ الشَّديد، ومن كون الأمرِ كُلّه للّه تعالى وكونِ هداية

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/545، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

النّاس جميعًا منوطةً بمشيئته تعالى، ومن تواتُر القوارعِ على الكَفَرة إلى أنْ يأتيَ وعدُ اللّه، كأنَّه قيل: آلأمْرُ كذلك؟ فمَن هذا شأنُه، كما ليس في عِداد الأشياء حتّى تُشرِكوه به(1).

دلالة حذْف خبَر ﴿أَفَمَنْ﴾:

التَّحقير وضَعف الإيمان

الخبر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ﴾ محذوفٌ دلّت عليه جملة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾. والتَّقدير: أمَن هو قائمٌ على كُلِّ نفس ومَن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة؟! ودَلَّ على هذا التَّقدير ما تقتضيه الشَّركة في العبادة من التَّسوية في الإلهيَّة واستحقاق العبادة(2)، والغرض من الحذْف الدَّلالة على تحقير الشَّريك المُدَّعَى، بحيث لا يليق أن يُذكَر مع صفات اللّه وقيّوميَّته، وإنَّما حسُن حذفه كون الخبَرِ مُقابِلًا للمبتدأ، وقد جاء مبيّنًا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النّحل: 17](3).

دلالة تفريعات الفاء في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

تماسُك الآيات مع بيان كُفرهم وشِدَّة عِنادهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ﴾ تفريع على جُملة ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ المُجاب به حكاية كُفرهم المضمَّن في جُملة ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾؛ فالتَّفريع في المعنى على مجموع الأمرَيْن: كفرهم باللّه، وإيمان النَّبيِّ ﷺ باللّه. ويجوز أن تكون تفريعًا على جملة ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، فيكون تَرَقّيا في إنكار سؤالهم إتيان معجزة غير القرآن؛ أيْ: إن تعجَب من إنكارهم آيات القرآن فإنَّ أعجَب منه جَعْلهم القائم على كُلِّ نفْس بما كسبت مُماثِلًا لمَن جعلوهم للّه شركاء(4).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

سِرُّ العدول عن اسم الجلالة في: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾:

تخطِئة أهل الشِّرك وبيان غَباوتهم

العدول عن اسم الجلالة إلى الموصول في قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بسبب أنَّ في الصِّلة دليلًا على انتفاء المُساواة، وتخطِئةً لأهل الشِّرك في تشريك آلهتِهم للّه تعالى في الإلهيَّة، ونداءً على غباوتهم، إذ هُم مُعترفون بأنَّ اللّه هو الخالق والمُقدِّر باعتقادهم ذلك هو أصل إقامة الدَّليل عليهم بإقرارهم، ولِما في هذه الصِّلة من التَّعريض[1].

دلالة الضَّمير في قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾:

اتّساع المعنى وتَغايُره مع دلالة تعظيم كلٍّ

عبَّر البيان القرآني بالضَّمير دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ لاتِّساع المُراد به؛ فيجوز إطلاقه عليه سُبحانه؛ فإنَّه المتولّي لأمور خَلْقه المُدَبِّر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كُلِّ نفْس من الأنفُس كائنة ما كانت، وقد يَدُلُّ الضَّمير على الملائكة الموكَّلين ببني آدم[2] فالملائكة قائمة عليهم تُحصي أعمالَهم في كتاب، فكان توظيف الضَّمير مُفيدًا في اتِّساع المُراد به.

نكتة الاستغناء عن تقدير مُعادِلٍ للهمزة:

قوّة الحذْف لانحصار تقدير المحذوف

في قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ جاء سِرُّ الاستغناء استخفافًا به، وهوانًا له، وتنزيهًا للّه سُبحانه أن يُقارَنَ به شيء من خَلْقه، أو من ضلالات خَلْقه، ولهذا جاء النَّظْم القرآنيُّ عارضًا قُدْرة اللّه، وأنَّه القاهر فوق عِباده، القائمُ على كُلِّ نفْس بما كسبَتْ، ضاربًا عن ذِكْرِ الآلهة الَّتي افتراها المُفترون، وعبَدَها المُشركون الضّالّون[3]، وكذلك فقد استُغنيَ عن تقديرِ مُعادلٍ للهمزة، لأنَّ هذا المُقدَّر المَدلول عليه بدليل خاصٍّ أقوى فائدة من تقدير المُعادل الَّذي حاصله أن يُقدَّر: أم مَن ليس كذلك[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/99.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/129.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

دلالة التَّعبير بالوصف ﴿قَآئِمٌ﴾:

بيان الرِّعاية مع الإحاطة والمُراقَبة

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ تَعني كلمة (قائم على الأمر) أنَّه هو الَّذي يُدبِّره، ولا تَخْفَى عليه خافية، وجاء الحقُّ سُبحانه هُنا بصيغة القيام؛ كي نَعلَم أنَّ الحَقَّ سُبحانه لا يُدير الأمر من حالة قعود؛ بل يُديره وهو قائم عليه، فَكُلُّ أمر هو واضح عنده غير خَفيٍّ، وهو سُبحانه قائم على كُلِّ نفْس بما كسبتْ إنْ خيرًا فخيْر، وإنْ شرًّا فشَرّ، ولكنَّكم أيُّها الكافرون المُشركون لا تَملِكون لأنفُسكم ضرًّا ولا نَفْعًا؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساويَ الَّذي يقوم على أمر كُلِّ نفْس بغيره مِمَّن ليس كذلك؟[1]، وعبارة أبي حيّان: "وعبَّر بـ (قائم) عن الإحاطة والمُراقَبة الَّتي لا يغفل عنها"[2]، وهذا دليل على قيّوميَّته سُبحانه على خَلْقه.

دلالة تَعدّي ﴿قَآئِمٌ﴾ بحرْف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

بيان المتابَعة والملازَمة والعِلم

تَعدَّى لفظ ﴿قَآئِمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بحرْف الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ المُفيدِ للاستعلاء المَجازيِّ، وأصله من القيام وهو المُلازَمة كقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: 75] لتَضمُّنه معنى الرَّقيب، وعلى ذلك فالمُراد بمعنى ﴿قَآئِمٌ﴾ القائم على الشَّيْء الرَّقيب، فيَشمل الحفظ والإبقاء والإمداد، ويَجيءُ من معنى القائم أنَّه العليم بحال كُلِّ شيء؛ لأنَّ تمام القيّوميَّة يتوقَّف على إحاطة العِلْم[3]، ولمّا كان القيام دالًّا على الاستعلاء أوضَحَهُ بقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾[4].

سِرُّ التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾:

دلالة الثَّبات على الحفظ والقُدرة

يدلُّ اسم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بصيغته على الثَّبات مُقارَنة بالفعل المضارع، فاسْم الفاعل أشَدُّ ثباتًا

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7356.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.

على الأمر من المُضارع (يقوم)[1]؛ وكذا قولنا: (قائم) أكثر مُراقَبة وحياطَةً مِن (هو يَقوم)، فدلَّ ذلك على فضْل القُدرة والكلاءَة مع الهيمنة والسَّيطرة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ في هذا السّياق:

بيان العِلم بِكُلِّ الكُلّيات والجُزئيّات

دَلَّ التَّعبيرُ على أنَّ اللّه تعالى هو القادر على كُلِّ شيء، العالِم بجميع المعلومات من الجزئيّات والكُلّيات[2]، وفي هذا تَرهيب وتحذير للكافرين من مُعارَضة الرَّسول ﷺ سواءٌ أكانت هذه المُعارضة ظاهريَّة أم باطنيَّة.

سِرُّ اختيار ﴿نَفْسٍ﴾ دون (مَخلوق):

إبراز التَّكريم، وتعدُّد المعاني

في قوله: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ الأنفُس من مخلوقاته وهو قائم على الكُلِّ؛ أيْ: مُحيط به؛ لِتُقرِّب المَوعظة من حِسِّ السّامع[3]، إضافة إلى الإشارة إلى تَعدُّد استعمالات الكلمة، فهي بمعنى الذّات؛ أي: الفَرد من النّاس، وذلك في الجمهور الأعظم من مواضع وُرودها، مع لَمْح الحقيقة والباطن، لأنَّ هذه الحقيقة هي مَناط التَّعامل مع اللّه ﷻ، والبدَن تابع، وبمعنى باطن الذّات كما في قوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]، وقد تَدُلُّ على الغيْب كما في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116] كما أنَّ النَّفس حقيقةُ الحَيِّ وهو مِن دونها لا شيء، كما يُلمح من لفظة (النَّفس) التَّكريمُ والرِّعاية؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان قَيِّمًا قيل: شيءٌ نفيس؛ أيْ: يُرغب فيه لخطَرِه[4]، فكان التَّعبير بـ (نفْس) أمْلأ للفائدة.

ومِمّا يُذكر في هذا المقام أنَّ التَّعبير بـ ﴿نَفْسٍ﴾ من باب التَّخصيص والتَّعيين؛ لأنَّه جزءٌ من المَخلوقات؛ لأنَّ المخلوقات أعَمُّ

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 41.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/314.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).

والأَنْفُس أخَصُّ، ولأنَّ المقام هُنا مقام المحاسَبةِ والمُساءَلة؛ فالمُراد هُنا أَنْفُس البشَر؛ لأنَّ بعضَ المُخلوقات لا تدخل في مقام المُحاسَبة.

دلالة الإضافة في قوله تعالى: ﴿كُلِّ نَفۡسِۢ﴾:

استـغـراق كـلِّ أفــراد الجـنس مع المراقَبة

في قوله تعالى: ﴿كُلِّ نَفۡسِۢ﴾ إضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى كلمة ﴿نَفۡسِۢ﴾، وهي نكرةٌ تُفيد استغراق كُلِّ فرْد من أفراد الجِنْسِ[1]، وهُنا تَظْهَر القُدْرة المُطلَقة على مراقَبة كُلِّ نفْس مهْما كانت، ففي الإضافة إحاطَةٌ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾:

المعيَّة الإلهيَّة حـاضـرة عـلى الـدَّوام في كُلِّ عمل

دلَّت الباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ على المُلابَسة، وهي في موقع الحال من (نفْس) أو من (قائم) باعتبار ما يقتضيه القيام من العِلم؛ أيْ: قيامًا مُلابِسًا لِما عَمِلَته كُلُّ نفْس؛ أيْ: قيامًا وِفاقًا لأعمالها من عمل خير يقتضي القيام عليها باللُّطف، والرِّضى فتظهر آثار ذلك في الدُّنيا والآخرة، أو الغضب والبلايا[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كَسَبَتۡۗ﴾ دون غيرها:

الكـسب أخَـصُّ مــن الـعـمـل والفعل

الكسْب فيه إصابة[3]، واجتهاد في التَّحصيل، وقصْديَّةٌ للعمل، فالمعنى المحوريُّ له: جمع الشَّيء وتحصيله شيئًا بعد شيء بِجهْدٍ ما أَخْذًا من حيث كان[4]، أمّا الفعل فيخْلو من هذه المعاني، فقد يكون باجتهاد وبغير اجتهاد، فكان التَّعبير بالكسْب أخَصَّ من التَّعبير بالعمل أو الفعل، وفيه تنبيه على بعض حالاتها؛ أيْ: النَّفْس وهو الكسْب، ليتفكَّر الإنسان فيما يكسب من خير وشرٍّ، وما يترتَّب على الكَّسب في الجزاء[5]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ مُعظَم مَواطن الكسْب جاءت في وصْف الكافرين أو الفاسقين الَّذين تجرَّأوا على المعصية

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/241.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

فصاروا لا يُبالون بها[1]، وقد جاء هذا المَوْطن في سياق الحديث عن الكفّار والمُعانِدين.

سِرُّ اختيار ﴿كَسَبَتۡ﴾ دون (اكتَسبت):

عمومِيَّة الكَسْبِ، وخصوصيَّة الاكتساب

الكسْب أعمُّ من الاكتساب لأنَّ الكسب ينقسم إلى كسْبِ الإنسانِ لِنفْسه ولغيره، والاكتساب لا يكون إلّا ما يَكتسب الإنسانُ لنفْسه خاصَّة[2] فكان الاكتساب جزءًا من الكَسْبِ، وفي هذا إحاطة عِلْم اللّه بِكُلِّ كبيرة وصغيره يَكسبها العبْد، ومن ذلك أنَّ الكَسْبَ الأصل فيه أن يَكون في الخير، وقد يأتي في الشَّرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81]، أمّا الاكتساب فلا يكون إلّا في فعل السّوء، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾:

الإشارة إلى تمام الوُقوع والانتهاء منه

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾ جاء تحقيقًا للأمر، وتَثبيتًا له[3]، فالكسب ثابت مُنْتهٍ أمْره، مع مُناسبة الفعل لما قبْله، ولما بعدَه، فقَبلهُ الأفعال الماضية ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾، ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾، وبعده ﴿وَجَعَلُواْ﴾، فالكسب حَصَلَ وثبتَ أمرُه.

دلالة تَعدُّد معاني الواو في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

تعدُّدُ قُبحهم وسوء صنيعهم في كلِّ معنى

لِلواو وظائف في هذا السّياق، فقد تكون عاطفة تعطف الفعل (جعل) على (كسبَت)، وقد تكون استئنافيّة، والاستئناف إخبار عن سوء صنيعهم، وكونهم أشركوا مع اللّه ما لا يَصلح للألوهيَّة، فنَعى عليهم هذا الفعل القبيح، وقد تكون للحاليَّة، وتقديره: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ﴾ موجود، وقد جعلوا للّه شركاء[4].

(1) هنداوي، الإعجاز الأسلوبيّ في القرآن، ص: 191.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/115.
(3) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.
(4) الإيجيّ، تفسير الإيجيّ: 2/275، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

سِرُّ اختيار الفعل ﴿وَجَعَلُواْ﴾ دون غيره:

بيان خِفَّة وسفاهة عقولهم وسيطرة العادات الباطلة عليهم

سِرُّ الجعل جاء في معرض بيان خفَّة عقولهم، كاشفًا عن وجه هذه المعبودات الَّتي يعبدونها، وأنَّها من صُنع أيديهم، أو من مواليد أوهامهم وضلالات عقولهم، فهى مجعولَة؛ أيْ: مصنوعة، أو مختلقة: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ [النَّجم: 23][1]، فالجعل أصله حِسّي بمعنى الوضع والصِّناعة والتَّصيير[2]، فالفعل دالٌّ على سفاهة العقل وعراقة الجهل.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

بيان ثبات الجعل والتَّمهيد للسُّخرية بعدها

توظيف الماضي دالٌّ على تثبيت الجعل وتأكيده، فليس الأمر حادثًا أو مُستمرًّا وإنَّما هو ثابت ثَبات اعتقادهم، وإضافة إلى هذا أنَّ المضارع لا يصلح هُنا؛ لأنَّ الماضي تمهيدٌ لِما بعدَه ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾، وهذا الأمر ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾ لا يحسُن أن يُقال إلّا إذا انتهوا من عمليَّة الجَعل، فكان الماضي مُمَهِّدًا لجملة التَّبكيت والسُّخرية في الفعل ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾.

دلالة إظهار اسم الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾:

تخصيص الاسم لدفع اللَّبس والوَهم

إظهار اسم الجلالة إظهارٌ في مقام الإتيان بضمير ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾، وفائدة هذا الإظهار التَّعبير عن المُسَمَّى بِاسْمه العَلَم الَّذي هو الأصل؛ إذ كان قد وقَع الإيفاء بِحَقِّ العُدول عنه إلى الموصول في الجملة السّابقة، فتهيَّأ المقام للاسم العَلَم، وليكون تصريحًا بأنَّه المُراد من الموصول السّابق زيادة في التَّصريح بالحُجَّة[3]، وللتَّنصيص على وحدانيَّته ذاتًا واسمًا وللتَّنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة[4].

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.

دلالة تقديم ﴿لِلَّهِ﴾ على ﴿شُرَكَاءَ﴾:

الإصرار على الإشراك وتعمُّده

جاء التَّقديم على إرادة التَّفسير إِثْرَ الإبهام لزيادة التَّقرير والإحكام[1]، إصرارًا منهم على الكُفْرِ، مع ما فيه من التَّخصيص بالتَّقديم فالشَّريك للّه وحده، وفي هذا نداء منهم على الغباوة وعَراقة الإشراك.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ دون أنداد:

الاعتراف بالإله مع وجود آلهة أخرى تُعبد

تعبير البيان القرآنيِّ بالجمع ﴿شُرَكَآءَ﴾ يعني أنَّهم مُقِرّون بوجود الخالق، لكن مع الخالق آلهة أخرى تُعبَدُ، كي تقرِّبهم هذه العبادة إلى اللّه، أمّا (أَنْداد): فجمع نِدٍّ، وهو المُضاهي والمُماثِل والمُعاند[2]، وهم لا يُريدون المُضاهاة والمُماثَلة، فكان التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ أنسَبَ.

نكتة الجمْع دون المُفرَد: ﴿شُرَكَآءَ﴾:

وصْف لحالهم مع المُناداة عليهم بالغباوة والتَّناهي في ضَعف الجمْع

نكتة التعبير بالجمع ﴿شُرَكَآءَ﴾ هُنا هي توصيف الجمْع لحالتهم المُزرية، فهُم لَم يتَّخذوا شريكًا واحدًا يَعكفون عليه، وإنَّما كَثُرَ الشُّركاء، فصار لِكُلِّ طائفة شريك، كاللّات والعُزّى ومَناة، وفي الجمع نعيٌ على قباحة تفكيرهم، وسوء مُتَّجههم، وتنبيهٌ على غفلتهم، ثُمَّ إنَّ الجمع هُنا يُناسِب ما بعدَه ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾، فكان الجمع مُمَهِّدًا لفعل الأمر ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾، وفيه أنَّ الجمع مع ما فيه من الكَثرة هو جمْعٌ مُتَناهٍ في الضَّعف والقِلَّة تُجاه إله واحد عظيم لا شريك له.

دلالة فصْل جملة ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾:

عجز الشُّركاء وضَعف عقول المُشركين

فُصلت هذه الجُملة عمّا قبْلها؛ لأنَّها استئنافيَّة أُعيد معه الأمر بالقول لاسترعاء الأفهام لِوَعْي ما سَيذْكرُ "فكأنَّه قيل: فماذا يُفعل بهم؟ فقيل: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ بأسمائهم الحقيقيَّة، فإنَّهم إذا سمَّوْهم وعُرفتْ حقائقُهم أنَّها حجارة أو غير ذلك

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/535.

مِمّا هو مَركز العجْز ومحلُّ الفَقر، عُرف ما هُم عليه من سخافة العقول ورَكاكة الآراء"[1].

نُكتة التَّعبير بالقول ﴿قُلۡ﴾ دون غيره:

جَذْبُ الانتباه مع دلالة المَعيَّة

التَّعبير بـ ﴿قُلۡ﴾ فيه فوائد، الأولى: استئنافٌ أُعيدَ معها الأمر بالقول لاستِرْعاء الأفهام لوَعْي ما سيُذكر[2]، الثّانية: الماحَة إلى وقوف الله بجانب رسوله في تبليغ الدَّعوة.

دلالة الأمر في قوله: ﴿قُلۡ﴾:

أمْرُ الله لرسوله بتبليغ الدَّعوة ومساندَته له

في الفعل فائدتان، الأولى: بيان أثَرِ القول في تحطيم الفِكر الثّابت في نفوسهم، وهَزِّ الأرض من تحت أقدامهم بعد إطلاق لِسانه البليغ في حرْبه ضدَّهم، الثّانية: تقوية قلب الرَّسول ﷺ وإعلامُ المُشركين بأنَّ الله مُلَقِّنٌ رسولَه كلَّ حُجَّة لإبطال ادِّعائهم الكاذب في أصله.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾ دون غيره:

عـدَمُ الاعتداد بالأصنام، وإبراز سخافة عقول الكفّار

قوله تعالى ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾ إشارة إلى أنَّها كلمة جامعة، وقد تضمَّنَت ردًّا عليهم، فالمعنى: سمّوهم شركاء فليس لهم حظٌّ إلّا التَّسمية؛ أيْ: دون مُسمَّى الشَّريك، فالأمر مُستعمَل في معنى الإباحة، كناية عن قِلَّة المُبالاة بادِّعائهم أنَّهم شركاء، مثل: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ [الإسراء: 50]، وكما تقول للّذي يُخطئ في كلامه: قُلْ ما شئتَ، والمعنى: إنْ هي إلّا أسماء سمَّيْتموها لا مُسمَّيات لها بوصْف الإلهيَّة؛ لأنَّها حجارة لا صفات لها من صِفات التَّصرُّف، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: 40] وقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [النَّجم: 23]، وهذا إفحام لهم وتَسْفيهٌ لأحلامهم بأنَّهم ألَّهوا ما لا حقائق لها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/149.

فلا شُبْهة لهم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الرّعد: 16][1]، وفيه أيضًا تَحَدٍّ لهؤلاء المُشركين أن يَكشفوا عن وجْه هذا الخِزي الَّذي في أيديهم، وأن يَضَعوا لهذه المواليد أسماءً تُعرف بها! فكَما استَوْلَدوا هذه الآلهة من ضلالاتهم، كان عليهم أن يَضَعوا لِكُلِّ مولودٍ اسمًا[2].

دلالة التَّعبير بالضَّمير (هُم) عن الشُّركاء:

الإهانة والاستهزاء بالآلهة المَزعومة

عبَّر النَّظْم الكريمُ عنهم بضمير (هُم) الدّالِّ على العاقل على حسب زعْمهم وأوْهامهم، وإلّا فهي حجارة لا تَضُرُّ ولا تنفع، ولا تعقل ولا تُدرِك[3]، وفيه تبكيتٌ لهم إثْرَ تبكيتٍ؛ أيْ: سمّوهم مَن هُم وما أسماؤهم، أو صِفوهم وانظروا هل لهم ما يَستحقّون به العبادة ويستأْهِلون الشِّرْكة[4].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾ دون (أتنبّئونه):

بيان الإنكار والتَّوبيخ لأفعالهم القبيحة

﴿أَمۡ﴾ المُنقطعة، جاءتْ للإضراب الانتقاليِّ، ودَلَّت على أنَّ ما بعدها في معنى الاستفهام، وهو استفهام يُفيد الإنكارَ والتَّوبيخ؛ أيْ: أتُنَبِّؤنه بشيء لا يَعلمه، والمعنى ما كان لكم أن تَفْتروا على الله فتَضَعوا له شركاء مُفترينَ على الله الكذب.

سِرُّ التَّعبير بالنَّبأ دون الخبَر ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾:

عظمة النَّبأ وأهمّيته عن الخبر

النَّبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلْم أو غلبة ظَنٍّ، وحقُّه أن يَتعرَّى عن الكذب[5]، ففي التَّعبير بالنَّبأ هُنا دلالة على عِظَم الموقف مع عظَم الكذب، فكأنَّه سُخرية ممّا قالوا بجَعْله نبأ في معتقدهم، وما قالوه ليس بشيء، فكان التَّعبير بالنَّبأ مُجاراةً لعقولهم القاصرة واستهزاءً بهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3956.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.

(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ دون غيره:

استحضار صورة تنبيئهم والسَّعي المتُواصل لهم

المُضارع دالٌّ على الدَّوام والاستمرار، واستحضار صورة تنبيئهم، فكأنَّهم لا يَفترون عن التَّنبيءِ، ليلهم ونهارهم، وفي هذا دليل على شِدَّة تَمَسُّكهم بعبادتهم وأصنامهم الَّتي اتَّخذوها، فالتَّنبيء المُتواصِل دلالة سيْطرة الفِكرة على عقولهم، وتَنبيءُ "عالمِ السِّرِّ والخَفيّات بما لا يَعلمه مُحالٌ على مُحال"[1].

نُكتة الإضمار في قوله: ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾:

الإيجاز والبُعد عن اللَّبس

يُؤتى بالضَّمائر كُلِّها لضرب من الإيجاز، والاحتراز من اللَّبس؛ لأنَّ الضَّمير يُستغنى به عن الاسم بكامله[2]، أمّا اللَّبْسُ فقد انتفى عند ذِكْرِ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، فكان الفعل ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بالضَّمير عائدًا على أقرب مَذكور وهو اللّه ﷻ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِمَا﴾:

تحقير تلك الآلهة الباطلة

التَّعبير بـ ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ يحمل سُخرية واستهزاءً بالمُدَّعي؛ لأنَّ (ما) في الأصل اسم موصول لغير العاقل؛ وفي هذا اتهامٌ للآلهة المزعومة بأنَّها ليست جديرة بأن تُذكر ذِكر العُقلاء، لأنَّها في مصافِّ غيرهم، إضافة إلى ذلك فإنَّ (ما) أكثرُ إبهامًا من غيرها كالاسْم الموصول (الَّذي)؛ فالاسم (ما) دالٌّ على تَحْقير ما اتَّخذوه من الشُّركاء.

بلاغة التَّعبير القرآنيِّ في نفْي الشُّركاء:

تقرير سَعَة علم الله ونفْي وجود الآلهة

قوله: ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذه الجملة القرآنيَّة كناية عن غير الموجود؛ لأنَّ ما لا يَعلمه اللّه لا وجود له، إذ لو كان موجودًا لَم يَخْفَ على عِلْم العلّام بِكُلِّ شيء[3]، وفي ذلك إظهار لجَهلهم

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/21.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

بصِفات الخالق ﷻ، وفيه نفْي الشَّيء بإيجابه أو عكس الظّاهر وهو من مُتطرّفات عِلم البيان، وحقيقة هذا النَّفي أنَّهم ليسوا بشُركاء وأنَّ اللّه لا يَعلمهم كذلك لأنَّهم - في الواقع - ليسوا كذلك، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها اللّه، إلّا أنَّها مَربوبة حادثةٌ لا آلهة معبودة، ولكن مَجيء النَّفي على هذا السَّنَن المتلوّ بديعٌ لا تكاد تُكْتَنَهُ بلاغتهُ[1].

سِرُّ التَّعبير بالعِلم لا المعرفة في: ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾:

هــوان الآلـهـة المزعومة لعدَمِ استحقاق العِلْم بها

العِلم إدراك الشَّيء بحقيقته وجوهره[2]، أمّا المَعْرِفَةُ فلا يُشترط فيها هذا؛ فاللّه عالم لا عارف، وهذا يعني أنَّ اللّه عالمٌ بِكُلِّ الحقائق والجزئيّات والكلّيّات، لا عارف فقط فالتَّعبير بالعِلم يُراد به نفْي الآلهة "بنفي لازِمها على طريق الكناية؛ لأنَّه سُبحانه إذا كان لا يَعلمها وهو الَّذي لا يَعزُب عن عِلمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء فهي لا حقيقة لها أصلًا"[3]، كما يجوز أن يكون نفي العِلم هُنا عن الآلهة الَّتي اتَّخذوها، وتقدير الكلام: أتنبِّئون اللّه تعالى بشركة الأصنام الَّتي لا تتَّصف بعِلمٍ ألبَتَّة[4]، فيكون نفي العِلم هُنا مُتَّجِهًا للأصنام لا للّه.

سِرُّ نفْي العِلم في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون السَّماوات:

بـيـان جهلهم والـتَّـعـريـض بغباوتهم

سِرُّ التَّقييد زيادة في تجهيلهم، والتَّعريض بغباوتهم؛ لأنَّه لو كان يَخفى عن عِلمه شيء لَخَفي عنه ما لا يُرى، ولَما خفيت عنه موجودات عظيمة بزَعْمكم، وفي سورة يونُس ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 18]؛ زيادة في التَّعميم[5]،

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/129.
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.

وفيه إشارة إلى أنَّ هذه الآلهة الَّتي أطلَقوا عليها تلك الأسماء، هي من العالَم الأرضيِّ، من أحجارِه، أو حيواناته[1]، كما أنَّ ذِكْرَ نفْي العِلم في الأرض، وهي مَقَرُّ تلك الأصنام، يَدُلُّ على انتفاء عِلمها في المقرِّ الَّتي هي فيه، فانتفاؤه في السَّماوات أحْرى[2]، إضافة إلى أنَّ تخصيص الأرض بالذِّكر لأنَّها المُشاهَدَة القريبةُ، وإلّا فقد عبدوا الشِّعْرَى والعَبور، وعَبدوا الشَّمس إلى غير ذلك[3].

دلالة ﴿أَمْ﴾ في: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

الإضــــراب عن الكلام السّابق مع التَّوبيخ

دلَّت ﴿أَمْ﴾ على الإضراب عن الكلام السّابق عليها، مع دلالتها على الاستفهام التَّوبيخيّ الَّذي يُنَبِّهُهُم إلى فساد قولهم[4] وادِّعاءاتهم وبيان كذبهم وبُهتانهم، فما دامَ قد ثبتَ أنَّه لا حقيقة لأصنامهم الَّتي يَعبدونها، فأوصافهم لا تُثبت ألوهيَّة - بل لا تثبِتُ وجودًا - لها نفْع وضَررٌ[5].

سِرُّ اختيار التَّعبير ﴿بِظَٰهِرٖ﴾:

سطحيَّة فِكْرِ المشركين وتفاهة عقولهم

في التّعبير بـ ﴿بِظَٰهِرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه الأسماء الَّتي أطلَقوها على آلهتهم هي كلمات لا معنى لها، وإنَّما هي أصوات، تَبدو في ظاهرها كأنَّها كلام، أمّا باطنها فأجْوَف لا شيء فيه، فليس له معنًى وحقيقةٌ، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب يُنادي على نفْسِه بالإعجاز[6].

البلاغة في فنّ الاسْتِدراج:

الـحـثُّ على الـتَّـفـكـير والمُراجَعة

في قوله: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ يبْرُزُ فنُّ الاستدراج، وذلك لحثِّهم

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/306.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3956.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3958.
(6) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.

على التَّفكير دون القول المجرَّد من الفِكْر، كقوله في مكان آخَر: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ [التّوبة: 30] ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: 40]، وهذا الاحتجاج من أعجَبِ الأساليب وأقْواها(1).

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿بَلۡ﴾: ﴿بَلۡ زُيِّنَ﴾:

الاحتجاج على كُفرهم ومَكرهم

مجيء (بل) في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ زُيِّنَ﴾ للإضراب والاحتجاج عن القول، والأمر أنَّهم زُيِّن لهم ما هُم عليه بوَهْم توهَّموه وخيالٍ تخيَّلوه، وكان ذلك الخيال أساسَ مَكْرِهم وتدبيرهم ضِدّ الحَقِّ وأهل الإيمان، وبه صُدّوا عن السَّبيل، وصَدّوا غيرَهم عن الطَّريق السَّويِّ(2)، فهو إضراب عن الاحتجاج عليهم.

سِرُّ التَّعبير بالتَّزيين: ﴿بَلۡ زُيِّنَ﴾:

الإشـــارة إلى الخداع والإيهام

توظيف ﴿زُيِّنَ﴾ آتٍ من كون التَّزيين كُلِّه من الحِليَة الظّاهرة(3)، وكأنَّ التَّزيين خِداع وموارَاةٌ حتّى يَحسبه المُزَيَّن له - باِسْم المفعول - هو طريق النَّجاة فإذا هو الهلاك بعَيْنه، مع المكْر، وهو أشَدُّ الخِداع، فجاء الفعل (زيّن) مع الزّينة الظّاهرة وهي أيضًا خادعة موهِمة، فكانت المُناسَبة بين الفعل ونائب الفاعل حاضرةً.

سِرُّ التَّعبير بالبناء للمفعول: ﴿زُيِّنَ﴾:

الـتّركـيـز على عمليَّة التَّزيين مع تعدُّد المُزيّنين

يتجلّى سِرُّ التَّعبير بالبناء للمفعول في قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ في أنَّ الكلام جرى بعدَه بتَرْك تَسْمية الْفاعِل ليَأْتلف الكلام على نِظام واحِد(4)؛ أيْ: إنَّ ما يَليه من كلام مبنيٌّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه أيضًا ﴿وَصُدُّواْ﴾ فحصل التَّناسُب، ثُمَّ إنَّ البناء لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه يُصوِّر المَكْرَ كأنَّه شيء مُحبَّب، فتَهافَتوا عليه تهافُتَ الفَراش على النّار وأعْرَضوا

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/129.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3958.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(4) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 373.

عمّا سواه كأنَّه حياتهم[1]، إضافة إلى جواز تعدُّد المُزيِّنين لهم ذلك، والمُراد هُنا أنَّ أئمَّة الكُفْرِ مثل عمرو بن لُحيّ وضَعوا للعرَب عبادة الأصنام وحسَّنوها إليهم مُظهرين لهم أنَّها حَقٌّ ونفْع، وما أرادوا بذلك إلّا أن يكونوا قادة لهم ليسوِّدوهم ويعبدوهم، فلمّا كان الفعل المبنيُّ للمفعول يقتضي فاعلًا مَنْويًّا كان قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوَّة قولك: زَيَّن لهم مُزَيِّنٌ، والشَّيء المُزَيَّن هو عبادة الأصنام؛ فهي المفعول في المعنى لفعل التَّزيين المبنيِّ للمفعول[2].

دلالة وضع المؤصول ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضع المُضمَر:

ذَمُّ الكافرين وتسجيل الكُفْرِ منهم

وضْعُ الموصولِ موضِعَ المضمَرِ جاء ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالكُفر[3]، وأنَّهم قَصدوا واجتهدوا فيه حتّى يَصلوا إلى منزلة عظيمة في الكُفر؛ ليكون الجزاء وِفاقًا لهم. وتنبيهًا على الوصْف الَّذي قادَهم إلى اعتقاد الباطل، وهو سَتْر ما أدّى إليه برهان العقل المُؤيَّد بدليل النَّقل[4].

دلالة التَّعبير بجُملة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

ثبات الكُفّار على الكُفر، ومُناسبة السّياق

إيثار القرآن للاسم الموصول (الّذين) مع صِلته فيه إشارة إلى عُمق الكُفْرِ في نفوسهم، فالجملة الموصوليَّة أفادَت الذَّمَّ، فإتيان الموصول الماضي قُصِد به الالتباس والاستصحاب[5]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلته يَدُلُّ على اختيارهم الكُفْرَ بإرادتهم من دون تدخُّل في اختيارهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه دونَ اسم الفاعل هو الأنسَب، ويُضاف إلى ذلك مُناسَبة السّياق؛ أيْ: إنَّ التَّعبير عن الإيمان والكُفر جاء في السّياق بالاسم الموصول مع الفعل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/494، في حديثه عن زينة الحياة الدّنيا.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/153.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(5) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 187/1.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ لا (كَيْدهم) ونحْوه:

بيان الخديعة والسَّتر دون الإظهار

مادَّة (مكر) تَدور على التَّغطية والسَّتر، فالمَكْر: الخديعة، قالوا: وهو الاحتيال بما لا يَظهر، فإذا ظهر فذلك الكيْد، ويلزم منه الاجتهاد في ضَمِّ أشْتات الأمر لستْر ما يُراد[1]، ومن الأسرار أيضًا أنَّه يجوز أن يُسمَّى المَكْرُ كُفرًا؛ لأنَّ مَكْرهم برسول الله ﷺ كان كُفْرًا[2]، ففي المكْر معانٍ ليست في الكيْد؛ فكانت الأنسَبَ.

سِرُّ تقديم جملة الصِّلة على ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾:

عَوْدُ الضَّمير على مُتقدِّمٍ مع التَّفسير بعدَ الإبهام

السِّرُّ اللُّغويُّ قائم في أنَّ الضَّمير في لفظة ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ يعود على المُتقدِّم ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فتأخَّر نائب الفاعل ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الضَّمير يعود على مُتَقَدِّم، فلو صارَ التَّعبير (زيّن كفرهم للّذين كفروا) لَفَسَدَ التَّركيب، ولصار خاليًا من المعنى، وقد يكون الكُفْرُ هُنا دالًّا على طائفة أُخرى غير الطّائفة الَّتي عادَتْ رسول الله ﷺ لو تَقَدَّم نائب الفاعل ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾، ثُمَّ فيه تفسيرٌ بعد الإبهام، وهذا فيه من تشوُّف النَّفْس واستعدادها لِما بَعد، فكان تقديمُ جُملة الصِّلَة أنسَبَ.

سِرُّ التَّعبير عن عبادة الأصنام بـ ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾:

بيان أنَّ المكْر إظهارُ شيءٍ وإبطانُ غيره

سِرُّ التَّعبير في قوله سبحانه: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ أنَّ المَكر إظهار شيء وإبطان غيره، وذلك أنَّهم أظهَروا أنَّ شُركاءهم آلِهة حقًّا وهم يَعلمون بُطلان ذلك، وليس لهم همٌّ في الباطن إلّا تقليد الآباء، وأظهَروا أنَّهم يَعبدونها لتُقرِّبهم إلى الله زُلفى، ولتَشفَعَ لهم، وهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فصار كُلُّ ذلك من فعلهم فعل الماكِر[3]، ثُمَّ إنَّ مكْرهم كيْدُهم للإسلام بشِركهم أو تَمويهِهم الأباطيل، فتكلَّفوا إيقاعها في الخيال من غير حقيقة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/99.
(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.

ثُمَّ بعد ذلك ظنّوها شيئًا لتَماديهم في الضَّلال، وعلى هذا المُراد مكْرهم بأنفُسِهم، وعلى الأوَّل مكرُهم بغيرهم[1].

دلالة إضافة المَكْر: ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾:

قوّة تزيين المَكْرِ مع تخصيصهم بالضَّمير

الدَّلالة هُنا أنَّ المَكر مُرادٌ به عِبادة الأصنام، وهذا يعني أنَّ إضافة (مكر) إلى ضمير الكفّار (هم) من إضافة المصْدر إلى ما هو في قوَّة المفعول وهو المجرور بباء التَّعْدية؛ أيِ: المَكْر بهِم ممَّن زيَّنوا لهم[2].

سِرُّ التَّعبير بالمصْدر ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾:

المصدر أعَمُّ من الفعل

التَّعبير بالمصْدر يُلائِم أن يكون نائب فاعل للفعل ﴿زُيِّنَ﴾ المبنيِّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، إضافة إلى ذلك فالمصْدر دالٌّ على حدث دون اقتران بزَمن[3]، فكان عامًّا لا خاصًّا، عكس الفعل الَّذي يرتبط الحدَثُ فيه بزمن، فَدَلَّ على تطاوُل المكْر ولحاقِهِ بِكُلِّ زمَن.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾:

الصَّدُّ عن سبيل الله من تزيين الكافرين

عطف قوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ على جملة ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ على قراءة الجمهور - بفتح الصَّاد - فهو باعتبار كون مضمون كِلْتا الجملتَيْن من أحوال المُشركين: فالأولى باعتبار كونهم مَفعولين، والثّانية باعتبار كونهم فاعلين للصَّدِّ بعد أن انفَعَلوا بالكُفر، وقَرَأه عاصِم، وحمزة، والكسائيُّ، وخَلَفٌ: ﴿وَصُدُّواْ﴾ - بضَمِّ الصَّاد - فهو كجملة زُيّن للّذين كفروا في كون مضمون كِلْتَيهما جَعل الَّذين كفروا مَفعولًا للتَّزيين والصَّدِّ.

أثَر تعدُّد القراءات في: ﴿وَصُدُّواْ﴾:

تعدُّد طرائق الصَّدِّ

اختلف المعنى بناء على تغايُر القراءتَيْن، فمَن قَرَأها بفتْح الصّاد،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 2/169.

معناه: أنَّهم لمّا زُيِّنَ لهم ما هُم فيه وأنَّه حَقٌّ، دعَوا إليه وصَدّوا النّاس عن اتِّباع طَريق الرُّسل، ومَن قَرَأها ﴿وَصُدُّواْ﴾؛ أيَ: بما زُيِّنَ لهم من صحَّة ما هُم عليه، يكون المعنى: (مُنِعوا عن السَّبيل)، والصّادُّ هو المانِع، ويكون المُراد أنَّ اللّه تعالى صَدَّهم[1]، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: 41] وقال: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ [النَّحل: 37][2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَصُدُّواْ﴾ دون (منعوا) وغيره:

في الصَّدِّ مَنعٌ وإعراضٌ؛ فهو منْعٌ وزيادةٌ

الصَّدُّ انصِراف عن الشَّيْء وامتناع عنه، وفيه إعراض وصُدوف، وفي الصَّدِّ هجْرٌ وتَرْك وسُخرية من الصّادِّ[3]، وكأنَّ الصَّدَّ منْع وزيادة، مع دلالة التَّشديد في الفعل (صدّ)، والتَّشديد تَكرار عمل تِلْو عمل.

دلالة (عن) في ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾:

البُعد والمجاوَزة والتَّراخي

من معاني (عن) في اللُّغة الدَّلالة على المُجاوَزة والتَّرْك والبُعد، مع التَّراخي[4]، فالحرْف دالٌّ على إعراضهم ونفورهم من الدَّعوة وصاحبها، بحيث ظلّوا في غيِّهم يتردَّدون تارِكين طريق الحقِّ مُتجاوِزين عنه، مُتراخينَ في الانضمام إلى طائفة الإيمان.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلسَّبِيلِۗ﴾ دون مرادفاته:

غباوة عقولهم وشِدَّة كراهيتهم للإسلام

السِرُّ في التَّعبير بـ ﴿ٱلسَّبِيلِۗ﴾ حمّل اللَّفظ معنى التَّهكُّم من ضَلالهم؛ لأنَّ السَّبيل هو ذلك الطَّريق الَّذي يَمتاز بالسُّهولة واليُسر والوضوح كما تقول المَعاجم[5]، فهذا يعني أنَّ ضلالهم عظيمٌ،

(1) الكبيسيّ، الموضّح في وجوه القراءات: 2/703.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/399.

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).

(4) الزّمخشريّ، المفصّل في صنعة الإعراب، ص: 385.

(5) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

مُسيِّطر عليهم يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجُلِهم، وكان الأحْرى بهم اتِّباع الرَّسول لسُهولة طريقه ووضوحه، وليس هذا المعنى مَوجودًا في الطَّريق.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّبِيلِۗ﴾ مُعرَّفًا:

عـظَـمـة هـذا السَّبيل الحقّ

المُراد بـ ﴿ٱلسَّبِيلِۗ﴾ هُنا سبيل الحَقِّ فتعريفه للعَهد؛ أيْ: كأنَّكم تَعرفونه، ولكنَّكم اعتَدْتُم العِناد، والإصرارَ، كأنَّه قال: مَن تَرَك سبيل اللّه، وهي اتِّباع الفطرة، كان من سُنَّة اللّه أن يكون ضالًّا طولَ حياته، إذ لا تَجِد له سبيلًا أخرى يَسلكها فيَهتدي بها إلى الحقِّ[1]. والتَّعريف هُنا دالٌّ على تعظيم هذا السَّبيل، كأنَّ ما عَداه غير سبيل.

سِرُّ التَّعبير بفعل الشَّرْط: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ﴾:

الـحـرمـانُ من إدراك التَّوفيق لتَوَغُّل الضّالِّ في غَيِّه

أوثِرَ التَّعبير بفعل الشَّرْط؛ كناية عن نفْي أسباب النَّجاة عن الضَّلالة وعَواقب العقوبة عليها[2]؛ لأنَّ الضَّلال جاء بعد خطوات وئيدَةٍ من الضّالِّ في طريق الضَّلال، فكأنَّ الضّالَّ غير سريع للاهتداء أو غير قابِل له، وحِرمانه من تَدارُكه إيّاه بالتَّوفيق كُلَمّا تَوغَّل في الضَّلالة[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَمَن﴾ دون غيرها:

الإشـــارة إلى عموميَّة الشَّرْط

تَحمل (مَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ﴾ في دلالتها العُموم بالاتِّفاق[4]، فالضَّلال سبيل كلِّ إنسان لا يوفِّقه اللّه إلى الخير، مع كثرة طَرائقِ هذا الخير الَّذي لا يَخفى إلّا على مَطْموس البَصيرة، وقد قال النُّحاة: أسماء الشَّرْطِ في قوَّة كلمتَيْن[5].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/264.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/123.
(4) ابن هشام، المباحث المرضيّة المتعلّقة بـ (من) الشّرطيّة، ص: 39.
(5) ابن هشام، المباحث المرضيّة المتعلّقة بـ (من) الشّرطيّة، ص: 33.

دلالة الإسناد في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

علمُ الله الأزليّ بأن ضلالهم مَطْمور في جِبِلَّتهم

في قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أنَّ ضلالهم داءٌ عَياءٌ؛ لأنَّه ضلال مُكَوَّن في نفوسهم وجِبلّتهم قد ثبَّتَته الأيام، ورسَّخه تعاقُبُ الأجيال، فرانَ بغشاوته على ألْبابهم، فلمّا صار ضلالهم كالمَجبول المَطْبوع أُسند إيجاده إلى الله كناية عن تَعَسُّر أو تَعَذُّر اقْتِلاعه من نفوسهم[1].

دلالة فَكِّ الإدغام في الفعل: ﴿يُضۡلِلِ﴾:

إضلال الله لهم بعدَ ابتعادهم عن كُلِّ أسباب الهداية

التَّعبير بالفَكِّ هُنا فيه إشارة إلى أنَّ الإضلال لا يكون إلّا بعدَ حِرْص المَرْء نفسَه على أن يكون ضالًّا، بابتعاده عن كُلِّ أسباب الهداية الَّتي يَسَّرها الله له، لكنَّه أبى واستَكبَر، وكأنَّ فَكَّ الإدغام دالٌّ على أنَّ الإضلال لا يكون مُباشرة، لكنَّه يكون بعدَ أن يُرسل الله الرُّسلَ للهداية فيَأْبى المَرْء الهداية، فيزيده الله ضلالًا على ضلال.

دلالة دخول الفاء في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾:

بيان التَّوكيد مع ربْط أوْصال التَّركيب

الفاء في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ رابطةٌ، تُفيد السَّبب في الشَّرط؛ لذا خُصَّت في هذا الموضِع، وأتوا بها لتُفيد الإتباع وتُؤذِن بأنَّ ما بعدَها مُسَبَّب عمّا قبلها[2]، إضافة إلى ذلك فإنَّ دخول الفاء يَدُلُّ على زيادة التَّوكيد؛ لأنَّ زيادة المبْنى دالَّةٌ على زيادة المعنى، ومن كُلِّ هذا يتبيَّن سَبَبُ نفْي هدايتهم (هو إضلال الله تعالى)، فالإضْلال قويّ شديدٌ لِذا انْتَفى الهادي.

سِرُّ النَّفْي بـ (ما): ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾:

شموليَّة (ما) ودلالتها على التَّوكيد

في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ (ما) آكَد من (ليس)؛ لأنَّها تَقَع جوابًا للقسَم، يُقال: (والله ما هو بمُنطلق) بِخلاف (ليس)، وأوْسَعُ استعمالًا منها لأنَّ (ليس) تختَصُّ بنفْي الجُملة الاسميَّة فقط، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/14.

(2) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 9/2.

(ما) فتختَصّ بنفْي الجملتَيْن الاسميَّة والفعليَّة، كما أنَّ ﴿فَمَا﴾ فيها معنى التَّوكيد[1]، فكأنَّ (ما) نَصٌّ في نفْي ما تَنْفيه، وهو هُنا ﴿هَادٖ﴾، وأُريد من نفْي الهادي من قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ نفْيُ حُصول الاهتداء، فَكَنَّى عن عدَمَ حصول الهُدى بانتفاء الهادي لأنَّ عدَمَ الاهتداء يَجعل هاديَهم كالمَنفيِّ[2].

سِرُّ التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿هَادٖ﴾:

دلالة الثَّبات في اسم الفاعل عنه في المُضارِع

في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ اسم الفاعل (هاد) دالٌّ بصيغته على الثَّبات مُقارَنة بالفعل المُضارع، فاسْم الفاعل أَشَدُّ ثباتًا على الأمْرِ من المُضارع (يهدي)؛ وكذا قولنا: ﴿هَادٖ﴾ أكثر هداية من (هو يهدي)، وكأنَّ الهداية صارَتْ شيئًا مُلازِمًا للهادي، يُضاف إلى ذلك أنَّ لفظة ﴿هَادٖ﴾ جاءت سَبَبًا في دخول ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيَّة الَّتي تَنْفي جنس الهُداةِ، أمّا المُضارع (يهدي) فمُشير إلى حذْف حرْف الجَرِّ وتحويل الجُملة الاسميَّة الأَشَدِّ ثباتًا إلى جملة فعليَّة (فما يهديه أحَد)، وهذا ضعيف في العِبارة.

سِرُّ حذْف الياء في: ﴿هَادٖ﴾:

موافَقة رؤوس الآي مع دلالة قِلَّة هؤلاء الهادينَ

أكثَرُ القُرّاء وقَفوا على الدّالِ من غير إثبات ياء؛ لأنَّنا نقول في الوَصْل: هذا هادٍ، فتحذفُ الياء لسُكونها والتِقائها مع التَّنوين، فإذا وقَفْنا حُذِفَ التَّنوين في الوَقف في الرَّفْع والجَرِّ، والياء كانت حُذِفت، فيُصادف الوَقف الحركة الَّتي هي كسرة في غير فاعل فنحْذفها كما تُحذف سائر الحركات الَّتي تَقِف عليها، فيصير ﴿هَادٖ﴾[3]، وقد يكون الحذْف إشارةً إلى القِلَّة[4]، قِلَّة الواقينَ لهؤلاء، وبخاصَّة أنَّ ﴿هَادٖ﴾ مَسبوقةٌ بـ (من) الاستغراقيَّة الدّالَّةِ على نفْي

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/225، وما بعدها.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/14.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/44.
(4) فاضل السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 31.

جنس الهادين، يُضاف إلى ذلك مُناسبة رؤوس الآي ذلك أنَّ قبلَها ﴿عِقَابِ﴾ بدون الياء، وبعدَها ﴿وَاقٍ﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

النَّبأ والخبَر:

النَّبأ خبر يَحمل الأوَّليَّة الزَّمانيَّة مع التَّعظيم

النَّبأ كما يقول أهل اللُّغة أهمُّ من الخبر وأعظَم منه، وفيه فائدة مُهمَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النّمل: 22]، وفي القرآن النَّبأ أهمُّ من الخبَر كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67] وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢﴾ [النّبأ: 2]، والنَّبأ في اللُّغة هو الظُّهور، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة (خبَر) مُفرَدة في موطنَيْن في قصَّة موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧﴾ [النّمل: 7]، وهُناك فرْق بين الخبَر والنَّبأ العظيم، وفي أخبار الماضين والرُّسُل استعمل القرآن (نبأ)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥﴾ [التّغابن: 5][1].

ومن هذا فالنَّبأ يختلف عن الخبر؛ فكلُّ نبأ خبر، وليس كلُّ خبر نبأً؛ لأنَّ النَّبأ يحمل الأوليَّة الزَّمانيّة مع التَّعظيم.

العِلم والمعرفة:

العِلم يكون مُجملًا ومُفصَّلًا والمعرفَة أخَصُّ منه

المعرفَة أخَصُّ من العِلم؛ لِأنَّها عِلْمٌ بِعَين الشَّيْء مُفصَّلًا عَمّا سواهُ، والعِلم يكون مُجملًا ومُفَصَّلا، فَكلُّ معرفَةٍ عِلْمٌ ولَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ مَعرِفَةً، وذلكَ أنَّ لفظ الْمعرفَة يُفيد تَمْييز الْمَعْلوم من

(1) مثنّى هبيان، من روائع البيان: 28/7.

غَيره، ولَفظ الْعِلم لا يُفيد ذلك إلّا بِضَرْب آخَر من التَّخْصيص في ذِكر الْمَعْلوم، والشّاهِد قَول أهل اللُّغَة: إنَّ الْعِلم يتَعَدَّى إلى مفعولَيْن لَيْسَ لك الاقْتِصار على أحدهما، إلّا أن يكون بِمَعْنى الْمعرِفة، كَقَوْله تَعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60]؛ أي: لا تعرفونهم اللّه يعرفهُم، وإنّما كانَ ذلك كَذلِك لأنَّ لفظ العِلم مُبْهَم، فإذا قُلت: علِمتُ زيدًا، فَذَكَرْتَه بِاسْمه الَّذي يَعرفهُ بِهِ الْمُخاطَب لَم يَفِ، فإذا قلت: قائمًا، أفدتَ؛ لأنَّك دللتَ بذلك على أنَّك علِمت زيدًا على صِفة جازَ ألا تعْلَمه عَلَيْها مَعَ عِلمك بِهِ في الْجُمْلَة، وإذا قُلت: عَرَفتُ زيدًا، أفدتَ أنَّه بِمَنْزِلَة قَوْلك: عَلِمتُه مُتميِّزًا من غَيره، فاستُغْنيَ عَن قَوْلك: (مُتميّزًا من غَيره)؛ لِما في لفظ الْمعرِفَة من الدّلالَة على ذلِك[1].

المكْر والكيْد:

المكر خَديعة تَدور على التَّغطية والسَّتر والكيْدُ فيه معنى الظُّهور

مادَّة (مكر) بأيِّ ترتيب كان: (مكر، ركم، رمك، كرم، كمر)؛ تدور على التَّغطية والسَّتر، فالمَكر: الخديعة، قالوا: وهو الاحتيال بما لا يَظهر، فإذا ظهر فذلك الكيد، ويلزم منه الاجتهاد في ضَمِّ أشْتات الأمر لستْر ما يُراد[2]، ومن الأسرار أيضًا أنَّه يجوز أن يُسمَّى المَكْرُ كُفرًا؛ لأنَّ مَكْرهم برسول اللّه ﷺ كان كُفرًا[3]، ففي المكْر مَعانٍ ليست في الكيْد.

الصَّدّ والمَنْع:

الصَّدُّ هو المنع عن قَصْد الشَّيء خاصَّة والمنْع أشمَل

الصَّدُّ انصرافٌ عن الشَّيْء وامتناع عنه، وفيه إعراض وصُدوف، وفي الصَّدِّ هجْر وتَرْك وسُخرِيةٌ من الصّادِّ[4]، وقد قال أبو هلال العسكريّ: "الصَّدُّ هو المَنْع عن قصْد الشَّيء خاصَّة، ولهذا قال اللّه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/99.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).

تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]؛ أيْ: يَمنعون النّاس عن قصْدِه، والمنْع يكون في ذلك وغيره ألا تَرى أنَّه يُقال: منع الحائط عن المَيل، ولا يُقال: صَدّه عن المَيل؛ لأنَّ الحائط لا قصْد له، ويقولون: صَدَّني عن لقائك، يُريد عن قصْد لقائك وهذا بَيِّن"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرّعد: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملةُ الوعيد المُتقدِّم بجمْع عذابَي الدُّنيا والآخرة

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن الكافرين بتلك الأمور المذكورة بالآية السّابقة، من جعْلِهم للّه شركاء وصَدِّهم عن السَّبيل، بَيَّن في هذه الآية أنَّه جَمَعَ لهم بين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة الَّذي هو أشَقُّ، قال تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الآية.

ومن المُناسبة أيضًا أنَّه لمّا خُتِمَت الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾، على اعتبار أنَّها وعيدٌ يَسأل عنه السّامع بسبب ما قدَّموا من كُفر ومن شِرك، جاءت هذه الآية تكملة للوعيد المُتقدِّم في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ مع زيادة الوعيد بما بعدَ ذلك في الدّار الآخرة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشَقُّۖ﴾: المَشَقَّةُ: الشِّدَّةُ والثِّقَلُ والجَهْدُ والعَناءُ والعُسْرُ، يُقال: شَقَّ عليَّ الأمرُ، يَشقُّ شَقًّا ومَشَقَّةً؛ أيْ: ثَقُلَ عَلَيَّ. وشَقَّ عليه الشَّيْءُ: إذا أتْعَبَهُ. والمشقَّة غِلَظُ الأمر على النَّفْس، بما يكادُ يَصْدع القَلْب، فهو من الشَّقِّ بمعنى الصَّدْع، فمعنى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾؛ أيْ: ولَلْعذاب المُدَّخَرُ في الآخرة أشَدُّ وأنكى من عذاب الدُّنيا؛ لِثقله وعنائه وعُسْره ودوامه[2]، والمعنى المحوريُّ: صَدْعُ الشَّيءِ الشَّديد صَدْعًا نافذًا إلى عُمْقِه، كصدْعِ العود والحائط والزُّجاجة، وكما يَصدع النَّبت والنّاب ما يُغطّيهما، ومنه: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦﴾ [عبس: 26][3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/154.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).

2) ﴿وَاقٍ﴾: الوِقايَةُ: الصيانَةُ والحِمايَةُ، وأصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِه، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِه؛ أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ؛ أيْ: مِن دافِعٍ. فالمُراد من قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ وما لهُم ساتِرٌ يَعصِمهُم مِن عذابِ اللّه ويَحميهم، إذْ لا يَشفع أحدٌ عنده إلّا بإذنه، ولا يأْذَن لأحدٍ في الشَّفاعة لمَن كفرَ به وماتَ على كُفره[1]. والمعنى المحوريُّ: حِفْظٌ من الأذى أو الضَّرر باتِّخاذ حاجِزٍ دونه، كالوقاية: الحاجز ثَوْبًا أو حَشية أو ورَقًا ... إلخ، وقالوا: سَرْجٌ واقٍ: غَيْرُ مِعْقَرٍ؛ أيْ: هو مُبطّن بطبقة لَيِّنة تَقي؛ أيْ: تحفظ من العَقر[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

الشَّقاء المُسْتَمِرُّ في الدُّنيا والآخرة

بَيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ هؤلاء الكُفّارِ الَّذين جَعَلوا للّه شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم لهم عذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزي والمصائبِ والآفاتِ، ولَعذاب الآخرة الَّذي ينتظرهم أشَدُّ عليهم وأثْقَل من عذاب الدُّنيا؛ لِما فيه مِن الشِّدَّة والدَّوام الَّذي لا يَنقطع، وليس لهم مانع يَحميهم من عذاب اللّه يوم القيامة[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصْل: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّـهُ﴾:

الإيــمــاءة إلى شِــدَّة الوعـيد واتِّصال العذاب

في الآية الكريمة استئناف بيانيٌّ نَشَأ عن قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾؛ لأنَّ هذا التَّبديد يومئُ إلى وعيد يَسأل عنه السّامع، وفيه تكْملة للوعيد المُتقدِّم في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ مع زيادة الوعيد بما بَعد ذلك في الدّار الآخرة[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/551.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/154.

دلالة تقديم ﴿لَّهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٞ﴾:

تخصيص العذاب بهم إهانةً وتحقيرًا

التَّقديم غرضُه التَّخصيص، مع وجود اللّام الدّالَّة على الاختصاص والاستحقاق، فصارَ العذاب مُختَصًّا بهم، مُعَدًّا لهم؛ إهانة وسُخرية مِمّا فَعَلوه، فالجزاء من جنس العمَل الَّذي عَمِلوه.

سِرُّ التَّعبير بالعذاب في: ﴿عَذَابٞ﴾ و﴿وَلَعَذَابُ﴾:

تأكيد العِقاب بتَكرار اللَّفظ

سِرُّ التَّعبير أنَّ العذاب عقوبة وعقاب بسبب كُفرهم وتَماديهم في غَيِّهم، واتِّخاذهم الشُّركاء، ولذلك سَمّاه اللّه عذابًا[1]، وكانت لفظة ﴿عَذَابٞ﴾ الأولى مُمَهِّدَةً للَفظة ﴿وَلَعَذَابُ﴾ المُؤَكِّدة؛ فكُرِّرت اللَّفظتان إشارةً إلى وعيد شديدٍ.

نُكتة التّنكير في: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ﴾:

بيان قسوة العذاب وشِدَّتِهِ

جاء تنكير ﴿عَذَابٞ﴾ في الآية الكريمة للتَّعظيم، وهو عذاب القتل والخِزي والأسر[2]، مع المَذلَّة والهَوان والهزيمة في غَزَوات المُسلمين ضِدّ الكُفّار؛ فالتَّنكير يوحي بِالشِّدَّة والقسْوة والاستمرار فكأنَّه قال: عذاب مُستمرٌّ دائم اللُّصوق بهم.

سِرُّ تقديم عذابهم في الدُّنيا على عذاب الآخرة:

مُراعاة التَّرتيب الزَّمنيّ للعذاب

التَّقديم هُنا لمُراعاة التَّرتيب الزَّمنيِّ؛ فعذاب الدُّنيا المُتمثِّل في القتل والقَهْر والمَذَلَّة والهَوان مُتقدِّمٌ على عذاب الهون في الآخرة، فكان عذاب الدُّنيا جِسْرًا لعَذاب الآخرة، وقد يكون ذلك أيضًا لشفاء صدور قوم مؤمنين عندما يَرون ما يَحُلُّ بالكُفّار المُستهزئين.

دلالة تَكرار لفظ ﴿عَذَابٞ﴾ في الآية:

تكرار العذاب ووعيدهم باستمرار الإهانة

التَّكرير تقرير لقوَّة العذاب وشِدَّته، كما أنَّ التَّكرار يَدُلُّ على تَعدُّد الإهانات والخِزي في الدُّنيا والآخرة، فليس العذاب واحدًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/531.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/154.

قاصرًا على فتْرة زمانيَّة محدَّدة؛ وإنَّما هو مُمْتدٌّ يغشاهم حياة ومماتًا، بما يَعني الوعيد بالاستمرار.

سِرُّ التَّعبير بالظَّرْفيَّة: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

الفارق العظيم بين عذابَي الدُّنيا والآخرة

السِرُّ أنَّ عذاب الدُّنيا مُحيط بهم شاملُهم، من قتل وتدمير وأسْرٍ وهلاك الحَرْث والنَّسل، فهو مُتَصوَّر معلوم له حدود، فكان حرْف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظَّرْفيَّة من إحاطة الظَّرْف بالمَظروف، أمّا عذاب الآخرة فلا يَحُدُّه حَدٌّ، ولا يُحيط به وصْف فلَم يَقترن بحرْف ﴿فِي﴾ لأنَّه أشَقُّ وأبْقى.

دلالة دخول اللّام: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون الدّنيا:

إزالةُ الشَّكِّ من نُفوس الشّاكّين

التَّوكيد باللّام يَدُلُّ على إنكارهم ذلك العذاب، فجاء التَّوكيد لتمكين العذاب، وإزالة شَكِّ مَن يَشُكُّ في وقوعه؛ لأنَّه غير مرئيٍّ لهم، أمّا عذاب الدُّنيا، فهو مُشاهَد لهم وسَيَرونَه بأعينهم، إضافة إلى نُبوِّ التَّركيب عن توكيد (عذاب)، فالتَّركيب القرآنيُّ: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٌ﴾، فلا مَوضع هُنا للتَّوكيد، وقد يكون توكيد لفظة (عذاب الآخرة) مُساويًا للتَّخصيص في لفظة ﴿عَذَابٌ﴾ الأولى.

دلالة التَّعبير بصيغة ﴿أَشَقُّۖ﴾:

تعدُّد أنواع العذاب وتتابُعه

الإشارة إلى أنَّ عذاب الآخرة أزْيَدُ "إنْ شئتَ بسبب القوَّة والشِدَّة، وإن شئت بسبب كثْرة الأنواع، وإنْ شئت بسبب أنَّه لا يَختلط بها شيء من موجِبات الرّاحة، وإن شئت بسبب الدَّوام وعدم الانقطاع"[1]، فاسْم التَّفضيل فيه قوَّة تِلو قوَّة، وشِدَّةٌ تَتْبَعها شِدَّة فهو "إحراق بالنّار دائمًا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: 56]"[2]، ويُفهَم منه أنَّ عذاب الدُّنيا أيضًا شاقٌّ؛ لأنَّه قتلٌ وأسْر وتنكيل، غير أنَّ الآخرة أكثر مَشَقَّةً.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/44.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾:

انتفاء النّاصرين وشِدَّة المَوقف وهَوله

﴿مِن﴾ هُنا استغراقيَّة تَنفي جنس الواقين؛ لأنَّها نكِرة مَسبوقةٌ بنَفْي؛ فدلَّت على انتفاء الواقي؛ أيْ: ما لهم من عذاب اللّه واقٍ، ما لهم من شفيع ولا نَصير، بل إنَّهم يتقدَّمون إليه سُبحانه مُتناوِلين كتابَهم بشمالهم[1]، وفي هذا إشارة إلى شدَّة الموقف وصعوبته وانعدام السّاتر الحامي؛ لأنَّ الموقف موقفُ مسؤوليَّة ذاتيَّة، كُلُّ إنسان يقول: نَفْسي نَفْسي، فخَلا الموقف من أيِّ واقٍ.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّـهِ﴾:

شدَّة العذاب لابتدائه من الله

﴿مِّنَ﴾ مُتعلِّقة بـ ﴿وَاقٍ﴾، ويجوز أن تكون ﴿مِّنَ﴾ للبَدَليَّة؛ أيْ: ما كان لهم بدَلٌ من المتَّصِف بصفات الكمال، وأن تكون ابتدائيَّة؛ تنبيهًا على أنَّ العذاب في غاية الشِّدَّة لأنَّه إذا لَم يَبتدئ من جهته سُبحانه واقية لَم يكُن لهم باقية[2].

سِرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الرُّبوبيَّة:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس

سِرُّ التَّعبير أنَّ الموقف موقفُ شِدَّة وقوَّة، فيُناسبه الاسم الأعظَم الَّذي يُدخل المهابة في القلوب لجبروته وعظَمته وشِدَّة عقابه، أمّا لفظة (الرَّبِّ) أو (ربّي) فتُشعر بالتَّربية والعطاء والحماية، وهذي أشياء ليست في هذا السّياق، فكان الاسم الأعظَم ﴿ٱللَّهِ﴾ هو الأنسَبَ، مع مُناسبته أيضًا للآية الَّتي تَسْبِقه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾.

دلالة التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿وَاقٍ﴾:

الدَّوام والاستمرار مع المُناسَبة وتعدُّد أزمِنة اسم الفاعل

في قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أسرارُ التَّعبير تتمثَّل في الآتي، أوَّلًا: أنَّ اسم الفاعل أكثر ثباتًا ودَيْمومة من الفعل المُضارع، وفي هذا انتفاء لجنس مَن يَقي، بِدلالة الجملة، ثانيًا: اسم الفاعل جَعَل دخول (مِن) الاستغراقيَّة مُناسِبًا، والتَّعبير بالفعل ليس مُناسِبًا

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3959.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/315.

للحرْف؛ لأنَّ حرْف الجَرِّ من سمات الأسماء لا الأفعال، وتوظيف الفعل هُنا يَجعل حرْف الجَرِّ (من) اسم موصول، فيُقال (مَن يقي، وقى). ثالثًا: مُناسَبة الوزْن الصَّرفيِّ (واق) للوَزن الصَّرفيِّ في الآية السّابقة عليها (هاد)، رابعًا: اسم الفاعل زَمَنُه مُتعدِّد فهو دالٌّ على الماضي والحال والاستقبال بلفظ واحد، فهؤلاء لن يَقيهم من عذابه مانِع يَمنعهم إذا أراد بهم سوءًا لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، أمّا الفعل فزمَنه مَحصور فهو ماضٍ أو حال ومستقبَلٌ بألفاظ مُختلِفة.

سِرُّ اختيار ﴿وَاقٍ﴾ دون (نَصير):

بيان احتياجهم إلى مَن يَسترهم لا مَن ينصرهم

الوقاية: حِفظ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه ويضرُّه[1]، والواقي فاعل من الوقاية، وهي الحَجْز بما يَدْفع الأذيَّة، والواقي هو السّاتر الحامي من العذاب، ومن الأخْذ ومن النّكال، فهم مُعرّضون بلا وقاية لِما يُنزله بهم من عذاب، فهم في حاجة إلى واقٍ كي يكون الحائلَ دون الضُّرِّ، و"لا يشفع أحد عنده إلّا بإذنه، ولا يأذن لأحد في الشَّفاعة لِمَن كفر به ومات على كفره"[2].

تَوجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ:

تنوُّع الأوصاف لتنوُّع الأقوام وتعدُّد عذاباتهم

سِرُّ اختلاف وصْف عذاب الآخرة؛ حيث وصِف هُنا بالأشَقِّ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾، ووُصف في سورة طه بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 127]، وفي سورة القلم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ [القلم: 33]، وفي سورة فصّلت: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ [فُصِّلت: 16].

أمّا آية الرَّعد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ فالإشارة إلى أنَّ عذاب الآخرة أزْيَد، بسبب القوَّة والشِّدَّة، أو بسبب كثرة الأنواع، أو بسبب أنَّه لا يختلط بها شيء من موجبات الرّاحة، أو بسبب الدَّوام وعدَم الانقطاع، فاسم التَّفضيل فيه قوَّة تِلْو قوة، وشدَّة تَتْبعها شِدَّة، فهو

(1) الرّاغب، المفردات: (وقى).

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/109.

إحراق بالنّار دائمًا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]، ويُفهم منه أنَّ عذاب الدُّنيا أيضًا شاقٌّ؛ لأنَّه قتلٌ وأسْرٌ وتنكيلٌ، غير أنَّ الآخرة أكثر مَشَقَّة، أمّا موضع سورة طه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه: 127] فلِموافَقة الفواصِل جاء العذاب موصوفًا بالشِّدَّة والبقاء، فقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه: 124 - 127]؛ لأنَّه يحكي حادثًا مرئيًّا أمامهم. وأمّا في سورة القلم: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ﴾ [القلم: 33] ففيه تشبيه بلاء قريش بِبَلاء أصحاب الجنَّة وهو أنَّ أصحاب الجنَّة عزموا على الانتفاع بثَمَرها وحِرمان المساكين، فقلَب اللّه تعالى عليهم وحرَمَهم، وأنَّ قريشًا حين خَرجوا إلى بدْر حَلفوا على قتل الرَّسول ﷺ وأصحابه، فإذا فعلوا ذلك رَجعوا إلى مكَّة وطافوا بالكعبة وشربوا الخمور، فقلَب اللّه عليهم بأن قُتلوا وأُسروا، ولمّا عذَّبهم بذلك في الدُّنيا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ﴾ [القلم: 33][1]، وكأنَّ ما رأيْتموه صغير قليل قياسًا بيوم القيامة، وأمّا آية فُصّلت فلِمُناسَبة لفظة الخِزْي قبْلها، فكان المناسِب أن يوصَفَ العذاب بالخزي كما قال ربُّنا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت: 15 - 16].

سِرُّ اختلاف التَّعبير بين: ﴿وَمَا لَهُم﴾ و﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾:

مناسَبة (كان) في غافر لا الرَّعد

أمّا سورة غافر فقد جاء التَّركيب مُحلًّى بـ (كان)؛ لأنَّ السّياق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/244.

يغلِب عليه فعل الكَيْنونة، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: 21 - 22] فكان المُناسِب وجودَ (كان) لمُناسَبة ما قبْل وما بَعد، أمّا آية الرَّعد فَتَخْلو من (كان)؛ فناسَب ذلك خُلوّ التَّركيب من (كان).

﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾ [الرّعد: 35]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـتّرغيـب بعد التّرهيب، بذِكر مـا ادّخــر الله للمتّقين، عقب ما أعدّ للكافرين

لمّا ذكر النّظم الكريم في الآية السّابقة عذاب الكفّار في الدّنيا والآخرة، أتبعه في هذه الآية بذكر ثواب المتّقين[1]، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾. ومن المناسبة أيضًا: أنَّ اللّه تعالى لمّا توعّد "الكافرين في الآيات السّابقة على تفريطهم في جانِبِ اللّه واستهزائهم برُسُله؛ تشوّقتِ النّفس إلى الجزاء المُعدّ للّذين آمنوا، فكأنّه قيل: فما جزاء أهل الإيمان؟ فقيل: الجنّة"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّثَلُ﴾: أصلُ كلمة (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، يُقال: هذا مِثْلُ هذا؛ أيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ بمَعْنًى واحِدٍ[3]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخر بينهما مُشابهة، ليُبيِّن أحدُهما الآخرَ ويُصوِّرَه. نحو قولهم: (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ)[4]، فإنَّ هذا القول يُشبه قولَكَ: (أهْمَلْتَ وقْتَ الإمْكانِ أمْرَكَ)[5]، وعلى هذا الوجه ما ضَرب اللّه تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]، والمِثْلُ يُقالُ على وجْهَيْنِ: أحَدُهُما: بِمَعْنَى المِثْلِ نحو شَبَهٍ وشِبْهٍ، قالَ بَعْضُهُم: وقَدْ يُعَبَّرُ بهما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/46.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/353.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) ابن سلّام، الأمثال، ص: 247، والعسكريّ، جمهرة الأمثال: 1/324.
(5) نور الدّين اليوسيّ، زهر الأكم في الأمثال والحكم: 1/21.

عن وصفِ الشَّيْءِ، نحوَ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والثّاني: عِبارَةٌ عَنِ المُشابَهَةِ لِغَيرِهِ في مَعْنًى من المَعاني أيَّ مَعْنًى كانَ، وهو أعَمُّ الألفاظِ المَوضوعَةِ لِلمُشابَهَةِ.

والمُثول: الانتصاب. والتَّمثال - بالفتح -: التَّمثيل، والتِّمثال - بالكسر -: الصّورة، ومثَّله له: صوَّرَهُ، وتمثَّل: تصوَّر، قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: 17]، وتَمثَّل بالشَّيء: ضرَبَه مَثَلًا[1].

والمقصود بالمَثَلِ في الآية: الصِّفَةُ العَجيبَةُ، وهو مُسْتَعارٌ مِنَ المَثَلِ الّذي هو الشَّبيهُ في حالةٍ عَجيبَةٍ، أُطْلِقَ على الحالَةِ العَجيبَةِ غَيْرِ الشَّبيهَةِ؛ لأنَّها جَديرَةٌ بالتَّشْبيهِ بها[2].

2) ﴿أُكُلُهَا﴾: (أكل): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، ومعناها: التَّنَقُّصُ. قالَ الخَليلُ: الأَكْلُ معروفٌ، والأَكْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ حتَّى يَشْبَعَ، والأُكْلَةُ اسْمٌ كاللُّقْمَةِ[3]، والأُكُلُ: بِضَمِّ الهَمْزَةِ والكافِ هو المأكولُ، والأَكَلَةُ: جَمْعُ آكِلٍ، والمأكَلُ: ما يُؤكَلُ، كالمَطْعَمِ، والمُؤكِلُ: المُطْعِمُ[4]، والأُكُلُ: طُعْمَةٌ كانَتِ المُلوكُ تُعْطيها الأشرافَ، والأُكُلُ أيضًا: الرِّزق، والجَمْعُ: آكالٌ[5]، والإِكْلَةُ: هَيْئَةُ الأَكْلِ، والإِكْلَةُ أيضًا: الحالُ الّتي يأْكُل عليها مُتَّكِئًا أو قاعِدًا[6]، والأكولَةُ: الشّاةُ تُرْعَى للأَكْلِ لا لِلبَيْعِ والنَّسْلِ[7]، والمقصود بالأُكُلِ في الآية: المأْكول، مع اختِلافِ طعومِهِ وتَفاضُلِه.

3) ﴿دَآئِمٌ﴾: أصْلُ مادَّة (دوم): يَدُلُّ على السُّكونِ واللُّزومِ، يُقالُ: دامَ الشَّيءُ يَدومُ، إذا سَكَنَ، والماءُ الدّائِمُ: السّاكِنُ، يُقالُ: أدَمْتُ القِدْرَ إدامَةً؛ إذا سَكَّنْتَ غَلَيانَها بالماءِ، ومنه: دامَ الشَّيءُ: إذا امتدَّ عليه الزَّمان، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 117][8]، واستَدَمتُ الأمرَ: تأنَّيت فيه، والظِّلُّ الدَّوْم: الدّائم، والدَّوامُ على الشَّيءِ: عَدَمُ الانقطاع عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، وهو كِنايةٌ عَنِ التِفافِ الأشْجارِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (مثل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/482.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (أكل).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أكل).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دوم).

بِحَيثُ لا فَراغَ بَينَها تَنفُذُ منهُ الشَّمْسُ، وقوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: 23][1]، وهذا المعنى في كُلِّ عَمَلٍ بِحَسَبِ ما يُعتَبَرُ دَوامًا فيه، وهو المُراد هنا في الآية.

4) ﴿وَظِلُّهَا﴾: أصلُ الظِّلِّ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيره، تَقولُ: أظَلَّتني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ولا تقولُ العرَبُ: ظَلَّ يَظَلُّ إلّا لكلِّ عَمَلٍ بالنَّهارِ[3]، وظِلُّ النَّهارِ: لونُه إذا غَلَبَتْه الشَّمسُ، والظِّلُّ: نَقيضُ الضَّحِّ، وبَعْضُهُم يَجْعَلُ الظِّلَّ الفَيْءِ، وقالوا: ظِلُّ الجَنَّة، ولا يُقالُ: فَيْؤها؛ لأنَّ الشَّمْسَ لا تُعاقِب ظِلَّها فيكون هُنالِكَ فَيْءٌ، إنَّما هي أبدًا ظِلٌّ؛ ولذلكَ قالَ ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ أراد وظِلُّها دائِمٌ أيضًا[4]. ويُعبَّر بالظِّلِّ عن العِزَّة والمَنَعة، وعن الرَّفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ﴾ [المُرسَلات: 41]؛ أيْ: في عِزَّة ومَناع، والظُّلَل: جمعُ ظُلَّة، كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثر ما يُقال فيما يُستَوْخَم ويُكره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171][5]، والمقصود بالظِّلِّ في آية سورة الرّعد: الظِّلُّ الدّائم الحاصِل مِنَ التِفافِ الأشجارِ في الجَنَّةِ لِكَثْرَةِ أوراقِها.

5) ﴿عُقْبَى﴾: أصلُ مادَّة (عقب): يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتيانه بعدَ غيره، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقيبُهُ[6]، والعَقِبُ: مُؤَخَّر الرِّجْل، والعاقِبَةُ: آخِرُ الأمرِ، وأثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيْء ويظهَرُ في آخِرِهِ مِنْ أثَرٍ ونَتيجةٍ[7]. قال الرّاغِبُ: العاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصّانِ بالثَّوابِ، نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافة قَدْ يُستَعمَلُ في العُقوبَة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]. والعُقوبَةُ والمعاقَبةُ والعِقاب يختصُّ بالعذاب، قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص: 14]، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر: 4][8]، وسُمّيت العقوبةُ بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، مِن تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ؛ أيْ: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقوباتٌ[9]، والمقصود

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (أكل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(3) الخليل، العين: (ظل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (ظلل).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/92.
(8) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

بالعُقبى في الآية: العاقِبَةُ، وهي الشَّيءُ الَذي يعقبُ؛ أيْ: يَقَعُ عَقِبَ شيءٍ آخَرَ[1].

۞ المَعنى الإجماليّ:

بيان ما أعدَّه الله تعالى لأهل التّقوى، من أصناف النَّعيم في جنّة المأوى

بيَّنت هذه الآية ما أعدّه اللّه تعالى للمُتَّقين من نعيم ذُكِرَتْ أوصافُه بقوله سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الآيَة؛ والمَعنى: صِفةُ الجنَّةِ - الَتي وعدَ اللّه بها المتَّقينَ في الآخرةِ - أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ قُصورِها وأشجارِها، وما يُؤكَلُ في الجنَّةِ مِن ثمارِها دائِمٌ لأهلِها، لا ينفَدُ ولا ينقَطِعُ عنهم، وظِلُّها أيضًا دائِمٌ لا يزولُ، تلك الجنَّةُ العاليةُ الأوصافِ هي عاقِبةُ المُتَّقينَ الّذين امتَثَلوا ما أمَرَهم اللّه به، واجتَنَبوا ما نهاهم عنه، وعاقِبةُ الكافرينَ باللّه هي النّارُ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل هذه الآية عمّا قبلها:

الجمع بين البشارة والنّذارة، منهج دعويٌّ مكرّسٌ بجدارة

لم تُعطف الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، لقصدِ الرّبط بينها وبين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ [الرّعد: 29]، وقد ذكر هنا بمناسبة ذكر ضِدّه قبله في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ [الرعد: 34][3]، فلمّا ذُكِر العذابُ؛ حسُن أن يُتْبَعَ بنقيضه؛ لِما في الجمع بينهما من زيادة التّبشير والتّرهيب.

سرُّ التَّعبير بالمثل دون الشّبه في الآية:

المَثَل يشير إلى غرابة الوصف لا إلى التّشبيه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمَثَل دون الشّبَه في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ لأنّه لم يرد المشابهة، بل بيان أنّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/555، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/325، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.

صفتها عجيبةٌ غريبة كغَرابة المَثَل، فهو وصف للتّقريب ابتغاء التّفهيم؛ إذِ المَثَل إنّما سار بين النّاس لغرابته ولكونه يُفهِّم الحالَ الموصوفة[1]، فوصف الجنّة من الغرابة والعجب بمكان أن يكون جديرًا بأن يكون مُشبّهًا بِهِ، فإنّ وصفَها "في الجلال، وعلوّ الجمال، وكرم الخلال، ممّا تعالى عن المنال، إلّا بضرب الأمثال، فقيل: ما مثلها؟ فقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى﴾"[2].

ولأنّ المثل يُباينُ الشّبه؛ فالمثل أعمُّ والشّبه أخصُّ، وذلك لأنَّ المِثليّة تقتضي الاتّفاق في الذّات والصّفة؛ فهي تُفيد المطابقة، بخلاف الشّبه فيدلُّ على المشابهة في بعض الصّوَرِ لا كلِّها، وعلى هذا جاء التَّعبير القرآني بالمَثل؛ للدِّلالة على أنَّ ما قصَّه القرآنُ عن الجنَّة - وهي غيبٌ عنا - حقيقةٌ واقعة؛ لأنَّ الّذي وصفها هو خالقها سُبحانه.

سرّ التّعبير بالمَثَل دون الوصف في الآية:

التَّعبير بالمثَل مسلك يلحق غير المعلوم بالمعلوم؛ لتقريب المفهوم

جاء التّعبير القرآنيّ بالمَثَل في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾، دون الوصف بأن يقول: (وصف الجنة)؛ للإشارة إلى عجز اللّغة عن التّعبير عمّا في الجنَّة؛ فإذا أراد اللّه سُبحانَهُ أن يُعبِّر عمّا فيها من النَّعيم، جاء ذلك عن طريق المَثَل لا الوصف؛ لأنَّ اللّه يعلم أنَّ لغتنا تضع الألفاظ لما هو موجودٌ في حياتنا؛ لأنَّ الألفاظ الّتي نتخاطب بها نحن، قد وُضعت لمعانٍ نعرفها، وإذا كان في الجنَّة أشياء لم ترها عينٌ، ولم تسمعها أذنٌ، ولم تخطر على قلب بشر؛ فلا توجد ألفاظ في لغتنا تُؤَدّي إلى وصف حقيقة الجنّة؛ لذلك يضرب اللّه لنا المَثَل بما نراه ونعرفه للتّقريب. ويؤكّد ذلك أنَّ التَّعبير القرآنيّ وردَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ولم يقل: الجنّة مباشرة؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/154.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/353.

المَثَل يُعطي المتلقّي صورةً سمعها عن واقعٍ لا يعلمه؛ فيأتي التَّعبير بالمَثَل ليلْحِقَ غيرَ المعلوم بالمعلوم؛ لنأخذ منه الحكمة[1].

سرُّ التّعبير بالمفرد ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:

لفظ الجنّة يُنبئ عن منازلها وطبقاتها، فهو أوعب في الدّلالة عن المُراد

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمفرد ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دون الجمع (الجنّات)؛ لأنَّ اللّامَ تدلُّ على الجنس، والمُراد بها: الدّار الّتي أعدَّها الله للثَّواب، وهي مشتملة على جنّاتٍ كثيرة، تكون كلُّ جنَّةٍ منها على قدر الثَّواب المُعدِّ للعاملين، كلٌّ على قَدْرِ درجته، ويؤكِّد ذلك أنَّ الفردوس هو أعلى الجنّات، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إذا سَأَلْتُمُ اللّه فَسَلوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وأعْلَى الْجَنَّةِ»[2].

دلالة التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

استدعاء صورة الجنّة المذكورة في السّياق، وعْدًا بالفحوى، لأهل التّقوى

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ للإحالة على الصّورة الّتي سبق للنّظم الكريم أن بيّنها للجنّة في سابق التّنزيل؛ لأنّها معهودة في الذّكر والأذهان، فالتّعبير بالموصول في سياق التّمثيل للجنّة، يستدعي صورة الجنّة بما تتضمّنه صلة الموصول، وهي هنا كونها سبق أن ذُكرت وعدًا للمتّقين، فهذا أوان تمثيلها وبيان الخلاصةِ فيها.

سرّ التَّعبير بالوعد دون البشارة في الآية:

الوعد إخبار عن محقّق الخبر، والبشارة إخبار بسارٍّ منتظر

آثر النّظم الكريم التّعبير بالوعد دون البشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾؛ لأنّ البشارة تعني: أوّل خبرٍ سارٍّ[3]، فهي إخبار بخبر سارّ، بخلاف الوعد؛ فلأنّه كلِمَةٌ تَدُلُّ على تَرْجيةٍ بِقَوْلٍ[4]؛ أيّ: إخبارٌ يُرجى وقوعه وتحقّقه مستقبلًا، فالبشارة دالّة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7262.

(2) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، الحديث رقم: (2790).

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بشر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

على المسرّة، والوعد دالٌّ على التّحقّق، فآثر النّظم الكريم التّعبير بالوعد إعلامًا بتحقُّق ذلك وتأكيد حصوله.

دلالة بناء الفعل ﴿وُعِدَ﴾:

صِدقُ الوعد، يُغني عن ذكر الواعد

آثر النّظم الكريم أن يُعبّر في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ بالفعل المبنيّ للمفعول، فلم يُسمّ فاعلٌ للفعل ﴿وُعِدَ﴾؛ لأنّ المقصود هو حصول الوعد الصّادق، لا بيان مَن قام به، فالأهمُّ تحقّق الوعد بالإيفاء بالموعود، كما أنّ في ذلك إيجازًا؛ إذْ قد عُلم أنّ الواعدَ هو اللّه تعالى[1]؛ لأنَّه سبحانه هو صاحب الوعد، وقد بلَّغت عنه الرُّسُلُ ﵈، وتلاهم العلماء المبلِّغون؛ فالملاحظ أنَّ إعلان الوعد تعدَّدت مصادره لعلوِّ قدره؛ لذلك بُني الفعلُ لما لم يُسَمَّ فاعله؛ ليكونَ ذلك أوْسَعَ لأهل الدَّعوة في كلِّ زمان ومكان أن يُرَغِّبوا النّاس في تقوى اللّه بما أعدَّه لهم من الجزاء، ويكون دَوْرُهم من باب الإعلام.

دلالة التَّعبير بالاسم ﴿ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾:

وعدُ اللّه للرّاسخين في التَّقوى، بحيازة النّعيم في جنّة المأوى

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ التَّعبير بالاسم، دون الفعل فلم يَقل: (الّتي وعد الّذين اتّقوا)؛ لأنّ التّعبير بالاسم دالٌّ على أنّ الوصف قد ثبت فيهم وصار راسخًا، فالوعْدُ ليس لمجرّد إحداث التّقوى مرّةً أو مرّات، بل لا بدّ أن يكون قد رسخ فيه الوصف وصار ثابتًا لا يزول بمَرّ الزّمن وتقلُّب الأيّام.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾:

التَّقوى اجتهاد في البعد عن المعاصي، والتَّرقّي في أسباب الوقاية منها

آثَر القرآن الكريم وصف التّقوى في قوله: ﴿وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ دون غيره من الأوصاف كالإيمان والإسلام؛ لِما يحمله هذا الوصف من الاجتهاد في البُعد عن المعاصي والتَّرقّي في أسباب الوقاية منها؛ لأنَّ الفعل (اتَّقى) بصيغته يدلُّ على الافتعال الّذي يلزم منه بذل الجهد

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/353.

لتحقيق الفعل، بخلاف لفظ الإيمان والإسلام؛ فالأمر فيهما مبنيٌّ على الإعلان الظّاهريِّ والباطنيِّ، ولا يتطلَّب ذلك كبير اجتهاد.

سرُّ الفصل بين الجنّة وأوصافها:

تنويه بما يناله المتّقون، في أخراهم من جنّات وعيون

فصل النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ بين الجنّة وأوصافها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾؛ للدّلالة على الاهتمام بسُكّانها ولمزيد العناية بهم، فذكر هذه العبارة باعتبارها صفةً تعريفيّة بِسكّانها قبل أن يشرع بوصفها، فعرّفها بكونها الّتي وعد المتّقون؛ وذلك تنويهًا بشأن هؤلاء المُتّقين، بأن جعلهم عنوانًا للجنّة، كما أنّ فيه حثًّا للمسلمين للثّبات على ما هم عليه من التّقوى.

بلاغة الموقع الإعرابيّ في قوله: ﴿تَجۡرِي﴾:

جَريان الأنهار، من أوصاف الجنّة دار القرار

الجملة في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ في موضع الخبر للمبتدأ ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، باعتبار أنّ مضمون الجملة وهو جريان الأنهار فيها حالٌ من أحوال الجنّة الّتي هي مضاف إليه، فهي بذلك شديدة الملابسة للجنّة؛ لأنّ المتضايِفَيْن وثيقا المُلابسة والارتباط، لذلك جاءت خبرًا عن المثل، كما يُقال: صفة زيد أسمر[1]، فـ(أسمر) خبر عن المبتدأ الّذي هو (صفة)، وصحّ ذلك لأنّه حال وصفة من صفات زيد الّذي هو المضاف إليه. وممّا يُذكر في بلاغة التّعبير بجريان الأنهار في الجنة: التَّصوير الجماليُّ للجنَّة، وذلك من جهة بساتينها، فأفضلها وأكرمها منظرًا ما كانت أشجارُه مظلّلةً والأنهار فيها جارية، والحدائق مع جمالها لا تُبهج الأنفس إلّا بجريان الماء فيها.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَجۡرِي﴾:

جودة ماء الجنّة وجمالها، حاصلٌ بتدفّقها وجريانها

عبّر النّظم الجليل عن صفات الحُسن في الجنّة، وبدأها بصفة الجري فقال جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، فلم يكن الإنعام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.

بالأنهار فحسبُ، بل بكونها جارية على الدّوام؛ لأنّ صفة الجري في الأنهار، من أهمّ صفات الجودة فيها، لدلالتها على التّجدّد والدّوام وانتفاء الانقطاع، كما أنَّ توقّف الماء يؤدّي إلى فساده وعفنه.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

من تمام الإنعام تجدُّد جريان الأنهار، وتدفّقها بمشيئة الواحد القهّار

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ للدّلالة على تجدّد جريان الأنهار وعدم انقطاعها، وذلك بانتفاء العوارض الّتي كانت تقع أمثالها في الدّنيا، وفيه تأكيد لمزيد الإنعام، فلم يكن الإنعام بوجود الأنهار في الجنّة وحسب، بل إنّ تلك السّواقي جارية على طول الزّمان، وهذا غاية الجودة في صفة الأنهار.

وفيه تصويرٌ لجمالها وحُسنها؛ لأنَّ أحسن المياه ما كان مُتجدِّدًا؛ فالتَّعبير بالفعلِ المضارع يُشير إلى أنَّ هذه المياه جديدة مُستجدّة.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

منابع جري الأنهار، تنبثق من تحت الجنّة

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ بإدخال ﴿مِن﴾ للدّلالة على ابتداء مكان الجري، وأنّ الماء ينبع من تحتها، ثم يجري من تحت أشجارها، وأنّه كان بالجهة الّتي هي تحت الجنّة، وهذا يدلّ على تمكّن أهلها من هذه الأنهار؛ فهي تحتهم، وهذا يشعر بقدرتهم عليها لسهولتها. وذهب البقاعيّ إلى أنّ ﴿مِن﴾ دالّة على التّبعيض، فقال: "أدخَلَ الجارَّ للدّلالة على أنّه خاصّ ببعض أراضيها، فقال: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ أي: قصورها وأشجارها"[1].

سرُّ التَّعبير بالظّرفيّة ﴿تَحۡتِهَا﴾:

الأنهار تحت الجنّة لا فوقها، وهي دليلٌ على عظمة من شقّها

عبّر النّظم الكريم عن مكان الأنهار من الجنّة بالظّرف (تحت)، فقال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ وهو: إحْدى الجهاتِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/354.

السِّتِّ المُحيطة بالجِرم[1]، وهو مقابل لـ(فوق)، ويُستعمل (تحت) في المنفصل، و(أسفل) في المُتّصل، يُقال: المال تحته، وأسفله أغلظ من أعلاه[2]، أمّا السُّفْلُ: فهو ضدّ العلو، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحِجر: 74]، وأسفَل ضدّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 42][3]، وعليه فإنّ التّعبير بـ (تحت) الدّالّ على أنّ الأنهار تحت الجنّة لا فوقها هو الجاري على دلالة الظّرف، ولو قال: (أسفلها الأنهار)؛ لدلّ على أنّ الجنّة مرتفعة والأنهار أسفل منها.

دلالة تقديم الظَّرف ﴿تَحۡتِهَا﴾:

مكان الجري أبلغ في الإنعام، من ذكر الجاري

قدّم النّظم الكريم شبه الجملة ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، في قوله تبارك اسمه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، ولم يَجْرِ هذا التَّعبيرُ على الأصل: (تجري الأنهار من تحتها)؛ لأنّ بيان كون صفة الجري حاصلة من تحتها أبلغ في إظهار الإنعام، فقُدِّم ما يُعبّر عن مكان الجري على الجاري، كما أنّ تأخير ما حقّه التّقديم فيه تشويق وتفخيم لشأنه.

سرّ التَّعبير بلفظ الأنهار مع الجنّة:

الأنهار موطن السُّكنى، ومنبع الغذاء، ومَعين الحياة

دأب النّظم الكريم في بيان النّعم في الجنّة على ذكر الأنهار، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لِما جرت عليه عادة النّاس من السّكن عند الأنهار ومصادر المياه، ولأنَّ الأنهار هي موطن الزّراعة ومَزادَة الغذاء، ولذا أعقبها بذِكر الأكل، فقال ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾.

سرُّ البدء بجريان الأنهار من تحت الجنة:

الماء سرّ الحياة والمُعتمد في اتّخاذ الأرض مسكنًا

بدأ النّظم الكريم وصفَ الجنَّة بذِكْرِ جريان الأنهار في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ لأنَّ جريان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (تحت).

(2) الرّاغب، المفردات: (تحت).

(3) الرّاغب، المفردات: (سفل).

الأنهار سببٌ للثّمار الّتي ينتج عنها الأكل، ولأنَّ الماء ووفرتَه هي الأصل في اتّخاذ المكان مسكنًا، وقد دأب النّاس على أن يكون جوارُ الماء هو الموطن والمسكن الّذي يَنْزِلون فيه، فإذا عُدمَ الماءُ؛ لَم يَصلُح المكان لأنْ يُسْكَنَ فيه.

بلاغة المجاز المرسل في الآية:

إسناد الجري إلى الأنهار، لونٌ من التّصوير الجميل، للتّشويق الأثيل للنّعيم المُنْتَظر

أسنَد القرآن الكريم الجري إلى الأنهار في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ مع أنَّ الّذي يجري في الحقيقة هو الماء الّذي فيها، ويكون ذلك من باب المجاز المُرسل؛ مِن إطلاق اسم المحلِّ وإرادة الحالِّ؛ لأنَّ النّاظر إلى الماء وهو يجري لا يرى النَّهر، لكِنْ يرى الماء، فكأنَّ النَّهر اختفى في الماء والنّاظر لا يرى غيره[1]. ويجوز أن يكون هذا المجاز عقليًّا؛ إذا نظرنا إلى أنَّ التّجوُّزَ واقِعٌ في الإسنادِ.

دلالة(ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

تلوّن معنى تعريف الأنهار، إيغالٌ في وصف الجمال، وتأكيدٌ للروعة

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ يجوز أن تكون للجنس، والمُراد أنّها تستغرق جميع أنهار الجنّة الواردة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمّد: 15]، ويجوز أن تكون للعهد، والمُراد بها: ما يستحضره السّامع عند ذِكر الجنّات؛ لأنّها من لوازمها وأساس من أُسسِ وجودها، فإذا انعدمت الأنهار؛ انعدمت الجنّات.

سرُّ ذِكر الأكل عقب جري الأنهار:

الأنهار مُستَقرّ الشّعوب، ومنبع الغذاء والتّواصل والتّشارك بين الأمم

أعقب النّظم البليغ جري الأنهار بذِكر الأُكل في قوله تبارك اسمه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ لأنّ الأنهار هي مستقرّ الشّعوب، فاتّخذها النّاس مواطن للسّكن، لِما كانت تزوّدهم

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/171.

به من مَشربٍ وسَقْيٍ لدوابّهم وزراعتهم، فكان ذِكر الأُكل مناسبًا بعد ذِكر الأنهار، أو كما قال البقاعيّ: "ولمّا كان هذا ريًّا حقيقيًّا في أرضٍ هي في غاية الخلوص والطّيب؛ كان سببًا لدوام ثمرها واستمساك ورقها، فلذلك أتبعه قولَه: ﴿أُكُلُهَا﴾"[1].

وممّا يُذكر في ذلك أنَّ متعة الأكل تأتي بعد متعة النَّظر، ولأنَّ الأنهار سبب في وجود الأكل، فقُدّم السّبب على النَّتيجة، وللإشارة إلى أنَّ وصف الجنَّة بجريان الأنهار وصف لذاتها، والأكل وصفٌ لمنفعتها[2].

سرُّ التَّعبير بالأكل في قوله: ﴿أُكُلُهَا﴾:

ثمار الجنّة يانعة، تُجنى في كلّ زمان، وتتجدّد ولا تتبدّد

آثر النّظم الكريم التَّعبير بالأكل في قوله تبارك اسمه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ دون غيره إشارة إلى ثَمَرِها الّذي يُؤكل[3]، فذِكْرُ الأُكل دون الثّمار يتضمّن إشارة إلى صلاح أكلها على الدّوام.

وفيه إشارة إلى العموم؛ لأنَّ لفظ الأكل اسمٌ لكلِّ ما يُطْعَم، سواءٌ أكان مِن الثِّمار أو من غيرها.

أثر تعدُّد القراءات في قوله: ﴿أُكُلُهَا﴾:

في تنوّع القراءة القرآنيّة، سعة في الفهم، وتنوّع في التّأويل

تعدَّدت القراءات في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا﴾ بين ضَمِّ الكاف وإسكانها، حيث قرأ عاصم وابن عامر والكسائيُّ وحمزة بضمِّ الكاف، وقرأ الباقون بإسكانها؛ فذهب بعضُ أهلِ العربيَّةِ إلى أنَّ تغيُّر الحركات من باب تعدُّدِ اللُّغات، وذهب آخرون إلى وجود فرق بينهما بناءً على أثر التَّغيُّر الحركيّ فيهما، قال أبو علي الفارسيّ: "الأُكْل بالإسكان مصدر أكلتُ أكلا وأكَلَة؛ فأمّا الأُكل - بالضّمِّ - فهو المأكول، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: 25]، والمُراد: ما يؤكل منها، وبذلك تكون القراءتان

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/354.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/77.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/354.

جمعتا بين الأكل والمأكول؛ لأنَّ حركة الضَّمِّ تُدَلِّل على بذل الجهد في عمليَّة الأكل"[1].

سرُّ وصف الأكل بالدَّوام في الآية:

سعة الإكرام في الجنّة لا حدود له، والله يُعطي على قدر كماله

أفصح النّظم الكريم عن سعة الإكرام في الجنّة، بقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾، فوصْفُ الأُكل بأنّه دائم لا يزول ولا ينقطع[2]، لأنَّ أكثر ما يسرُّ النّفوس دوام الخير والنّعيم، وأشدّ ما يُنغّص عليها التّنعّمَ في الدّنيا إدراكُها أنّ النّعمة زائلة، فبشّرهم الله تعالى أنّ من صفات الجنّة دوامَ نعيمها، كخلود أهلها.

دلالة التَّعبير بالظِّلّ في الآية:

الظّلّ أعمّ من الفَيْء، لاستيعابه المعنى الأشمل

آثر النّظم الكريم التّعبير بالظّلّ دون الفيْء في قوله جلّ شأنه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ لأنّ الظّلّ يكون بلا شمس، فهو أعمُّ من الفَيْء، فإنّه يُقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويُقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يُقال الفيْءُ إلّا لما زالت عنه الشَّمس[3]، فكلُّ فيء ظلٌّ، وليس كلُّ ظلٍّ فيئًا، والفيْء لا يكون إلّا نهارًا بوجود الشَّمس، بخلاف الظّلّ فإنَّه يكون في اللّيل والنّهار معًا.

سرُّ حذف وصف الدَّوام مع الظِّلّ دون الأُكُل:

الإيجاز من معالم الإعجاز، ومن مميّزات التّركيب القرآنيّ بامتياز

اكتفى النّظم الجليل بذكر ﴿دَآئِمٌ﴾ مرّة واحدة في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾، ولم يكرّره مع الظّلّ، والتّقدير: وظلّها كذلك[4]، وهذا من باب الإيجاز؛ فإبلاغ المعنى بأقلّ لفظ من معالم الإعجاز. وفي الحذف فائدة أخرى تجعل السّامع يُكمل العبارة بناء على ما سمع من قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾، وفيه إشارة إلى الاهتمام بالظِّلّ.

(1) الفارسيّ، الحُجَّة: 2/394.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/155.
(3) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

دلالة تأخير الظّلّ بعد الأكل في الآية:

الضّروريات قبل الكماليّات، منهج متوازن في الحياة

أخّر النّظم الكريم ذِكْرَ الظّلّ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾، فجاء بعد ذِكْرِ الأنهار والأُكل، فرتّب ذِكر تلك النّعم حسب أهمّيتها للحياة، واهتمام النّاس بها، فالمشرب والمأكل هما الأصل في اعتبار صلاح الموضع للسّكن، وأمّا الظّلال فهي من صفات الجودة والكمال، فجاء التّرتيب على وفق نظام الإنسان في الحياة.

بلاغة الكناية في التّعبير بدوام الظّلّ:

دوام الظّلّ يُفصح عن وفرة الأشجار، ممّا يسحر القلوب والأنظار

عبّر النّظم الكريم بدوام الظّلّ في قوله جلّ شأنه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ كناية عن شدّة الْتِفاف الأشجار، بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشّمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النّبأ: 16]، وقال: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ [الرحمن: 64]، وذلك من محامد الجنّات ومن صفاتها الحسان(1).

وفيه إشارة إلى جمال المتعة وكمال النّعمة، وذلك لأنَّ بلاد العرب - كما يقول الرّازيُّ في تفسيره - كانت في غاية الحرارة، فكان الظِّلُّ عندهم من أعظم أسباب الرّاحة(2).

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾:

تحقّق وجود الجنّة، لأنّه أمر يُؤخذ باليقين لا بالظّنّ

نزّل النّظمُ الكريمُ الجنّةَ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ منزلة المُشاهَد، وذلك بالإشارة إليها، فاسم الإشارة أفاد أنّ الجنّة حاضرة مشاهدة، وذلك لتأكيد حقيقة وجودها في الغيب؛ والمعنى: "تلك الجنّة الموصوفة بصفتها، وهي الّتي سمعتم أنّها عقبى الدّار للّذين يوفون بعهد الله إلى قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22] إلى قوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: 24] هي الجنّة الّتي وعد المتّقون"(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿عُقۡبَى﴾ مع المُتّقين والكافرين دون (عاقبة):

إدراك نهاية المطاف، أبلغ في إيقاع الخبر، وإيصال البلاغ

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ التّعبير بـ (العقبى) دون (العاقبة) للدّلالة على جزاء الأمر؛ أيْ: مآلهم ومنتهى أمرهم: الجنّة أوالنّار[1]، ولو قال: (عاقبة) لدلّ على النّهاية دون الجزاء، فالعاقبة ما يأتي عقب الشّيء، فهي دالّةٌ على الختام، أمّا العقبى فهي الجزاء الّذي يكون في النّهاية، وهذا أبلغ في السّياق، فَتبشير المتّقين بأنّ هذا نهاية أمرهم أحسن ما تكون البِشارة، وتفجيع الكافرين بأنّ هذه نهايتهم بحيث تنقطع عنهم الأمانيّ، فهو أشدّ تأييسًا وتبكيتًا لهم.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بـ ﴿عُقۡبَى﴾ في جزاء الأشرار والأبرار: الإشارة إلى أنّه جزاءٌ أعقب عملًا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، والله لا يظلم العباد، وإذا كانت الأعمال غير مستوية فالعقبى غير مستوية، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: 20][2].

سرُّ الموصول وصلته في: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾:

تحقيق التّقوى سبيل الوصول للجنّة، وأداء حقوق الله في كلّ نعمة

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ عن المتّقين الموعودين بالجنّة باسم الموصول دون أن يقول: (عقبى المتّقين)؛ للإشارة إلى سبب تلك العقبى، وهو كونهم أنجزوا التّقوى واتّصفوا بها، فالجملة في حيّز الصّلة تتضمّن تعليلًا للحُكم ولِاسۡتِحۡقاقهم تلك العقبى بالجهد الّذي بذلوه من اتِّقاء أسباب الكفر وأنواع الشِّرك حتّى وصلوا إلى الدَّرجة العالية في أمر التَّقوى.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَواْۚ﴾:

التّقوى للعبد مَعۡقِد الفلاح، يوم يرجع إليه ويلقاه

آثَر القرآن الكريم التَّعبير بالماضي ﴿ٱتَّقَواْۚ﴾، في قوله: ﴿تِلۡكَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3961.

﴿عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾؛ لأنَّ الماضيَ يُدَلِّل على تحقُّق الوقوع وتمكُّن فاعله منه، وهذا ما يُشير إليه التَّعبير ﴿ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ الّذي يدلُّ على رسوخ التَّقوى في قلوبهم حتّى آتت أُكلها في سلوكهم.

دلالة الواو في: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

التّمايز بين الفريقيْن في الآخرة، إنصاف من الله وعدل

دلّت الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ على الاستئناف؛ فالجملة مستأنَفة[1] وفائدة الاستئناف هنا: بيان التّمايز بين الفريقيْن في الآخرة، فالمناسبة بين الكلام السّابق وهذه الجملة هي التّضادّ، فإنَّهُ لمّا ذكر أنَّ عُقبى المتّقين هي الجنّة؛ أظهر حُسن هذه العُقبى بذِكر نَقيضِها وهي النّار.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الكفر أعمّ من الشِّرك، وكلاهما هلكة وسوء مصير

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون (المشركين) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؛ لأنّ لفظ (الكافرين) أعمُّ من (المشركين)، فكلّ مشرك كافرٌ، وليس كلّ كافرٍ مشركًا، فاليهود كفروا بالنّبيّ ﷺ ولم يكونوا مشركين، فالتّعبير بالكافرين في الآية ليعمّ الجميع.

فمَن أشرك باللّه وجعل له شريكًا من خلقه فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾ [الأعراف: 191].

سرُّ التَّعبير بالاسم ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الدّلالة على رُسوخهم في الكفر، تبشيع لحالهم المناوئ لله ورُسُله

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الكافرين بالاسم دون الفعل في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، فلم يَقُلْ: (الّذين كفروا) كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم نالوا تلك العقوبة بسبب ثباتهم على الكفر ورسوخهم به، وفيه إظهار لرحمة اللّه تعالى؛ إذ إنّه لم يحكم على كلّ مَن كفر بذلك؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

لأنَّ بعضَهم قد أسلم كما هو الواقع مع كفّار قريش، وبذلك يكون الحُكم خاصًّا بمن اتّصفوا بالكفر على وجه الثّبوت والرّسوخ وماتوا على ذلك.

إعلاء شأن المتَّقين، وتوبيخ الكافرين، منهج قرآنيٌّ مبين

سِرُّ اختلاف أسلوب التَّعبير في الآية:

اختلف أسلوب التَّعبير القرآنيِّ في الحديث عن الجزاء المُعدِّ للمتَّقين والعقاب المُعدِّ للكافرين، فقال: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾، والمُراد: الجنَّة ونعيمها، ومع الكافرين بقوله: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، والمُراد: النّار وعذابها، فالملاحظ أنَّه عبَّر عن الجنّة بالإشارة إليها بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ الدّالّة على البُعد تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، أمّا التّعبير عنِ النّار فجاء بصريحِ اسمها من غير وصف لتعيين العاقبة، فَذَكَرها باسمها المشهور وهو النّار فَحَسْبُ.

قطع سبل النّجاة، أبلغ في شدّة العذاب، وبالغ الأذاة

بلاغة القصر في: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾:

عبّر النّظم الكريم بأسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؛ أيْ: لا عقبى لهم غيرها، كما يُؤذِن به تعريف الخبر[1]. وهو قصرٌ حقيقيّ؛ إذ عقبى الكافرين كذلك لا بالنّسبة إلى غيرهم، وهو قصر صفة على موصوف، فَقصر الصِّفة - وهي عقبى الكافرين - على النّار، وفيه ما لا يخفى من إطماع للمتَّقين وإقناطٍ للكافرين[2].

أقسى العذاب في دركات النّار، والمنتهى إليها بئس القرار

سرُّ التَّعبير بالنّار في الآية:

جاء التَّعبير القرآني بذِكر الاسم الصَّريح ﴿ٱلنَّارُ﴾ الّذي يُطلَق على مكان العذاب للكافرين والمشركين؛ عَلَمًا بالغلبَة، ولم يذكر بعض دركاتها؛ لأنَّ المقام هنا يتناسب مع جريمة الكفر، فكأنَّ النّار بكُلِّ دركاتها موضعٌ لعذابهم.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

المُتشابه اللّفظيّ بين آيتي الرّعد (35)ومُحمّد (15):

السّياق في (الرّعد) للمقابلة بين جزاء المكذّبين والمتّقين، وفي (محمّد) بيانُ أنواع الأنهار

تشابهت هذه الآية مع قوله تعالى في سورة سيِّدنا مُحمَّد ﷺ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [مُحمّد: 15]، فلِمَ خُصّت كلّ آية بما فيها بعد قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾؟

يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد يسبقها قوله: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرّعد: 34]؛ فالسّياق قائم على المقابلة بين جزاء المكذّبين، وجزاء المتّقين، وكان جزاء المكذّبين ممّا يشقّ عليهم، ناسبه أن يكون جزاء المتّقين ممّا يطيب لهم بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾. أمّا الآية في سورة مُحمّد ﷺ، فيسبقها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [مُحمّد: 12]؛ فيُلاحظ أنّ ذِكر الأنهار سبق ذِكر تمثيل الجنّة، فأُريد بيانُ أنواعها، فناسبه قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [مُحمّد: 15].

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الظّلّ والفَيء:

الظّلّ أعمّ من الفَيْء، حيث أنّ الفَيْء مشروط بالشّمس دون الظّلّ

الظّلّ أعمّ من الفَيْء؛ لأنّ "الظِّلّ يكون لَيْلًا ونَهارًا، ولا يكون الفَيْء إلا بِالنَّهارِ؛ وهوَ ما فاء من جانب؛ أيْ: رجع، والفَيْء: الرُّجوع، ويُقال: الفَيْء: التَّبع؛ لِأنَّهُ يتبع الشَّمس"[1]، فآثر النّظم الكريم التّعبير بالظّلّ دون الفَيْء في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ لأنّ ذلك أنسب للجنّة دار النّعيم والخلود.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 307 - 308.

العُقبى والعاقبة:

العُقبى الجزاء في نهاية الأمر، والعاقبة النّهاية

(العاقبة) من كلّ شيء: آخره، وأمّا العقبى فهي: جزاء الأمر[1]، فقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ المُراد منه: بيانُ جزاءِ الأمر؛ ولهذا آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ (العقبى) في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ للدّلالة على الجزاء لا على آخر أمرهم، ولو قال: (تلك عاقبة الّذين اتّقوا) لدلّ على النّهاية، ولكن لا يدلّ على كون ذلك جزاءً لهم، أمّا (العقبى) فهي نصٌّ بكون ما نالوه إنمّا هو جزاءٌ استحقّوه استحقاقًا.

(1) الجوهري، الصِّحاح: (عقب).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان انقسام المشركين في شأن القرآن؛ شرع في بيان انقسام أهل الكتاب فيه

لمّا بيّن النّظم الكريم في الآيات السّابقة أنّ الّذين أُرسل إليهم القرآنُ انقسموا في التّصديق به إلى فريقَيْن: فريق آمن بالله وهم المؤمنون، وفريق كفر وهم المشركون؛ ذكر هنا موقف أهل الكتاب، وبيَّن انقسامَهم في تلقّي القرآن إلى فريقَيْن؛ فريق صدّقوا بالقرآن وفرحوا به، وفريق آخر كفروا به وأعرضوا عنه[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡرَحُونَ﴾: أصلُ الفَرَحِ: انشراح الصَّدر بلذَّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذّات البدنيّة الدّنيويّة[2]، ويَدُلُّ على خِلافِ الحُزْنِ، والفَرَحُ: السُّرورُ، يُقال: فَرِحَ، يَفْرَحُ، فَرَحًا: إذا سُرَّ، فهو فَرِحٌ وفَرْحانٌ، والفَرْحَةُ والفُرْحَةُ: المَسَرَّةُ، وضِدُّه: الحُزْنُ[3]. والمُفْرِحُ: الشَّيْءُ الّذي يُفْرِحُني[4]، ويأْتي بِمعنى الابْتِهاجِ والاسْتِبْشارِ، كقولكَ: فَرِحَ بِالعيدِ: إذا ابْتَهَجَ بِقُدومِهِ، ومِن مَعانيه أيضًا: الحُبورُ، والجَذَلُ، والغِبْطَة، والارتياح، والاغتباط[5]، والمُراد بالفَرَحِ في الآية: شِدَّةُ السُّرورِ والابتهاج.

2) ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: أصلُ (حزب): أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.
(2) الرّاغب، المُفردات: (فرح).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فرح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرح).
(5) ابن مالك، الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، ص: 118.

فَمِنْ ذلكَ: الحِزْبُ الجماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، يُقالُ: قَرَأ حِزْبَهُ مِنَ القُرآنِ[1]، والأَحْزابُ: كلُّ طائفةٍ هَواهُم واحدٌ، والحِزْبُ: النَّوْبَةُ في وُرودِ الماءِ، والحِزْبُ: النَّصيبُ، يُقالُ: أَعْطِني حِزْبي من المالِ؛ أيْ: حَظّي ونَصيبي[2]. والمقصود بالأحزاب في الآية: جَمْعُ حِزْبٍ، وهو اسْمٌ للجَماعَةِ الّذينَ هُم سَواءٌ في شَأْنٍ: مِنِ اعْتِقادٍ أو عَمَلٍ أو عادَةٍ، والمُرادُ بِهِم هنا الأَحْزاب الّذين أوتوا الكتابَ[3].

3) ﴿يُنكِرُ﴾: النّون والكاف والرّاءُ أَصْلٌ تدلُّ تصريفاتُها على خِلافِ المَعْرِفَةِ الّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَعترِفْ به لِسانُهُ، والبابُ كُلُّهُ راجِعٌ إلى هذا، فالنُّكْرُ: الدَّهْيُ، والنَّكْراءُ: الأمرُ الصَّعْبُ الشَّديدُ، ونَكُرَ الأمرُ نَكارَةً[4]. والإِنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أَنْكَرْتُ حَقَّهُ؛ أيْ: جَحَدْتُه ونَفَيْتُه، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وجَحَدوهُ فَهوَ مُنْكَرٌ، والتَّنَكُّرُ: التَّنَقُّلُ مِنْ حالٍ تَسُرُّ إلى أُخْرَى تُكْرَهُ. والنَّكيرُ: اسم للإنكار الّذي يُعنى به التَّغيّر[5]، ولا يسْتَعْمل نَكِرَ في غابرٍ ولا أَمْرٍ ولا نهيٍ ولا مصدر[6]. والمقصود بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ.

4) ﴿بَعۡضَهُۥ﴾: الباءُ والعينُ والضّادُ تدور اشتقاقاتُها على تَجْزِئَةِ الشَّيْءِ، وبَعْضُ كُلِّ شَيْءٍ: طائِفَةٌ مِنْه، سَواءٌ قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ، يُقالُ: بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ[7]، وضِدُّ التَّبْعيضِ: التَّجْميعُ والتَّوْحيدُ، والجَمْعُ: أَبْعاضٌ[8]، يُقالُ: بَعَّضْتُ الشَّيْءَ أُبَعِّضُهُ تَبْعيضًا؛ أيْ: قَطَّعْتُهُ قِطَعًا، ويَأتي التَّبْعيضُ بِمَعْنَى: التَّفْريق، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَخَذوا مالَهُ فَبَعَّضوهُ؛ أيْ: فَرَّقوهُ[9]، والمقصود بلفظ (بعض) في الآية: القِطْعَةُ والجُزْءُ من الشَّيْءِ.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(5) الخليل، العين: (نكر).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بعض).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).

المَعنى الإجماليّ:

مكانة القرآن عند أهل الكتاب، ممّن عرف الحقّ واعترف به

بيّن الحقّ تبارك وتعالى في هذه الآية مكانة القرآن بين أهل الكتاب، فبيَّن أنَّ الّذين أعطاهم التَّوراة والإنجيل من اليهود والنَّصارى، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيّها الرَّسول الكريم، ثُمَّ آمنوا بك عند إرسالك رحمةً للعالمين؛ هؤلاء - الّذين تلك صفاتهم - يفرحون بما أُنزل إليكَ من قُرآن؛ لِما في كتبهم من الشَّواهد على صِدقه والبِشارة به، ولأنَّ ما فيه مِن هدايات وبراهين على صِدْقِكَ؛ يزيدهم إيمانًا على إيمانهم، ويقينًا على يقينهم، قل - يا أيُّها النَّبيُّ -: إنَّما أمَرَني اللّه بعبادتِه وحدَه، وألّا أُشرِك به شيئًا، أدعو النّاسَ إلى طاعة اللّه سُبحانَهَ مُخلِصينَ له العبادةَ، وإلى اللّه مَرجِعي في جميعِ أموري، وإليه مَصيري[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

انتقالٌ من ذِكر المشركين، إلى بيان فضل المؤمنين من أهل الكتاب

افتتح النّظم الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ بالواو الاستئنافيّة، فالجملة بعده مستأنفةٌ؛ حيث انتقل من ذِكر أحوال المشركين من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ﴾ [الرعد: 30] إلى بيان فضل بعض أهل الكتاب في حسن تلقّيهم للقرآن الكريم[2].

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تعدّد المُراد بالموصول، واحتماله الخصوص والعموم، بحسب التّأويل

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الّذين آمنوا من أهل الكتاب بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ لأنّه أراد أُناسًا بأعيُنهم، فهم معهودون معروفون وهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/555، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/467، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/491.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

"المسلمون من أهلِ الكتابِ، كعبدِ اللّه ابنِ سَلام وكعبٍ وأضرابِهما ومَنْ آمن من النّصارى، وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجرانَ، وثمانيةٌ باليمن، واثنانَ وثلاثون بالحبشة"[1]، ويجوز أن يكون المُراد: الّذين آمنوا بك، ويُحمل هذا على العموم، والمُراد بهم: الصَّحابة رضوان اللّه عليهم الّذين آمنوا بالرَّسول ﷺ[2].

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

الإيتاء أدلّ على الامـتـنـان من الإعطاء

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإيتاء دون الإعطاء، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لِما في الإيتاء من سهولة التّناول والمجيء؛ فهو أدلّ على الامتنانِ، والعطاء من العَطْو: وهو التّناول، والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، واختصّ العطيّة والعطاء بالصّلة[3]، ويعبَّرُ بـ (الإيتاء) عن الإعطاءِ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النّساء: 163][4]، فعبّر بالإيتاء؛ لأنّه لا يدلّ على كونه عطيّةً أو صلة، بل هو محضُ تفضُّلٍ؛ لأنّه إيتاء بسهولة تفضّلًا من اللّه تعالى.

دلالة نون العظمة في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

عظيم أثر ما أوتيَـةُ أهل الكتاب، في استنقاذهم من الضَّلالِ

أسند الفعل (آتى) إلى نون العظَمة في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾؛ للدِّلالة على علوِّ هذا الإيتاء وعظيم أثره في استنقاذ أهل الكتاب من الضَّلال.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

تخصيص العلماء من أهل الكتاب بالذِّكر الجليل، تعظيم لمقامهم الأثيل

عبَّر القرآن الكريم عن أهل الكتاب في هذه الآية بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ للإشارة إلى أنّ الكتاب الّذي عندهم إنّما هو نعمة من اللّه تعالى حصلت لهم بسبب إيتاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/164.
(3) الرّاغب، المفردات: (عطا).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أتي).

اللّه تعالى لهم تفضُّلًا منه، وفيه دلالة على أنّ المُراد بهم العلماء، أمّا أهل الكتاب فيصدق على الجميع حيث يشمل العلماء وغيرهم، وفيه إشارة إلى مدحهم لفرحهم بما أنزل اللّه على رسوله من القرآن.

انتفاع المُنزل عليهم الكتابُ، من بني إسرائيل، من أولي الألباب

سِرُّ التخصيص في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

خَصَّص القرآنُ الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من بني إسرائيل دون غيرهم؛ لأنهَّم هم المنتفعون بالكتاب، فكأنّه ما أُنزل إلّا إليهم.

استعمال (آتَيْناهُمْ) يُنْبِئ عنِ الإكرام، و(أوتوا) قد تكون لذمّ اللّئام

دلالة التَّعبير بجملة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون (أوتوا الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ في هذا السّياق أبلغ من (أوتوا)؛ فهو يُنْبِئ عنِ الإكرام، وذلك من دلالة نون العظمة، كما هو مُستعمل في مواطنَ مِن القرآن، تدُلُّ كلُّها على الإكرام، نحو: ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾ [الأنعام: 84]، و﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ [مريم: 58] و﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ [فاطر: 32]. ولأنَّ (أوتوا) قد يستعمل في مواطنَ يُذَمُّ فيها أهل الكتاب، كقول اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51] الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ [النّساء: 47] الآية.

فالمُلاحَظ أنَّها جاءت في موطن الذَّمِّ لهم، بخلاف الفعل (آتيناهم)، فهو في موطن العطاء والإكرام، كما قال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89] في سياق حديثه عن الأنبياء عليهم السلام.

العلم طريق للإيمان، ووسيلة للفهم والاطمئنان

سرُّ التَّعبير بالكتاب ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبّر النّظم الجليل بـ (الكتاب) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾، وذلك للتّصريح بأنّ

معرفتهم الإيمانَ الحقّ وفرحهم بالمؤمنين إنّما هو بسبب ما لديهم من كتاب، وإشارة إلى أنّ ما صدر عنهم من فرح بسبب ما لديهم من علم تعلّموه من الكتاب. وفيه ترغيب لهم للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ مصدر التَّوراة والإنجيل والقرآن واحد؛ لذلك عبَّر عن كلِّ واحد منهم بالكتاب.

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿يَفۡرَحُونَ﴾:

دلالـته على الإيمـان مع السُّرور، والفرح بالمُنزل، دليل الإيمان الأكمل

عبّر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ بالفرح دون الإيمان، تعبيرًا عن استقبالهم الكتاب بفرح وسرور؛ لأنّه يوافق الموعود الّذي كانوا ينتظرونه[1]، مع تضمّنه الدّلالة على الإيمان، فلم يفرَحوا إلّا لأنَّهم آمنوا، فعبّر بالفرح دلالةً على الإيمان مع السّرور، وكان سرورهم وفرحهم لكونهم وافقوا الزّمان الّذي حلّ فيه المُنتَظَر، فهم قد وجدوه مُطابقًا مُصدّقًا للبشارة في التّوراة والإنجيل بالنّبيّ ﷺ.

وفيه إشارةٌ إلى إبراز الحالِ الّتي تظهر على وجوههم حبًّا وإيمانا بالمُنَزَّل، يؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83] في حقِّ النَّصارى، ومع اليهود أيضًا ورد قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89]، وهذا يعني أنَّهم كانوا يتشوَّفون لبعثة الرَّسول ﷺ[2].

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَفۡرَحُونَ﴾:

تـجـدّد الفـرح بنزول القرآن، لأنّـه وسيلة تجديد الوصل بالرّحمن

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿يَفۡرَحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ تعبيرًا عن تجدّد فرحهم بنزول القرآن، واستمرار اغْتِباطهم بتصديق القرآن لِما بين أيديهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِمَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ﴾:

الثَّناء عليهم بعموم إيمانهم بالمُنزَل، على النّبيّ المرسل

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ (بما) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ للدّلالة على أنّ فرحهم كان عامًّا بكلّ ما نزل، بناءً على أنَّ المُراد بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أهل القرآن؛ فهم يفرحون بكل ما أُنزل على الرَّسول ﷺ فيما يتعلَّق بالتَّوحيد والنُّبوَّة والبعث والأحكام والقصص. وأمّا على القول بأنَّ المُراد بالموصول: الّذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد اللّه بن سلام، ونحوه، ومَن أسلم من النَّصارى وهم ثمانون رجلًا؛ فيكون المُراد بـ ﴿بِمَآ﴾ العموم أيضًا. ولو قال: (بالّذي أُنزل إليك)؛ لاحتملت دلالة العهد، ويكون المُراد إيمانَهم بالذي كان قد نزل؛ أيّ: بجزء معهود معروف من القرآن، لكنّ التَّعبير بـ (ما) الدّالة على العموم يفصح عن كون إيمانهم شاملًا لكلّ ما جاء في القرآن الكريم.

أمّا إذا حُمل اسم الموصول على مُطلق أهل الكتاب؛ فلا تدلُّ على العموم؛ لأنَّه معلومٌ أنّهم لا يفرحون بكلِّ ما أُنزل إلى الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه يحمل في بعض الأحيان ما لا يوافق هواهم، بل ويُبَكِّتُهم على ما وقعوا فيه من أخطاء شِركيَّة وعباديَّة[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾:

الإيمان بمُطلق الإنزال للقرآن، من متين الإيقان

عبّر النّظم الكريم بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ دون (نزّل) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ لأنّ المُراد بيان إيمانهم بالقرآن من حيث هو قرآن أُنْزِلَ على رسول ﷺ، من غير الحاجة إلى معنى التّكثير الّذي هو مدلول (نزّل) الّذي يُفسَّر بالتّدرّج وطول زمان التّنزّل، فكان التّعبير بـ (أُنزِل) أبلغ في هذا الموضع.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ التّعبير بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ يدلُّ على مطلق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/58.

الإنزال فقط، ولذلك يَرِدُ استعماله غالبًا في نزول الكتب السَّماويّة على العموم، يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: 47]، أمّا التَّعبير بـ (نَزَّل) فإنَّه يأتي في سياق الرَّدِّ على الكافرين الّذين يُنكرون نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23].

دلالة بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾:

العلم بالفاعل يُتيح الإيجاز في التّعبير عنه، بما يُفهم من السّياق

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الإنزال بالفعل المَبنيِّ للمفعول في قوله تبارك اسمه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ اهتمامًا بالمُنَزَّل وتعظيمه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ حذف الفاعل المعلوم بالضّرورة آلة من آلات الإيجاز، وتأدية المعنى بأقلّ العبارات، "ولمّا كان المُنزَل دالًّا بإعجازه على المُنْزِل؛ بُني للمفعول"[1].

دلالة تَعَدّي الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى):

دقّة النّظم القرآنيّ في التّصرُّف في حروف المعاني، من رفيع البيان

تَعَدّى الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ دون (على) مع أنَّ النّاظر في القرآن الكريم يجد تنوُّع الاستعمال القرآنيّ بينهما في مواضع متعدّدة، واختير الحرف الّذي تعدّى به الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لمعنًى دقيقٍ يناسب السّياق، ومن ذلك ما ورد في هذه الآية؛ حيث تعدّى بـ (إلى)؛ لأنّها تدلُّ على انتهاء الغاية، والمُراد: انْتهاء التَّبليغ إلى أمَّة الدَّعوة، أمّا التَّعدّي بـ (على)؛ فإنَّه يُشير إلى النُّزول من جهة العُلوِّ، وهذا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

عطف المُنكرين على المؤمنين من أهل الكتاب، وتخصيص كلٍّ بأوصافه

صُدِّرت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، بالواو العاطفة، عطفًا على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/355.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[1]، فَهُمُ القسمُ الثّاني من أهل الكتاب الّذين ورد السّياق لبيان انقسامهم في شأن القرآن؛ أيّ: "ومن جماعتهم الّذين تحزّبوا وتألّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، - ككَعْبِ بنِ الأشرف، والسّيد والعاقب أُسْقفَي نجران وأشياعهم - مَن أنكر بعضَ القرآن؛ وهو ما لم يوافق ما حرَّفوه من كتابهم وشرائعهم"[2].

دلالة تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه:

إنكار بعض القرآن، ليس مقصورًا على أهل الكتاب، بل يعمّ كلّ مُعتقد بذلك

قدّم النّظم الجليل الجارَّ والمجرور على المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾ ليستقيم المعنى؛ إذْ لو جاء على الأصل فقال: (ومَن يُنكر بعضَه مِن الأحزاب)؛ لدلّ على أنّ كلّ مَن أنكر بعضَ القرآن هو من الأحزاب فَحَسْبُ؛ لأنّ اسم الموصول (مَن) يدلّ على العموم، فقدّم حرف الجرّ الدّلّ على التّبعيض ليعلم أنّ العموم في الاسم الموصول باقٍ على عمومه.

دلالة اللّامِ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

خلافات أهل الكتاب مزّقتهم فِرَقًا، وتحزّبهم أذهبهم أشتاتًا

عرّف النّظم الكريم لفظ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، باللّامِ الدّالّة على العهد؛ لأنّه أراد جماعة معلومة مخصوصة منهم[3]، والأحزاب هنا تعني "أحزابَ الّذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ [مريم: 37]؛ أيّ: ومن أحزابهم مَن يُنكر بعض القرآن، فاللّام عِوضٌ عن المضاف إليه"[4].

سرُّ التّعبير بالجمع ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

أهل الباطل فرقٌ وجماعات، اختلفوا فمُزّقوا كلّ مُمزّق

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، عبّر عن الأحزاب بالجمع؛ لأنّهم في الواقع أكثر من جماعة، فاليهود منهم

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/141 - 142.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/112.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

"يريدون أن يُنزل ما يوافق فروع التّوراة كما أُنزل ما وافق الأصولَ، ويُنكرون النّسخ، وأهل الإنجيل يريدون أن يُنزل في المسيح ما يَهْوَوْن، ونحو ذلك"[1]، فلمّا كان إنكارهم مُتعدّدًا صاروا أحزابًا كثيرة، فعبّر عنهم بالجمع لذلك، وفيه ذمٌّ لهم؛ إذْ إنّ اللّه تعالى أنزل ما يجعلهم أمّةً واحدةً، ولكنّهم تفرّقوا أحزابًا لمّا جاءهم العلم الّذي كان ينبغي أن يوحّدهم.

سرُّ التَّعبير في لفظ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

التّعصّب للباطل أمرٌ مذموم، يُفضي إلى المساءة واللّوم

عبّر النّظم الكريم عن أهل الكتاب بـ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ إيماءً إلى أنّهم كانوا مُتحزّبين مُتصلّبين لقومهم، ولِما كانوا عليه مِنْ عاداتٍ وعباداتٍ[2]، وهذا ذمٌّ لهم؛ إذْ لا يتحزّب المؤمنُ إلّا لِلحقّ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يُنكِرُ﴾:

عموم أهل الكتاب أنكروا القرآن، وتطاولوا عليه بالإفك

عبّر النّظم الجليل عن مُنكري القرآن من الأحزاب، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، بالاسم الموصول (مَن) الدّالّ على العموم؛ لأنّ أكثر أهل الكتاب فعلوا ذلك، فعبّر عنهم بلفظٍ دالٍّ على العموم، أمّا الّذين آمنوا فعبّر عنهم بـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ﴾؛ لأنّهم قوم معروفون معدودون.

سرُّ العدول في الآية:

إنكار بعض القرآن يدلُّ على انتفاء الإيمان، وإنكار البعض كإنكار الكلّ

عدل النّظم الكريم عن التّعبير عن كفرهم إلى ذِكر الإنكار في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾، فلم يَقُلْ: (ومن الأحزاب مَن لا يؤمن ببعضه)؛ تصريحًا بعلّة انتفاء إيمانهم، وهو كونهم ينكرون بعضَه، وهذا أكثر إيجازًا ممّا لو جاءَ النَّظْمُ القرآني: (لا يؤمنون ببعضه)؛ إذ لا يدلّ على سببِ كفرهم، وعليه فالتّعبير

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

بالإنكار عن انتفاء إيمانهم تعبير بليغ؛ لِما فيه من الإيجاز. ولأنَّ هذا التَّعبيرَ هو الأوفقُ بالمقام؛ لأنَّ إنكارَ بعضِهم هو مِن باب العناد والكِبْرِ؛ لِمُخالفَتِه ما هُم عليهِ مِنَ الأهواء.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿بَعۡضَهُۥۚ﴾:

إنصاف القرآن في عرض واقع المُنكِرين، وبيان افترائهم على الدّين

جاء التَّعبير القرآنيُّ مُشيرًا إلى أنَّهم يُنكرون بعضَه لا كُلَّه في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ لأنَّه ورد في القرآنِ إثباتُ وجودِ اللّه تعالى وعلمِه وقدرته وقصص أنبيائه، والأحزاب ما كانوا يُنكرون ذلك؛ لموافقة القرآن لكثير من أصولهم، وهذا من عدالة القرآن وإنصافه؛ إذْ لم يُحَمّلْهم جُرمًا أكثر من جُرمهم، فَهُم لم يُنكروا ما جاء في القرآن موافقًا لمعتقدهم، فكان إنكارهم موجّهًا لِما خالفهم بالاعتقاد، فهو إنكار لبعضه، فمن الإنصاف والعدالة ومن مطابقة الواقع أن يُعبّر عن إنكارهم بأنّه واقع على بعض القرآن، وهذا من دأب القرآن في الإنصاف.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُنكِرُ﴾:

تجدُّد إنكار المعاندين لِما يخالف أهواءَهم، ممّا شاع في كلّ الرّسالات

دلَّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُنكِرُ﴾ على تجدُّد حالات الإنكار، عند هؤلاء الأحزاب، فكلّما نزل أمرٌ في القرآن يوبِّخُهم على كفرهم وعنادهم وشركهم؛ أنكروه واتَّهموا رسول اللّه ﷺ فيما أُنزل عليه.

دلالة فَصْل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾:

تصدير الجملة بفعل القول للرّدّ عليهم، كافٍ في ترابط الجمل في السّياق

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، جاءت بلا عاطف؛ لكونها مفتتحة بفعل القول، فهي مذكورة بعد ذِكر الأحزاب الّذين يُنكرون بعض القرآن أمرًا للنّبيّ ﷺ بأن يردّ إنكارهم[1]، فالتّرابط بين الجمل حاصل؛ لِما بين الكلاميْن من صِلَةٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾:

الآية جامعة لِما يصلح به أمر المبدأ والمعاد، في التّشريع والاعتقاد

من أساليب التَّعبير القرآنيّ (الإيجاز)، وهو جمع المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلة، وهذا ظاهرٌ في هذه الآية؛ حيث جمع كلّ ما يحتاج إليه المرء في معرفة المبدأ والمعاد وفي التَّكليفات والتَشريعات، فَكُلُّ لفظةٍ فيها تَحْمِل من الدّلالات الكثيرة؛ فقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ جامعٌ لكلِّ ما ورد التَّكليف به، وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ إشارةٌ إلى نبوَّته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ إشارةٌ إلى الحشر والبعث والقيامة[1].

بلاغة التَّعبير بالقصر في الآية:

حصرُ الأمر بالعبادة، دلالة على التّوحيد

عبّر النّظم الكريم بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملة، فقصر الأمر على عبادة اللّه تعالى وحده، "والمُراد: قصرُ الأمر بالعبادة على اللّه تعالى، لا قصرُ الأمرِ مُطلقًا على عبادته تعالى خاصَّةً؛ أيْ: قل إنّما أُمرتُ فيما أُنزل إليّ بعبادة اللّه وتوحيده"[2]؛ أيْ: إنّه قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنّه لم يُؤمرْ بذلك فَحَسْبُ، بل أُمر بأوامرَ كثيرةٍ، ولكنْ قُصِرَ الأمرُ هنا بالنّظر إلى ظنّ المشركين، وهو قصر موصوفٍ على صفةٍ؛ لأنّه قصر كونه مأمورًا بصفة العبادة، والتّعبير بأسلوب القصر عن ذلك يُفيد تقويةَ المعنى والتَّأكيدَ عليهِ.

دلالة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

الصّدع بالحقّ، ورفع العقيرة بالقول، من شأنه أن يُؤكّد صدق القائل

أمر اللّه تعالى رسوله بالرَّدِّ على المنكرين إنكارَهم، لبعض ما أنزل به القرآنُ، بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، وهو إعلانٌ منه ﷺ بعبادة اللّه وحده، ونفي الشِّرك، وفي هذا ردٌّ على المُنكِرين ما كانوا يعتقدونه من الشُّركاء مع اللّه تعالى، وفيه

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/58، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/166.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

إشارة إلى إعلان رسالته ﷺ، أمام هؤلاء المُنكِرين، صادِعًا بالحقّ غير مُكْتَرِثٍ بإنكارهم لبعضِ ما أُنزل من القرآنِ(1).

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أُمِرۡتُ﴾:

الأمر أدلُّ على الإلزام والإيجاب، لعبادة مَن له الأمر والمآب

آثَر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأمر، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، دون غيره، وذلك للدّلالة على أنّ المأمور به وهو العبادة جاء على الوجه اللّازم القاطع، الّذي لا يعتريه الشّك ولا التّغيُّر؛ لأنّه ممّن له الأمر كلّه، وهو اللّه تعالى(2).

سرُّ بناء الفعل ﴿أُمِرۡتُ﴾:

تعظيم العبادة لله سُبحانَهُ، تحقيق بالعبوديّة، لما يستوفي عطاءَهُ وإحسانَهُ

جاء التَّعبير عن الأمر بالعبادة بالفعل المبنيِّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه ﴿أُمِرۡتُ﴾، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ تنويهًا بفخامة الآمر سبحانه، وفيه إيجازٌ في التّعبير، وذلك اعتمادًا على ما لا يُجهل العلمُ به، وهو كون الآمر إنّما هو اللّه تَعالى، فلم يُصرّح به إيجازًا لظهور المعنى؛ ولكَونه سَيُذْكَرُ في الجملة بعدها: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾:

استمرار العبادة على الدّوام، تحقيق لأمر الله ذي العطاء والإنعام

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾، دون المصدر الصَّريح في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ للدّلالة على أنّ المأمور به هو دوام العبادة وتجدّدها واستمرارها؛ أيّ: إنّ الأمر بالعبادة كائنٌ على وجه الدّوام.

سرُّ الأمر بالعبادة ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾:

الطّاعة لله تعالى ولغيره، أمّا العبادة فهي مخصوصة بالله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العبادة دون الطّاعة في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّ الطّاعة تكون للّه تعالى ولغيره، ولأنّ الشّركَ وقع بالعبادة، فجاء السّياق للرّدّ على الشّرك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/165.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/356.

بأنْ جَعَلَ العبادةَ للّه تعالى على سبيل الفرض والأمر والحَتْم، فـ "المأمور به تخصيص العبادة بِه تعالى"[1]، وعلى هذا فالعِبادة أعمُّ من الطّاعة؛ لِما تحمله مِن معنى التَّعظيم، وللإشارة إلى أنَّ عبادة اللّه تَعالى لا تكون إلّا بِما شرعه، ولأنَّ العبادة للّه واجبة، بخلاف الطّاعة إذا كانت لغير اللّه؛ فقد تكون واجبةً وقد لا تكون كذلكَ.

دلالة التَّعبير بالاسْمِ الأعظم (الله):

العــبــادة اســتــحــقــاق لــجــلال الــلــه تَعالى، يختصّ بها دون سواه

آثَر النَّظم الكريم التّعبير بالاسْمِ الأحسنِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ دون لفظ (الرّب) في سياق العبادة؛ تفخيمًا لشَأن العبادة؛ أيّ: أُمرت أن أعبد اللّه الّذي لا شيءَ مثلُه وحده دون ما سواهُ[2]، وتعليقُ العبادة بالاسم الأحسنِ (اللّه) دون (الرّبّ) إشعارٌ بأنّ اللّه ﷻ مُستحِقّ للعبادة لا من حيث كونه رازقًا أو خالقًا أو مُنعمًا على عباده، بل إنّ العبادة واجبةٌ له لِذاتِه الجليلة.

دلالة الإِتيان بنفي الشِّرك:

الــتّــدرّج في الجدال، منهج منطقيّ معلوم، يُـؤتي أُكُـلـه في إلجام الخصوم

أعقب النّظم الكريم الأمر بالعبادة بالأمر بالامتناع عن الشّرك في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾، وذلك على طريقة الجدل القرآنيّ الّتي راعت التّدرّج، فلمّا ذكر شأن العبادة بأنّها للّه تعالى، ولا ينازع أحدٌ من أهل الكتاب في ذلك ولا المشركين، فتدرّج بأنْ ذَكَرَ بعد ذلك ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾ إبطالًا لشرك المشركين وتعريضًا بالنّصارى[3].

دلالة الجمع بين الأمر بالعبادة:

عــبــادة الــلــه سُبحانَهُ، ونبذ عبادة غيره هو عين التّوحيد

جمع النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾ بين الأمر بالعبادة والامتناع عن الشّرك؛ للدّلالة على توحيد

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/157.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/356.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.

اللّه سُبحانَهُ، فإنَّ المأمور به هو مجموع العبادة وعدم الإشراك، ومآل المعنى أنّي ما أُمِرّت إلّا بتوحيد اللّه تَعالى(1).

سرُّ نفي الشِّرك دون الكُفْرِ:

الـردُّ على النّصارى، لجمعهم بين الإيمان والشّرك، في المعتقد والممارسة

آثر النّظم الكريم التّعبير بنفي الشّرك دون نفي الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّه لّما ثبت إيمانُه ﷺ بكونه مرسلًا من اللّه تعالى، فاقتضى ذلك أن يكون مؤمنًا إيمانًا يقينيًّا بحيث لا يمكن أن يتطرّق إليه وصف الكفر، ولمّا قد حدث عند النّصارى من أنّهم قد جمعوا بين الإيمان والشّرك؛ بادَرَ بنفي الشّرك عن الإسلام؛ ليصرّح بأنَّ دينَه بُني على التّوحيد.

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾:

نفيُ الشِّرك على سبيل التّجدّد والدّوام، من مأمورات الله للأنام

عبّر النّظم الكريم عن نفي الشّرك بنفي الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فانْتِفاء الشّرك ينبغي أن يكون ثابتًا راسخًا متجدّدًا، لا يزول بزمنٍ ما.

سرُّ عدم ذكر فعل الأمر في ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾:

السّياق في توحيد الله بالعبادة، تأكيد لنفي الإشراك

لم يكرّر النّظم البليغ الفعل ﴿أُمِرۡتُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، فلم يَقُلْ: (وأُمرتُ ألّا أشرك به)؛ إذ لو كُرِّر الفعلُ؛ لدلَّ على أنّ الأمرَ بالامتناع عن الشّرك أمرٌ مستقلٌّ، والسّياق لا يريد ذلك؛ إذ إنّ السّياقَ في الأمر بعبادة اللّه تعالى وحده، ولذا أتبعه بمزيد بيان؛ بأنّ العبادة كائنة للّه تعالى وحده، فالامتناع عن الشّرك في السّياق تابع للأمر بالعبادة، لا أمر على وجه الاستقلال.

سرُّ فصل قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾:

الدّلالة على رسالة التّمام، ودعوة الختام

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، استئناف بيانيّ للجملة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ "أيّ: أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.

أعبده وأن أدعو النّاس إلى ذلك؛ لأنّه لمّا أُمر بذلك من قِبل اللّه، استُفيد أنّه مرسل من اللّه، فهو مأمور بالدّعوة إليه"[1].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾:

التّخصيص في السّياق، مُفصح عن المعنى المُراد

قدّم النّظم الكريم شبه الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ للدِّلالة على التّخصيص، فالدّعوة منحصرة في الدَّعوة إلى اللّه تعالى لا إلى سواه، والمرجع يوم القيامة ليس لأحد إلّا للّه تعالى؛ أيّ: "إلى اللّه تعالى خاصَّة على النَّهج المذكور من التَّوحيد، أو إلى ما أُمرت به منَ التَّوحيد أدْعو النّاسَ لا إلى غيره، ولا إلى شيءٍ آخرَ مما لا يطبق عليه الكتبُ الإلهيَّة والأنبياء ﷺ، فما وجه إنكاركم؟"[2].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أَدۡعُواْ﴾:

العبادة والتّوحيد منهج دعوة وسبيل إلى الله تعالى

ذَكَر النّظم الكريم الدّعوة إلى اللّه تعالى بعد الأمر بعبادته، فقال جلّ ذِكرُه: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾، والمُراد من ذلك: بيان أنّه كما "وجب عليه الإتيان بهذه العبادات؛ فكذلك يجب عليه الدّعوة إلى عبودية اللّه تعالى"[3]، كما يُشير ذلك إلى أنّه ﷺ يدعو إلى عبادة اللّه وتوحيده، وهذه مُهمَّة رسالتِهِ ﷺ الّتي تقدَّم ذِكْرُها في صدر الآية، وهي مُهمَّةُ الرُّسل ﷺ من قبله، فَقَدْ أُمِروا بهذه الدَّعوة، وفيه إشارة إلى حثِّ العلماء والدُّعاة على التَّخلُّق بهذا الخُلُقِ؛ لأنَّهُم ورثةُ الأنبياءِ.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَدۡعُواْ﴾:

الدّعوة إلى الله تعالى هي وظيفة الرّسول الأكرم الأساسيّة

آثر النّظم البليغ التّعبير بالفعل المضارع ﴿أَدۡعُواْ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ للدّلالة على تجدّد الدّعوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/157.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/48.

واستمرارها، وفي ذلك إعلان بأنّ النّبيّ ﷺ لا يشغله شاغل عن هذه الدّعوة الّتي ينهجها كلّ زمان ومكان فلا ينفكّ عنها، وفي ذلك تَيْئيسٌ للمشركين بثباته على ذلك، وفيه تحذيرٌ لأهل الدَّعوة إذا هُم أهملوا الاستمرارَ في دعوة النّاس إلى توحيد اللّه وعبادته؛ لأنَّهم بذلك يتخلَّفون عن رَكْبِ الخيريَّة في الأمَّة.

دلالة الواو في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾:

إعلان الرّجوع إلى الله تعالى، من تمام الدّعوة إليه

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ معطوفة بالواو على قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾؛ لكونهما مشتركتَيْن بالمقول، فهما في حيّز فعل القول[1]، فكما صرّح بكونه مأمورًا بإعلان دعوته إلى اللّه تعالى؛ فكذلك يُعْلِنُ بأنّ مرجعَهُ إلى اللّه تعالى.

سرُّ التَّعبير بلفظ (المآب) في الآية:

المآب إعلانٌ مؤكّد بالرّجوع إلى الله تعالى

آثر النّظم الجليل التّعبير بالمآب، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ دون المرجع؛ لأنّ المآب مصدرٌ ميميٌّ على وزن (مَفْعَل)، وهو دالٌّ على الرّجوع على وجه المبالغة؛ لأنّ الأصلَ في المصادر الميميّة أنّها أسماءُ زمان جُعلت كنايةً عن المصدر، ثمّ شاع استعمالُها حتّى صارت بمنزلةِ المصدر الصّريح[2].

وممّا يُذكر في سرِّ التّعبير به: أنَّ المآب لا يُراد منه الرُّجوع فحسبُ، وإنَّما يُراد المُنقلَب الّذي يَنْتَهي إليه ابنُ آدم؛ إمّا إلى جنّة وإمّا إلى نارٍ، فمثال منقلَب أهل الجنَّة قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، ومثال منقلب أهل النّار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾ [ص: 55][3].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) محمد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآني، ص: 232.

بلاغة الختام في ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾:

عبّر النّظم الكريم في ختام الآية بقوله تبارك اسمه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ الدّالّ على أنّ المرجع إليه وحده يوم القيامة للجزاء[1]، فجاء قولهُ في الختام للدّلالة على أنّ ما وراء العملِ والعبادة والدّعوة إليه، وما وراء الشّرك به: راجعٌ إليه ﷻ؛ وهو سيحاسب العباد للجزاء، وفي ذلك تحذيرٌ للمشركين والنّصارى بتَذْكيرهم بيوم القيامة الّذي سَيُحاسبون فيه على ما اقترفوه من الشّرك.

التّذكير بيوم الحساب، أبلغ في التّنبيه والتّحذير للمُتمادينَ في الشّرك

سرُّ الاختلاف في فاصلة الآية:

اختلفت فاصلة هذه الآية عمّا قبلها؛ حيث خُتمت بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، والسّابقة خُتمت بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾، وذلك لاختلاف المُتَحدَّث عنهم في الآيتَيْن، فالأولى كانت في شأن الكفّار الّذين قال الله فيهم: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: 30]، وكفر هؤلاء لا يُغفر إلّا بالتّوبة إلى الله تعالى، ولذلك كان مناسبًا أن يُرْشِدَهُم القرآنُ إلى وسيلة الخروج منَ الكُفْر، وذلك يكون بالتَّوبة إلى الله تَعالى، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾، أمّا الثّانية فهيَ في شأن أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والمقام هنا يُناسبه المآبُ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ رجوعهم إلى الله أمرٌ حتميٌّ للمجازاة على ما قُدِّم.

يختلف اللّفظ باختلاف الجهة المتكلّم عنها، ومقتضى الحال، في تعبير المقال

سِرُّ حذف ياء المتكلّم في ﴿مَـَٔابِ﴾:

أَوْجَزَ بليغُ النّظم بحذف الياء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ إذْ أصلُ ﴿مَـَٔابِ﴾: مآبي بالإضافة إلى ياء المتكلّم، وقد حُذِفَت الياء تخفيفًا، وأُبقيتِ الكسرةُ دليلًا على المحذوف[2]، كما أنّ ذلك الحذفَ يحقّق التّماثل الصّوتيَّ في الفاصلة الّتي تَبْلُغُ في التّأثير المدى الأقصى بانْسِجامِها الصّوتيّ مع خواتيم الكلام السّابق واللّاحق.

الحذف أخفّ لفظًا، وأوجز عبارة، وأنسب فاصلةً

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/66.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.

دقّة البيان القرآنيّ، في استعمال كُلِّ لفظة، في سياقها الملائم لها

المُتشابه اللّفظيّ في الآية:

تشابه قوله جلّ شأنه في هذه الآية: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ مع قوله تعالى من سورة النّمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾ [النّمل: 91]، فيُلاحَظ أنّ الآية في سورة الرّعد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، فلمّا كان السّياق مُتعلّقًا بالرّسول ﷺ، ناسبه ذِكر ﴿قُلۡ﴾، ولمّا كان من أبرز ما يُنكره هؤلاء توحيدُ اللّه تعالى؛ ناسبه قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾. أمّا الآية في سورة النّمل فيسبقها قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النّمل: 89 - 90]؛ فلمّا كان الإخبار من اللّه مباشرة، ناسبه عدم ذكر (قل)، ولمّا كانت هذه تربية من اللّه لعباده، وتقدّم قوله: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النّمل: 82]، وكانت هذه الدّابّة تخرج من مكّة بلد اللّه الحرام؛ ناسبه قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ [النمل: 91].

أمّا التّشابه مع سورة الزّمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزّمر: 11]، فَلِمَ خُصّت الآية في سورة الرّعد بـ (إنّما)، وبقوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، وآية الزّمر بـ ﴿إِنِّيٓ﴾ [الزّمر: 11] وبقوله: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزّمر: 11]؟ والجواب عن هذا أن نقول: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد بدأت بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ فلمّا كان الأحزاب منكِرين لبعض الكتاب، وعلى الأخصّ توحيدَ اللّه تعالى، وأريد تأكيد الخبر بما يفيد التّعريض بما هم فيه من الشّركِ باللّه؛ ناسبه ذِكر

﴿إِنَّمَآ﴾ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، ولمّا كان مَن يعبد اللّه تعالى قد يُشرك معه غيره؛ ناسَبَه قوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾. أمّا الآية في سورة الزّمر فيسبقها قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزّمر: 2]، فلمّا أراد اللّه تعالى أن يُعلّم رسوله ﷺ الامتثال لأمره، وأن يكونَ قدوةً صالحة للّذين آمنوا؛ ناسَبَه قوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزّمر: 11].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الدّعاء والنّداء:

النّداء مُختصّ برفع الصّوت، والدّعاء برفع الصّوت وخفضه وبالسّر

الفرق بينَهما: أنَّ "النِّداء هوَ رفع الصَّوْت بِما لَهُ معنًى، والعربيّ يَقول لصاحبه: نادِ معي؛ ليَكون ذَلِك أندى لصوتنا؛ أَيْ: أبعد لَهُ، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخفضه، يُقال: دَعوته من بعيد، ودعوتُ اللّه في نَفْسي، ولا يُقال: ناديته في نَفسي، وأصل الدُّعاء طلب الفِعْل"[1]، وأوثِر التّعبيرُ بالدّعاء في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّه لَم يُرَد أنّ ذلك برفع الصّوت، بل بالعمل والطّلب مِنَ النّاس عبادته.

المآب والرّجوع:

الإيـاب أخصّ من الرّجوع؛ فهو رجوع إلى النّهاية

الإياب يختصّ بالرّجوع إلى النّهاية، فهو "الرُّجوع إلى مُنْتَهى المَقْصد، والرُّجوع يكون لذَلِك ولغيره؛ ألا ترى أنّه يُقال: رَجَعَ إِلَى بعض الطَّريق، ولا يُقال: آب إِلَى بعض الطَّريق، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنَّ القيامَة مُنْتَهى قَصْدِهم؛ لأنّها لا منزلَة بعْدها"[2]، وأوثِر التّعبير بالمآب في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّ السّياق في بيان كون النّهاية إليه ﷻ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 38.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرّعد: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان حال العرب في تلقّي القرآن، بعد بيان حال أهل الكتاب

لمّا ذكر النّظم الكريم في الآية السّابقة حال أهل الكتاب من نزول القرآن الكريم؛ عرَّج في هذه الآية على بيان حال العرب في ذلك، بأسلوب التّعريض بسوء تلقّي المشركين منهم له، مع أنّهم أَوْلى النّاس بأن يستقبلوه الاستقبالَ الأَحْسَن؛ إذْ نزل بلسانهم مُشتملًا على ما فيه صلاحُهم وتنويرُ عقولِهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿حُكۡمًا﴾: الحاء والكافُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنى المَنْعِ، وأوَّلُ ذلكَ: الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ من الفَسادِ؛ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ[2]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما؛ إذا قَضَيْتَ، ويأتي بِمَعْنى: الشّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أحْكامٌ، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أَحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ: أتْقَنْتُهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[3]، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْمِ والعَقْلِ، فالحكمة مِنَ اللهِ تَعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسانِ: معرفةُ الموجودات وفعل الخيرات[4]، وسُمّيت بذلكَ لِأَنَّها تَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الغَلَطِ والضّلالِ، قالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، والمقصودُ بالحُكْمِ في الآية: الحِكْمَةُ، والمُرادُ أنَّهُ ذو حُكْمٍ؛ أيْ: حِكْمَةٍ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (حكم).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

2) ﴿عَرَبِيًّا﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِن التَّعْريبِ؛ وهو: التَّبْيِينُ والإيضاحُ والإفْصاحُ، يُقال: أعْرَبْتُ الشَّيْءَ، وأعْرَبْتُ عنه، وعَرَّبْتُهُ تَعْريبًا؛ أيْ: بَيَّنْتُهُ، وعَرِبَ، يَعْرَبُ: إذا فَصُحَ بعد لُكْنَةٍ في لِسانِهِ[1]، والعَرَبِيَةُ: اللُّغَةُ التي نَطَقَ بها العَرَبُ، نِسْبَةَ إلى العَرَبِ، وهم جيلٌ مِن النّاسِ، خِلافُ: العَجَم، يُقال: عَرُبَ لِسانُهُ عُروبَةً: إذا كان عَرَبيا فَصيحًا، ورَجُلٌ عَرَبي؛ أيْ: مِن نَسَبِ العَرَبِ، وإن كان غَيْرَ فَصيح، والعَرَبُ العارِبَةُ: هم الخُلَّصُ مِنْهُم، والأعْرابُ مِنْهُم: سُكّانُ الباديةِ خاصَّةً[2]، والمَقْصودُ بـ ﴿عَرَبِيًّا﴾ في الآيةِ: أنَّهُ بِلُغَةِ العَرَبِ الّتي هي أفْصَحُ اللُّغاتِ وأجْمَلُها وأسْهَلُها، قال الرّاغب: عربيًّا: مُفصحًا يُحِقُّ الحقَّ ويُبْطِل الباطِلَ، وقيل: معناه شريفًا كريمًا[3].

3) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: الهاءُ والواوُ والحرفُ المعتلُّ تدُلُّ تصريفاتُها على خُلوٍّ وسُقوط، يُقالُ: هَوَى الشَّيْءُ؛ أيْ: سَقَطَ، ومنه سُمّي هَوَى النَّفسِ بذلك؛ لأنَّهُ خالٍ مِن كُلِّ خَيْرٍ؛ ولأنَّهُ يَهْوي بِصاحِبِهِ في المَهالِكِ[4]، والهَوى: مَحَبَّةُ الإنسانِ لِلشَّيءِ، يُقالُ: هَوَى الطَّعامَ يَهْويهِ هَوًى؛ أيْ: أحَبَّهُ، ويأْتي بِمعنى الإرادَةِ والمَيْلِ لِلشَّيْءِ، سَواءً أكان حَقًّا أم باطِلًا، فيُقالُ: سارَ على هَواهُ: إذا فَعَلَ ما أرادَ[5]، والهَوَى أيضًا: الباطِلُ والضَّلالُ، ومِنْهُ سُمّي أهْلُ الباطِلِ بِأهْلِ الأهْواءِ[6]، ومِن مَعانيه أيضًا: العِشْقُ، والتَّعَلُّقُ، والشَّهْوَةُ، والجَمْعُ: أهْواء[7]، والمقصود بالأهواء في الآية: الباطِلُ والضَّلالُ، والمُرادُ: إجابة طلبهم في إنْزال آيةٍ غير القُرآنِ؛ تَحذيرًا مِنْ أنْ يَسألَ اللهَ إجابَتَهُم لما طَلَبوهُ، أو اتِّباع دينِهِم، فَإنَّ دينَهُم أهْواءٌ.

4) ﴿وَاقٍ﴾: أصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِهِ؛ أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ؛ أيْ: مِن دافِعٍ، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللهَ: تَوَقَّهُ؛ أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ، قالَ النَّبي ﷺ: «اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[8]،

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرب).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرب).

(3) الرّاغب، المفردات: (عرب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوى).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (هوى).

(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هوى).

(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هوى).

(8) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (1417)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1016).

وكأنَّهُ أرادَ: اجْعَلوها وقايَةً بَيْنَكُم وبَيْنَها[1]، والمُتَّقي: المُفرِطُ في الصّيانة[2]، والتَّقوى: اتّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ مِن الشَّيءِ، والتَّوَقّي: الحَذَرُ، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ مِن الأذَى والضَّرَرِ[3]، والمقصود بالوِقايَةِ في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه، والمُراد: ليس لك حافظٌ مِن عذاب اللّه تعالى أيَّ حافظٍ كانَ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه، ليبلّغهم ولا يتّبع أهواءهم

بيَّنَ اللّه ﷻ في هذه الآية أنَّه أرسَلَ رَسولَه بلُغةِ قَومِه كما أرسلَ مِن قَبلِه رُسُلًا بلُغاتِ أقوامِهم، فقال: وكما أنزَلْنا الكتُبَ على الرُّسُلِ السّابِقينَ بلُغاتِهم، كذلك أنزَلْنا عليك - يا أيُّها الرَّسولُ - القُرآنَ مُحكَمًا مُتقَنًا؛ لِتَحكُمَ به بين النّاسِ، بلسانِ العَرَبِ، ولَئِن اتَّبَعتَ - يا أيُّها النَّبيُّ - أهواءَ تلك الأحزابِ الكافرةِ بعد ما جاءك مِن العِلمِ الّذي علَّمَك اللّه إيّاه، ما لك مِن اللّه مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللّه؛ فاحذَرْ مِن اتِّباعِ أهوائِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾:

تلقّي العرب وأهل الكتاب للقرآن بالانقسام، وعدم الالتزام

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ عاطفة لهذه الجملة على قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ لوجود اشتراكٍ بينهما في أمرِ تلقّي القرآن؛ حيث كانت الآية السّابقة في كيفيّة تلقّي أهل الكتاب للقرآن؛ فجاء هنا وعطف عليه كيفيّة تلقّي العرب لنزوله[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (وقى).

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (وقى).

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (وقى)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.

دلالة الكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

حرف التّشبيه، يوضّح الصّورة، ويُبين عن المعنى المتوخّى

عبّر النّظم الكريم بحرف الكاف الدّالّ على التّشبيه، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ وهو حرف جرّ، واسم الإشارة في محلِّ جرٍّ بِهِ، والجارّ والمجرور ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في محلّ نصبٍ نائب عن المفعول المُطلَق، والتّقدير: أنزلناه إنزالًا كذلك الإنزال[1].

دلالة اسم الإشارة (ذلك) في الآية:

الإشارة إلى التّنزيل بإشارة البعيد تعظيمٌ له

اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ يشير إلى المصدر المتصيَّد من الفعل (أنزلنا)، وهو منصوب على المصدريّة؛ أيّ: "مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ المنتظم لأصول مُجمَع عليها وفروعٍ مُتشعبة إلى موافقةٍ ومخالفة حسبما تقتضيه قضيَّةُ الحكمةِ والمصلحة أنزلناه"[2]، وهو يدلُّ على التَّعظيم والتَّنويه بشأن هذا الإنزال.

بلاغة التَّشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾:

يمتاز دين الله الرّائع، بوحدة المنهج، مع تعدّد الكتب والشّرائع

التّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ معقود للمشابهة بين إنزال الكتب السّابقة والقرآن، والمعنى: "وكما أنزلنا الكتب على الرّسل بلغاتهم ولسانهم؛ كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب"[3]، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فهو يتضمَّن إنزالَهُ تعالى الكتُبَ السّابقةَ بِلسانِ مَن أُنزلت عليهم؛ فكذَلِكَ الّذي أنزلناه عليك بلسان العرب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4][4]، وفيه ردٌّ على مُنكري تنزيل القرآن من المشركين ومن أهل الكتاب.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/158.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/67.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/167.

سرُّ التَّعبير بالإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

نزول القرآن مُطلقًا مناسبٌ للسّياق، لا نزوله مفرّقًا

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإنزال دون التّنزيل، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾؛ لأنّه يدلُّ على النُّزول للقرآن مطلقًا من غير وصفٍ لحالِ النُّزول، بخلاف التّنزيل المأخوذِ منَ الفعل المضعّف (نزّل)، فهو يدلّ على التّكثير، وهو مناسبٌ لمعنى نزول القرآن مفرّقًا، كما ورد في آيات أخرى؛ لأنَّ التّفريق يستغرق زمانًا طويلًا، وهذا المعنى ليس مرادًا في السّياق؛ لذا عُبِّرَ هنا بالفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ للدّلالة على الإنزال مطلقًا، ولم يُعبِّر بالتّنزيل الدّالِ على التّدرّج في الإنزال.

دلالة نون العظمة في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

عظمة المُنزَّل من عظمة المُنْزِل سبحانه

عبر النَّظم الجليل بِالنّونِ الدّالّة على العَظَمَةِ في الإخبار عن الإنزال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾؛ أيْ: أنزلنا القرآنَ بما لنا مِنَ العظمة[1]، وذلك أنّ تنزيلًا عظيم الشّأن، لا بدّ أن يكون مِن جليلٍ عظيم، فالتّعبير عن فاعل الإنزال بالضّمير الدّالِّ على التّعظيم مناسبٌ مع مضمونِ الخطابِ عَلى التّمام.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿حُكْمًا﴾:

القرآن يحكم حياة النّاس بأحكامه المُشعّة الرّائدة

أطلق النّظمُ الكريم على القرآن الكريم لفظَ الحُكْم، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾، للدّلالة على أنّه حاكمٌ يحكم في الحياة وفي واقِعِ النّاس بالحقّ، لأنّه ذو حكمة، كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم: 12]، وإنّما جُعِل القرآنُ نفسَ الحُكْم؛ للمبالغة في الحكمة الّتي يتضمّنها القرآن[2]، مع أنّ بعضه ليس بحُكم، وذلك للتّنويه بمكانته؛ تربيةً لمهابته ووجوبِ مراعاتِهِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/357.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

والمحافظة على تلك المكانة[1]. ولمّا كان القرآن مُشتملًا على جميع أنواع العبوديّاتِ، وكان سببًا للحُكم؛ جَعل نفسَ الحكمِ مبالغةً[2].

بلاغة التَّعبير بالحال في قوله: ﴿حُكۡمًا﴾:

خطاب الأمّة يكون بلسانها، ليكون البلاغ أمكن وأوضح

أتبع النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن حال كون القرآن حاكمًا بحالٍ أخرى وهي كونُه بلسان عربيّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾، وإنّما كان ﴿عَرَبِيّٗاۚ﴾ حالًا ثانية وليس صفة لـ ﴿حُكۡمًا﴾؛ لأنّ الحكمة لا تكون في أمّة دون غيرها، فالمعنى أنّه حكمة مُعَبَّرٌ عنها بالعربيَّة، والمقصود أنَّه بلغة العرب؛ لأنّ إعجازه جاء بلغتهم[3]؛ أيْ: جاء على وفْقِ مذاهب لسان العرب في كلامها، فهو كافٍ لبيان الدّعوة وإقامة الحُجّة، فلا يُلتفت إلى اقتراحاتهم على وفق أهوائهم[4]، فالمجيء بلفظ العربيّ هنا "للإشارة إلى أنَّ ذلك إحدى موادّ المخالفة للكتُبِ السّابقة مع أنّ ذلك مُقْتَضى الحكمة؛ إذْ بِذَلِكَ يَسْهُلُ فهمُه وإدراكُ إعجازِه، يعني بالنّسبة للعرب، وأمّا بالنّسبة إلى غيرهم فلعلّ الحكمة أنّ ذلك يكون داعيًا لتعلّم العلومِ الّتي يتوقّف عليها ما ذُكِر"[5].

بلاغة الجمع بين: ﴿حُكۡمًا﴾ و﴿عَرَبِيّٗاۚ﴾:

القرآنُ جَمَعَ كُلَّ الكمالات اللَّفظيَّة والمعنويَّة

جَمَعَ النّظمُ البليغُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ بين حالَيْن؛ لبيان نزول القرآن الكريم، فوُصف بأنّه جاء في حالِ كونِه حاكمًا وكونه بلسان العرب، فحصل بهذا الجمعِ كمالان: "كمالٌ من جهة معانيه ومقاصده؛ وهو كونه حكمًا، وكمالٌ من جهة ألفاظه؛ وهو المُكَنّى عنه بكونه عربيًّا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله؛ لأنّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/158.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/357.
(5) الآلوسيّ، روح المعَاني: 7/158.

الحكمة أشرف المعقولات فيُناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتّعبير عن الحكمة"[1].

وعلى هذا نلحظ أنَّ الآية الكريمة قدِ اشتملت على فضيلتَيْن للقرآن الكريم: فضيلةٍ مِن جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحِكَمِه وأحكامه وتشريعاته؛ وهو المُعبّر عنها بكونه ﴿حُكۡمًا﴾، وفضيلةٍ من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهي المُعبّر عنها بكونه ﴿عَرَبِيّٗا﴾؛ أيْ: نزل بلغة العرب الّتي هي أفصح اللُّغات وأغناها وأجملها[2].

كون القرآن بالعربيّة، يقتضي الشّكر لا الكفر، لأنّها وسعت كتاب الله لفظًا وغايةً

بلاغة التّعريض بمُشركي مكّة في الآية:

وَصَفَ النّظمُ البليغُ القرآنَ الكريم بكونه عربيًّا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾؛ لإرادة التّعريض بمُشركي العرب؛ إذْ "في كونه عربيًّا امتنانٌ على العرب المُخاطَبين به ابتداء بأنّه بلغتهم، وبأنّ في ذلك حُسْنَ سُمعتهم، ففيه تعريضٌ بأفَنِ رأي الكافرين منهم؛ إذْ لم يشكروا هذه النّعمة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: 10]"[3].

المنّة بإنزال القرآن يعقبها التّحذير من اتّباع الأهواء

دلالة موقع جملة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ استئنافيّة[4]، جيء بها تحذيرًا من ترك العمل بالجملة السّابقة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾، فهو اعتراض بعد ذِكر المنّة بإنزال القرآن الكريم؛ لبيان أنّ الإكرام بالوحي يقتضي مقاطعة الأهواء وحُرمة اتّباعها، وفيه إشارةٌ إلى تحذير العلماء والدّعاة من باب أوْلى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/467، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/105، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/493.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/143.

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلَئِنِ﴾:

أدْخَلَ النّظمُ الكريم اللّام على الجملة الشّرطيّة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ وهي اللّام الموطِّئة، وهي لام مؤكّدة ممهّدة للقَسَم[1]، وفائدة ذلك تأكيد مضمون جملة الشّرط، فتَظافَر أسلوبان على المعنى؛ ليكون في الغاية مِنَ التّأكيد والقطعيّة.

التّوطئة للقَسَم، تأكيد للمضمون، وتجلية للإنكار العقديّ المأفون

دلالة التَّعبير بـ (إنْ) الشّرطيَّة في ﴿وَلَئِنِ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وهي دالّة على شرطٍ غير متوقّع الحصول؛ لأنّ اتّباع النّبيّ ﷺ لهم غير وارد من الأصل، فَسيقَ مساق الافتراض للتّحذير، و"الخطاب للنّبيّ ﷺ، وليس هناك احتمال لأنْ يتّبع النّبيّ ﷺ أهواءَهم، فما اتّبعها قبل أن يبعثه اللّه رسولًا، فكيف يتّبعها بعد أن شرّفه اللّه تعالى بالرّسالة العامَّة الخالدة؟ وإنّما الخطاب له ابتداءً؛ لتقتديَ به أمّته، وتَتَّبعه، أو يكون الخطاب لكلِّ قارئٍ للقرآن مُخاطَب بأحكامه وبيانه"[2]، فيكون الخطابُ في ﴿ٱتَّبَعۡتَ﴾ قد خرج عن أصلِهِ في إرادَةِ مُعيَّنٍ، إلى إرادَةِ العموم.

اتّباعه ﷺ أهواءَهم، غيرُ واردٍ من الأصل

سِرُّ التعبير عن مطالب المشركين بالأهواء:

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ عن مطالبهم واقتراحاتهم بالأهواء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ إشارةً إلى أنّ تلك المطالبَ إنّما صدرت عن أهوائهم لا عن علْمٍ ومَقْصد سليم، فهو تشنيع على تلك المطالب، وتضمين لِعلّة النّهي عن اتّباعها؛ لأنَّ الهوى رأيٌ ناشئٌ عن هَوًى لا عن دليلٍ، وللتَّحذير مِنَ الاستجابة إلى مطالبهم؛ لأنَّها مبنيَّة على الهوى، وأنَّه لا يأتي مِنْهُ خيرٌ.

وَصْفُ مطالِبهم بأنّها أهواء، تشنيعٌ عليهم، وتأكيد لطيشهم وسفاهتهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3964.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3964.

دلالة التَّعبير بالجمع ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾:

تعدّدت الأهواء بتعدُّد الأحزاب، وتلك آفة الآفات

آثر النّظمُ الكريم التّعبير بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ لأنّها أهواء عديدة مختلفة، فقد دعوا النّبيّ ﷺ إلى الصّلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة إلى الكعبة، كما دَعَوْهُ إلى ترك الدّعوة إلى الإسلام[1]، كما أنّ الجمع يُناسب لفظ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ المجموع في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، فلمّا كانت أحزابًا؛ كانت الأهواء متعدّدة، وكلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

دلالة التَّعبير بالظّرفيّة ﴿بَعۡدَ﴾:

من دان بالعلم تحقّق، ومن دان بلا علم تفسّق

في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، قُيِّد الاتّباع المُحَذَّرَ منه بالظّرف وما أُضيف إليه؛ جريًا على أنّ التّحذير إنّما يكون بعد التّكليف، فلا عتاب لأحدٍ بلا وجود الحُجّة، فلمّا بلغ العلمُ المخاطَبين، واتّضح سبيلُ الحقّ؛ صلُح الحال لأن يأتي التَّحذير، وعليه فإنّ تقييدَ التّحذير في الآية بأنّه وقع بَعۡدَ مجيءِ العِلۡم قائمٌ عَلى منهج العدل.

سرُّ عدم ذكر (مِنْ) مع الظّرفيّة ﴿بَعۡدَ﴾:

اتّباع أهوائهم، محذور مُستنكر، على طول الزّمان

استعمَل النّظم الكريم الظّرف ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بلا حرف الجرّ (من)؛ لأنّه "لمّا كان المُرادُ التّعميمَ في الزّمان؛ نزع الجارّ"[2]، فليس المُرادُ بيانَ أنّ حرمة الاتّباع بادئة مع مجيء العِلم، فلم يُجزّأ زمن البَعۡديّة؛ لأنَّه لو جُزّئ الزّمن؛ فستكونُ درجة الحُرمة في بداية النّزول مختلفةً عن درجتها بعد مرّ الزّمان وكثرة نزول القرآن، فالمعنى أنّه قد حَرُمَ عليك اتّباع الأهواء بمجرّد مجيء العلم إليك وحدوثه، وهذا كما يظهر أشدّ في التّحذير من تقييده في بداية المجيء.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/158.

(2) البقاعيّ، نَظۡم الدّرر: 10/358.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ في الآية:

كلّ ما بلغ من العلم، يقضي بحُرمة اتّباع الأهواء وفسادها

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ لأنّها تدلّ على العموم، فتشمل كلّ ما بلغه من العلم، سواء أُريد به القرآن، أو أُريد به العلمُ الجزئيُّ بحرمة الأهواء، بخلاف (الّذي) فإنَّها خالصةٌ في التَّعريف ولا تُفيد العموم الوارد من دلالة ﴿مَا﴾، فيحتمل "أن يُراد بالموصول القرآن تنويهًا به؛ أيْ: لئن شايَعْتَهُم؛ فسألتَنا آيةً غيرَ القرآن بعد أن نزل عليك القرآن، أو بعد أنْ أعلمناك أنّا غير مُتنازلين لإجابة مقترحاتهم"[1].

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿جَآءَكَ﴾:

الدّلالة على عظمة العِلم، وأهمّيّته في الحياة والمصير

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ المجيء، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ للدّلالة على تفخيم شأن القرآن وما يحمله من الهداية للعالمين، وفيه إشارة إلى عَظَمة العلم أيًّا كان نوعه، والمُراد به "العلمُ العظيمُ الشّأن، المأخوذ من ذلك الحُكم العربيّ، أو العلم بمضمونه"[2]، ولأنّ المجيء يدلّ على قوّة العلم الّذي علّمه اللّه لرسوله ﷺ؛ بخلاف الإتيان فإنّه يَرِدُ في بعض السّياقات وهو يحمل معنى السُّهولة، ولذلك آثر القرآنُ التَّعبيرَ بالمجيء هنا مناسبةً لتعظيم العلم، وفيه تعريضٌ بضَلال المخالفين لرسول اللّه ﷺ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

التّبليغ والوحي من جنس العلم

أدخلَ النّظمُ الكريم ﴿مِنَ﴾ البيانيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ للدّلالة على أنّ الّذي جاء النّبيَّ ﷺ كائنٌ من جنس العلم؛ تفخيمًا لشأنه، وبيانًا لكونه حُجّةً قائمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

سِرُّ التَّعبير بالعِلْم في الآية دون غيره:

العِلْم حاكم للأهواء، وضابط لحركة الحياة، ومُنظِّم للعلاقات

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ العلم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وذلك لاتِّساع دلالة لفظ العلم فيشمل كُلَّ ما هوَ معلومٌ بالأدلَّةِ والبراهين السّاطعة كالقرآن والوحي، وأُطلق عليهما[1] تفخيمًا لشأنه؛ لأنّه لا يأتي إلّا بخير، كما أنّ التّصريح بكونه عِلمًا مناسبٌ لسياق النّهي عن اتّباع الأهواء، فالصّادِر في دعوته عن علم، ليس كمَن يتّبِعُ هواهُ، وشتّان بين الهوى والعلم، فذِكْرُ العِلْم هنا يتضمّن تعليلًا للتّحذير من اتّباع أهوائهم.

دلالة النَّفي في ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

نفي الجملة الاسميّة، يدلّ على تأكيد النّفي

جاء التّعبير عن نفي الوَليِّ والواقي بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وذلك لتأكيد النّفي، ليكون النّفي ثابتًا في جميع الأزمنة، ودالًّا على القطع؛ أي: انتفى وجود الوَليّ والواقي نفيًا قاطعًا، وفائدة النّفي حَسْمُ أطماعهم من اتّباع النّبيّ ﷺ لهم، وتهييج للمؤمنين على الثّبات في أمر دينهم[2].

دلالة حذف جواب الشّرط في الآية:

القَسَم على انتفاء النّصير، يدلّ على الجواب المحذوف

حُذف جواب الشَّرط في قولِه تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ طِبْقًا للقاعدة النَّحويَّة عند اجتماع الشّرط والقَسَم، فإنّ المذكور يكون جوابَ القسم؛ لأنّه هو المُتقدّم، ويكون في الوقت ذاته دالًّا على جواب الشّرط[3]، ولذا لم تُصدَّر هذه الجملة بالفاء؛ لأنّها جواب القَسَم، وهو لا يقتضي لزوم ارتباطه بالفاء، وأمّا جواب الشّرط، فقد دلّ عليه جواب القَسَم[4]. وممّا يُذكر في علّة حذف الشَّرط بلاغيًّا استحالة حصول ذلك الشَّيء من رسول الله ﷺ؛

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/358.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/190.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3964.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/143.

لذلك حُذف الجوابُ لاستحالةِ شَرْطِه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ﴾؛ فهو في حُكم المعدوم، ولذلك كان حذفه من اللِّسان نُطقًا دليلًا على حذفه من القلبِ. وفيه إشارة إلى مزيدٍ مِنَ التَّبكيت والوعيد الشَّديد لِمَن تُسَوِّل له نَفْسُه إرضاءَ أهلِ الكفر.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿لَكَ﴾:

الولاية والنُّصرة لا تَكونُ إلّا من الله وحده

دلَّ التَّعبير القرآنيُّ بقوله: ﴿مَا لَكَ﴾ على أنَّ الولاية والنُّصرة لا تكون إلّا من اللّه وحده، ولا تكون إلّا لِمَن اتَّبع منهجه وترك أهواء الكافرين.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

الولاية والوقاية، لا تكون إلّا من الله

جاء التَّعبير القرآني بالجارِّ والمجرورِّ في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المتعلِّق بقوله: ﴿وَلِيّ﴾، وقوله: ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ لِتَضَمُّنِهما معنى المانع والحامي من العقاب، ويكون المعنى: ليس لك غيرُ اللّه تعالى وليٌّ ولا واقٍ، فهي متعلِّقة بـ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿وَاقٍ﴾[1]، وفيه تحذير بِخطورة الميل إلى هوى الكافرين ومتابعتهم، ويُؤكِّد ذلك الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ الّذي يدلُّ على جلال الألوهيَّة وهَيْبَتِها.

بلاغة الالتفات في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

غرض ورود لفظ الجلالة، تربية المهابة وتعظيم شأن التَّهديد

جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ دالًّا على الغَيْبَةِ بالتّعبير بالاسم الظّاهر، فلم يقل: (ما لك منّا) بناءً على ما ذُكِرَ في صَدْرِ الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، فأظهر الاسم الجليل بالعدول مِن التَّكلُّم إلى الغيبة؛ تربيةً للمهابةِ وتعظيمًا للتّهديد[2]؛ لأنَّ التَّهديد بذِكر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ أرهَبُ منهُ بذِكْرِ الضَّمير الرّاجِعِ إليه.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مِن﴾، في ﴿مِن وَلِيّ﴾:

لا ناصر من أمر الله تعالى ولا عاصم

أدخل النّظم الكريم ﴿مِن﴾ - وهي صِلَةٌ - في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ للنَّصِّ على استغراق النّفي، فَدُخول حرف الجرّ على النّكرة في سياق النّفي يدلّ على النصِّ في الاستغراق؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ لتأكيد النّفي، وللتّنصيص على العموم[1]، والمعنى: فلا يوجد ناصرٌ ما يتولّى نصرك أيُّ ناصر ممّا يصلح أن يُقال له ناصر بوجه من الوجوهِ، وفيه قطعٌ لأمل الكافرين والمنافقين من الشَّفاعة أو النُّصرة في الآخرة.

سرُّ تقديم لفظ (الولّي) على (الواقي):

التّدرّج بالنّفي من الأعمّ إلى الأخصّ، أدلّ على شمول النّفي

قدّم النّظمُ الكريم نفيَ الولاية على نفي الوقاية في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾؛ لأنّ الولاية أعمّ من الوقاية فقدّم الأعمّ، وأخّر الأخصّ[2]، لأنّه قد تكون الولاية بلا وقاية، فذكر الوصفيْن للتّنصيص على انتفائهما جميعًا، وقدّم الأعمّ للتّدرّج في النّفي.

سرُّ الجمع بين(الولّي) و(الواقي):

نفي النّصرة، لا يقتضي نفي الحماية

جَمَعَ النّظمُ الكريم نفيَ الولاية والوقاية في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾؛ لأنَّ نفي النّصرة لا يقتضي نفي الحماية، فالجمع بينهما لنفي الجميع؛ إذْ لا "يستلزم نفيُ النّاصرِ على العدو نفيَ الواقي من نكايته"[3]، فنفيُ الولاية الّتي تَقْتَضي النّصرة لا يدلُّ على نفي مَن يحميه ويقيه المهالك، فجمع بينهما للدّلالة على انقطاع كلِّ سبُلِ الحماية والوقاية دفعًا وطلبًا.

دلالة تَكرار النَّفي في الآية:

سُبل النّصرة والوقاية منتفية على وجه التّأكيد

تكرّر النّفي في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآني: (مِن وليٍّ وواقٍ)؛ للدّلالة على التّأكيد، كقولك: ما لي دينارٌ ولا درهمٌ، وتأكيدُ انتفاء النّصرة والوقاية إنّما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/359.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

هو لقطع أطماعِ الكفرة، وتهييجِ المؤمنين على الثّبات على ما هم عليه مِنَ الدّين[1].

التّشابه اللّفظيّ في الآية:

براعةُ البيانِ القرآني في التّصرُّف بالمفردات، بما يُناسب مَقاماتِها

تشابَهَ قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ مع قوله تعالى في سورة الحجّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [الحجّ: 16]، فلِمَ خُصّت كلٌّ بما فيها بعد قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؟ والجواب عن هذا أن يُقال: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد مسبوقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، فلمّا كان ذلك فصْلًا بين الرّسول ﷺ والمنكرين بما تدعو إليه الحِكْمَةُ بلِسان العربِ؛ ناسبه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾. أمّا الآية في سورة الحجّ؛ فهي مسبوقة بقوله جلّ شأنه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحجّ: 15]، فلمّا كانت تلك آيةً بيّنةً دالّةً على الإعجاز في القرآن الكريم؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [الحجّ: 16].

سِرُّ اختلاف هذه الآية غيرها:

ذِكْرُ القضاء في السّياق، يناسبه كونه حكمًا، وذكر القصص يُناسبه كونه قرآنًا

جاء التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ بكون المنزل حكمًا، وقد جاء في موضع آخر قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [طه: 113]، والمُراد بالمُنَزَلِ في الموضعيْن واحدٌ وهو القرآن الكريم، فما وجه اختلاف التّعبير عن ذلك؟ والجواب عن هذا: أنّ "سورة الرّعد لم يتقدّم فيها شيء من القصص الإخباريّة، وإنّما المُتقدّم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

أحوال المكلَّفين جريًا على ما سبق من قضائه فيهم، وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدّره سبحانه في أَزَلِه وما حَكَم به عليهم"[1].

أمّا الآية في سورة طه فقد تقدّم فيها ذِكر "قصص موسى ﵇، وما جرى من فتنة قومه بعدَهُ بفعل السّامريّ، وما كان من قول هارون ﵇ وتذكيره إياهم، وقول بني إسرائيل: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾ [طه: 91] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]، والمُراد به: القرآن، ثمّ أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [طه: 113]؛ أيّ: قصصًا مقروءًا بلسانِ العرب. فناسب كلّ مِن العبارتينِ موضعَه أتمّ مناسبة"[2].

(1) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/282.

(2) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/283.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾

[الرّعد: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد نزول القرآن، بيّن السّياق، أنّ نزول البراهين السّاطعة، كان بأمر الله تعالى وإذنه

بعد أن بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة الامتنان بنزول القرآن ذي الحكمة بلسانٍ عربيٍّ مُبين، وأنّه كافٍ في البيان، وحذّر من اتّباع أهوائهم؛ أتبعه في هذه الآية ببيان أنّ الرّسل على هذا السّبيل ساروا، فالآية "عَوْدٌ إلى الرّدّ على المشركين في إنكارهم آيةَ القرآن وتصميمهم على المطالبة بآيةٍ من مقترحاتهم تُماثِل ما يُؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أنّ الرّسولَ لا يأتي بآيات إلّا بإذن اللّه، وأنّ ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾: الزّاي والواو والجيمُ تدورُ اشتقاقاتُها على مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، ومن ذلكَ الزَّوْجُ: زَوْجُ المَرأةِ، والمَرأةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ. قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][2]، فالزَّوْجُ: كُلُّ شَيْءٍ ثانٍ مَعَ شَيءٍ آخَرَ بَيْنَهُما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيتِ الأُنْثَى القَرينَةُ لِلرَّجُلِ بِنِكاحٍ: زَوْجًا؛ لِأَنَّها اقْتَرَنَتْ بِهِ وصَيَّرَتْهُ ثانيا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوْجًا لَها لِذَلِكَ بِلا فَرْقٍ، فَمِنْ ثَمَّ لا يُقالُ للمَرأةِ زَوْجَة بِهاءِ تَأْنيثٍ؛ لِأَنَّهُ اسْم وليسَ بوصفٍ[3]، والمُراد بالزَّوج في الآية: اسمٌ لِذاتٍ مُنْضَمَّةٍ إلى غيرها على وجه المُلازَمَة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161 - 162.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/428.

والمقصود بالأزواج هنا هوَ مِنْ مُقابَلَةِ الجَمْعِ بالجَمْعِ، فَقَدْ يَكونُ لبعضِ الرُّسُلِ زَوْجَةٌ واحِدَةٌ، وقد يَكونُ لآخرين عِدَّةُ زَوْجاتٍ[1].

2) ﴿وَذُرِّيَّةً﴾: مادَّة الذّالِ والرّاء تدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشارٍ[2]، ومِنهُ: ذَرَرْتُ؛ وهو أخذُك الشَّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحِ المَسْحوقِ على الطَّعام[3]، والذُّرِّيَةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِن الذَّرْءِ، تقول: ذَرَأَ الله الخَلْقَ؛ أيْ: خَلَقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[4]، وقيل: هو مأخوذٌ مِن الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ؛ أيْ: نَشَرَهُ، أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ الله أَخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كالذَّرِّ[5]، والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرِّياتُ، والمقصود بالذُّرِّيَّة في الآيةِ: نَسْلُ الإنسانِ مِن ذُكورٍ وإناثٍ.

3) ﴿أَجَلٍ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، وقَدْ صَرَّفَهُ الخَليلُ فقالَ: أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأْجَلُ، والاسمُ الآجِلُ: نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرْجَأُ؛ أي: المُؤَخَّرُ إلى وقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[6]، يُقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جعلتُ لَه أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسانِ أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دُنوِّ الموت[7]، وقولُهُم: (أَجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى وبَلَغَ الغايَةَ[8]، والمقصود بالأجل في الآيَةِ: الوَقْتُ المؤَقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ، والمعنَى: لكُلِّ واقِعٍ أجَلٌ يَقَعُ عندهُ، ولكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ؛ أيْ: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ ولا يَتأَخَّرُ عنه[9].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

في هذه الآية يرُدُّ اللّه تعالى على مَن كان يُنكِرُ على رسولِ اللّه ﷺ تزَوُّجَه بالنِّساءِ قائلًا: ولَقد بَعَثْنا إلى الأمَمِ الماضيةِ رُسُلًا من قَبلِك، فكانوا بشَرًا مِثلَهم، وجَعَلْنا لهم أزواجًا يَنكِحونَهنَّ، ورَزَقْناهم أولادًا، فلستَ أوَّلَ رَسولٍ بشَريٍّ أُرسِلَ إلى النّاسِ، حتّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ - ذرر).
(6) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أجل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164.

يستغرِبَ قَومُك إرسالَك إليهم، ولا يَقدِرُ أيُّ رَسولٍ أرسَلَه اللّه تعالى إلى قوم أن يأتيَ قَومَه ببيِّنَةٍ وآيةٍ تدُلُّ على صِدقِه، إلّا بأمرِ اللّه؛ فهو الّذي يأتي بالبيِّنات والآياتِ ويُؤيِّدُ بها رسولَه متى شاء، لكلِّ أجلٍ قدَّره اللّه، ولكلِّ أمرٍ قضاه، كتابٌ أُثبِت فيه، ووقت معلومٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، فلا تكونُ آيةٌ إلّا بأجلٍ قد قضاه اللّه تعالى في كتابٍ[1].

الأنبياء والرُّسل تجري عليهم أحكامُ البَشَرية، رغم أنّهم مخصوصون بالوحي

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ عاطفة؛ فقد عَطفت هذه الجملةَ على قولِه جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾[2]، لبيان سُنّة اللّه تعالى في إرسال الرّسل، ومنهج إنزال الآيات، وأنّه ليس على وفق مُقْترحاتِ المشركين والكافرين فيما يقترحونَ.

سُنّة الله تعالى في الإرسال، تَقْضي بنزول الآيات على حِكْمَتِه

ويجوز أن تَكونَ الواوُ اسْتِئْنافيَّة، وتكون الآيةُ مِن باب تقريرِ حقيقَةٍ ربّانيَّةٍ: أنَّ الرُّسُلَ السّابقين لهم أزواجٌ وذريَّة، ولَسْتَ بِدْعًا مِن ذلك أيُّها الرَّسولُ الكريمُ.

دلالة اللّام في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

أدخَلَ النّظم الكريم اللّامَ الموطّئة للقسَم على (قد) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ للدّلالة على القَسَم المحذوف[3]؛ تأكيدًا لمضمون الجملة، وتقويةً للمعنى؛ إذ إنَّ الإرسال معلوم وليس موضِعَ إنكارٍ.

إرسال الرّسل، أمرٌ قدّره الله أزلًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/558، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/468، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161 - 162.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/144.

ولأنَّ الآية ردٌّ على المشركين في إنكارِهم آيةَ القرآن وتصميمِهم على المطالبة بآيةٍ من مقترحاتهم تُماثل ما يُؤْثَرُ مِن آيات موسى وآيات عيسى ﷺ، فكان التَّأكيدُ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يأتي بآياتٍ إلّا بإذن اللّه؛ لأنَّ أمرها لا يكون وفق مقترحات الأقوامِ.

دلالة دخول (قد) على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

الأزواج والذُّرّية، لا تعارِضُ شأنَ الرِّسالةِ

أدخل النّظم الكريم (قد) على الفعل الماضي في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ للدّلالة على تحقيق الإرسال وتأكيد كونه واقعًا، وللرّدّ على مَن أنكر أن يكون للرّسول ﷺ أولادٌ وذرّيةٌ، أو أن يمشي في الأسواق، فأكّد أنّ هذا لا يخالف شأن الرّسل قبلَهُ.

سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

الإرسال أخصُّ من البعث، ولا يوصف بالرّسول إلّا من حمل رسالة للبلاغ

آثَر النَّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإرسال دون البعثِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ لأنَّ الإرسالَ أخصُّ في الدّلالة من البعث؛ لأنَّهُ يتضمّن الدّلالة على كونه يحمِلُ رسالةً، أمّا البعث فلا يقتضي كونه مبعوثًا برسالة، فهذا اللّفظ أبلغ في الرّدّ على إنكارهم أن يكون للرّسول أولادٌ وذرّيّة، لأنّه تصريح بأنَّ إرسال البشر معهودٌ بين الأمم، وهذا يدلّ على أنّ الإرسال ليس مِن شروطِهِ أن يكون المُرْسَلُ من جنسِ الملائكة كما يتوهَّمُهُ المشركون. وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالإرسالِ: أنَّ البعثَ يَحْمِلُ معنى الإثارة والتَّهيئة للنّاس مِن الواقع الّذي يعيشون فيهِ لاستقبال المبعوث من الأنبياء والرُّسل، وأنَّه ليسَ بِدْعًا منهم، فطبيعتُه لا تخالف طبيعتَهم، أمّا الإرسال فيدُلُّ على الانبعاث على تُؤَدَة؛ أخْذًا من قولك: (عَلى رِسْلِكَ)، وعلى هذا فَتَعْبيرُ القرآن بـ: ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾ يحمل معنًى مفادُه أنَّ أمْرَ الرَّسولِ صادرٌ من اللّه سُبحانَهُ؛ فهو أمرٌ ربّاني لا دخْل له فيما أُرْسِلَ به من الآيات[1].

(1) عبد الجبار فتحي، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 287.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

الماضي أدلّ على وقوع الحدث، وتأكيد إنجازه

عبّر عن الإرسال بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾ للدّلالة على حدوث الإرسال وتحقّقه، وأنّه قد وقَعَ في الواقع، فهو أمر مؤكّد، وتأكيده متعضّد باللّام و(قد)، كلّ ذلك لتأكيد مضمون الجملة؛ ردًّا على إنكار المشركين. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أمر الرِّسالة اجتباء واصطفاءٌ قدّره اللّه سُبحانَهُ لِمَن اصطفاهُ، وليس مبنيًّا على الكَسْبِ والاجتهاد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75].

دلالة نون العظمة في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

تعظيم الإرسال والجَعْل، يشير إلـــى عظيم الإنعام، وجليل الإحسان

أسنَد النّظمُ الكريم الإرسالَ إلى نون العظمة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾؛ أيّ: كان ذلك الإرسال بِما لنا من العَظَمَة[1]، وتعظيم الإرسال لكونه إنّما صدَرَ من اللّه العظيم ﷻ، فهو إرسالٌ بالغُ العَظَمةِ، وفي ذلك تنويهٌ بعِظَم الإنعام بهذا الإرسال.

وفي التّعبير بالفعلِ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ مُسندًا إلى نون العَظَمة تفخيمٌ لشأن الجَعْل، وللإشارةِ إلى أنّ اختيارَ رسُلٍ من البشر يكون لهم أزواجٌ وذرّيّةٌ إنما هو من فعل اللّه تعالى بأن يكون الرّسل من جنس المُرسَل إليهم؛ أيّ: "ولم نجعلهم ملائكة، بل جعلناهم بشرًا"[2]، وهذا فيه من الإنعام ما لا يخفى، فعظّم هذا الجَعْل لِما فيه من دقيق اللّطف وجميل الإحسان بكون المرسلين من جنس الإنسان، وفيه توبيخٌ وتحقير للمشركين في تطاولهم على رسولنا ﷺ.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿رُسُلٗا﴾:

مراعاة التّناسُبِ فـــي الآيـــة الكـريـمة، مِن البـلاغـةِ الأثـيرة في السّياق

آثر النّظمُ الجليل التّعبيرَ بلفظ الرّسل دون الأنبياء في قوله تبارك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/359.
(2) البقاعي، نَظْم الدّرر: 10/359.

اسمه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ لأنّ السّياق يتكلّم عن الرّسالة والإرسال، وقد ذُكِرَ الإرسالُ في صدر الجملة، فكان التّعبير بالرّسول هو الأنسبَ لسياق الآية. وفيه دلالة على علوِّ مكانة الرُّسُلِ عليهم أفضل الصّلاة والتّسليم؛ لأنَّ كُلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولًا.

دلالة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿رُسُلٗا﴾:

كثرة المرسلين، دليل على العناية الرّبّانيّة، بإصلاح مجتمع المؤمنين

جاء التّعبير عن الرّسل بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾ للدّلالة على كثرتهم[1]، وهذه الكثرة مناسبة لموضوع الآية وسياقها، فهي مَسوقةٌ لبيان أنّ الإرسال حصل بجنس البشر، فبيان أنّ أولئك الرّسل كثيرون يدلّ على أنّ الإرسال بتلك الصِّفَةِ أمرٌ معهود، فما وجه استغراب المشركين بأن يكون الرّسول ماشيًا في الأسواق أو له زوجة وأولاد؟!

وفيه دلالةٌ على علوِّ مكانة الرُّسُل، وأنَّ الزَّواج والإنجابَ لا يُقَلِّل من هذه المكانَةِ كَما يزعُم المشركون.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

زَمَنُ الإرسالِ للرُّسُلِ، جزءٌ من الزّمن العامِّ

أدخل النّظم الكريمُ حرفَ الجرّ (من) على الظّرف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ لأنّ زمن الإرسال لم يستغرق كلّ الزّمان الّذي كان قبل النّبيّ ﷺ؛ أيَ: "لمّا كانت أزمان الرّسل غير عامّة لزمان القَبْل؛ أدخل الجارّ فقال: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾"[2].

دلالة كاف الخطاب في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

تسلية النّبيّ الخاتم، بكون الأذى والإنكار عانى منهما كلّ الرّسل قبله

دلّ التَّعبير بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ على أنّ المقصود بهذا الخطاب هو النّبيّ ﷺ؛ لأنَّ الإنكار إنّما وُجّه إليه، فكان الرّدّ بالإضافة إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/359.

النّبيّ ﷺ، كما أنَّ فيه لطفًا به وطمأنة لقلبه إزاءَ ما يأتي به المُبطلون مِن شُبَه واقْتراحاتٍ.

دلالة التَّعبير بالواو في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

بيان مضمون الجملة، للرّدّ على إنكار المشركين

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ عاطفةٌ؛ لأنَّها عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾[1]؛ لاشتراكهما بالتّأكيد المُعبّر عنه باللّام الموطّئة للقَسَم وأيضًا بـ (قد)، فكما أكّد النّظم أنّ الإرسال قد تحقّق في الأزمنة الماضية، فكذلك قد تحقّق كون المرسلين لهم أزواج وذرّيّة، وفي ذلك مزيد من التَّأكيد لردِّ إنكار المشركين.

سرُّ التَّعبير بالجَعْل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

الذّرّيّة والأزواج فيض رحمة من الله تعالى، لِمَن شاء من عباده

عبّر النّظم الكريم بالفعل (جعل) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ الّذي يدلّ على الخَلْق والإحْداثِ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] فيتعدّى لمفعول به واحد[2]، وذلك للدّلالة على إمكان أن يكون الرّسل بلا أزواج ولا ذرّيّة، ولكن الّذي قضى بأن يكون لهم ذلك هو اللّه تعالى؛ ليكون الرّسول من بني قومه وعلى وفق سَنَنِهم ونظام عيشهم، فيكون أقرب إلى نفوسهم، بحيث يعقلون عنهُ ويقتدون به.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

الفعل الماضي دليل التّحقّق

عبّر النّظم عَنِ الجعلِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ بالفعل الماضي للدّلالة على حدوث ذلك الجَعْل، وأنّه مُحقَّق في الواقع، وذلك يدلّ على تأكيده، وفيه دلالة على أنَّ قدَرَ اللّه تَعالى لا يردُّه إنكارُ المشركين.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/144.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (جعل).

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

الاهتمام بشأن الأنبياء، وذِكْر الأزواج تبع لهم

قدّم النّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ على خلاف الأصل، فلم يَقُل: (وجعلنا أزواجًا لهم)؛ اهتمامًا بشأنهم بتقديم ذِكْرِهِم على الأزواج؛ إذِ السّياق في الحديث عنهم، كما أنَّ تأخير الأزواج تشويقٌ للمَجْعولِ لهم، وليس المُرادُ تخصيصَ الأزواج بهم؛ لأنّ الأزواج والذُّرّيّة لا تختصّ بالرّسل عليهم السلام وحْدَهُم.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

الأزواج أخصّ من النّساء، والنّساء عامّ للجنس بلا استثناء، للزّوجات وغيرهنّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بالأزواج دون النّساء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾، وذلك للتّصريح بكونهنَّ زوجاتهم؛ إذِ التّعبير بالنّساء يحتمل الزّوجيّةَ وغيرَها، فليس نصًّا في كونهنَّ زوجاتهم، فلمّا كان السّياق في بيان بشريّة الرّسُل؛ كان التّعبير بالأزواج أدلّ على البشريّة من النّساء، وذلك لِما يحمله هذا الوصف من الاقتران بين الذَّكر والأنثى في أمرِ المعاشرة الزَّوجيَّة الّتي تؤكِّد بشريَّة الرُّسلِ عليهم السلام.

سِرُّ اختيار ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

بيان صفة البشريّة، بمُطلق الزَّوجيَّة، لا بعدد الزّوجات

آثر النّظم الكريم، التّعبيرَ بالأزواج دون الزّوجات، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾؛ لأنّه قد سبق ذِكْرُ الرّسل بالجمع، فجمع الأزواج يُقابل جمع الرّسل، فاللّفظ لا يتعرّض لكون بعض الرّسل له زوجات كثيرة؛ إذ لمّا "كان المقصودُ من الرّدّ هو عدمَ منافاة اتّخاذ الزّوجة لصفة الرّسالة؛ لم يكن داعٍ إلى ذِكْر تَعداد الزَّوجات في هذا المقام"[1]، ولأنَّ النَّظم القرآني جاء على التَّعبير الأفصح، حيث ذَكر في كُلِّ القرآن صيغةَ الجمع (أزواج) ولم يذكر (زوجات).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.

سِرُّ التَّعبير بالواو: ﴿وَذُرِّيَّةً﴾:

الجمع بين الذّرّيّة والأزواج، كلاهما نعمة، والتّرتيب والتّعقيب بينهما لا يخفى

جمع النّظم الكريمُ بين الذُّرّيّة والأزواجِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ عاطفًا بينهما بالواو الدّالّة على مُطلَق الجمع؛ إذ لا يُراد ترتيبٌ ولا تعقيب؛ لأنَّ الغرض الإخبار بأنّ اللّه جعل لهم الأزواج والذُّرّيّة لبيان ذلك الإنعام، وأنّ شأن الأزواج والذُّرّيّة مع الرُّسُل شأن معهود، كما أنّ التّرتيب والتّعقيب بين الأزواج والذُّرّيّة لا يُجْهَلُ، فهو معروف بداهةً، فلا فائدة من بيان ذلك بالفاء و(ثمّ).

سِرُّ التَّعبير بالذُّرّيّة في الآية:

حفظ نسل الأنبياء واستمراره، من نعمة الله عليهم

آثر النّظم الكريم التّعبير بالذّرّيّة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ دون الأبناء؛ لأنّ الذّرّيّة تشمل كلّ مَن جاء في عقِبه؛ إذ هي "الجماعة المُتفرّقة بالولادة عن أبٍ واحد في الجملة"[1]، فهو إخبار صريح بدوام ذرّيتهم، وبقاءِ نَسْلِهم، ولو قال: (وجعلنا لهم أبناءً أو أولادًا)؛ لاحْتَمَلَ أن يُراد به أولادهم المباشرون فحسبُ دونَ مَن خلَفَهم.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفي الإتيان بآية، تَبيينٌ لِوظيفةِ الأنبياء، وإمكان قدرتهم

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عاطفة لهذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾[2]؛ حيث عطفت انتفاءَ قدرةِ الإتيان بآية على الإرسالِ تقييدًا وبيانًا لحدودِ قُدرة الأنبياء بكونها لا تخرج عن قدرات البشَرِ، فإرْسالُهم لا ينفي بَشَريتهم.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفي فعل الكون، أدلّ على النّفي من الأصل نفيًا قاطعًا

جاء تركيب النّفي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ بنفي فعل الكون (ما كان)؛ "أي: ما صحّ، وما استقام، ولم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.

يكن في وسعه"[1]، وهذا التّركيب دالٌّ على النّفي البليغ القاطع؛ لأنّ النّفي تسلّط على فعل الكون للدّلالة على نفي ما في حيّز جملة الكون نفيًا من الأصل، فهو نفيُ الوجود؛ أيْ: لا يوجد في الأصل مثل هذه الحالِ، وهي الإتيان بالآية، فالنّفي دالٌّ على المبالغة.

سرّ تنكير الرَّسول في قوله: ﴿لِرَسُولٍ﴾:

إفادة النَّكرة العمومَ، في سياق النَّفي، مفيد في الإبانة عن المعنى

جاء لفظ الرّسول بصيغة التّنكير، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ للدّلالة على العموم؛ أيْ: ما كان لأيٍّ رسولٍ كان[2]؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياق النَّفْي تُفيد العمومَ، فانتفاء القدرة على المجيء بآية ليس خاصًّا برسولٍ دونَ آخرَ؛ لذلكَ جاءَ التّنكير ليُبيّن أنّ تلكَ حقيقةٌ راسخة عامّة في كلِّ أحدٍ.

سِرُّ التَّعبير بالإتيان ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾:

نفي اليسير من الآيات، دليلٌ على نفي العظيم مِنْها، بطريق الأولويَّة

في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾، عبّر النّظمُ الكريم بالإتيانِ دون غيره؛ لأنّ الإتيانَ يدلّ على المجيء بسهولة[3]، ولمّا كان السّياق في نفي قدرة الرُّسل على الإتيان بآية؛ عبّر بالفعل الدّالِّ على ذلك، ويلزم من نفي السَّهْلِ من الآيات نفي العظيم منها، فينتفي ذلكَ بطريقِ الأولويَّةِ الأُخْرَوية.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾:

انتفاء قدرة الرُّسُل على الإتيان بآيةٍ، مُتجدّدٌ في كلّ الأزمان

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المُؤوّل ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾ دون المصدرِ الصَّريحِ (الإتيان) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾؛ لِما في المُؤوّل من دلالة على الزّمن، ولمّا جاء في سياق نفي القُدرة على الإتيان بآية؛ دلَّ على أنّ النَّفْيَ دائمٌ مستمرٌّ؛ أيْ: إنّ المجيء بآية ليس من شأن المرسلين، وأنّ ذلك لا يتغيَّر بمرّ الزّمن، بخلاف المَصْدَرِ الصَّريح؛ فإنَّه لا يُلْمَحُ فيه الدِّلالة على الزَّمن.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/360.

(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

الآيـة دليـلٌ عـلى الصّـدق، والتّـعبير بها تعبير بالغايَةِ المُرادة

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ دون المعجزة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، وإن كان المُراد بالآية المعجزة؛ لأنّ المُراد منها أن تكون دليلًا على الصّدق، فالتّعبير عن ذلك بالآية تعبير بالغايَةِ المُرادة وهي أنّها علامة وعنوان على الصّدق، أمّا لفظ المعجزة فلا يقتضي أن يكون دليلًا.

على أنَّ لفظ المعجزةِ لم يَرِدْ في الكتاب ولا في السُّنَّةِ، وإنَّما الوارِدُ فيهما ألفاظ: الآيةُ، والبيِّنَةُ، والسُّلْطانُ، والبرهان. وإنّما لفظُ المعجزةِ مِن اصطلاحاتِ أهلِ الاعتزالِ بعد القرونِ المفضَّلة لهذه الأمَّةِ[1].

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

الدّلالة على نفْي عـموم الإتـيان بـالآيـات، من فصيح البيان

آثرَ النّظمُ الكريمُ تنكيرَ لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ للدّلالة على نَفْي عموم الإتيان بالآيات وشمولها كلَّ ما يمكن أن يُقال له إنّه آية؛ أيْ: "يأتي بآَية مقترحة، أو آية ناسخة لحُكم من أحكام شريعته أو شريعة مَنْ قبلَه، أو غير ذلك"[2]، لذا جاء التّنكير للتّنويع والتّقليل في الشّأن، فساق النّظمُ هذا البيانَ بأسلوب يَقْطَعُ بانتفاء مَقدِرَةِ الأنبياء على الإتيان بآيةٍ ما من تلقاء أنفسهم.

دلالة التَّعبير بالاستثناء بالأداة ﴿إِلَّا﴾:

نفي القدرة على الإتيان بالآيات، لـيـس عـلى إطلاقه

دلّ التَّعبير بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ على أنَّ المجيء بآيةٍ ليس مُنْتَفيا على العموم، ولكنّ النَّفْيَ متسلّط على قدرة الرّسولِ على المجيء بآية من تلقاء نفسه، فجاءت ﴿إِلَّا﴾ للدّلالة على أنّ النّفي ليس مُطلقًا، فإذْنُ الله تعالى يُتيح الإتيانَ بالآية.

---

(1) ابن تيميّة، النّبوات: 1/215، والجواب الصّحيح لمن بدل دين المسيح: 5/412.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإذن إعلامٌ، والإعلام يدلُّ ضمنًا على أمرِ الله تعالى ومشيئته

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإذن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ دون غيره؛ لِما فيه من معنى الإعلام، فهو إعلام للرّسول ﷺ بأن سَتكون آية[1]، ويدلُّ ضِمْنًا على أنَّ الآية لا تَكونُ إلّا بأمْرِ اللّه تعالى ومشيئته؛ لأنّ الرّسولَ إذا كان يتلقّى الإعلام بحدوث آيةٍ؛ فإنَّ ذلك يدلُّ على أنّ شأن الآيات ليس من نفسِه، بل هي بإذن اللّه تعالى وأمره ومشيئته.

سِرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

لا يقع شيء في الوجود، إلّا بإذن الله ربّ كلّ موجود

أضاف النّظْمُ الكريمُ الإذنَ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِۗ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يَقلْ: (بإذن ربِّه)؛ للدّلالة على أنّ الإذن إنّما يكون من اللّه تعالى بما لَهُ من صفات العلم والإحاطة، فقوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ يعني "المحيط بكلّ شيء علمًا وقُدرةً، فإنَّ الأمور عنده ليست على غيرِ نظام ولا مُفرِّطًا فيها، ولا ضائعًا شيءٌ منها"[2].

ويدلُّ أيْضًا على عَظمَةِ هذا الإذن؛ لأنَّهُ يدُلُّ على مُطلق قدرته سبحانه مع خلقه، فَمَتى شاء اختبارَهم اخْتَبَرَهم وفْقَ حِكْمَته، ومتى شاء إنزالَ الآياتِ أنزلها؛ فَلا مُعارِضَ لِحُكْمِه.

بلاغة الالتفاتِ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

ذكر لفظ الجلالة، دليل على الفخامة وتربية المهابةِ

التفَتَ النّظمُ الكريمُ من التّكلُّم إلى الغَيبة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يَقُلْ: (إلّا بإذننا) تبعًا لِما قال في صدر الآية: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، فأظهر الاسم الأحسن (اللّه) ليبْني الحُكْمَ عليهِ، وفي ذلك "من الدِّلالة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/360.

على الفخامَةِ وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلَّةِ ما لا يَخْفى"[1].

بلاغةُ التَّعْبير بلفظ ﴿لِكُلِّ﴾:

عموُمُ الآجال، يَشْمَلُ كُلَّ التَّصرُّفات

عبّر النّظمُ الكريم بـ (كُلِّ) المفيدةِ للعُموم والشّمول، في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ للدّلالة على عموم الآجال الّتي منها الأجلُ المتعلّق بالمجيء بآية، وفي هذا ردٌّ على المشركين بما ظنّوه من أنّ شأن الآية يَجِبُ أن يكون حاضرًا وقْتَ طلَبِهم، وغفلوا عن كَوْنِ الآجال مقدرّةً بعلم اللّه تعالى؛ فليست هناك آية مقترحة بنازلةٍ قبل أوانها، ولا عذابٌ استعجلوه بنازلٍ قبل أوانه.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أَجَلٍ﴾:

الأجل مدّة وجود الشّيء، لا مُطلق الزّمن

آثر النّظم الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الأجل دون غيرهِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾؛ لأنّه دالٌّ على زمان محدّد، فهو ليس مطلقَ الوقتِ والزّمن، بل يُطْلَقُ على المدّةِ المضروبة للشّيء[2]؛ أيْ: مدّة زمنية مُحدّدة، "والمُراد بالأجل هنا: أزمنة الموجوداتِ، فلكلّ موجودٍ زمانٌ يوجد فيه محدودٌ، لا يُزاد عليه، ولا يُنقص"[3]، فهو مدّةُ وجودِ الشّيءِ المحدّدة الّتي لا تتغيّر، وهو الأنسب في الآية؛ إذْ إنّها في سياق الحديثِ عن المجيء بالآيات وإنزال العذاب، فبيّن أنَّ كُلَّ فِعْلٍ من ذلك له أجلٌ محدّد، وزمان مضروبٌ.

سرُّ التّعبير بالنّكرة ﴿أَجَلٍ﴾:

طولُ الأجَل وقِصَرُه، مُقدّرٌ بعلم الله تَعالى الّذي قدّره

في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ جاء لفظ (الأجل) بصيغة التّنكير؛ وذلك للدّلالة على العموم والشّمول، فهو يشمل أزمنة كُلِّ الموجودات، فكلّ موجود له زمان محدّد لا يتغيّر زيادةً ونقصانًا[4]،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

(2) الرّاغب، المفردات: (أجل).

(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/69.

(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/69.

ويشمَلُ كذلك أيَّ أجلٍ كان قصيرًا أو مديدًا، فكلُّ تلك الآجال مكتوبةٌ مُقدَّرَةٌ.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿كِتَابٌ﴾:

الكتابةُ دليلُ ضبطٍ للمكتوب، وحفظٍ له من عوارض التّغيير

عبّر النّظمُ الكريمُ بلفظ ﴿كِتَابٌ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾، والمُراد به: الكِنايَةُ عنِ التّحديد والضّبط؛ لأنّ الكتابة دليلُ أهميّة المكتوب، فالأشياء الّتي يُراد تحققّها تُكْتَبُ لئلّا يُخالف عليها، والمُراد من ذلك التّعريضُ بالوعيد، والمعنى: لكلِّ واقعٍ أجلٌ يقَعُ عندَه؛ أيْ: كلّ شيء له تعيينٌ وتحديد، لا يقع فيه تقديم ولا تأخير[1]، فقد "أُثْبِت فيه أنّ أمرَ كذا يكون في وقت كذا مِنَ الثّواب والعقاب والأحكام والإتيان بالآيات وغيرها؛ إثباتًا ونَسْخًا على ما تقتضيه الحكمةُ، والحكمَةُ اقتضت أنّ النّبوَّة يَكْفي في إثباتها معجزةٌ واحدة"[2].

سِرُّ الختام بـ ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾:

تذييلٌ يبطل توهّم انتفاء الصّدق، تبعًا لتأخّر الآيات

خَتَمَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾؛ لإفادة العموم في الآجال، ومن تلك الآجالِ: الإتيانُ بآية: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ﴾، وأفاد هذا التّذييلُ إبطالَ أوهامِهم بأنَّ تأخُّر الوعيدِ يقتضي انتفاءَ صِدْقِه، ولذا قد "ناسب أن يُذْكَرَ هنا أنّ تأخير ذلك لا يدلّ على عدَم حُصوله؛ فإنَّ لذلك آجالًا أرادها اللّه، واقتضتها حكمتُه، وهو أعلمُ بخلقه وشؤونهم، ولكنّ الجهلةَ يقيسونَ تصرُّفات اللّه بمثل ما تجري به تصرّفات الخلائق"[3].

المُتشابِه اللّفظيّ في الآية:

الكافرون في (الرّعد) يستعجلون العذاب؛ وفي (غافر) تبشيرُه بخسارة الكافرين

تشابَهَ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ مع قوله جلّ شأنه في سورة غافر: ﴿وَلَقَدۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 13/164.

﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٧٨﴾ [غافر: 78]. فلِمَ خُصّت كلّ آية بما فيها بعد قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾؟ والجواب عن ذلك أن يُقال: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد مسبوقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ [الرّعد: 32]، وبقوله عزّ ذِكره: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٣٤﴾ [الرّعد: 34]، فلمّا كان إملاءُ اللّه تعالى الّذين كفروا يَجْعَلُهم يستعجلون ما توعّدهم به الرّسولُ ﷺ من العذاب؛ ناسَبَهُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾، أمّا الآية في سورة غافر؛ فقد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر: 77]، فلمّا كان السّياقُ أكثرَ تعلقًا بالتَّسْرِيةِ عنِ الرّسول ﷺ ناسبه تبشيرُه بمجيء أمر اللّه وخسارة الكافرين بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٧٨﴾ [غافر: 78].

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

(أرسلنا) و(بعثنا):

الإرسال يتضمّن رسالة، والبعث أعمّ فلا يشترط فيه الرّسالة

البعث أعمّ من الإرسال؛ لأنّه "يجوز أن يبعث الرّجل إلى الآخر لحاجة تخصّه دونك ودون المبعوث إليه، كالصّبي تبعثه إلى المكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلته؛ لأنّ الإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يجري مجراها"(1). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

قَبْلِكَ﴾، أوثِر التّعبيرُ بالإرسال؛ لأنّه حديثٌ عن المرسلين الّذين أرسلوا برسالة.

(الذُّريَّة) و(الأولاد) و(الأبناء):

الوَلَد مَن وُلِد للرّجل، والابن يختصّ بالذّكر، والذُّريّة تشمل الجميع

الأَبْناء جمع (ابن)؛ وهو كلُّ ما وُلِدَ ذكرًا، ويُطْلَقُ على كُلِّ ما ترتَّب على غيره بالسَّبَبِية أو التَّبعيَّة أو المُلازَمة أو المشابَهة، والابنُ: يُفيد الاختصاصَ ومداومة الصُّحبة.

أمّا الذُّرّية؛ فتُطْلَقُ على نَسْلِ الرَّجل وما توالدَ مِنْهُ ومِن أبنائه وبناتِه؛ فَهي تَنْتَظِمُ الأولاد ذكورًا وإناثًا[1].

والوَلَدُ يَقْتَضي الولادَة، ولا يقتضيها الابْن، والاِبْنُ يَقْتَضي أبًا، ولا يُسمَّى الإنْسان والدًا إلّا إذا صار لَهُ ولد، ولَيْسَ هوَ مثل الأب؛ لأنّهم يَقولونَ في التّكنية: أبو فلان وإن لم يلِد فلانًا، ولا يَقولونَ في: هَذا والِد فلان، ويُقال: الابْن للذَّكر، والولد للذَّكر والأُنْثَى[2].

فالفَرْقُ بين الابن والولد: أنّ الأوّل للذّكر خاصّة، والآخَرُ والثّاني يقع على الذَّكر والأنثى، أمّا النّسل والذّرّيّة فيقعان على الجميع.

وجاءَ التَّعبيرُ في الآية بالذّرّيّة دون غيرها؛ لأنّه أراد أن يشمل الجميع، فلا ميزة في السّياق للأبناء والبنات، فالمقصود من الإخبار بالذّرّيّة أنّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعام ويتزوَّجون وتكون لهم ذرّيّة.

وبناءً على ما سبق؛ نجد أن لفظ (الابن) منظورٌ فيه إلى الاختصاص بالنَّسَبِ ومداومة الصُّحبة، ويُطلق على الذَّكَر فقط، أمّا الولَدُ فمنظور فيه إلى الولادة والوالدِ، ويشمل الذَّكر والأنثى، وأمّا الذُّريَّة فمنظور فيهِ إلى الخَلْق والكثرة والتَّفرُّق عن أصلٍ واحدٍ، ويشمل الجميعَ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 283.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281 - 282.
(3) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 44.

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرّعد: 39]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لكلِّ أجلٍ قدَّره الله، من إرسال أو مصير، كتابٌ يمحو فيه ما يشاء ويُثْبِتُ

بعد أنّ بيّن النّظمُ الكريم في الآية السّابقة أنّ مجيء الآيات يكون بأمر الله تعالى وأنّ لكلِّ أجلٍ قدّره الله كتابًا أُثبِت فيه، ووقتًا معلومًا يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، ولا تكونُ آيةٌ إلّا بأجلٍ قد قضاه الله تعالى في كتابٍ؛ أتبع ذلك في هذه الآية ببيان علّته بقوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡحُواْ﴾: الميم والحاءُ والواوُ تدور تصريفاتُها على الذَّهابِ بالشَّيْءِ، يُقال: مَحا الشَّيءَ يَمْحوه ويَمْحاه مَحْوًا ومَحْيًا؛ إذا أذْهَبَ أثَرَه[2]، يُقالُ: مَحَتِ الرّيحُ السَّحابَ؛ أيْ: ذَهَبَتْ به، وتُسَمَّى الشَّمالُ مَحْوَةً؛ لأنَّها تَمْحو السَّحابَ، وامَّحَى الشَّيْءُ: ذَهَبَ أثَرُهُ، كذلكَ امْتَحَى[3]. والمَحْوُ: السَّوادُ الذي في القَمَرِ، كأنَّ ذلكَ كانَ نَيِّرًا فمُحي، والمَحْوَة: المَطْرة تمحو الجَدْبَ[4]، وحقيقةُ المَحْوِ في الآية: إزالَةُ شَيءٍ، وأُطلق هنا على تَغْييرِ الأحْوالِ وتَبْديلِ المَعاني، كالتَّكاليفِ والوَعْدِ والوَعيدِ[5].

2) ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾: الثّاءُ والباء والتّاءُ تدلُّ على دَوام الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[6]، ومنه: ثَبْتُ الجَنانِ؛ أيْ: هو ماضٍ في الأمْرِ والحَرْبِ، وأثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمْرُ: وضَحَ، ورَجُلٌ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/360.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (محو - محا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (محو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (محا).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164 - 165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثبت).

ثَبْتٌ؛ أيْ: حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللّازِمُ الواقِفُ[1]، والثَّبْتُ: المُتَثَبِّتُ في الأُمورِ، والإثبات والتَّثبيت تارةً يُقالُ بالفِعل، فيُقال لِما يخرج من العَدَم إلى الوجود؛ نحو: أثبتَ اللّه كذا، وتارةً لِما يثبت بالحُكم، فيُقال: أثبت الحاكمُ عليه كذا أو ثَبَّته، وتارةً لِما يكون بالقَول، سواءٌ أكان صِدقًا أم كذبًا، فيُقال: أثبت التَّوحيد وصدَّق النُّبوَّة، وفلان أثبتَ مع اللّه إلهًا آخر[2]، وحَقيقَةُ الإثباتِ أو التَّثبيتِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ ثابِتًا قارًّا في مَكانٍ، ويُطْلَقُ مَجازًا على أضْدادِ مَعاني المَحْو.

3) ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أصلُ الأمِّ: كُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ إليه ما سِواهُ مِمّا يليهِ، فَإنَّ العَرَبَ تُسَمّي ذلكَ الشَّيءَ أُمًّا، ومِنْ ذلكَ: أُمُّ الرَّأْسِ؛ وهو الدِّماغُ[3]، ويُقال لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أمٌّ[4]، فَكَلِمَةُ (أُمٌّ) مُسْتَعْمَلَةٌ مَجازًا فيما يُشبِهُ الأُمَّ في كَونِها أصلًا لِما تُضافُ إليه أُمٌّ؛ لأنَّ الأُمَّ يَتَوَلَّدُ منها المَولودُ، فَكَثُرَ إطلاقُ أُمِّ الشَّيءِ على أصلِه، والأُمُّ في الآيةِ مُرادٌ به ما هو أصلٌ للمَحْوِ والإثْباتِ اللَّذَيْنِ هما مِن مَظاهِرَ قَوْلِه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ أيْ: لِما مَحْوُ المشيئاتِ وإثْباتُها مَظاهِرُ له وصادِرَةٌ عنه، فأُمُّ الكتابِ: هو عِلْمُ اللّه تعالى بما سَيُريدُ مَحْوَهُ وما سَيُريدُ إثْباتَهُ[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

لكلّ أمرٍ قضاه اللّه وقدّره بمشيئته وقدرته، كتابٌ عنده تعالى

بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ اللّه يمحو ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ، فَيَمْحو ما يشاءُ مَحوَه مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رزقٍ أو عُمُرٍ، أو خيرٍ أو شَرٍّ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ، وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ. وعِندَه أمُّ الكتابِ، وهو: علم اللّه تعالى، أو: اللَّوح

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ثبت).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/347.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/168.

المحفوظ الّذي لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر، والّذي ترجعُ إليهِ سائرُ الأشياء، فهو أصلُها، وهي فروعٌ له وشُعَب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّـهُ مَا يَشَآءُ﴾:

الآجال بيد الله تعالى؛ يمحو ويثبت مِنها بمشيئته، ما شاء كما شاء

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا للاحتراس؛ "لأنّ جملة ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ تقتضي أنّ الوعيد كائن وتأخيره لا يمنع وقوعه، ولمّا كان في ذلك تيئيسٌ للنّاس عُقِّب بالإعلام بأنّ التّوبة مقبولة، وبإحلال الرّجاء محلّ اليأس، فجاءت جملةُ ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ احتراسًا"[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿يَمۡحُواْ﴾:

الأحكامُ عند الله، تخضع لأمره بينَ الإزالةِ والمحوِ

عبّر النّظم الكريمُ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾، بالمحو للدّلالة على تغيير الأحوال، والتّكليف والأمر والنّهي والوعد والوعيد، وحقيقة المحو: إزالة الشّيء، بحيث يكون غيرَ مُشاهدٍ، كإزالة الخطّ أو الصّورة، قال تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: 12]، واستعمل في الآية للدّلالة على التّغيير، فإنّ تلك المفاهيم إذا صادفت ما في الواقع؛ كانت مطابقتها إثباتًا لها، وإذا لم تطابقه كان ذلك محوًا لها[2]، بخلاف الإزالة؛ فإنّها تُقال في الشّيء الّذي كان ثابتًا، وعلى هذا يختلف المحو عن الإزالة؛ لأنّها تدلُّ على تنحيةِ الشَّيء عن مَكانه، أمّا المحو فإنَّه يدلُّ على ذهابِ الشَّيِّءِ بالكُلّيّة وليس تَنْحيتَهُ، ويُؤَكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41] الآية[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164 - 165.
(3) الرّاغب، المُفردات: (زال).

سِرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿يَمۡحُواْ﴾:

تجدُّد وقوع المحو، وفق المصالح، وبمشيئة الله وحكمته

عبّر النّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿يَمۡحُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للدّلالة على تجدُّد ذلك واستمراره، فإنّ اللّه تعالى "ينسخ ما يشاء نَسۡخَهُ مِنَ الأحكام؛ لِما تقتضيه الحكمةُ بحسَبِ الوقۡتِ"[1].

دلالة إسناد المحو ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾، إلى الاسم الأعظم:

الله يفعل ما يشاء ويختار، له الخَلۡقُ والأمرُ

أسندَ النّظمُ البليغُ المحوَ إلى الاسۡمِ الأحسنِ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾؛ للدّلالة على أنّ النّسخ والمحو للّه تعالى، يوقِعُهُ متى يَشاءُ من أوقات الزّمان؛ لأنّه الملك الأعظم[2]، يتصَرَّف في كونه بما شاء وكيف شاء، ولبيان شرعيّة المحو والإثبات وكونهما بأمر اللّه تعالى لا بأمر أحَدٍ مِنَ الخلقِ، فإنَّ التّغييرَ في التّكاليف والوعد والوعيد وإيقاع العقاب وإرجائه إنّما هو بيد اللّه تعالى لا بأمر أحدٍ سواه.

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

بيان أنَّ مشيئتَهُ تعالى، تتناولُ عمومَ الأشياء

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسۡمِ الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾؛ للدّلالة على تناوُلِ مشيئتهِ عمومَ الأشياء، وذلك يشمل جميع الاحتمالات المُمكنة والصّور المتوقّعة؛ فهو "يَنۡسَخُ ما يشاء نسخَه مِنَ الأحكام لِما تَقۡتَضيهِ الحكمةُ بحسب الوقت، ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ بَدَلَه ما فيه المصلحةُ، أو يُبۡقيهِ على حالهِ غيرَ منسوخ، أو يُثبتُ ما شاء إثباتَه مطلقًا أعمَّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو من ديوان الحفَظةِ الّذين ديدنُهم كَتۡبُ كلِّ قولٍ وعمل ما لا يتعلّق به الجزاءُ ويُثۡبِتُ الباقيَ"[3]، فالتّعبير بذلك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/159.

(2) البقاعيّ، نَظۡم الدّرر: 10/360.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.

للدّلالة على كونه عامًّا يشمَلُ كلّ ما يمكن أن يُمْحى أو يُثْبَتَ، وفائدة التّعميم تُظهر أنّهُ يدلّ على الإبهام، وذلك يؤدّي إلى توجّه "الأفهام إلى تعرُّف ذلك والتّدبّر فيه؛ لأنّ تحت الموصولِ صورًا لا تُحْصى، وأسباب المشيئة لا تُحصى"[1].

المشيئةُ أخصُّ من الإرادة

سِرُّ التَّعبير بالمشيئة في الآية:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ المشيئة دون الإرادة في قوله تبارك اسمه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾؛ لكون المشيئةِ دالَّةً على إرادةٍ كونيَّةٍ، وهو المُرادُ بيانُهُ في سياق الآيةِ، بخلاف الإرادَةِ فإنَّها نوعان: كونيَّةٌ وشرعيَّةٌ، فلو عُبِّر بها؛ لالتبسَ الأمرُ بينَ الإرادَتيْنِ أيُّهما المُرادُ، فيُحتاجُ معه إلى تقييدٍ فيطولُ الكلامُ.

ولمّا كان الأمر هنا يتعلّق بعموم الأشياء محوًا وإثباتًا؛ فقد كان المناسب التَّعبير بالمشيئة دون الإرادة.

الإثبات والمحو لله سبحانه دون غيره

دلالة الواو في قوله: ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

عطفَ النّظمُ الكريم الإثباتَ على المحو في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ للمقابلة الّتي بينَهُما، وللدّلالة على أنّ قدرةَ الله تعالى وحكمتَه لا يحدُّها شيءٌ حتّى ما كان مكتوبًا، لأنّه هو الإله الحقّ ذو المشيئة المُطلَقة.

الإثبات أعمّ من غيره، وهو خاصّ بالله، يمحو ويُثبت كما يريد

سِرُّ التَّعبير بالإثبات في قوله: ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بالإثبات دون الإبقاءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ للدّلالة على القرار؛ أيْ: يُثبت بَدَلَهُ ما فيه الحكمةُ[2]، أو يُبْقيهِ على حالهِ غيرَ منسوخٍ؛ لأنَّه ﷻ إذا أزال شيئًا فإنّه قد يُثبت آخرَ بدَلَهُ، مثل محوه بالتَّوبة جميعَ الذنوب وإثبات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/165.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/160.

بدل ذلك حسنات[1]، ولم يعبّر بالفِعل (يُبقي) مثلًا؛ لأنّ الإبقاء دالٌّ على إبقاء شيءٍ موجود، بأنْ يُتْرَكَ على حاله، بخلاف الإثبات؛ فإنَّهُ يَحْتَمِلُ ذلكَ، كما يحتمل أن يُراد بِهِ المجيء بغير الشّيء السّابق، فحقيقة الإثبات: جعل الشّيء ثابتًا قارًّا في مكان، ويُطلق مجازًا على أضداد معاني المحو المذكورة آنفًا، فهو يعدم ما يشاء من الموجودات ويُبقي ما يشاء منها، ويعفو عمّا يشاء من الوعيد ويُقرّ غيره، وكما ينسخ ما يشاء من التّكاليف؛ فإنّه يُبقي ما يشاء منها[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

اللّه يفعل ما يشاء ويختار، كلّ يوم هو في شأن

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ للدّلالة على تجدّد ذلك الإثبات واستمراره، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29]، فإنّ اللّه تعالى خَلَقَ الوجود ابتداءً، ثمَّ دام فيه فِعْلُهُ، ولم يتركه هَمَلًا.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ متعلّق ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

الإيجاز بحذف المعلوم من دلالة السّياق، مفيد في الإبانة

اكتفى النّظم الكريم بذِكْر متعلّق الفعل ﴿يَمۡحُواْ﴾ وهو عموم المشيئة، ولم يذكر ذلك المتعلّق مع الفعل ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وذلك طلبًا للإيجاز؛ إذِ اكتفى بالمذكور دليلًا على المحذوف، كما أنّ ذلك يناسب سياق الآية؛ فإنَّه لمّا بُني مضمونُ الآية على التّعميم ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ ناسبه أن يُطلِقَ الإثبات، فيَتعاضَد التّعميمُ والإطلاق للدّلالة على الإيجاز والشّمول.

أثر تعدُّد القراءات في ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

التَّشديد أبلغُ مِنَ التَّخفيف، في السّياق الشّريف

في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/169.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/165.

اختلف القرّاء في تشديد الباء وتخفيفها من ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ بسكون الثاء وكسر الباء، وقرأ الآخرون: (ويثَبِّت) بفتح الثّاء وتشديد الباء المكسورة، وكلاهما من مادَّةٍ واحدةٍ وجذرٍ واحدٍ، وكلاهما بمعنًى واحدٍ، كـ(أفرحتُه وفرَّحته)، ويكون المعنى: يمحو الله ما يشاء ويُثبته، فاستغنى بتعدية الأوّل من الفِعليْن وهو قوله: ﴿يَمۡحُواْ﴾ عن تعدية الثّاني[1]، إلّا أنَّ البلاغة تقتضي ذِكْرَ فرقٍ بينهما، وذلك من ناحية الصّيغة فـ(ثبَّتَ) بالتَّشديد ومضارعه (يُثَبِّت) لا يخلو مِن معنى المبالغةِ والتَّكثير أينما وقع[2].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾:

المحو والإثبات، من شأن الله ربّ الأرض والسّماوات

عطف النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالواو على الجملة في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾[3]؛ لاشتراكهما بأنّهما من شأن الله تعالى وحده في أمر الحُكم والقضاء بإنزال الآيات والعقاب وغيره.

سِرُّ تقديم الخبر ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾:

الكتابُ المحفوظ، من خصائصهِ سبحانهُ

قدَّم النَّظْمُ الجليلُ شِبْهَ الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على المبتدأ؛ للدّلالة على أنّ الكتابَ كائن عنده وحده على وجه الحصْرِ والخصوصِ، وأنْ ليس لأحدٍ قدرةٌ أو إذْنٌ على أن يُبدّل أو يُنَزِّلَ شيئًا من نفسِه.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾:

(عند) في سياق هذه الآية، أعمّ من (لدى)، في الدّلالة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (عند) دون (لدى) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فلم يَقُلْ: (ولديه أمّ الكتاب)؛ لأنّ (لدى)

---

(1) أبو علي الفارسيّ، الحُجّة: 3/334 - 335.

(2) ابن أبي مريم، الموضّح في وجوه القراءات وعللها: 2/704.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/145.

تُستعمل عند الكلام عَن وجود الشّيء الحاضر بالحيازة، فتقول: لديّ شيء، وتقصد أنّه حاضر بحوزتك، أمّا (عند)؛ فتُستَخدَمُ لِما في الحوزة حاضرًا أو غائبًا، تقول: عندي شيء، فلا يدلّ ذلك على أنّه حاضر معك أم غير حاضر(1)، والعنديَّة في الآية "عنديَّة الاسْتِئْثارِ بالعِلْم وما يتصرّف عنه؛ أيْ: وفي ملكه وعلمه أمّ الكتاب لا يَطّلع عليها أحدٌ، ولكنّ النّاس يرون مظاهرها دون اطّلاع على مدى ثبات تلك المظاهر وزوالها؛ أيْ: إنَّ اللّه المُتصرّف بتعيين الآجال والمواقيت، فجعل لكلّ أجلٍ حدًّا مُعيّنًا"(2).

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أُمُّ﴾:

الأمّ أصل الشّيء لِما يتولّد عنها من فروع

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ (الأمّ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون الأصل، فلم يقل: (وعنده أصل الكتاب)؛ لأنّ الأصلَ أساسُ الشَّيْءِ، وهو أسفل كُلِّ شَيْءٍ(3)، بخلاف الأمّ؛ فإنَّه لفظٌ يُقال لكُلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه، وكلُّ شيء ضُمّ إليه سائرُ ما يليه يُسمَّى: أمًّا، و﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: اللّوح المحفوظ؛ وذلك لكون العلوم كلّها منسوبةً إليه ومتولّدة منه(4)، فالأمّ: أبلغ في التّعبير عن اللّوحِ المحفوظ لِما تدلّ عليه مِن انْضِمامِ ما يُمْحى ويُثْبَتُ في الكتاب.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُعرّفًا:

التّعريف بعد التّنكير يُشير إلى أنّ الحديث مُنْصَبٌّ على النّكرة عينِها

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، مُعرّفًا باللّام، وكان قد ذُكر قبلَ ذلك مُنكّرًا في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾، فاللّامُ دالّة على العهد؛ إذْ إعادةُ ذِكْرِ النّكرة مع حَرْفِ التّعريف يدلُّ على أنَّ المعادة هي عينُ الأولى؛ أيْ: وعندَهُ أمّ ذلك الكتاب، وهو كتابُ الأجَلِ(5).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/168.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أصل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/167 - 168.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اختصاصُه سُبحانه بـ (أُمِّ الْكِتابِ)، أبلغُ في بيانِ حُكْمِه وسُلْطانِه

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبير بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، دون أن يقول: (يمحو اللّه ما يشاء ويُثّبت في أُمِّ الكتاب)؛ وذلك لأنَّ التّعبير بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أفاد أنّ ذلك الكتابَ لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ غيرُ اللّه تعالى[1]، ولأنَّه يدلّ على معنًى آخَرَ غيرِ معنى الإثباتِ؛ وهو أنّ الكتابَ مقصور على اللّه تعالى، وهذا المعنى لا يدلّ عليه التّعبيرُ بـ (ويُثبت في أمّ الكتاب).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المحو والإزالة:

المَحْوُ ذهابٌ بالشّيء، والإزالة تنحيَةٌ

المحوُ من (مَحَوَ)؛ وهو في الأصلِ يَدُلُّ على الذَّهابِ بالشَّيْءِ، ومنهُ: مَحَتِ الرّيحُ السَّحابَ؛ أيْ: ذَهَبَتْ بِهِ[2]، ومَحا الشّيءَ يَمْحوه: أذْهَبَ أثَرَه[3]، فالمَحْو: إزالة الأثر، قال تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾[4]، أمّا الإزالة فمن (زول)؛ وهو يَدُلُّ على تَنَحّي الشَّيْءِ عَنْ مَكانِهِ، وزالَتِ الشَّمْسُ عَنْ كَبِدِ السَّماءِ تَزولُ[5]، وزالَ الشّيء: فارق طريقته جانحًا عنه، قال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41][6]، فعبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ بالمحو؛ لأنَّ النّسخ والتّغيير يقتضيان الذّهابَ بالشّيء، وليس المُرادُ التّنحية.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (محو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (محا).
(4) الرّاغب، المفردات: (محو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زول).
(6) الرّاغب، المفردات: (زال).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ [الرّعد: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين تثبيت الله ومحوه ما يشاء، وتذكيره بدلائل قدرته، الّتي يبلّغها الرّسول

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقةُ أنّ أمّ الكتاب عنده ﷻ، وأنّه يمحو ما يشاء ويُثبت، وأنْ لا أحدَ يملك أن يُنزل العذابَ أو أن يَأْتي بالآيات؛ أتبعه بذِكْرِ نماذجَ مِن قُدرته على فِعْلِ ما يشاء، فقال ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾. ومنَ المناسبة أيضًا: أنَّه لمّا خُتمت الآية السّابقَةُ بأنّه سُبحانه يفعل ما يشاءُ مِن تقديمٍ وتأخيرٍ ومَحْوٍ وإثباتٍ، وكان مِن مقترحاتهم وطلباتهم استهزاءً استعجالُ السّيئةِ ممّا توعّدوا به، وكانت النّفسُ ربَّما تمنّت وقوعَ شيءٍ مِنْ ذلك وإثباته؛ جاءت هذه الآيَةُ لبيانِ وقوع ذلكَ في حياتهِ ﷺ في حياتهِ وبعد وفاته؛ فقالَ ﷻ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: الرّاء والهمزةُ والحرف المعتلُّ تدورُ اشتقاقاتُها على نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئي، وذلك أضرُبٌ بحسب قوى النَّفس، والأوَّلُ: بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]، والثّاني: بالوَهْمِ والتَّخيُّل، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]، والثّالث: بالتَّفكُّر، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]، والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النّجم: 11]، والرَّأْيُ:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/362 - 363.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

اعتقاد النَّفس أحد النَّقيضيْن عن غلَبَة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[1]، والرُّؤْيَةُ بِالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبمعنى العِلْم تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْن، والمقصود بالإراءَةِ في الآية: إراءةٌ بصريَّة، والمُرادُ: رُؤيةُ آثارِ ذلكَ النَّقْصِ[2].

2) ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: الواوُ والفاءُ والحرف المُعتلّ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام، مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أوْفَى، فهو وفيٌ. ويَقولونَ: أوفَيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَهُ إياهُ وافيا، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا[3]، والوفاة: المَنية، وتُوُفّي فلان، وتوفّاه اللّه، إذا قَبض نَفْسَه[4]، وتَوَفّي الميتِ: اسْتيفاءُ مُدَّته الّتي وُفيتْ لَهُ وعَدَد أيامه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنْيا، وتَوَفَّيْتُ المالَ مِنْهُ واسْتَوْفَيته إذا أخذته كُلَّهُ[5]، والمقصود بالتَّوَفّي في الآية: الإماتَةُ؛ سُمّيتْ تَوفّيا؛ لأنَّها تُنهي حياةَ المَرْءِ أوْ تَستوفيها.

المَعْنى الإجْماليّ:

الأعـمـار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار

يقول اللّه ﷻ لنبيِّه ﷺ تطمينًا لخاطره وتهدئةً لنفسه: وإمّا نُرينَّك - يا نَبيَّنا - في حياتِك بعضَ العذابِ الّذي نعِدُ به المُشرِكينَ لكُفرِهم مِن الهلاكِ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ، ويومَ الفتح، ويومَ حُنَين وغيرها من أيّام الإسلام في حياةِ النبيِّ ﷺ، أو توفَّيناكَ قبلَ أن نُريك عذابَهم، مثل عذابِ أهلِ الرِّدَّة؛ فإنَّ مُعظمَهم كان من المكذِّبينَ المُبطِنين الكُفرَ مثل: مُسيلِمة الكذاب[6]؛ فليس عليك سوى

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/496.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170.

تبليغِهم رسالةَ اللّه في كِلا الحالَيْن، وعلينا نحنُ - لا عليك - محاسَبةُ العباد، ومُجازاتُهم على أعمالِهم؛ ثوابًا أو عِقابًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾:

عطف الرّؤية، لإرادة البَيان على شُمول مشيئتهِ ﷻ

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيد عمومَ ما يريده اللّه تعالى، والعموم فيه إبهامٌ، فجاءت الجملة الثّانيةُ المعطوفة لبيان مُهمَّة الرَّسول في بلاغ الدَّعوة دون تحقيق الهداية للمدعوّين؛ لأنّ النّبيّ ﷺ "ليس مأمورًا بالاشتغال بذلك، ولا بترقُّبه، وإنّما هو مبلِّغ عن اللّه لعباده، واللّه يعلم ما يحاسِب به عباده سواء شهد النّبيُّ ﷺ ذلك أم لم يشهدْه"[2].

دلالة التَّعبير بـ﴿وَإِن مَّا﴾ في الشَّرط:

تأكيد مضمون الشّرط المَسوقِ على سبيل الافتراض

عبّر النّظمُ الكريم بأسلوب الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وذلك بالأداة (إمّا) الّتي أصلها (إن)، وأُدْخِلَت عليها (ما) الّتي تُفيد تأكيدَ معنى الشّرط[3]، وتوكيدُ الشَّرط توكيد للتَّعليق كلِّه؛ أيْ: إنَّ الارتباط بين الشَّرط والجواب مؤكَّد.

أمّا (ما)؛ فجيء بها لتهيئة الفعل لدخول نونِ التّوكيد الّتي لا يصحّ اقتران فعل الشّرط بها إلّا في حال دخول (ما) بعد (إن). ولَمّا كان الشّرط على سبيل الافتراض لا اليقين؛ جيء بالأداة (إن) الدّالةِ على فرضيَّة الشّرط لا على إمكان تحقّقه، وليست زائدةً كما يُعبِّر بعضُ النَّحويّين، بَل إنَّما أُتي بها للدّلالة على توكيد التَّعليق[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/574، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/333، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/472.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/169.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.

(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3968.

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية ﴿نُرِيَنَّكَ﴾:

رؤية النّبيّ ﷺ العذابَ، تقتضي وقوعَهُ عاجلًا في حياته

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّؤية، في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ دون أن يقول: (نوقِع بهم العذاب) مثلًا؛ لأنّ الرّؤية تقتضي أنّ ذلك سيقع في حياة النّبيّ ﷺ، ليكون ذلك قرّة عينٍ له ولأصحابه ﷺ؛ أيّ: سيقع العذاب - وأنت حيٌّ - بمَن آذوك وعارضوا دعوتَك أو ما يريدُ أصحابُك الّذين أوذوا في سبيل الدَّعوة، فثبت وقوعُه إقرارًا لأعينِكُم قبلَ وفاتك وإقرارًا لأعينِ أصْحابِك[1].

ومن نِكاتِ إيثار التَّعبير بالرُّؤية عن البصر: أنَّ الرؤيةَ أعمُّ، فتشمل رؤية البصر وتأتي بمعنى العِلْم، وبمعنى الخبرِ، وبمعنى الرُّؤية القلبيَّة، ولمّا كانت الرُّؤية متعدِّدَةَ المعاني؛ ناسب التَّعبير بها؛ لأنَّ بعض ألوان العذاب الّذي حلَّ بالمشركين رآه رسولُ اللّه ﷺ في غزوة بدرٍ ونحوها، وثَمَّ ألوانٌ مِنَ العذاب للكافرين يعلَمُها رسولُ اللّه ﷺ بطريق الإخبار من جنوده، كما في بعضِ السَّرايا الّتي لم يَحْضُرْها رسولُ اللّه ﷺ.

سِرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿نُرِيَنَّكَ﴾:

رؤية الرّسول ﷺ عذاب الكافرين، متجدّدةٌ ومتكرّرةٌ

آثر النّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعلِ المضارع ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ للدّلالة على حدوثِ رُؤيته ﷺ لعذاب الكافرينِ، وأنّها متجدّدة متكرّرة.

دلالة التأكيد بنون التَّوكيد ﴿نُرِيَنَّكَ﴾:

تأكيد وقوع العذاب، يَنْفي أسبابَ الشَّفقة

أدخل النّظم البليغُ نونَ التّوكيد على الفعل في قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ لتأكيد الخبر وتقوية مضمونه، فأكّد إعلامه "بأنّه لا حرج عليه في ضلالةِ مَن ضلّ بعد إبلاغه؛ نفيًا لِما يحمِلُه عليه ﷺ شدّةُ رحمته لهم وشفقتُه عليهم مِن ظنٍّ أنّه عليه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.

أن يَرُدّهم إلى الحقِّ حتمًا"[1]، فإبْلاغُهُ ﷺ بأنّ العذاب مؤكَّدٌ يَدْفَعُ عنهُ التّأسّي عليهم والشّفقة عليهم بِأنْ لَم يُدْركوا الإيمانَ.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿بَعۡضَ﴾:

عبَّرَ النّظم الكريم بلفظ (بَعْضَ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ﴾ للدّلالة على إراءة بعضِ الموعود من العذاب الدُّنيوي وتحقّقه لهم في حياة النّبيّ ﷺ، وفائدةُ ذلك: الإنذارُ "بأنّ الوعيد نازل بهم ولو تأخّر، وفيه دلالة إعجازيّة بأنّ هذا الدّين يستمرّ بعد وفاة رسولِ اللّه ﷺ؛ لأنّه إذا كان الوعيد الّذي أُمِرَ بإبلاغه واقعًا ولو بعد وفاته؛ فبالأَوْلى أن يكون شرعُه الّذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعًا مستمرًّا بعده، ضرورةَ أنَّ الوسيلةَ لا تكون مِنَ الأهميَّة بأشدَّ مِن المَقصدِ المقصودةِ لأجله"[2].

مِنَ الإنذار ما يقعُ في حياة النّبيّ ﷺ

دلالة التّعبير بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسْم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ﴾؛ لأنّ ما وعدوا به معهود معروف، فأُريد الإحالة إلى ما وُعِدوا به، ولا يكون جزاء إلّا بما سبقَ الوعيد به.

ما وُعِدوا به، معلومٌ مشهور، واللّه لا يخلف وعده

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿نَعِدُهُمۡ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ﴾، أطلق النّظمُ الكريم على الوعيد وعدًا؛ لأنّ الوَعْد يكون في الخير والشّرِّ، يُقال: وعَدْتُهُ بنفعٍ وضرٍّ، والوَعيدُ في الشّرّ خاصّةً[3]، وإنّما استعمل الوعد هنا دون الوعيد، وسمّاه وعدًا؛ لتنزيلِهم إيّاه في طَلَبِ نُزوله منزلةَ الوعدِ، ولِكَوْنِهم سألوهُ وانْتَظَروه، فكان بمنزلةِ الوعْدِ[4].

تنزيل الوعيد منزلَةَ الوعْدِ، إذا كان مُنتظرًا بيقين

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/3631.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/169.
(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَعِدُهُمْ﴾:

آثر النّظمُ الجليل التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿نَعِدُهُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ للدّلالة على تجدّد الوعد؛ أيّ: "نعدهم وعدًا مُتجدّدًا حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذارٍ عَقِبَ إنذار"(1)، فلمّا كان ضلالُهم مُستمرًّا مُتجدّدًا كان الوعيد كذلك، وهذا من جَليل لُطْفِ اللّه تعالى بِهِمْ.

وعدُ الله تعالى عباده، دائمٌ متجدّدٌ، ووعده يقين لا ريب فيه

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَوْ﴾ في: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

جاء العَطْفُ بحرف العطف ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ للتّسوية بين المذكورَيْن؛ لأنّ كِلَيْهِما ذُكِرَ في سياق الشّرط الافتراضيِّ بلا مرجّح لأحدهما، فكانا في مقام واحد من حيث الاحتمالُ؛ أي: "الذي عليك والّذي إلينا مُسْتَوٍ بالنّسبة إلى كلتا الحالتَيْن"(2).

المعطوف والمعطوف عليه في الشّرط، مستويان في الاحتمال

بلاغة التَّعبير بالتَّوفية ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالتّوفية دون الموت في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الأجل سيأتي بعد استيفاء العُمُر الّذي كتبه اللّه تعالى، وهذا ما أكَّده كثيرٌ من آيات القرآن من أنَّ الوفاة تعني استيفاءَ المدَّة المضروبة لحياة الإنسان، قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، وقال سُبحانه: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السّجدة: 11] ونحو ذلك من الآيات الّتي يَظْهَرُ فيها استيفاء المدَّة المضروبة للإنسان في هذه الدُّنيا.

لن تموت نفسٌ إلّا بأجلها، ولكلّ أجل كتاب

سِرُّ التَّعبير بـ (نون التَّوكيد) في ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

أدخل النّظمُ الجليلُ نونَ التّوكيد على الفعل المضارع (نتوفّى) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛

أكّد الفعلُ الثّاني، جريًا على تأكيد الفعل الأوّل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/363.

لأنّه جاء بمقابل الفعل المؤكّد ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[1]؛ ليجريَ ذِكْرُ الاحتمالات على نسَقٍ واحد، فلو أُكِّد الفعلُ الأوّل دون الثّاني؛ لأشار ذلك إلى أنّ وقوع الأوّل أرجحُ من الثّاني، ولمّا كان كلاهما واقعًا في فعل الجملة الشّرطيّة المبدوءة بـ (إن) الدّالّة على عدم الوقوع؛ دلَّ ذلك على أنّهما متساويان في كونهما مُفْتَرَضَيْنِ افتراضًا، فلا مُرجِّح يُرجّح أحدَهما على الآخر؛ لِذا كانَ نسَقُ التّعبيرِ فيهما واحِدًا. وفيه إشارة إلى أنَّ الرَّسول ﷺ تَجْري عليه أحكامُ البشريَّة من الموت، وفي ذلك دفعٌ لتوهُّم أنَّ الأنبياء لا يجري عليهم ذلكَ، وفيه تحذيرٌ للمشركين من سوء عاقبتهم في الآخرة بأنَّهم سيموتون ويُحاسَبون على ما قدَّموا.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

العقاب من الله تعالى عظيم، والبلاغ يكون من الرّسول الكريم

افتَتَحَ النّظمُ الكريم الجملة، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ بالفاء للدّلالة على التّعليل[2]، تعليلًا لمضمون الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، فإنّ أمرَ العذابِ ليس من شأن أحد إلّا الله تعالى الّذي من خصائصهِ محاسبةُ عبادِه.

دلالة حذف جوابِ الشَّرط في الآية:

الآية فيها شَرطانِ، والمعطوف على الشَّرْطِ شرطٌ

قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، ليسَ هو جوابَ الشَّرْطِ وإنَّما يدلُّ عليه، والجوابُ: محذوفٌ، تقديره: أنزلنا بهم ما وعدْنا وأرَيْناكَ مصارِعَهُم، وذلك لأنَّ الآية فيها شَرْطانِ؛ لأنَّ المعطوف على الشَّرْطِ شرطٌ، والمقصود قوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، والمعنى على جَعْلِ قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، جوابًا للشَّرط الثّاني لا يكون صحيحًا؛ لأنَّه يُفْهَمُ منه وجوبُ التَّبليغ عليهِ ﷺ بعد وفاتهِ، ومِنَ المعلوم أنَّ التَّكليف يَنْقَطِعُ بعدَ الوفاةِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/169.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/147.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/399.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿فَإِنَّمَا﴾:

دلَّ التَّعبير بـ ﴿فَإِنَّمَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ على أنَّ وظيفة الرَّسول ﷺ هي التَّبليغ لا طلب الآيات وإنزال العقوبات؛ لأنَّ التَّعبير بـ (إنّما) يدلُّ على الحصر والقصر، والمعنى: ليس عليك غير البلاغ، وهو إمرارُ الشيءِ إلى منتهاه، والمُراد به: الرِّسالةُ، فليس عليك محاربتُهُم، ولا أن تُلبّيَ ما أرادوا من مقترحاتٍ[1].

وَظيفَةُ الرَّسول ﷺ، هي التَّبليغ المبين عن الله ﷻ

سرُّ تقديم الخبر على المبتدأ في الآية:

قدّم النَّظمُ الكريم الخبر ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾، ولم يقل: (البلاغُ عليك)؛ لأنّ المُرادَ تعيينُ المحصور فيه؛ أيِّ: تبليغ أحكام ما أنزلنا عليك وما تضمَّنه من الوعد والوعيد لا تحقيق مضمون الوعيد الّذي تضمَّنه ذلك، فالمقصور عليه البلاغ، ولهذا قُدِّم الخبرُ[2].

ما على الرَّسول إلّا البلاغ، والله عاصمُه من الأذى، وموفّقه للهدى

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾:

عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ للدّلالة على الوجوب، فهي مستعملَةٌ في الإيجاب والإلزام، فالبلاغ واجب على النَّبيِّ ﷺ لله تعالى[3]، والوجوب يتأتّى من دلالة الاستعلاء في حرف الجرّ (على).

الاستعلاء دالٌّ على الإلزام

دلالة الواو في قوله: ﴿وَعَلَيۡنَا﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾، معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾، فهي مشتركة معها في الدّخول تحت القصرِ المدلول عليه بالحرف (إنّما)، والتّقدير: وإنّما علينا الحساب؛ أيِّ: محاسبتهم على التّكذيب[4].

محاسبةُ العباد على الله سُبحانَهُ، ولا أحد غيره يفعل ذلك

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/172.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170.

دلالة تقديم الخبر في قوله: ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾:

محاسبة الخلق، مخصوصة بالله دون سواه

قدّم النّظمُ الكريم الخبرَ شبهَ الجملة ﴿وَعَلَيۡنَا﴾ على المبتدأ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ للدّلالة على القَصر؛ أيْ: علينا لا عليك محاسبةُ أعمالهم السّيِّئةِ والمؤاخذةُ بها، فعلينا ذلك وما عليك إلّا تبليغُ الرّسالة، فلا تهتمّ بما وراء ذلك، فنحن قد كفيناكَ ذلك، فلا يُضجِرْك تأخّرُه على ما تقتضيه المصالحُ الخفيَّةِ[1].

سرُّ التَّعبير بالحساب في الآية:

عدالة الله تعالى، تقتضي أن يكون الحساب قبل العقاب

عبّر النّظم الجليل بالحساب دون الجزاء أو العقاب في قوله تبارك اسمه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾؛ وهو يعني هنا: "جزاء كلّ عامل بما عمل في الدّنيا والآخرة"[2]، فعبّر بالحساب للدّلالة على أنّ الجزاء لم يكن إلّا بعد حساب، فيكون ما ينتج عنه واقعًا على ما يقتضيه العدلُ، ولم يُعبِّر بالعقاب؛ لأنَّه نتيجةُ الحسابِ؛ فالتَّعقيب أنْ يأتي بشيء بعد آخر؛ لذلك كان الحسابُ أوَّلًا، ثُمَّ يأتي العقابُ بعدُ.

ومِنْ نكاتِ التَّعبير بالحساب دون العقاب: أنَّ الحسابَ في ذاته عقابٌ لهم على ما آذوا المؤمنين، وهم مستمرّون في غلوائهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾[3] [الغاشية: 21 - 26].

بلاغة الاحتباك في الآيةِ الكريمة:

الذِّكر والحذف في السّياقيْن، غايته المسرّة بالوعد، وامتداد الوعيد

في هذه الآية أسلوبُ احتباكٍ؛ حيثُ ذُكِرَ أوَّلًا الإراءة دليلًا على حذفِها ثانيًا، والوفاة ثانيًا دليلًا على حذفها أوَّلًا أو حذف ضدِّها[4]. فالمُلاحَظُ أنَّه صَرَّح في الأولى برؤية بعضِ ما يَعِدُهم؛ لأنَّ ذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3969.

(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 3/449.

أبْعَثُ على الاطمئنانِ وإدخال السُّرور عليه ﷺ، وحَذَفَها من الثّاني لوضوحِ فَهْمِها من ذِكْرِ المقابل ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وصَرّح في الثّاني بالوفاة؛ لأنَّها تفيد امتدادَ الوعيد وتسلية النَّبيّ ﷺ، وحَذَفَها مِنَ الأوَّل لوُضوحِ فَهْمِها مِنَ الإراءة في قوله تعالى: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾.

التّشابه اللّفظيّ في الآية:

بيان تخصيص كلّ آية بما فيها من حرفي العطف، ومن جواب الشّرط

تشابه قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ مع قوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: 77]، فلِمَ خُصّت كلّ آية بما فيها من حرفي العطف ومن جواب الشّرط؟ والجواب عن ذلك أن يُقال: يلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد مسبوقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فلمّا كان الحديث موصولًا مع الرّسول ﷺ؛ ناسبه العطف بالواو بقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، ولمّا كان الرّسول ﷺ يحزن لعدم قدرته على الإتيان بما يقترحونه من الآيات؛ لحرصه على إيمانهم؛ ناسبه أن يُسَرّي الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾.

أمّا الآية في سورة غافر؛ فهيَ تَبْدَأُ بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ [غافر: 77]؛ فلمّا كان ذلك سببًا لتَفْصيلِ الوعد؛ ناسبه العطفُ بالفاء بقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر: 77]، ولمّا كان السّياقُ أكثر تعلّقًا بترهيبِ الكافرين؛ ناسبَهُ قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: 77].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيّةُ:

الوفاة والموت:

الموت ضدّ الحياة، والوفاة استيفاء الأجل بتمامه

الموت من (مَوَتَ)؛ وهو دالٌّ على ذَهاب القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[1]، وهو ضِدُّ الحَياةِ[2]، وأمّا الوَفاةُ فهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام[3]، وهي المَنيةُ، والمَوْتُ، وتوُفي فُلانٌ وتَوَفّاه اللّه؛ إذا قَبَضَ نَفْسَه، وتَوَفي الميتِ: اسْتيفاءُ مُدَّتِه الَّتي وُفيتْ لَهُ وعَدَد أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنْيا[4]، وقد عبّر عنِ الموتِ بالتَّوَفّي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمر: 42]، ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السّجدة: 11][5]، فالإخبارُ في الآية بالوفاة ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ دليل على أنّ الوفاة تكون في الأجلِ التّامّ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(5) الرّاغب، المفردات: (وفى).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤١﴾ [الرّعد: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ في الآية السّابقة بأن يُريه بعضَ ما وعده من رؤيته عذابهم أو أن يتوفّاه قبل ذلك؛ بيّن في هذه الآية أنَّ آثارَ حصولِ تلكَ المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقَويتْ بذِكرِ تباشير إيقاع العذاب بهم، فطيّب نفسَ النّبيّ ﷺ بذِكْر تلك التّباشير[1].

بعد الإعلام بالمتوقّع الموعود به، يأتي الوقوع للعذاب بإرادة الله سريع الحساب

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَنقُصُهَا﴾: لفظةُ النَّقْصِ تدلُّ على خِلافِ الزّيادَة، يُقال: نَقَصَ الشَّيءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهو مَنْقوصٌ، والنَّقْصُ أيضًا: الخُسْرانُ في الحَظِّ، والنُّقصانُ: المصدَرُ، والنَّقيصَةُ: العَيبُ؛ يُقالُ: ما به نَقيصَةٌ؛ أيْ: شَيءٌ يَنْقُصُ، ومَرجِعُ البابِ كُلِّه إلى هذا[2]. والمقصود بالنَّقص في الآية: إزالة بَعض الشَّيء، والمُراد بانتقاص الأرْض: موتُ أشرافِها وكبرائها وذهابُ العلماء منها[3]؛ لِأنَّ النَّقْصَ لا يَكونُ في ذاتِ الأرضِ ولا يُرَى نَقْصٌ فيها، ولكنَّهُ يقعُ فيمَنْ عليها[4]، أو أنَّ معنى نقْصِ الأرضِ: أنْ يفتَحَ لأهل الإسلام ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فتَنْقُص دارُ الكُفّارِ، وتزيد دارُ الإسلام.

2) ﴿أَطْرَافِهَاۚ﴾: الطّاءُ والرّاءُ والفاءُ تدُلُّ تصريفاتُها على حَدِّ الشَّيْءِ وحَرْفِه[5]، والأطرافُ: جَمْعُ طَرَفٍ، وهو جانِبُ الشَّيءِ، يُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/64، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نقص).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/163، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/497.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).

أَصَبْتُ طَرَفًا مِن الشَّيءِ؛ أيْ: جانِبَهُ، وأطْراف الأرضِ: جَوانِبُها[1]، وطَرَفُ الشَّيْءِ: نِهايَتُهُ وآخِرُهُ؛ ومِنه سُمّيت الأصابِعُ ونَحْوُها مِن أعْضاءِ البَدَنِ أطْرافًا[2]؛ لأنَّها على جَوانِبِ الجَسَدِ، ويَأْتي الطَّرَفُ أيضًا بِمَعْنَى: النّاحية، تَقولُ: تَطَرَّفَ فُلانٌ: إذا تَباعَدَ إلى ناحيةٍ[3]، وطَرَفا الرَّجُلِ: لِسانُه وفَرْجُهُ، ويُطْلَقُ الطَّرَفُ على الطّائِفَةِ والمَجْموعَةِ، ومِنْهُ أطْرافُ الرَّجُلِ: وهم أقارِبُهُ[4]. والمقصود بالأطراف بالآية: جمع طرَف، وهو جانبُ الشَّيْءِ، والمُراد: أنَّ نقصَ الأطراف مِن الشَّيْءِ موصِّل إلى تَوْهينه وإزالته[5].

3) ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾: العَيْنُ والقافُ والباءُ تدور اشتقاقاتُها على مَعْنى تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقيبُهُ[6]، وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُه وولدُ وَلَدِه الباقونَ من بَعْدِه، والتَّعْقيبُ: أن يُؤتى بشيْءٍ بعدَ آخرَ، ويُطْلَقُ على انصرافكَ راجعًا من أمْرٍ أرَدْتَه، والمُعقِّبُ من يَكُرُّ على الشَّيء فيُبطلُه، وحقيقته: الّذي يعقب الشَّيء بالإبطال، ومنه يُسمَّى الّذي يطلبُ حقًّا من آخر مُعقِّبًا؛ لأنَّه يعقُب غريمَه ويتبعه للتَّقاضي[7]، والمُعقِّب: الَّذي أُغير عليه فحُرِبَ فأغارَ على الَّذي كانَ أغارَ عليه فاسترجعَ مالَه. وأمّا قَوْله ﷻ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾؛ فإنَّ الفرّاء قالَ: معناهُ لا رادّ لِحُكْمِهِ إذا حَكَم شيئًا، قالَ: والمُعقِّب: الَذي يكُرُّ على الشَّيء؛ ولا يكرُّ أحدٌ على ما أحكمه اللّه[8]، وهو المُراد بالآية.

4) ﴿لِحُكْمِهِۦۚ﴾: الحاءُ والكافُ والميمُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على مَعْنى المَنْعِ، وأوَّلُ ذلكَ: الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ[9]، والحُكْمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما إذا قَضَيْتَ، ويأْتي بِمَعْنى: الشَّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أحْكامٌ، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طرف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طرف).
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 3/846.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقب).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 2/66، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).

أتْقَنْتَهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[1]، والمُراد بالحُكم في الآية: القَضاءُ والفَصْلُ؛ أيْ: لا رادَّ لقضائه النّافذ الّذي لا يُردُّ، ولا يستطيع أحدٌ أن يُبطله[2].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

الله سُبحانَه يحكُمُ ويقضي، في خَلقِه بما يشاءُ، لا نقضَ لحُكمِه، ولا تغيير لكلماته

في هذه الآية يقولُ اللّه تعالى لنَبيه ﷺ: أوَلم يَنظُرِ الكُفّارُ أنّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلام؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهْرَهُم إيّاهم؟ واللّه هو الّذي يقضي في خَلقِه بما يشاءُ، ويُعاقِبُ مَن يشاءُ، ولا يُبطِلُ أحدٌ حُكمَه بردٍّ أو نقضٍ أو تغييرٍ، فما حكَمَ اللّه به من العِقابِ لا يُبطِلُه أحدٌ، وهو واقِعٌ ولو تأخَّرَ، واللّه سريعٌ مجيءُ حسابِه، ومجازاتِه لعبادِه، وهو واقعٌ لا محالةَ، لا يدفعُه دافِعٌ، فلا يَستَعجل أحدٌ منهم بالعذابِ؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة عطف هذه الآية على ما قبلها:

بشائر النّصر تلوح، بعد الإبلاغ والتّهديد

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾، على تقديرٍ يقتضيهِ المقامُ؛ أيْ: أأنكروا نزولَ ما وعدناهم؟ أو: أشَكّوا؟ أو: ألم ينظروا في ذلك؟ أو: ألم يروا ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾؟[4]، والغرض من عطف الجملة إنذار المكذّبين بأنّ ملامح نصر اللّه تعالى لنبيّه ﷺ قد لاحت وبانت، فكان تعقيب

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).

(2) الغزنويّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/756، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/118.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/580، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 420.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/173.

الجملة المعطوف عليها بهذه الجملة يُفيد الاحتراسَ من أن يتوهّموا أنّ العقابَ بطيءٌ وغيرُ واقعٍ بهم.

بلاغة تعقيب هذه الآية بما سبقها:

الاحتراسُ من استبطاءِ رُؤيةِ نَصْرِ الله تعالى

عقّب النّظمُ الكريم الآيةَ السّابقة المُخبِرة عنِ الوعيدِ بقوله تبارك اسمه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ احتراسًا من أن يتوهّموا أنّ العقابَ بطيءٌ وغيرُ واقعٍ بهم، وفيها كذلك بِشارة للنّبيّ ﷺ بأنّه سيُدرِكُ نصرَ اللّه تعالى له في حَياته؛ فقد جاءت أشْراطُه، كما أنّ فيها احتراسًا مِنَ اليأسِ بِاسْتِبْطاءِ رُؤية نَصْرِ اللّه تعالى لِدينِهِ الحقِّ[1].

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمۡ﴾:

إنكارُ شكِّ الكفّار في وقوع العذابِ بِهِمْ

جاءَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ لإنكار الوقوع بمعنى النَّفْيِ، ونَفْيُ النَّفي إثباتٌ؛ لأنَّ الاستفهامَ داخِلٌ على (لم)، ويكون الغرض منه الرَّدُّ على شكّهم في إيقاع العذاب بهم؛ أيْ: "أأنكروا نزول ما وعدناهُم؟ أو أشكّوا؟ أو: ألم يَنْظُروا في ذلك؟ أولم يروا أنّا نأتي الأرض؟"[2]، فلمّا لم يكن ثَمّ تغيير في تَعَنُّتِهم ولُبْثِهِم في الكُفْرِ؛ دلَّ ذلك على أنّهم لم يأخذوا الوعيد مَأْخَذًا جادًّا، فأنكر عليهم ذلك بِذِكْرِ ملامِحِ دُنوِّ العذابِ مِنْهُم.

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

تأكيد تحقّق تباشير النّصر

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ عبّر النَّظْمُ بالرُّؤْيَة، وهي محتملة أن تكون بصريّةً، والمعنى: أوَلَم يروا أنّا نُحْدِثُ في الدُّنيا مِنَ الاختلافاتِ الخرابَ بعدَ العَمار، والموتَ بعد الحياةِ، والنَّقْصَ بعدَ الكمالِ؟ وهذه تغيّرات مُدْرَكَةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170 - 171.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27 - 28.

بالحِسِّ؛ أيْ: أنَّهم رأوا بأعينِهم آثار ذلك النَّقص[1]، ويجوز أن تكون عِلميّةً، والمعنى: ألَم يَعْمَلوا ما حلَّ بأرضِ الأمم السّابقة مِن نقص[2]، وبأرْضِهم بما بَلَغَهُم مِن أخبارٍ؟ وقد عبّر بالرّؤية لبيان أنَّ نُقْصانَ الأرض قد حَدث وأنّهم عرفوه وبلَغهُم، فهو بحيث أنْ يُرى ويُشاهَد ويُعلم، ففيه تأكيدٌ لوقوعِ تباشيرِ النَّصرِ.

دِلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَنَّا﴾:

تعظيمُ الإتيانِ وتأكيدُه، أنسَبُ في مقامِ الإنكارِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ جاء المُسنَدُ إليه ضميرًا بصيغَةِ التَّعظيم؛ أيْ: أنّا نأتي الأرضَ بما لنا مِنَ العَظَمَةِ[3]، كما أنَّ التَّعبير بـ (أنّ) مفتوحةَ الهمزةِ دالٌّ على تأويلها بمصدرٍ تقديرُه: ألَم يَرَوْا إتْيانَنا الأرضَ نَنْقُصُها، وإنّما عبّر بالجُملة الاسميّةِ المُصدّرة بحرفِ التَّأكيدِ دونَ المصدرِ المُفرد للدّلالة على تأكيد مَضْمونِ الجملة وتقويةِ الخبَر، وهذا التّأكيدُ يُناسِبُ غرضَ الإنكار من الاستفهام.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تحوُّلُ الأرضِ إلى دار الإسلام، بالإتيان إليها فحسب

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ عبّر النّظمُ عن أخْذِ أرض الكفّار وتحوّلها إلى دار الإيمان بالإتيان؛ لِما في ذلك من جمالٍ وقوّة في التَّعْبيرِ، فالإتْيانُ يدلُّ على الحضور، فعبّر به عن أخذ أرضهم وتحوّلها إلى دار الإسلام للدّلالة على قوّة الأخذ، ففي لفظ الإتيان المُؤذِن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم من الفخامة ما لا يخفى، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23][4]، كما أنّ فيه دلالةً على سهولة أخْذِ تلك الأرض، فهي تحوّلت إلى دار إيمانٍ بمجرّد الإتيان،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/173.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

ففيهِ تعبير عن القوّةِ ونفاذ الأمر، وأنْ لا منازعَ في نَشْرِ هذا الدّين، ولا تَحول دونَه قوّةٌ.

دِلالة التَّعبير بالْمُضارِع ﴿نَأۡتِي﴾:

تـوسُّـع دائـرة الحقِّ لا تَتوقّف، لأنّ الحقّ ظاهر لا محالة

عبّر النّظمُ الكريمُ بالفِعْلِ المضارع ﴿نَأۡتِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعبيرًا عن تجدُّد ذلك واستمرارِه، فإنَّ مجيء المؤمنين بالتّمكّن من أرض المشركين دائمٌ لا يتوقّف في وقت نزولِ الآيات، كما أنَّ فيه تصويرًا للحالِ باستجلابِ الصّورة، لا سيّما وأنّه قد ذكَر الرّؤيةَ، فَقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾.

دِلالة التَّعريفِ بـ (ال) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

الـنّـقـصـانُ في أرضِ الأقـوامِ، سنّة ربّانية باقية على الدّوام

أدخل النّظمُ الكريم لامَ التّعْريفِ على الأرضِ في قوله تبارك اسمه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾؛ للدّلالة عَلى العَهْدِ، فالمُرادُ مِنَ الأرضِ أرضُ الكفرة[1]، وهي الأرض الّتي تحتَ سلطانهم ونفوذهم، ويكون ذلك إيقاظًا لهم لما اسْتَوْلى عليهِ المسلمون من أرض العدوِّ فخرجت عن سُلطانه، فتنقُص الأرضُ الّتي كانت في تَصرُّفهم وتزيد أرض الإسلام[2]، ويَحْتَمِل أن تكون اللّامُ لامَ الجنس، والمعنى "نأتي أيّةَ أرضٍ مِن أرضِ الأُمَم"[3]، فيكون إتيان أراضيهم حقيقة راسخة سائرة في كلّ زمان، فليس الإتيان بذلك الوصف مقتصرًا على أرضهم.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

ذكرَ المكان، وأراد أهـلـه، في إطار التّصوير المجازيّ

أطلق النّظمُ الجليل لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ على سكّانها وأهلها مجازًا، فذكر المحلّ وأراد الحالَّ به، كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.

[يوسف: 82] "بقرينة تعلّق النّقص بها؛ لأنّ النّقص لا يكون في ذات الأرض، ولا يُرى نقصٌ فيها، ولكنّه يقع فيمَن عليها"[1].

دلالة الإسناد في قوله: ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾:

أُسند إتيان الأرض إلى الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾، للدّلالة على أنّ الله تعالى مع جيش المسلمين الّذي يأتي الأرضَ الّتي يلتقي المسلمون فيها أهلَ الشِّرك، فَيَنْتَقُصها ويأخذها جزءًا جُزءًا مِن دائرة الكفر إلى أرض الإسلام[2].

الله تعالى مع عباده المسلمين، يأتي الأرضَ معهم، بنصرهم وتمكينهم

سِرُّ التَّعبير في قوله: ﴿نَنقُصُهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ للدّلالة على الأخذ من أرضِ المشركين بحيث تكون أقلّ، وينقص من نفوسهم بالتّدريج، فالنّقص هو الأخذ من جملة الشّيء فيكون أقلّ[3]، وذلك "بأنْ نفتحَها على المسلمين شيئًا فشيئًا، ونُلحقَها بدار الإسلام، ونُذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء. ومثلُه قوله عزَّ سلطانُه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الأنبياء: 44]"[4].

زوال الأرض من الكافرين، نقصانٌ في شأنهم، وتهوين من قدرهم

وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير بالنَّقص أنَّ المُراد ما يطرأ عليها من تَغْيِيرٍ وتبديلٍ، وما يُصيب النّاس في أرزاقِهم وأعمارهم، وإذا كان الّذي يَحْدُث في الأرض من نقصٍ عند أهلَ الكُفْرِ يحدث إزاءَه ما يقابله من زيادة؛ فَلِماذا آثر التَّعبير بالنَّقص؟ والجواب عن ذلك: أنَّه آثرَهُ لأنَّه أراد الإلْفاتَ إليه؛ لأنَّ النَّقصَ هو الّذي يهتَمُّ له الإنسان أكثر من اهتمامهِ بالزّيادة، ولأنَّ المقامَ هنا مقامُ تهديدٍ، فناسبه التَّعبير بالنَّقص.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3970.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

دِلالة التَّعبير بالمضارعِ ﴿نَنقُصُهَا﴾:

نقصان أرض أهل الباطِل الزّاهق، وعدٌ من الله للمؤمنين، في كلّ حين

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿نَنقُصُهَا﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ تعبيرًا عن تجدّد نقصان أطرافها من حولهم، واستمرار فَقْدِهم القرى الّتي توافقهم بالشّرك ومعاداة الإسلام؛ بأنْ آلَت إلى حكم المسلمين، وأنَّ ذلك ظاهرة مستمرّة، والمعنى "يفتح اللّه على المسلمين ممّا يَزيدُ به في أرضِ أهل الإسلامِ بِقَتْلِ بعضِ الكفّار، واستسلام البعض حتّى يبيد أهلُها، على حسب ما نعلمه حكمة من تَدْبيرِ الأمور وتقليبها حالًا إلى حالٍ حتّى تنتهيَ إلى مستقرّها بعد الحسابِ"[1].

دلالة ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾:

الشّروع بالنّقصان، بدأ مِن تلك الأطراف

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾، جاء حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ الابتدائيّة؛ للدّلالة على أنّ الشّروعَ بالإتيان كان من بداية تلك الأطراف والحدود، وفي ذلك دِلالة على أنَّ النّقصان بدأ من هناك، ولكنّه لا يتوقّف، بما دلّ عليه الفعلُ المضارعُ (ننقص).

سِرُّ التَّعبير بلفظ (الأطرافِ):

الأطرافُ منتهى ما في حوزتهم مِنَ الأرض

آثَرَ النَّظمُ الكريم التّعبيرَ بالأطرافِ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ دون النّواحي؛ لأنّ "الطّرف المنتهى، وهو موضعٌ مِنَ الشّيء ليس وراءه منه شيءٌ"[2]، فالمُرادُ بيانُ نقصانِ الأرض الّتي هي لَهُم؛ أيْ: حيثُ ينتهي وجودُهم، أمّا النّواحي فَهي تدلُّ على مختلف اتِّجاهاتها فيكون بلا تحديدٍ، أمّا الأطراف فَهي دليلٌ على الحدود الّتي عهدوها، فيكون الإخبار بنقصانها بهذا الوصف أوقعَ في أنفسهم ممّا لو أخبر بأنّ نقصانها كائنٌ مِنْ كُلِّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/365.

النّواحي، إذِ النّواحي لا تقتضي القربَ والحدودَ. وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالأطراف أنَّ نُقصانها يُتوصَّل به إلى توهينها وإزالتها[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾:

تأخيرُ الوعيدِ لا يدُلُّ على بطلانه، فالله يُمهل ولا يُهمل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ عاطفة، حيث عطفت هذه الجملة على قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، والغرض من ذلك التَّأكيد على المقصود منها، وهو الاستدلالُ على أنَّ تأخيرَ الوعيدِ لا يدُلُّ على بطلانه[2].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسْمية ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾:

حكمُ الله تعالى في خلقه وملكوته، ثابتٌ مؤكّدٌ لا ريب فيه

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ اسميّة دالّة على تأكيد مضمونها لدِلالَتِها على ثبوت المعنى ورسوخِه، وقد جيء بها للاعتراض تأكيدًا لمضمون الكلام السّابِق[3]، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا﴾ حُكمٌ وقضاء منه، فالتّعبير عن كون الله تعالى يَحْكُمُ: يدلُّ على تأكيدِ ذَلِكَ.

سِرُّ التَّعبير بالإظهار دون الإضمار:

ورود اسم الجلالة، غرضه خَلْعُ المهابةِ والجلالة، على حُكْمِهِ تَعالى

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسْمِ الظّاهر في قوله تبارك اسمه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ دون الضّمير الّذي جاء في صَدْرِ الآية؛ لتربيةِ المهابة والتَّذكير بما يَحْتَوي عليهِ الاسْمُ العظيمُ مِن معنى الإلهيَّة والوحدانيَّة المقتضية عدمَ المنازع، ولتكون الجملة مستقلَّة بنفسها؛ لأنَّها بمنزلة الحكمة والمثل[4].

بلاغة الالتفات في الآية:

أعظم العظمة ما عبّر عنه بالاسم الأعظم (الله)

في الآية التفاتٌ مِنَ التّكلّم إلى الغَيبة، وذلك بحسَبِ ما يقتضيه الاسمُ الظّاهرُ مِنَ الدّلالة على الغَيبة لتعظيم إثباتِ الحُكم لنفسه ﷻ، فقد "أثبت لنفسِهِ تعالى أمرًا كُليًّا يندرجُ ذلك فيه، فقال لافتًا الكلامَ

(1) الرّاغب، المُفردات: (طرف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/172.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/172.

مِن أسلوبِ التَّكلُّم بالعظمةِ إلى الغَيبة هي أعظَمُ العظَمَةِ بالاسْمِ الأعظم: ﴿وَٱللَّهُ﴾"[1]، كما أنَّ في ذلك مِنَ الفَخامةِ أعلاها بافْتِتاحِ الجُمْلَةِ بالاسْمِ الأحسَنِ الدّالّ على الإلهيَّة المناسبة للإخْبارِ عَنِ الحُكْم.

دلالة كون المُسنَد فِعْلًا في ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾:

حكمُ الله تعالى دائمٌ مُتجدّد، لا يجري عليه الزّمانُ

جاء المُسنَدُ فعلًا مضارعًا ﴿يَحۡكُمُ﴾ ضِمْنَ الجملة الاسميّة مُخبرًا به عن المبتدأ وهو الاسمُ الأحسن (اللّه) للدّلالة على تجدُّدِ الحكم ودوامه، وأنّه لا ينقَطِعُ بمرّ الزّمان، فيكون الثّبوت في الجملة الاسميّةِ دائمًا متجدّدًا.

دلالة حذف متعلّق الحكم في الآية:

حُكم الله بالعزّة لأتباع النّبيّ الخاتم، وبالدّحر لأعدائه

حُذف متعلّق الحُكم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾؛ لإفادَةِ العموم وتَشْويقِ النُّفوسِ، والمُرادُ: يَحْكُمُ ما يشاءُ كَما يشاء؛ فقد حكم لأتباعِكَ بالعِزِّ والسّيادة وعلى أعدائك بالقَهْرِ والإذلالِ، وهذا ما تَحَقَّق في عَهْدِ النَّبي ﷺ والخلفاء من بعدِه لِحُسْنِ علاقَتِهم باللّه ربِّ العالمين.

بلاغة موقع جملة ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾:

حكمُ الله تعالى نافِذٌ لا يُرَدّ

الجملة في قوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ تعليليّة؛ بيّنت علّةَ الحكم السّابق، فاللّه تعالى يَحْكُمُ ما يُريد؛ لأنَّهُ لا رادَّ لِحُكْمِه ولا مُعَقِّب[2]، فَهي اعتراضٌ "لبيانِ عُلوِّ شأن حُكمه ﷻ، وقيل: نصبٌ على الحاليّة؛ كأنّه قيل: واللّه يحكمُ نافذًا حُكمُه، كما تقول: جاء زيدٌ لا عمامةٌ على رأسِه؛ أيْ: حاسِرًا"[3]، وأفاد الحالُ تقييدَ الحُكم بِكَوْنِه لا معقّب لحُكمه؛ إذْ لا يَخْفى أنَّ اللّه تعالى هو الحاكمُ ﷻ، فجيءَ بالحالِ لِبَيانِ انْتِفاءِ عوارضِ نفاذ حُكْمِه.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/365.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/365.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

دلالة نفي التَّعقيب في الآية:

لا رادّ لحكم الله سُبحانه، ولا مُعقّب لحُكمه

نفى النَّظْمُ الكريم وجود المُعقّب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ لأنّ المُعقِّب هو "مَن يَكُرُّ على الشّيء فيُبطله، وحقيقتُه: مَن يعقّبه ويُقفّيه بالرَّدِّ والإبطال"[1]، فليس لأفعالِ اللّه تعالى وأحكامه من معقّب يُبطلها أو يردّ عليها؛ فهو الإلهُ الحقّ الواحِدُ. فجملةُ لا معقِّب لِحُكْمِه في موضع الحال، وهي المقيِّدة للفعل المُراد؛ إذْ هي مصَبّ الكلام؛ فليسَ الغرضُ الإعلامَ بأنَّ اللّه يَحْكُمُ، بلِ التَّنبيه على أنَّه لا معقِّب لحُكمِه.

دلالة النَّفي بالحرف ﴿لَا﴾ في الآية:

عرض السّياق، نفي مطلق، لأيّ معقّب على الله

جاء التَّعبير القرآني باستعمال ﴿لَا﴾ النّافية للجنس في قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ للدّلالة على نفي جنس المعقِّب انتفاء كُلِّ ما من شأنه أن يكون معقِّبًا من شريكٍ أو شفيعٍ أو داعٍ أو راغبٍ؛ فالغرَضُ هو نفيُ المُعقّب على حُكْم اللّه مُطلقًا[2].

دِلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

سُرعة الحسابِ، دليلٌ على نفاذِ الحكم

الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ معطوفة على الجملة في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ فهي دليلٌ آخَرُ "على أنَّ وعدَهُ واقع، وأنَّ تأخّره وإن طالَ، فما هو إلّا سريعٌ باعتبار تحقّق وقوعه"[3]، فعطف السّرعة في الحساب على الإخبار بكونه حاكمًا ﷻ للدّلالة على سُرعة نفاذ حُكمه؛ فهوَ سُبحانَهُ لا يشغله شأن عَن شأن، ولا حساب أحدٍ عن أحدٍ؛ لأنَّه بِقُدْرَتِه قيّومٌ على كل شيء.

دلالة ختام الآية:

حُكمُ الله تعالى، يقَعُ بلا تأخيرٍ، على قاعدة (كُنْ فيكون)

جاءَ في خِتام الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وهي عبارةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.

عن سُرعة الجزاء، وأنّه يقعُ بلا تأخيرٍ، والإخبارُ عَن ذلك بعدَ ذِكْرِ نُقصان الأرض الدّالّ على الشّروع بإنزال العذاب بهم؛ للدّلالة على أنَّ وعْدَ اللّه تعالى مُنْجَزٌ لا يتأخّر وإن ظنّوه كذلك، فهو "يُعدُّ لكلِّ عملٍ جزاءَه على ما تقتضيهِ الحكمةُ من عَدْلٍ أو فضل حين صدورِه، لا يحتاج إلى زمان ينظر فيه ما جزاؤه؟ ولا: هل عمل أو لا؟ لأنّه لا تخفى عليه خافية"(1)، فالعبارة تدلّ على سُنّة من سُنَنِ اللّه تعالى، وقاعدة كلّيّة في حسابِهِ وجزائه، بأنّه واقع لا محالةَ مع سُرعة نفاذه.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الحكم والقضاء:

القضاء الفصل بـين الـنّـاس، والحـكـم إقامة العدل

القضاء: إحْكامُ الأمْر وإتْقانه وإنْفاذه لِجِهَتِهِ، قالَ تَعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصّلت: 12]؛ أي: أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ جلَّ شأنُه: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصْنَعْ واحْكُم، ولِذَلِكَ سُمّي القاضي قاضيا؛ لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الأَحْكامَ ويُنْفِذُها(2)، وهو فصلُ الأمر قولًا كان ذلك أو فعلًا، كقوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أَيْ: أمَرَ بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]، فهذا قضاءٌ بالإعلام والفصل في الحكم؛ أَيْ: أعْلَمْناهُم وأوحينا إليهم(3)، والحُكم: المَنْعُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْم(4)، والحُكْم بالشَّيء: أن تَقْضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا(5)، وعلى هذا فالحُكم أعمُّ مِنَ القضاء؛ لأنَّه يَحْمل معنى الإلزام ويدُلُّ على فَصْلِ الأمر قولًا كان أو فعلًا؛ بخلاف القضاء؛ فلا يوجِبُ الإلزامَ.

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/365.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(5) الرّاغب، المفردات: (حكم).

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرّعد: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط التّهديد بالتّضييق على الكافرين، وذلك بالفتح للمؤمنين، ليعلم الكفّار لِمَن عقبى الدّار

لمّا تقدّم التّهديدُ والإنذار في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾، وهو إنذارٌ لأنّهم يطلبون الآيات مع إضمارِهم التّصميم على التّكذيب والاستمرار عليه، فشبّه عملهم ذلك بالمكر، ويكون نَقص أرضِهم من أطرافها من مكر اللّه تعالى بهم جزاءً على مكرهم، فَلذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أيْ: كما يمكر هؤلاء[1]، فلمّا ذكر أنّ أرضهم في نقصان وأنّهم إلى زوال؛ بيّن أنّ ذلك أمرٌ معهودٌ، فَمَكْرُ الأممِ سابِقٌ مسطور في التّاريخ، فهو تمثيلٌ على التّهديد والإنذارِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَرَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ تدلُّ على الِاحْتيالِ والخِداعِ[2]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[3]، قال الجُرجانيّ: المكرُ: هو إيصالُ المَكروهِ إلى الإنسانِ من حيثُ لا يَشعُرُ[4]، وأمّا السُّيوطيُّ فقال: ما يَقصِدُ فاعِلُه في باطِنِه خِلافَ ما يقتضيه ظاهِرُه[5]، وهو على ضربيْن:

أحدهما: مَكْرٌ محمودٌ، وذلك أن يُتحرَّى بذلك فِعلٌ جميل، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكر).
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 227.
(5) السّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم، ص: 207.

والآخر: مذمومٌ؛ وهو أن يتحرَّى به فِعل قبيحٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، وقال بعضُهم: مِنْ مَكْرِ اللّه إمهالُ العَبد وتمكينه من أعراض الدُّنيا؛ ولذلك قال عليٌّ ﵁: مَن وُسّع عليه في دنياه ولم يعلم أنّه مُكِرَ به؛ فهو مخدوعٌ عن عقله[1]، والمقصود بالمَكْر في الآية: صَرفُ الغيرِ عمّا يقصِدُه بحيلةٍ.

والمُراد: أنَّ اللّه تعالى أَقْوَى منهم عند إرادةِ مُقابلةِ مَكْرِهم بِخِذْلانه تعالى إياهُم[2].

2) ﴿تَكْسِبُ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، يُقالُ: كَسبتُ الشَّيءَ: أي: طَلبتُهُ، ومنه سُمّي طلبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[3]، والكَسْبُ يُقال فيما أَخَذه لنفسه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدتَه لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[4]، ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيء المكتسب، وجمعه: مكاسب. ويُطلَق أيضًا على الجَرْح؛ أيْ: فِعل الشَّيء بالجارحة، والكواسِبُ: الجوارحُ مِن الإنسان والطَّير[5]، والمقصود بالكَسْبِ في الآية: ما يعمله الإنسانُ باختياره لجلبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ.

3) ﴿نَفْسٍۭ﴾: النّون والفاءُ والسّينُ تدلُّ تصريفاتُها على خُروجِ النَّسيمِ كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أَوْ غَيْرِها، وإليهِ يَرْجِعُ فُروعُهُ، مِنْهُ التَّنَفُّسُ؛ وهو خُروجُ النَّسيمِ مِنَ الجَوْفِ، ونَفَّسَ اللّه كُرْبَتَهُ؛ وذلكَ أنَّ في خُروجِ النَّسيمِ رَوْحًا وراحَةً، والنَّفَسُ: كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنْ مَكْروبٍ[6]، والنَّفْسُ في كلام العرب على وجهَيْن: أحدهما قولك: خرَجتْ نفسُ فلانٍ؛ أيْ: روحه. والآخرُ: أنَّ معنى النَّفْسِ حقيقةُ الشَّيء وجملته؛ يُقالُ: قتَلَ فلانٌ نفسَه[7]، ويُطْلَقُ النَّفْسُ على الدَّمِ؛ لأنَّهُ أساسُ الحَياةِ، أو لأنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِه، يُقالُ: سالَتْ نَفْسُهُ؛ أيْ: دَمُهُ[8]، وتأْتي بِمعنى العَيْن، فيُقال: أصابَتْ فُلانًا نَفْسٌ؛ أيْ: عَيْنٌ، ونَفْسُ الشَّيْءِ: عَيْنُهُ[9]، والمقصود بالنَّفس في الآية: الذّاتُ والشَّخْصُ.

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (مكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (مكر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/256.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نفس).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).

❁ المَعنى الإجْماليّ:

تهديد المشركين، وتقوية عزيمة رسول الله ﷺ

لقد زادَ اللّه ﷻ في تسلية رسوله ﷺ وفي تثبيت فؤاده، فذكر أنَّهُ قَد مكرَ الّذين مِن قَبلِ مُشركي العرَب؛ كقوم عادٍ وثمود وقوم شعيب وإخوان لوطٍ برُسُلِهم، وكفروا بهم وكادوا لهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللّه بهم، وانتَقم منهم، وجعَل العاقبةَ لِعبادِه المتَّقينَ،فللّه المكرُ كُلُّه؛ لأنَّ أسبابَ المَكرِ بيدِه، ومكْرُ الكفّارِ مخلوقٌ لا يضُرُّ إلّا بعد إذنِه، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُريشٍ يمكُرونَ بك يا نبيَّنا، واللّه مُنَجّيك مِن مَكرِهم، ومُلحِقٌ ضرَّ مَكرِهم بهم دونَك، يعلَمُ اللّه ما تعمَلُ كُلُّ نَفسٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على جميعِ أعمالِها؛ الظّاهرةِ والباطنةِ، ومِن ذلك عِلمُه بما يعمَلُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك - يا أيُّها الرَّسولُ - وما يَسْعَون فيه مِن المَكرِ بك، وسيَعلَمُ الكُفّارُ يومَ القيامةِ لِمَن تكونُ عاقبةُ الدّارِ الآخرةِ حينَ يَدْخلون النّارَ، ويدخلُ المؤمنونَ الجنّةَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ﴾:

طبيعة المكذّبين واحـدة، على اختلاف المواقف والأزمنة

افتتح النّظمُ الكريم قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف[2]؛ لبيان أنّ شأنهم ليس إلّا كشأن مَن قبلهم، وأنّه كما انتفت فائدةُ مَكرِ السّابقين؛ فإنَّ مَكْرَ هؤلاء ليس بنافِعِهم، وقد ذكَرَ القرآنُ الكريم هذا الخبر للمشركين؛ لبَيانِ أنّهم لن يضيروا النّبيَّ ﷺ وأصحابه، بدليل أنّ مكر السّابقين ومحاولتهم فتنة المؤمنين لم تُؤثِّر في تحويلهم عن دينهم الّذي ارتضوه، وفيه دِلالة على بطلان مكرهم، فهو كالهباء المنثور.

(1) ابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 2/360، والواحديّ، الوجيز، ص: 576، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/29.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/149.

دلالة ﴿وَقَدۡ﴾، مع الماضي ﴿مَكَرَ﴾:

مكر الكفّار مع الأنبياء، مؤكّد الوقوع، محقَّق التّكرار

أدخل النّظمُ الكريم حرفَ التّحقيق (قد) على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تأكيدًا لتحقيق المكر؛ لأنّه قد يُنكِر سليمُ الدّين والاعتقاد أن يتجرّأ أحدٌ ما على المكر على الأنبياء المؤيَّدين بالبرهان، فأكّد أنّ المكر قد وقع من الأقوام الّذين قبلهم وماثَلوهم بالكفر؛ فكان مكرهم وبالًا عليهم، وطوى القرآنُ في هذه الجملة مكرَ الكافرين الّذي ألفوه في الكيد لرسول اللّه ﷺ ولأصحابه؛ لأنّه كان سببًا لرفعة الإسلام وأهله، بنصرة اللّه لنبيّه وللمؤمنين.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾:

الاحتيال للصّرف عن المقصد، يُعبّر عنه بالمكر

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾، عبّر بالمكر وهو: الصّرفُ عن المقصد بحيلة[1]، فكأنّهم يصرفون أنفسهم وغيرهم بحيلة الجدل والكذب، فشبّه تصميمهم على التّكذيب رغم الوعيد بالمكر، فمكروا كما مكر مَن كان مِن قبلهم "وفي هذا التشبيه رمز إلى أنّ عاقبتهم كعاقبة الأمم الّتي عرفوها. فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر اللّه بهم جزاء مكرهم"[2].

سرّ التّعبير في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

عهد السّابقين قريب نسبيًّا، وليس متوغّلًا في القِدم

عبّر النّظمُ الكريم عن الأمم السّابقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ولم يَقُل: (وقد مكر السّابقون)؛ لأنّه أراد أن يُبيّن أنّ الّذين فعلوا ذلك كانوا على عهد قريب من نبوَّته ﷺ؛ كما فعل اليهودُ في المدينة النَّبويَّةِ من المكرِ برسول اللّه ﷺ والمسلمين، وصور ذلك واضحة لا تحتاج إلى تفصيل، ويكفي أن نذكر منها ما فعله بنو النَّضير وبنو قَيْنُقاع، وكان العقاب لهم بمكر اللّه تعالى أن

(1) الرّاغب، المفردات: (مكر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.

أجْلاهُم عنِ المدينة وطردهم منها، وكما فعل النَّصارى في أطراف الجزيرة العربيَّة، وحروب الرّوم ليست ببعيدة عنّا.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ مَن مكروا، لم ينفعهم مكرهم شيئًا

أوجز النّظمُ الكريم العبارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فحذف ما تقديره: (فلا عبرة بمكرهم)؛ لأنّ المكر للّه تعالى جميعًا، والمعنى: قد مكر الكفّار الّذين خَلَوا من قبلِ كفّارِ مكّةَ بأنبيائهم والمؤمنين، كما مكر هؤلاءِ، فَطوى في هذه الجملة بيانَ مكرِهم الّذي اجتمعوا عليه[1]، ومآل ذلك المَكْر، وهذا الخبر "تسليةٌ لرسول اللّه ﷺ، بأنّه لا عبرةَ بمَكْرهم ولا تأثير، بل لا وجود له في الحقيقةِ ولم يصرّح بذلك؛ اكتفاءً بدلالة القصرِ المُستفادِ من تعليله أعني قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾"[2].

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾:

التّدبير كلّه بيد الله تعالى، ومَن أسلم له أمره كفاه

افتتح النّظم الكريمُ الجملةَ في قوله تبارك اسمه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ بالفاء الدّالّة على التّعليل؛ لبيان علّة انتفاءِ تأثير مكرهم بدعوة الحقّ، وذلك أنّ التّدبير كلّه بيدِ اللّه تعالى، فلمّا "كان ذلك كذلك، تسبَّب عنه أن يُقال: ﴿فَلِلَّهِ﴾؛ أي: الملكِ الأعظم المحيط علمُه وقُدرته خاصّةً"[3].

سِرُّ التقديم في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾:

اختصاص المَكْر به جلّ شأنه، بما يليق بكماله وقهره

قدّم النّظمُ الجليل المُسنَدَ من الجارِّ والمجرور ﴿فَلِلَّهِ﴾ على المُسنَد إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للدّلالة على اختصاص المَكر به جلّ شأنه، فجِنْسُ المكرِ جميعُه للّه تعالى، و"لا وجودَ لمكرهم أصلًا؛ إذْ هو عبارةٌ عن إيصال المكروهِ إلى الغير من حيث لا يشعُر

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/366.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/366.

به، ولمّا كان جميعُ ما يأتون وما يذرون بعلم اللّه تعالى وقُدرته، وإنّما لهم مجرّدُ الكسب من غير فعلٍ ولا تأثير"[1]؛ لذلك كان مَكْرُ جميع الكافرين لا وزن له؛ لأنّه حاصلٌ بتخليق اللّه لَهُ وإرادته؛ فلا يضُرُّ إلّا بإذنه ولا يُؤثِّر إلّا بتقديره، وفيه إشارةٌ لتسليَةِ النبيِّ ﷺ وتثبيت فؤاده بأنَّ مكرَهم لا أثر له؛ لذلكَ لا يكون الخوفُ إلّا مِنَ اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير باسْمِ الجلالة ﴿فَلِلَّهِ﴾:

لفظ الجلالة يجمع كلّ صفات الجمال والجلال والكمال

عبَّر القرآنُ الكريم بالاسْمِ الأحسَنِ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ﴾؛ لتربيةِ المهابة في القلوب، ولزيادة التّعظيم؛ لأنّ الاسمَ الأحسَنَ يجمع كلَّ صفاتِ الجمال والجلال والكمال؛ فأمْرُ المكرِ مندرجٌ تحت هذه الصّفات؛ لذلكَ كان التّعبيرُ يحمِلُ طَمْأنَةَ رسولِ اللّه ﷺ من مكر الماكرين مِنَ المشركينَ.

سِرُّ الإسناد في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ﴾:

المكر بين الحقيقة والمجاز، مفصحٌ عن المعنى في السّياق

إنَّ إسنادَ المكرِ إلى اللّه تعالى يجوز أن يكون على الحقيقة، والمُراد به تدبيرُ اللّه تعالى ما يسوء به الكافرين باستدراجهم بنعَمِه وما أعدَّ لهم من نقمة بعدها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: 44].

ويحْتَمِلُ لغويًّا أن يكون على المجاز من باب ذِكْر السّبب، وأراد ما يتسبَّب عنه من العقوبة، ويكون المعنى: فللّه جزاء المكر جميعًا، ويكون هذا الإطلاق من باب الاستعارة أو المشاكلة؛ لأنّ فعله جاء بمقابل فعلهم وردًّا عليهم، فلمّا كان فعلهم مكرًا سُمّي فعله الموضوع إزاءه مكرًا؛ "لأنّه ناشئ عن مكرهم جزاءً لهم"[2]، وعلى هذا يكون إسناد المَكْر إلى اللّه تعالى من باب تسمية العقوبة باسم الذَّنب الّذي وقعت عليه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

40]. والمُتعيِّنُ هوَ الأوَّلُ وهو أنَّ إسنادَ المَكرِ للّه تعالى حقيقةٌ، والقولُ بالاستعارَةِ أوِ المشاكلَةِ لا يجري على عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ أصحابِ الحديثِ، بل هو مصادِمٌ لَها، مخالفٌ لإجماعِ أهلها.

بلاغة القصر في الآية الكريمة:

قصْرُ المَكْر على اللّه تعالى، لتنزيل مَكْر غيره منزلة العدم

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ قَصْرٌ بالتّقديم والتّأخير، فقدّم الخبر على المبتدأ، فجعل المَكْرَ مقصورًا على اللّه تعالى، والغرض من ذلك تقوية مضمون الجملة، فلا مكرَ على وجه الحقيقة إلّا للّه تعالى؛ لأنّ مكرَ غيرِه كالمعدوم، لِعَدَمِ قُدْرَتِهم على تنفيذه إلّا أن يشاء اللّه تَعالى وقوعَه، وهو قصرٌ إضافي؛ إذ إنّ المكر يزاوله النّاسُ أيضًا، و"إنّما جعل جميع المكر للّه بتنزيلِ مكر غيره منزلةَ العَدَم"[1]، وهو قصر صفة على موصوف، فصفة المَكْر مقصورة على اللّه تعالى، وقد دلّ هذا القصر على أنّ مَكْر الكافرين لا اعتداد به ولا ثمرة له في تحقيق غايتهم؛ لأنّ اللّه مُذهبٌ كيدهم وجاعله هباءً منثورًا[2].

دلالة (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾:

مكر البشر ضعيفٌ محدودٌ، ومَكرُ اللّه لا تُعيقه قوّةٌ ولا حدود

اللّامُ في قوله تَعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ﴾، تدلّ على الجنس والاستغراق، لكلّ أفراد المكر، وفي هذا دليلٌ على أنّ مكرَ البشرِ مخلوقٌ، ويؤيّد ذلك التّعبير بقوله: ﴿جَمِيعٗاۖ﴾.

سرّ فصل قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ﴾:

علمه تعالى بالكسب، في الظّاهر والباطن

فُصِلت الجملةُ في قوله تبارك اسمه: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها بيانٌ تعليليٌّ لمضمون الكلام الآنف؛ "لأنّه لمّا كان يعلم ما تكسب كلّ نفسٍ من ظاهر الكسب وباطنه كان مكرُه أشدّ من مكرِ كلّ نفسٍ؛ لأنّه لا يفوته شيء ممّا تُضمره النّفوس من المكر ... فإنّ القويّ الشّديد الّذي لا يعلم الغيوب قد يكون عقابه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/174.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3973.

أشدّ، ولكنّه قد يفوقه الضّعيف بحيلته"(1)، ففيه تأكيدٌ لغَلَبة مَكْرِهِ تعالى لمكرهم؛ إذْ إنّه بالإضافةِ إلى حصر المكر به فإنّه كذلك يعلم كلّ شيء، ومن جملة ذلك شأن مَكْرِهِم، فالعذابُ نازلٌ بهم لا محالةَ، فاللّه تعالى أحاط بكلّ شيءٍ مكرًا وعلمًا.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في الآية:

عِلْم الله تعالى شاملٌ لكلّ شيء

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ بـ ﴿مَا﴾؛ للدّلالة على العموم، فهو يعلم كلَّ مكرهِم وكَسْبِهِم، فعِلْمُهُ شامِلٌ لكلّ فعلٍ يقومون له، وهذا تأكيد لقدرته ﷻ، فإنّ القديرَ لا بدّ أن يكون عليمًا، وأن يكون علمُه شاملًا.

سرُّ التَّعبير بالكسب دون المكر:

الكسب أعمّ من المكر

عبّر النّظم الكريم بالكسب في قوله جلّ شأنه: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ دون المكر؛ لأنّ الكسب أعمّ من المكر؛ فهو "الفعل لاجتلاب النّفع أو دفع الضّرّ"(2)، فهو جَلّ شأنه يعلم ما يُدَبّرون لاجتلاب النّفع لأنفسهم على وفق ظنّهم، ولم يُعبّر بالمكر؛ لأنّ التّعبيرَ بالكَسْبِ يُشْعِرُ بأنّهم يبتغون جلبَ المنفعة لأنفسِهم بذلك المكْرِ.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَكۡسِبُ﴾:

كلّ كسب يصدر من العبد، فالله يعلمه

لمّا كان أمرُ الكسب من الإنسان مُتجدّدًا، سواءٌ أكان في الظّاهر أم في الباطن؛ عبّر عنه بالفعل المضارع ﴿تَكۡسِبُ﴾، وناسب ذلك التّعبير عن العِلْم بالمضارع بقوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ ليُدلّل على أنّ كلّ كسبٍ يصدر مِنَ العبد، فاللّه يعلمه، وفي هذا تحذيرٌ مِن ارتكاب المعاصي، وعلى رأسِها المكر السَّيِّئُ.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾:

علم الله تعالى كلّيٌّ وجزئيٌّ، يتعلّق بعموم كلّ نفس

في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ مِنَ المعلوم أنّ اللّه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/174.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

تعالى يعلم ما تَفْعَلُ النّفوس وما تكسب، ولم يَقُلْ: (يعلم ما تكسب النّفوس)؛ لأنّه ليس نصًّا في الشّمول، فعبّر عن تأكيد إحاطة علمه بكلّ نفسٍ بإسناد الكسب إلى ﴿كُلُّ﴾، فيكون ذلك تأكيدًا لعلمه الشّامل بكسب كلِّ نفس على وجه الاستقلال؛ أيّ: أنّه ﷻ ليس علمه كلّيًّا وحسب، بل يتعلّق بالجزئيّات أيضًا.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾:

خيبة المكر في الدّنيا، يتبعها سوء العاقبة في الآخرة

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[(1)]، فلمّا بيّنَ أنّهم في شأن المكر كالّذين من قبلهم مكروا دون أن ينالوا مأرَبَهم؛ أخبرَ عن سوءِ عاقبتهم وعلمهم الّذي سيتحقّق بخيبة مَكْرِهِم.

دلالة السّين في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾:

الوعد المستقبل من الله تعالى، قطعيّ الوقوع، مُؤكَّد التّحقّق

أدخل النّظمُ البليغُ سينَ الاستقبال في قوله تبارك اسمه: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنّها تدلّ على وقوع الخبرِ في المستقبل؛ فالعلم بذلك كائنٌ في المستقبل، وهو حين توضع موازين العدل ليقضي بين العباد؛ ولمّا كان هذا معلومًا بأنّه واقع في المستقبل، فإنّ السّين هنا "لتأكيد وقوعِ ذلك وعلمِهم به حينئذٍ"[(2)].

سرُّ التّعبير بالعلم في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ﴾:

العاقبة للمتّقين، ولو كاد لهم أهل الأرض أجمعين

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنّ المُراد به علم المعاينة، لا علم الإخبار، والكفّار قد عاينوا توالي الهزائم لهم معركةً بعد معركةٍ حتّى أصبحت أرض الجزيرة العربيّة أرض إسلام، ولا مكان للكُفر فيها، واندحر الشّرك وأهله من المنافقين واليهود الّذين كانوا يكيدون للإسلام، وأصبحت الكلمة العليا في هذه الأرض للمسلمينَ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/149.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

سرّ اختيار جمع ﴿ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ بهذه الصيغة:

المُخبَر عنهم جنس الكفّار، لا مجموعة منهم

اختار النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة الجَمْعِ ﴿ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ دون (الكافرين) كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ (الكفّار) صيغة جمع تكسير؛ لأنّ جمعَ التّكسير يُقَرِّبُ الصّفات من الاسميّة و(الكافرون) صيغة جمع مُذكر سالم، والجمع السّالم يُقرِّب الصّفات من الفعليّة، ويُراد به الحَدَث في الغالب، أمّا جمع التّكسير فهو دالٌّ على الذّوات، كما أنّ الكفّار فيه شيء من المبالغة لما في التّضعيف والتّثقيل من أثر صوتيّ، فهو يدلّ على التّكثير، كما أنَّ فيه دلالة على جنس الكفّار، فهو يشمل كلّ كافر "أي: كلّ كافر بوعد لا خُلْف فيه، إن كان من الجهل بحيث لا يعلم الأشياء إلّا بالتّصريح أو الحسّ"(1).

دلالة تعدّد القراءات في لفظ ﴿ٱلۡكُفَّٰرُ﴾:

للقراءات القرآنيّة دور في توجيه المعنى بتنوّع وبيان

قرأ نافع وابنُ كثير وأبو عمرو هذا اللّفظ بالإفراد (الكافر)، ووجه ذلك أنَّ اللّامَ فيه للجنس يستغرق كلّ أفراد الكفّار؛ كالإنسان في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وقرأ الباقون بالجمع في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾؛ والمُراد: جميع أهل الكفر(2).

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

عاقبة الحياة الدّنيا، لأهل الإيمان، ممّا سيتيقّنه آنئذٍ أهل الكفران

عبّر القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لِما تَحمِلُه مِن تحذير الكافرين، ودعوة المؤمنين إلى العمل؛ لأنّ المعنى عاقبة هذه الحياة الدّنيا الّتي تكون فيها المغالبة بين الحقّ والباطل، والكفر والإيمان، لَمَن تكون العاقبة؟ تكون لأهل الإيمان بما أعدّه اللّه لهم من النَّعيم، والنّار لِمَن عصى وتكبّر، وفي ذلك خسران مبينٌ لهم.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

(2) ابن أبي مريم، الموضّح: 2/705.

سرّ تَكرار الألفاظ من الجَذر (عقب):

تكرّرت في السّورة ألفاظ العاقبة كما في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۚ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ﴾، وقوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: 11]؛ وذلك لبناء السّورة على أمْرِ بيان العاقبة ومآل النّاس إلى مصيرهم، فأكثرت السّورة من لفظ العُقْبى للتّذكير والتّنويه به، بحيث يكون حاضرًا في السّمع، وتألفه الأذن، فيرسخ في الفؤاد.

تَكرار المُهمّ، تأكيدٌ له وترسيخٌ لذِكْره

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ الأقوالِ بعدَ الأفعالِ تعضيدٌ للحُجَّةِ وتَقويةٌ للبيانِ

لمّا تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ بيانُ غفلةِ الماكرين عن مكرِ اللّه تعالى، وأنَّه واقعٌ بهم عذابُه، وبالمؤمنين رضوانُه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرعد: 42] ناسبَ أن يَذكُرَ في هذه الآية قيلَهم الذي يُؤكِّدُ تلك الغفلةَ، بتَكرارِ نفْيِ الرِّسالة عن النَّبيِّ ﷺ، فالمناسبةُ بين الآيتَين بيانُ غفلةِ الماكرين في أفعالهم وأقوالِهم، فهي من عطْفِ الأقوال على الأفعالِ التي تشتركُ في وحدةِ الهدفِ وهو الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَىٰ﴾: الكاف والفاء والحرف المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُستزادَ فيه، يُقال: كفاك الشَّيءَ يكفيك، وقد كفى كفايةً، إذا قام بالأمر، والكُفية: القوتُ الكافي، والجمع كُفًى، ويقال حَسْبُك زيدٌ من رجلٍ، وكافيك[1]، و"كفى اللّه، أي: أغنى عن غيره"[2]، و"الكِفايَةُ: ما فيه سدُّ الخُلّة، وبلوغُ المراد في الأمر. قال اللّه تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]"[3]. والمقصودُ بـ ﴿كَفَىٰ﴾ في الآية: حسْبيَ اللّه[4].

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الكاف والتّاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا).
(2) الصُّحاري، الإبانة في اللغة العربية: (حرف الباء): 2/209.
(3) الراغب، المفردات: (كفى).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/473.

جمع شيءٍ إلى شيءٍ[1]، و"الكَتْبُ: ضَمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة"[2]، "وفي التّعارف: ضمُّ الحروف بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعضٍ باللّفظ، فالأصلُ في الْكِتابَة: النّظمُ بالخطّ لكنْ يُستعارُ كلٌّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه - وإن لم يُكْتَبْ - كِتابًا كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، وقولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30].

والكِتابُ في الأصل مصدرٌ، ثم سُمّي المكتوبُ فيه كتابًا، والكِتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [النساء: 153] فإنّه يعني صحيفةً فيها كِتابَةٌ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ [الأنعام: 7]"[3]. والمرادُ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في الآيةِ الكتبُ السّابقةُ كالتَّوراة والإنجيلِ على قولٍ[4]، والقرآنِ على قولٍ آخرَ[5].

❁ المَعنى الإجماليّ:

قليلُ الحقِّ كفيلٌ بصدِّ كثيرِ الباطلِ

تذكرُ الآيةُ قيلَ المشركين الذي يُصرّون عليه وهو نفيُ الرِّسالة عن رسول اللّه ﷺ، قصدًا منهم في الصَّدِّ عن دين اللّه تعالى الذي جابهَ معتقداتِهم وسلوكيّاتِهم، وقد جاء قولُ المشركين هذا بعد إثبات النُّبوّةِ وتحدّي المشركين أن يأتوا بمثْلِ القرآن، وقد جاء التَّعليمُ الرَّبانيُّ بالرَّدِّ عليهم بأنَّ اللّه كافيه إيّاهم بشهادته على ما كان بينَهم، وشهادةِ أهل الكتابِ، ليبرهنَ على أنَّ الرَّسولَ المبعوثَ من عند اللّه تعالى يَكتفي بقليل الكلامِ الحقِّ، لصَدْعِ الباطل الكثيرِ الصّادرِ عمَّن يريدُ المكرَ والشَّرَّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(2) الراغب، المفردات: (كتب).
(3) الراغب، المفردات: (كتب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/502، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/473، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/176.
(5) ابن عادل، اللباب: 11/326، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾:

اعْتِنَاءُ القرآنِ بالنَّبيِّ ﷺ تسليةً وتثبيتًا كرامةٌ وتشريفٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تحتملُ أن تكونَ للعطفِ، أوِ الاستئنافِ؛ فإذا جعلنا الواوَ عاطفةً تكونُ الجملةُ معطوفةً على الجملة التي قبلَها، فهما خبرانِ خارجان إلى معنًى بلاغيٍّ وهو تسليةُ النَّبيِّ، وتهوينُ تكذيبِهم على قلبِه ﷺ، ومواساتُه وشدُّ أزرِه، وتوجيهُه نحوَ الردّ المناسبِ؛ فعزيمةُ العبدِ في حاجةٍ إلى تقويةِ اللّه سبحانه ومساندتِه[1].

وتحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، أي: بعد أن ذكرَ أفعالَ الماكرين في الآية السّابقة، اسْتأنفَ ليذكرَ أقوالَهم، فالواو مستأنَفةٌ مسوقةٌ لإجمالِ الشّبهاتِ السّتِّ التي أوردوها، والتي تنتهي في اعتقادِهم إلى هذه النّتيجةِ وهي إبطالُ رسالته ﷺ[2].

وعلى الاحتمالَين فإنَّ النَّتيجةَ لا تختلفُ كثيرًا، إذ جاءتِ الآيةُ لتسليةِ النَّبيِّ ﷺ، فعلى القول بالعطْفِ هي من باب عطْفِ قيلِهم على مضمون الآيةِ السّابقة المُخبرةِ عن أفعال المكرِ، وإن كانت استئنافيَّةً فإنَّها كذلك خطابٌ واضحٌ شأنُه تسليةُ النبيِّ ﷺ في الموقفِ من كلامِ المشركين.

وقد ذهب البقاعيُّ إلى أنَّ هذه الآية معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرعد: 27]، والعطفُ غيرُ مُستساغٍ لتباعُدِ ما بين الجُملتَين، إلا أن يُحملَ على عطفِ القولِ على القولِ الشّبيهِ بعطف القصّة على القصّة، فهو من عطفِ القصصِ لا عطفِ الجُملِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/136.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ القولِ مضارعًا:

كلامُ الباطلِ عندما يتجدَّدُ يكونُ عجيبًا في مَنبعِه ومَبْعثِه

للمضارعةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم قد قالوا ذلك؛ إيحاءٌ دقيقٌ منبثقٌ من دلالة التّجدّدِ، وهي أنّهم غيرُ مؤمنين بما يقولون، وأنّه قولٌ صادرٌ منَ اللّسان لمجرّد الحسدِ والحقدِ والجحودِ لا عن يقين وقناعةٍ، ونظيرُ ذلك قولُه ﷻ في موضع آخرَ: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]، فهو قولٌ لا رصيدَ له من اعتقادٍ قلبيٍّ، وكيف وهم ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 146].

عجيبُ حالُهم يستحقُّ تصويرَه وكأنّه مُشاهَدٌ الآن، ومستقبلًا ليشملَ مَن قالها ومن سيقولُها

وأفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارع هنا ثلاثةَ أوجُهٍ، الأول: التّعجّبُ كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ [الحج: 63]، ولم يقل: فأصبحتْ، الثّاني: التّصويرُ كأنّها لم تزلْ واقعةً مُشاهَدةً، الثّالث: ليتناولَ اللّفظُ مَن قالها ومَن سيقولُ مثلَها في المستقبل[1]. ففي المضارعيّة "استحضارُ صورةِ كلمتِهم الشّنعاءِ؛ تعجيبًا منها، أو للدّلالةِ على تجدُّدِ ذلك واستمرارِه منهم"[2]، فبرغْمِ يقينِهم بأنَّ محمّدًا ﷺ الصّادقُ الذي لا يَكذبُ، الأمينُ الذي لا يَخون، فإنّهم يُجدّدون هذا القولَ، ولا يَفْتؤون عن قوله له كلَّما رأوه، وهذا من عجيبِ حالِهم.

فكانت دلالةُ المضارعةِ هنا بارعةً في ترجمة الدّلالتَين معًا: أنّهم غيرُ مؤمنين بما يقولونَه له، وأنّهم لا يزالون يُجدّدون هذا القولَ بأنّه ﷺ ليس مُرسلاً بعد ثُبوتِ حُجج النُّبوّةِ وقيامِ أدلَّة الحقِّ ورُؤيةِ دلائلِ الصِّدقِ.

بَلاغةُ حذْفِ مَنْ وُجِّه إليه الكلامُ:

تكرارُ الباطلِ دليلُ قوّةِ صاحبِ الحقِّ

مُقتضى النّظمِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/436.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.

﴿مُرۡسَلٗاۚ﴾ أن يُذكرَ المقولُ له ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، وهو الرّسولُ ﷺ، أي: ويقول الذين كفروا للنّبيِّ ﷺ أو لك: لستَ مرسلًا، فحُذف اسمُه ﷺ للعلم به؛ لأنّه لم يقل بالرسالة أحدٌ غيرُه، وقد دلّتْ تاءُ الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَسۡتَ﴾ على تعْيينه بالخطاب، وبلاغةُ ذلك تظهرُ في كونِ النَّظم يُبرزُ عنصرَ الحوار بين الكافرين والنَّبيِّ ﷺ في توجيه الاتِّهامِ له بنفيِ الرِّسالة عنه، فأُضمرَ من قيل له ذلك اتِّكاءً على تاء الخطابِ، واستحضارًا للقولِ ساعةَ أنْ قيلَ.

نُكتةُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ:

لا يصدرُ عنِ الكافرين في مواجهةِ الحقِّ إلا مَحضُ الشَّرِّ

الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يتّسِمُ بإبهامِ الدّلالةِ وخفائِها؛ لذلك وُصفَ الموصولُ بأنّه فقيرُ الدّلالة؛ فيحتاجُ إلى ما يَسُدُّ فقرَ دلالتِه، فإذا جاءت صِلةُ الموصول توجّهَ الموصولُ وتحدّدتْ دلالتُه، وهنا جاءت صلةُ الموصول ﴿كَفَرُواْ﴾، وبها تحدّدت وجهةُ الكلام، وعرفَ المُتلقّي طبيعةَ الخبرِ الذي يصدرُ عن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهذه الدّلالةُ هي التي يعبّرُ عنها البلاغيّون في مهامِّ التّعريف بالموصول: الإيماءُ إلى وجهِ بناء الخبرِ[1]، ويأتي خبرُ مقولِهم هنا من وادي ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ - والعياذُ باللّه ﷻ - من التّكذيب بالحُسنى.

دَلالةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الكفرِ:

الكُفرُ وراءَ كلِّ تصدٍّ للرَّسول والرسالةِ في كلِّ زمانٍ

جاء التَّعبيرُ بالكفرِ دونَ الشِّركِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ وصفَ الكفرِ أعمُّ منَ الشِّرك، كما أنَّ الكفرَ هو عنوانُ التَّصدّي الجامع للرسالةِ والرَّسول والمُرسِل، فإنَّ هذه الكلمةَ بما تحملُه من معنًى لُغويٍّ وهو التّغطيةُ، وما تحملُه من معنًى اصطلاحيٍّ وهو تغطيةُ الحقِّ وإعلانُ الحربِ عليه، كانت هي الأنسبُ في هذا

(1) التفتازاني، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/172.

السّياقِ، كما أنَّ فيها إيماءً إلى أنَّ الكفرَ ثابتٌ في تصدّيه لدعوة الإسلامِ في كلِّ زمان، بأشكالٍ متباينةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ.

دَلالةُ صيغةِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

زعامةُ الكُفرِ خِصّيصةُ أكابِرِ المُجْرمين

عُبِّرَ عن كفرِ الكافرين بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ﴾، ولم يُعبَّرْ بالمضارعِ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 21]، وذلك لبيانِ تحقّقِ فعلِ الكفرِ وصدْقِ وقوعِه من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وترسُّخِه في قلوبِهم، وتشرّبِه في نفوسهم، بلحاظِ الاسْم الموصول؛ فالذين يَتصدَّون لدعوةِ النَّبيِّ ﷺ همُ الكافرون الرّاسِخون في الكفرِ، والمعانِدون على أصوله.

دَلالةُ الجملةِ الفعليّةِ المنفيَّةِ:

النّظمُ يُظهِرُ خَفيّاتِ النُّفوسِ وبَواطِنَ القلوبِ

ينتقلُ التّعبيرُ منَ المضارعِ إلى الماضي إلى الجملةِ الفعليَّةِ المنفيَّةِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، في تنويعٍ بارعٍ يفيضُ على الأسلوب حيويّةً، ويَنفي عنه الرّتابةَ والفتورَ؛ إذ أتى مقولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾. مضمونُها نفيُ الرّسالةِ عنِ الرّسول ﷺ جملةً وتفصيلًا، وبهذا اللّفظ القاطعِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، أي: "إنَّما أنت مُدَّعٍ ما ليس لك"[1]. فأنت يا محمّد ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الماضي و﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الحال و﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في المستقبل، أي لست عندنا بمنزلة أن تكون رسولًا أصلًا، ولو جاء التّعبيرُ بالفعل الماضي: (وقال الذين كفروا لم يرسلك اللّه، أو لن يرسلك)؛ لبقي احتمالُ أن يرسلَك مستقبلاً، وهم يريدون نفيَ الرّسالة عنه بالكلّيّة، وفي الأزمان كلِّها، والإخبارَ بأنّه ليس هنالك رسولٌ أصلاً؛ فاختصارُ الكلام في كلمتين يكشفُ عن خُبثِهم، ودهائِهم في محاولة إخفاءِ هذه الحقيقةِ، وعدَمِ الإكثارِ منَ الكلام حولَها.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/403.

مَضامينُ المَعاني كامِنةٌ في دقائقِ الألفاظِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بنفْيِ الرِّسالةِ لا النُّبوّةِ:

إيثارُ وصْفِ الرّسالةِ لا النّبوّةِ في جملة النّفيِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ يشيرُ إلى حسَدِ القوم، ويقرّرُ أنَّ الذي أغاظَهم هو إرسالُ اللّه تعالى له، فالإرسالُ يتضمّنُ النّبوّةَ لُزومًا، وتشريفَ المُرسَلِ، وتعظيمَ شأنِه عند مَنْ أرسلَه، ففيه إشارةٌ إلى ما تُكِنُّه صدورُهم مِنَ الحسدِ، وربّما لوِ اقتَصر أمرُه ﷺ على نبوَّةٍ فيها تكاليفُ لم يُؤمَر بتبليغِها لهانَ عليهمُ الأمرُ.

مُبالغةُ الحاسِدِ في نفْيِ النِّعَمِ عن أهلِها شأنُ الحاقِدِ المُفْلِسِ

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الإرْسالِ:

إنَّ حقْدَ القومِ الدّفينَ هو الذي حملَهم على إطلاقِ نفْيِ الإرسالِ عنه ﷺ وعدمِ تقييدِه بقولهم مثلا: لستَ مُرسلًا مِنَ اللّه؛ حتى لم تُطِقْ نفوسُهم أن تنطقَ ألسنتُهم بإرسالِه ﷺ من قِبَلِ اللّه تعالى ولو كان النّطقُ به على سبيل النّفيِ؛ لذلك أطلَقوا: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، أي: لستَ مُرسلًا مطلقًا ومن أيِّ جهةٍ كان الإرسالُ، فهم بهذا النَّفيِ المُقترنِ بالإطلاقِ دون التَّقييدِ يُشيرون بطرْفٍ خفيٍّ إلى أنَّه ليس أهلًا للإرسالِ أصلًا لا مِنَ اللّه تعالى ولا من غيره، وهذا في غاية بُؤسِ الحقدِ، وصميمِ رذالةِ الحسدِ.

إرشادُ الوحْيِ خيرُ نجاةٍ عند نزولِ المِحَنِ، وأعظمُ انتصارٍ عند وقوعِ الفتَنِ

بَلاغةُ الفصْلِ في جملةِ القولِ:

لمّا كان قولُ الكافرين: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ صريحًا في عُنوانه ومضمونه "أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بجوابٍ لا جدالَ فيه، وهو تحكيمُ اللّه بينه وبينَهم، وقد أُمرَ الرّسولُ ﷺ بأن يجيبَهم جوابَ الواثقِ بصدْقِه المُستشهدِ على ذلك بشهادة الصّدْقِ من إشهادِ اللّه تعالى وإشهادِ العالمين بالكتبِ والشّرائع"[1].

فجُملةُ ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ توجيهٌ مِنَ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ في الرَّدِّ على كلامِ الكفّارِ، ومُقتضى جملةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.

المحاوَرة الفصلُ لا الوصلُ، ونُكتتُه بيانُ المسارعةِ في الرَّدِّ على عُدوان الكافرين، وعدمُ التزام الصَّمتِ بما فيه تثبيتٌ للباطلِ، وتدلُّ هذه الجملةُ ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾ على أنَّ الله تعالى لا يتخلَّى عن أوليائه، بل يُرشدُهم لِما فيه الصَّلاحُ، فإرشاداتُ الوحْيِ هي خيرُ نجاةٍ عند المحنِ، وأفضلُ انتصارٍ عند وقوعِ الفتنِ.

بَلاغةُ حَذْفِ المقولِ لهم:

التَّـنـاظُـرُ بـيـن الـجُـمـلِ مُلحقٌ بتناظُرِ المتحاوِرين

جاء النَّظمُ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ﴾ دونَ أن يُقال: (قل لهم كفى)؛ ودليلُ الحذفِ هنا ضميرُ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾، وكأن في ذلك إهمالًا لذكرِهم جزاءَ إهمالِهم ذكْرَه ﷺ في قولِهم المطلقِ دونَ التَّقييد بذكرِه ﷺ إلا بضميرِ الخطاب: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾؛ وبهذا حصلَ التَّناظرُ والتَّوازي بين هذه الجملةِ والتي قبلَها في حذْفِ مَن وُجِّه له الخطابُ بِنَفْيِ الإرسالِ عنه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

شَـهـادةُ الله كِفايةٌ تسدُّ كلَّ احتياجٍ وتدفعُ كلَّ ابتلاءٍ

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (حسبيَ الله) كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [التوبة: 129]؛ وذلك بقصْدِ إحالةِ "الكافرين على موقف الحسابِ والمُساءلةِ بين يدي الله، وهو سُبحانه حَكَمٌ عَدْلٌ بينهم وبين النّبيّ ﷺ، عالمٌ بما كان منه من أمانةٍ في تبليغ ما أُمِر بتبليغه من ربّه، وما كان منهم من تكذيبٍ وبَهْتٍ وكُفْرٍ"[1]، وفي هذا الردّ تقويةٌ للمؤمنِ، وتعزيزٌ لجانبِ الثِّقةِ بالله تعالى، فهو مُتَّكَؤُه في محنتِه، فيكفيه الله تعالى ناصرًا ومعينًا، ويكفيه حَكَمًا وعَدْلًا، ويكفيه في الدّنيا والآخرة، ويكفيه على كلّ حالٍ، ولا يوجدُ في اللغة مادّةٌ لغويّةٌ تعادلُ هذه المادّةَ ﴿كَفَىٰ﴾ وتسدُّ مَسدَّها في

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/145.

باب الطّمَأنةِ، إنّها الكفايةُ والاكتفاءُ به ﷻ وأنعِم بها من كفاية! فهذا من كمال الاتّصاف[1].

دَلالةُ اسْتِعمالِ الباء:

اخْتِصاصُ الله تعالى بالشّهادةِ غايةُ الإيمانِ، والانقيادِ، والتّسليم

للباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ إشاراتٌ تَنفي عنها القولَ بزيادتِها؛ لأنّها تنشرُ معانيَ الاعتصام والاكتفاءِ واللِّواذ والإيمانِ والاستمساكِ به ﷻ، فليست هذه الباء - كما يقولون - حرفًا زائدًا بل هو أحدُ عُمُدِ الدّلالةِ، يَضيعُ بغيابها معانٍ مُتكاثرةٌ بوجودها.

وقولُ النُّحاة: إنّها الباءُ الزّائدةُ المؤكِّدةُ، وإنّها تُزادُ في الفاعل، فيكونُ تقديرُ قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بدونها: (كفى اللّه شهيدًا)، لا يوَفّيها حقَّها المنوطَ بها في هذا التركيب وأشباهِه، فقولُنا: كفى اللّه شهيدًا؛ لا يوازي قولَ الحقِّ سُبحانه: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وذلك أنَّ النَّظمَ القرآنيَّ أعطى سِمةً دلاليَّةً وهي الاختصاصُ، فكأنَّه قال: كفى باللّه وحدَه شهيدًا، في حينِ أنّ قولَنا: كفى اللّه شهيدًا، هو إخبارٌ محضٌ، ومن هنا افترق التَّعبيرُ بين الجُملتَين.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ (الله):

تَوْرِيثُ الأمانِ في قلوبِ المؤمنين والهَيْبَةِ في صدورِ الجاحِدين

اسمُ الجلالة هو العَلَمُ الذي يتضمَّنُ بقيَّةَ الأسماء الحسنى والصّفات العُلا للّه الواحدِ الخالق الرّازقِ الوارثِ ﷻ، فهو يُغني عنها إذ يجمعُها جميعًا، ولا يُغني عنه غيرُه منفردًا؛ لذلك كان ذكرُه ﷻ بهذا الاسمِ الشّريفِ (اللّه) ﷻ مكمنَ الأمان ومصدرَ الطّمأنينةِ، ويظلّ اسْمُه العظيمُ (اللّه) ﷻ ملاذَ المؤمنين في مواجهة الكافرين، وهو ينشرُ معانيَ الجلالِ الذي قد يردعُ الكافرين ويَكبحُهم عن ظلمِهم، ويردُّ سوءَ أدبِهم عن رسولِه ﷺ والمؤمنين، فكيف بمن هذا شأنُه إذا شهدَ على العبادِ.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

دَلالةُ صيغةِ المُبالغةِ (شهيد):

شَهادةُ الباري سُبحانه مُستوفيةٌ لشرائطِها، شاملةٌ جميعَ أفعالِهم وأقوالِهم

قولُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾، أي: بليغُ العلْمِ في شهادتِه[1]، فهو من باب المبالغةِ، والمبالغةُ في نفس الشّهادةِ باعتبار اسْتيفاءِ وجوهِها وجميع شرائطِها حتى لا يَشذَّ عنه من حال المشهودِ عليه في نفس الشّهادةِ شيءٌ[2]، وبذا ستكونُ الشَّهادةُ شاملةً على جميعِ أفعالِهم وأقوالِهم، وهو ما يتَّسقُ مع السّياق، ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: 42 - 43] وهذا أقوَى في إبراز عُنصرِ المحاسبةِ والمُساءلةِ يومَ القيامةِ.

شَهادتُه تعالى في الدّنيا على ظُهورِ المُعجِزاتِ، وفي الآخرةِ بالمُجازاةِ

وقولُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ يعمُّ الدّنيا والآخرةَ فالدّنيا باعتبار ظُهورِ المُعجزاتِ على يديّ رسولِ اللّه ﷺ وهي تُنزَّلُ منزلةَ قوله: صدقَ عبدي؛ فصار كالشّهادة لأحدِ الخَصمين بالصّدقِ في دَعواه باعتبار آيِ القرآن. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: 144] وأمّا الآخرةُ فباعتبارِ مُجازاتِه إياهم وعقابِهم على تكذيبِهم[3].

نُكتةُ إيثارِ صيغةِ (شهيد) دون (شاهد):

تُستعملُ (شهيدٌ) في الشَّهادةِ الكليَّةِ الشّاملةِ، أمّا (شاهدٌ) ففي إقامةِ الحُجَّةِ

اشتقاقُ الشّاهدِ والشّهيد منَ الجَذرِ الثلاثيّ (شهد)، لكنْ هناك فرقٌ دقيقٌ بينهما من حيث المعنى في الاستعمالِ، فالشّهيدُ على وزن فَعيل وهي من صيغ المبالغةِ، فالشَّهيدُ هو الذي يشهدُ شهادةً شُموليَّةً عامَّةً كما في الشَّهادةِ يومَ القيامةِ، كما قال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: 143]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/163.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء: 33]، وقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: 41]، وتستعملُ صيغةُ (شهيد) في مواضعَ يُراد بها المبالغةُ بقصْدِ الاحترازِ من مثْلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ [البقرة: 282]، فإنَّ مُقتضى المقابلةِ الإتيانُ بشاهدٍ، لكنَّ النّظمَ أتى بشهيدٍ بقصْدِ المبالغةِ، لبيانِ أنَّ هذا الشَّهيدَ قد عمَّت شهادتُه ورَسختْ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: 37].

وهذا بخلافِ الشّاهدِ فهو على وزن اسْمِ الفاعلِ، ففيه معنى الشَّهادةِ بغرَضِ إقامةِ الحُجّةِ، دون معنى الشُّمولِ الكلّيِّ، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب: 45]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزمل: 15]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (شهيد):

شَهادةُ الله تعالى أقوَى وأكبرُ

الشَّهادَةُ مُستعارةٌ لإظهارِ المعجزة الدّالَّةِ على رسالته، والجامعُ بينَهما مطلقُ الدّلالة، لكنَّ دلالةَ الشّهادةِ وضعيّةٌ، يحتملُ تخلّفُ مدلولِها عنها ودلالةَ الأدلّةِ العَقْليَّة دلالةٌ عَقْليَّةٌ لا يمكنُ تخلّفُ مدلولِها عنها، فشهادةُ اللّه تعالى أكبرُ وأقوَى شهادةٍ[1]. فجعلَ هذا شهادةً مع أنّه فعل، والشّهادةُ قولٌ؛ على سبيل الاستعارةِ؛ لأنه يُغني عنِ الشّهادة بل هو أقوَى[2].

دَلالة تَكرارِ الظّرْفِ (بين):

أهلُ الحقِّ يُباينون أهْلَ الباطِلِ، ولا يُخالطونَهم في باطِلِهم

جاءَ النَّظمُ بتَكرار الظَّرفِ (بين) في قولِه تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ دون أن يقول: (فكفى باللّه شهيدًا بيننا)، وذلك لإيقاع

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/532.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/294.

الفصْلِ بين طرفَي الحقِّ والباطلِ لفظًا كما هو واقعًا، فإنَّ الجملةَ تومئُ إلى الحسابِ والحكم بين المُتخاصِمين، فكان الفصلُ بينهم هو الأليقُ بالمقام، والأنسبُ بالسّياقِ.

سِرُّ اسْتِعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ:

الجَمْعُ بين الشَّهادةِ على العبادِ والحُكمِ عليهم

غالبُ تعْديةِ فعلِ الشّهادةِ بحرف الجرّ (على)، فيُقال: شهدَ على كذا، لكنْ في قوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لم يتعدَّ الفعلُ بحرفِ الاستعلاءِ، بل استُعملَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بقولِه تعالى: ﴿شَهِيدَۢا﴾، أي: أنَّ اللّه سيشهدُ بيني وبينَكم، وهذا الاستعمالُ الفريدُ يُنبئُ عنِ الجمعِ بين أمرَين، وهما الشَّهادةُ الشّاملةُ، والحُكمُ بين المتخاصِمين، فأشبَه هذا أسلوبَ التَّضمين، وهذا في غايةِ الوَجازةِ الجامعةِ بين الأداةِ والغاية، أمّا الأداةُ فهي الشَّهادةُ، وأمّا الغايةُ فهي الحكمُ الفصلُ، وبذلك يمتلئُ الأسلوبُ ويُعْمَرُ بالدّلالتَين معًا: دلالةِ الشّهادة، ودلالةِ الفصلِ والحُكمِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالظّرفِ (بين):

ما يُريدُه المُبطِلون تشخيصُ الخِلافِ وهذا ما يأباه القرآنُ

معنى شهادةِ اللّه تعالى بين الرّسولِ ﷺ وبين الكفّارِ لا محالةَ أنّه شهيد "عليَّ وعليكم بصدْقي وكذبِكم"[1]. بأنْ "يشهدَ بتأييدِ رسالتي وتصحيحِ مقالتي بما أظهرَ لي منَ الآية وأوضحَ منَ الدّلالة بهذا الكتاب، ويشهدُ بتكذيبِكم بادّعائكمُ القُدرةَ على المعارضةِ وترْككم لها عجزًا، وهذا أعلى مراتبِ الشّهادةِ"[2]؛ لكنْ لو جاءتِ الشّهادةُ على هذا الظّاهرِ فقيل: كفى باللّه شهيدًا عليكم، أو شهيدًا لي؛ لأَوْغرَتِ الصُّدورُ، واستُفِزَّ في القومِ الجهلُ والحميّةُ، ولأصبحتِ القضيّةُ شخصيَّةً، وهذا ما يُريده المُبطلون، ويأباه القرآن، فضلًا عن ضياعِ معنى الفصلِ والحُكم المُستفادَين من ذِكر الظّرفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/581.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/164.

(بين)، فما أدقَّه من تعبيرٍ قرآنيٍّ كريمٍ، وما أعظمَه من إعجازٍ بيانيٍّ دقيقٍ!

دَلالةُ العطْفِ في قولِه: ﴿وَمَنْ﴾:

مَن عنده علمُ الكتابِ شهيدٌ على العبادِ

اختلفَ المُفسِّرون في المقصودِ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وبمن ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اختلافًا كبيرًا، فمنهم من ذهب إلى أنَّ المقصودَ به اللّه تعالى، ومن قال إنَّ المقصودَ به جبريلُ عليه السلام، ومنهم من قال: إنّ المقصودَ به علماءُ أهلِ الكتاب، وهؤلاءِ قالوا بأنَّ المقصودَ به معيَّنٌ، ومنهم من ذهب إلى أنّه جنسُ علماءِ أهلِ الكتاب[1]، ومُقتضى العطفِ أن يكون هناك اختلافٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فالصَّحيحُ في هذا أنَّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ "اسمُ جنسٍ يشملُ علماءَ أهلِ الكتابِ الذينَ يجدونَ صفةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَهُ في كُتُبِهِمُ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ بِشاراتِ الأَنْبياءِ بِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 156 - 157]"[2].

وهذا ما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام: 20]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 36]، وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ [القصص: 52]، وقولُه جلّ شأنُه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: 197].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

إقامةُ الحُجَّة ببيانِ المَقْصودِ وشَرْحِ المَطْلوبِ

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ دونَ الاسْمِ الظّاهرِ لِما يأتي:

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/337، والشوكاني، فتح القدير: 3/108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/176.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/474.

أوّلاً: إفادةُ العمومِ وإقامةُ الحجَّة ببيانِ أنَّ المذكورَ هو الحقيقُ بعلمِ ما جاءَ به محمَّدٌ ﷺ.

ثانيًا: التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ يقومُ مقامَ الموصوفِ، والتّقديرُ: واللّه الذي عنده علمُ الكتاب، على القولِ الأوَّل، أو: وأهلُ الكتابِ الذين عندهم علمُ الكتابِ.

ثالثًا: جاء التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَمَنۡ﴾ دون (الذي) ليدخلَ تحتها الإفرادُ والتّثنيةُ والجمعُ، وبه يصحُّ الاحتمالُ المتعدِّدُ في الآيةِ.

رابعًا: العنايةُ بصلةِ الموصولِ، وهو ثباتُ علم الكتابِ، فإنَّ التّعبيرَ بصلةِ الموصولِ أقوَى منَ التَّعبيرِ بالاسمِ الظّاهرِ في بيانِ المرادِ، وهي أوجزُ في شرحِ المطلوبِ.

خامسًا: وفي سَوقِه هكذا على طريقِ الإبهامِ من ترويعِ النّفسِ بهزِّها إلى تَطلُّبِ المُتّصفِ بهذا الوصفِ ما ليس في التّعيينِ، فهو إذًا كدَعوَى الشّيءِ مقرونًا بدليلِه[1].

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ:

إفادةُ اختصاصِ علمِ اللّه بالكتابِ أو الاهتمامِ بعلمِ أهلِ الكتابِ

تقديم الظَّرفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إن حملناه على أنَّ المقصودَ بالذي عنده علمُ الكتاب اللّه ﷻ فإنَّه يفيدُ الاختصاصَ، وهو الشّائعُ استعمالًا في القرآنِ، في مثلِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [الأنفال: 28]، وقولِ اللّه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾ [الرعد: 8].

وذلك ما يُغري بترجيح كوْنِ المقصود بـ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو اللّه ﷻ، ويرجّحُ ذلك القولَ أيضًا أنّه لا اعتدادَ بشهادةِ غيرِ اللّه تعالى مع شهادتِه عزَّ وعلا. وإن حملناه على أنَّ المقصودَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/164.

بالذي عنده علمُ الكتاب أهلُ الكتاب، فإنَّ التَّقديمَ يُفيدَ الاهتمامَ، يقول الآلوسي: "والحصرُ إمّا منَ الخارج لأنَّ علمَ ذلك مخصوصٌ به تعالى، أو للذّهاب إلى أنَّ الظّرفَ خبرٌ مقدّمٌ فيفيدُ الحصْرَ"[1].

نُكتةُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿عِندَهُۥ﴾:

تنزيلُ أهلِ الكتابِ منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ في علْمِهم بصدْقِ النَّبيِّ ﷺ

جاءَ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ مُفردًا، ونُكتةُ ذلك على القول بأنَّ المقصودَ بالموصول أهلُ الكتابِ هو مراعاةُ لفظِ ﴿وَمَنۡ﴾[2]، وتنزيلُ أهلِ الكتاب منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ؛ لاتِّفاقِهم على صدْقِ النَّبيِّ ﷺ، وعلى القول بأنَّ المقصودَ بالموصولِ اللّه تعالى، فإنَّ الإفرادَ مُناسبٌ للّفْظِ والمعنى.

نُكتةُ تعريفِ العلْمِ بالإضافة:

ما كان مُدوَّنًا فإنَّه أقوَى حُجَّةً وأرسخُ بُرهانًا

كان بالإمكان تحقيقُ الإيجاز بتعريف العلْم بأل؛ فيُقال: (ومن عنده العلمُ)، غير أنَّ التّعريفَ بالإضافة في قوله تعالى: ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يُشعِرُ بأنَّ العلمَ مُدوَّنٌ مكتوبٌ حُجَّةٌ على الجميع المكذِّبِ والمكذَّبِ جميعًا، وذلك من شأنه إحياءُ شعورِ المُحاسبةِ، والخوفِ من شهادةِ المَسطورِ المدوَّنِ الذي لا يُنسى ولا يضيعُ، وهذا على القولِ بأنَّ من عنده علمُ الكتاب هو اللّه تعالى، وأمّا على القولِ الآخر، فإنَّ نُكتةَ ذلك هو الإشعارُ بأنَّ علْمَهم قائمٌ على أساسٍ متينٍ، وشهادتَهم متينةٌ وهي حقيقةٌ بالقَبولِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اللّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ

المُراد بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: "اللّوحُ كما في قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39] وعلْمُه كنايةٌ عن علْمِه تعالى بجميع الأشياء؛ إذ ما من كائنٍ إلّا وهو مكتوبٌ فيه وليس المُرادُ العلمَ بنفس اللّوح بل بما فيه منَ الكائناتِ والفاسداتِ"[3].

---

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/165.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/65.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/532.

بَلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الكتابُ هو الكامِلُ في الصِّفاتِ والعَجيبُ في اشْتِمالِ الحقائقِ والدَّلالاتِ

تعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يدلُّ على أنَّه ليس كتابًا مثلَ كُتبِكم التي تتداولونَها وما تتّسمُ بها من تصحيفٍ وتحريفٍ وتضييعٍ، وما تؤولُ إليه من بِلى وضياعٍ وما إلى ذلك، فهو الكتابُ الكاملُ المبرَّأُ من كلِّ هذه العيوبِ محفوظٌ مَصونٌ إلى يوم الدين، فقيل إنَّ علمَ الكتاب هو "علمُ القرآنِ، وما عليه منَ النَّظم المُعجزِ"(1)، وقيل: "هو التَّوراةُ، أي وشهادةُ علماءِ الكتابِ وذلك أنَّ اليهودَ كانوا قبلَ هجرةِ النَّبي ﷺ إلى المدينةِ يسْتَظهرونَ على المشركينَ بِمَجيءِ النَّبي المُصدِّقِ للتَّوْراةِ"(2).

لَطيفَةٌ في موقعِ الآيةِ الكريمةِ:

الذِّكرُ الحكيمُ مُتّسِقٌ اتِّساقًا دقيقًا من أوّلِه إلى آخره

يقول صاحبُ التَّفسير القرآني للقرآن: "بهذه الآية الكريمة تُختمُ سورةُ الرعد؛ فيلتقي خِتامُها مع بدئها: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1]، ثم يصافحُ هذا الختامُ بدْءَ السّورة التي بعدها - إبراهيم -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾".

فقولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ جوابُ الكافرين على هذا الكتابِ الذي جاءهم النّبيُّ ﷺ به، والذي هو الحقُّ الذي أُنزلَ إليه من ربّه، وقولُه تعالى في أول سورة إبراهيم - بعد هذه السورة -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ردٌّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/65.

جواب هؤلاء الكافرين، وردْعٌ لهم، وأنّهم لم يَخرجوا منَ الظّلماتِ إلى النّور، ولم يأذنِ اللّه لهم بالخروج من تلك الظّلماتِ"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البعثُ، والإرسالُ:

مُهمّةُ الرُّسلِ إنذارُ العبادِ واقتضى ذلك رسالةً، والبعثُ إرسالٌ وزيادةٌ

البعثُ: الإثارةُ، والتّوجيهُ، والتّنبيهُ[2]. لذا قد يكونُ فيه إرسالٌ وفيه معانٍ أخرى غيرُ الإرسال، أي: فيه إرسالٌ وزيادةٌ. كبعثِ الموتى. و"الإرسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجري مَجراها"[3]. وتستلزمُه أطرافٌ ثلاثةٌ: (المُرسِلُ، والمُرسَلُ، والمرسَلُ اليه) من (رسالة) لفظيّةً كانت أو معنويّةً، في حين أنّ البعثَ قد يَستغني عنها ولا يَتطلّبُها، ويَستدْعي التّفريقَ بين الإرسال والبعثِ لحاظُ البَوْنِ بين إرسال اللّه ﷻ الأنبياءَ (عليهم السلام)، وإرسالِه الشّياطينَ. فـ"إرسالُه الأنبياءَ إنّما هو وحيُه إليهم أن أنذروا عبادي، وإرسالُه الشّياطينَ على الكافرين: تَخليتُهم وإيّاهم. كما تقول: كان في يدي طائر فأرسلتُه، أي: خلّيتُه، وأطلقتُه"[4]، ولمّا كان لفظُ الرّسولِ واضحًا مكرّرًا في أكثرَ من موضعٍ في السّورة مع ذكر الرّسالة (إنذارِ العباد) المُعبَّرِ عنه بقوله تعالى: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد: 30] ناسبَ اصْطفاءُ لفظِ ﴿مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الآيةِ.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/144.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 268.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسل).

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

❁ التَّعريف العامّ بالسّورة:

سورةُ إبراهيمَ مكيَّةٌ بالإجماعِ، مع وجود بعض أقوال في مكية الآيتين (28- 29)[1].

وسورةُ إبراهيمَ هي السّورةُ الرّابعةَ عشرةَ من حيث ترتيبُها في المصحفِ الشّريفِ بعد سورة الرّعدِ وقبْلَ سورةِ الحِجر، وأمّا ترتيبها النُّزولي فقد عدَّ السّيوطيُّ قبلَها سبعين سورةً[2]، وعدَّها بعضهم نازلةً بَعْدَ سورَةِ نوحٍ وقبلَ سورَة الأنبياء الثّانية والسّبعين في عِدادِ النُّزولِ[3].

وأمّا عددُ آياتها فاثنتان وخمسون آيةً في العدد الكوفيّ، وإحدى وخمسون في البصْريّ، وأربع وخمسون في المدنيّ والمكّيّ، وخمس وخمسون في الشّاميّ[4].

❁ أسماءُ السّورةِ ومناسبة التّسمية:

لم يُعرف لسورةِ إبراهيمَ غيرُ هذا الاسْمِ التّوقيفيِّ، وقد حاول أن يُقدِّمَ المَهايميّ تعليلًا لهذه التَّسمية، فقال: "سُمّيت به لاشتمالها على دعواتٍ لإبراهيمَ ﵇ تمتُّ بهذه الملّةِ كالحُجج، وجعْلِ الكعبةِ قبلةَ الصّلاة مع الدّلالة على عظمتِها بحيث صارت منَ المطالب المهمّةِ للمتّفقِ على غاية كمالِ إبراهيم ﵇، وعلى نبوّة نبيِّنا عليه أكملُ التّحيّات وأفضلُ التّسليمات مع غاية كمالِه"[5]، وهذا ظاهرٌ في التّسميةِ، ولكنّه لا ينهضُ أن يكونَ السّببَ القطعيَّ لذلك، فقد ورد اسمُ إبراهيمَ ﵇ في سورة البقرة نحو خمس عشرة مرّة ولم تُسمّ باسْمِه!.

والذي يظهرُ أنّ تسميةَ هذه السّورة باسم إبراهيمَ ﵇ إنّما جاء لارتباطه بمحورِها

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/503، والشوكاني، فتح القدير: 3/111، ودروزة، التفسير الحديث: 5/213، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/505.

(2) السيوطي، الاتقان: 1/43.

(3) دروزة، التّفسير الحديث: 5/213.

(4) الداني، البيان في عدّ الآي، ص: 177.

(5) المهايمي، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 1/386.

العامِّ المتعلّقِ بدور دعوةِ إبراهيم ﷺ إلى اللّه في تحقيق الأمنِ الذي هو أصلُ النِّعَمِ المحسوسةِ، والتَّوحيدِ الذي هو أصلُ النِّعَم المعنويّة، فإبراهيمُ ﷺ قد ربطَ في دعائِه بين هذين الأمرَين، الأمنِ والتَّوحيدِ، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: 35].

وإذا كانت هذه السّورةُ قد تناولت في محورِها العامِّ الحديثَ عن شُكرِ النِّعم وجحودِها؛ فإنّ إبراهيمَ ﷺ هو رائدُ هذا الشّكرِ، فقد ربطَ في دعائه بين طلبِ الرّزق مِنَ الثّمرات للبلد الحرامِ وبين الغايةِ من ذلك فقال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]، وقال تعالى في وصفه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١﴾ [النحل: 121].

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ تسميةَ السّورةِ باسم إبراهيمَ ﷺ إنَّما كان لربْطِ موضوعِ السّورةِ بأبرزِ خصائصِ أبي الأنبياء وهو الدُّعاءُ للنّاس بإنزال الأمنِ، واجتناب الشِّرك، وشُكْرِ اللّه على نِعمه وآلائه، فالتَّسميةُ لم تكن بالاسم العلَم، بل بما ارتبطَ به هذا النّبيُّ من معانٍ نبَّهت عليها السّورةُ، فهي تسميةٌ متعلِّقةٌ بخصائصِ صاحبِ الاسم لا بالاسمِ المجرَّدِ.

۞ المِحورُ الذي تدور حولَه موضوعاتُ السّورةِ:

يقول البقاعيُّ: "مقصودُ السّورةِ التّوحيدُ، وبيانُ أنّ هذا الكتابَ غايةُ البلاغِ إلى اللّه؛ لأنّه كافلٌ ببيانِ الصّراط الدّالِّ عليه المُؤدّي إليه، ناقلٌ - بما فيه منَ الأسرار - للخلْقِ من طورٍ إلى طورٍ بما يشيرُ إليه حرف الرّاء، وأدلُّ ما فيها على هذا المرامِ قصّةُ إبراهيمَ ﷺ، أمّا التّوحيدُ فواضحٌ، وأمّا أمرُ الكتاب فلأنّه من جملة دعائِه لذرّيته الذين أسكنَهم عند البيت المحرّم من ذرّية إسماعيلَ ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129]"(1).

إنّ النّاظرَ في موضوعات السّورةِ وعلاقاتِها الدّاخليّةِ والخارجيّةِ مع السّورِ المُجاورةِ يجدُ أنّ محورَ هذه السّورة الذي يُميّزها عَنْ غيرها منَ السّورِ المكّيّةِ تناولها دورَ الدّعوةِ إلى اللّه في تحقيقِ الأمنِ والتّوحيدِ، ودورَ الصّراعِ الأزليِّ بين الحقِّ والباطلِ الّذي يواجهُها في سبيل تحقيقِ ذلك، مُتناولةً المنهجَ التّربويَّ السّليمَ في مواجهة هذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/369.

الصّراعِ، و"في السورة تقريرٌ لمهمّةِ النّبيّ، وحملةٌ على كفّار العربِ وخاصّة زعماءهم، وتذكيرٌ ببعض الرّسلِ السّابقين ومواقفِ أُمَمِهم منهم، وإنذارٌ بالمصائرِ السّيّئة التي صاروا إليها وتقريرُ كوْنِ الإيمان هو أساسُ كلّ عملٍ صالحٍ وطريقٍ قويمٍ وكونِ الكفر هو مُحبطٌ لكلّ عملٍ وموردٌ للهلاك، وتنديدٌ بما انطبعَ عليه النّاسُ منَ الكفرِ والجحودِ لنعمِ اللّه وحكايةٌ لمناجاةِ إبراهيمَ ربَّه وحملتِه على الأصنام وتقريعٌ صارمٌ للظالمين في معرضِ تثبيتِ النّبيّ وتطْمينِه"(1).

فقد تقرّرَ ذلك بكلّ وضوحٍ في الآيتَيْن الأولى والأخيرة منَ السّورة في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: 1]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52]، فقد تناولتْ هاتان الآيتان أركانَ الدّعوة الرّئيسةَ وهي: الدّاعي، متمثّلًا في حالة الرّسل عليهم السلام، وهم مُمثَّلين بشخصِ النّبيّ محمّدٍ ﷺ، والمدعوّ؛ وهمُ النّاس جميعًا، والمَدْعو إليه وهو صراطُ العزيزِ الحميدِ، ومادّةُ الدّعوة أو مقصودُها وهو إخراجُ النّاس منَ الظّلمات إلى النّور ليوحّدوا اللّه ﷻ، ووسائلُ الدّعوةِ من هداية النّاسِ، واستعمالُ التّرغيب والتّرهيب والتّذكيرِ، وتناولت هاتان الآيتان الإشارة إلى الصّراع الذي يرافق ذلك والذي يُعوزُ الرّسلَ فيه إلى الإنذارِ أو التّبشير.

الخصائصُ الموضوعيّةُ:

وتناولتِ السّورةُ الكريمةُ في سبيل تحقيق محورِها مواقفَ النّاس من هذه الدّعوة وانقسامَهم في شأنها إلى مؤمنين وكافرين، ظالمين ومُستكبرين ومستضعَفين، وأتباعًا ومُتّبعين.

وفصّلتِ السّورةُ كذلك وسائلَ الدّعوة في كتابَيِ اللّه: الكونِ المنظورِ، والكتابِ المسطورِ، فعرضت آياتُ اللّه في الأنفس والآفاقِ، وعرضت هداياتِ الرّسلِ وكُتبَهم إلى أقوامِهم، متناولةً صفاتِ هؤلاء الرّسلِ ومهمّاتِهم، ووسائلَهم العقليّةَ والعاطفيّةَ في إثبات الحقّ ونفْيِ الشّبهات بما يلائمُ حالَ المَدعوّين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾،

(1) دروزة، التفسير الحديث: 5/213.

وقولُه: ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [إبراهيم: 10]، وقولُه على لسانهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: 12].

واستعملتِ السّورةُ في سبيل تحقيقِ الدّعوةِ أساليبَ متنوّعةً منها: التّرغيبُ والتّرهيبُ، والخبرُ والإنشاءُ، والقصصُ، وضربُ الأمثال، وركّزت كثيرًا على التّذكير بالنّعم وشُكرِها، والتّحذيرِ من جحود هذه النّعمِ ونُكرانِها.

وتحدّثتِ السّورةُ عنِ الدّعوة من خلال بيان العقبات التي تقفُ في طريقها، أو أسبابِ إعراض النّاسِ عنها: من إيثارٍ للدّنيا، واختلالٍ في الموازين، وتبعيّةٍ عمياءَ، وبيّنتِ السّورةُ كذلك بعضَ أساليب المُنكرين للدّعوة من تشكيكٍ وصدٍّ وسُخريةٍ وتهديدٍ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: 13].

وعرضتِ السّورةُ في أثناء ذلك كلِّه نماذجَ منَ دعوة الأنبياء ﷺ، من خلال قِصّتَيْ موسى وإبراهيم ﷺ والإشارةِ إلى بقيّة الأنبياء، وهو ما ورد في الآية رقم 9.

وبيّنتِ السّورةُ في تقريرها لَمحورِها الذي قامت عليه أثرُ الاستجابةِ لدعوةِ الأنبياء في تحقيقِ الأمنِ والتّوحيدِ من خلال دعوةِ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ ﷺ، والواردة في أواخر السورة في الآيات (35-41).

وأخيرًا عرضتِ السّورةُ ثمرةَ هذه الدّعوةِ، فبيّنت جزاءَ الفريقَيْن: المؤمنِ والكافرِ في الدّنيا والآخرة، وبيّنت جزاءَ الشيطان وأتباعِه منَ المُستكبرين والمُستضعَفين، فالمُستجيبون للدّعوة يَجدون في الدّنيا رغدَ العيشِ وديمومةَ النِّعم، وأمّا المُعرضون عنها فيقاسون مرارةَ زوالِ النّعم وسنّةِ الاستبدالِ وتغيّرِ الأحوالِ، وأمّا في الآخرة فقد بيّنتِ السّورةُ حالَ الفريقَيْن، وهو ما ورد في الآيات (49 - 51) والآية (23).

وتناولتِ الحديثَ عن نِعم اللّه في الإرشاد، والإيجاد، والإمدادِ في إزاء المُنكرين لها، إذ كثرت في السّورة ألفاظُ النِّعم والشّكرِ ومقارباتُها، وأضدادُها كالكفر وغيره، وكثرت فيها الآياتُ الّتي تذكّرُ بهذه النّعم في الأنفسِ والآفاق، كما في الآيات (5- 7)، والآيات (28- 29)، والآيات (32- 34، 37).

وتفرّدتِ السّورةُ بحديثها عن أنّ إرسالَ الرّسلِ كان بلُغاتِ أقوامهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾، وهذه إشارةٌ تاريخيَّةٌ مُناسبةٌ في سورةٍ حملت اسمَ إبراهيمَ عليه السلام، وفيها تَسليةُ الرّسولِ ﷺ عمّا لقيه من مُشركي قريش، تارةً عن طريق ما لقيه الأنبياءُ السّابقون من أقوامهم، وتارةً عن طريق بيانِ أنّ العاقبةَ للمتّقين.

وتفرّدتِ السّورةُ بمشاهدَ حِواريّةٍ بين المُستكْبرين والمُستضعَفين في الآخرة، وفي خطبة إبليسَ في أتباعه في ذلك الموقف العظيم، وذلك في الآيات (21- 22).

وتفرّدتِ السّورةُ بالحديث عنِ الاستبدال بأنواعِه كافّةً، سواءٌ أكان إيجابيًّا أم سلبيًّا، للأفضلِ أم للأسوأ كما في الآيات: (1، 7، 13، 14، 28، 48).

الخصائصُ الأسلوبية:

هناك العديدُ منَ الأساليب والقضايا اللّغويّةِ التي ميّزت هذه السّورةَ عن غيرها منَ السّور وإن شاركتْها في بعض السّماتِ ومنها:

أوّلاً: بروزُ ظاهرةِ التّقابلِ والتّضادِّ الثّنائيّةُ التي حفلت بها السّورةُ من أوّلها إلى آخرها، في كلّ مقطعٍ، بل في كلّ آية منها تجدُ الثّنائيّاتِ الضّديّةَ المتقابلةَ في جنباتِها، من مثلِ تقابلِ الهداية مع الضّلالِ، والشّكرِ مع الكفرِ، والوعدِ مع الوعيد، والمُستكبرين مع المستضعَفين، والكلمةِ الطّيبة مع الخبيثةِ، والتّثبيتِ مع الإبدال، والسّرِّ مع العلانيّة، والاتّباعِ مع العصيان، والإيمانِ مع الشكّ، و﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ مع ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾، و﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ [إبراهيم: 13] مع ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾ [إبراهيم: 14]، و﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: 6] مع ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ [إبراهيم: 6]، و﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [إبراهيم: 17] مع ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [إبراهيم: 17]، و﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17] مع ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17]، و﴿وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22] مع ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، و﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ [إبراهيم: 22] مع ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22]، فضلًا عنِ التّقابلاتِ المشهورةِ في القرآنِ من مثلِ التّقابلِ بين السّماء والأرض، واللّيل والنّهارِ، والإخفاءِ والعلنِ، والظّلماتِ والنّورِ، والجزعِ والصّبر، وغيرها.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورةُ بأمثلةٍ وتشبيهاتٍ وصورٍ بيانيّةٍ لم تردْ في غيرها من السّور، مثلَ تشبيه أعمال الكافرين بالرّمادِ، وتشبيه الكلمة الطّيبةِ بالشّجرة الطّيبةِ، والكلمة الخبيثةِ بالشّجرة الخبيثةِ.

ثالثًا: تفرّدت سورةُ إبراهيم عن غيرها منَ السّورِ باشتقاقاتٍ وصيغٍ لم تردْ إلّا في هذه السّورة، ومن تلك الألفاظ: ﴿ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: 24]، و﴿دَآبِبَيْنِۖ﴾ [إبراهيم: 33]، و﴿ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: 28]، و﴿أَضْلَلْنَ﴾ [إبراهيم: 36]، و﴿تَشْخَصُ﴾ [إبراهيم: 42]، و﴿خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: 26]، و﴿زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: 44]، و﴿قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: 50]، و﴿مُقْنِعِي﴾ [إبراهيم: 43]، و﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، و﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: 22]، وغيرُها كثيرٌ، وحظيتِ السّورةُ الكريمةُ كذلك بألفاظٍ تفرّدت بها عن غيرها منَ السّور من جهة الجَذرِ والمادّة؛ وهذه الألفاظُ هي: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17] و﴿كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: 18] و﴿وَفَرْعُهَا﴾ [إبراهيم: 24] و﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ [إبراهيم: 26]، وإنّ الجامعَ لهذه الألفاظِ التي تفرّدت بها السّورةُ أنّها ذاتُ اتّصال مباشرٍ بمحورِ السّورة القائم على بيان أثرِ الدّعوة في تحقيقِ الأمن والتّوحيدِ، وأنّ الكفرَ بهذه الدّعوةِ مُؤْذنٌ بزوال الأمنِ وخرابِ العُمْران.

المناسبةُ بين سورتي الرّعدِ وإبراهيمَ:

أوّلًا: ذكرَ سُبحانه في السّورتَين أنّه أنزل القرآنُ حُكمًا عربيًّا، ولم يُصرّحْ بحِكمةِ ذلك في الرّعد وصرّح بها في سورة إبراهيمَ.

ثانيًا: اتّفقتِ السّورتان على أنَّ أمرَ المُعجزاتِ متوقِّفٌ على إذن اللّه تعالى، ففي سورة الرّعد ذكرَ قولَه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: 38]، وفي سورة إبراهيم ذكرَ أنّ الرّسل قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 11].

ثالثًا: ذكرَ في سورة الرّعد أمرَه ﷺ بالتّوكّل على اللّه، وفي إبراهيم حكى عن إخوانه المُرسلين أمْرَهم بالتّوكّل عليه جلَّ شأنُه.

رابعًا: اشتملت سورةُ الرّعد على تمثيل الحقّ والباطلِ، واشتملت سورة إبراهيمَ على ذلك أيضًا.

خامسًا: ذكرَ في سورة الرّعد رفْعَ السماء بغير عمد ومدَّ الأرضِ، وتسخيرَ الشّمس والقمرِ، وذكرَ في إبراهيم نحوَ ذلك.

سادسًا: ذكرَ في الرّعد مكرَ الكفّار وذكرَ مثلَه في إبراهيمَ، وذكر مِن وصْفِه ما لم يذكرْ هناك[1].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/122.

سابعًا: قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ جوابُ الكافرين على هذا الكتابِ الذي جاءهمُ النّبيّ ﷺ به، والذي هو الحقُّ الذي أُنزل إليه من ربّه، وقولُه تعالى في أول سورة إبراهيم – بعد هذه السورة –: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ردٌّ على جواب هؤلاء الكافرين، وردعٌ لهم، وأنّهم لم يخرجوا منَ الظلمات إلى النّور، ولم يأذنِ الله لهم بالخروج من تلك الظّلماتِ[1].

والحقُّ أنّ سورةَ إبراهيم قد أكملتْ صراعَ الحقّ مع الباطل الّذي شرعَتْه سورةُ الرّعد، من خلال بيانِ كفاحِ الأنبياء مع أقوامهم، وما آلَ إليه حالُ تلك الأقوام، وعرضتِ السّورةُ الكريمةُ مشاهدَ من أحداث اليومِ الآخرِ تبيّنُ عاقبةَ هذا الصّراع الطّويلِ بين الحقّ وأهلِ الباطل، وكيف يتبرّأُ الباطلُ من نفسه وأعوانِه، فكأنّ السّورةَ الكريمةَ قد أجملت موجزَ هذه الرّحلةِ الطّويلةِ للأنبياء عليهم السلام مُمثَّلين بإبراهيمَ عليه السلام جدِّ الأنبياء جميعًا وانتهاءً بخاتم النّبيّين ﷺ، فهي رحلةُ التّدافعِ الكونيِّ والصّراعِ الأزليِّ بين الحقّ والباطلِ، حتّى يُزهقَ الحقُّ الباطلَ ويظهرَ أمرُ الله.

المناسبةُ بين سورتَيْ إبراهيمَ والحجرِ:

أوّلاً: جاء في آخر سورةِ إبراهيمَ قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52] وجاء في أوّل سورة الحِجر ما يبيّنُ طبيعةَ هذا الإنذار: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٍ مُّبِينٍ ١﴾ [الحجر: 1]، فكأنَّ الإشارة عادت على البلاغ المذكورِ في آخر سورةِ إبراهيم.

ثانيًا: ذكر تعالى في خواتيم سورة إبراهيمَ عاقبةَ الظالمين فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ [الحجر: 2]، فهذه الودادةُ إنّما تكونُ يومَ القيامة عندما يَرون العذابَ ويرون نجاةَ المسلمين وفوزَهم بالجنّة.

ثالثًا: قال ﷻ في خواتيم سورة إبراهيمَ في شأن الظّالمين: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/144.

أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: 44]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: 3]، فالذين في سورة إبراهيمَ ألهاهمُ الأملُ حتى ظنّوا أنّهم لا يزولون عن هذه الدنيا وإنّما هم خالدون فيها.

وجاء في تفسير البحر المحيط في أوّل سورة الحِجر: "ومُناسبَتُها لِما قبلَها: أنَّهُ تعالى لمّا ذَكَرَ في آخرِ السّورَةِ قبلَها أشْياء مِنْ أحْوالِ القيامَةِ مِنْ تبديلِ السّماوات والأرْضِ، وأحْوالِ الكُفّارِ في ذلك اليَوْمِ، وأنَّ ما أتَى به هو على حَسَبِ التَّبْليغِ والإنْذارِ، ابْتَدَأ في هذه السّورَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ الذي هو بَلاغٌ لِلنّاسِ، وأحْوالِ الكَفَرَةِ، ووِدادَتِهم لَوْ كانوا مُسْلِمينَ"(1).

والحقُّ أنّ كلتا السّورتَيْن يكمّلُ بعضُها بعضًا؛ فسورةُ الحِجر بيّنت أيضًا انقسامَ النّاسِ في شأن هذه الدّعوةِ، وبيّنت حالَ كلِّ فريقٍ، وعرضت لبعضِ آياتِ الله في الكونِ الدّالّة على وحدانيّته وكمالِه، وتناولت جانبًا قَصَصيًّا من حياة بعضِ الأنبياء بدْءًا من آدمَ أبي الأنبياءِ عليهم السلام، ومرورًا بإبراهيمَ عليه السلام وما جرى مع ضيوفِه وبُشراه بالولدِ، وكذلك جانبًا من قصّةِ لوطٍ عليه السلام، وكذلك قصّتَيْ أصحابِ الأيكةِ وأصحابِ الحِجر، فقد فصّلت سورةُ الحِجر ما أوجزَ في سورة إبراهيمَ من وسائلِ غوايةِ إبليسَ لآدم وذرّيتِه، وحوت في آخرها وصايا للنّبيّ ﷺ تَصلحُ أن تكونَ قواعدَ للدّعوة في كلّ زمان ومكانٍ، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 94 - 99].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/463 - 464.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾

[إبراهيم: 1 - 2]

أُنــزل القــرآنُ على النّبيّ ﷺ لهداية النّاسِ بإذنِ الله

مُناسَبَةُ بدايةِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

"ارْتِباطُ أوَّلِ هذه السّورَةِ بِالسّورَةِ التي قَبْلَها واضِحٌ جِدًّا؛ لأنّه ذَكَرَ فيها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ ثُمَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ [الرعد: 37] ثُمَّ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فَناسَبَ هذا قَوْلَهُ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، وأيْضًا فَإنَّهُم لَمّا قالوا على سَبيلِ الاقْتِراحِ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرعد: 27] وقيلَ لَهُ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرعد: 27] أنْزَلَ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ كأنه قيل: أو لم يَكْفِهِم مِنَ الآياتِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هي الضَّلالُ، إلى ﴿ٱلنُّورِ﴾ وهو الهُدَى"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطِ﴾: الصّادُ في صرط مبدلةٌ مِنَ السّين، والسّين والراء والطاء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على غيبةٍ في مرٍّ وذهابٍ. من ذلك: سرطتُ الطّعامَ، إذا بلعتُه؛ لأنَّه إذا سرط غاب[2]، وخصَّه اللّغويون بالطّريق المستقيمِ؛ لأنَّه يَسترطُ المارَّةَ[3]. والمرادُ بالصّراط في الآيةِ هو طريقُ الإسلامِ الموصِلِ إلى النَّجاة عند اللّه تعالى؛ لأنَّه يجعلُ السّالكين فيه على استقامةٍ وقوامةٍ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرط).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (صرط): 3/411.

2) ﴿وَوَيۡلٞ﴾: "أصلُ (الوَيل) في اللُّغَة: الهَلاك والعَذاب"[1]، و"الوَيْلُ حُلولُ الشَّرِّ. والوَيْلَةُ: الفضيحةُ، وقيل: هو تَفَجُّعٌ. ووَيَّلَه ووَيَّلَ له: أكثر له من ذكر الويلِ، وتويِّل هو: دعا بالويل لما نزل به"[2]، والويلُ "كلمةُ دُعاء بِالهَلاكِ والعَذاب، وهي في الأَصْل مصدرٌ لم يسْتَعْملْ لَهُ فعلٌ، يُقال: ويلٌ لزيد، وويلاً لَهُ، بِالرَّفْع على الِابْتِداء والنّصب بإضمار الفِعْل، وأما إذا أضيف فلَيْسَ لَهُ إِلّا النّصبُ، يُقال: ويلاً لمن وقع فيه، وويل فلان أي: الخزيُ لَهُ"[3]. والمقصودُ بالويلِ في الآيةِ الوعيدُ للكافرين، بإنزال الهلاكِ والعقوبةِ فيهم يومَ القيامةِ.

المَعْنى الإجْماليّ:

بالقرآن الكريم يَخرجُ النّاسُ من ظُلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ

"هذا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يا مُحَمَّدُ، وهو القُرْآنُ العَظيمُ، الذي هو أشْرَفُ كِتابٍ أنْزَلَهُ اللّه ﷻ مِنَ السَّماءِ، على أشْرَفِ رَسولٍ بَعَثَهُ اللّه في الأرْضِ، إلى جَميعِ أهْلِها عَرِبِهِم وعَجَمِهِم، وإنَّما بَعَثْناكَ يا مُحَمَّدُ بِهذا الْكِتابِ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِمّا هُم فيهِ مِنَ الضَّلالِ والغَيِّ إلى الهُدَى والرُّشْدِ، وهو سبحانه العَزيزُ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، بَلْ هو القاهِرُ لِكُلِّ ما سِواهُ، المَحْمودُ في جَميعِ أفْعالِهِ وأقْوالِهِ، وشَرْعِه وأمْرِهِ ونَهْيِهِ، الصّادِقُ في خَبَرِهِ المالك لكلّ شيءٍ في الكون، ووَيْلٌ لهؤلاء النّاس يَوْمَ القيامَةِ إذْ خالَفوكَ يا مُحَمَّدُ وكَذَّبوكَ"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بَراعةُ الاسْتِهلالِ بالأحرُفِ المُقطّعةِ:

التّنويهُ بشأنِ القُرآنِ الكريمِ النّازلِ بالنّورِ لإخراجِ النّاسِ إلى النّورِ

إنّ اصْطفاءَ هذه الأحرفِ المقطَّعةِ، المُفْتَتَحِ بها بعضُ سورِ الذّكرِ الحكيم، واصطفاءَ مواضعِها، وأعدادِها يَبقى سرُّه عند اللّه تعالى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).
(2) ابن سيده، المحكم: (ويل).
(3) أبو البقاء، الكليات: (ويل).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/476.

منزِّلِ الكتاب، وأنّ ما قيل ويُقال في تأويلها: إنما هي آراءُ علماءَ مُحبّين لكلام الله تعالى، مُجتهدين في فهم أسراره بحسب طاقةِ عقولِهم البشريّة.

وهذه الأحرفُ وجْهٌ من وجوه إعجازِ القرآن الكريم، ودليلُ تحدٍّ للإنس والجانِّ بأن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ المركَّبِ من هذه الأحرفِ، التي بَهَرَتْهُم[1] على اختلافِ أعدادِها، وموضعِ كلٍّ منها من سورِ الذّكرِ الحكيم، وقد "قال بعضُهم: لكلِّ كتابٍ سِرٌّ، وسِرُّ القرآن فواتِحُه"[2].

ولعلَّ من أسرارِ وضْعِها في أوائل السّورةِ هنا ومطالعِ السّوَرِ عمومًا أنَّ الله تعالى "أسمعَهم هذه الحروفَ مقطّعةً على خلاف ما كانوا يَسمعون الحروفَ المنظومةَ في الخطاب؛ فأعرضوا عن كلِّ شيءٍ وسمعوا لها، ونبَّهَهُم القرآنُ إلى أنَّ هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب، فقال لهم لمّا حضرتْ ألبابُهم، واستعدَّتْ لسماعِ ما يقولُ آذانُهم"[3]: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

فهذه الأحرفُ ابتُدِئَ بها في هذه السّورةِ لما فيها من نصرةٍ لدين الإسلام، وما اشتملتْ عليه من رفعِ عقيدةِ التَّوحيد، وبيانِ ما استهلَّت به منَ التَّنويه بشأنِ القرآنِ الكريم، المنعوتِ بالكتابِ المُنَزَلِ إلى الأرضِ منَ السَّماءِ، بقصْدِ الإخراجِ منَ الظلماتِ إلى النّور.

موقعُ جملةِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

الكتابُ المنزَّلُ مُؤلَّفٌ منَ الأحرُفِ المقطَّعةِ

اختُلِفَ في إعرابِ ﴿الٓرۚ﴾ فقيل: إنَّها مبتدأٌ وخبرُها كتابٌ، وقيل: إنَّها خبرٌ والمبتدأ محذوفٌ، "تقديرُه: هذه ﴿الٓرۚ﴾، وفي مَوضع نَصْب على تَقْدير: الْزَم أوِ اقْرَأ ﴿الٓرۚ﴾، و﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ جُمْلَةٌ مُفَسِّرَةٌ في هذين الإعرابين"[4].

(1) "بَهرَهُ الشَّيءُ: أدهشه وحيَّره، جذب انتباهه "بهرتني فطنته وذكاؤه في المناقشة - بَهَرَ المغني الجمهورَ بصوته". يُنظر: مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بهر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/210.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/262.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/405.

فإذا كانت ﴿الٓرۚ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ للتي قبلَها، أي: هذه الر، كتابٌ أنزلناه إليك؛ أي: أنَّ الكتابَ مؤلَّفٌ من هذه الأحرفِ المقطَّعة التي ذُكِر في مطلعِ هذه السّورة بعضٌ منها.

غَرَضُ تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تعظيمُ القرآنِ العظيمِ والتَّنويهُ بشأنِه غايةً وقصْدًا

تنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يُضْفي عليه الفخامةَ والجلالَ، ويوحي بأنه ﴿كِتَٰبٌ﴾ لا يُقادَرُ قدْرُه، ولا يُحاطُ بفضله، وذلك على عادة التّنكيرِ منَ التّلوُّنِ مع المقاماتِ بين التّفخيمِ والتّحقيرِ، والتّهويلِ والتّهوينِ، والمقامُ هنا للتّفخيم والتّعظيم، فما أعظَمَه من ﴿كِتَٰبٌ﴾! وما أفخَمَه من ﴿كِتَٰبٌ﴾ قال اللّه تعالى فيه: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 38]! وفي تنكيره "تنويهٌ بشأن القرآن الكريم، وبيانٌ للغرَضِ السّامي الذي أنزلَه اللّه تعالى من أجلِه"[1].

سِرُّ إيثارِ لفْظِ كتابٍ:

القرآنُ راسخٌ في معناه، ثابتٌ في مَبناه، باقٍ في أثرِه

في بدْءِ السّورة الكريمةِ يُذكر الكتابُ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ إثْرَ خَتْم السّورةِ السّابقةِ (الرعد) بذكر الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيتحقّقُ الاتّساقُ الدقيقُ، بين اللَّفظَين، ففي آية الرَّعد يحتملُ لفظُ الكتاب معانيَ عدّةً، أمّا هنا فمحمولٌ على القرآن الكريم وحدَه، وفي ذلك إشارةٌ خفيَّةٌ إلى نوعِ مَيْلٍ لأنْ يكونَ المقصودُ بالكتابِ القرآنَ، وفائدةُ البدءِ بالكتابِ الإشارةُ إلى أنَّه كتابٌ ثابتٌ باقٍ راسخٌ، لا يتغيَّرُ ولا يتحوَّلُ ولا يتبدَّلُ، إلّا بأمرِ المُنزلِ القهّارِ.

نُكتةُ الوصْفِ بالفعلِ الماضي:

يُتيح الوصفُ بجملةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ ذِكرَ عناصرَ تُغني

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/510.

الإخبارُ عن اكتمالِ نُزولِ القرآنِ الكريم إشارةٌ إلى إعْجازٍ غيبيٍّ مستقبليٍّ

الدّلالاتِ، وتمنحُها غزارةَ الإشاراتِ، من ذلك الفعلُ (أنزل) مادّةً وصيغةً، إذِ المادّةُ تُضفي على الـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ صفةَ التَّجسيد، وكأنّه شيءٌ محسوسٌ مُجسَّمٌ أُنزلَ منَ السّماء؛ كنايةً عن وضوحِه، وتميُّزِه، واكتمالِ فوائدِه، والصّيغةُ الماضيةُ تُفصِحُ عن تحقُّقِ نزولِه من عُلوٍّ، منَ السّماء على رسول اللّه ﷺ، وأنَّ هذا الإنزالَ سيكتملُ، فهي إشارةٌ إلى اكتمالِ النّزولِ، وهذا من باب الإعجازِ الغيبيِّ.

غرَضُ إسنادِ فعْلِ أنزلَ:

اشتملَ القرآنُ ضَماناتِ الفوزِ وأسبابَ الشَّرفِ المُعلَّى لأهلِه المؤمنين

ضميرُ العظمةِ (نا) في قولِه تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يفيدُ التّعظيمَ، ويدلُّ دلالةً قاطعةً على أنّ الـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ من عندِ اللّه تعالى، وأنه لذلك ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيمٌ مباركٌ، نافعٌ لكلِّ مَن يأخذُ به، ويتشبَّثُ بعقائدِه وشرائعِه، وأنّه ذِكرٌ له وشرفٌ؛ لأنّه عُلويُّ النَّسَب، علويُّ التّوجيهاتِ ساميها؛ فأكرم به من ﴿كِتَٰبٌ﴾! وما دام القرآنُ الكريم كتابًا أنزلَه اللّه تعالى فجديرٌ بالنّاسِ أن يحتضِنوا أنوارَه، وأن يلتزِموا تكاليفَه، وأن يستثْمِروا تعاليمَه؛ ليَضمَنوا السّلامةَ ويَهنَؤوا بالطّمأنينةِ والرّخاءِ.

بَلاغةُ التَّصريحِ بقولِه: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ و﴿إِلَيۡكَ﴾:

تشريفُ النّبيِّ بأن جُعلَ مُنتهَى الإنزالِ إليه

القيدُ ﴿إِلَيۡكَ﴾ قيدٌ ضروريٌّ في بيان مغزى الكلامِ وتقريرِه؛ فإنَّ الكفّارَ لا يُنكِرون إنزالَ القرآن، وإنّما يُنكِرون أن ينزَّلَ عليه ﷺ، وقد قالوها صريحةً: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]! فكونُ الإنزالِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا محمّد صلى اللّه عليك وسلم قضيّةُ القضايا في هذا السّياقِ المربوطِ بآخر السّورة السّابقةِ، فيهدمُ قولَهم هناك: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، ويُبوِّئُك منزلتَك التي أكرمَك اللّه تعالى بها منَ التّشريف، ويُقرِّرُ أنّك رسولٌ مُرسلٌ من قِبَلِ الحقّ جل جلاله، وأنّك مقوًّى بالكتاب، وأنَّ إنزالَ الكتاب قبل ذِكر

عِلَّتِه وسببِه إنّما كان ﴿إِلَيۡكَ﴾، وفي ذلك ردّ فخيمٌ لاعتبارِه ﷺ إزاءَ تكذيبِهمُ الآثمِ، وفيه من تشريفِ المُنزلِ إليه وتكريمِه ما تعجزُ الأقلامُ عن وصفِه، وفيه رِفعةٌ للنّبيّ ﷺ بأن جُعل مُنتهى الإنزالِ منَ اللّه تعالى إليه.

بَلاغةُ تقْييدِ الإنزالِ بغايتِه:

عِلَّةُ إنزالِ الكتابِ تَنْويرُ النّاسِ بعدَ ظُلْمَتِهم

تُحدِّدُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من خلال هذا القيّدِ غايةَ إنزالِ الكتابِ الأولَى على الرّسولِ ﷺ، وأنَّها إخراجُ ﴿ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وأنّها "لتهديَهم به من ظلماتِ الضّلالة والكفرِ إلى نور الإيمانِ وضيائِه، وتُبصّرُ به أهلَ الجهلِ والعَمى سُبلَ الرّشاد والهدى"[1]. وما أجملَها من غاية! لكتابٍ ما أجملَه من كتاب! على رسولٍ ما أجمله من رسول! وهل توجد غايةٌ لكتابٍ أفضلُ ولا أطيبُ ولا أهدى من هذه الغاية؟ إنّها غايةٌ تؤدّي إلى أشرف نهايةٍ لأشرف كائنٍ يعيش على هذا الكوكب، إنّها ترمي إلى إخراج الناس - كلِّ النّاس - منَ الظّلمات - كلِّ الظّلمات - إلى النّورِ الواحدِ.

فمدارُ إنزالِ الكتابِ على قلبِ النَّبيِّ ﷺ هو إخراجُ النّاسِ من الظُّلمات إلى النّور، فاللّامُ تعليليَّةٌ من حيث الوظيفةُ التَّبليغيَّةُ، وللعاقبة من حيثُ الإخبارُ، و"تَعْليلُ الإنْزالِ بالإخْراجِ مِنَ الظُّلُماتِ دَلَّ على أنَّ الهدايَةَ هي مُرادُ اللّه تعالى مِنَ النّاسِ، وأنَّهُ لَم يَتْرُكْهُم في ضَلالِهِم، فمَنِ اهْتَدَى فَبِإرْشادِ اللّه ومَنْ ضَلَّ فَبِإيثارِ الضّالّ هوى نَفسِه على دَلائِلِ الإرْشادِ، وأمْرُ اللّه لا يَكونُ إلّا لِحِكَمٍ ومَصالِحَ بَعْضُها أكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ"[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/588.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/180.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في لفْظِ: ﴿لِتُخۡرِجَ﴾:

تصويرُ المعقولِ أدعى لاجْتِنابِ الغَوايةِ وتحقيقِ الهِدايةِ

شُبِّهتِ الهدايةُ بالإخراجِ، وصُرِّح بالإخراجِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والتَّعبيرُ بالاستعارةِ أبلغُ مِنَ الحقيقةِ، إذِ الاستعارةُ فيها تصويرُ المعنى المعقولِ بصورةِ المحسوسِ، وذلك أدعى للتَّرغيبِ بالهدايةِ، واجتنابِ الغَوايةِ.

بَلاغةُ إسنادِ الإخراجِ إلى الرَّسولِ:

هِدايةُ الرَّسولِ هدايةُ إرشادٍ وتعليمٍ

جاء إسنادُ إخراجِ النّاسِ مِنَ الظّلماتِ إلى النّورِ إلى رسول الله ﷺ، لا إلى الفاعلِ الحقيقيِّ وهو الله تعالى؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: 56]، فهو إسنادٌ مَجازيٌّ، وفي إسنادِ الإخراجِ إليه ﷺ تَنْويهٌ عظيمٌ وتشريفٌ لَهُ ﷺ مِنْ حَيْثُ المُشارَكَةُ في تَحْصيلِ الهدايَةِ بإنْزالِه تعالى، وبإِخْراجِهِ ﷺ، إذْ هو الدّاعي والمُنْذِرُ[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52]، وهو بذلك يجبُرُ بخاطره إزاءَ إنكارِ قومه له ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، في الوقت ذاتِه الذي يحتفظُ بإذنِ الإخراجِ إلى صاحب الإذنِ ﷻ؛ فسُبحانَ مَن هذا كلامُه!.

بَلاغةُ الاحْتِراسِ في لفظْ النّاسِ:

دفعُ أوهامِ الأفهامِ أنَّ المُرادَ بالنّاسِ العربُ دونَ سِواهم

آثَرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دون الكافرين في جملةِ ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والإخراجُ إنّما يكونُ للكافرين، فلفظُ النّاسِ لفظٌ عامٌّ، فتعريفُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ يتَّسعُ ليَستقصيَ كلَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في كلِّ زمانٍ ومكان، فلا أحدَ مِنَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أحقُّ باعتناق هذا الدين من أحدٍ منهم، وذلك يَلتقي مع قوله ﷺ: «وكان النّبيُّ يُبعثُ في قومه خاصّةً وبُعثْتُ إلى النّاسِ عامَّةً»[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (335)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (14264) بزيادة لفظ (إنّما).

وكذلك لأنَّ التَّعبيرَ بالنّاس أحقُّ بجميعِ النّاسِ كأهل الكتابِ وأصحابِ الدّياناتِ غيرِ الغيبيّةِ وجميع المللِ، وهم وإن كانوا كافرين، إلّا أنَّه قد يُظنُّ بأنَّ المرادَ بالكافرين العربُ لا سِواهم، فهذا تعبيرٌ احتراسيٌّ كي لا يُظنَّ بأنَّ المرادَ خصوصُ العربِ لا عمومُ النّاسِ، فالنّاس كلُّهم مخلوقون مربوبون مُتعبَّدون للّه ﷻ، وهذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ اللّه ﷻ للجميع بركةً وهدايةً، وعلى الجميع التزامُ تعاليمِه، لينجوَ الجميعُ من تخبُّطِ الشّركِ، ويَهتدوا بأنوار الذِّكرِ، في الوصول إلى اللّه تعالى، ويَسعدوا بالفوز والرّضوانِ.

بَراعةُ اسْتِعمالِ حرفي ﴿مِنَ﴾ و﴿إِلَى﴾:

التَّنْبيهُ على البداياتِ المُظلمةِ توطئةٌ للكَشْفِ عنِ النِّهاياتِ المُشرقةِ

استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جاء على غاية البراعةِ، فهو تنبيهٌ على مبدأ الإخراجِ، وهو يُقابلُ حرفَ ﴿إِلَى﴾ الذي يُنبِّهُ على غاية الإخراجِ، وهي تَوطئةٌ لِما بعدَها من ذكرِ الطّريق المُنْجي في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، فهو انتقالٌ من مكانٍ غائرٍ مظلمٍ إلى مكانٍ منكشفٍ واضحٍ، للمُضيِّ في طريقٍ نيِّرٍ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في كلمتَي (الظلمات والنّور):

الإخــــراجُ من ظُلماتِ الجهْلِ والشّكِّ إلى نور العلْمِ واليقين

شَبَّهتِ الآيةُ الكفرَ بالظّلمات، والإسلامَ بالنّور[1]، ثم حَذَفتِ المُشبَّهَ وصرَّحت بالمشبَّهِ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ في الكلمتَين، وهاتان الصّورتان البيانيتان عَلَمانِ من أعلامِ البيانِ العربيِّ الأصيلِ على الإطلاقِ، ولا يوجدُ في اللّغة غالبًا أشهرُ ولا أبينُ عنِ المقصودِ هنا منهما. فالظّلماتُ هي جميعُ الضّلالاتِ الصّادَّةِ عن دين اللّه تعالى، والنّورُ هو الهُدى الدّالُّ على الحقِّ، فالرّسول ﷺ يُخرجُ النّاسَ بهذا الكتاب المبينِ "من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم، ومن ظلماتِ الشّكّ إلى نور اليقينِ، ومن ظُلمات التّدبيرِ إلى فضاء شهودِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.

التّقدير، ومن ظلماتِ الابتداعِ إلى نور الاتِّباعِ، ومن ظُلمات دعاوَى النّفسِ إلى نورِ معارفِ القلبِ، ومن ظلمات التّفرقةِ إلى نور الجمْعِ"[1].

الكفرُ والضّلالُ ظُلمتان روحيتان وعَقْليتان

على أنَّ أدقَّ المعاني المقصودةِ بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الكفرُ والضّلالُ، والكفرُ والضّلالُ ظلمةٌ روحيةٌ وعقليةٌ، يجعلان صاحبَهما الكافرَ الضّالَّ يَتخبَّطُ في حياته الرّوحيّةِ والفكريّةِ كما يتخبّطُ الماشي في ظلمةِ محسوساتٍ؛ تحطِمُه أو يحطمُها.

فـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾ منَ البيانِ الكاشفِ في أعالي درجاتِ الإبانةِ، ولن يَبلغَ المعنى المقصودُ وضوحًا لو صُرِّحَ بالكفر والإيمانِ مباشرةً بدون تصويرٍ، وكأنّه ﷺ بهاتين الاستعارتَيْن يُخرجُ النّاس منَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الحقيقيّةِ إلى ﴿ٱلنُّورِ﴾ الحقيقيِّ بهذا الكتاب العظيم؛ إذِ الاستعارةُ مرحلةٌ أَدْخلُ في المبالغة منَ التّشبيه القائلِ بالمُغايرةِ.

ولا أكشَفَ عن خطورةِ الضّلال والكفرِ من صورة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الصّريحةِ، كما أنه لا أكشَفَ عن بركاتِ الهُدى والإيمانِ على صاحبِهما من صورة ﴿ٱلنُّورِ﴾ الذي يكشفُ لصاحبِه مساربَ الحياةِ، ويُريه ما فيها من عقباتٍ؛ فيتَحاشاها فلا تحطمُه ويَنجو هو، ولا يحطمُها فتنجو هي.

بَلاغةُ تنوُّعِ الاستعارةِ في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

الخارجُ منَ الظّلماتِ ناجٍ من دَرَكِ الموتِ إلى رِفْعةِ الحقّ

للفْظِ الظّلمات استعارةٌ أخرى، وهي أنّه شبَّهَ الظّلماتِ بالبئرِ الذي يخرجُ منه النّاس، وحذفَ المشبّهَ به وذكر لازمًا من لوازمه وهو الإخراجُ، فعلى هذا الوجهِ هي استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليّةٌ، وهي كذلك تخييليَّةٌ؛ لأنَّها تُخيِّلُ هيئةَ الخارجِ منَ الظّلمات بهيئةِ النّاجي من بئرِ الموتِ إلى نورِ الحقِّ.

---

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/238.

نُكتةُ جمْعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طريقُ الحقِّ واحدٌ، وطُرُقُ الضّلالِ كثيرةٌ

في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جمعَ النّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لِتنوُّعِ مصادرِ الضّلال، وتعدُّدِ مظاهرِ الكفر، التي تتكاثفُ على الكافرِ الضّالِّ فتُفسدُ عليه الحياةَ الدنيا، وتُسعِّرُ عليه الحياةَ الأُخرى، في حين أفردَ لفظَ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّه لا نورَ إلا من قِبَلِ اللّه تعالى، فـ ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35]، ولبيانِ أنَّه مَنِ ابتغى النّورَ في غيرِ شِرعتِه ومنهاجِه ضلَّ سَواءَ السّبيلِ، وتاهَ في ظُلماتِ الضّلال، فمصدرُ النّورِ الرّوحيّ والعقليّ هو نورُ اللّه تعالى ودينُ اللّه ﷻ ومنهجُ اللّه وحدَه.

بَلاغةُ الاحْتِراس بقيدِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾:

وظيفةُ الرّسولِ ﷺ الدّعوةُ للإخراجِ وحقيقةُ الأمرِ لصاحبِ الأمرِ

هذا القيدُ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ قيْدٌ للفعل ﴿لِتُخۡرِجَ﴾، أي أنّه ﷺ لا يُخرِج مَن لم يأذنْ له اللّه تعالى بالخروج منَ الظّلمات إلى النّور؛ فلا تَظُنَّنَّ أنَّ أحدًا حتى رسول اللّه ﷺ قادرٌ على أن يُخرج النّاسَ منَ الظّلمات إلى النّور بقُدرته، ولكنْ بتوفيق اللّه ﷻ وإذنه، وإرادته، وتوفيقِ ربّهم لهم بذلك، ولطفه بهم، وبأمر ربِّهم، وبعلم ربِّهم، وقضائه به، وتمكينه لهم[1]؛ "وذلك يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمَكِنُهُ إخراجُ النّاسِ من الظّلُماتِ إلى النّورِ إلّا بمشيئة اللّه"[2]؛ فإنّه ﷻ: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

ففي هذا القيدِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ "احتراسٌ؛ لبيانِ أنّ نقلَ النّاس من حال إلى حالٍ إنّما هو بإرادةِ اللّه تعالى ومشيئته، وأنّ الرّسولَ ﷺ ما هو إلّا مُبلّغٌ فقط، أمّا الهدايةُ فمنَ اللّه ﷻ وحدَه"[3]، فاستعملتِ "الباءُ في ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ"[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/588، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/321، والماوردي، النكت والعيون: 3/120.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/57.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.

إذنُ الله تعالى إن جاءَ خرجَ العبدُ من بئرِ الظّلماتِ إلى طريقِ الأنوارِ

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ الإذنِ:

في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ شبَّهتِ الآيةُ توقُّفَ الإخراجِ من بئر الظّلماتِ إلى نور الطّريقِ بالإذن؛ فـ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، "أي: بتسهيلِه وتيسيرِه، مُستعارٌ منَ الإذن الذي هو تسهيلُ الحجابِ، وذلك ما يَمنحُهم منَ اللّطفِ والتّوفيقِ"[1]، أي: بعدَ صدورِ إذن اللّه يكونُ إخراجُ النّاس منَ الظُّلمات إلى النّور، فالإخراجُ مُتوقّفٌ على الإذنِ الربّانيِّ، فهو تشبيهُ الإذن بشيءٍ مانعٍ منَ الإخراج، فإن أذنَ اللّه أُخرِجوا، ففيه بيان أنَّ فضلَ الهداية هو للّه تعالى وحدَه، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو وسيلةُ تلك الهدايةِ، وهذا يُقوّي جعْلَ الباءِ للسَّببيَّةِ، أي: بسببِ إذنِ اللّه تعالى يخرجُ العبادُ من سجنِ الظّلماتِ إلى أنوارِ الطّريقِ المستقيم.

التَّربيةُ الرّوحيَّةُ من مَظاهرِ الرُّبوبيَّةِ ورِعايةِ العبادِ

نُكتةُ ذكْرِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ دونَ الْأُلوهيّةِ:

دَرَجَ الذِّكْرُ الحكيمُ على ذِكر صفةِ الـ (رَّبِّ) في مواضعِ ذكْرِ إنعامِه ﷻ على عباده، ومن أعظم نَعمائِه ﷻ على عباده أن يَأْذنَ لهم ويوفّقَهم إلى الخروج منَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للنَّجاةِ إلى نورِ الإيمان ونورِ اليقين؛ لذلك آثرَ السّياقُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ وصْفَ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دونَ (اللّه)؛ فالهدايةُ من آثار الرُّبوبيَّةِ، وهي مُشعرةٌ بالتّربيةِ لاسيَّما التَّربيةُ الرّوحيّةُ.

و"لَمّا ذكرَ علَّةَ إنزالِ الكتابِ وهي قولُه: ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ قال: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أيْ: ذلك الْإِخْراجُ بتسهيلِ مالكِهم النّاظِرِ في مصالحِهم، إذ هم عبيدُه، فناسبَ ذكرُ الرَّبِّ هُنا تَنْبيهًا على منَّةِ المالِكِ، وكونُهُ ناظرًا في حال عبيدِه"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/537، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

رِعايةُ اللهِ ورحْمتُه تَلْحقُ جميعَ النّاسِ مُؤمنِيهم وضالِّهم

في إضافة (الرّبّ) سُبحانه إلى ضميرِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في ﴿رَبِّهِمۡ﴾ من معاني التّلطُّفِ بهم، والتَّحَنُّنِ عليهم، والعنايةِ بهم ما فيه، كما فيه من وجوب طاعتِه، ووجوبِ الإحساسِ بالانتماءِ إليه، والولاءِ له؛ فلا (ربّ) لهم سِواه ﷻ، ولا يُرَبّيهم ولا يقومُ على كلِّ نفسٍ منهم إلّا هو عزَّ في عُلاه؛ ولا (نور) إلّا في الدّين الحقِّ ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، المذكورِ في أوّلِ القرآنِ الكريم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 7]. فهو (صراطٌ) واحدٌ، وهو (إيمانٌ واحدٌ)، وهو هدًى واحدٌ، و«مَن ابتغى الهُدى في غيرِه أضَلَّهُ اللّه»[1].

بَراعةُ جُملةِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

النّورُ الحقُّ هو صِراطُ الحقِّ

قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لزيادةِ بيانِ المُبدَلِ منه اهتمامًا به، وتأكيدًا للعاملِ[2]، وهو قرينةُ صرْفِ ﴿ٱلنُّورِ﴾ عن ظاهرِ معناه إلى المعنى المجازيِّ المقصودِ وهو كونُ الإخراجِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لا إلى نورٍ حِسّي حقيقيٍّ، ولا إلى نورٍ هُلاميٍّ فضفاضٍ، وفي ذلك قَطْعٌ للطّريقِ على أصحاب الفَلسفاتِ الرّوحيَّةِ والنّظريّاتِ المُتعاقِبةِ على صفحة الزّمان، الذين يَدعون لِفلسفاتِهم ونظريّاتِهم، دونَ ضابطٍ شرعيٍّ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿صِرَٰطِ﴾ بُدِئَ به على وجه الاستئنافِ، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نورٍ؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد[3]. والإعرابان يَجتمعان في بيانِ المقصودِ بالنّور، وتعيينِ الطَّريقِ الموصلِ إلى الحقِّ ﷻ.

مُناسبةُ الاسْتِعارة في ﴿صِرَٰطِ﴾:

الخارجُ من بِئْرِ الظُّلماتِ يَبحثُ عن نورِ الطَّريقِ وضياءِ السَّبيلِ

معنى (الصّراط) في اللّغة: "الجادَّةُ، والطريقُ، من سَرَطَ

(1) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (2906).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

الشّيءَ إذا ابتلعَه، وسُمّي الطريقُ بذلك؛ لأنه يبتلعُ المارّين فيه، وأُبدِلتْ سينُهُ صادًا على لغةِ قُريشٍ"[1]، وعلى ذلك فلفظُ الصّراطِ مُستعارٌ لدين اللّه ﷻ الإسلام، من باب الاستعارةِ التّصريحيّةِ الأصليَّةِ؛ ليُضفي عليه معانيَ الوضوحِ والاستقامةِ، والتّوصيلِ إلى السّلامةِ، وما إلى ذلك من خصائصِ الطّريقِ المُستقيم، ومن هنا فمناسبةُ ذكْرِ الصّراطِ مع لفظِ الإخراجِ في كوْنِ الذي يخرجُ من بئْرِ الظّلمات يحسُنُ به أن يُحتضنَ بصراطِ الحقِّ، فهو خروجٌ من مكانٍ واستقرارٌ في آخرَ.

ما أنْزلَ الكتابَ إلّا عزيزٌ لا يُغالَبُ وحميدٌ يَستحقُّ عَظيمَ الشُّكْرِ وكبيرَ الحمْدِ

مُناسبةُ تلازُمِ صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

في صفة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ نَشْرٌ للطّمأنينةِ في نفوس النّاس، إذ إنّ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ (عزيز) غالبٌ قويٌّ قادرٌ، ومنه عِزُّهم وعِزَّتُهم، وبدونه لا ربَّ ولا عِزَّ ولا عِزّةَ لهم؛ ففي صيغة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ معنى (المُعِزّ)، فهو (عزيز) في نفسه، ويُعِزُّ غيرَه كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26].

فهاتان الصِّفتان ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ "لائقتانِ بهذا الموضع؛ فالعزَّةُ من حيثُ الإنزالُ للكتاب، وما في ضِمْنِ ذلك منَ القدرة، واسْتيجابِ الحمْدِ من جهةِ بَثِّ هذه النِّعَمِ على العالَم في نَصْبِ هدايتِهم"[2]، وقدِ اخْتيرت هاتان الصِّفتان "لمزيدِ مُناسبتِها للمَقام؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغْلَبُ، وإنزالُ الكتابِ برهانٌ على أحقيَّةِ ما أرادَهُ اللّه منَ النّاسِ فهو به غالِبٌ للمُخالِفينَ مُقيمٌ الحُجَّةَ عليهم، و﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: بِمَعْنَى المَحْمودِ؛ لِأنَّ في إنْزالِ هذا الكِتابِ نِعْمَةً عظيمةً تُرشدُ إلى حَمْدِهِ عليه، وبذلك استوعبَ الوَصْفانِ الإشارَةَ إلى الفَريقَيْنِ مِنْ كُلِّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/510.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/322.

مُنْساقٍ إلى الاهْتِداءِ مِنْ أوَّلِ وهْلَةٍ، ومِنْ مُجادِلٍ صائرٍ إلى الاهْتِداءِ بَعْدَ قيامِ الْحُجَّة ونفادِ الحيلَةِ"[1]، كذلك لمّا "تقدَّمَ شَيْئانِ: أحَدُهُما: إسْنادُ إنْزالِ هذا الكِتابِ إليه سُبحانه، والثّاني: إخْراجُ النّاسِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ بِإذْنِ رَبِّهم ناسَبَ ذِكْرُ هاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ صِفَةِ العِزَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِلْقُدْرَةِ والغَلَبَةِ؛ وذلك مِنْ حَيْثُ إنْزالُ الْكِتابِ، وصِفَةِ الحَمْدِ المُتَضَمِّنَةِ اسْتِحْقاقِه الحَمْدَ مِنْ حَيْثُ الإخْراجُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، إذِ الهِدايَةُ إلى الإيمانِ هي النِّعْمَةُ التي يَجِبُ على العَبْدِ الحَمْدُ عليها والشُّكْرُ"[2].

كذلك "في وصْفِ اللّه سُبحانه بهاتين الصّفتَين الكريمتَين: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ تهديدٌ للكافرين بعزّة اللّه، وسُلطانِه الغالبِ، وتذكيرٌ للمؤمنين بنعمةِ اللّه عليهم بالإيمان، وأنّه المُستحقُّ للحمد، والحامدُ لعبادِه المؤمنين ما يُقدّمون له من طاعاتٍ وقُرُباتٍ"[3].

غرَضُ تَقْديمِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾:

صفةُ الحميدِ كالثَّمَرةِ لِصِفةِ العزيزِ

قَدَّمَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ صفة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ذِكْرِ صفة ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ لأمورٍ:

الأوَّلُ: "أوَّلُ العِلْمِ باللّه العِلْمُ بِكَوْنِه تعالى قادِرًا، ثُمَّ بَعْدَ ذلك العِلْمُ بِكَوْنِه عالِمًا، ثُمَّ بَعْدَ ذلك العِلْمُ بِكَوْنِه غَنيا عَنِ الْحاجاتِ، و﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ هو القادرُ و﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ هو العالِمُ الغَنيُّ، فَلَمّا كانَ العِلْمُ بِكَوْنِه تعالى قادِرًا مُتَقَدِّمًا على العِلْمِ بِكَوْنِه عالِمًا بالكُلِّ غَنيا عَنِ الكُلِّ لا جَرَمَ قَدَّمَ اللّه ذِكْرَ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ذكر ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾"[4].

الثّاني: مناسبةُ تقديمِ العَزيزِ على الحميدِ للسّياقِ؛ إذ تَقَدَّمَتْ صِفَةُ العَزيزِ، لِتَقَدُّمِ ما دَلَّ عليها مِنَ العِزَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لقُدرته تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/147.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/58.

المُتحقّقةِ بإسنادِ إنْزالِ هذا الكِتابِ إليه سُبحانه، وتَليها صِفَةُ الحَميدِ لِتُلوِّ ما دَلَّ عليها مِن اسْتِحْقاقِه الحَمْدَ مِنْ حَيْثُ إخْراجُه النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ[1].

الثّالث: تأخيرُ ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لأنَّه كالخاتمِ على الكلامِ السّابقِ؛ فهو "المحمودُ في أمرِه ونهْيِه لإنعامِه فيهما بأعظَمِ النِّعمِ"[2].

الرّابع: جاءت صفةُ ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ كالثّمرةِ لصفةِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ فمِن حقِّ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ أنْ يُحمدَ، وأن يُديمَ هؤلاء ﴿ٱلنَّاسَ﴾ له الحمدَ؛ فما دام يَرُبُّهُم ويُرَبّيهم ويُعِزُّهم ويَحفَظُهم ويَحوطُهم بعزَّتِه فهو صاحبُ الحمْدِ، المستحقُّ له، الجديرُ بجميع أنواعِ المحامدِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في لفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

اسمُ اللهِ مُتّصفٌ بالعِزَّةِ والحمْدِ ومُلكِ السَّماواتِ والأرضِ

اختلف القرّاءُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فقرأ المَدنيّان والشّامي برفعِ اسْمِ (اللّه) على الابتداءِ، وتَصْييرِ قولِه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبرَه، وقرأ الجمهورُ[3] بخفضِ اسمِ الجلالةِ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي﴾ وجعلِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بدلًا من لفظِ الجلالةِ، والقراءتان متآيِلَتان في المعنى العامّ[4]، فلفظُ الجلالةِ سواءٌ أكان بدلًا أم مبتدأً فإنَّه مُتَّصفٌ بالعزَّةِ والحمْدِ ومُلْكِ السّماواتِ والأرضِ.

بَلاغةُ مَوقعِ اسْمِ الجلالةِ:

دفعُ الأوْهامِ بتعْيينِ المُسْتحقِّ لِصفاتِ الكَمالِ والجَمالِ والجَلالِ

اسْمُ الجلالةِ هو العلَمُ الذي يختصُّ بالذّاتِ المُقدّسةِ، وهو الذي يتضمّنُ جميعَ الأسماءِ الحُسنى والصّفاتِ العُلى، وقد ذُكر في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بعد صِفَتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لتحديدِ الموصوفِ بدقّةٍ، ولِفَتْحِ آفاقٍ معنويّةٍ جديدةٍ بعد ذكرِ صفةِ الـ (ربّ) في قولِه تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾. وفي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/297.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/298.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.

ذلك توجيهٌ دَلاليٌّ إلى أنَّ صفتَيِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ إذا أُطلقتا لا تنصرفان إلّا إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ الخالقِ المالكِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، ففي ذكرِه في هذا الموقعِ إشارةٌ إلى أنَّ ما قد يُفهمُ منَ السّياقِ أنَّ "الكفّارَ ربَّما وصَفوا الوثنَ بكونِه عَزيزًا حميدًا فلمّا قالَ: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بقي في خاطرِ عبدةِ الأوثانِ أنَّهُ رُبَّما كانَ ذلك العَزيزُ الحَميدُ هو الوثَنُ، فأزالَ اللّٰه تعالى هذه الشُّبْهَةَ وقالَ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: المرادُ من ذلك العزيزِ الحَميدِ هو اللّٰه الذي له ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ"[1].

لـفْـظُ الجـلالـةِ يُـربّـي المَهابةَ في النّفسِ

وصدّرَ سُبحانه الجملةَ التي فيها كمالُ سلطانِ اللّٰه تعالى في الوجودِ بلفظِ الجلالةِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفسِ القارئِ، ولأنَّ ذلك يتلاقى مع سُلطانِ اللّٰه الكاملِ[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

غـرَضُ المَوصـولِ تعظيمُ المَوصوفِ وتـفـخـيـمُـه لا تعريفُه وتعْيينُه

الموصولُ وحدَه فقيرُ الدّلالةِ، يحتاجُ إلى جملةٍ تُخَصِّصُه، وتحدّدُ معناه، وقد جاءَتْ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ جملةً اسْميةً، والغرَضُ من "إجراءِ الوَصْفِ بالموصولِ على اسمِ الجلالةِ لزيادةِ التَّفْخيمِ لا للتَّعْريفِ؛ لأنَّ ملكَ سائرِ الموجوداتِ صفةٌ عظيمةٌ واللّٰه معروفٌ بها عندَ المُخاطَبينَ"[3].

بَلاغةُ التَّعريضِ بالمشركين:

ملكُ السَّماواتِ والأرضِ لله وحدَه مُقدِّمةٌ موصِلةٌ إلى الحقِّ وحدَه

في ذكرِ الاسْمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تعريضٌ بالمشركين، وذلك ببيانِ "أنَّ صراطَ غيرِ اللّٰه من طُرُقِ آلِهَتِهِم ليس بواصلٍ إلى المقصودِ لنُقصانِ ذويه، وفي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3982.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.

ذكرِ هذه الصِّلَةِ إدماجُ تعريضٍ بالمشركينَ الذينَ عبدوا ما ليسَ لهُ السَّماواتُ والأرْضُ"[1].

غرَضُ تقْديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

قصْرُ المُلْكِ المُطلَقِ لصاحِبِ الحقِّ المُطلَقِ

تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيدُ القصْرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ، ومن يَظنُّ منَ الخلائق أنّه يمتلكُ شيئًا ممّا في الأرض بموجبِ عقودِ تَمَلُّكٍ فهو واهمٌ؛ لأنَّه هو وما مَلَك مِلْكٌ لله ﷻ، وإلّا فأين يخرجُ من سُلطانِ اللّه تعالى وملكوتِه؟ وإنّما هو مستخلَفٌ في بعض ملكوتِه إلى حين، كما قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7]. فتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ يَقطعُ بِقَصْرِ مِلكيّةِ ما في السّماوات وما في الأرض عليه ﷻ بلا شريكٍ، و"المعنى: أنَّ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ لَهُ لا لِغَيْرِهِ وذلك يَدُلُّ على أنَّهُ لا مالِكَ إلّا اللّه ولا حاكِمَ إلّا اللّه"[2]، كما أنَّه "لا يشاركُه في ذلك مشاركٌ، ولا ينازعُه منازعٌ"[3].

نُكتةُ اسْتِعمالِ ﴿مَا﴾ وتَكرارِها:

غَرَضُ السّياقِ استيعابُ كلِّ ما يخطرُ بالبالِ منَ الأملاكِ

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ أكثرُ استيعابًا وأرحبُ دلالةً منَ الموصول (مَنْ)، إذ إنّ ﴿مَا﴾ يشملُ العاقلَ وغيرَه، أمّا (مَنْ) فيختصُّ بالعقلاء، وهذا المقامُ مقامُ استقصاءٍ وإحاطةٍ بجميع ما في السّماوات وجميع ما في الأرض؛ لذلك أوثِرَ الموصولُ ﴿مَا﴾، وكأنّي بالمدِّ في ﴿مَا﴾ يدعمُ ذلك الاستقصاءَ وتلك الإحاطةَ. أمّا (مَنْ) فمقصورةُ اللّفظ مقصورةُ الدّلالة على صنْفِ العقلاء.

فجاء الموصولُ: ﴿مَا﴾ مُكرَّرًا، في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ مستوعِبًا جميعَ ما يخطرُ للإنسان على بالٍ، ممّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.

يوجدُ في السماوات على تعدُّدها وضخامتِها، ويوجدُ في الأرض على امتدادِها ورحابتِها، فتكرارُ ﴿مَا﴾ للدّلالةِ على كمالِ استغراقِ الملكيّةِ له ﷻ، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، مالكُ كلِّ شيءٍ[1].

وذِكْرُ الموصولِ هنا أنسَبُ للسّياقِ والمقام من لفْظِ (مُلْك) كأن يُقال: (له ملك السّماوات والأرض)؛ وذلك لأَنَّ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ أقربُ إلى اختصاصِه ﷻ بالخلْقِ وبالأمر في هذا الخلْق، أما (مُلك) فخاصٌّ بالامتلاك دونَ التّصريح بالتّصرُّفِ، فقد يملكُ مالكٌ ويتصرّفُ غيرُه.

والسّياقُ هنا يقتضي ذلك من حيث معالجتُه لعقائدِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين أُنزِل الكتابُ عليه ﷺ لهدايتِهم، وإخراجِهم منَ الظّلمات إلى النّور بإذن ربّهم، ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين يَنفون عنِ الرّسول ﷺ أن يكونَ مُرسلًا ويُخبرُهم بأنّ الذي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ قضَى في مُلكِه بذلك، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّبَ لحُكمِه.

دَلالةُ تَقْديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِۗ﴾:

ناسبَ ذكْرُ إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ تقديمَ ذكْرِ السَّماءِ على الأرضِ

غالبًا ما يُقدَّمُ في القرآن الكريم ذِكرُ السّماء على ذكر الأرض؛ لشرفِ السّماء وما فيها، وأحيانًا يقدّمُ ذكْرُ الأرض على ذكر السّماءِ لاعتباراتٍ سياقيّةٍ ووفاءً بمقتضياتِ الأحوالِ.

وهنا قُدِّم ذكرُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنه أشرفُ وأثمنُ وأغلى وأعجَبُ، ثمّ لأنَّ السّماواتِ سقفٌ مرفوعٌ تحيطُ بالأرض كان يمكنُ الاكتفاءُ بذكرِ ما فيها مُلكًا للّه تعالى عمّا في الأرض، وهذا كلامٌ يصلُحُ توجيهًا في غالب الآياتِ التي تَقدّمَ فيها ذكرُ السَّماواتِ على ذكرِ الأرض، لكنّ لهذه الآية موقعٌ خاصٌّ، وهو ذكرُ إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ إلى الأرض، فلمّا بدأ بذكر إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ، ناسبَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3982.

أنْ يبدأ بذكْرِ السَّماءِ، ولمّا ذكرَ غايةَ الإنزالِ إلى الأرض ناسبَ التَّثنيةُ بذكْرِ الأرض.

دَلالةُ حرْفِ الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾:

أفادَ حرْفُ الظَّرفيَّةِ دخولَ كلِّ معْلومٍ ومجْهولٍ في السَّماواتِ والأرضِ

استعمالُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ له لطفُه وبراعتُه في سياقِه، ذلك أنَّه يشتملُ كلَّ ما في السَّماوات والأرض، فهو متَّسِقٌ مع استعمالِ ﴿مَا﴾ الموصوليَّةِ الدّالّةِ على الاتِّساعِ والشُّمولِ، فهو يتغلغلُ ليشملَ كلَّ مملوكٍ للّه تعالى، ممّا يعرفُه الإنسانُ وما لا يعرفُه.

نُكتةُ جمْعِ السَّماواتِ وإفرادِ الأرضِ:

الجمْعُ باعْتِبارِ ما يُشاهدُه الإنْسانُ مِن تَعدادِ السَّماواتِ وانْفرادِ الأرضِ

جُمعتِ السَّماواتُ وأُفردَ ذكرُ الأرض في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ باعتبارِ الحقائقِ التي يُشاهدُها الإنسانُ، فالسّياقُ سياقُ بيانِ ملكِ السّماواتِ والأرضِ للّه تعالى، فكان ذكْرُ الظّاهرِ منها هو الأنسبُ، ثم إنَّ الأرض لم تُجمعْ في القرآن الكريم، فجرَى ذكرُها هنا على الاستعمالِ الكلّيِّ، والأرضُ تشملُ جميعَ ما في الأرضين السَّبعِ، فإنَّها اسمُ جنْسٍ يدخلُ فيها جميعُ الأرضين.

معنَى الواوِ في قولِه: ﴿وَوَيْلٌ﴾:

نَتيجةُ الكُفرِ ويلٌ يَلحَقُ أصْحابَه في الآخرةِ

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ على مضمونِ الكلامِ السّابقِ، فلمّا "أفاد قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ تعريضًا بالمُشركين الذين اتّبعوا صراطَ غيرِ اللّه الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ عطفَ الكلامَ إلى تهديدِهم وإنذارِهم بقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، أي: للمشركين به آلهةً أخرى، وجملةُ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إنشاءُ دعاءٍ عليهم في مقامِ الغضبِ والذّمِّ، مثل

قولِهم: ويحكَ، فعطْفُهُ من عطْفِ الإنشاءِ على الخبرِ"(1). وتحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، أي: استئنافُ الكلامِ دعاءً على الكافرين.

تَوجيهُ تَخصيص الويلِ بالذِّكر:

الـويـلُ كلـمةُ وعـيـدٍ تُـقـالُ لإثـبـاتِ شديدِ العَذابِ وعظيمِ العِقابِ

الويلُ مصدَرٌ لا يُعرفُ له فعلٌ، ومعناهُ: شدّةُ الشّرّ، والتّقبيح، وقد يُستعملُ على سبيل التّحسّر(2)، والهلاكُ وما يقرُبُ منهُ من سوءِ الحالةِ، ولأنَّهُ لا يُعْرَفُ لَهُ فِعْلٌ كانَ اسْمَ مَصْدَرٍ، وعومِلَ مُعامَلَةَ المَصادرِ، يُنْصَبُ على المَفْعوليةِ المُطْلَقَةِ ويُرْفَعُ لإفادَةِ معنى الثَّباتِ؛ فيقال: ويلٌ له، كقوله سلامٌ عليك، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ "خُصَّ هَؤُلاءِ بالوَيْلِ؛ لِأنَّ المَعْنَى: أنّهم يوَلْوِلونَ مِنْ عَذابٍ شَديدٍ، ويَصيحونَ مِنْهُ، ويَقولونَ: يا ويْلاهُ"(3)، فهي "كَلِمَةٌ تُقالُ لِلْعَذابِ والهَلَكَةِ"(4)، وفيها "تهديدٌ للكافرين، ووعيدٌ لهم بالعذاب الشّديدِ، الذي يَنتظرُهم يومَ القيامة، من مالك المُلك، الذي إليه كلُّ شيء، وبيده كلُّ شيءٍ"(5).

غرَضُ تنكيرِ الوَيلِ:

جهلُ تفاصيلِ بعضِ الحَقائقِ يُكسِبُها تهويلًا وتعظيمًا

تنكيرُ الوَيلِ في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ أفادَ النَّوعَ، فهو نوعٌ خاصٌّ منَ الويلِ لا يعرفُه النّاسُ في الدُّنيا، وبه يكونُ الويلُ المذكورُ ذا تهويلٍ عظيمٍ، وتفخيمٍ لشأنِه، فهو ويلٌ غيرُ مسبوقٍ، وويلٌ غيرُ مدفوعٍ، وويلٌ غيرُ مهروبٍ منه، بتنكيرِه اكتسبَ جهالةً تُكسِبُه مزيدًا منَ التَّهويلِ والوَعيدِ.

غرَضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

للتَّشويقِ شأنٌ في ردْعِ المُـتردِّدِ وكَـبْـحِ جِـمـاحِ المُتمرِّدِ

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ على المُسنَدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.
(2) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/240، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/136.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/407.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/339.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/148.

للتَّشويقِ، فإنَّ ذكرَ الويلِ نكرةً يُرادُ منه تشويقُ السّامعِ لمعرفةِ ما بعدَه من خبرٍ، وهو ما يجعلُ ذكرَ الخبرِ واقعًا موقعَ التَّرهيبِ والوعيدِ لِما يُكسبُه السّياقُ من جلالِ الموقفِ وعظيمِ المآلِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ:

رُسوخُ الكفْرِ بالقلوبِ مَدْعاةٌ لِرُسوِّ الويلِ فيها

تدلُّ صيغةُ اسْمِ الفاعلِ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ على رُسوِّ الكفْرِ في قلوبِهم، وثباتِه، وديمومتِه، وعلى استمساكِهم به، وعدمِ تَخلّيهم عنه، واسمُ الفاعلِ (الكافر) دليلٌ على أنّه ثابتٌ لا يَتزحزحُ عن تلك العقيدةِ، فكان لذلك وبذلك جديرًا بالويلِ الثّابتِ المقيم عليه، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّارِ.

دَلالةُ (أل) في ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الكافرون هم الذين بَقَوا في الظّلماتِ ليسوا بِخارجين منها

(أل) في ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ عهديّةٌ فـ"الكافِرونَ هُمُ المَعْهودونَ، وهم الَّذينَ لَم يَخْرُجوا مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، ولا اتَّبَعوا صِراطَ العَزيزِ الحَميدِ، ولا انْتَفَعوا بِالكِتابِ الذي أُنْزِلَ لِإخْراجِهِم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ"[1]، فهؤلاء لهم "عذابٌ شديدٌ سينزلُ بهم، فيَجعلُهم يَستغيثون دونَ أن يَجدوا من يُغيثُهم"[2].

معنَى حرْفِ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾:

بدءُ الويلِ عذابٌ شديدٌ يُهلِكُهم

دلَّ حرفُ الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ على معنى الابتداءِ، فالويل يبدأُ من عذابٍ شديدٍ، فكيف بما بعدَه من أصنافِ العذابِ التي ستُلاقيهم، وفيه منَ التَّهويلِ ما لا يخفى، أي: هلاكًا ينجرُّ لهم منَ العذاب الشّديدِ الذي يلاقونَه وهو عذابُ النّارِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.

وجهُ تخْصيص العَذابِ بشديدٍ:

عذابُ الكافرِ يومَ القيامةِ يَشدُّه ويوثِقُه؛ فلا يُمكنُه الفكاكُ

يقال: "شَيْءٌ شَديدٌ: بَيِّنُ الشِّدَّةِ بِالكَسْرِ، وشَدَّهُ: أَوْثَقَهُ يَشُدُّهُ، ويَشِدُّهُ بِالضَّمِّ والكَسْرِ"[1]، وشديدٌ صيغةُ مبالغةٍ على وزن فعيلٍ بمعنى فاعل، أي أنّ عذابَهم عذابٌ واثقٌ إيّاهم، يوثِقهم فلا يُفلتون، فتخْصيصُ وصْفِ العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ بالشِّدَّة دون (أليم) أو (عظيم) أو (كبيرٍ) أكسبَ العذابَ معنًى ملائمًا للكفرة، فكما أنّهم كانوا أشدّاءَ في كُفرِهم، فالعذابُ كذلك كان شديدًا عليهم من جنْسِ أعمالِهم، جزاءً وِفاقًا.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصّراطُ والطّريقُ والسّبيلُ:

الصّراطُ الطّريقُ الطّويلُ الواضحُ، والسّبيلُ يُستعملُ في المادّيات والمَعنويّات، والطّريقُ يُستعملُ في المادّياتِ، وإذا أُنّث ففي المَعنويّاتِ

"الصّراطُ هو الطّريقُ السّهلُ، قال الشّاعرُ:

خَشَوْنا أرضَهم بالخيلِ حتى *** تركناهُم أذلَّ مِنَ الصّراطِ

وهو مِنَ الذّلِّ خلافَ الصّعوبةِ، وليس مِنَ الذُّلِّ خلافَ العِزِّ، والطّريقُ لا يقْتضي السّهولةَ، والسّبيلُ اسمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطّريقُ وعلى ما لا يقعُ عليه الطّريقُ، تقول: سبيلُ اللّه وطريقُ اللّه، وتقول: سبيلُك أن تفعلَ كذا، ولا تقول: طريقُك أن تفعلَ به. ويُرادُ به سبيلُ ما يقصدُه؛ فيُضافُ إلى القاصدِ ويُرادُ به القصْدُ، وهو كالمحبّةِ في بابِه، والطّريقُ كالإرادة"[2].

ويُستعملُ السّبيلُ مع المعنويّات كابنِ السَّبيلِ، وسبيلِ اللّه، وسبيل الرّشد، ومع المادّياتِ، فيكونُ بمعنى الطّريقِ، بينما الطَّريقُ فالغالبُ عليه أنَّه يُستعملُ في المادّيات، إلّا إذا لحقَه التَّأنيثُ فيُستعملُ في المعنويّاتِ كالطّريقة المُثلى، وأمّا الصّراطُ فهو الطّريقُ الطّويلُ المُتّسعُ السّهلُ الواضحُ الذي يتبيّنُ فيه الإنسانُ معالمَ الهدايةِ والخيرِ

(1) الرازي، مختار الصحاح: (شدد).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.

والشّرّ، وليس كلُّ طريقٍ طويلًا، وليس كلُّ طريقٍ واضحًا، ومن هنا اخْتيرَ في الآيةِ فإنَّ صراطَ اللّه واضحٌ يسيرٌ.

العذابُ والعقوبةُ:

العذابُ مُطلقُ الإيجاعِ أمّا العقوبةُ فمجازاةٌ على إثرِ تجاوُزٍ

العذابُ هو (الإيجاعُ الشّديدُ)(1)، وعقابٌ ونكالٌ، والعذابان: عذابُ القبرِ وعذابُ جَهنَّمَ"(2).

و"أُعذِبَ الحوضُ: نُزِعَ ما فيه منَ العذَب؛ أي: الكَدَر، وبذلك عذُب الحوضُ - كَكَرُم - صار مستساغًا، والعذْبُ منَ الشّراب والطّعام: كلُّ مُستساغٍ، ومنه: عَذْبٌ: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: 53]، أي: حُلوٌ شديدُ العذوبةِ.

والتّعذيبُ من معنى الإزالةِ في التّفعيل، فيكونُ: عذَّبه: أزالَ عَذْبَ حياتِه، كمرّضَهُ: أزالَ مرضَه. عذابُها: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: 65] أي: لازمًا أو مُمتدًّا كلزومِ الغريمِ، عَذَّبْناها ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق: 8] أي: منكَرًا شنيعًا في الآخرة"(3).

أمّا العقوبةُ فمُجازاةٌ على إثْرِ تجاوُزٍ، فهي: "ما يَلحقُ الإنسانَ منَ المحنةِ بعد الذَّنْبِ في الدُّنيا، ولكلّ ذنْبٍ عقوبةٌ بدنيّةٌ، جنائيّةٌ"(4)، و"العقابُ الذي ينالُ فاعلَ الفعل في القلب إنّما هو أثرٌ أعقبَ الفعلَ، والاسمُ: العقوبةُ"(5).

وعليه فإنّ العذابَ قد يكونُ مَسبوقًا بذنْبٍ، وقد لا يكونُ، والعذابُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشّدّةِ، حتى وإنْ لم يوصَفْ بالشّديدِ أوِ الأليم ونحوِ ذلك، أمّا العقابُ فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذّنْب، فإذا عَظُم الذّنْبُ عظُمتِ العقوبةُ، وإذا صَغُر كان العقابُ على قدْرِه،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/42.
(2) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عذب).
(3) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).
(4) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عقب).

ويوضّحُ ذلك بجلاءٍ قولُ اللّه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126] ولشدّةِ عذابِ الكافرين استحقاقًا وأهليّةً ناسبَ التَّعبيرُ بلفْظِ العذابِ دونَ العقابِ.

الويلُ والويحُ:

خَسروا رحمةَ اللهِ تعالى باسْتِحْقاقِهِمُ العذابَ

لفظا (الويح)، و(الويل) كلاهما للتّعجّبِ والتّوجُّع، لكنّ (ويح) تُستعملُ لمن وقعَ في مَهْلَكةٍ لا يَستحقُّها؛ فيُرثَى له ويُترحّمُ عليه، أمّا (ويل) فتستعملُ للذي يستحقُّها ولا يُترحّمُ عليه[1]. والكافرُ مُستحقٌّ للعذابِ ولا يُترحّمُ عليه ولذلك اخْتير في الآية الكريمةِ تهديدًا بشدّةِ العذاب الذي سَيُلاقونَه.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/136.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ ذكرِ العَذابِ الشَّديدِ يَحسُنُ ذِكْرُ أسبابِه لاجْتِنابِها

بعدَ أن تَوَعَّد اللّه ﷻ مَن كفرَ منَ المَدْعوّين إلى الدّين بالويلِ الشّديدِ فصّلَ هنا مظاهرَ ذلك الكُفرِ التي أدّت بهم إلى ذلك الويلِ والعذابِ الشّديدِ، فعدَّد ﷻ في هذه الآية ثلاثةَ أسبابٍ، كلٌّ منها أشنعُ منَ الآخَرَيْن، هي إيثارُهمُ الكفرَ على الإيمانِ. وعُزوفُهم عن دين اللّه ﷻ، وتصَدّيهم للمؤمنين به، ومحاولةُ صرْفِهم عنه، ومحاولتُهم تشويهَ الدّين، وإبرازُه في صورة المختلِّ الأعوجِ، أي: "لمّا أشارَ إلى ما للكافرين، وصَفَهم بما عاقَهُم عن قَبولِ الخيرِ وتركَهم في أودية الشّرِّ؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾: "أحبَبْته نَقيضُ أبغضتُه، والحِبُّ والحِبّةُ بمنزلة الحبيبِ والحبيبةِ"[2]، و"﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يُؤْثِرونَها، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾"[3]، و"استحبَّ يَستحِبُّ، اسْتَحْبِبْ، اسْتَحِبَّ، استحبابًا، فهو مُسْتَحِبٌّ، والمفعول مُسْتَحَبٌّ، استحبَّ الشّيءَ: قبِله، وفضَّله واستحْسَنه، وآثره، استحبَّ الشِّعْرَ على القصَّة: واختاره، أحبَّه أكثرَ منها وفضّلَه عليها ... وهو ما رغَّب فيه الشّارع ولم يوجبْه، عكسُ مكروه: أمرٌ مُستحبّ"[4].

ومن معاني ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ في الآية: "يَعتاضون ويَستبدلون، وقيل:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/373.

(2) الخليل، العين: (حبب).

(3) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (حبب).

(4) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حبب).

يَختارون"[1]، و"يؤثرون شهواتِ الدّنيا على الآخرة ونعيمِها"[2]. فمادّةُ الاستحبابِ تدورُ حول معاني الاستحسانِ، والإيثارِ، والقَبولِ، والتّفضيلِ، والاختيارِ، وذلك كلُّه واقعٌ منَ الكفّار بالنّسبة للكفرِ دونَ الإيمان.

2) ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: "صَدَّ عنه يَصِدُّ صُدوداً: أعرضَ، وصدَّه عنِ الأمر صَدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه، وأصَدَّهُ لغةٌ"[3] و"الصَّدّ: الصَّرفُ والمَنْعُ، يُقالُ صَدَّهُ، وأصَدَّهُ، وصَدَّ عَنْهُ. والصَّدّ: الهِجْران، ومِنْهُ الحَديثُ «فيَصُدُّ هَذا ويَصُدُّ هَذا»[4]، أيْ: يُعْرِض بِوَجْهِهِ عَنْهُ. والصَّدُّ: الجانِبُ"[5]، فمادّة (صدَّ) تدور حول معاني الإعراضِ، والمنعِ، والصّرفِ، والهجرانِ، والضَّجيجِ، والجلبةِ، والصّياحِ، وكلُّ ذلك يقعُ منَ الكفّار الذين يَستحبّون الكفرَ على الإيمانِ، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّارِ.

3) ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: البِغْيةُ: نقيضُ الرِّشْدة، وبَغَيْتُ الشّيء أبغيه بُغاء، وابتغيتُه: طلبتُه[6]. فـ"الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنْسٌ منَ الفسادِ، فمنَ الأوّلِ بغيتُ الشّيء أبغيه: إذا طلبتُه"[7]. وهو: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزْه، فتارةً يعتبرُ في القدر الذي هو الكمّيةُ، وتارةً يُعتبرُ في الوصف الذي هو الكيفيّةُ، يقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ، وابْتَغَيْتُ كذلك، قال اللّه ﷻ: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ [التوبة: 48]، وقال تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التوبة: 47]. والبَغْيُ على ضَربين: أحدُهما محمودٌ، وهو تجاوزُ العدل إلى الإحسانِ، والفرضِ إلى التّطوّع، والثّاني مذمومٌ، وهو تجاوزُ الحقِّ إلى الباطل[8]. ومعنى ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ في الآية: يَطلبون لها، ويطلبونَها راغِبين مُلحِفين[9].

(1) الغزنوي، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/758.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/512.
(3) الجوهري، الصحاح: (صدد).
(4) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6237).
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (صدد).
(6) الخليل، العين: (بغي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(8) الراغب، المفردات: (بغي).
(9) الزمخشري، الكشاف: 1/392، أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3984.

4) ﴿عِوَجًاۚ﴾: العين والواو والجيم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ميْلٍ في الشّيء[1]، و"العَوَج والعِوَج: خلافُ الاسْتقامَة، وهي بِكَسْر العين فيما لا شخصَ له منَ الدّين والأمرِ والأرْض ونَحْوها. وهو بفَتْح العين في كلّ مُنتصِبٍ كالحائطِ والعودِ والشَّجر، والعَوْجاء: تَأْنيث أَعْوَج، والمِلَّةُ العوجاء: ما كانَ أهلُ الجاهِلية عليه من عبادَةِ الأصْنام وجحْدِ التَّوْحيد، ولا عِوَجَ أشدُّ من هذا"[2]. ومعنى ﴿عِوَجًاۚ﴾ في الآية: مُعْوجّةً غيرَ مُستقيمةٍ، وناكبةً عنِ الطّريق غيرَ سالكةٍ سواءَ السّبيلِ، ويبغونها زيفًا[3].

فالذين يَستَحِبّون الكفرَ على الإيمانِ يُحاولون تحريفَ الدّين، ويَطلُبون اعوجاجَه، ويَتطلّعون إلى إخراجِه عنِ استقامتِه ومزاياه وفضائلِه التي لا حدودَ لها.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

رُؤوسُ الـكُـفْرِ هـم مـن قَـدَّمـوا الـفـانـيـةَ على الباقيةِ وصَـدّوا عن سَبيلِ الله بإرادَتِها مُعْوجَّةً

كشفَتِ الآيةُ صِفاتِ الكافرين الذين استَحَقّوا العذابَ الشَّديدَ، وهي استحبابُ الحياة الدُّنيا الفانيةِ وتقديمُها على الآخرةِ الباقية، وصدُّ النّاسِ عن سبيل اللّه تعالى، وإرادةُ السّبيلِ مُعوجَّةً عنِ الحقِّ لموافقةِ أهوائِهم ومُتابعةِ شهواتِهم، وهذه الصِّفاتُ هي التي ثبّتتِ الكفرَ في قلوبِهم وزرعتِ الباطلَ في صدورِهم، فإذا استجمعَ شخصٌ هذه الصّفاتِ في قلبِه وعقلِه فإنَّه رأسٌ من رؤوس الباطلِ، وسهمٌ من سهامِ إبليسَ، ولذلك أخبر اللّه عنهم أنَّهم في ضلالٍ بعيدٍ، أي أنَّهم في بعدٍ عنِ الحقِّ لا يستطيعون معه الاقترابَ من نورِ الإيمانِ، ولا ضياءِ الإسلام.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

إعراب الاسْمِ الموصول:

الضَّلالُ البعيدُ نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لـصِـفـات الـكـافـريـن الرّاسخةِ فيهم

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾ بالنَّظَرِ للسّابقِ إمّا أن يكونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوج).
(2) الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، الحديث رقم: (431).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3984.

بدلًا من ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: "الذين يختارون الحياةَ الدّنيا ومتاعَها ومعاصيَ اللّه فيها، على طاعةِ اللّه وما يُقَرِّبُهم إلى رضاه منَ الأعمال النّافعةِ في الآخرة"[1]، وإمّا أن "يكونَ مجرورًا صفةً للكافرين، أو منصوبًا على الذّمّ، أو مرفوعًا على: أعني الذين يَستحبّون، أو: هم الذين يستحبّون"[2].

وبالنَّظر إلى ما بعدَه فهو مبتدأ خبرُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾، ولا تُعارِضُ هذه الأعاريبُ كوْنَ الذين كفروا هذه صفاتُهم، فهي أوجهٌ صناعيَّةٌ، ومآلُها إلى أنَّ الكافرين اتَّصفوا بهذه الصّفات، سواءٌ على القول بالبدلِ أمِ النّعتِ أم تقديرِ محذوفٍ، أو بإعرابها مبتدأً فإنَّ الخبرَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ لا يَخلو من عودتِه إلى الكافرين، فالمعنى الجامعُ لهؤلاءِ هو أنَّ الكافرين قدِ اتَّصفوا بهذه الصّفاتِ، ولذلك فهم في ضلالٍ بعيدٍ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ المَوصولِ الجَمْعيِّ:

أومأ المَوصولُ إلى ذمٍّ خاصٍّ لَحِقَ الكافرين

الاسْمُ الموصولُ عنصرٌ من عناصر التّشويق؛ بوصْفِه مُبهَمًا فقيرَ الدّلالةِ، ثمّ هو إلى ذلك يومئُ إلى وجه بناءِ الخبر، ثم هو من بين عناصرِ التَّعريفِ يُفسِحُ الأسلوبَ لِذكرِ دلالاتٍ متكاثفةٍ تتآزرُ على خدمةِ المعنى، وتُسْهِمُ في تحقيق الغرَض، وقد هيّأ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾ لِذكْرِ المضارع ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾، ولذكرِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ وتعريفِها ووصْفِها بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، وما وراء ذلك من حشْدِ القيودِ المُتَمِّمَة، فكلُّ ذلك تَوَفَّرَ بسببٍ منَ المَوصول، ثمّ إنَّ المعنى هنا يأبى أن تُذكَرَ الأعلامُ المحدِّدَةُ لآحاد الكافرين؛ فكان التَّعبيرُ بالموصول هو السّبيلُ الأنسَبُ.

كما أنَّ التَّعبيرَ بالمَوصولِ يومئُ إلى نوعِ اختصاصٍ، فالكافرون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/514.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

الذين يَستحبّون الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويَصدّون عن سبيلِ اللّه ويبغونَها عوجًا همُ المَذمومون بخالصِ الذَّمِّ، وهو اختصاصٌ إضافيٌّ لا حقيقيٌّ، قُصِدَ منه المُبالغةُ في التَّشنيعِ عليهم، وهذا التَّوجيهُ أبينُ على إعرابِ المَوصولِ تابعًا للكافرين.

غرَضُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾:

استِحْبابُ الدُّنيا حـالـةٌ لازِمـةٌ لمن غَـرِقَ في بِئْرِ الشَّهَواتِ

المضارعةُ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تُترجمُ متابعةَ الكفّار حُبَّ الدّنيا، وتَجديدَهم التّعلُّقَ بها، والاستحبابَ لها، وإيثارَها، واختيارَها على الآخرة، والتّزوُّدَ منها حِلًّا كانت أو حُرمةً؛ فلا يَشبعون منها مهما اغترفوا، ولا يُراجعون أنفسَهم مهما طالت بهمُ الحياةُ فيَعترفوا بفسادِ عقائدِهم، وخطورةِ وجهتِهم التي يَؤُمّون طريقَها، وفي الحديث الشريف: «إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أخَذَهُ بِسَخاوَةِ نَفْسٍ، بورِكَ له فيه ومَنْ أخَذَهُ بِإِشْرافِ نَفْسٍ، لَم يُبارَكْ له فيه، وكانَ كالَّذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ»[1].

معنَى السّينِ والتّاءِ في قولِه: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾:

الحُبُّ الطبيعيُّ فِـطـرةٌ، والاسْـتِـحْـبـابُ تَكلُّفٌ

فعْلُ الحُبِّ المعتادِ هو (يُحبّون)، وهذا حينما يكونُ في حدودِ المعقولِ، أوِ المُتَصَوَّرِ المُمكنِ، أمّا الفعلُ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ فيُترجمُ عن تكلّفِ الحبِّ الشّديدِ، والتّعلُّقِ الذي يزيدُ عنِ الحدِّ المُنضبطِ، والمعيارِ المُتَّفقِ، فالسّينُ والتّاءُ من حروفِ الطّلبِ كما في قولنا: نَستغفرُ اللّه العظيمَ أي نطلبُ غفرانَه، وعلى ذلك فالسّينُ والتّاءُ في ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يَحكيان شدّةَ كَلَفِ الكافرين بالدّنيا، إلى درجةِ إيثارِها على ما عندَ اللّه تعالى منَ النّعيمِ المقيمِ في الآخرة، وذلك من علّةِ الوَيلِ، فالاستحبابُ "استفعالٌ منَ المحبّة؛ لأنّ المُؤْثِرَ للشّيءِ على غيره كأنّه يطلبُ من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها وأفضلَ عندها منَ الآخر"[2].

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2750).

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

وهذا يُستفادُ منه أوّلًا الرّغبةُ الشّديدةُ في الحياة بمعنى اللّجاجةِ في طلبِها، ويُستفادُ منه أنّه يختارُها على الحياة الدّنيا، ويتركُ الآخرة تركًا، كما يُتركُ كلُّ مهجورٍ[1]. ويجوزُ أن يكونَ استفعلَ بمعنى أفعل، أي: أحِبّوا، كاسْتَجاب وأجابَ[2].

والإنسانُ قد يحبُّ الشّيءَ ولكنه لا يحبُّ كونَه مُحبًّا لذلك الشّيءِ، مثلُ من يميلُ طبعُه إلى الفسقِ والفجورِ ولكنّه يكرهُ كونَه مُحبًّا لهما، أمّا إذا أحبَّ الشّيءَ وطلبَ كونَه مُحبًّا له، وأحبَّ تلك المحبّةَ فهذا هو نهايةُ المحبّةِ، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يدلُّ على كونِهم في نهاية المحبّةِ للحياة الدّنيويّةِ، ولا يكونُ الإنسانُ كذلك إلّا إذا كان غافلًا عنِ الحياةِ الأخرويّةِ، وعن معايبِ هذه الحياةِ العاجلةِ، ومن كان كذلك كان في نهاية الصّفاتِ المذمومةِ، وذلك لأنَّ هذه الحياةَ موصوفةٌ بأنواعٍ كثيرةٍ منَ العيوب[3].

المعنَى المجازيُّ في اسْتِعمالِ (المحبّةِ):

يَلزمُ عنِ المَحبّةِ اختيارُ المَحبوبِ وإيثارُه على نقائِضِه

"المحبّةُ مجازٌ مرسَلٌ عنِ الاختيار والإيثارِ بعلاقة اللّزومِ في الجملةِ، فلا يضُرُّ وجودُ أحدِهما بدون الآخرِ كاختيارِ المريض الدّواءَ المُرَّ لِنَفْعِه، وترْكِ ما يُحبُّه ويَشتهيه منَ الأطعمةِ اللّذيذة لِضَرَرِه"[4]، ومن معاني ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ كذلك "يَعْتاضون ويَسْتَبدلون، وقيل: يَخْتارون"[5]، و"يُؤَثِرون شَهواتِ الدّنيا على الآخرة ونعيمِها"[6].

بَلاغةُ التَّضْمين في الفعلِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾:

اخْتيارُ حُروفِ لأفعالٍ غيرِ مَخصوصةٍ بها دَليلُ البلاغةِ ومِعيارُ البَراعةِ

إيثارُ النّظم الكريم حرفَ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يتيحُ للفعلِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3983 - 3984.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/407.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/174.
(5) الغزنوي، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/758.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/512.

أن يتضمَّنَ معانيَ أفعالٍ أخرى فضلًا عن معناه الأصليِّ، من تلك الأفعال: (يُفضِّلون، ويُؤْثِرون، ويَختارون، ويَرفعون، ونحوُها)، فالكافرون يَستحبّون الحياةَ الدّنيا مُفضّلينَها ومُؤْثرينَها على الحياةِ الآخرةِ، ولا يُعطي هذه الدّلالةَ التَّعبيرُ بكلمةٍ أخرى كأنْ يُقال: يَستحبّون الحياةَ الدنيا دونَ الآخرةِ.

والذي حقّقَ التَّضمينَ وهيّأ له تَعْديةُ فعْلِ الاستحبابِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾؛ لأنَّ الاستحبابَ يَتعدّى بنفسِه؛ فلمّا جاءت ﴿عَلَى﴾ دلَّ مَجيئُها على إرادة التَّضمين، والتّقديرُ: "يَستحبّون الحياةَ الدنيا ويُؤْثرونَها على الآخرة، فجمعَ تعالى بين هذين الوصْفَين ليتبيّن بذلك أنَّ الاسْتِحبابَ للدّنيا وحدَه لا يكونُ مذمومًا إلّا بعد أن يُضافَ إليه إيثارُها على الآخرةِ، فأمّا من أحبَّها ليصلَ بها إلى منافعِ النّفسِ وإلى خيرات الآخرةِ فإنَّ ذلك لا يكونُ مذمومًا حتى إذا آثرَها على آخرتِه بأنِ اختار منها ما يضرُّه في آخرته فهذه المحبّةُ هي المحبّةُ المذمومةُ"[1].

بَلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

الحياةُ قبْرٌ عَميقٌ من رتَعَ فيه وقَعَ فيه

تعريفُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بأداة الاستغراقِ والاستيعابِ (أل) يوحي بجشَعِ الكافرين، وتطلُّعِهم واسْتِمْساكِهم بكلِّ ما يُمكنُ أن يجمَعوه منها من مالٍ وولدٍ وجاهٍ وغيرِها، ويُقرّرُ إيثارَهم إيّاها على رضوانِ اللّه تعالى. وفي تعريف ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ في هذا السّياقِ إشارةٌ إلى حقارتِها، وإلى مضرَّتِها على مُتعَشِّقيها، ويُترجمُ عن نَهَمِ طموحِهم فيها، وكأنّها كلُّ شيءٍ، وكأنّها نهايةُ كلِّ طموحٍ على الإجمال، حتى صاروا لا يُشبعُهم شيءٌ مهما تزوّدوا منها، وفي الحديث الشريف: «لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ واديانِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى ثالِثًا، ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ، ويَتوبُ اللّه على مَنْ تابَ»[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6436).

دَلالةُ تَركيبِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الكافِرُ مُستغرِقٌ في مَلذّاتِ الحَياة الدُّنيا

يردُ هذا التّركيبُ في القرآن الكريم عندما يريدُ اللّه تعالى أنْ يصوّرَ اسْتغراقَ الإنسان في هذه الحياة، وعدمَ عنايتِه بما بعدَها، واغترارَه بأهوائِها وشهواتِها، وكأنّها هي الحياةُ الأبديّةُ[1].

بَلاغةُ الاكتفاءِ في ذكْرِ الموصوفِ:

خطبُ الكافِرون بما يَستحِبّون منَ الحياةِ الدُّنيا وطَيِّ ما يَكرَهون منَ الحياةِ الآخرة

وصَفَ النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فكشفَ عن أنّها منَ القِصَر والدُّنوِّ والدّناءةِ والحَقارةِ - إذا أُخِذتْ مِن غير حلِّها، وأُنْفِقَتْ في غير حقِّها - بمكانٍ، وبهذا الوصْفِ تبدو المفارقةُ الكبيرةُ والعجيبةُ بين حقارةِ ما يُؤثِرون، وبين عظمةِ ما يدْعوهم إليه الرّسولُ ﷺ من توحيدِ الرّبِّ العظيم الذي أنزلَ لهدايتِهم الكتابَ ﷻ، وما يَستلزمُه ذلك من حياةٍ هانئةٍ راقيةٍ سعيدةٍ، وآخرةٍ باقيةٍ أبديّةٍ سعيدةٍ.

ومُقتضى الجمْعِ بين الحياة الدّنيا والآخرةِ تحقيقُ الطِّباقِ على الوجْهِ الآتي: (الذين يَستحبّون الحياةَ الدّنيا على الحياةِ الآخرةِ)، لكنَّ النّظمَ الكريمَ اكتفَى في الطرف الثاني بالوصْفِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دونَ الموصوفِ (الحياة)؛ وذلك لأنَّ الكفّارَ لا يَعتقدون أصلًا في وجود حياةٍ آخرةٍ؛ فطواها الذّكرُ الحكيمُ في تعبيرٍ دقيقٍ عن مُعتقدِهم الضّالِّ؛ فتآزرتْ خصائصُ التّراكيبِ على بيانِ ضلالِهم البعيدِ.

ثمّ إنَّ ذكرَ الحياةِ وحذفَها في المقابلِ يوحي بأنَّ القومَ حريصون على الحياةِ بمفهومِها البهيميِّ الحيوانيِّ، أمّا الآخرةُ فهي ليست حياةً بهيميَّةً، بل هي دارُ رضوانٍ وكرامةٍ وتشريفٍ للمؤمنين.

معنَى التَّعريفِ في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

المُرادُ بالآخرة هنا نعيمُ الجنَّةِ دونَ النّارِ

تعريفُ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وإن كان قد حُذِف موصوفُه اتّساقًا مع مُعْتَقَدِ

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: 349 - 350.

الكفّارِ المنكرِ لوجودِه أصلًا، لَمِّح إلى أنَّ الدّارَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقيقيّةُ، بل هي الدّارُ الحيوانُ، دارُ النّعيم الكاملِ الذي لا ينفدُ ولا يزولُ ولا يحولُ، والآخرةُ يدخلُ فيها الجنَّةُ والنّارُ، لكنَّ دلالةَ النَّظم أومأت إلى أنَّ المرادَ بالآخرةِ هنا خصوصُ الجنَّة بدليلِ المقابلةِ، فلا يدخلُ فيها إلّا نعيمُ الجنَّةِ.

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

من أحبَّ شيئًا صدَّ نفسَه والآخَرين عن مُخالَفَتِه

جملةُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ وكلتاهما داخلتان في حيِّزِ صِلَة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فبينَهما توسُّطٌ بين الكمالَين؛ لاتِّحادِهما في الخبريّةِ، فقد جمعَ الكفّارُ بين استحبابِهم الكفرَ وعزوفِهم عنِ الإيمان، وبين دعوةِ غيرِهم إلى الكفرِ ودفعِهم عنِ الإيمان، و"محاولةُ إرجاعِ المؤمنينَ إلى الكفرِ بإلقاءِ التَّشكيك عليهم"[1]. فهم لم يَكتفوا بكونِهم أشرارًا فاسدين حتى منعوا غيرَهم، وتعدَّى إليهم شرُّهم، ووقَفوا حائلًا بينهم وبين سلوكِهم سبيلَ الخيرِ والهُدى والفلاحِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المستقيم المُؤدّي إلى النّهايةِ السّعيدةِ والنّجاةِ الأكيدةِ، وترتيبُ الصدِّ بعد الاستحباب دالٌّ على أنَّ صدَّهم هو نتيجةٌ فعليَّةٌ للاستحبابِ، فإنَّ من أحبَّ شيئًا وآثره على غيرِه، صدَّ نفسَه والآخرين عن مخالفتِه، و"من كان موصوفًا باستحباب الدّنيا فهو ضالٌّ، ومن منعَ الغيرَ من الوصولِ إلى سبيل اللّه ودينِه فهو مُضلٌّ، فالمرتبةُ الأولى إشارةٌ إلى كونِهم ضالّين، وهذه المرتبةُ الثّانيةُ وهي كونُهم صادّين عن سبيل اللّه إشارةٌ إلى كونِهم مُضلّين"[2].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الآيَة:

الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ تعالى يَشْملُ الوسائلَ المادّيّةَ والمَعنويَّةَ

في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تكشفُ مادّةُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

(الصّدّ) عن قوّة تعطيلِ الكافرين إقامةَ دينِ اللّه تعالى، وكأنَّهم أقاموا حائطًا صادًّا مَتينًا ليس منَ المُمكن هدْمُه وتَخطّيه؛ ففي مادّة (الصّد) تصويرٌ لُغويٌّ مجرَّدٌ منَ التّصويرِ البيانيِّ، وتعبيرٌ لُغويّ كاشفٌ عنِ استقوائِهم على تعطيلِ دينِ اللّه تعالى، وعن جسارتِهم على عبادِ اللّه جلَّ في عُلاه، وهذا ضلالٌ ما بعدَه ضلالٌ؛ ولهذا خُتمتِ الآية بِوَصْمِهم بالضّلالِ البعيدِ.

ففي استعمالِ مُفردةِ الصَّدِّ تشبيهُ منْعِ النّاسِ من دخول الإسلام بمن يصدُّ الآخرين عنِ الطريق، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ويُرشِّحُ ذلك كونُ الصَّدِّ عن سبيل اللّه تعالى، فهم يَمنعون النّاسَ من دخول سبيلِ اللّه تعالى، أو يمنعون أنفسَهم، وبلاغةُ الاستعارةِ في كونِ الصَّدِّ أقوى من مجرَّدِ المنْعِ؛ لأنَّه يشملُ الصَّدَّ المادّيَّ والمعنويَّ بالوسائل كلِّها.

نُكتةُ الفعلِ المضارعِ في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

المُـؤمـنُ أوْلَى بالاسْتِمرارِ على الـدَّعْـوةِ إلـى سَبيلِ اللهِ تعالى

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ صدَّ الكافرين عن دين اللّه تعالى مستمرٌّ متجدِّدٌ في حركاتِهم وأفعالِهم وأقوالِهم ووجدانِهم، لا يَفتُرون عن ذلك، ولا تبردُ دماؤهم عنِ الصَّدِّ في كلِّ محفلٍ ومكانٍ، وهي إشارةٌ إلى المؤمنين إلى أنَّهمُ الأحقّاءُ بهذا السُّلوك الدّائم المقابلِ للصَّدِّ، وهو الدَّعوةُ إلى سبيل اللّه تعالى في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

سِرُّ اسْتِعمالِ لفْظِ ﴿سَبِيلِ﴾:

سَـبـيـلُ الـلـهِ يَـدخـلُ فيه فرعيّاتُ الدّينِ وأصولُه

استعمالُ سبيل اللّه في الآيةِ هو استعمالٌ مَجازيٌّ في الأقوالِ والأدلَّةِ الموصِّلةِ إلى الدّينِ الحقِّ[1]، والسَّبيلُ تُستعملُ في المعاني المادّيَّة والمعنويّة، وهنا قد استُعمل السَّبيلُ دونَ الصِّراط كما في الآيةِ السّابقة، وسرُّ ذلك أنَّ الصِّراط يُستعملُ في الطّريق الطّويلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.

الواضحِ، وهو الإسلامُ، أمّا هنا فالمقصودُ بالسّبيلِ أيُّ سبيلٍ موصِلٍ إلى الإسلام، فيُرادُ به السُّبُلُ الفرعيَّةُ والصّراطُ المستقيمُ، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ من صدَّ عن دين اللّه تعالى بأدنى صدٍّ فداخلٌ في الذَّمِّ، ولو قال: (ويصُدّون عن صراط اللّه) لما دخل في الذَّمِّ إلّا الصّادُّ عن الإسلام كلِّه.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

تركيبُ (سبيل الله) سائرٌ في الأذهانِ كَسَيْرِ الحَياةِ في الأبدانِ

ذَكرتِ الآيةُ السّابقةُ أوصافًا أخرى للفْظِ الجلالةِ، فلم تقتصرْ على (صراط اللّه) وفي قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اقتُصرَ على الاسْمِ الجليلِ، وسِرُّ "الاقتصارِ على الإضافة إلى الاسم الجليلِ المُنطَوي على كلّ وصْفٍ جميلٍ لِرَوْمِ الاختصار"[1]، ولجعْلِ هذا التَّركيبِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سائرًا في الأذهانِ لِما يتعلَّقُ بهذا الدّين القويم الذي ارتضاه اللّه لعبادِه.

دَلالةُ العطْفِ وترتيبِه في ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

أعْتَى الكُفْرِ الزَّعْمُ بأنَّ سبيلَ الله ناكبةٌ عنِ الحَقِّ

عُطفت هذه الجملةُ ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ على الجملتَين اللّتين قبلها لتدخلَ ثلاثتُها في حَيِّز صلةِ الموصول، فبين الثّلاثِ توسّطٌ بين الكمالَين؛ لاتّحادها كلِّها في الخبرية مع توفّرِ الجامع، وهي جملةٌ كاشفةٌ عن سوءِ القصْدِ وفسادِ النّيّةِ، ومقرّرةٌ يقظةَ القوم الكافرين وتعمُّدَهم تخريبَ دينِ النّاس، وصرفَهم عن ربِّهم ﷻ، ووضْعَهم على طريق مُعْوَجٍّ لا يُؤدّي بهم إلى خيرٍ قط، بل يَطلبون الزَّيْغَ والاعوجاجَ لتكونَ في هذه السَّبيلِ، ثم بعد ذلك يَزعمون أنَّها "سبيلٌ ناكبةٌ عنِ الحقّ، غيرُ مُستويةٍ"[2]، وذلك بسَعْيِهم "في إلقاءِ الشّكوكِ والشّبهاتِ في المذهب الحقِّ ويحاولُ تقبيحَ صفتِه بكلِّ ما يقدرُ عليه منَ الحيلِ، وهذا هو النّهايةُ في الضّلال والإضلالِ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/538.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

سِرُّ اسْتِعمالِ ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

معنَى البَغي حاضرٌ باللّفظِ والسّياقِ

مُفردةُ (البغي) مادّتُها ثريّةُ الدّلالاتِ المَقيتةِ، التي يتحلَّى بها هؤلاء الكفّارُ، فهي تَنِمُّ عمّا يتَّصِفون به من قبائحَ تَحتملُها هذه المادّةُ اللّغويّةُ، من ذلك أنّها تصِمُهم بالفجور، والظّلم، والاستطالةِ، والإفراطِ، والتَّعدّي، ومجاوزةِ الحدّ، والتَّرامي إلى الفساد ... إلى آخر تلك الفظائعِ المُتحقّقةِ في هؤلاء الكفّارِ الذين يَستحبّون الكفرَ على الإيمان، فجمعت هذه المفردةُ تلك المعانيَ، وأشارت إلى أنَّ ابتغاءَهم الذي فُسِّر بالطّلبِ والإرادةِ، أي: يَطلبونها عِوجًا، ويريدونها عِوجًا، هو بغيٌ حقيقيٌّ، فنبَّه على البغي باللَّفظِ والمعنى السّياقيِّ، وهذا من بديعِ التّركيبِ القرآنيِّ. جاء في نظم الدّرر: "﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾، أي: يَطلبون لها، حذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ تأكيدًا له"(1).

دَلالةُ صيغةِ المُضارعة في ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾:

الكفرُ نارٌ مُتجدِّدةٌ مَطلبُه إطفاءُ نورِ الإيمانِ

عُبِّر بصيغةِ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ لتتآزرَ مع المضارعة في الجُملتَين السابقتَين المعطوفِ عليهما ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ وذلك يومئُ إلى إصرارِهم المستمرِّ في بيانِ نشاطِهم في طلبِ التّخريب والإفسادِ، وتجديدِهم (الاستحبابَ، والصّدَّ، والبغيَ)، وعدمِ التّواني في شيء منها، فما أعجبَ همَّةَ الكافرين في دعم كفرِهم على باطلِه!.

بَلاغةُ التَّعبير بـ ﴿عِوَجًاۚ﴾:

استعمالُ العِوَجِ إشارةٌ إلى أنَّ الدّينَ مُستقيمٌ وهم يطلُبون اعْوِجاجَه

إيثارُ النَّظم الكريمِ مادّةَ (العِوَج) دليلٌ على بلوغ الكافرين في الضّلال إلى منتهاه، ذلك أنّ غايتَهم تحريفُ الدّين وتشويهُ الحقِّ، ووصْمُه بالاعوجاج، تبغيضًا للنّاسِ فيه؛ فيَجتنِبوه ويُعادوه، وهذا واضحٌ في مناهج الكفرِ على كلِّ المُستوياتِ الاجتماعيّةِ والفكريّةِ

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/374.

والعلميّةِ والعقليّةِ والسّياسيّةِ في جميع الأزمان، وغايتُهم أن يعبَثوا في الدّين ليُخرجوه في قلوب النّاسِ وسلوكِهم عنِ استقامتِه، وذلك بنشْرِ ما يقدحُ في سبيل اللّه تعالى ودينِه القويمِ، فيَدّعون أوّلًا إلى تحريفِه، ثمّ يعودون ليتّهموه بالعِوج.

وصيغةُ (عِوَج) مصدرٌ؛ فكأنّهم يريدون ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي يَصدّون عنها قطعةً منَ الاعوجاج، بحيث لا يُرى فيها خيرٌ، ولا يبقى فيها عند النّاس استقامةٌ، ولو قيل (ويبغونها مُعْوَجَّة) فَلَرُبما فُهِمَ أنّهم يَبغون أيَّ اعْوجاج، وأنَّ أقلَّ اعْوجاج في ظاهرِ دين اللّه تعالى يُسعدُهم ويَكفيهم ويكُفُّهم عنِ المزيد منَ التَّخريب والصّدِّ، وهذا غيرُ دقيقٍ؛ إذ لا يُشبعُ فجورَهم إلّا ما تفوحُ به صيغةُ المصدر للمبالغةِ، التي تقطع ببُلوغ نياتهم في السّوء مبلَغًا لا مزيدَ عليه[1].

وتُشيرُ المفردةُ إلى أنَّ ابتغاءَ الكافرين العِوَجَ هو دليلُ الاستقامةِ التي أشار إليها السّياقُ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

بَلاغةُ الفصْلِ في جُملةِ الفاصلةِ:

إيـثـارُ الـدّنـيـا، والـصَّـدُّ عـنِ الـدّيـنِ، سبيلُ الكافِرين

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ جملةُ الفاصلةِ المتَّسِقةِ تمامَ الاتّساق مع مضمون آيتِها، جاءت مفصولةً عمّا قبلها، إمّا لأنّها خبرٌ عنِ الموصول، أو مستأنفةٌ وقعت جوابًا لسُؤالٍ مقدَّرٍ؛ إذ "وقعت معلّلةً لِما سبق من لُحوق الويل بهم؛ تأكيدًا لما أشْعرَ به بِناءُ الحُكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائحِ المذكورةِ مِن استحباب الحياةِ الدّنيا على الآخرة، وصَدِّ النّاس عن سبيل اللّه المستقيمةِ، ووصْفِها بالاعوجاج وهي منه براءٌ في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ"[2].

فهي كلامُ اللّه تعالى وتوصيفُه حالتَهم، وحكمُه على هؤلاء

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/139.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.

الضّالين، الذين بلغ بهمُ الضّلالُ أنِ استجمعوا أقبحَ الأفعال، فاستحبّوا الحياةَ الدّنيا على الآخرة، وتفاقم ضلالُهم فصدّوا غيرَهم، ولم يكتَفوا بما اقترفوه من ظلم لأنفسِهم وظلم للعباد، حتى بالغوا في الفسادِ والإفسادِ فعقدوا النيّةَ على تعطيلِ شرْعِ اللّه تعالى، والعملِ على تشويهه، وتركِه عند الناس قطعةً منَ العِوَج والاختلالِ.

أقوَى الأخبارِ ما زاحـمَ المبتدأ في معناه ومَبْناه

نُكتةُ استِعمالِ اسْمِ الإشارةِ للبعيدِ:

آثرَ الذّكرُ الحكيمُ تعريفَ المُسنَد إليه في جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ باسْمِ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: (البُعداء البُغضاء)[1]؛ إبعادًا للقوم الكافرين عن ساحة الطُّهر، والتّطويح بهم بعيدًا في مجاهل الضّلالِ البعيدِ؛ حيث لن ينالوا من كتاب اللّه تعالى الذي تكفَّل سُبحانه بحفْظِه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، ولن ينالوا من دين اللّه ﷻ؛ لأنَّه الدّينُ الحقُّ، الذي إن تركوه امتدَّ وإن حاربوه اشتدَّ، فاللّه تعالى يُقيّضُ له مَن يحفظونَه في أنفسهم، ويُفسِدون على الكافرين خُطَطهم أوّلًا بأوّل.

وما أجملَ أن يُردَّ الخبرُ على المبتدأ، فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اشتملَ على البُعدِ المعنويِّ، ووصْفُ الضّلالِ بالبعيدِ قام مقامَ التّأكيد على هذا المعنى، فهو خبرٌ يُزاحمُ المبتدأ في معناه ومبْناه.

تَصْويرُ انْغِماسِ الـكـافـريـن في الضَّلال دالٌّ على ضياعِهم

بَلاغةُ استِعمالِ حرْفِ الظَّرفيّةِ ﴿فِي﴾:

دلَّ حرفُ الظّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ على أنَّ الكافرين قدِ انغمَسوا في الضَّلال، وغطّوا فيه غطًّا، وكأنَّ ضَلالَهم قد صار قاعًا آسِنًا ووَحْلًا عميقًا غرقوا فيه، وضاعوا إلى غير نجاةٍ، وحُقَّ عليهم ذلك فقد استَجْمعوا أقبحَ أنواعِ الضَّلال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/374.

في أنفسهم، وحضّوا عليه وحثّوا إليه غيرَهم، بنوايا السّوء المُدبَّرة، ومقاصدِ التّخريب المُؤصَّلة.

ففي استعمال هذا الحرفِ في هذه الآية تزاحمٌ للمعاني البيانيَّة، ففي "جَعْل الضَّلال ظرفًا ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ مجازٌ، كأنه قد أحاط بهم، وجلْبَبَهم بسواده، فَهُم منغمسون فيه إلى الأذقان، يتخبَّطون في متاهاته، ويتعسَّفون في ظلماته"[1]، وفيه مبالغةٌ فإنَّ جعلَ "الضّلال محيطًا بهم إحاطةَ الظّرفِ بما فيه ما لا يَخفَى من المبالغة"[2]، وهو دالٌّ "على تمكُّنِهم فيه تمكّنَ المظروفِ في الظّرف، وتصويرِ اشْتمال الضّلال عليهم اشتمالَ المُحيط على المُحاط وليكونَ كنايةً بالغةً في إثبات الوصْفِ أعني الضّلالَ على الأوجه"[3].

غرَضُ تَنكير لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

طَريقُ الضَّلالِ قُبْحٌ منكورٌ وبُعدٌ موزورٌ

تنكيرُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ يتناغمُ مع وصْفِه الضَّلالَ بكونه ضلالًا؛ فالمادّةُ اللّغويّةُ تعني المتاهةَ الخَرِبةَ التي يضلُّ فيها مَن بداخلِها، كما يضلُّ فيه ويغيبُ الضّالُّ، فيصيرُ نكرةً منكورًا؛ فمفردةُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ تتآزرُ مع تنكيره ونُكرانه وإنكاره وجميع اشتقاقات المُنكر التي يُضْفيها عليه تنكيرُه، ويَصبغُها به، كما أنَّ التَّنكيرَ أفادَ تحقيرَ الضَّلالِ، فهو ضلالٌ لا وجهةَ له ولا مقصدَ فهو أدنى أن يُطلبَ وأحقرُ أن يُبحثَ عنه.

سِرُّ وصْفِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ بالبعيدِ:

بعدُ الضَّلالِ عنِ الحقِّ يوازي قُربَ الصّراطِ المستقيمِ منه

وُصِف ضلالُ الكافرين والمنافقين في الذكر الحكيم بأوصافٍ كثيرة، مثل: ﴿مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]، و﴿بَعِيدٍ﴾، و﴿كَبِيرٖ ٩﴾ [الملك: 9]، وأكثرُها ورودًا هو وصفُ الضّلال بالمبين؛ حيث ورد في أربعة وعشرين

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/143.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/176.

موضعًا، وذلك أنَّ كلَّ ضلالٍ واضحٌ مكشوفٌ مُبين عن نفسه، ثم وُصفَ الضّلالُ بالبعيد، وقد ورد في ستَّة مواضعَ، ثم وُصف الضّلالُ بالكبيرِ، ولم يردْ إلّا في موضع واحد من سورة تبارك، ووصْفُ الضّلالِ في سورة إبراهيم بالبعيد صريحٌ في أنَّ الضّالّين في هذين الموضعَين قد أبعدوا الشُّقَّة في الضّلالِ، وبالغوا في النّزعِ الآثم.

وإنَّ أقصى مراتبِ الضّلال هو الذي وصفَه اللّه تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبةُ في غاية البُعدِ عن طريقِ الحقِّ، فإنَّ شرطَ الضّدّين أن يكونا في غاية التّباعُد، مثل السّوادِ والبياضِ، فكذا هاهنا الضّلالُ الذي يكون واقعًا على هذا الوجه في البعدِ عنِ الصّراطِ المستقيم الذي هو أقربُ ما يكونُ للحقّ؛ يكونُ في غاية البعدِ عنِ الحقِّ، فإنّه لا يُعقلُ ضلالٌ أقوى وأكملُ من هذا الضّلال[1]، وعليه فوصفُ البعدِ "مستفادٌ منَ البُعد المَسافي إلى تفاوُت ما بين الحقِّ والباطل، أو ما بين أهلِهما"[2]، أو ما بينهما وما بين أهلِهما معًا.

بَلاغةُ المجازِ في وصْفِ الـ ﴿ضَلَٰلِ﴾:

من بـعُـدَ عـنِ الحقِّ في مَسيرِه بعُدَ عـنِ الحقِّ في مَصيرِه

إسنادُ البعدِ الى الضّلال مجازٌ عقليٌّ، وهو من إسنادِ البعدِ إلى سببِه؛ لأنَّ البعدَ في الحقيقة للضّالِّ؛ لأنَّه هو الذي يتباعدُ عنِ الطّريق فوُصِف به فِعلُه، كما تقول: جدَّ جدّه وداهية دهياء[3]، وهو عبارةٌ عن تعمّقهم في غورِه، وصعوبةِ خروجهم منه[4]، ويجوزُ أن يكون تشبيهُ الضَّلال بالبعيد على طريق تشبيهه بالطَّريقِ الشّاسعةِ التي يتعذّر رجوعُ سالِكها عنها، فهو ضلالٌ قويٌّ يعسُرُ إقلاعُ صاحبه عنه، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى استبعادِ اهتداءِ أمثالِهم كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: 18][5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/175.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/143.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/323.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/184.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصدُّ والمنعُ:

"الصّدُّ: هو المنعُ عن قصْدِ الشّيءِ خاصّةً، ولهذا قال اللّه تعالى ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي يمنعون النّاسَ عن قصْدِه، والمنعُ: يكون في ذلك، وغيره ألا ترى أنّه يقال: منعَ الحائطَ عنِ الميل، ولا يقال صدّه عنِ الميل؟ لأنَّ الحائطَ لا قصْدَ له، ويقولون: صدّني عن لقائك يريدُ عن قصْدِ لقائك وهذا بيّنٌ"(1). ولمّا كان القصدُ في الآية مُحدّدًا في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختيرَ لفظُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾.

المَنْعُ عامٌّ، بينما الصَّدُّ فهو فيما فيه قصدُ الشَّيءِ خاصَّة

العِوجُ والميلُ:

العِوجُ: ميلٌ مضطربٌ قلَّ أو كثر، أمّا الميلُ: فيكون بعد استقامةٍ مثل قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: 27]، أو عن استعلاءٍ معنويٍّ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء: 129]، أو ماديٍّ مثل قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [النساء: 102]. ولكوْنِ ابْتِغائِهِم العوجَ لم يأتِ بعد استقامة، بل كانَ ميلا مُضطربًا، وزيغًا، وزيغًا عن سلوك سواءِ السّبيل مُتجذّرًا فيهم؛ ناسبَ سياقُ الآية اختيارَ لفظِ ﴿عِوَجٗاۚ﴾ دون (ميلا).

العِوجُ اضطرابٌ قليلٌ أو كثيرٌ، والميلُ ما كان بعد استقامةٍ أو عن قوّةٍ

البعيدُ والعميقُ:

العميقُ ما يكونُ في جوفِ الأرضِ، أمّا البعيدُ فما يكون في جوفِها وما يكونُ في ظاهرِها، فالعمقُ: البُعْدُ إلى أسفلَ، سواءٌ أكان بئرًا أم واديًا(2). ومن هنا اخْتيرَ (البعيد) وصْفًا للضّلال بوصْفِه طريقًا طويلةً، شاسعةً يتعذّر رجوعُ سالِكِها عنها.

العُمْقُ ما يتَّجهُ إلى أسفلَ، والبعيدُ ما يتَّجهُ إلى مُساوٍ

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (عمق).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ من بيانِ نِعْمةِ الرِّسالةِ إلى نِعمةِ الرَّسول

"لَمّا ذَكَرَ في أوَّلِ السّورَةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كانَ هذا إنْعامًا على الرَّسولِ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ فَوَّضَ إليه هذا المَنْصِبَ العَظيمَ، وإنْعامًا أيْضًا على الخَلْقِ مِنْ حَيْثُ إنَّه أرْسَلَ إلَيْهِم مَنْ خَلَّصَهُم مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ وأرْشَدَهُم إلَى نورِ الإيمانِ، فذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما يَجْري مَجْرَى تَكْميلِ النِّعْمَةِ والإحْسانِ في الوجهَين.

أمّا فيما يخصّ الرَّسولَ ﷺ فَلأنّه تعالى بَيَّنَ أنَّ سائِرَ الأنْبياءِ كانوا مَبْعوثينَ إلى قَوْمِهم خاصَّةً، وأمّا أنْتَ يا مُحَمَّدُ فمَبْعوثٌ إلَى عامَّةِ الخَلْقِ، فكانَ هذا الإنْعامُ في حَقِّكَ أفْضَلَ وأكْمَلَ.

وأمّا فيما يخصُّ عامَّةَ الخَلْقِ فهو أنَّهُ تعالى ذَكَرَ أنَّهُ ما بَعَثَ رَسولًا إلى قَوْمٍ إلّا بِلِسانِ أولَئِكَ القَوْمِ، فَإنَّهُ مَتَى كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ، كانَ فَهْمُهُم لِأسْرارِ تلك الشَّريعَةِ ووُقوفُهُم على حَقائِقِها أسْهَلَ، وعَنِ الغَلَطِ والخَطَأ أبْعَدَ، فهذا هو وجْهُ النَّظْمِ"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِلِسَانِ﴾: "اللِّسانُ: ما ينطق، يُذَكَّر ويُؤَنَّث، والألسُن بيانُ التّأنيث في عدده، والألسِنةُ في التّذكير، ولَسَنَ فلانٌ فلانًا يَلسُنُه، أي: أخَذَه بلسانه، وقال طَرَفة:

وإذا تَلْسُنُني ألْسُنُها *** إنَّني لستُ بمَوْهونٍ فَقِرْ(2)

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/63.
(2) ديوان طرفة بن العبد، ص: 42.

ورجلٌ لَسِنٌ: بَيِّنُ اللَّسَنِ، وشيءٌ مُلَسَّنٌ: جَعَلَ طَرَفَه كطَرَف اللِّسان، ولُسِنَ الرجُلُ أي قُطِعَ طَرَفُ لسانِه فهو مَلْسونٌ. واللِّسانُ: الكلامُ من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾"[1]، "أي: بلُغَة قومه"[2]، و"رجُلٌ لَسِنٌ: بَيِّنُ اللَّسَنِ"[3]، "ومنه قوْلُه تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ [الروم: 22]، أي لُغاتِكُم؛ ومِنْه قوْلُهم: لِسانُ العَرَبِ أفْصَحُ لِسانٍ"[4]، والمقصودُ باللّسان في الآيةِ: اللّغة، أي: أرسل اللّه الرّسلَ بلغاتِ أقوامِهم ليتحقَّق المقصودُ.

2) ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: "البَيان: في الأَصْل مصدرُ (بان الشَّيْء) بِمَعْنى: تبيَّن وظهر، أو اسْمٌ من (بَيَّن) كالسّلام والكَلام، من (كلَّم) و(سلَّم) ثمَّ نَقله الْعُرفُ إلى ما يتَبَيَّنُ به من الدّلالَة وغيرها؛ ونَقله الاصْطِلاح إلى الفصاحة، وإلى مَلَكة أو أصولٍ يُعرف بها إيراد المَعْنى الواحِد في صور مُخْتَلفَة ... والبَيان أيْضا: هو التَّعْبير عَمّا في الضَّمير، وإفهام الغَيْر، وقيل: هو الكَشْف عن شَيْء، وهو أعمُّ من النُّطْق؛ وقد يُطلق على نفس التَّبْليغ، كما في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾، والبَيانُ قد يكونُ بالفعل كما يكونُ بالقَوْل"[5].

المَعنى الإجْماليّ:

تَنفي الآيةُ أن يكونَ هناك أيُّ إرسالٍ بلُغةٍ منَ اللُّغات إلّا بلُغة قوم الرّسولِ الذي أُرسلَ فيهم، ومقصودُ ذلك؛ "ليفْهَمُهُم ما أرسلَه اللّه تعالى به إليهم مِن أمرِه ونَهْيه؛ ليثْبتَ حُجَّةَ اللّه تعالى عليهم، ثمّ التّوفيقُ والخذلانُ بيدِ اللّه ﷻ، فيخذُلُ عن قَبولِ ما أتاه به رسولُه

إذا اتَّضحَ الكلامُ قـامـتِ الـحُـجَّـةُ ونهضَ البُرهانُ ولم يَبْقَ لمُعْتَرِضٍ لسانٌ

(1) الخليل، العين: (لسن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (لسن).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (لسن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (لسن).
(5) أبو البقاء، الكليات: (بين).

مِن عنده مَن شاء منهم، ويوفِّقُ لِقَبوله مَن شاء ... وهو العزيزُ الذي لا يَمتنعُ ممّا أراده مِن ضلالٍ أو هدايةٍ مَن أرادَ ذلك به، الحكيمُ في توفيقِه للإيمان مَن وفَّقه له، وهدايتِه له مَن هداه إليه، وفي إضلالِه مَن أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره"(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ في المَطْلعِ:

الاسْتِئنافُ جاء لبيانِ لُغةِ الكتابِ النّازلِ ووظيفةِ اللّغةِ النّازلِ بها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ للاستئنافِ، والجملةُ مُستأنَفةٌ، تكشفُ عن أنّ الرّسولَ ﷺ من بني جِلدتِهم، وأنَّ الكتابَ الذي أُنزلَ إليه ليخرجَ النّاسَ مِنَ الظّلمات إلى النّور بلسانِهم، ليس غريبًا عليهم؛ فلا وجهَ لعدمِ فهمِهم عنه، ولا حُجّةَ في ادّعائِهم عدمَ فِقْهِ ما جاء به، وجاءت هذه الجملةُ بعد ذكر إنزالِ الكتابِ، فحسُنَ بيانُ لغةِ الكتابِ النّازلِ، فكأنَّه قال: كتابٌ عربيٌّ أُنزل إليك؛ "ليقعَ البيانُ والعبارةُ المتمكّنةُ، ثم يكونَ سائرُ النّاسِ من غير أهل اللّسانِ عيالًا في التَّبْيين على أهل اللِّسانِ الذي يكونُ للنّبيّ"(2).

بَلاغةُ القصرِ في الآية:

إرسالُ كلِّ رسولٍ بلُغةِ قومِه ضرورةٌ حَتْميّةٌ لتحقيقِ الثَّمرةِ المَرجوّةِ

القصرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، يقرّرُ أنّ رسول كلِّ أمةٍ يُخاطِبُها بلغتِها؛ فذلك بيانُه جليًّا، وأثرُه فيهم مرجَّحًا، ولم تقفِ اللّغةُ حائلًا بين وضوح الرّسالةِ وتعاليمِها وبين أفهامِ قومِه.

وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ أسلوبَ النّفيِ والاستثناءِ الذي من شأنِه تأكيدُ القضايا المشكوكِ في صحّتِها وفي صدقِها، حيثُ دَعَتِ الحاجةُ إلى تقريرِ رسالتِه ﷺ وصدْقِ كتابه الذي أتى به من عندِ اللّه تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/516.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/323.

و"تقديرُ الآية: وما أرسلنا قبلَك رسولًا إلا بلسان قومِه، وأنت مبعوثٌ بلسان قومِك إلى الخلْق جميعًا"[1]، "فما لِقومكَ لم يهتدوا بهذا القرآنِ وهو بلسانِهم؟"[2].

وجاء القصرُ بأقوى صيغِه، وكأنَّ منكرًا يُنكرُ تلك القضيَّةَ؛ فأكَّد له الخبرَ بالنّفيِ والاستثناء، وفيه إشارةٌ إلى يُسْرِ اللّغةِ التي يخاطبُ المرسَل إليهم بالنّسبةِ لهم، وأنَّ كفرَهم بعد ذلك يكون عنادًا وجحودًا، ويكونُ وبالُه عليهم في الدّنيا والآخرة، و"إذا كانت صيغةُ القصرِ مُستعملةً في ظاهرها ومُسلّطةً على مُتعلّقي الفعلِ المقصورِ كان قصرًا إضافيًّا لقلبِ اعتقادِ المخاطَبين، فيتعيَّنُ أن يكون ردًّا على فريقٍ منَ المشركين قالوا: (هلا أُنزلَ القرآنُ بلغة العجم)"[3].

فائدةُ الإسْنادِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

تعظيمُ الرُّسلِ والرِّسالاتِ النّازلةِ تابعٌ لعظَمةِ المُرسِلِ جلَّ في علاه

أسندَ النّظمُ الكريمُ الفعلَ (أرسل) إلى ضمير العظمةِ (نا) في جملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ إجراءً للخبرِ على مُقتضى الحقيقةِ، فالمُرسِلُ هو اللّه ﷻ، العظيمُ الجليلُ، مالكُ الملك وملكُ الملكوتِ، وهو العظيمُ في ذاته وصفاته وأسمائِه، وما دام بهذه العظمةِ فقد وجبَ على المُرسَلِ إليهم احترامُ رسلِه، وتقديرُهم، وعدمُ التّعرُّض لهم بسوء، وفيه تعظيمُ الرُّسل، والرّسالاتِ، وتشريفُ من أقبلَ مؤمنًا على أولئك الرُّسلِ، راضيًا بكلامِ اللّه تعالى، مُطْمئنًّا بما جاءه من عنده.

فائدةُ دُخولِ ﴿مِن﴾ على النّكرة:

إرسالُ الرُّسلِ بلُغاتِ أقوامِهم عامٌّ لم يَتخلَّفْ

أفاد دخولُ حرفِ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ العمومَ، فالمقصودُ برسولٍ جنسُ الرُّسل، فهي بيانيّةٌ تفيدُ تأكيدَ العمومِ المستفادِ من جملة القصرِ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، وهي

(1) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/574.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/186.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/185.

كذلك تفيدُ "استغراقَ النّفي ثمّ الإثبات، أي ما أرسلنا أيَّ رسولٍ إلا بلسان قومِه ليبيّنَ لهم"[1].

معنَى الباءِ في قوله: ﴿بِلِسَانِ﴾:

الرُّسُلُ علماءُ بلُغاتِ أقوامِهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ﴾ تفيدُ معنَى "الملابسة، فلُغةُ قومِه مُلابِسَةٌ لكلامِه"[2]، فالرُّسُلُ علماءُ بلُغاتِ أقوامِهم التي أُرسلوا بها، فهم يعلمون مضامينَ الكلام، وهم من يُبيِّنُ للنّاس المقصودَ بالكلامِ على وجهِه، و"يجوزُ أن يكونَ حالًا، أي: إلا متكلِّمًا بلغةِ قومِه"[3].

بَلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾:

الـلّـسـانُ في القـرآنِ الكريـمِ هو اللُّغةُ

المقصودُ باللّسان هنا اللّغةُ، أي: ما أرسلْنا من رسولٍ إلّا بلُغةِ قومِه، ولِأنَّ اللّسانَ أداةُ اللّغةِ وآلتُها سُمّيت باسْمِه، "وإطلاقُ اللِّسانِ وهو اسمُ الجارحةِ المعروفةِ في الفم على اللُّغةِ مجازٌ شائِعٌ"[4].

وفي تحاشي النَّظمِ الكريمِ ذِكْرُ مفردة اللّغةِ تجنُّبٌ لِما يوهمُ بعضَ اشتقاقِها منَ (اللغو)، فليس في كلام اللّه تعالى لَغوٌ، وليس في كلام رُسلِه الكرام لَغوٌ؛ لذلك آثرَ الذّكرُ الحكيمُ ترك مادّةِ اللّغوِ فلم تَرِد فيه نهائيًا، لكنه عبّرَ عنِ اللّغة باسمِ آلتِها الخاصَّةِ بها وهي اللّسانُ مجازًا لغويًّا مرسَلًا، وذلك بجعلِ العلاقةِ آليَّةً بإطلاق الآلةِ وهي اللِّسانُ، وإرادةِ اللّغةِ، أو محليَّةً بإطلاقِ محلِّ اللّغة وهو اللِّسان، وإرادةِ ما يحلُّ به، ونُكتةُ استعمال اللِّسان بإرادةِ اللّغةِ، باعتبارِ أنّ أشرفَ ما يُستعملُ فيه هو الكلامُ[5].

وجهُ إفرادِ الـ﴿بِلِسَانِ﴾:

اللُّغةُ تقعُ على القَليلِ والكثيرِ فأغْنَى إفرادُها عن جمْعِها

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ "وَحَّدَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3985.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/186.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/69.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/321.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/25.

اللِّسانَ وإنْ أضافَهُ إلى القَوْمِ؛ لِأَنَّ المُرادَ اللُّغَةُ، فهي اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ على القَليلِ والكَثيرِ"[1]، و"يقالُ: فلانٌ يتكلّمُ بلسان العربِ، أي: بلُغتِهم، قال أبو بكر: ولهذا المعنى وحّدَ اللّسانَ، وإن أُضيفَ إلى القوم؛ لأنه أريدَ باللّسان اللّغةُ، واللّغةُ تقعُ على قليلِ المنطق وكثيرِه"[2].

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ (قوم):

الأُمَّــةُ تَشتمِلُ لُـغـاتٍ عـديـدةً والمقصودُ لغةُ العربِ لا سِواها

المرادُ بلفْظِ (القوم) في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ " قومُه الذي ولد محمد ﷺ فيهم، لا قومُه الذي بعث إليهم؛ لأنه مبعوثٌ إلى الخلق كافّةً"[3]، ولذلك عبَّر بالقوم لا بالأمَّة، فإنَّ الأمَّةَ عامَّةٌ يدخل فيها ألسنٌ كثيرةٌ، والمرادُ اللِّسانُ العربيُّ لا غيرُه، فاستقام بذلك قوَّةُ التَّعبيرِ بالقوم لا بالأمَّة.

فالأمَّةُ أوسعُ وأشملُ منَ القوم "كما في حقّ نبيِّنا ﷺ؛ فقد بُعث إلى العرب والعجم، والجنّ والإنسِ، فقومُه الذين يفهمون عنه: يُتَرْجِمونَ إلى مَن لا يفهمُ، فتقومُ الحجّةُ عليهم، وكذلك إعجازُ القرآن يُدركه أهلُ الفصاحة والبلاغةِ، فإذا وقع العجزُ عن معارضتِه منهم قامتِ الحُجّةُ على غيرِهم"[4].

سِرُّ إضافةِ القومِ إلى الضّمير:

أولَى النّاسِ بالرُّسلِ أقوامُهم؛ فبهم يقومُ أمرُه، وبه يقومُ أمرُهم

في إضافة القوم إلى ضمير الرّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إشارةٌ مطويّةٌ إلى قوّة الرّابطةِ التي تربطُ بين الرّسول وقومِه؛ الذين يُفترضُ أنّه بهم يقومُ أمرُه، وبه يقومُ أمرُهم، وأنّهم أولَى النّاس به، وذلك أدْعى إلى احتفائِهم به لا محاربتِه، والتّشرّفِ به لا معاداتِه ومناوأتِه، وبناءً على ذلك فمنَ العَجب أن يتصدّى الأقوامُ لرُسلِهم الذين هم من بني جِلدتِهم، ويَنطقون بألسنتِهم.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/340.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/399.
(3) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/573.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/43.

معنَى اللّامِ في قولِه: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

لغةُ الكتابِ الخاتمِ هي العربيّةُ، وأهلُها حُجّةٌ على مَن وراءَهم منَ الأُممِ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ هي لامُ التَّعليل، وهي قيدٌ لبيانِ غرَضِ إرسالِ الرُّسُل بلسانِ أقوامِهم، الذي لولاه لَما صحَّ التّكليفُ؛ فيدْعوهم بلُغتِهم "ليَعْقِلَ عنه قومُه"[1]، و"ليتّخذَ بذلك الحُجّةَ"[2] عليهم، و"لا يكونُ لهم حُجّةٌ على اللّه تعالى، ولا يقولون له لم نفهم ما خوطِبْنا به"[3]. و"ليكونَ آكدَ في إلزامِ الحُجّةِ، وأنّى ينفعُ ذلك إذا لم يوفّقوا لسلوكِ المحجّةِ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السّابقةِ، وأصحابُ الغَوايةِ وقعوا في ذلِّ العَداوةِ، فلا اعتراضَ عليه فيما يصنعُ، ولا يُسألُ عمّا يفعلُ أو لم يفعل"[4]. و"إنِ اعتَرَض أعجميٌّ بأنْ يقول: من أين يُبَيِّنُ لي هذا الرّسولُ الشّريعةَ وأنا لا أفهمُه؟ قيل له: أهلُ المعرفةِ باللّسان يُعبِّرون ذلك، وفي ذلك كفايتُك، فإن قال: ومن أين تَتَبَيّنُ لي المعجزةُ وأفهمُ الإعجازَ وأنا لا أفقهُ اللّغةَ؟ قيل له: الحجَّةُ عليك إذعانُ أهلِ الفصاحةِ، والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنّهم قادرون على المعارضةِ، وبإذعانِهم قامتِ الحُجّةُ على البشرِ، كما قامتِ الحُجّةُ في معجزة موسَى بإذعانِ السَّحرةِ، وفي مُعجزة عيسى بإذعانِ الأطبّاءِ"[5].

غَرَضُ حذْفِ المفعولِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

الوحيُ المُبيِّنُ هو عمومُ وحْيِ الكتابِ والسُّنّةِ

مفعولُ "﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾: ما هو مبعوثٌ به وله، ومحمّدٌ ﷺ مبعوثٌ إلى الخلق كافّةً بلسان قومِه الذي وُلِد فيهم، وتربّى بينَهم"[6]، فهو يُبيِّنُ الكتابَ النّازلَ للنّاسِ، ونكتةُ حذْفِ المفعولِ اتّساعُ دائرةِ البيانِ؛ لتشملَ الكتابَ وما يتعلَّقُ بالكتابِ، ولو قال: (ليبيّنَ لهمُ الكتابَ)؛

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/154.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/517.

(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/162.

(4) القشيري، لطائف الإشارات: 2/239.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 13/323.

(6) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 937.

لظُنَّ اقتصارُ البيانِ على الكتابِ، ولاختلف النّاسُ في ذلك، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: 44] ما يُفيدُ عمومَ البيان، فإنَّ ما نُزِّلَ إلى النّاس هو وحيُ الكتابِ والسُّنَّة؛ فليُتأمَّلْ.

دَلالةُ صيغةِ المضارعةِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

من مُهمّةِ حاملي لواءِ الدَّعوةِ تجديدُ البيانِ، وتحديثُ الوسائلِ

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدّدِ والاستمرارِ، كما أنَّ صيغةَ المضارعةِ تومئُ إلى أنَّ مهمّةَ الرُّسُل، ومن يتّبعونَهم من حملةِ لواءِ دعوتِهم، هو تجديدُ البيانِ للنّاس، وتحديثُ الدّعوة، حتى يؤتيَ البيانُ ثمارَه في القوم ما أمكنَ، وأنَّ القومَ الذين لا يَستجيبون يَتحمّلون مَسؤولية تأبّيهم، إذ يكونُ البيانُ تامًّا ولا عُذرَ لهم.

بَلاغةُ تَقْييدِ البيانِ بـ ﴿لَهُمۡۖ﴾:

غايةُ البيانِ رِعايةُ الأقوامِ والعِنايةُ بمَصالحِهم

الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡۖ﴾ صريحٌ في أنّ غايةَ بيانِ الرّسولِ هي منفعةُ قومه، وأنّه أُرسلَ إليهم لمصلحتِهم، ويُبيّنَ ﴿لَهُمۡۖ﴾ لمنفعتِهم، فالجديرُ بهم حينئذ إسداءُ الشُّكرِ لرسولِهم، والإقرارُ له بالفضلِ عليهم، لا منازعتُه وتصعيدُ الاختلافِ معه إلى درجة مقارعتِه بالسّيف وربما قتلِه قتلًا، واستعمالُ هذا الحرفِ دالٌّ على أنَّ البيانَ كان لهم دونَ غيرِهم، ففيه الاختصاصُ الدّالُّ على الرِّعاية والعنايةِ بالأقوامِ الذين أُرسل إليهمُ الرُّسُل.

معنَى الفاءِ:

الفاءُ فصيحةٌ تومئُ إلى محذوفٍ

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ "استئنافُ إخبارٍ"(1)، ولذلك جاء الفعلُ مرفوعًا بعد فعل ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ المنصوب، وهذا معنى قولِ الفرّاء: "وإذا رأيتَ الفعلَ منصوبًا وبعده فعلٌ قد نُسِقَ عليه؛ فإنْ كان يُشاكلُ معنى الفعل الذي قبله نَسَقْتَه عليه، وإن

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/70.

رأيتَه غيرَ مُشاكلٍ لمعناه استأنفتَه فرفعتَه"[1]، فالفاءُ للاستئنافِ في العمل النَّحويِّ، وهي فصيحةٌ في البيانِ، "كأنه قيل: فبيَّنوه لهم، فأضلَّ اللّه منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليقُ إلّا به، وهدى مَن شاء هدايتَه لاستحقاقِه لها"[2].

غرضُ تقديمِ الإضلالِ على الهُدى:

الغالبُ أنّ لِأهل الضّلالِ في الدّنيا مَرتبةَ الظُّهورِ، فلا يَنزعجُ لذلك أهلُ الهُدى

في تقديمِ إضلال اللّه تعالى من يشاءُ على هدايته سُبحانه من يشاء في قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ اتّساقٌ مع واقع الأقوام المَدعوّين إليه ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، "وتقديمُ الإضلالِ على الهدايةِ إمّا لأنَّه إبقاءُ ما كان على مَن كان والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيانِ أنْ لا تأثيرَ للتّبيينِ والتّذكيرِ من قِبَل الرُّسلِ، وأنَّ مدارَ الأمر إنّما هو مشيئتُه تعالى بإيهام أنَّ ترتُّبَ الضّلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتُّب الاهتداءِ، وهذا محقِّقٌ لِما سلفَ من تقْييد الإخراجِ مِنَ الظّلمات إلى النّور بإذن اللّه تعالى"[3].

دَلالةُ المُضارعةِ في ﴿فَيُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهۡدِي﴾:

البَشرُ يتقلّبون بين المَعاصي والطّاعاتِ لا يَفتُرون

صيغةُ المضارعةِ في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهۡدِي﴾ تُترجِمُ بواقعيةٍ دقيقةٍ ما يجري في كونِ اللّه تعالى مِنَ الإضلال والهداية ليلَ نهارَ، إذ لا يتوقّفُ هذا ولا ذاك لحظةً مِنَ الزّمنِ، وفي الحديث الشّريف: «بادِروا بِالْأَعْمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ويُمْسي كافِرًا، أَوْ يُمْسي مُؤْمِنًا ويُصْبِحُ كافِرًا، يَبيعُ دينَهُ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/400.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/32.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/32.

بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيا»[1]. فأحوالُ العبيدِ بين الهدى والضّلال دائرةٌ، وأهلُ الضّلال بهذه الكثرةِ الكاثرةِ، ومعهم أهلُ التّوحيد يتقلّبون جميعًا بين المعاصي والطّاعات.

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

مُجرياتُ الأمورِ بالمشيئةِ لا يندُّ عنها شيءٌ

شاع في الذّكرِ الحكيم حذْفُ مفعولِ المشيئةِ الإلهيّةِ؛ لأنّ مشيئتَه ﷻ نافذةٌ لا يَعوقُها عائقٌ، والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾: فيضلُّ اللّه ﷻ من يشاءُ إضلالَه ويهدي من يشاءُ هدايتَه، فدلَّ الحذفُ على مطلق القُدرةِ الإلهيّةِ، وأفاد أنّ كلَّ شيءٍ يجري في كونِه ﷻ على وفْق مشيئتِه، لا يَندُّ عنها شيءٌ.

دَلالةُ الواوِ في جملةِ الفاصلةِ:

إضلالُ اللهِ تعالى وهدايتُه يَجْريان على وفْقِ عزّتِه وحِكمتِه المُطْلقتَين

الواوُ في جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استئنافيّةٌ؛ إذ تقرّرَ مضمونُ الآيةِ الكريمةِ؛ وأنه ﷻ "العَزيزُ في ملكِه، الحَكيمُ في أمرِه وقضائِه"[2]؛ فردَّ ﷻ "المشيئةَ إلى نفسه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في مُلكِه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾"[3] باختيارِه، وبعزّتِه حكمتُه المطلقةُ، التي تضعُ الأمورَ في نصابِها، ولا تضعُ شيئًا في غير موضعِه.

بَلاغةُ القصْرِ في جملةِ الفاصلةِ:

لا تجتمعُ العزّةُ المُطلقةُ والحِكمةُ الكاملةُ إلّا لصاحبِ الخلْقِ والأمْرِ

بناءُ جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على تقديم الضّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ أسلوبٌ يفيدُ القصْرَ، فيَقصرُ هنا العزّةَ والحكمةَ المطلقتَين على اللّه ﷻ، فلا عزيزَ بالمعنى الحقيقيِّ لهذا الوصفِ إلّا هو ﷻ، ولا حكيمَ بالمعنى الدّقيقِ لهذا الوصفِ إلّا هو ﷻ.

والقصرُ هنا قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، أسهمت (أل) التّعريفيّةُ في إفادتِه، ودعمتْ تحقُّقَه في الصّفتَين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ولو

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (118).
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/35.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/397.

جاء التّعبيرُ (وهو عزيز حكيم) لَمَا أفاد معنَى القصرِ الحقيقيِّ التّحقيقيِّ، ولَمّا كانتِ الصّفتان ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مختصتَين به ﷻ، ومن هذا الذي "لا يغالبُ في مشيئتِه ولا يفعلُ شيئًا إلّا لحكمةٍ"(1) سِواه عزَّ في عُلاه.

بَلاغةُ التَّذْييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

وضعُ الأشياءِ في مواضِعِها فعْلُ العَزيزِ الحَكيمِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "تذييلٌ؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ قوي لا ينفلتُ شيءٌ من قُدرته، ولا يخرُجُ عمّا خُلِقَ له، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ يضعُ الأشياءَ مواضعَها، فمَوْضِعُ الإرْسال والتّبْيين أَتي على أكْمَلِ وجْهٍ مِنَ الإرْشادِ، ومَوْقِعُ الإضْلالِ والهُدَى هو التَّكْوينُ الجاري على أنْسَبِ حالٍ بِأحْوالِ المُرْسَلِ إليهم، فالتَّبْيينُ مِنْ مُقْتَضَى أمْرِ التَّشْريعِ، والإضْلالُ مِنْ مُقْتَضَى أمر التّكوينِ"(2).

والذي يُضلُّ مَن يشاء ويَهدي مَن يشاءُ بلا عائق يَعوقه ولا متأبٍّ يتأبَّى عليه لا يكون إلّا عزيزًا بل ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القويُّ القادرُ القاهرُ فوق عباده، الذي لا يُغلَب ولا يُقهرُ، الذي ﴿أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي عزَّ فحكمَ في ملكه، الحكيمُ الذي "لم يؤخَذْ عليه في فعلِه خطأٌ قط، مصيبٌ وضعَ كلَّ شيء موضِعَه"(3).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البيانُ والتّفصيلُ:

البيانُ توضيحٌ عامٌّ والتَّفصيلُ إيضاحٌ زائدٌ

يختصُّ البيانُ بإخراجِ الشّيء من حيِّزِ الإشكال إلى حدِّ التّجلّي، وإظهارِ المعنى للنّفس كائنًا ما كان، وما ذُكرَ ليُعرفَ به غيرُه فهو البيانُ، وإظهارُ المعنى للنّفس كإظهارِ نقيضِه، والتّفصيلُ هو ذكرُ

(1) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/566.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.

ما تضمّنتّه الجملةُ على سبيل الإفراد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]، ولم يَقُل: شُرحت، والتّفصيلُ هو وصْفُ آحادِ الجنس، وفي التّفصيل معنى البيانِ عن كلّ قسم بما يزيدُ على ذكرِه فقط[1]. ومُقتضى الأحكامِ الشّرعيّةِ، والسُّننِ إخراجُ مضامينِها من حيِّزِ الإشكال إلى حدِّ التّجلّي؛ لتَيْسيرِ تطبيقِها، واعتمادِها منهجَ حياةٍ، وطُرقَ نجاةٍ، وسُبلَ هدايةٍ، وهو معنى يناسبُه لفظُ (البيان) لِما ظهرَ من دلالتِه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، 134، 298.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ إنَّما أرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إلى النّاسِ ليخْرِجَهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، وذَكَرَ كمالَ إنْعامِهِ عليه وعلى قَوْمِهِ في ذلك الإرْسالِ وفي تلك البَعْثَةِ، أتْبَعَ ذلك بِشَرْحِ بِعْثَةِ سائِرِ الأنْبياءِ إلى أقْوامِهِم، وكَيْفيةِ مُعامَلَةِ أقْوامِهِم معهم؛ تَصْبيرًا لِلرَّسولِ ﷺ على أذَى قَوْمِهِ، وإرْشادًا له إلى كَيْفيةِ مُكالَمَتِهِم ومُعامَلَتِهِم، فَذَكَرَ تعالى على العادَةِ المألوفَةِ قَصَصَ بَعْضِ الأنْبياءِ عليهم السلام فَبَدَأ بِذِكْرِ قِصَّةِ موسَى عليه السلام"[(1)]، وإرساله "إلى قَوْمِه بِمِثْلِ ما أُرْسِلَ به مُحَمَّدٌ ﷺ وبِمِثْلِ الغايَةِ التي أُرْسِلَ لَها مُحَمَّدٌ ﷺ ليخْرِجَ قَوْمَهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النّورِ"[(2)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخْرِجْ﴾: الخاءُ والرّاء والجيم أصلٌ يدورُ حول النَّفاذِ عنِ الشَّيءِ[(3)]، يُقال: "خَرَجَ خُروجاً: برزَ من مَقَرِّه أو حالِه، سواءٌ كان مَقَرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسِه، أو في أسبابِه الخارجةِ، قال اللّه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]. والإخْراجُ أكثرُ ما يقالُ في الأعيان، نحوَ: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾ [المؤمنون: 35]"[(4)]، و"الخُروجُ: نَقيضُ الدُّخولِ. خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا ومَخْرَجًا، فهو خارِجٌ وخَروجٌ وخَرّاجٌ، وقَدْ أخْرَجَهُ وخَرَجَ بِهِ"[(5)]، والمقصودُ بالإخراجِ في الآيةِ هو هدايةُ بني إسرائيلَ، وإخراجُهم ممّا هم فيه إلى نورِ الأخلاقِ الحميدةِ والفضائلِ الجميلةِ.

2) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الظّاءُ واللام والميم أصلان صحيحان، أحدُهما خلافُ الضّياء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/64.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(4) الراغب، المفردات: (خرج).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خرج).

والنّورِ، والآخرُ وضعُ الشّيء غيرَ موضعِه تَعدّيًا[1]، و"الظُّلمات: جمع ظُلمة، ويعبّرُ بها عن الجهل، والشّرك، والفسقِ، كما يعبّرُ بالنّور عن أضدادها، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]. وقولُه: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: 122] هو كقولِه: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: 19]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: 39]. وقولِه: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: 6]، أي: البطنِ، والرّحِم، والمَشيمَةِ، ويُجمعُ على ظُلَم أيضًا"[2]. ومعنى الظُّلماتِ في الآية: الجهلُ والمعصيةُ والفِسقُ.

3) ﴿ٱلنُّورِ﴾: النّونُ والواو والرّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إضاءةٍ[3]، و"النّورُ: الضّوءُ المُنتشرُ الذي يُعينُ على الإبصارِ، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالدّنيويُّ ضربان: ضربٌ معقولٌ بعَيْن البصيرةِ، وهو ما انتشرَ منَ الأمور الإلهيةِ كَنورِ العقل ونورِ القرآن، ومحسوسٌ بعَيْن البَصَر، وهو ما انتشر منَ الأجسام النّيّرةِ كالقمرَين والنّجومِ والنّيّراتِ، فمنَ النّورِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، ومنَ المحسوس الذي بعين البصر نحوُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، ومعنى النّورِ في قوله تعالى: ﴿أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: نورِ الحقِّ والطّاعة.

4) ﴿بِأَيَّىٰمِ﴾: الياءُ والواو والميم: كلمةٌ واحدةٌ، هي اليومُ: الواحدُ منَ الأيّام، ثم يَستعيرونَه في الأمر العظيم ويقولون نعمَ فلانٌ في اليوم إذا نزل[4]، واليَوْمُ يُعبّرُ به عن وقتِ طلوعِ الشّمس إلى غروبِها، وقد يُعبّرُ به عن مدّةٍ منَ الزّمان - أيّ مدّةٍ كانت - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 155]. وقولُه ﷻ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾، واليَوْم "في الفَلَك مِقْدارُ دورانِ الأرْض حول محورِها، ومدّتُه أربعٌ وعِشْرون ساعَةً"[5]، و"العَرَب تَقول: الأيّام، في معنى الوقائع[6] "، "ومنَ المجاز: ذكرُ في أيّام العربِ كذا أي في وقائعها، ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بدمادمِه على الكفرة"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/540.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(5) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (يوم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (يوم).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (يوم).

ومعنى ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ في الآية أخذُهم بالشّدّةِ واللّين؛ بتخويفِهم بأيّام عادٍ وثَمودَ وأشباهِهم بالعذاب وبالعفوِ عَن آخرين[1]، أي: بنَقماتِه وشدائدِه، فالأيّامُ يُعبّرُ بها عنِ الشّدائد والوقائعِ[2]. وكذلك بِنِعَمِه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُخبرُ الآيةُ أنَّ اللّه تعالى قد أرسلَ رسولَه موسى عليه السلام إلى قومه ليُخرجَهم منَ الظّلمات إلى النّور، "مؤيَّدًا بآياتنا التّسعِ التي مرّت في سورة الأعراف، وقلنا له: أخرج قومَك يا موسى منَ الظّلمات إلى النّور، والمعنى: أمرْهم بالتّوحيد الخالصِ والإيمان باللّه إيمانًا كاملًا ليَخرجوا من ظلمات الجهلِ والضّلالِ والمعصيةِ إلى نورِ الهُدى والإيمانِ، وذكّرْهم بأيّام اللّه التي مرّت على أُمم الأنبياءِ السّابقة، وكيف نجا المؤمنون وهلك الكافرون؟! وذكّرْهم بأسَ اللّه وشدائدَه وانتقاماتِه ممن كذّبَ رسالتَه كقوم عادٍ وثمودَ وقوم هودٍ وإخوانِ لوطٍ، ففي التّذكيرِ بأيّام اللّه ترغيبٌ وترهيبٌ، ولقد كان لموسى مع قومه أيّامٌ فيها محنةٌ وبلاءٌ وأيّامٌ فيها نِعمٌ ونجاةٌ وكلُّها من أيّام اللّه، إنّ في ذلك التّنبيه والتّذكيرِ لَدلائلَ على وحدانيّةِ اللّه وقُدرتِه لكلّ صبّارٍ في المحنةِ والشّدّةِ، شَكورٌ في المِنحةِ والعطيّةِ"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ في المَطْلع:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ "جملةٌ مستأنفةٌ، مسوقةٌ للشّروع في تفصيل ما أجْملَه عنِ الرّسل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ

إذا أدّى الدّاعيةُ مهامَّه فلا عليه مِن كُفْرِ من كَفَرَ، واسْتَحبَّ الحياةَ الدّنيا

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/68، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (يوم).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/359.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (يوم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 641.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/247.

﴿أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾"[1]، كذلك سيقتْ إلى رسولِ اللّه ﷺ تسليةً وتهوينًا لتكذيبِ قومِه إيّاه في كونِه رسولًا مُرسلًا إليهم منَ اللّه تعالى، وتهوينًا من أمر استحبابِهمُ الحياةَ الدّنيا على الآخرة، وصدِّهم عن سبيل اللّه ﷻ وبُغائِهم دينَ اللّه ﷻ عِوجًا وذلك ما سبق في أوّل هذه السّورة ونهايةِ السّورةِ السّابقةِ.

غرَضُ التّأكيدِ بالقسَمِ و(قد):

إنـكـارُ رسـالـةٍ لاحـقـةٍ كإنكارِ رسالةٍ سابقةٍ

خبرُ إرسالِ موسى عليه السلام معلومٌ ضرورةً لدى المخاطَبين، وهو ممّا لا يُجهلُ ليُؤكَّد وجودُه، وغرضُ ذلك التّأكيدُ "بلام القسَم وحرفِ التّحقيق لتنزيل المُنكِرين رسالةَ محمّدٍ ﷺ منزلةَ مَنْ يُنكرُ رسالة موسى عليه السلام؛ لأنَّ حالَهم في التّكذيبِ برسالة محمّدٍ ﷺ يقتضي ذلك التّنزيلَ؛ لأنَّ ما جازَ على المثلِ يجوزُ على المُماثل، على أنَّ منهم من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: 91]"[2].

فائدةُ الإسْنادِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

رُســـلُ الـلـه عظماءُ باخْتيارِ الــلـــه لـهـم لوظيفةِ الرِّسالةِ

الضّميرُ (نا) في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ يُفيدُ تعظيمَ من أرسلَه اللّه تعالى إلى قومِه، فالمُرسَلون هم عظماءُ عند اللّه تعالى، باختيارِهم أنْ يكونوا حملةَ الرِّسالةِ، وبأفعالِهم التي يقومون بها تحقيقًا للحقِّ، وبشارةً ونذارةً للمَدعوّين.

معنَى (الباء) في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

الـــرُّســـلُ مُـلـتَـصـقـون بالآياتِ التِصاقَ الرّوحِ بالجسدِ

تفيدُ (الباء) في القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المصاحبةَ، أي أرسلنا موسى عليه السلام بمعيَّة آياتِنا "إرسالًا مُصاحِبًا للآيات الدّالّةِ على صدقِه في رسالتِه، كما أُرسل محمّدٌ ﷺ مصاحِبًا لآية القرآن الدّالِّ على أنّه من عند اللّه، فقد تمّ التّنظيرُ وانتهض الدّليلُ على

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188 - 189.

المُنكرين"[1]، فإرسالُ الآيات كان مُصاحبًا لإرسال الرَّسولِ، فهو ﷺ لِقوَّة تعلُّقه بالآيات، ووعْيه بقيمتِها، وحرْصِه على إيصالها بكلِّ دقّةٍ وأمانةٍ متعلِّقٌ بها، ملتصقٌ بها التصاقًا مَعنويًّا، ومُلتبسًا بها.

دَلالةُ جمْعِ الآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

مُعجزاتُ الرّسلِ مِنَ العظَمةِ والجلالِ ما يوجِبُ الإيمانَ بصدْقِ الرُّسل

يفيدُ جَمْعُ الآيات كثرتَها وتَنوُّعَها؛ بحيث إنّه كان يتوجّبُ على المُرسَل إليهم التّصديقُ بها، وببعثتِه ﷺ من عند الله ﷻ، وقد تنوَّعتِ الآياتُ كما قال الله تعالى في آية أخرى ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾، وكانت كلُّها معجزاتٍ كبيرةً، فكانت كفيلةَ الإقناع، وبرغم كثرتها وتنوُّعِها[2] وكوْنِ الدّعوةِ بلسانِهم ولُغتِهم عادَوْه، ولم يوقِفْهم إلّا الغرقُ في اليمِّ.

دَلالةُ إضافةِ الـ (آيات):

عظَمةُ الآياتِ كامنةٌ في خَفيّاتِها وحاضرةٌ في تَجلّياتِها

إضافةُ الـ (آيات) إلى ضمير العظَمةِ في القيدِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يدلُّ على عظمتِها، وتميُّزِها عمّا ألفَه القومُ مِنَ السِّحر الخادعِ، وأنّها (آيات) تليقُ بجلال الله ﷻ، وأنّها من وادٍ آخرَ لا عهْدَ للبشر به، فهذه يدٌ بيضاءُ مثلُ الشّمس، وهذه عصا تنقلبُ حيّةً ضخمةً عظيمةً، تتّصفُ بالخطورة، وتلتهمُ ما حولها.

ومن آيةِ العصا أنّها لم تلتهم أحدًا مِنَ الأناسيّ الحاضرين، ولو هاجمتْهم لفتكت بهم جميعًا في لحظات، ولَما أفلتَ منها أحدٌ منهم، إلى آخر الآياتِ العظيمةِ الجديرةِ بِلَيّ أعناقِ القلوبِ، وعطْفِ النّفوس إلى احتضانِ أنوارِ تلك الآياتِ البيِّناتِ.

معنَى ﴿أَنۡ﴾ في قوله: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ﴾:

(أنْ) تحتمِلُ التّفسيريّةَ والمصدريّةَ على تقديرِ حرفِ الباءِ

﴿أَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ تفسيريّةٌ لمقولِ قولٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

(2) "قال الأصمُّ: آياتُ موسى ﷺ هي العصا، واليدُ، والجرادُ، والقُمّلُ، والضّفادِعُ، والدّمُ، وفلقُ البحرِ، وانفِجارُ العُيُونِ مِن الحجرِ، وإظلالُ الجبلِ، وإنزالُ المنِّ والسّلوى"، ينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/64.

محذوفٍ، أي: وقلنا له: أخرج قومَك، "والضّابطُ لها موجودٌ وهو أن يتقدَّمها جملةٌ فيها معنى القولِ دون حروفِه، و﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ فيه معنى قلنا"[1]، "كأنّ المعنى: قلنا له: أَخْرِجْ قومَكَ"[2]، ويجوزُ أن تكون ﴿أَنۡ﴾ المصدريّةَ النّاصبةَ للفعل، وإنّما صلُحَ أن توصَلَ بفعل الأمر؛ لأنَّ الغرضَ وصلُها بما تكونُ معه في تأويل المصدرِ وهو الفعلُ، والتّقدير: بأن أخرج قومك[3].

فأنِ المفتوحةُ الألفِ مع ما بعدها بتأويل المصدر، تجعلُ الكلامَ شأنا وقصّة وحديثًا، وتقلبُ معنى الجملة إلى الإفراد، وتصيرُ في مذهب المصدرِ المؤكّدِ، ولولا إرادةُ التأكيد لكان المصدرُ أَحَقَّ بالموضع، وكنتَ تقول: (بلغني قيامُ زيدٍ) مكان (بلغني أنَّ زيدًا قائمٌ)[4]. فالتّوكيدُ هنا يَستدْعيه شدّةُ ضلالِ القوم الذين أُرْسلَ إليهم موسى عليه السلام؛ ممّا تطلّب توكيدَ (الإخراج) بالحرف المصدريِّ بوصفِه علّةَ الإرسال.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ في قولِه: ﴿أَخۡرِجۡ﴾:

تَغْييرُ قناعاتِ العقولِ ومَتاعِ النّفوسِ أشدُّ من نقلِ الأجسامِ وتَحْريكِ الأجْسادِ

الإخراجُ بمعنى إبرازِ المخرَج، ونقلِه إلى خارجٍ: معنًى حسّي، وهو غيرُ مقصود هنا؛ لأنَّ موسى عليه السلام لن ينقلَ قومَه ويخرجَهم من مكان مظلمٍ إلى مكان مُنير، بل سيُخلِّصُهم منَ الظُّلمات الرّوحيَّة، والتّخبُّطاتِ الفكريَّةِ، والفواحشِ الأخلاقيَّةِ إلى أنوار الإيمانِ والهُدى والصّلاحِ؛ فتَنْجو أرواحُهم، وتَرتقي عقولُهم، وتطهرُ نفوسُهم من كلّ ضلالٍ في العقيدة والفكرِ والسّلوكِ؛ "ليَخرجوا من ظُلُماتِ ما كانوا فيه منَ الجَهْلِ والضَّلالِ إلى نورِ الهُدَى وبصيرَةِ الإيمانِ"[5]،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/155.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(4) السامرائي، معاني النحو: 1/293 - 296.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/478.

فكان تهذيبُ ذلك فيهم مثلَ الإخراجِ الحقيقيِّ، وعليه فالآيةُ شبَّهتِ التَّخليصَ منَ المعنويّاتِ القبيحةِ بالإخراجِ منَ الظُّلماتِ، وصرَّحت بالمُشبَّه به وهو الإخراجُ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة.

تَوجيهُ إيثارِ لفْظِ (قوم):

القـومُ يـقـومُ بهـم صاحبُهم صَلاحًا أو فَسادًا

سبق القولُ: إنّ المقصودَ بالقوم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أمّتُه التي يدعوهم إلى الله ﷻ لا قومَه الأقربين وبخاصّة، وأمّةُ موسى فريقان: فرعونُ وملؤه، وبنو إسرائيلَ، "أمّا فرعونُ وملؤه فظاهرٌ، وأمّا بنو إسرائيلَ فقد كان فرعونُ فَتَنَ جُلّهم، وأضلَّهم مع القِبطِ، فكانوا أشياعًا متفرّقين، لم يبقَ لهم دينٌ"[1]. وعلى ذلك يكونُ إيثارُ التَّعبير بـ ﴿قَوۡمَكَ﴾ دون (بني إسرائيل) في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾؛ لِبَثِّ إيحاءاتٍ خاصّةٍ، منها إشعارُهُ عليه السلام بمسؤوليته الدَّعويّةِ للفريقَين كلَيْهما؛ لأنّهم جميعًا بمثابة قومِه، وعلى جعْلِ المقصودِ بالقومِ هنا بني إسرائيل[2] بخاصّةٍ، فالمقصودُ تحريكُ عنصرِ المسؤوليَّة كذلك تُجاهَهم.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿قَوۡمَكَ﴾:

قَـوْمُ الإنـسـانِ مَـسـؤولـيـتُـه ما دامَ قائِدًا لهم

من شأن الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ إثارةُ الرَّحمة في قلب موسى عليه السلام وإشعارُه بِعظَمِ المسؤوليةِ، وأنّ نجاة قومِه منَ الظّلمات إلى النّور منوطةٌ بجهوده في حسنِ التّبليغ، والصّبرِ عليهم، واحتمالِ ما قد يكونُ منهم.

وفي تلك تذكيرُ موسى عليه السلام برابطة الرَّحم، وأنّهم (قومك) الذين يعود أصلُك إليهم برغم غربتَك عنهم في مدين عشرَ سنين مدّةَ استئجارِك لدى والدِ زوجتِك، وأنّهم قومُك الذين يُفترضُ فيهم توفُّرُ الثّقةِ فيك، والاحتفاءِ بدعوتِك، واحتضانِ أنوارِها أنْوارِ شريعتِك.

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/44.

(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللّفظي:

بين الآية الأولى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في هذه السورة، وهذه الآيةِ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وجهُ تشابهٍ وافتراقٍ، فالتّشابُه في أنّ الإخراجَ في كلتا الرّسالتَين: رسالةِ نبيّنا محمّدٍ ﷺ، ورسالةِ موسى عليه السلام هو منَ الظّلماتِ إلى النّور، أمّا وجهُ المبايَنةِ بين الآيتَين ففي التّعبير بصيغةِ الإخراج؛ إذ عبّرَ عنه في الآية الأولى التي خوطب فيها نبيُّنا ﷺ بصيغة المضارع ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ الدّالّ على الحال والاستقبال، والاستمرارِ والدّوام، وأردفَها بلفْظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اللفظِ العامِّ، الذي يتّسِعُ ليَستقصي كلَّ النّاس في كلِّ زمانٍ ومكان، ليثبتَ عالَميّةَ هذا الدّين، وكونَه الرّسالةَ الخاتمَ فالإخراجُ منَ الظّلمات إلى النّور مُتجدّدٌ لكلّ النّاس حتى يأذنَ اللّه تعالى، أمّا لفظُ الإخراج في هذه الآية التي خوطبَ فيها موسى عليه السلام فصيغَ بالأمر ﴿أَخۡرِجۡ﴾ المسندِ إلى ﴿قَوۡمَكَ﴾ ممّا يعني الدّلالةَ على الأمرِ في الحال واقْتِصارِه على قومِه فقط.

رسالةُ الإسلامِ هدايةُ النّاس كافّةً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى الحقِّ

معنَى حرْفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾:

تفيدُ ﴿مِنَ﴾ الجارّةُ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ابتداءَ الغاية، أي: تبدأ غايةُ إخراجهم من هذا الوضعِ المُزري إلى أن تنتهيَ المهمّةُ إلى وضعِهم على الطّريق الصَّحيح، وإيصالِهم إلى حالة النّور الرّوحيّ، والهُدى القلبيّ، والطّمأنينة النّفسيّة، إلى دين الفطرةِ النّقيّةِ التي فطرَ اللّه تعالى النّاسَ عليها، وفي ذلك إشعارٌ له عليه السلام بجسامةِ المَهمّة، وثِقلِ التّكليفِ، ووجوبِ الاستعدادِ لحمل العبءِ الثّقيل.

مُهمّةُ الرُّسل ثَقيلةٌ؛ لأنَّها تَبْدأُ بأعمالٍ جسيمةٍ ومخاطِرَ عظيمةٍ

بَلاغةُ الاسْتِعارة في الآية:

إخراجُ قوم موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: "منَ الشّرك إلى الإيمانِ"[1]، و"منَ الضّلالة إلى الهُدى، أو من ذُلِّ الاستعباد إلى

تَجْسيدُ المعاني أنورُ للعقل وأرسَخُ في الذِّهنِ

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

عِزِّ المملكةِ"(1)، و"من ظلمات شكِّهم إلى نور اليقين، ومن إشكالِ الجهلِ إلى روح العلم"(2). فـ"الظُّلُماتُ مُسْتَعارٌ لِلشِّرْكِ والمَعاصي، والنّور مُسْتَعارٌ لِلإيمانِ الحَقِّ والتَّقْوَى، وذلك أنَّ بَني إسْرائيلَ لَمّا طالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ في مِصْرَ بَعْدَ وفاةِ يوسُفَ عليه السلام سَرَى إليهمُ الشِّرْكُ واتَّبَعوا دينَ القِبْطِ، فكانَتْ رِسالَةُ موسَى عليه السلام لإصْلاحِ اعْتِقادِهِم مع دَعْوَةِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ لِلإيمانِ باللّه الواحِد، وكانَت آيلةً إلى إخْراجِ بَني إسْرائيلَ مِنَ الشِّرْكِ والفَسادِ وإدْخالِهِم في حَظيرَةِ الإيمانِ والصَّلاحِ"(3).

نُكتتا جمْعِ الظُّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طـريـقُ الـحـقِّ واحدٌ فلذلك هو واضـحٌ، وطُـرُقُ الـبـاطـلِ كـثـيرةٌ ولـذلـك فـهـي غَوِيَّةٌ

جمعَ النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لِتنوُّعِ مصادرِ الضّلال وتكاثرِها على العبد، وتعدُّدِ مظاهر الكفرِ الصّريحِ وغيرِ الصّريح، التي تُفسدُ على الكافرِ الضّالِّ حياتَه الدّنيا، وتُسعِّرُ عليه الحياةَ الأُخرى.

أمّا إفرادُه ﴿ٱلنُّورِ﴾ فلأنّه لا نورَ إلّا من قِبَلِ اللّه تعالى، فـ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: 35]، ففي إفرادِ ﴿ٱلنُّورِ﴾ إيحاءٌ بأنَّ مَنِ ابتغى النّورَ في غير شِرعتِه ومنهاجِه سبحانه وتعالى ضلَّ سواءَ السّبيل، وتاهَ في ظُلمات الضَّلال، فمصدرُ النّور الرّوحيِّ والعقليِّ هو نورُ اللّه تعالى ودينُ اللّه جل جلاله، ومنهجُ اللّه وحدَه، فالآيةُ "دالَّةٌ على أنَّ طُرقَ الكفرِ والبدعةِ كثيرَةٌ وأنَّ طريقَ الخيرِ ليس إلّا الواحدَ"(4).

معنَى الواوِ في ﴿وَذَكِّرۡهُم﴾:

التّـذكيرُ بأيّام الـلـه وسيـلـةٌ مُعينَةٌ للإخراجِ مِنَ الظّلماتِ إلى النّورِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم﴾ هي واوُ العطفِ، والأمرُ بالتَّذكير معطوفٌ على الأمر بالإخراج ﴿أَخۡرِجۡ﴾، فالتَّذكيرُ هو أداةٌ مساعِدةٌ للإخراج مِنَ الظُّلمات إلى النّور، والمقصودُ بالتَّذكير بأيّام اللّه

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/122.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/239.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/58.

تعالى، هو التَّذكيرُ بعمومِ النِّعمِ والنِّقمِ، "أي: ذكِّرْهم بالأيّام التي سَلَفَتْ لمن كفرَ وما نزلَ بهم فيها، والدّليلُ على أنّ التّذكير مُشتملٌ على الإنْذار والتَّحْذير ممّا نزَل بِمَنْ قبلَهم قولُه ﷻ بعدَ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]"(1).

فهذه الواوُ عاطفةٌ، ولأنّ كلًّا منَ الفعلَين ﴿وَذَكِّرْهُم﴾، ﴿أَخْرِجْ﴾ إنشائيّان كان العطفُ للتّوسّطِ بين الكمالَين، ولزمَ التّعاطفُ بينَهما، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في قوله سبحانه ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ حاليةً، أي: أخرج قومَك منَ الظّلمات إلى النّور مذكِّرًا لهم بأيّام اللّه؛ ليتّعِظوا بمصير المكذِّبين، ونجاةِ الموحِّدين الذين وفّقهمُ اللّه ﷻ.

غرَضُ الأمْرِ في ﴿وَذَكِّرْهُم﴾:

التّرهيبُ بعواقبِ الظّالمين، والتّرغيبُ بنجاةِ المؤمنين مَنهجٌ قرآنيٌّ للدّعاةِ

"أمرَ اللّه ﷻ موسى عليه السلام أن يعظَ قومَه بالتّهديدِ بنقَمِ اللّه تعالى التي أحلَّها بالأممِ الكافرةِ قبْلَهم، وبالتّعديدِ لنِعمِه ﷻ عليهم في المواطنِ المُتقدِّمةِ، وعلى غيرِهم من أهل طاعتِه ليكونَ جريُهم على منهاجِ الذين أنعمَ عليهم وهربُهم من طريق الذين حلَّتْ بهمُ النّقْماتِ"(2).

والأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ يحتملُ معنى الوجوبِ، وأنَّ الدّعوةَ إلى اللّه تعالى بدون تذكيرٍ وتحذيرٍ بنِقَمِ اللّه تعالى على الكافرين، وبنِعَمِه على المؤمنين تبقى دعوةً ناقصةً، وأنّ التّذكيرَ والتّحذيرَ تكليفٌ واجبُ التّنفيذِ، وأنّه ضمْنَ تكاليفِ الإرسالِ، كما يحتملُ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أن يكونَ نُصحًا وإرشادًا وتوجيهًا لموسى عليه السلام؛ بحيث يَسترشدُ بأيّام اللّه تعالى، ويذكّرُ قومَه ويحذّرُهم بأنّ سُنّةَ اللّه تعالى في خلْقِه إهلاكُ الكافرين، وأنّ العاقبةَ للمتقين.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/155.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/324.

فـ"التّذكيرُ: هو العِظةُ؛ أي: عِظْهم بأيّام اللّه"[1]، "وخوِّفْهم بمثلِ عذابِ الأممِ الخاليةِ فيحذَروا فيؤمُنوا"[2]، وقد وافقَ الذّكرُ الحكيمُ بين التّذكيرَين، أي: تذكيرِ هذه الأمّةِ بالأنبياء والأُمم في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وتذكيرِ أمّةِ موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾[3].

وفيه تذكيرُهم "بالأيّام التي انتقمَ اللّه عز وجل فيها منَ الأممِ الماضيةِ، فيتّعِظوا، ويزدجروا، ويخافوا أنْ يصيبَهم مثلُ ما أصاب مَنْ كان قبْلَهم، ودلَّ على ذلك قولُه بعد الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: 9]"[4].

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرفِ (الباء):

التَّذكيرُ مقصودُه الـرَّحـمـةُ لا مَحْضُ التَّخويفِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ للاستعانةِ، أي: ذكّرْهم مُستعينًا بترغيبِهم وترهيبِهم بالأحداثِ التي وقعت في تلك الأيّام؛ لعلّها تكونُ نبراسًا يَسْتضيئون به في حياتِهم فيؤمِنوا ويوحِّدوا اللّه عز وجل؛ فيفوزوا بالرّضوان والجِنانِ، وقد "دَلَّ هذا على جوازِ الوعْظ المُرقِّقِ لِلْقُلوبِ، المُقوّي لِلْيَقينِ، الخالي مِنْ كُلِّ بِدْعَةٍ، والمُنَزَّه عَنْ كُلِّ ضَلالَةٍ وشُبْهَةٍ"[5].

تَـضْـمـينُ فـعْـلِ الـتَّـذكـيرِ معنَى الوَعْظِ

ويصحُّ أن تكونَ الباءُ في قول اللّه تعالى ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ مُؤذِنةً بِتَضمُّن الفعلِ ﴿وَذَكِّرۡهُم﴾ معنى الفعلِ (خوِّف)؛ فلمّا "ضُمِّنَ التَّذكيرُ معنى الإنذارِ والوعظِ عُدّي بالباء، أي: ذكِّرهم تذكيرَ عظةٍ بأيّام اللّه تعالى"[6].

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.

(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/573.

(4) مكي، الهداية الى بلوغ النهاية: 5/3774.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/342.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

بَلاغةُ المجاز في قوله: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾:

الكِنايةُ في استِحْضارِ زمَنِ الأحداثِ لا الأحداثِ نفسِها

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ كنايةٌ عمّا وقعَ فيها من أحداثٍ عظيمةٍ، سواءٌ منها ما كان غلبةً للموحِّدين ونُصرةً منَ الله تعالى للمؤمنين، أو ما كان من دَمارٍ على الكافرين، وهزيمتِهم على أيدي المؤمنين؛ وذلك "لأنّها أيّامٌ كانت معلومةً عندهم، أنعمَ الله عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذَهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا فيه منَ العذاب المُهين، وغرَّقَ عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأَوْرَثهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم"(1)؛ فإذا ذُكِرتْ تلك الأيّامُ استُدعيتْ إلى الأذهان أحداثُها بطريق اللّزوم؛ فتحقّقتِ الكنايةُ.

(أيّامُ الله) مجازٌ مُرسلٌ والمقصودُ الأحداثُ

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ أيضًا علاقتُه الزَّمانيَّةُ، إذِ المقصودُ أحداثُها؛ إذ "الأيّامُ يُعبَّر بها عن النِّعم والنّقم؛ لأنَّها كلَّها تقعُ فيها"(2)؛ فصار الزّمانُ بمثابةِ أن يُذكَّرَ به لذاتِه، فكأنَّ أحداثَه فاضتْ عليه من جلالِها وعِبرِها ودروسِها؛ حتى صارت تلك الأيّامُ بهذه المثابةِ بين عامّةِ أيّام الدّهرِ. و"في هذه العبارةِ تعظيمُ هذه الكوائنِ المذكَّرِ بها، ومِن هذا المعنى قولُهم: يومٌ عصيبٌ، ويومٌ عبوسٌ، ويومٌ بسّامٌ، وإنّما الحقيقةُ وصفُ ما وقعَ فيه من شدّةٍ أو سرورٍ"(3).

حَمْلُ الأيّامِ على حقيقتِها يُرادُ به ما يكونُ فيها من أرزاقٍ وآجالٍ

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾: "الأيّامَ المعروفةَ نفسَها، أَمَرَه أنْ يذكّرَهم بها؛ لأنّ الأيّامَ تأتي بأرزاقِهم؛ وتمضي بأعمالِهم وأعمارِهم؛ إنْ كان خيرًا فخيرٌ وإن كان شرًّا فشرٌّ، وتُفني أعمارَهم وآجالَهم، وفيما تأتي بأرزاقِهم نعمةٌ منَ الله عليهم، وفي ذهاب أعمارِهم وآجالِهم إظهارُ سلطان الله وقُدرته،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/517.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/23.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/324.

فأمرَه أن يذكّرَهم بذلك. والله أعلم. وهذا يُشبهُ أن يكونَ أمرَ موسى ﵇ أنْ يذكّرَ بني إسرائيلَ ما كان عليهم من فرعونَ؛ من أنواع التّعذيبِ، ثمّ الإنجاءَ من بعدُ، يقول - والله أعلم - ذكّرْهمُ الأيّامَ الماضيةَ وما يَتلوها، وهذا أشبهُ وأقربُ"[1].

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾:

ما كانَ لله تعالى فـمَـرَدُّه إليـه ومآلُه بين يدَيْه

إضافةُ (الأيّام) إلى لفظِ الجلالة (الله) تعالى تشريفٌ لأمرِها لِما أفاضَ الله تعالى عليهم من نِعَمِه فيها[2]، وزادها تميُّزًا بين سائر الأيّام، على الرّغم من أنَّ الأيّامَ كلَّها أيّامُ الله ﷻ، وأنّ الزّمان كان مِلكًا لله تعالى، غيرَ أنَّ تخصيصَ هذه الأيّام بتلك الإضافةِ الشّريفةِ يمنحُها تعظيمًا ويُبوّئها منزلةَ الإجلال، ويزيدُ أحداثَها تقديرًا، ومهابةً، وعبرةً.

بَلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

الأيّـــامُ ضـمْـنَ سُنَنِ الله تعالى في الأحْداثِ كلِّها

"الالتفاتُ منَ التّكلّمِ إلى الغَيبةِ بإضافةِ الأيّامِ إلى الاسم الجليلِ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ للإيذان بفخامةِ شأنِها، والإشعارِ بعدمِ اختصاصِ ما فيها منَ المعاملةِ بالمخاطَبِ وقومِه"[3]، ومقتضى الظّاهرِ أن يكونَ النَّظمُ: (وذكِّرهم بأيامي) أو (بأيامنا)؛ لأنّ المتكلّمَ هو الله ﷻ، غيرَ أنّ الإضافةَ إلى الضّميرِ ليست في جلال الإضافةِ إلى الاسْمِ العظيم ﴿ٱللَّهِۚ﴾ ﷻ، كما أنَّ إضافةَ الأيّام إلى لفظِ الجلالة على طريقِ الغيبةِ؛ لإكسابِ الأيّامِ قانونَ السُّنَنِ الذي يجري على جميعِ النّاس، ولو جاء على طريقةِ التَّكلُّمِ لأفادَ التَّخصيصَ بأيّامٍ معيَّنةٍ.

عِلّةُ التَّعبيرِ بـ (التّذكيرِ بأيّامِ الله):

دِيـنُ الإسـلامِ أسهلُ الشّرائعِ، وأيْسَرُها

في خطاب موسى ﵇ لم يذكرْ قيْدَ (بإذن الله) فلم يقل: (أخرج قومك منَ الظّلمات إلى النّور بإذن الله) كما قال في الآية الأولى من

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.
(2) الراغب، المفردات: (يوم).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/178.

السورة: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ وذلك لأنّ الأوّلَ خطابٌ للنّبيّ ﷺ وشريعتُه من أسهلِ الشّرائعِ فناسبَ فيها ذكرُ الإذن ليفيدَ معنى السّهولةِ واللّينِ المأذونِ فيهما، والآيةُ ههنا خطابٌ لموسى عليه السلام وقد كانت شريعتُه صعبةً ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 54][1].

عِلَّةُ فصْلِ قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾:

في التَّذكيرِ ثوابٌ لمن يَصبِرُ على البلاءِ ويَشكرُ النَّعماءَ

فُصلتْ جملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ عن جملةِ ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّ الأولى إنشائيةٌ نوعُها أمرٌ، والثّانيةَ خبريةٌ؛ فبينهما كمالُ انقطاعٍ، ولا يتعاطفان؛ لذلك وقع الفصلُ بينهما، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ معنى التَّعليلِ، أي: ذكّرْهم بأيّامِ اللّه؛ لأنَّ في التَّذكيرِ آياتٍ لكلِّ من يَرجو ثوابَ اللّه فيَصبرُ على بلائِه ويشكرُ نَعماءَه.

غَرَضُ تقديمِ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾:

آياتُ الله تعالى تَحتاجُ إلى عنايةِ الأذهانِ ورعايةِ الجِنانِ

﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ وما وقعَ فيها من أحداثٍ جسامٍ تُعدّ آياتٍ من آياتِ اللّه تعالى، فكان تقديمُ المسنَدِ إليه ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للتَّنبيه على ما في الإخراجِ والتَّذكيرِ من آياتٍ، وأنَّ الاهتمامَ بها والعنايةَ بأمرِها يحتاجُ إلى مزيدِ رعايةٍ منَ الدّاعي والمَدْعو، ولا يجوزُ اعتبارُ هذا التّقديمِ للقصرِ والتّخْصيص؛ لأنّ آياتِ اللّه تعالى لا آخرَ لها، و﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى المذكورةُ جزءٌ منها، ولا يُحيطُ بها علمًا إلا هو جل جلاله.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

اشْتِمالُ الحرْفِ على المعاني أمارةُ السَّعةِ وبُرهانُ التَّنوّعِ

قال العلّامةُ الطّاهرُ بنُ عاشور: "التَّذْكيرُ بأيّام اللّه يَشْتَمِلُ على آياتِ قُدْرَةِ اللّه سبحانه وتعالى وعِزَّتِه، وتأْييدِ مَنْ أطاعَهُ، وكُلُّ ذلك آياتٌ كائنَةٌ في الإخْراجِ والتَّذْكيرِ على اخْتِلافِ أحْوالِه، وقد أحاطَ بمعنَى هذا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/440.

الشُّمولِ حَرْفُ الظَّرْفيةِ مِنْ قولِه: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لِأَنَّ الظَّرْفية تَجْمَعُ أشْياءَ مُخْتَلِفَةً يَحْتَويها الظَّرْفُ، ولذلك كانَ لِحَرْفِ الظَّرْفيةِ هُنا مَوْقِعٌ بَليغٌ"[1].

نُكتةُ اسْتِعمال اسْمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَستدْعي تذكُّرَ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وأحداثِها لتكونَ حاضرةً في الأذهان كأنها مشاهَدة للعَيان؛ وذلك يُسهمُ في إحياء ذكراها، والإفادةِ من دروسِها، والتماسِ عِبرِها؛ عَلَّها تؤثِّرُ في نفوس القوم فيُقبلوا على دعوة موسى عليه السلام بيقينٍ واستبشارٍ.

آياتُ الله تعالى جليلةُ القدْرِ، بَعيدةُ المَنزلةِ؛ لذلك لا يفقَهُها إلّا عالِمٌ مُتدبِّرٌ

وجاءتِ الإشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بِلام البُعدِ دلالةً على بُعد منزلةِ تلك الآياتِ في التّأثير على من يتّصفُ بصفتَي ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وهو كلُّ مؤمن منَ المُتَّعظين بما في تلك الآياتِ من نِعم اللّه تعالى ونِقمِه؛ "لأنّ الشّكرَ والصّبرَ عنوانُ المؤمن"[2].

بَلاغةُ التّوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾:

اقتضى جلالُ الدّعوةِ إلى اللّه تعالى، والعنايةُ بإنْجاءِ القوم منَ الضّلال، وإخراجِهم إلى نور الهدى والرّشادِ التّأكيدَ على أنَّ من شأنِ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ومن شأنِ ما فيها من عِبَر ودروسٍ نفعَ مَن يُنْعِمُ النّظرَ فيها، وتوكيدَ كونِها من جليلِ العِبرِ وباهرِ الآيات والدّلائلِ على وحدانيّةِ اللّه تعالى وعظيمِ قُدرته عز وجل على رفعَ أوليائه ونُصرتِهم، وخَفْضِ أعداءِ دينه وأوليائِهم وخذلانِهم، بل إهلاكِهم بالكلّيةِ، والتَّأكيدُ لتحريك هِممِ من تقعدُ بهم الخواطرُ عن تدبّرِ الأمرِ على حقيقتِه، وتأمّلِ الحالِ على أحقّيتِه.

من شأْنِ التَّدبُّرِ في (أيامِ الله) تعالى نفعُ المُتدبِّرِ وإنْجاؤه منَ الشُّرورِ

نُكتةُ جمْعِ (الآيات) وتَنكيرِها:

جمعُ الآيات في قوله تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يفيدُ

آياتُ الله تعالى جليلةُ العِبَرِ، وإنّما يَقْبِسُ منها كلُّ مُؤمنٍ بحسَبِ تدبُّرِه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/190.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/300.

كثرتَها، وتكاثرَ عِبَرها ودروسِها الجليّةِ المُستفادةِ من ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾، وأنّها لا تكادُ تتناهى، وإنّما يَقْبِسُ مِن أنوارها كلُّ موحِّدٍ على قدْرِ طاقتِه ووفرةِ إمكاناته الإيمانيّةِ، وهذه الكثرةُ الكاثرةُ ضِمْنَ إطار التّوكيدِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فهي (آيات) والآياتُ بحدّ ذاتها قِمَّةُ البهاء، ودليلُ البراعةِ في بابِها، وتنكيرُها يُضْفي عليها العَظَمةَ والفخامةَ والتَّبجيلَ.

معنَى اللّامِ الدّاخلةِ على (كلّ):

الانْتِفاعُ بآياتِ اللهِ تعالى مَخْصوصٌ بكلِّ مُؤمنٍ صَبّارٍ شَكورٍ

اللّامُ الدّاخلةُ على (كلّ) في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هي "اللّامُ المُزحلقةُ للتّوكيدِ"[1]، وتفيدُ الاختصاصَ، وتقرّرُ أنّ آياتِ أيّام اللّه تعالى لا يَنتفعُ بها، ولا يراها، ولا يَنفعلُ لها، ولا يتأثّرُ بها إلّا هذا الصّنْفُ منَ النّاس، الصّنفُ الموصوفُ بصفتَي (الصّبر والشّكر) في أرقى صورها، أمّا غيرُ هذه الطّبقةِ منَ العباد فلا يَقِف على أسرارِها، ولا يتأثّرُ بعبرِها، "وقيل المرادُ لكلِّ مؤمنٍ وإنّما عبّرَ عنه بذلك تنبيهًا على أنّ الصّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المؤمن"[2]، وعلى ذلك ففيها كنايةٌ بطريقِ هذا الاسْتِلزامِ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ لفْظِ العمومِ (كلّ):

عُنوانُ المؤمنِ تَعانُقُ الصَّبرِ بالشُّكرِ

لفظُ العموم (كلّ) في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَضْمَنُ لِمن يَتَّصفُ بهاتين الصفتَين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ولمن يَسْتَجْمِعُهما معًا تمامَ الانتفاعِ بتلك الآياتِ، والتّوفيقَ إلى اقتباسِ أنوارِها، واتخاذِها كشّافاتِ هُدًى توصِلُه إلى سبيل اللّه المستقيم، ودينِه القويم، وأنّ مَن لم ينتفعْ بها ولم يتأثّرْ بها قد خلا قلبُه من صفتَي (الصّبرِ والشّكرِ) بتلك النّسبةِ المُؤهّلةِ لهذا التّأثّرِ والانتفاعِ.

والتّعبيرُ بكلمةِ العموم في قوله سُبحانه: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/193.

باعتبارِ أنَّ "المؤمنَ صَبورٌ على أمرِ اللّه ﷻ عند البلاءِ الشّديدِ، شَكورٌ للّه تعالى في نِعمِه"[1].

تَوجيهُ تَخصيصِ ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ بالذِّكرِ:

الانْتِفاعُ بالآياتِ على وجْهِها لا يكونُ إلّا من صَبّارٍ شَكورٍ

خصَّ النَّظمُ صفتَيِ الصَّبّارِ والشَّكورِ بالذِّكر، وذلك لأنَّهم لَمّا كانوا هُمُ المُنْتَفِعينَ بتلك الآياتِ صارَتْ كَأنَّها لَيْسَتْ آياتٍ إلّا لهم كما في قولِه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البَقَرَة: 2] وقولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النّازِعات: 45]، ولا يَبْعُدُ أنْ يُقال: الانْتِفاعُ بِهذا النِّوعِ مِنَ التَّذْكيرِ لا يُمْكِنُ حُصولُهُ إلّا لِمَنْ كانَ صابِرًا أوْ شاكِرًا، أمّا الَّذي لا يَكونُ كذلك لَم ينتفِعْ بهذه الآياتِ[2]، وقد "أخذ الشَّعْبي من هذه الآية أنَّ الصّبرَ نصفُ الإيمان والشّكرَ نصْفُه"[3].

سِرُّ اقْتِرانِ وصْفَيْ: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾:

المُؤْمِنُ إنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وإنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ

في ذكْرِ هاتين الصّفتَين "تنبيهٌ على أنّ المؤمنَ يجبُ ألّا يَخلوَ زمانُه عن أحد الأمرين: الصّبرِ والشّكرِ؛ لأنَّ الحالَ إمّا أن يكون حالَ بَلية أو حالَ عَطية، فإن جرى الوقتُ على ما يُلائمُ طَبْعَه كان شَكورًا، وإن جرى بما لا يلائمُ طبْعَه كان صَبورًا؛ فالانتفاعُ بهذا التّذكيرِ لا يكونُ إلا لمن كان صابرًا أو شاكرًا"[4].

"ولكَوْنِ الآياتِ مُخْتَلِفَةً، بعضُها آياتُ مَوْعِظَةٍ وزَجْرٍ وبعضُها آياتُ مِنَّةٍ وتَرْغيبٍ، جُعِلَتْ مُتَعَلّقَةً بـ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ إذِ الصَّبْرُ مُناسِبٌ لِلزَّجْرِ"[5]؛ و"لأنَّ التَّخْويفَ يَبْعَثُ النَّفْسَ على تَحَمُّلِ مُعاكسَةِ هَواها خيفَةَ الوُقوعِ في سوءِ العاقِبَةِ، والإنْعامَ يَبْعَثُ النَّفْسَ على

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/65.
(3) العز بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/159.
(4) البنتني الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/566.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/190.

الشُّكْرِ، فكانَ ذِكْرُ الصِّفتَيْنِ ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ تَوْزيعًا لِما أجْمَلَهُ ذِكْرُ أيّامِ اللّه مِنْ أيّامِ بُؤْسٍ وأيّام نعيمٍ"[1].

عِلّةُ العُدولِ عنِ العطْفِ بين الوصْفَين:

الصّبرُ، والشُّكرُ صِفَتانِ يُحَثُّ بِشِدَّةٍ على الاتّصافِ بهما

ذِكْرُ وصْفَي (الصّبرِ)، و(الشّكرِ) مُتتالَين، مُتلازمَين من غير عاطفٍ (الواو)؛ للإيذانِ بأنّهما في تلازُمِهما كالصّفةِ الواحدةِ، وإنّه يمكنُ الجمعُ بينَهما في وقتٍ واحدٍ، وفيه إشارةٌ إلى التّهْييج والإلهابِ على الاتّصافِ بهما معًا[2]، على وجه الكمالِ في الموصوفِ لِما فيهما من مشقّةٍ عند ترويضِ النّفس عليهما، ومن هنا استَوجَبا المدحَ والثّناءَ.

سِرّ تَقْديم الصَّبرِ على الشّكرِ:

الشّكرُ ثَمرةٌ من ثَمراتِ الصَّبرِ

يقول رَسولُ اللّه ﷺ: «والصَّبْرُ ضياءٌ»[3]، وذلك الضّياءُ الرّوحيّ يكشفُ للعبدِ الخيرَ منَ الشّرّ، ويضمنُ له النّجاةَ منَ الرُّعونةِ والخِفَّةِ والجَهالة؛ فإذا تحقّقَ للعبد ذلك الشُّعاعُ الكاشفُ - أي الصّبرُ - أمكنَه منَ الوصولِ إلى مَرتبةِ الشّاكرين؛ لأنّه سيقفُ على حقائقِ الأمورِ، ويَعرِفُ صِدْقَ الرّسولِ ﷺ، ويدركُ حقيقةَ وجودِ اللّه تعالى، ووَحْدانيّتِه في ذاتِه وصفاتِه، وأنّه المُستحقُّ للحمدِ والشّكرِ على نعمةِ الصّبرِ؛ فالشّكرُ إذن ثمرةٌ من ثمرات الصّبرِ، ولكونِه عاقبةَ الصّبرِ[4].

بَلاغةُ صيغِ المُبالغةِ في قوله: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾:

الصَّبّارُ الشَّكورُ وصْفانِ يَلْتَصِقانِ بمن بالَغَ في العملِ وضبْطِ النَّفسِ

وردت صيغَتا ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ على صيغةِ المُبالغةِ، ممّا يُفصِحُ عن كثافةِ الصّبرِ الذي تُراكِمُه آياتُ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى في نفسِ الصّابرِ حتى يصيرَ (صبّارًا)، ولا شكَّ أنّ بلوغَه مرتبةَ الـ ﴿صَبَّارٖ﴾ لا تتأتّى إلّا لِخُلَّصِ النّاسِ، وأنّها كلّما اكتملتْ واستتبَّتْ بلغتْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/191.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/440.
(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (454).
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 7/85.

بصاحبِها مرتبةَ الـ ﴿شَكُورٍ﴾؛ لأنّها مرتبةٌ عُليا كذلك، وهي إشارةٌ إلى أنَّ الخروجَ منَ الظّلمات إلى النّور على جميع مراتبِها يحتاجُ إلى صبرٍ وشكرٍ دائبَيْن، كما أنَّ التّذكيرَ والتّذكُّرَ يحتاجان إلى هاتين الصّفتَين العظيمتَين.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الشّكرُ والمدحُ والحمدُ:

الشُّكرُ يكونُ باللّسانِ والجوارحِ، والحمدُ يكونُ باللّسانِ

الفرق بينَهما أنَّ الشّكرَ أعمُّ من جهة أنواعِه وأسبابِه، وأخصُّ من جهة متعلَّقاتِه فيه. والحمدُ أعمُّ من جهة المُتعلَّقاتِ، وأخصُّ من جهة الأسبابِ. ومعنى هذا أنَّ: الحمد: الثّناءُ الجميلُ على من يعملُ أعمالًا اختياريّةً عامّةَ النّفعِ، ودافعةً للضّررِ للوجودِ كلِّه بحكمةِ من يفعلُها، والمدحُ: الثّناءُ على الصّفاتِ الذّاتية، والشّخصيّةِ الطيّبة، فيقال: مدحتُ الصّفاتِ الطّيّبةَ في فلانٍ، ولا يقال: حمدتُها، إنّما يقالُ: حمدتُ اللّه تعالى ومدحتُ خصالَ فلانٍ، فالباعثُ في الحمدِ أعمالُ الإنعامِ والخيرِ، والباعثُ على المدحِ الشّخصُ والذّاتُ، فيقال: مدحتُ الجميلَ في صفاتِه الحسنةِ، وخلالِه الكريمةِ، ولا يقال حمدتُه.

والشّكرُ: امتلاءُ النّفس بالإحساسِ بالنّعمةِ، واندفاعُ النّفس إلى الطّاعةِ والخضوعِ، والقيامِ بحقّ المُنعمِ ومقابلةِ الفضل والنّعمةِ بالإحسانِ في الطّاعةِ والواجباتِ[1]، فـ"الشُّكرُ يكونُ بالقلب خُضوعًا واستكانةً، وباللّسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا؛ ومُتعلَّقهُ النِعَمُ دونَ الأوصافِ الذّاتيّةِ، فلا يقال: شكرْنا اللّه على حياتِه وسمْعِه وبصَرِه وعلْمِه، وهو المحمودُ بها، كما هو محمودٌ على إحسانِه وعدْلِه، والشّكرُ يكونُ على الإحسان والنِّعَم، فكلُّ ما يتعلّقُ به الشّكرُ يتعلّقُ به الحمدُ من غير عكس، وكلُّ ما يقعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/55 - 56.

به الحمدُ يقعُ به الشّكرُ من غير عكْسٍ، فإنَّ الشّكرَ يقعُ بالجوارحِ، والحمدَ باللّسانِ"[1].

الشُّكْرُ لا يكونُ إلّا عَن يَدٍ، والحَمْدُ يكونُ عَن يَدٍ وعَن غيرِ يَدٍ

فالحمدُ والشّكرُ يَتلاقَيان ويَختلفان، فيَتلاقَيان في معنى الإحساسِ بالنّعمةِ والقيامِ بحقِّها، وما يجبُ بالنّسبةِ للمُنعم، ولكنّهما يَختلِفان في القيامِ بحقِّ المُنعم، فالقيامُ بحقّ المُنعم في الشّكرِ: الطّاعةُ والعملُ وجعَلُ الجوارحِ كلِّها في طاعة اللّه تعالى، والخضوعُ المطلقُ للّه تعالى في كلّ شأن من شؤونِه، وحالٍ من أحوالِه، والقيامُ بحقّ المُنعم في الحمد: الثّناءُ على اللّه تعالى ثناءً مُطلقًا كاملًا مع تذكّرِ نَعمائِه، وتذكّرِ ما يُحيطُه منَ الوجودِ كلِّه، لا في ناحيةٍ من نواحي شخْصِه[2].

والشُّكْرُ لا يكون إلّا ثَناءً ليدٍ أوليتَها، والحمدُ قدْ يكونُ شُكْرًا للصَّنيعة ويكونُ ابْتِداءً للثّناء على الرَّجُل، فحمدُ اللّه الثَّناءُ عليه، ويكونُ شُكرًا لِنِعَمِه الَّتي شَمِلَت الكُلَّ[3]. فالشُّكْرُ لا يكونُ إلّا عَن يَدٍ، والحَمدُ يكونُ عَن يَدٍ وعَن غير يَدٍ[4]. وممّا تقدّمَ يتبيّنُ علّةُ اخْتيارِ لفظِ (الشّكور) بعد ذكر الآيات التي أنزلَها اللّه تعالى بوصْفِها عطايا تَستحقُّ الشّكرَ بالطّاعة، والعملِ وإخضاعِ الجوارحِ والخضوعِ المُطلقِ للّه تعالى.

(1) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/340.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/56.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).
(4) ابن سيده، المحكم: (حمد)، و(شكر).

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾

[إبراهيم: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذِكر الغاية الكلّيّة إلى صورةٍ من صوَرها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة إرسال موسى عليه السلام إلى قومه؛ لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور، وتذكيرهم بأيّام اللّه تعالى، ناسَبَ أنْ يذْكرَ صورةً من تلك الصّوَر الّتي أعانت بني إسرائيل على الخروج من الظّلمات إلى النّور، وهي إخراجهم من ظُلْم آل فرعون واستعبادهم لبني إسرائيل، فالمناسَبَة بيْن الآيتَين هو الانتقال من ذِكر الغاية الكلّيّة، إلى ذِكر صورةٍ من صوَرها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنجَىٰكُم﴾: نجو، أصل النَّجاء: الانفصالُ من الشّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ مِن فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُه. قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53] وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ [العنكبوت: 33]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكان المُرتفِع المُنفَصِل بارْتفاعِهِ عمّا حَوْله، وقيل: سمّي بذلكَ لِكوْنه ناجيًا من السَّيْل، ونَجَّيْتُهُ: تَركْتُهُ بنَجْوَةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][1]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى الخُلوص مِن خَطَرٍ مُحْدِق أو عذاب أو غرَقٍ أو كَرْب، ما عَدا صيغَتَي (ناجَى)، (تَناجى)[2]، والمعنى المِحْوَريُّ: خُلوص الجرْم - أو نفاذُه مُرْتفِعًا من بيْن ما يُحيط به أو يجاوِرُهُ. كالأرض المُرتفِعة

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).

وسَنَدَي الوادي. وكالأغْصان تمْتَدُّ مِن ساق الشَّجر[1]، ومعنى الإنجاء في الآية الإنقاذُ من عذاب فرعون الدّائم.

2) ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: أصلُ السَّوْمِ الذَّهابُ في ابْتِغاء الشَّيء، فَهوَ مَعْنًى مُركَّبٌ من الذَّهاب والابْتِغاء، فأُجْرِي مجْرَى الذَّهاب في قَوْلِهم: سامَ الإبل؛ فَهيَ سائِمةٌ، ومجْرى الابْتِغاء في قَوْلِه تَعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، وسامَهُ الأمْرَ سَوْمًا: كلَّفَه إيّاه، أوْ أوْلاهُ إيّاه، وأكثر ما يُستعمَل في العذاب والشَّرِّ والظُّلْم. وفي التَّنزيل: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يولونَكُم، والسَّوْم أنْ تُجَشِّم إنسانًا مَشقَّة أو سوءًا أو ظُلْمًا، وسُمْتُه خَسْفًا، أيْ: أوْلَيْتُه إيّاه وأرَدْتُه عليه. ويقال: سُمْتُه حاجَةً، أيْ: كَلَّفْتُه إيّاها، وفي حَديث عليٍّ: "مَن تَرَكَ الجهاد ألْبَسَه الله الذّلَّة وسيمَ الخَسْفَ"، أي: كُلِّفَ وأُلْزِمَ. والمعنى المِحْوريُّ امتدادُ بَقاءٍ، أو مرورٍ وذَهابٍ في حيّزٍ بلا حَدٍّ[3].

3) ﴿سُوٓءَ﴾: السّوءُ: كلُّ ما يَغُمّ الإنسانَ من الأمور الدُّنيويّة، والأُخْرَويّة، ومِن الأحوال النّفسيّة، والبَدَنيّة، والخارِجَة، مِن فواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]، أي: من غير آفَةٍ بِها، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: 27]، وعبّر عن كلّ ما يَقْبُحُ بالسّوأى، ولذلك قوبِلَ بالحُسْنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26][4]، والسّين والواو والهَمْزة، إنّما هي مِن باب القُبْح. تَقولُ: رَجُل أسْوَأ؛ أيْ: قَبيح، وامْرَأةٌ سَوْآء؛ أيْ: قَبيحَةٌ. وسُمّيَت النّارُ سوأى، لِقُبْح مَنْظَرِها[5]. والمعنى المِحْوريُّ: عَيْبٌ أو نَقْصٌ (قُبْحٌ أو فسادٌ أو مَرَض) يُخالِط ظاهرَ الشّيء أو باطِنَه: كالبَرَص والمَرَض، وفسادِ العمل.

4) ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: حيا: (الحياة) ضِدُّ المَوْت، والحيُّ ضدُّ الميِّت، واسْتَحْياه واسْتَحيا منه، بمعنى مِن الحياء، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 49]،

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (سوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾ [البقرة: 26]، أيْ: لا يَستَبْقي[1]، والمعنى المِحوريُّ: امْتِلاءٌ بالطَّراءَةِ الّتي لها حِدّةٌ ما أو فاعليَّة تتمثَّل في رَهافَة الحسّ وفي النّموِّ حَرَكَةً أو امتدادًا: كجِرْم الحيَّةِ مُمتدّا يتحرَّك (والامتداد يُصوِّر النُّموَّ)، وتتجلّى طَراءَتُه في مُرونَتِه وتَلَوّيهِ دونَ أنْ ينقطعَ، وكلّ ما في القرآن مِن التّركيب هو مِن الحياة ضدِّ الموت، عَدا التّحيَّة والحياء. ومنه الاستحياء: إبْقاءُ الشَّخص حيًّا، أيْ: عدَمُ قَتْلِه، قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49، الأعراف: 141، إبراهيم: 6]، وكذلك ما في [الأعراف: 127، والقصَص: 4، وغافر: 25][2].

5) ﴿بَلَآءٌ﴾: الباء واللّام والواو، والياء، أصْلان: أحدُهما إخلاقُ الشّيءِ، والثّاني نَوْعٌ مِن الاخْتِبار، ويُحمَل عليه الإخبارُ أيْضًا[3]. والبَلاءُ: الاختبارُ، ويكون بالخير والشَّرِّ. يقال: أبْلاهُ اللّه بَلاءً حَسنًا. وأبْلَيْتُهُ معروفًا. قال زُهَيْر:

جَزى اللّهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بِكُمْ *** وأبْلاهُما خيرَ البَلاءِ الّذي يَبْلو

أيْ: خيرَ الصَّنيع الّذي يَختبِر به عبادَه[4]. والمعنى المحوريُّ هو: شِدَّةُ تحوُّز الشّيءِ - أو حَوْز الشّيءِ بشِدَّةٍ - لِمَدًى طويل، ويَلْزَمُه بيانُ حال الشّيءِ الّذي حِيزَ في شِدَّةٍ، كالنّاقة المُبْلاة لِلمَنونِ؛ أي: المَحْبوسَة لَهُ بِتِلك الصّورة، والدّائمَةُ السَّفَر، كما يُفْهَم مِن قَوْلهم: ناقَةٌ بِلْوُ سَفَرٍ[5]. ومنه مع بيان الحال: "ابْتَلاهُ اللّهُ: اخْتَبَرَه، كأنَّما اختَبَر صبْرَهُ وتحمُّلَه الاحْتِباسَ والبقاءَ على وَضْعٍ شديدٍ، ويقال أيضًا: بَلَوْتُه: امْتَحَنْتُه". ومِن هذا "البلاء: الاختبارُ والمِحنَة والغَمُّ"[6].

المَعْنى الإجْماليّ:

تذكر الآيَة قولَ موسى عليه السلام لِبَني إسرائيل، موصيًا إيّاهم أنْ يَذْكروا نعمةَ اللّه تعالى عليهم، أنْ أنْجاهم من عذاب آل فرعون المُتمثِّل في صوَرٍ عظيمة وبلاءات جَسيمة من

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (حيا).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلو).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بلا).
(5) ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب: 2/367.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).

أعظمُ البلاء في ذهابِ مَن به قِوامُ الأمر وبقاء المَعاويز بغير وَليِّ أمْرٍ

تذْبيح الأبناء، واستحياء النّساء للخِدْمة، وقد وَصَفت الآية ذلك البلاءَ بالعظيم، لأنَّ فيه زَهْقًا لأرواح الرِّجال الّذين مِن شأنهم القيام بأمور بني إسرائيل مُكنةً وقوَّة، وإبقاءً لأرواح النّساء اللّواتي يّحتَجْن إلى مَن يقوم عليهنَّ بالرِّعاية والعناية، فالبلاء باعتباره شاملًا للجميع، مُنزلًا حالَ بني إسرائيل في الحَضيض والذِّلة والمَهانة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نَوعُ الواو ودلالتها:

إنـجـاء بني إسرائيل من الظُّلم صورةٌ من صوَر الإخراج من الظُّلمات إلى النّور

جاءت الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ﴾ لعطْفِ هذه الجملة على جملة ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [إبراهيم: 5] باعتبار أنَّ غرَض الجملتين هو التّنظير بسنَن ما جاء به الرُّسل السّابقون من إرشاد الأُمم وتذكيرها، كما أنَّ القرآن قد أُنزل لذلك[1]، فهي من عطْفِ الخبَرِ على الخبَر، ومن باب عطْفِ الفرْع على الأصل، فإنَّ الإرسالَ أصلٌ، وهذا الخبَر صورةٌ من صوَر إرسال موسى عليه السلام لِبَني إسرائيل لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور.

غَرَضُ استعمال ﴿وَإِذۡ﴾ البَلاغيُّ:

استحضار الزّمن يَريدُ استحضارِ ما فيه من أحداث

(إذ) في اللّغة ظَرْفٌ موضوعٌ لِزمان نِسْبةٍ ماضيَة، فالظّرْف (إذ) دلَّ على فعل أمْر مُقدَّرٍ تقديره (اذْكُر)، وتوجيه الأمْر بالذِّكر إلى الوقت الدّالِّ عليه الظّرْف (إذ) دون ما وَقَع فيه مِن الحوادث مع أنَّ الحوادث هي المقصودة بالذّات؛ هو المبالَغةُ في إيجاب ذِكرها؛ لأنَّ إيجاب ذكْر الوقت إيجابٌ لِذِكر ما وقَعَ فيه بالطَّريق البرهانيِّ، ولأنَّ الوقت مُشتملٌ عليها، فإذا استُحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها كأنَّها مشاهَدةٌ عيانًا[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/191.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/79.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

توجيه الأنظار لِما فيه من الكنوز والأسرار

آثَر النَّظم ذِكر القائل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ﴾، مع تقدُّم ذِكره في الآية السّابقة، فلَم يَقُل: (وإذ قال لهم)، فهذا من وضعِ المُظهَر مَوضِعَ المُضمَر، وفي إعادة اللّفظ بنَصّه وفَصّه معنى التّقدير والتّبجيل، ويُضاف إلى ذلك أنّ ذكْر القوم مناسبٌ للغاية الّتي أرادها النّظْم القرآنيُّ، وهي بيان حِرصه ورجائه في صلاحهم وهدايتهم، فهُم قومه وهو منسوبٌ إليهم، ولإنزال الخبَرَين بمنزلة انفرادِ كلٍّ منهما عن الآخَر، فكأنَّهما خبَران مُنْفصلان لا تعلُّقَ لأحدهما بالآخَر، ففيه إشعارٌ بضرورة توجيه الأنظار لِما فيه من الكنوز والأسرار.

توجيه المُتشابه اللَّفْظيّ في الحذْف والذِّكر:

كـثرةُ الـنِّـعـم تـوجـبُ مـزيـدَ تشريفٍ وتقريبٍ

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ محذوفًا منه أداة النّداء والمنادى، بخلاف ما جاء في آياتٍ أُخرى من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾ [المائدة: 20]، وذلك أنّه لمّا ذكَّرهم في آية المائدة بضُروبٍ من الآلاء والنّعم الجِسام، من جعل الأنبياء فيهم، وجعلِهم ملوكًا وإعطائهم ما لَم يُعْطِ غيرهم؛ كان ذلك تعريفًا باعتنائه سبحانه بهم وتفضيلهم على مَن عاصرَهم وتَقدَّمَهُم من أُمم الأنبياء قبلهم، فناسَبَ ذلك نداء موسى عليه السلام بقول: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ [المائدة: 20]، بالإضافة إلى ضميره؛ إنباءً بالقُرْب والمَزيَّة، وناسَبَ هذا النّداء المُنبئُ بالاعتناء ما تقدَّم من تخصيصهم بالتّشريف بما مَنَحهم من الآلاء والنّعم الجِسام. ولمّا قَصَد في آية سورة إبراهيم تذكيرَهم بنجاتهم من آل فرعون وما كان يَسومهم به، من ذَبْح ذُكورِ أبنائهم واستحياء نسائهم للمِهْنة، ولَم يُذكر هنا شيءٌ ممّا في آية المائدة؛ لِما اقْتصرَ عليه هنا من التّذكير بمُجرَّد الإنجاء، فناسَبَ ذلك الاقتصار على خِطابهم دون النّداء، رَعْيًا للمُناسَبة[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/126.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

يَحسُن الامتنانُ عند غلبةِ النِّسيان وقُبح الكفران

يُشير فعل الأمر الطّلَبيُّ ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ إلى قُبح نسيان النِّعم، كأنَّه يقول لهم: حريٌّ بمِثلكم أن يَذكرَ دومًا دون نسيانٍ لِما كان فيكم من بلاءٍ وما صِرْتم إليه من نعيم؛ فالنِّعم تَتْرى والآلاءُ مُتواصلة، فالنّسيان يكون حينئذٍ مَثلبةً، وكأنَّ النِّعمَ "لكثرتها وتعاقبها صارت كالأمر المعتاد، فصارت غَلَبة ظهورها وكثرتها سببًا لوقوعها في محلّ النّسيان"[1]، فحسُن التَّذكير ووجَب لِمَحْو كُفران النّعم الّذي يغشاهم، كما أنَّ الذِّكر يوجب المزيد من الاعتزاز بالنّعم والمُنعِم، وتَرْكه يوجب المؤاخَذة والعذاب الشّديد[2].

فائدة الإضافة:

نعمةُ الله لا تنحصرُ في بابٍ ولا تَسَعُها جميعُ الأبواب

يكتسب المضاف ﴿نِعۡمَةَ﴾ دلالته من دلالةِ ما أضيف إليه، وهو هنا لفْظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، وقد اكتسبت النِّعمة قيمتها وشَرَفها من إضافتها إلى خالقها؛ فالإضافة إضافةُ تشريف وتعظيم، ثُمّ هي مِنَّةٌ بعدَ مِنَّة لَكُم كيْ يغشاكم الإيمان، كما أنَّ لفظ ﴿نِعۡمَةَ﴾ اكتسب معنى العموم بإضافته إلى اسم اللّه تعالى[3]؛ لأنَّ نعمة اللّه لا تنحصر في بابٍ، بل لا تَتَّسع لها جميع الأبواب.

نكتةُ إفراد النِّعمة:

النِّعمةُ بعظمتِها وتفرُّدِها وكثرةِ ما فيها من لُطفٍ وجمالٍ

إفراد النّعمة في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ يَشي بأنّه ليس المقصود منه التّأمُّل في أعداد نِعَم اللّه تعالى، بل المقصود منه التّأمّل في جنس نِعَمه؛ لأنَّ هذا الجنس جِنسٌ لا يَقْدر غيرُ اللّه عليه، فمَن الّذي يَقْدر على إعطاء نِعمة الحياة والصّحَّة والعقل والهداية والصَّون عن الآفات والإيصال إلى جميع الخيرات في الدُّنيا والآخرة، فقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ المراد منه التّأمّل في هذا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 6/266.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 6/266.

النَّوع من حيْث إنّه ممتازٌ عن نِعْمة غيرِه، ومعلومٌ أنّ النِّعمة متى كانت على هذا الوَجْه كان وجوب الاشتغال بشُكْرها أتمّ وأكمَلَ(1).

ثُمّ إنّ بناء النِّعمة على اسْم الهَيْئة، ومعلومٌ أنّ الهيْئة يدخل فيها أفراده الّتي ترَكَّب منها، والنَّظر إلى دِقَّة صُنعها وما فيها من جمالٍ وإبداعٍ ولُطْف، فكأنّ المراد تفاصيل كلِّ نِعمة بمفردها وما اشتملَتْ عليه من نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصى(2)، وبذلك يجتمع في إفراد النِّعمة نُكْتتان؛ الأولى النّظَر إلى جنس النّعمة، والأُخرى النّظَر إلى تفاصيل النّعمة الواحدة.

بلاغةُ استعمال حرْف الاستعلاء:

نعمةُ الله تعالى إذا تمكَّنَتْ من قومٍ حلَّت فيهم

الأصل في (على) الاستعلاء الحقيقيُّ، وقد ذكرَتِ الآيَةُ استعلاء النِّعمة على بني إسرائيل: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهو ما يُشير إلى أنَّهم خاضعون لمنَّتها، راضونَ بالانطِواء تحت لوائها، ومَن كان هذا حاله فعليَه أن تستقيم حاله، كما أنَّ الاستعلاء جاء مُشيرًا إلى معنى (في) الخاصّة بالوعاء والاشتمال، فكأنَّ مكانهم صار مَحلًّا للنِّعمة بعد استعلائها وتَمكُّنِها، وفي هذا مزيد امتنانٍ عليهم، فإذا حلَّت النِّعمة عليهم فهي فيهم، وهذا من بديع الإيجاز والاختزال في استعمال الحُروف، وهو أوْلى من القوْل بالتَّناوب.

نكتة الأمْر بذِكر النِّعمة لا المُنْعِم:

تـقـالـيـدُ بني إسـرائـيـل نـزولٌ عن الرُّتبة العليَّة وانـخـفـاضٌ عن المَنزلة البهيَّة

بنو إسرائيل عادَتُهم الانشغال بالنِّعمة عن المُنْعِم؛ لذا أمرتْهُم الآية بذِكر النِّعمة: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولَم يأمرهم بأن يذكروا اللّه تعالى مباشرة، وذلك بناءً على طبيعتهم المُتلهِّفة للنِّعَم لا للمُنْعِم، فهم مُرتَهنونَ بها، بخِلاف أمّة النَّبيِّ ﷺ الّذين انشغلوا بالمُنعِم لا النِّعمة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(2) هنداوي، الإعجاز الصرفيّ، ص: 196.

﴿ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: 41]، وفي الانشغال بالمُنعم رعايةٌ لِما أنْعَم به وأعطى، فكان الاشتغال بذاته أوْلى من الاشتغال بنعمته، وفي هذا المَلْحظ البيانيِّ دعوةٌ إلى الإنشغال بالذِّكر الحقيقيِّ، وهو أن يكون للّه وحْدَه، وتَرْك تقليد بني إسرائيل في كونهم لا يستجيبون لأمر اللّه تعالى إلّا بالنِّعم والتّذكير بدَفْع النِّقم.

نوع ﴿إِذۡ﴾ ومعناها:

استحضارُ الأوقاتِ العجيبةِ داعٍ للمِنن الجليلة

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾ ظَرْف للنِّعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامُهُ عليكم ذلك الوقت، ويجوز أن يكون ﴿إِذۡ﴾ بَدَلًا من نعمة اللّه، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو من بَدَلِ الاشتمال[1]، وفي الإتيان بـ(إذ) المُقتضيَة للجملة استحضارٌ للتَّكوين العجيبِ المُستفاد من هيئة الفعل؛ لأنَّ الذِّهن إذا تصوَّر المصْدَر لَم يَتصوَّر إلّا معنى الحدَث، وإذا سمع الجملة الدّالَّة عليه تصوَّر حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلّقاته دفعةً واحدة؛ فنشأت من ذلك صورةٌ عجيبةٌ[2].

نكتةُ التَّعبير بمُفرَدة الإنجاء:

تمامُ المنَّة في الانفصال التّامِّ مع نصْرِ المؤمنين ودَحْض الظّالمين

آثَر النَّظْم التّعبيرَ بلفظ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾ لِلَمْح ما في اللّفظ من معنى الانفصالِ من الشّيء والبُعدِ عنه، وهذا ما حدث مع بني إسرائيل إذ ابتَعَدوا عنه مُنفصلينَ في ناحيتَين؛ البرِّ والبحر، ثُمّ إنَّ في لفظة النّجاة تبشيرًا من طَرْف خفيٍّ؛ لأنَّها تعني المكان المرتفِع عمّا حَولَه[3]؛ فكأنَّ في الآية بشارةً بارتفاع شأنهم وعلوِّ مكانتهم، ثمَّ إنَّ الإنجاء ليس مُجرَّد التَّخْليص من أيديهم وهُمْ على حالهم في المُكْنَة والقُدْرَة بل بإهلاكهم[4]، وهذا أعظَمُ في الامتنان.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/540.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/80.

بلاغةُ استعمال الصيَغ:

سرعةُ الإنجاء منّةٌ أخرى في الإنجاءِ

استعمل النَّظْم صيغة الفعل (أنجى) دون (نجَّى)؛ وذلك لدلالتها على السُّرعةِ في الإنجاء، فصيغة (أفعل) أشَدُّ سرعةً في التَّخلُّص من الشِّدَّة والكَربِ؛ ذلك لأنّه لمّا كانت النّجاة من البحر لَم تستغرق وقتًا طويلًا ولا مُكثًا استعْملَ (أنجى)[1]، فاللّفظ مناسِبٌ للنِّعمة الّتي أنعمها الله عليهم، إضافةً إلى ذلك كلمة (نَجَّى) تكون وقت نزول العذاب. وكلمة (أنجى) بمعنى يمنَعُ عنهم العذاب، فالأولى للتَّخليص من العذاب، والثّانية يبْعدُ عنهم عذاب فرعون نهائيًّا، ففَضْل الله عليهم كان على مرحلتَين: مرحلة أنّه خلَّصَهم من عذاب واقِعٍ عليهم، والمرحلة الثّانية أنّه أبْعَدَهم عن آل فرعون فمَنَعَ عنهم العذاب[2].

سرُّ اختيار ﴿ءَالِ﴾:

تعظيم نعمة الإنجاء لعظيم شأن المَنجيِّ منه

الآل يُراد به الأقاربُ والعشيرة والموالي وخاصَّةُ الإنسانِ وأتباعُه، والمراد من آل فرعون وَزَعَتهُ ووُكلاؤه، ويختصُّ الآل بالإضافة إلى ذي شأنٍ وشرَفٍ دُنيويٍّ ممّن يعقل، ولمّا كان فرعون في الدُّنيا عظيمًا، وكان الخِطاب متعلّقًا بنجاةٍ دُنيويَّة من عظيم في الدُّنيا أطْلقَ على أتباعه (آل)، وخصوصيَّة لفظ ﴿ءَالِ﴾ هنا أنّ المقام لتعظيم النِّعمة وتوفير حقِّ الشُّكر بما يَحُفُّ بها؛ فالنجاة من العذاب وإن كان نعمةً مُطلَقًا إلّا أنّ كون النّجاة من عذاب ذي قُدْرَةٍ ومكانةٍ أعظَم؛ لأنّه لا يكاد يَنْفلِت منه أحَدٌ[3].

فائدة ذِكر المضافِ إليه:

لَولا الآل لَما ثبت الأمر لفرعون وآل

التّقييد بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مع ذِكر المضاف ﴿ءَالِ﴾ دون الاكتفاء بالمضاف إليه ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ يَحمل واقعًا تاريخيًّا، وهو

(1) السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 66.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/323.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

إنجاؤهم من آل فرعون لا من شخص فرعون، إضافةً إلى أنّ ذِكرَ آل فرعون يَحمل في طيّاته معاني التّجبُّر والتّعاظم والخُيَلاء والجهل؛ فكأنَّ القرآن عبَّر عنه بالمُرَكّب الإضافيِّ ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وهذا فيه ما فيه من الإيجاز والاختصار، "وإنما جُعلتِ النّجاة من آل فرعون ولَم تُجعل من فرعون مع أنّه الآمِرُ بتعذيب بني إسرائيل؛ تعليقًا للفعل بمَن هو من مُتَعلّقاته، وتنبيهًا على أنَّ هؤلاء الوَزَعة والمُكلَّفين ببني إسرائيل كانوا يَتجاوزون الحَدَّ المأمورَ به في الإعْنات على عادة المُنفِّذينَ، فإنّهم أقلُّ رحمةً وأضيَقُ نفوسًا من وُلاةِ الأمور"[1]؛ فهو لَم يَستمْكن وحدَهُ من الظُّلم وإنّما بمساعدة الآل والوكلاء، ولَولا الآل لَما صار الأمر إلى فرعون وآلَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ السَّوْم:

عامل آلُ فرعون بني إسرائيل معامَلةَ الأنعام في الإذلال والتَّحقير

في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ورد لفظ السَّوْم، وفيه من بديع الاستعارة، حيث شبَّه إذلال بني إسرائيل بسوْم الأنعام، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلَغُ من الحقيقة، إذ تشبيه بني إسرائيل بالأنعام من جِهَةٍ، وإذلالُهم بإطعام الأنعام، تقبيحٌ لذُلّهم، وبيان صَغارِ حالهم، ووَضاعة شأنهم، وهو ما يكشف عن عَظيم شأن الإنجاء، وكبير أمْرِ الامتنان.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارِع:

استمرار المَذَلَّة وتتابع العذاب كنايةٌ عن دَيْمومَتِه

فعل السّوْم المستعمل في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فيه معنى الإذلال والاحتقار والإرهاق، مع الدَّوام والاستحضار الّذي تمثِّلُه صيغة الفعل المضارع، فليس السّوْم حينًا ما ويَنقطع، وإنَّما فيه من الاستمرار والتَّتابُعِ ما فيه؛ لبيان عَراقة آل فرعون في التَّنْكيل بأعدائهم، بحيث صار عادتهم ودَيْدَنهم تعذيبَ بني إسرائيل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

علّة فصل جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

فُصلَتْ جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إمّا لأنّها حالٌ من آل فرعون، يحصل بها بيان ما وَقَعَ الإنجاء منه، وهو العذاب الشّديد الّذي كان الإسرائيليّون يُلاقونه من معامَلَة القِبْط لهم[1]، وإمّا أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا، كأنّه قيل: ما فعل بهِمْ أو ممَّ أُنْجوا؟ فأجيب بما ذُكِر[2].

مناسَبة الألفاظ:

اجتماعُ الإذلالِ مـع كـثرة ألـوان العـذاب مـضـاعَـفـةٌ في الهوان

جاء لفظ ﴿سُوٓءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ متناسِبًا مع لفظ (السّوْم)، ويشتمل السّوء ألوانًا شَتّى من العذاب؛ كالجَلْد والسُّخْرَة والعمل بالأشغال الشّاقَّة، فكأنَّ كلَّ حياتهم ذلٌّ وعذابٌ، وهذا يناسِب المعنى اللُّغويَّ للفعل (سام) الّذي يدلُّ على التَّرْك، فالسّوامُ من الحيوانات هي المَتروكة[3]، وفي هذا إيذانٌ بترْكِهم لأذى فرعون، واستباحته لهم ولكلِّ مَن يتبَعهم مع شِدَّة الاستهانة، وفيه تصويرٌ بأنَّهم كالسّائمة من الأنعام الّتي ترعى كلَّ ألوان العذاب، فهي دلالةٌ على العموم، وشديدِ الإهانة.

توجيه المتشابِه اللَّفظيِّ في الفصْل والوَصْل:

الحذف القرآنيُّ يكشف عن حالةٍ نفسيَّةٍ عاشها موسى عليه السلام بعد نجاتِه من الذَّبْح

لسائلٍ أنْ يَسألَ عن سرِّ ذِكر الواو في سورة إبراهيم وحذْفها من البقرة والأعراف؟ والجواب أنَّ ذلك مُقترنٌ مُرتبط بالسّياق، فجاء تَعداد النِّعم في سورة إبراهيم على لسان موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بخلاف ما جاء في سورتي البقرة والأعراف؛ فإنَّ تعداد النّعم كان من اللّه سبحانه وتعالى، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 49] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/41.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/323.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 141] فعندما تَكلّم ﷺ كان هناك بُعدٌ ذاتيٌّ، بمعنى أنّ كَليم اللّه عندما خاطب قومه مُذكِّرًا بنِعَم اللّه ذكَّر نفْسَه قبل أن يذكِّرَهم بها، إذ كان ﷺ أوَّل المُنعَم عليهم، فلولا رحمة اللّه بموسى ﷺ لكان في عداد المَذبوحين، فقد تَجلّى فضْل اللّه على نبيِّه الكليم بإنقاذه من التَّذبيح الّذي كان وقت ولادته؛ فإنه قد وجب عليه شُكر ربّه، وهذا ما كشفَتْ عنه الواو، فهو يعدِّد نِعَم اللّه على بني إسرائيل من جهةٍ، وفي الوقت نفْسِه يَشكر ربّه على ما أَوْلاه من نعمة الحياة؛ فكأنّه يقول لبني إسرائيل: اذكروا نِعَم اللّه عليكم، واذكروا نعمة النّجاة من التّذبيح، الّتي لولاها لكنتم وكنت أنا كذلك ممّن هَلك على أيدي آل فرعون.

وبيان ذلك أنّ مقتضى حرْف العطف أن يَجعلَ تَغايرًا بيْن المعطوف والمعطوف عليه، أي أنّ التّذبيح غيرُ سَوْمِهم سوء العذاب، ولكنَّ الأمر على خِلاف ذلك إذ إنّ التّذبيح جُزءٌ من العذاب العامّ الّذي حلَّ ببني إسرائيل، وإلّا لَلَجأْنا إلى جعل العذاب عذابًا معنويًّا كالاستعباد؛ وهو أحَد الوجهَين اللّذين ذَكَرهما الآلوسيّ رحمه اللّه، وهو مرفوضٌ؛ لدلالة الآيتَين على أنّ العذاب ليس عذابًا معنويًّا بجعْل التّذبيح والتَّقْتيل بيانًا وتفسيرًا للعذاب، والقِصّةُ؛ واحدة فسَقَط هذا الوجْه.

فقد استحضَر موسى ﷺ معنًى قائمًا في نفْسه لا يكاد يغيب عن ناظرِه، وهو أنّه كان في عداد المذبوحين ولكنَّ رحمة اللّه اقتضَتْ شيئًا آخَر، فهو يَستحضر في لحظة تَعداد النِّعم أمْرَ التّذبيح، فعندما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ استحضَر في هذه اللّحظة فظاعة التّذبيح فجعله أمرًا آخَر غير العذاب؛ فكأنّ التّذبيح شيءٌ والعذابَ شيءٌ آخَر، فقال ﷺ: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وهو من الأبناء الّذين كانوا يُذبحون ولكن اللّه استثناه أن يكون في عداد هؤلاء الأبناء، فاعْلَم تلك الحالة النفْسيَّة الّتي يعيش فيها كليمُ اللّه تَعْلَم لماذا عَطَف بالواو، ولماذا جعَل التّذبيح شيئًا غيْر العذاب، وبالفعْل فإنَّ التّذبيح كان أشدَّ أنواع العذاب على بني إسرائيل، يقول ابن الزّبير الغرناطيّ عن سرِّ عطْف التّذبيح على العذاب: "عيّن بالذِّكر أشَدّها وأعظمها امتحانًا، فجيءَ به معطوفًا لأنّه مُغايرٌ لِما تقدَّمَه؛ فقيل: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فعيّن من الجملة هذا، وخصَّ بالذِّكر تعريفًا بمكانه وشِدَّة الأمر فيه"[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/57.

ممّا تقدَّم يتبَيَّن لنا أنّ الواو قد كشفَتْ عمّا في أعماق نفْس موسى عليه السلام، من شُكرٍ لـربِّه ﷻ، وشعور بالنّجاة من عذاب التّذبيح الّذي كان سائدًا في بني إسرائيل على أيدي آل فرعون، وهي دعوةٌ كذلك لهؤلاء الّذين نالوا من فضْل اللّه ﷻ، أنْ يَستشعِروا فضْل ربِّهم عليهم في كلِّ وقْت وحينٍ، فهذه بعض أسرار هذا الحرْف القرآنيِّ المُعجِز في هذا السّياق، تبيّن لنا ذلك كُلّه من خلال تَدبُّر السّياق الّذي وقعَتْ فيه الآيات[1].

توجيه المتشابِه اللّفظيّ باختيار المُفرَدة:

تعدُّد مِحَن بني إسرائيل

التَّقْتيل أعمُّ من التّذبيح؛ فبيْنهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ تذبيحٍ تقتيلٌ، وليس كلُّ تقتيلٍ تذبيحًا، فلِلتّقتيل عدَّة صوَرٍ؛ منها: صورة الذَّبْح وهي أشَدُّها؛ وذلك لمساواة الإنسان بالذّبيحة الّتي أصبحَت اسمًا لِما يُذْبح من الشّاءِ، وصورة الإلقاء من شاهِقٍ، وصورة الصَّلْب، وصورة الشَّنْق، وما إلى ذلك من صوَر يَتفنَّن فيها المجرمون.

أمّا الذَّبْح فلا يوجد له سوى صورةٍ واحدة، وهي قطْعُ الحُلقوم من باطنٍ عند النَّصيلِ؛ وهو مفْصل ما بين الرّأس والعُنُق، أي: مَوْضع الذَّبح من الحَلْق[2]، وقد ذكرَتْ آية البقرة وإبراهيم التَّذبيح: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وآية الأعراف التّقتيل: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: 141]، والحقُّ سبحانه وتعالى يُريد أن يلْفِتَنا إلى أنّ فرعون حينما أراد أن يَنتقم من ذرّيّة بني إسرائيل انتَقَم منهم انتقامَين؛ مرّةً بالذّبح ومرّةً بالقتْل[3].

سرُّ التَّعبير بالمضارع المضعَّف:

تـصـويـرُ كـثرة الذَّبح وتجدُّده

جاء فعلُ التَّذبيح في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ دالًّا على التَّضْعيف وعلى الكثرة والقَصْديَّة المُطْلَقة في إيقاع التّذبيح؛ لأنَّ المعنى

(1) المثنّى عبد الفتّاح، نظريّة السيّاق القرآنيّ، ص: 220 فما بعدها.
(2) المثنّى عبد الفتّاح، نظريّة السّياق القرآنيّ، ص: 225.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/324.

الرّئيس لصيغَة (فعّل) هو الدّلالة على التّكْثير، وقد جاء في كتاب سيبويه أنَّه إذا أردْتَ كثرة العمل قلتَ: كسّرْته وقطّعْته ومزَّقْته، وفعّلت إدخالها لِتَبْيين التّكثير[1]، والتّكثير يُشير إلى اشتراك آل فرعون في تعذيب هؤلاء، فكلُّهم يَدٌ واحدةٌ متَّفقون على إيقاع الضَّرر ببَني إسرائيل، وممّا يُقوّي هذا التّعبيرُ بالمضارع؛ فإنَّه يُصوِّر كثرةَ التَّذبيحِ واستمراريَّته فيهم.

فائدةُ التَّعبير بالأبناء دون الأوْلاد:

تـخـصـيـص المَـذبـوحـينَ بـالـذُّكـورِ فيه زيــادةُ امـتـنـانٍ على الذّكور

المقصود بالأبناء في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الذّكور دون الإناث، وذَبْح الذّكور دون الإناث مَضرّة من وجوه: **أحدها**: أنّ ذبْح الأبناء يقتضي فناء الرِّجال، وذلك يقتضي انقطاعَ النَّسْل؛ لأنَّ النِّساء إذا انفردْنَ فلا تأثير لهُنَّ البَتَّة في ذلك، وذلك يُفْضي آخِر الأمر إلى هلاك الرّجال والنّساء، و**ثانيها**: أنّ هلاك الرّجال يقتضي فساد مصالِح النّساء في أمْر المَعيشة، فإنَّ المرأة لَتَتمنّى الموت، لما قد يَقَع عليها من نَكَد العَيْشِ بالانفراد فصارَتْ هذه الخَصْلَةُ عظيمةً في المِحَن.

و**ثالثها**: أنّ قتل الولد عَقيبَ الحمْل الطّويل وتَحمُّل الكَدّ والرّجاء القويِّ في الانتفاع بالمَولود من أعظَم العذاب؛ لأنَّ قتله - والحالة هذه - أشدُّ من قتْل مَن بَقيَ المدَّةَ الطّويلة مُستمتِعًا به مسرورًا بأحواله، و**رابعها**: أنّ الأبناء أحبُّ إلى الوالدين من البنات، ولذلك فإنَّ أكثر النّاس يَستثقِلون البنات ويَكرهونهن وإنْ كثُرَ ذُكْرانهم[2].

فلهذه الأوْجُه وغيرِها كان قتْلُ الأبناء أشدَّ من قتْل البنات، ممّا يزيد من اللّوْعة، ويَرفع من شأن الامتنان بالإنجاء من هذا البلاء، فلولا إنجاءُ اللّه تعالى لاسْتَمرَّ القتل في الذُّكور، فهذه نِعمةٌ مستصحبةٌ، ومِنَّةٌ دائمة.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/64.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/504.

نكتةُ الإضافة إلى ضمير المخاطَبِين:

أُضيف الأبناء إلى ضمير المخاطَبِينَ في قوله تعالى: ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ ليتناسبَ النَّظْم القرآنيُّ مع ما قبله من ضمائر المخاطبينَ ﴿أَنجَىٰكُم﴾، و﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، فجاءت ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ لتُناسِب ما قبلها، مع ما في هذه الإضافة من إبراز عاطفة المخاطَبين، فهُمْ أبناؤكم الّذين ذهبوا، لا أبناء غيركم؛ فاعتَبِروا ذلك بما أنتم عليه تَشكروه سبحانه.

مَن اعتبرَ الماضيَ الأليم بالواقع الرَّحيم عظُم شُكرُه

نكتة استعمال لفظ الاستحياء بصيغَة المضارِع:

اختار النَّظْم مُفردةَ الاستحياء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ وهي استفعالٌ يدلُّ على الطَّلَب للحياة، أي: يُبقونهنَّ أحياء أو يَطلبون حياتَهُن، ووَجْه ذِكرِه التَّذكيرُ بأنَّ ما نالهم من مصائب الاستحياء للإناث كان المَقصد منه خبيثًا، وهو أنْ يَعتدوا على أعراضهنَّ ولا يَجِدن بُدًّا من الإجابة بحُكْم الأسْرِ والاسْتِرقاق، فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ كناية عن استحياءٍ خاصٍّ[1]، والفعل المضارع ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾، دالٌّ على تَجدُّد الاستحياء واستمراره، بل الاجتهادِ فيه حالًا بعدَ حالٍ، ووَقتًا بعد وقتٍ مع استحضار صورة استحيائهم، وفي هذا إصرارٌ على الإذلال والمُضِيِّ فيه.

الإذلال الخاصُّ بالأعراض أشدُّ ما يكون على الأشراف

نكتةُ استعمال لفظ ﴿نِسَآءَكُمْۚ﴾:

آثَر النَّظم الكريم لفظةَ النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ لأنَّه قائمٌ على إبقاء عُنصر الأنوثة بحيث يَتمتَّع بهنَّ آل فرعون؛ لذلك لَم يَقُل: أزواجكم، أي أنَّهم يريدونهنَّ للمُتعة، وذلك للتَّنكيل ببَني إسرائيل[2] تنكيلًا خاصًّا، ثُمّ إنَّ لفظة نِساء أعمُّ من لفظة أزواج؛ فالنّساء عامّةٌ تُطلَق على المتزوّجة وغير المتزوّجة.

المِحنةُ في النِّساء أشدُّ بلاءً عند طائفةٍ من قتْلِ الأبناء

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/423.

فكانت المِحنة شديدةً، والخَطْبُ عميمًا، وأضيف لفظُ النّساء إلى ضمير المخاطَبينَ كي يتناسَب النّظْم القرآنيُّ مع ما قبله من ضمائر المخاطبينَ، ولِما فيها مِن مَزيد إشعال فَتيل الغَيْرة بأنَّ الّذي وقعَ يُدمي القُلوب؛ فالاستحياء بغرض الابتذال كان لنسائكم لا لغيّرهنَّ.

توجيهُ تخصيصِ هذه المِحن بالذِّكر:

إلـزامُ الحجَّة بـبَني إسرائيل بإنجائهم من أعظمِ المِحنِ

خصَّتِ الآية هذه المِحن بالذِّكر دون غيرها؛ لأنَّها كانت من أعظَم ما يُمتحن به النّاس من جهة المُلوك والظَّلَمة، وصار تخليص اللّه إيّاهم من هذه المِحن من أعظَم النِّعم؛ وذلك لأنّهم عايَنوا هلاك مَن حاول إهلاكهم، وشاهَدوا ذُلَّ مَن بالَغ في إذلالهم، ولا شكَّ في أنّ ذلك من أعظَم النِّعم، وتعظيمُ النِّعمة يوجب الانقيادَ والطّاعة، ويقتضي نهاية قبْح المخالَفة والمعانَدة، فلهذا السّبب ذَكَر اللّه تعالى هذه النِّعمة العظيمة، مبالَغةً في إلزام الحُجَّة عليهم وقَطْعًا لِعُذْرهم[1].

سرُّ تقديم الذَّبْح على الاستحياء:

إزهاق النُّفوس أشدُّ من استحياء النِّساء في الجُملة

قُدِّم ذِكر ذبْح الأبناء على استحياء النّساء؛ لأنّه أصعَبُ في الجملة عند النّاس، وإن كان الاستحياء أعظَمَ من القتْل لدى الغَيور[2]؛ فالبَشاعة مُتمثِّلةٌ في مَنظَر الدّماء وهي تُسفك بغير حقٍّ، وإزهاق النُّفوس بالباطل وبدَم باردٍ ممّا يُشعل فَتيل الدَّم البارد! فكان التَّقديم لبيان قسْوة العذاب وشِدَّته.

بلاغة استعمال اسم الإشارة:

بلاء المِنَح أشدُّ في الآخرة من بلاء المِحن

في عَوْد اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ بلاغةٌ نادرةٌ؛ لأنّه يجوز أن يعود على المحنة والمنحة، فيجوز عَوده إلى الإنجاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وهذه منحة، ويجوز كونها محنة عظيمة، إن جُعلت الإشارة راجعةً إلى قتْل الأبناء

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/504.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.

واستحياءِ النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾، إذِ البلاءُ يتردَّد بيْن النِّعمة والمِحنة، قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: 168]، فالبلاء يكون بالمسارِّ ليَشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليَصبروا، وتارةً بهما ليرغبوا ويرهبوا[1]، فإن سَأل سائل: فكيف يكون الإنجاء في حقِّ بني إسرائيل بلاءً؟ فالجواب ما وَقَعَ منهم بعد ذلك دليلٌ على أنَّهم وَقَعوا في بلاءٍ عظيم، إذ لَم يَشكروا، ولَم يَتَذكَّروا حقَّ المُنْعِم سبحانه عليهم، وعاقبة ذلك في الآخرة أشدُّ ما كان لهم من سَوْم العذاب في الدُّنيا.

نكتةُ إيثار لفظ الرُّبوبيّة المضاف إلى الضَّمير:

تـربـيـةُ الـلـه لعبادِه بالإنعام والـتَّـسـلـيـط بالعِقاب

في التَّربية إنعام وتأديبٌ لِما يُقتَرف من حسنات وسيّئات، وقد آثَر النّظْم ذِكرَ الرُّبوبيَّة دون ذِكر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وقد جاءت اللّفظة دالَّة على تسليط آل فرعون عليهم لجرائمهم وعِصيانهم، أو ببَعْث موسى عليه السلام وتوفيقه لتَخْليصِكم أو بهما جميعًا[2]، وقد يُقال: نسبَ البلاء إلى اللّه تعالى، وهو الربّ الخالق، للإشارة إلى أنَّ تمكين فرعون من ذلك كان اختبارًا من اللّه تعالى حتّى يُمْتَحنوا بالنِّقمة، وتُصْقَل نفوسهم بها[3]، والخِطاب للجميع؛ لبيان امتنانه على كلِّ مَن يَنتسب إلى بني إسرائيل لا لجماعةٍ منهم.

غرضُ التَّنكير معيَّن بالوَصف:

تعظيمُ البلاء باعتبارِ مَن وقع عليهم

جاء تنكير لفظ ﴿بَلَآءٞ﴾ في هذا السّياق للدّلالةِ على التَّفخيم والتَّعظيم، فالبلاء إنْ منحةً أو محنة خارجٌ عن مَقدور البشَر؛ لذا وصفَ بقوله: ﴿عَظِيمٞ﴾، والعِظَمُ بالنِّسبة للمخاطَب السّامع لا بالنِّسبة إليه تعالى؛ لأنّه العظيم الّذي لا يَستعظم شيئًا، وغَرَض التّنكير مأخوذ من الوَصْف.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3998.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّبح والقتل:

الذَّبح عمل معلومٌ، والقتل ضُروبٌ مختلفة[1]. وقيلَ في الفرْق بينهما: إنّ الذّبح بقَطْع الأوْداج، والقتْلَ بإيقاع الفعل في المَحلّ مع التَّجافي، ويَعني أنَّ القاتل يَضرِب من بعيد مُتجافيًا كالنّائي عن الشّيء لا يَدري أيُصيب المَحلَّ أم لا[2]؟ ثُمّ إنَّ القتل قد يكون بمعنى اللَّعْن، قال اللّه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عبس: 17] ومثلهُ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾ [المدثر: 19]، أي: لُعِن كيف قدَّر الباطل على النَّبيِّ ﷺ، فقال: إنّه ساحِر[3]، وهذا لَيس موجودًا في الذّبح.

البلاء والابتلاء والمصيبة:

الابتلاء: يكون في الخير وفي الشَّرِّ، وإذا أُطلِق كان في الشّرّ غالبًا، فإذا أُريدَ به الخير قيِّد به، والبلاء والابتلاء أعمُّ من المصيبة من وَجْهٍ وأخَصّ من وَجْه آخَر، فالبلاء والابتلاء أعمُّ من المصيبة من وجْه؛ لأنَّهما يكونان في السَّرّاء والضَّرّاء، وأمّا المصيبة فلا تكون إلّا في الضّرّاء، ولكن في الوقت نفْسه البلاء والابتلاء أخَصّ من المصيبة من وجْه آخَر؛ لأنّ المصيبة تُصيب المكلَّفين وغيرَهم، كالأطفال، بينما البلاء والابتلاء لا يكون إلّا في حقِّ المكلَّفين، وعلى هذا فالمَرْء إذا اخْتُبِر بنِعمة أنعَم اللّه عليه بها لِتَبَيُّن ما سيكون حاله من شُكرٍ لتلك النِّعمة أو كُفرانٍ لها، فهذا إنّما يوصَف بأنّه بلاءٌ وابتلاء، ولا يمكن وَصْفه بأنّه مصيبةٌ، وأمّا إذا اختُبِر ببعض الفواجع والدَّواهي لِتَبَيُّن ما سيكون عليه حاله من الصَّبر أو الجزَع، فهذا يوصَف بأنّه مصيبةٌ وبلاءٌ واختبار[4]، وقد يُقال: إنّ زيادة المَبنى دالَّةٌ على زيادة المعنى، والابتلاء أكثر مبنًى من البلاء، فالابتلاء فيه معنى الافتعال، فَفيه المَشقَّةُ والقَصْديَّة.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.

(2) المطرزي، المغرب، ص: 86.

(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 402.

(4) أبو فيصل البدرانيّ، فقه الابتلاء، ص: 16.

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بـعـد مـعـرفـةِ النِّـعـم يحسُن شكرُها ويقبُحُ كفرُها

بعد أنْ بيَّنتِ الآية السّابقة نعمةَ اللّه على بني إسرائيل بإنجائهم من آل فرعون، ناسَبَ أنْ يذْكرَ في هذه الآية الواجب عليهم بعد ذلك الإنجاء، والتَّحذير من كُفْره، فارتبطَتِ الآية بما قبلها ارتباط السَّبب بالنَّتيجة، فاللّه ﷻ قد أنعَم عليهم بنِعَم كثيرةٍ، وهذه النِّعم تحتاج من العَبْد أن يُجدِّد شُكرَه؛ لأنّ في تجديد الشّكر زيادة وأمدادًا أُخرى، وفي مقابل ذلك، فالكُفر وَخيمُ العاقبة؛ لأنّ تاليَه هو العذابُ الشّديد الّذي لا يستطيع بَشَرٌ تَحمُّله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأَذَّنَ﴾: أعْلَمَ، وهوَ واقِعٌ مثْل تَوَعَّد. ويجوز أنْ يكونَ (تَفعَّلَ) من قَوْلِك (تأذَّن)، كَما يُقال: تَعَلَّمْ، بمَعْنى: اعْلَمْ، والفِعل: أَذِنَ، والتّأذُّن من قولك: تأذَّنْتُ لأفْعَلَنَّ كذا، يُراد به إيجابُ الفعل في ذلك، أي: سأفعَلُ لا مَحالة[1] ومنه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، آذَن وتَأذَّنَ بمعنًى، كما يُقال: أيْقَنَ وتَيَقَّنَ. ويقال: تَأذَّنَ الأميرُ في النّاس، إذا نادى فيهم، يكون في التّهديد والنَّهْي، أي: تَقَدَّمَ وأَعْلَمَ[2]، وكلُّ (تأذّن) فهي بمعنى الإعلام[3]، والمعنى المِحوريّ: مُرورٌ لَطيفٌ من منْفذ، مرورًا له أثَر قويٌّ كمُرور الأصوات خلال الأُذُن فيُسمعُ الصَّوتُ ويَتأدّى منه معنى ما يُسمع، وعُمِّم في المُرور فقالوا: لِكُلِّ جابهٍ جَوْزَةٌ ثُمَّ يُؤَذَّن، أيْ: يُمَرَّر، أيْ: يُؤْمَرُ بالرَّحيل[4].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أذن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذن).

2) ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾: الشُّكْرُ: الثَّناءُ على المُحْسِن بما أَوْلاكَهُ من المعروف. يُقال: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له، وباللّام أفصَح[1]، والشُّكْرُ: تصوُّر النِّعمة وإظهارها، قيل: وهو مقلوبٌ عن الكشْرِ، أي: الكشف. ويُضادّهُ الكُفر، وهو: نسيان النّعمة وسَتْرُها، ودابّةٌ شَكور: مظهِرةٌ بسِمَنها إسداءَ صاحبها إليها، وقيل: أصله من عيْنٌ شَكْرى، أي: ممتلئة، فالشُّكْرُ على هذا هو الامتلاء من ذِكر المُنعم عليه. والشُّكْرُ ثلاثة أضرُب: شُكْرُ القلب، وهو تصوّر النّعمة. وشُكْرُ اللّسان، وهو الثّناء على المُنعِم. وشُكْرُ سائر الجَوارِح، وهو مكافأة النّعمة بقَدْرِ استحقاقه[2]، والمعنى المِحوريُّ امتلاء جَوْف الشّيء برِخْوٍ طيِّبٍ وظهورُه عليه ولو كان رافِده قليلًا، كما تَسْمَن الدّابَّة بالعَلَف القليل، ومن معنويّ الأصل: عِرفانُ الإحسانِ لصاحبه ونَشْرُه وإظهاره؛ إذ هو تعبيرٌ عن امتلاء النّفْس ورِضاها بما قُدّم لها من خير، ونُجوع هذا الخير فيها[3].

3) ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾: الزّاء والياءُ والدّال أصْلٌ يدلُّ على الفضْل. يقولون: زاد الشّيء، يَزيد، فهو زائد. وهؤلاء قومٌ زَيدٌ على كذا، أي يَزيدون[4]، والزّيادة النّموُّ وهي خِلاف النُّقصان، يُقال: زادَ زيدًا وزيادةً ومزيدًا[5]، والزّيادَةُ: أن يَنضمَّ إلى ما عليه الشّيء في نفْسه شيءٌ آخَر، يُقال: زِدْتُهُ فازْداد، وقوله: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ [يوسف: 65]، نحْو: ازْدَدْتُ فضلًا، أي: ازدادَ فضْلي، وهو من باب: ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130]، وذلك قد يكون زيادة مَذمومة كالزّيادة على الكفاية، مثل زيادة الأصابع، والزّوائد في قوائم الدّابّة، وقد تكون زيادة مَحمودة، نحْو قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، ورويَ من طُرُقٍ مختلفة أنّ هذه الزّيادة النّظَرُ إلى وجْه الله، إشارة إلى إنعام وأحوال لا يُمكن تصوّرُها في الدّنيا. ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247]، أي: أعطاه من العِلْم والجِسْم قَدْرًا يزيد على ما أعطى أهل زمانه، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76]، ومن الزّيادة المكروهة قوله: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: 42]، وقوله: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: 88][6].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زيد).
(6) الرّاغب، المفردات: (زاد).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

النِّعَم صيدٌ وشُكرُها قيْد

في الآية وعدٌ عظيمٌ ووَعيدٌ شديد، وإعلامٌ منه سبحانه باعتباره ربًّا خالقًا رازقًا بأنَّ للشّاكرين زيادةً لا يَعتريها النُّقصان، وأنَّ للكافرين الجاحدين عذابًا شديدًا، وهذه الآية بمثابةِ قاعدةٍ كليِّةٍ لا تتَخلَّف في عقول المؤمنين، وفي قلوب المحسنين، وفي مشاعِر المُقرَّبين، وفي سلوك العارفين، وهي في الدُّنيا إشاراتٌ عابِرةٌ، وفي الآخرة حقائقُ خالدة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

إعلامُ الله بجزاء الشّاكرين لا يَخفى، وبعذاب الجاحدين لا يُنسى

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ من جملة ما قالَهُ موسى لقومه، وهو معطوفٌ على قوله: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ كأنَّه قيل: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، واذْكروا حين تأذَّن ربُّكم[1]، فالواو وَصلَت الكلام بضرورة تذَكُّر كلِّ ما أنعَم اللّه على بني إسرائيل؛ فلا مجال لنِسْيان نِعمة؛ فكأنّ الواو جاءت للتَّفصيل والتَّقسيم وتَكرير التّذكُّر، والتَّكرير تَقرير.

نكتةُ إيثار صيغة ﴿تَأَذَّنَ﴾:

الإيـذان البليغ ونفْي الشُّكوك

الفعل في قوله تعالى: ﴿تَأَذَّنَ﴾ على وَزْن (تفعّل)، أي: أذّنَ ربّك، ونظيره: توعّد وأوْعَد، وتفضل وأفْضَل، غير أنَّ في (تفعّل) زيادة معنًى ليس في (فعّل)، أي: وإذ تأذَّن ربّكم إيذانًا بليغًا يَنْفي عنه الشُّكوك ويُبعدُ التُّهَمَ، فتأذَّن للتَّضعيف والتَّأكيد والمبالَغة في الإذْن[2]، ولا يَليق أن نقول إنّه دالٌّ على المَشقَّة والتّكلُّف؛ لأنَّه في حقّ اللّه ﷻ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/541.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/310.

مقتضى الرُّبوبيَّة إكرامُ الأولياء ومعاقبةُ الأشقياء

نكتةُ اختيار لفظ الرُّبوبيَّة:

اختار النَّظْم القرآنيُّ لفْظ الرُّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ دون أن يقول: (وإذ تأذّن اللّه)، وذلك لمجموعةٍ من النِّكات:

الأولى: مناسَبة ذِكر الرُّبوبيّةِ مع الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

الثّانية: زيادةُ النِّعم من مقتضَيات الرُّبوبيَّة، فذِكر الرّبِّ يَشي بضرورة تلقّي الأمر باهتمام وعنايةٍ، فالرّبّ سبحانه هو الّذي سيُجازي بالشُّكر وعاقبةِ الكُفْر.

الثّالثة: في ذِكر الرَّبِّ إشعارٌ بتكريم هؤلاء والعناية بهم، وإدْلالهم على طرائق النَّجاة والخيرِ.

رِفقُ الله بالعبادِ ظاهرٌ لمَن تدبَّر الأمر وأعادَ

فائدةُ إضافة لفْظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبيَن:

إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ لها فوائد؛ منها: الإعلام بأنَّه مُرَبٍّ للجميع حريصٌ عليهم كلِّهم، وترقيقُ القلوب، وإبعادُها عن اللَّجاجة واختلاق المَعاذير من قِبَلهم، ولتكونَ آكَدَ في الشُّكر؛ وأمّا هو فشُكْره حاصِلٌ، ومَعرفته بذلك مُستقرَّةٌ ثابتة[1].

عِدَةٌ كريمةٌ من ربٍّ كريمٍ على فعل الكريم

نوعُ اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ هي الموطِّئة للقَسَم، وقد مهَّدَت لِعَهْد اللّه بمقابَلَة الشّاكرين لنِعَمه بالزّيادة والرّعايةِ، وفيه من البُشرى والرّحمة وحثٍّ على الشُّكر ما يستوجبُ دوامَ نِعَم اللّه تعالى، والمزيدَ منها، ويستوجب إلى ذلك ذِكر اللّه وتَقواه وابتغاءَ رِضاه، وفي ذلك تَلْقينٌ جليلٌ مُستمرٌّ المَدى يُضاف إلى ما في الشُّكر مُطلَقًا من تلقينٍ وعلاجٍ روحيٍّ[2].

---

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/312.

(2) دروزة، التّفسير الحديث: 5/222.

فائدةُ استعمال (إن):

التَّنبيهُ على ضَعفِ البشَرِ في الشُّكر ليَرْتقبوا المطلوب

استُعملت أداة (إن) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ للإيماءِ إلى أنَّ حظَّ النُّفوس من الشُّكر لا يتحقَّق على الدَّوام، ففيها حكاية قلَّة الشُّكر وعدَمِ الانتباه إلى كثرة النِّعم والمنَح الّتي أعطاها اللّه عبادَه، فمن خصائص (إن) دلالتها على عدَم تحقُّق الوقوع وقِلّة الحصول، فكان ذِكرها مناسبًا للسِّياق الواردة فيه، وفائدتها التَّنبيه على حال الضَّعف لَدى البشَر في الشُّكر ليَنتبهوا فيَرْتقبوا المطلوب.

دلالةُ استعمال صيغة الماضي:

ثباتُ الشُّكر مطلبٌ عزيزٌ ودرٌّ نَفيس

عبَّرتِ الآيةُ بصيغة الماضي ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾ "تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له"[1]، فالشُّكر ينبغي أن يكون ثابتًا ثَبات الجبال الرَّواسي لا يتزحزح، يَملك عليكم نفوسكم؛ حتّى تَصيروا معروفين به، فالفعل الماضي عامِلٌ رئيسٌ في الحَضِّ على ضرورة العَضِّ بالنَّواجذ على قيمة الشُّكر، وهو ما يؤكِّد ما قاله النُّحاة: "إذا كان الكلام مُعتمِدًا على غيره، وكان هو في حُكم التّبَعيَّة له، إذ الشَّرط تابعٌ للمَشروط، كان لفظ الماضي بعد حرْف الجزاء أَوْلى به"[2].

دلالة حذْف المَفعول:

كثرةُ النِّعم قرينُ القُصور عن شُكرها

حُذِف المفعولُ في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ فلَم يُقيَّد الشّكرُ بنِعمٍ مُسمّاة، والمفهوم من السّياق هو شكرُ نعمة الإنجاءِ؛ وذلك لحَمْل الأمر على العموم، فتُشكر جميع النِّعم، وتَدْخل فيها دخولًا أوّليًّا نعمةُ الإنجاء، والنِّعم تَترى، مثل: نعمة الإنجاء من آل فرعون، ونعمة التّفضيل، ونعمة إرسال الرُّسل، فالحذْف هنا دالٌّ على أنَّهم لا يستطيعون عدًّا وإحصاءً للنِّعم الكثيرة، ومَهْما شَكروا فلَنْ يوَفّوا المَشكورَ حقَّه.

---

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.

(2) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 115.

نكتةُ اختيارِ مُفردَةِ الزّيادة في جوابِ القَسَم:

إنعامُ الله تعالى على عبادِه زيادةٌ وإفْضال

جاء جوابُ القسَم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ بهذه المُفردة، لنُكتةٍ وهي؛ أنَّ الجزاء عن شكرِ النِّعمة بالزّيادة منْها نِعمةٌ وفضْلٌ من اللّه؛ لأنّ شُكر المُنعِم واجبٌ فلا يَستحق جزاءً لولا سَعَة فضْل اللّه[1]، فجاء الفعل هنا لبيان التّفضُّل ومَزيد التّكريم، والاعتناء بأيّ شكرٍ ولو كان قليلًا، مع دلالة المضارِع المراد به الاستقبال على استمرار الزّيادة وتَتابُعها، وعدَمِ خُلوِّ زمان منها.

فائدة التّأكيد:

تَمكين معنى المُجازاة بالزّيادة وإزالة الشُّكوك مِن النُّفوس المريضة

اجتمع قبل جملة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ الشَّرط والقسَم؛ فاللّام في ﴿لَئِن﴾ موطِّئةٌ للقسَم، و(إن) شَرطيَّةٌ، و﴿شَكَرۡتُمۡ﴾ فعل الشَّرط، واللّام في ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ جواب القسَم، وجملة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ لا مَحلَّ لها؛ لأنَّها جوابُ القسَم، وجواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه جوابُ القسَم[2]، وفي هذه الجملة تَوكيداتٌ متعدِّدة، وكَثْرتها دالَّةٌ على تمكين معنى الزّيادة وإزالة الشَّكِّ في كوْن الزيادة حاصلةً بتوفيق اللّه تعالى، ومن ناحية أخرى فلِما "للأنْفُس من التّكذيب بمثل ذلك لاعتقادها أنَّ الزّيادةَ بالسَّعي في الرّزق، والنَّقصَ بالتَّهاون فيه"[3]، فحسُن التَّأكيد لإقامةِ الحُجّة، وإزالة تَراكمات النُّفوس المريضة.

نكتة حذْف المفعول:

نِعَمُ الله تعالى خَبيئةٌ لا يَعلمها إلّا هو

حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ للعموم[4]، فهو على إثبات المعنى في نفْسِه لِلشّيء على الإطلاق مِن دون تعرُّض للمفعول، لأنَّ الزّيادة يَدخل فيها ما يَخْطر في الأذهان وما لا يَخطر، وأسباب الزّيادة المجهولة أكثَرُ من المعلومة، وهذا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/193.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/385.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/193.

اعتبار أنَّ الزّيادة في الدُّنيا، ويُحتمَل أن يكون محلُّ الزّيادة في الدُّنيا أو في الآخرة، أو فيهما[1].

أغراضُ عطْف الجُمل على ما قبْلها:

عُطفت جملة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ على السّابقة لأغراض عديدة، منها:

أوَّلًا: بيانُ التَّناسُب بيْن الجملتين ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ و﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ بالصّورة التَّركيبيَّة وهَيئته (اللّام مع إن).

ثانيًا: الجمْع بين الحالتين المُتضادَّتَين، حالة الشُّكر وحالة الكُفر؛ لبيان البَوْن الشَّديد بينهما، فالعَطْف دالٌّ على المُغايَرة بين الشُّكر والكُفر؛ إعلامًا وتذكيرًا بفائدة الشّكر ومضارِّ الكُفْران.

ثالثًا: التَّلميح إلى كُفرهم وقِلّة اعتنائهم بالآلاء الّتي خَصَّهم اللّهُ بها.

رابعًا: التّمهيد للجملة الخَبريَّة ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، ولولا العطْف بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما كان يَظْهر معنى ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

خامسًا: التّمهيد للآية الّتي سَتَليها البادئة بالفعل ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾؛ فكان العطْف هنا حَتْمًا مَقضيًّا لرَبْط السّابق باللّاحق.

الــتَّرابــط والـتّـلاؤم بين المعـاني يتمثَّل بإيضاح السّابق والتَّوطئة للّاحق

سرُّ اختيار مُفرَدة الكُفْر لا الجحود:

آثَر النَّظْم الكريمُ استعمال مُفردة ﴿كَفَرْتُمْ﴾ لا (جحَدْتم)؛ وذلك لمُناسَبة الفاصِلة من ذِكر العذاب الشّديد، ولِذِكر الكُفر في الآية التّالية لهذه الآية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فكان التَّناسُب حاصلًا بذِكر الكُفر لا الجَحْد، كما أنّ بيْن الكُفر وعدَم الشُّكر شَبَهًا؛ "فالكافر مُنكِرٌ للإله، وهذا مُنكِر لِنِعم الإله؛ فكلاهما في الكُفر سواءٌ، وحقًّا إنَّ مَن يَعرف الإله ويُنكِر نِعمَه لأشَدُّ كُفرًا ممَّن لا يَعرفه أصلًا"[2].

النَّظْم القرآنيُّ يختار ألفاظَه لمناسَبة السّياق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/411.

(2) عبد اللّطيف الخطيب، أوضح التّفاسير: 1/305.

بلاغةُ اختلاف التَّعبير في المقابَلات القرآنيَّة:

شأنُ الخِطابِ الإلهيِّ الرِّفقُ بالمخاطَبينَ والإيماءُ لما فيه مصالحهم

آثَر النَّظْم ذِكرَ دليلَ الجواب وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ دون النَّصِّ على الجواب بأن يُقال: (لأعذبنَّكم) كما قال في شأنِ الشُّكر: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾، وهذا اختلافٌ في المقابَلات القرآنيَّة؛ فلَم يَلتزم النَّظْم طريقةً واحدةً في التَّعبير؛ وذلك لأنَّه في مقام الشُّكران تُنسب الزّيادة للّه تعالى؛ لأنَّه مقام وعْدٍ؛ فمن عادة اللّه وهو الكريم أن يُصرِّحَ بالوَعد ويُعَرِّض بالوعيد[1]، وهنا وَعيدٌ، فعدلَ عن التَّصريح إلى التَّلميح، وكون إفادة الوعيد بضَرْب من التَّعريض أوْقَعَ في النَّفْس.

هذا أمرٌ، وآخَر أنَّ الجملة القرآنيَّة: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أعمُّ وأشمَلُ من أن تأتيَ خِطابًا؛ ففيه رفقٌ بالمخاطَبينَ من جهةٍ، ففيه حضٌّ على التزام الشُّكر، وإرادته سبحانه منهم، وإيماءٌ إلى أنَّه يَكره إيقاع العذاب عليهم.

نكتةُ وصْف العذاب بالشِّدَّة:

كُفرُ النِّعم كلِّها يُناسبه عذابٌ يشدُّ أركان المُنعَم عليه

وُصف العذاب بالشَّديد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ دون أن يُقال: (لَقويٌّ) أو (لعظيمٌ) ونحوهما، وذلك لأنَّ الشَّديد هو وصْفٌ لما يُحيط بالشَّيء من جميع جوانبه، فالعذاب الشَّديد هو الّذي يُحيط بالمعذَّبين من جوانبِهم جميعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ [الإنسان: 28]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: 4]، فالشَّدُّ هو الإتيان على الشَّيء من جميع جوانبه بإحكام دون أن تَنْفلت إحدى جوانبه، وهو ما يُناسب السّياق، فالكُفرُ بنِعَم اللّه تعالى يَستحقُّ هذا العذاب، فكَما أنَّ النِّعم أحاطَتْ بالمنعَم عليه من كلِّ الجوانب، وكَفَرها كلَّها، فكان جزاؤه أن يُعذَّب عذابًا شديدًا يُحيط بالمعذَّبِ من كلِّ الجوانب.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/162، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/193.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشُّكر والحمْد:

كلُّ ما يتعلّق به الشّكر يتعلّق به الحمْد من غير عَكْس، وكل ما يقعُ به الحمد يَقع به الشّكر من غير عكْس

الحمدُ أعمُّ من الشُّكر، باعتبار وقوعه على الثّناء وعلى التَّحميد وعلى الشّكر والجزاء، والشّكر مَخصوصٌ بما يكون مكافأةً لمَن أوْلاك معروفًا؛ فصار الحمْدُ أثبتَ؛ لأنَّه يزيد على الشّكر[1]، والشّكر أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابِه، وأخَصّ من جهة متعلّقاته فيه، والحمْد أعمّ من جهة المتعلّقات، وأخَصّ من جهة الأسباب. ومعنى هذا أنَّ الشّكر يكون بالقلب خُضوعًا واستكانةً، وباللّسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا؛ ومتعلّقهُ النِّعَم دون الأوصاف الذّاتيّة، فلا يُقال: شَكَرْنا اللّه على حياته وسمْعه وبصَره وعِلمه، وهو المحمود بها، كما هو محمودٌ على إحسانه وعدْله. والشّكر يكون على الإحسان والنِّعَم. فكلّ ما يتعلّق به الشّكر يتعلّق به الحمْد من غير عكْس. وكلّ ما يَقع به الحمْد يقعُ به الشّكر من غير عكْس، فإنَّ الشّكر يقعُ بالجوارح، والحمْد باللّسان[2].

(1) النّحاس، معاني القرآن: 1/57.
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/340.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من تقرير القواعد إلى تتمَّةٍ احترازيَّةٍ لدفْع أوهام الأفهام

بعد أن بيَّنَتِ الآية السّابقةُ قاعدةً عامَّةً في الشُّكر والكُفر، انتقل السّياق لذِكر تَتمَّةٍ لهذه القاعدة، على لسانِ موسى عليه السلام ليَقَع التَّناسُب والتَّرابطُ بين الآيات، ذلك أنَّ الاشتغال بالشّكر يوجب تَزايُدَ الخيرات في الدُّنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكُفران النِّعَم يوجب العذابَ الشَّديد وحصولَ الآفات في الدُّنيا والآخرة، وبيَّن بعدَه أنَّ منافع الشُّكر ومضارَّ الكُفران لا تَعود إلّا إلى صاحب الشُّكر وصاحِب الكُفران، أمّا المعبود والمشكور فإنّه مُتعالٍ عن أن يَنتفع بالشّكر أو يَستضرَّ بالكفران، فلا جرَم قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]، فالانتقال هو من ذِكرِ القاعدة العامَّة إلى ذِكر تَتمَّةٍ احترازيَّةٍ ببيان أنَّ الله غنيٌّ عن شُكر الشّاكرين، ولا يضرُّه كُفر الكافرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَغَنِيٌّ﴾: الغِنَى يُقال على ضُروب: أحدها: عدَمُ الحاجات، وليس ذلك إلّا لله تعالى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج: 64]، وقولِه: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]، الثّاني: قِلّة الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][2]، وصِفَة (غَنيّ) إذا كانت لله جل جلاله فهو المالِك لكلِّ شيءٍ، والغنيُّ عن كلِّ شيءٍ، أي أنّها بمعنًى يَشمل

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/67.

(2) الرّاغب، المفردات: (غنى).

ما يَرزق به خلْقَه في الدُّنيا والآخرة، فيما يَشمل الاستغناءَ والكفاية بكيفيَّةٍ لا يَعلمها إلّا هو سبحانه[1]، والمعنى المِحوريُّ للكلمة يَدور حوْل الكفاية والاستغناء.

2) ﴿حَمِيدٌ﴾: الحمْدُ: خِلاف الذَّمِّ، حَمَدْتُ الرَّجُلَ، أحْمَدُهُ حَمْدًا؛ إذا رَأيْت منه فِعْلًا مَحمودًا، واصْطنعَ إليكَ يَدًا تَحْمدهُ عليها[2]. ورَجُلٌ محمودٌ ومُحمَّدٌ، إذا كَثُرتْ خِصالهُ المحمودةُ، والحَميدُ: مِن صفات اللّه تعالى وتَقدَّس؛ بمعنى المحمود على كلِّ حالٍ، وهذه اللَّفظة في الأصول (فعيل) بمعنى مفعول، ولفظة (مفعول) في هذا المكان يَنْبو عنها طبْعُ الإيمان، فَعَدلت عنها إلى حميد بمعنى محمود، وإن كان المعنى واحدًا[3].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

اللـه غـنـيٌّ عن عبادِه ولا يَرضى لهم الكُفر

نَفَتِ الآية الكريمةُ على لسان موسى عليه السلام في خِطابه لبَني إسرائيل ما قد يظنُّه ظانّون بأنّهم يُحسنون إلى اللّه بإيمانهم، وأنَّ أنبياءهم حين يُلحّون عليهم بالإيمان إنَّما يَبتغون بذلك تَعزيز جانِبِهم والحِرْصَ على مَصلحتهم، فنَبَّهَهم على هذا الخاطر الشَّيطاني حتّى لا يَسْرِيَ إلى نُفوسِهم فيُكْسِبهم إدْلالًا بالإيمان، فكان الأمر أن كُفْركم يا قوم، وكُفْر مَن في الأرض جميعًا لا ينفع ولا يضرّ؛ لأنَّ اللّه هو الغَنيُّ: الّذي لا حاجة له في شّيء، فدَخَل في عموم غِناه أنَّه غنيٌّ عن الّذين يَكفرون به، والحَميدُ: المحمود من غَيْركم مُسْتغنٍ عن حَمْدِكم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لرَبْط الآيةِ بأوَّلِ الكلام،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غنى).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حمد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

وبيان التّلاحُم مع قوله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ﴾ بما بعْدَه من الآيات؛ تِبْيانًا لكون هذه المعطوفات من الإعلام البليغِ النّافي للشُّكوك والتُّهم، مع بيان تَتابُع السّياق في ذِكر التّرهيب والتّرغيب.

فائدةُ ذِكر القائل:

تعيينُ القائلِ مراعاةٌ للواقِعِ وإتيانٌ على المقصود

صرَّحتِ الآية بالقائل وهو موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾، بخِلاف الآية السّابقة: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ وفائدةُ ذلك "لئلّا يُتوهَّم أنَّ هذا ممّا تأذَّن به الرَّبُّ، وإنّما هو تنبيهٌ على كلام اللّه، وفي إعادة فعل القول اهتمامٌ بهذه الجملة وتَنْويهٌ بها حتّى تَبرُزَ مستقلّةً، وحتّى يَصغيَ إليها السّامعون للقرآن"(1).

دلالة ﴿إِن﴾ الشَّرْطيَّة:

إلْهابُ المؤمنين على الثَّبات وتحذير الضَّعَفَة من الانحراف

استُعملت أداةُ ﴿إِن﴾ الشّرطية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ للإلْهاب والتَّهييج الباعث على الثَّبات والإيمان والتَّصلُّب فيه، وتَجنُّب الكُفر وسَتْر النِّعَم الّتي أَسْبَغَها اللّه عليهم ظاهرة وباطنة، وقد يكون من باب الشَّكِّ في إيمانهم، وتحذيرهم منه دَومًا، باعتبارِ ما يكون من الأتباعِ في قابِل الأيّام، وقد يكون للاعتبارَين، وهذا هو الأَوْلى، فهو إلهابٌ وتهييجٌ للمؤمنين، وتحذيرٌ لضَعَفَتِهم.

سرُّ استعمالِ صيغةِ المضارِع:

التَّحذيرُ من الكُفرِ أمارةُ وجودِ بوادِره

دلَّ الفعل المضارع ﴿تَكۡفُرُوٓاْ﴾ على التَّحذير من وقوع الكُفر في المستقبَل؛ فإنَّ الشَّرْط مُرتهنٌ بوقوعه، وما يُناسِب هذا المعنى هو صيغة المضارِع، "ولعلَّه عليه السلام إنّما قالهُ عندما عايَنَ منهم دلائلَ العِناد، ومخايلَ الإصرار على الكُفر والفساد، وتيقَّنَ أنَّه لا يَنفعهم التّرغيبُ ولا التّعريضُ بالتّرهيب"(2).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/194.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/35.

فائدة الضّمير المُنفصِل:

التَّلويح بالإنذار والتّخويف مُعيّنٌ على الطّاعة والتّشريف

أتى الضّمير المنفصِل ﴿أَنتُمْ﴾ لتوكيد الضّمير المتَّصِل (واو الجماعة) في الفعل ﴿تَكْفُرُوٓاْ﴾، ووُجوده تَوْطئَة للعطْف بعدَه ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فلا يجوز العطْف على الضّمير المتّصِل إلّا بذِكر الضّمير المُنفصِل المؤكّد لماهيَّة الكلام، وكأنَّ ذِكره إضافة إلى وظيفته النَّحوية حاكِمٌ بنهاية الزّجر والتّحذير لبَني إسرائيل؛ لِما ظهَر منهم من علائم الكُفر والعصيان[1]، ففيه تلويحٌ بتحذير خاصٍّ للمخاطَبينَ.

نكتةُ استعمال ﴿وَمَن﴾ اسمًا موصولًا:

بيان عموم استغناء الله تعالى عن كلّ الخَلقِ

استُعمل الاسم الموصول ﴿وَمَن﴾ ليُمهِّد للجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولو عبَّر القرآن بلفْظ (أهل) فقال: (أنتم وأهل الأرض)؛ لَما كان للجارِّ مَوضع في هذا السّياق، ثُمّ إنَّ (مَن) قد تَصلح للعاقل ولِغيْر العاقل[2] احتمالًا، فهي تَعمُّ جميعَ الكائنات الموجودة في الأرض، أمّا لو أتى بلفْظةِ (أهل) فهي للعاقل وحدَه نصًّا، فكان التَّعبير بهذا الاسم الموصول دالًّا على عمومِ كلِّ الخَلْقِ، وعلى استغناء الخالق عن كلِّ الخَلْقِ.

فائدةُ استعمال ألفاظِ العموم:

استغناء الله تعالى التّامُّ عن إيمان جميع البشَر وكُفرِهم

لفْظ ﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحاليَّة، وفائدته التَّأكيد لـ(مَن في الأرض) جميعًا للتّنصيص على العموم[3] والاستغراق، بأنّ إيمان البشر وكُفرهم جميعهم لن يَنفعه ولن يَضرَّه، كما أنَّ الحال ﴿جَمِيعًا﴾ حيث ذَكَرَ جهاتٍ متعدِّدةً[4]، فكلُّ نواحي الأرض بمَن عليها لا نفْعَ لها ولا ضرَّ عنده، فالكلمة دالَّة على الاستغناء التّامِّ وانعدامِ الحاجة إلى إيمانٍ أو كُفر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/35.
(2) الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ص: 133.
(3) الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ص: 133.
(4) السّامرّائي، على طريق التّفسير البياني: 3/17.

علّة حذْف جواب الشّرْط:

بيان عموم الضّرر الواقع على الكافر، واستغناء الخالق

حُذف جواب الشّرط ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ لبيان عموم الضّرر والحِرمان الّذي سَيَصير إليه مَن كفَر وجحَد نِعمة اللّه تعالى، فبَنو إسرائيل - والبشَر عمومًا - هم المَحاويجُ، واللّه غنيٌّ عن العالمين، فما أضْرَرتم يا بني إسرائيل بالكُفر إلّا أنفُسَكم حيث حَرَمْتموها من مزيد الإنعام، وعَرَّضْتموها للعذاب الشّديد إن أنتم كَفرتم.

نكتةُ حذْف متعلّق فعل الكُفر:

تنبيهُ الجميع على أنواع الكُفرِ كلّها أوْلى من تعليقِها بأعظَمِها

حُذِف متعلّق ﴿تَكۡفُرُوٓاْ﴾ ولَم يُعيَّن فيقول: (إن تكفروا باللّه)؛ لأنّ الكُفر كُفر عامٌّ متعدِّد المعاني، فالكُفر باللّه، والكُفران بنِعَمه وآلائه، فالكُفر ليس إذَن متعلّقًا باللّه وحده، وإنّما هو متعلّقٌ بكُفران النِّعَم، فالكفر كُفرانٌ لا كفرٌ واحد، ومن ثَمّ كان الحذْف للعموم، وهو أوْقعُ في جميعِ النُّفوس، فتعليقُه باللّه تعالى قد يجعل الكُفر اليسيرَ مقبولًا بادِئَ بَدْءٍ، ثمّ هو يَكبر حتّى يَصل بالكفر الأعظَم، فكان الحذْف ليَشمل جميعَ أنواع الكُفر، فيَقع الحذَر منها كلِّها.

دلالة التّوكيد:

استمرارُ الكُفر وعمومُه يناسِبه تمامُ الاستغناء وشمولُه

أُكِّدت الفاصلة بحرْف (إنّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لأنَّ ما سبَق من احتمال كفرِ مَن في الأرض جميعًا مع استغناء اللّه عنهم ممّا يَحتاج إلى التّوكيد؛ فكان التّوكيد مناسبًا في هذا السّياق[1]، إضافةً إلى أنَّ التّأكيد بـ(إنّ) معناه حتْميَّة الاستغناء عمَّن في الأرض، وإزالةُ الشَّكِّ فيه، وقد يكون الدّاعي إلى التّوكيد الرّغبة في تَقْوية مضمون الكلام عند المخاطَب وتقريره في نفسه، وإن كان غير منكرٍ له.

فائدةُ التّعبير بلفْظ الجلالة:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس

إظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ دون ذكرِ الضَّمير له فائدتان: الأولى: تربية المَهابة والخوف

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 460.

في النُّفوس كافَّة، فإنه الغنيُّ عن كلِّ عِباده، المحمودُ، كما أنّ إظهار الاسم الجليل للإشارة إلى التّعظيم[1]. الأُخرى: إعادة الاسم دون الضّمير صورةٌ من صوَر الخروج عن مقتضى الظّاهر وهو نوعٌ من الإطناب[2]؛ لأنّه يأتي لزيادة التّقرير، وتأكيدِ معنًى من المعاني باللَّفْظ نفْسه[3]، والتَّعبير بلفظ الجلالة أدلُّ على الخوف والزَّجر لهؤلاء حتّى لا يَتمادوا في غيِّهم.

نكتةُ الختْم بصِفَتَي ﴿لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

الاستغناءُ عن الخَلقِ حمْدٌ للخالقِ

اختيرَتْ صِفَتا الغنيّ والحَميد في فاصلةِ الآية، فصِفَة (غنيّ) تَتضمَّن "تحقيرهم وعظَمَتَه، إذ له الكمال التّامُّ على الإطلاق، وقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ يَتضمَّن توبيخهم، وذلك أنّه بصِفَةٍ توجب المَحامد كلَّها، دائمًا كذلك في ذاته لَمْ يزَل ولا يَزال، فكُفركم أنتم بإلهٍ هذه حاله غاية التَّخلُّف والخِذلان، وفي قوله أيضًا: ﴿حَمِيدٌ﴾ ما يَتضمَّن أنّه ذو آلاءٍ عليكم أيّها الكافرون به كان يَستوجب بها حَمْدَكم، فكُفركم به مع ذلك أذْهبُ في الضَّلال، وهذا توبيخٌ بيِّن"[4].

نكتةُ إيثار صيغة (فعيل) على مفعول:

حمْدُ الله ثابت ودائـم ومقترنٌ بقوّته وعظَمته

اختيرَتْ صيغة (فعيل) في صِفَة ﴿حَمِيدٌ﴾ دون محمود؛ "لأنَّ حَميدًا يدلُّ على أنَّ صِفَة الحمد له ثابتة"[5]، إضافةً إلى أنّ صيغة فعيل ﴿حَمِيدٌ﴾ لا تُطلَق إلّا إذا اتَّصَف بها صاحبُها؛ عكْس صيغة مفعول (محمود) الّتي لا تدلُّ على ما تَدلّ عليه ﴿حَمِيدٌ﴾، فكان التَّعبير القرآنيُّ هنا مُناسبًا للقوَّة والعظَمة والاستغناءِ، وقد يُقال بعد هذا: إنّ صفَة ﴿حَمِيدٌ﴾ تَضُمّ ما تضمُّه صيغة (محمود) وليس العكْس.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/482.
(3) عبد الرّحمن بو درع، نحو قراءة نصّيّة في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/325.
(5) السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 53.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا
لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّذكيرُ بعاقبة السّابقين تحذيرٌ للمخاطَبين

لمّا بيَّن في الآية السّابقة تحذير موسى عليه السلام لقومه من الكُفر، وأنَّ اللّه غنيٌّ حميدٌ، وأنَّ الكفرَ مآله عاقبة السّوء، ناسَب أن يذكرَ في هذه الآية نَبَأ الّذين من قبلهم، تهديدًا للمخاطَبين، وإنذارًا لهم بأن يَصيروا إلى مثل مصير هؤلاء الأقوام، الّذين كذَّبوا رُسلهم، ومَكروا بهم، إذا لَم يُبادِر هؤلاء المخاطَبون فيُصدِّقوا برسول اللّه، ويستجيبوا لِما يدعوهم إليه، ممّا فيه رشدُهم وخيرهم[1]، فالمناسَبة بين الآيات هو ذِكر أمثلةٍ من عاقِبة السّابقين، لتَنبيه الغافلين من الحاضرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾: رَدّهُ عن وَجْهه، يَرُدُّهُ رَدًّا ومَرَدًّا: صَرَفهُ، وقال اللّه تعالى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، ورَدَّ عليه الشَّيءَ، إذا لَم يَقْبلْه، وتقول: رَدَّهُ إلى منزلِه، ورَدَّ إليه جوابًا، أي: رَجَع[2]، وللفعل هنا مَعانٍ مُتعدِّدةٌ في سياقه، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: فعَضّوها غيظًا وضَجَرًا ممّا جاءتْ به الرُّسل، أو ضحِكًا واستهزاءً كمَن غَلَبه الضَّحك فوَضَع يَدَه على فيه، وقد يكون بمعنى أشاروا بأيديهم إلى ألسِنَتهم وما نطقَتْ به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، أي: هذا

(1) عبد الكريم الخطابيّ، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/152.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ردد).

جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقْناطًا لهم من التَّصديق، أو وَضَعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطْبِقوا أفواهكم واسْكُتوا، أو رَدّوها في أفواه الأنبياء يُشيرون لهم إلى السُّكوت، أو وَضَعوها على أفواههم يُسكِتونهم ولا يَذَرونهم يَتَكلَّمون[1].

2) ﴿شَكٍّ﴾: الشَّكُّ: اعتدال النّقيضَين عند الإنسان وتَساويهُما، وذلك قد يكون لوجود أمارَتَين مُتساويَتَين عند النَّقيضَين، أو لعدَمِ الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشَّيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربّما كان في جِنسه، من أيّ جِنْس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرَض الَّذي لأجْله أوجِد. والشَّكُّ: ضَرْبٌ من الجَهل، وهو أخَصُّ منه، لأنّ الجهل قد يكون عدَمَ العِلْم بالنَّقيضَين رأْسًا، فكلُّ شَكٍّ جهلٌ، وليس كلُّ جهلٍ شَكًّا، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾ [هود: 110]، وقال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكٍّ يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان: 9]، وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: 94][2].

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: (ريب) يُقال: رابَني كذا، وأرابَني، فالرَّيْبُ: أن تَتوَهَّمَ بالشَّيء أمْرًا ما، فينكشف عمّا تَتوَهّمه، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الحج: 5]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]، تنبيهًا أن لا رَيْب فيه، وقوله: ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]، سمّاه ريْبًا لا أنّه مُشكِّكٌ في كَوْنه، بل من حيْث تُشَكِّكَ في وقت حُصوله، فالإنسان أبدًا في رَيْب المَنون من جهَة وقتِه، لا من جِهة كونه، وقال تعالى: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾ [هود: 110]، وقال: ﴿مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥﴾ [ق: 25]، والارْتِيابُ يَجري مجْرى الإرابَةِ، قال: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾ [النور: 50]، ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ [الحديد: 14]، ورَيْبُ الدّهر صُروفُه، وإنّما قيلَ رَيْبٌ لِما يُتوَهّم فيه من المَكر، والرّيبَةُ اسم من الرَّيب قال: ﴿رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 110]، أي: تَدلُّ على دَغَلٍ وقِلَّة يقين[3]، والمعنى المِحوريُّ هو أن يَنزل بالقارّ السّاكن ما يُزْعِجه، ويَسوءهُ. ومنه: "الرَّيْب والرّيبَة: الشَّكُّ والظِّنّة والتُّهمة" يَنزِل بالنَّفْس السّاكنة أمْرٌ غيرُ مُتَبيَّن الوَجْه أو غير مُبرَّرٍ فيُثيرها؛ أحقّ هو أم باطلٌ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/442.
(2) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(3) الرّاغب، المفردات: (ريب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

غالبُ الأقوام كافرون بدعَوات المرسَلين

تُبيِّن الآيةُ ما ذَكَره موسى ﷺ لقومه، مُحذِّرًا أن يُصيبَهم ما أصاب الأقوامَ السّابقين: ألَمْ يَصِلْكم خبَرُ الأقوام الماضينَ من قَبلِكم، مثل قوم نوح وعادٍ وثمودَ، والأُمَم الّذين جاؤوا من بعدِهم، أُمَمٌ كثيرةٌ لا يَعلمها إلّا الله، وقد جاءتْهم رسُلهم بالحُجَج الظّاهرة والمعجزات، فوَضعوا أيديَهم على أفواهِهم استغرابًا واستنكارًا، وقالوا للرُّسل: إنّا كفرنا بما جئتم به من أدْيانٍ جديدة، وإنّا لَنَشُكُّ في كلِّ ما تدعونَنا إليه من الإيمان والتَّوحيد، أو أنْ يُجعل الخِطابُ لكُفّار قريش، وعلى الاحتمالَين فالخِطاب لجميع النّاس، فما سيقَ هذا الكلام إن كان خِطابًا لبني إسرائيل إلّا ليَعتبرَ منه المشركون.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف الابتدائِّي في مَطْلع الآية الكريمة:

قيمة التّذكير بأحوال السّابقين الهالكين

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ كلامٌ استئنافيٌّ ابتدائيٌّ رَجَع به الخِطاب إلى المشركين من العرَب على طريقة الالتفات في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ الموَجَّهَ إليه الخِطاب هنا هم الكافرون المَعْنيّون بقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم: 2]، وهم مُعظَم المَعْنيِّ من النّاس في قوله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1][1]، وهذا الاستئناف الابتدائيُّ يَحكي سُنَّةً واحدةً وسيرة واحدة لكلِّ الأنبياء وأقوامهم وهي: مُعاناة الأنبياء من تكذيب أقوامهم وهلاك المُكذِّبين، وهذا على القول أنَّ الخِطاب موجَّهٌ للمشركين.

غرَضُ الالتفات من الغَيْبة إلى الخِطاب:

بيان تشابُه الأُمَم في المواقف من النّبوّات، وتَشابهها في المآلات

على القولِ بأنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ موجَّه للعرَب، ففيه التفاتٌ من الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/195.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم: 2] إلى الخِطاب هنا، لبيانِ التَّشابه القائم بيْن حال الكافرين على عهْد رسول اللّه ﷺ بحال الأُمَم السّالفة؛ بتَشابه عقليّاتهم في حُجَجهم الباطلة ورَدِّ الرُّسلِ عليهم بمثل ما رَدَّ به القرآن على المشركين في مَواضع[1]، فكأنَّ طريق الدّعوة واحدٌ، كلهم يقولون الكلمة ذاتها، ويُلقون الرَّدَّ ذاته وما يُذكر من سِيَرٍ هدفُه تذكير الرَّسول وقومه بما حدَث للسّابقين.

غرَض الاستفهام:

عَدَمُ الاتِّعاظ قبيحٌ، والعناد أقْبَحُ

غرَض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إنكاريٌّ، وهو للتّقرير والتّوبيخ؛ لأنّهم قد بَلَغَتهم أخبارهم، فأمّا قوم نوحٍ فقد تواتَرَ خبَرُهم بين الأُمَم بسبب خبَرِ الطّوفان، وأمّا عادٌ وثمودُ فهُم من العرَب ومساكنُهم في بلادهم، وهم يَمرّون عليها ويخبِرُ بعضُهم بعضًا بها، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾ [إبراهيم: 45] وقال: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافات: 137- 138][2].

سرّ إيثار لفْظ ﴿نَبَؤُاْ﴾:

النَّبأ خبرٌ يعمُّ، ولـه شـأنٌ لا يَخصّ

آثَر النَّظم الكريمُ لفظ النَّبأ دون الخبَر في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، لأنَّ النّبأ خبَرٌ ذو شأنٍ، وما كان فيه فائدةٌ مهمّة، كما قال تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]، ومن ثمَّ كان إيثار لفْظة ﴿نَبَؤُاْ﴾ على (خبَر) في هذا السّياق هو الأَوْلى، ولو تَدبّرنا الّذي أتاهم فهو نَبأٌ لا خبَر، لأنَّ الخبَر يأتي بمعنًى خاصٍّ للمُخبَر، وهنا المقصود النَّبأ العامُّ الّذي يَعمُّ مضمونُه الجميع، ويكون له شأنٌ يتعلَّق بالجميع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/196.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/411، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/196، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/526.

بلاغة الاستعارة المَكنيَّة:

تصوير النّبأ وتشخيصه أبلَغُ من مجرَّد الإخبار

جاءت جملة ﴿يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ﴾ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة الأصليَّة، بحذْف المُشبَّه به وهو شخص يأتي، وذِكرِ ما يدلُّ عليه وهو الإتيان، لتصوير النَّبأ بصورةِ رجُلٍ يأتي، فكأنَّ النَّبأ هو الَّذي أتى إلى المخاطَبين؛ لأخْذ العِبرة والعِظَة ممّا حدث للأقوام السّابقين.

دلالة الاسم الموصول وصِلَتِه:

التمهيد لذِكر الأقوام مع بيان معرفة الكفار بقِصَصِهم

عبر البيان القرانيُّ في: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ﴾ بالاسْم المَوصول الظّاهر (الّذين) مُمهِّدًا لذِكر الأقوام بعدُ، وذلك للإيماء إلى أنَّهم مَقصودون بهذا الإيراد، فهُم الَّذين من قَبلِكم ممَّن تَعرِفونهم، ويُرشِّح ذلك استعمال ﴿مِن﴾ الدّالَّة على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة، فكأنَّهم يَعرِفونهم حقَّ المعرفة من مُبتدَأ ما حصَل لهم إلى خاتِمَتهم.

نكتة ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ:

التَّنويه بالأقوام والاعتبار بهم والتَّشنيعُ عليهم

بعدَ أن جاء قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إجمالًا، جاء تفصيلُه في جملة ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وهذا من بلاغة الإطناب، ولو اكتفى بالاسم المَوصول لكَفى؛ تشويقًا للمُتلقّي، وتحريضًا له على متابَعة القراءة ومواصلة تَتَبُّع الأخبار والأنباء والآثار. والإطنابُ بالتَّفصيل والخاصِّ فيه فَضْلُ اهتمامٍ بهؤلاء وأخبارهم، وتَنويهٌ بشأنهم وتشنيعٌ عليهم، وما حصَل لهم لِيَتَّعِظ الجميع بنهاياتهم، مع الشُّمول لكلِّ الأقوام والتَّقرير والبيانِ.

تَوجيه المخصوص بالذِّكر:

ما كان في الأبعَد عقوبةٌ يتحقَّق في الأقرب

وجْهُ تخصيص بعضِ الأقوام بالذِّكر ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ بقَصْد تذكير الكُفّار بما أصاب أولئك المَعدودينَ مع قُرْب غيرهم إليهم؛ للإشارة إلى أنَّ إهلاكَهُ تعالى الظّالمين ونَصْرَهُ المؤمنين

عادةٌ قديمةٌ له ﷻ[1]؛ فالنَّصر نهاية المؤمنين، والهلاك نهاية الكُفّار المجرمين، في كلِّ وقتٍ وحين.

نوع الواو ودلالتها:

سُنَّة الله في الإهلاك والنَّصرِ عريقةٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ إمّا أن تكون للعطْفِ على ما قبله، فيفيد مُطلَقَ الجمْع بين الأقوام؛ ليَشمل الأقوام جميعًا ما قبْل قومِ نوح وعاد وثمود وما بعدَهم، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً لا عاطفةً، وتكون ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ مُبتدَأ، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ هي الخبَر؛ لبيان أنَّ هناك أُممًا كثيرةً أتَتْ واندثرتْ لَم يَعلم بهم إلّا اللّه ﷻ.

أثر الإعراب في بيان المعاني:

جهْل البشريَّة بالأُمم المُندثرة دليلُ غفْلتها عن السُّننِ المُنتشرة

سبَقَ بيان أنَّ جملة ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ خبَرٌ، فهي بيانٌ للأقوام الّذين بعدَ قومِ نوحٍ وعاد وثمود في كونهم مجهولين للخَلْق، ويَصحُّ أن نجعلها اعتراضًا، والمعنى: "أنَّهم من الكَثْرة بحيث لا يَعلم عَددَهم إلّا اللّه. وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: (بيْن عَدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يُعرفون)، وكان ابن مَسعودٍ إذا قَرَأ هذه الآية قال: (كَذَب النَّسّابون)، يعني أنَّهم يَدّعون عِلم الأنساب، وقد نَفى اللّهُ عِلمها عن العِباد"[2].

وفي تفسير عدَمِ العِلم قولان: القول الأوَّل: أن يكون المراد لا يَعلَم كُنْهَ مقاديرهم وأعمارهم وعَددِهم إلّا اللّه تعالى، والقول الثّاني: أنّ المراد ذِكرُ أقوامٍ ما بَلَغَتْنا أخبارهم أصلًا، كذَّبوا رُسلًا لَم نعرِفهم أصلًا، ولا يَعلمهم إلّا اللّه.

فنُّ الطِّباق:

مِن أغراض الطِّباق الإحاطة والشُّمول

دلَّتِ المقابَلة بيْن ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ و﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ في الآية على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/183.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/541.

بيان الإحاطة بكلِّ الأزمان والأقوام، فالمعرِفة هنا مَعرفةٌ شاملة لا قاصِرة بزَمنٍ دون آخَر، وفي هذا تحريضٌ على ضرورة الإيمان واتِّباع الرُّسل وعدَم مُخالَفتهم؛ لأنَّ العاصين نهايَتهُم واحدة: الهلاك والإهلاك، أمّا المؤمنون بالرُّسل فنهايَتُهم النّجاة والنُّصرة؛ فغرَض الطِّباق التَّدبُّر والفَهم والاعتبارُ.

نكتةُ التَّعبير بالفعل جاء:

التَّعبيرات رهينة السِّياق والنَّظْم

جاء التَّعبير بالفعل ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾، بخلاف آياتٍ أُخرى فقد جاء بالفعل ﴿أَتَتۡهُمۡ﴾ كما في التَّوبة، وذلك أنَّ السِّياق الّذي جاء فيه الفعل ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ فيه معانٍ أشَقُّ وأصْعَب من السّياق الّذي جاء فيه الفعل ﴿أَتَتۡهُمۡ﴾؛ ففي آية التّوبة: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التّوبة: 70] فلَم يَذْكر أنّهم كفروا أو عوقبوا، في حين قال في آيات الأعراف: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الأعراف: 101] فذكر عدَمَ إيمانهم، وأنّهم طُبِع على قلوبهم: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]، وذَكر أنَّه وَجَد أكثرَهم فاسقين، وأنّه لَم يَجِد لأكثرهم عهْدًا، وذَكر بعدَ ذلك ظُلمَ فرعون وقومِه لموسى وتكذيبَهم بآيات اللّه وعاقبتَهم، ولعلَّ من أسباب ذلك أنّ الفعل (جاء) أثْقَلُ من الفعل (أتى) لفْظًا، فلَم يَرِد في القرآن فعل مضارعٌ لـ (جاء) ولا أمْرٌ ولا اسم فاعلٍ أو مفعول، ولَم يَرِد إلّا الماضي وحدَه بخِلاف (أتى) الّذي وَرَدتْ كلُّ تَصْريفاته، فقد وَرَدَ منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل والمفعول، فناسَبَ بيْن ثِقَل اللّفْظ وثِقَل المَوْقف في (جاء)، وخِفَّة اللَّفظ وخِفّة المَوْقِف في (أتى)[1].

---

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 1/80.

بلاغةُ الاستئناف البيانِّي:

تفسير النَّبأ مع بيان الاهتمام بالمَعلومينَ والمجهولين

جملة ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إمّا أن تكون استئنافيَّة، أو أن تكون خبرًا ثانيًا لجملة ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ على جعل الخبَرِ الأوَّل ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، ويصحُّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا على اعتبار أنَّ هناك استفهامًا عن الخبَر الواقع؟ فقيل: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجاء كلُّ رسولٍ إلى قومه بالحُجَج الواضحات، وبالمعجزات الظّاهرات، الدّالَّةِ على صِدقِه فيما يُبلِّغُه عن ربِّه[1].

دلالة التَّعبير بالرُّسل:

رعايةُ المناسَبة اللَّفظيَّة والمقاميَّة

جاء التَّعبير بالرُّسل في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ لفائدتَين؛ الأولى: المناسَبة اللَّفظيَّة بيْن اللَّفظة وبيْن الفعل (أرسلتم). الثّاني: دلالةُ الرُّسل أخصّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، فإنّ الرَّسول يَختصُّ بمَن جَعَله واسطةً بيْنه وبين عِباده لتَبْيين أحكام بوَحْيٍ مسموع عن مَلَكٍ، والنَّبيّ قد يُقال لمَن يُجدِّد علىَ النّاس شريعةً مَن تَقدَّمه وإن كان يوحَى إليه بإلهام أو منام[2]، فذِكرُ الرُّسل فيه إشارة إلى رسول اللّه تعالى ﷺ، فكَما جاءتْ لأولئك رسلٌ جاءكم أيّها المخاطَبون كذلك رسول، فاحذَروا واتّعِظوا.

معنى الباء ودلالتُها:

عنوان الرِّسالة النَّبويَّة البيِّنات الإلهيَّةُ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ متعلّقةٌ إمّا بالفعل المَذكور ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ على أنَّها للتَّعديَة، وإمّا بمَحذوفٍ وقَعَ حالًا من فاعله ﴿رُسُلُهُم﴾، أي: مُتلبِّسين بالبيِّنات، وفي هذا شِدَّةُ التِصاقٍ واتّصالٍ بيْن الرَّسول والبيِّنة الّتي تَلبَّستْ به؛ تأكيدًا على قوّة حُجَجهم وبراهينهم.

نكتةُ الجَمع المحلَّى بأل:

البيِّنات لفظٌ يعمُّ المعجزات والرِّسالات

جُمِعت البيِّناتُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للدّلالةِ على

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/523.
(2) الرّاغب، المفردات: 3/1310.

الكَثْرة والتَّعدُّد، وذلك لمناسبة الجمْع لِجَمْع الرّسل، فكلّ رسولٍ له بيِّنة، فتَعدُّد الرّسل يَؤول إلى تعدُّد البيِّنات، والأوْلى أن يكون لكلِّ رسولٍ بيِّناتٌ كثيرةٌ خاصّةٌ به مُعينةٌ له حسب اقتضاءِ الحِكمة؛ فإنَّ مُراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بيْن الرّسل وضميرِ الأُمم، ومعنى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إمّا أن تكون المعجزات الدّالَّة على صدْق الرّسل، وإمّا أن تكون الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة الّتي تُنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم[1]، والصَّحيح أنَّها تَعمّ، وقرينة ذلك الجمْع المحلّى بأل، وصِدق البيِّنة على الأمرين، كما هو المشهور في الاستعمال القرآنيِّ؛ وقرائنُ السِّياق تُعين على المَعْنيَين.

نكتةُ الإضافة إلى ضمير الجمْع:

كـثرةُ الـرُّسـل بـاعـتـبـارِ كـثرة الأُمَم

أفادت إضافة الرّسل إلى ضمير الجمْع في قوله تعالى: ﴿رُسُلُهُم﴾ الكثرة، أي: كَثرة الرّسل، وكثرة الأقوام، وفي الضّمير إلْماحةٌ إلى القصْديَّة والتّكريم؛ فكلُّ رسولٍ يقصِد قومَه الّذين أُرسل إليهم قصْدًا؛ ضَبطًا لحياتهم؛ وهدايةً لهُم، فهم رُسلهم الّذين أُرسلوا إليهم على وَجه الخُصوص.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الاسـتـمـرار في الـغـيِّ دَيْـدن المكذِّبين ومَسلكُ الضّالّين

أفاد قولُه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ استمرارَ عدمِ إيمانهم في الزّمان الماضي؛ لِما أنَّ الاستمرارَ على فعلٍ من الأفعال بعد وُرود ما يوجبُ الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه في الحقيقة، لكنَّه بحسَب العنوان فعلٌ جديد وصُنعٌ حادثٌ نحوُ: وعَظْتُه فلَم يَنزجِرْ، ودَعَوتُه فلَم يُجِب، ثمّ إنّ الفاء من طبيعتها السُّرعة والتّتابُع، فكأنّهم لَم يَنتظروا زمنًا ليردّوا أيديَهم، وهذا ما يقتضيه فعل الرَّدِّ إن أُريدَ به الرّاجح، وهو رَدُّ الأيدي في الأفواه حسدًا وغيْظًا، فيُفيد تصوير

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7450.

المَشهد. وعِبارة الآلوسيِّ: "أتى بالفاء تنبيهًا على أنَّهم لَم يُمهِلوا بل عَقَّبوا دَعْوتَهم بالتّكذيب"(1).

براعةُ اختيار لفظ الرَّدّ:

الكـشـفُ عن الحالةِ النَّفسيَّة والمَـكـيـدة الشَّيطانيَّة

اختير قولُه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾ دون ألفاظٍ أُخرى قد يُظنُّ أنَّها توفِّي المقصودَ، وتُبيِّن المراد، والحقُّ أنَّ لهذه الكلمة رَونقًا أفاد تصويرًا، ودقَّةً أجادَت دلالةً، ذلك أنَّ الرَّدَّ هو رجْعُ الشّيء(2)، فمن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [القصص: 13]، وأفاد الرّاغِب معنًى آخَر فقال: "استعمال الرَّدِّ في ذلك تنبيهًا أنَّهم فَعلوا ذلك مرَّةً بعد أخرى"(3)، وعليه فالآية تبيِّن معنًى لا تؤدِّيه ألفاظٌ أخرى، وهنا يرِد السّؤال الآتي: لماذا ذُكِرَ هذا اللَّفظ دون غيره؟ وماذا أفاد؟

علينا أن نتدبَّر أمرًا وهو أنَّ تلك الأقوام الّتي جابهَت بالباطلِ رُسلَها، لمّا رأوا البيِّنات ماثلةً أمامهم، لا يستطيعون معها الإنكارَ، أصابَهم من الغيْظ والحقدِ والحَنَق ما أصابهم، فرَدّوا حينئذٍ أيديَهم في أفواههم، نتيجةً للحسَد والحقدِ. وما بدَرَ منهم من ردِّ الأيدي جهارًا، كان قبل ذلك خفاءً، فردُّ الأيدي حركةٌ لا شُعوريَّةٌ صدرَت عنهم أمام الرّسل بعد أن صَنَعوها في الخفاء، فما كان خفاءً أصبح جهارًا، وهذا ما عَناهُ الرّاغِب حين قال: (تنبيهًا أنَّهم فعلوا ذلك مرَّةً بعد أخرى)(4).

نكتةُ جمْع الأيدي والأفْواه:

دلَّ جمعُ الأيدي على أنَّ ردَّة فِعْل الأقوام من المرسَلين واحدةٌ، وهي الحسد والرَّفض والتَّكذيب، فهم متَّفقون على الكُفر والعصيان، لَم يَتخلَّف واحد منهم، وأنَّهم قاموا بهذه الحركة بصوَرٍ مُتقارِبة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/183.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ردّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (ردّ).
(4) المثنّى عبد الفتّاح، الإيضاح والتّقييد في إعجاز القرآن المجيد، ص: 229 - 230.

بلاغةُ استعمال حرْف الظَّرفيّة:

تـصـويـر شِـدَّة الغيظ والرَّفض للحقّ

استعمل النَّظْم حرْف الظَّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وذلك لغرَض بلاغيٍّ فريدٍ، وهو تصوير شدَّة الغيظِ، وكأنَّهم من فَرْط الإصرار على إنهاء الحِوار معهم أدْخلوا أيديَهم في أفواههم؛ لتُعطِّل جهاز النُّطْق وتَمْنَعَ اللِّسان عن الحركة، حتّى لو كانت أصواتًا محبوسة داخِل الفم، وهو ما يؤكد إقناط الرّسل من إجابتهم والاسترسال في الحوار معهم، إحساسًا منهم بأنهم لا يستطيعون مُجاراتهم في الحِجاج ولا غَلَبَتَهم في الإقناع[1].

دلالة عطْف القول على الفعل:

الـعِـبـرةُ في الكلامِ متابعتُه للأفعالِ

في عطْف فعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بيانٌ لإصرار الأقوام على الكُفر والعناد؛ لأنّهم لَم يَكتفوا بحركاتهم برَدِّ الأيدي في الأفواه، بل باشروا بالقول أيضًا؛ ليُحاوِلوا إقناط الرّسل من إيمانهم، وفي قولهم إظهارٌ لتَمسُّكهم بعقيدتهم الفاسدة، وقد يَحكي الفعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ شدَّةَ جرْأتِهم على الرّسل، وعدَمَ إخفاء ما في قلوبهم، مع دلالة الفعل الماضي الدّالِّ على التّأكيد وإضافة الفعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ إلى واو الجماعة، تلك الواو الّتي تَرْسم اتّفاقَهم على الكُفر، والإصرار وعدَم التّراجع.

تَوجيه المتشابِه اللَّفظيّ:

أثَــرُ الـخـفَّـة والـتَّـوكـيـد المـعـنـويّ في الخفَّة والتَّوكيد اللَّفظيّ

حذْف النّون في هذه الآية؛ لمناسَبة ما بعدها، فما بعدها الجملة ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾، فكان حذْف النّونَين في ﴿وَإِنَّا﴾ هو الأنسَب، والّذي يبدو أيضًا أنّه عندما يأتي (إنَّنا) فهو آكَدُ، و﴿إِنَّا﴾ تأتي للتّوكيد سواء كانت النّون مشدَّدة أو مخفَّفة، وعندما نقول: (إنّنا)، فإنّها تحتَمِل معنيَين: في مقام التّفْصيل (إنَّنا)، وفي مقام التَّوكيد (إنَّنا)، فلو قرَأْنا القِصَّتَين في السّورَتين لَوَجدنا أنّ قِصَّة صالِح فصّل تعالى فيها كثيرًا فاقتضى التّفصيل استخدام ﴿وَإِنَّنَا﴾، وكذلك التّكذيب

(1) محمد الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 159، وما بعدها.

في قوم صالح كان أشَدَّ فجاء التَّوكيد بلفظ ﴿وَإِنَّنَا﴾؛ إذَن القِصّة في قِصّة صالحٍ أطوَل والتّكذيب أشَدُّ في سورة هود، بينما الكلام في سورة إبراهيم موجَز فاقتضى التّوكيد في سورة هود بـ ﴿وَإِنَّنَا﴾، ولَم يَقْتض التّوكيد في سورة إبراهيم بـ (إنّنا)[1]، وقد يُقال: فلَمّا لَزِمَت النّونان في ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ جيءَ معهما بـ(إنَّ) المحذوفةِ النّون لتقارُب اللّفظ، أعني قُرب (إنّ) من ﴿تَدْعُونَنَآ﴾، فكان في مَظِنّة الاستِثْقال فحسُن الحذْف حيث يَجوزُ، فقيل: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ولَمّا لَم يكُن في ﴿تَدْعُونَآ﴾ في سورة هود إلّا نونٌ واحدةٌ، وهي نون الضّمير لَم يُستثقل، فجيء بـ(إننا) على الأصل فجاء كلٌّ على ما يَجِب[2].

التَّـنـبـيـه على خِـطـابِ المُـفـرَد والجمْع

جاء فعل ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ في هذه الآية بنونَين، أمّا في سورة هود فبِنونٍ واحدة، وذلك أنَّ الحديث في سورة هود جاء خِطابًا لمُفردٍ وهو سيّدنا صالح عليه السلام، يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ [هود: 62]، وتقديرها على التَّفكيك: (تدعو أنت إيّانا)، بينما في سورة إبراهيم فالخِطاب لجمْعٍ من الرُّسل، وتقديرها على التَّفكيك: (تدعونَ أنتم إيّانا).

بلاغةُ استعمال (ما) المَوصوليَّة:

الـكـافـر شـديـدُ الـرَّفـضِ للحقِّ كلِّه؛ لا يَستثني ولا يَلوي

اسم الموصول (ما) أعمّ وأشملُ من أخيه (الّذي)، حتّى قال النُّحاة: إنّه يَقَع على كلِّ شَيء، ويَقع على ما ليس بِشَيء؛ لأنَّه اسمٌ مُبْهَم شديد الإبهام[3]، وقد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾، وهذا يعني تَمَرُّدهم وعُتوَّهم

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص التّنزيل، ص: 597.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/259.
(3) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 139.

ورفْضَهم التّامَّ لكلِّ ما أُرسل به المرسَلون، ثُمّ إنَّ (ما) الأولى هي الّتي مهَّدَت للفعل ﴿أُرۡسِلۡتُم﴾ الماضي، الدّالِّ على أنّ الإرسال قد تمَّ وانتهى أمرُه، إضافةً إلى أنَّ (ما) الثّانية مهَّدت للفعل المضارِع ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾، الدّالِّ على استمرار الرُّسل في الدَّعوة ليلَ نهار؛ ففي الفعل استحضار الصورة، واستعمال (ما) يُعين عليها.

دلالاتُ التَّعبير بالإرسال على لسانِ الأقوام:

ما يَجولُ في بواطنِ النُّفوسِ يَظهر في فَلَتات اللِّسان

أشار استعمال لفْظ الإرسالِ فيما قاله الأقوام: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، إلى أنّهم مُعترِفون بإرسال الرُّسل ضِمنًا، لكنَّهم كافرون بدلالتها على صحَّةِ رسالتهم أو الكُتب والشَّرائع[1]، فزَلّاتُ اللِّسان تَقَع في لَحنِ القول، فهُم يحدِّثون أنفُسَهم بصحَّة ما جاء به الرُّسل، لكنَّهم كِبْرًا وتعاليًا وغباءً يُنكرونها، ولكنَّ الحقّ يَظهر من خلال فَلَتات الألسُن، ويحتمل أن يكون المعنى: إمّا أن نكون كافرين برسالتكم، أو أن نَدَع هذا الجزْم واليقين، فلا أقلَّ من أن نكون شاكِّين مُرتابينَ في صحَّة نبوّتكم، وعلى التَّقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنُبوَّتكم[2]، أو أن يُحمل على التَّهكُّم والسُّخرية[3]، فيكون المعنى: "إنّا كفرنا بما زَعَمتم أنّ الله أرسلكم فيه؛ لأنّهم ما أقرّوا بأنّهم أُرسلوا"[4]، فالرّسل مكذَّبون، ورسالاتهم كاذبةٌ في عُرْف الكُفّار، وقد يكون الأمر على أنّهما قولان من طائفتَين: طائفةٍ بادرَتْ بالتّكذيب والكُفر، وطائفةٍ شكَّتْ، والشَّكّ في مثل ما جاءَتْ به الرّسل كُفر[5].

سرُّ تَتابُعِ المؤكِّدات:

التَّوكيدُ إيجازٌ لفظيٌّ واختزالٌ دلاليٌّ

تتابَعَت المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ للدّلالة على أمورٍ، منها:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/183.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/67.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/195.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/69.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/411.

أوَّلًا: جملة ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ نابَتْ مَناب تَكرير الجملة مرَّتَين، كأنَّه قيل: (نحن في شكّ، نحن في شكّ) مع حصول الغرَض من التّأكيد، فإذا دَخلَت اللّام ازدادَ معنى التّوكيد وكأنّه بمنزلة تَكرار اللَّفظ ثلاث مرّات(1)، وعليه فالتَّوكيد يُفيد الإيجاز والاختصارَ.

ثانيًا: تَتابُع التَّكرار دالٌّ على قوّة الشَّكِّ في نفوسهم، وسَدِّ باب الاعتراف بنبوَّة الأنبياء.

فائدة التَّعبير بالظَّرْفيّة:

تــصــويــرُ سقوطِهم في بئر الشَّكِّ

من خصائص حرْف الظَّرفيَّة الإحاطة والشُّمول، وقول الأقوام: ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ يُصوِّر الشَّكَّ يَغشاهم ويُحيط بهم، أو يُحيط بطائفةٍ منهم، فالشَّكُّ شاغِلٌ ومسيطر ومحيطٌ بهم لا يفارقهم، فهم متمكّنون غير مُنفكّين عنه(2)، كأنّه اشتمل عليهم اشتمال الظَّرْف على المَظروف(3)، ففيه رسوخٌ وتَمكُّن منهم.

علَّة وَصْف الشَّكّ بالمُريب:

الشّكُّ يغلبُ في المعقولاتِ والرّيبةُ في القلبيّات

وُصف الشَّكُّ بالمُريب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، والرّيب والشّكُّ مُتقاربا الدّلالة، ولهذا الوصْف فائدةٌ وهي توكيد الشّكِّ بالرّيبة، فجاء الوصْفُ زائدًا عن أصل معنى الشّكِّ الّذي هو التّردُّدُ والحَيْرة واضطراب النّفْس والوهْم، وهو صريحٌ في أنَّ الشّكَّ مَثارٌ للرّيب، لا أنَّ الرّيب بمعنى الشَّكِّ(4)، بالإضافة إلى أنَّ لفظ ﴿مُرِيبٍ﴾ اسم فاعل من (أرابَ)، فيجوز أن يكون متعدِّيًا من (أرابَهُ)، أي: أوْقَعَه في الرّيبة، أو قاصرًا من "أرابَ الرَّجلُ" أي: صار ذا ريبَة، فاجتمَع المَعنَيان في اللّفظة فوُصف الشّكُّ بها(5)، ولعلَّ مِن

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/526.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/87.
(3) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/304.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/38.
(5) ابن عجيبة، اللّباب: 10/513.

أَوْضَح ما يُقال في هذا المقام: إنَّ الشَّكَّ يغلِب في العقليّات، والرّيبة في الأمور النَّفسيَّة، فهم أرادوا أن يُبالِغوا في شكِّهم، فجعلوه فيما يتعلّق بالمعقول وبما تُضمِرُه النُّفوس، وهذا يُؤكِّد على أنّهم كاذبون مبالِغون في الفِرْية، دافعُهم الحسدُ، ومِهْمازُهم الحِقد.

سرّ الفصْل بين الصِّفة والموصوف:

الكشفُ عن عللِ التَّكذيب ومَواطن التّدليس

الصِّفة والموصوف كشَيءٍ واحد، وقد فُصل بين الصّفة والموصوف في قوله تعالى: ﴿شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ بقوله: ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ﴾، على جعْله متعلِّقًا بالشَّكّ، أو جعْله صِفَةً لـ﴿شَكٍّ﴾، وذلك لبيانِ مسارَعتهم إلى الشّكِّ في الدّعوة، بتقديم شِبْه الجملة ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ﴾، فما يدعو إليه الأنبياء هو المُسيطر على عقولهم، وهو المُحدِث لهم ريبةً، فنزّل تأخير النَّعت المفرَد مَنزلة النّتيجة للشّكِّ في الدّعوة، بالإضافة إلى العناية بالجانب الصَّوتيِّ بتأخير ﴿مُرِيبٖ﴾.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّبأ والخبَر:

الخبَرُ أعمُّ من النَّبأ، والنَّبأ يُستعمل في الأمور المهمَّة ذات الشَّأن

النّبأ خبَرٌ ذو شأنٍ، وأصله يدلُّ على الظّهور، ويُستعمل في سياقِ إبراز الأخبار المهمَّة والعظيمة، ويكون ذا فائدة مهمّة، كقوله تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]، وفي القرآن قد وُصف النّبأ بالعظيم، ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67]، والخبَر أعمُّ منه، وقد يُستعمل في الأمور المهمَّة وغير المهمَّة، قال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]، وقال: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ [النمل: 7]، بينما استعمال النّبأ في القرآن يكون في شأن الوَحي والرِّسالة وأخبارِ الأُمم السّابقة، ونحْو ذلك من المُهمّات.

الرُّجوعُ للأصل، ولا يُشترط ذلك في الرَّدِّ

الرّدّ والرّجوع:

الرّدُّ مُتعدٍّ، والرُّجوع لازِمٌ[1]، وقد يَتعدَّى؛ والرُّجوع يكون لمُنتهى القصْد ولغيره، ألا ترى أنّه يُقال: رَجَعَ إلى بعض الطَّريق، والرُّجوع هوَ المَصير إلى المَوضع الَّذي قد كانَ فيهِ قَبْلُ[2]، وقد يُقال: الرُّجوع: حرَكةٌ واحدة في سَمْتٍ واحِدٍ لكن على مسافة حرَكة هي مثل الأولى بعَيْنها[3].

الشّـكُّ فيما لا يُعقل، والرِّيبة فيما لا طمأنينة فيه

الشّكّ والرّيب:

الشّكُّ تردُّدٌ بيْن أمْرَين مع رُجحان أحَدِهما، أمّا الرّيب ففيه شكٌّ بتُهَمَة[4]، وقد يعني الرّيبُ صُروفَ الدّهر ونوائبَه[5]، ويغلِب الشَّكُّ في العقليّات، ويغلب الرّيب في القلبيّات.

---

(1) النّيسابوريّ، تفسير النّيسابوري: 3/512.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(3) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 109.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ريب).

﴿۞قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ردُّ أهلِ الحقِّ هو بالقَبولِ أحقّ

لمّا ذَكرتِ الآيةُ السّابقة ارتيابَ الشّاكّين المكَذِّبين، وأشارَت إلى ما يُكِنّونه من حقدٍ وحسدٍ تُجاه الرُّسل الكرام، ناسَب أن يُذْكرَ في هذه الآية ردُّ الرُّسل عليهم، المشتمل على أصل توحيد الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصِّفات، فهو ردٌّ شاملٌ قائمٌ على أصولٍ اعتقاديَّة، وماحٍ لكلِّ ما قد يَتبادر من الأذهان الغَبيَّة، والأقوال الكَيْديَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاطِرِ﴾: أصلُ الفَطْرِ: الشّقُّ طولًا، يقال: فَطَرَ فلان كذا فَطْرًا، وأفْطَرَ هو فُطورًا، وانْفَطَرَ انْفِطارًا. قال تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣﴾ [الملك: 3]، أي: اختِلال ووَهْي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصّلاح، وقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ١٨﴾ [المزمل: 18]، وفَطْرُ الله الخَلْقَ: إيجادُه الشَّيء وإبداعه على هَيئةٍ مُترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: 30]، إشارةٌ منه تعالى إلى ما فَطَرَ. أي: أبدَع وركزَ في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ الله: هي ما رَكزَ فيه من قوّته على معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: 87]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1]، وقال: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: 56]، ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾

[طه: 72]، أي: أبدَعَنا وأوْجَدَنا[1]، فاتّصاف اللّه تعالى بالفاطِر، أي الاعتراف بأنَّه الخالق ﷻ دون سِواه.

2) ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾: الدّالُ والعيْنُ والحرْفُ المعتلُّ أصْلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشّيءَ إليك بصَوْت وكلام يكون منك. تَقول: دَعَوْتُ، أدْعو دُعاءً[2]، والمعنى المِحوريُّ جَذْبُ الشّيءِ أو محاوَلة ضمِّه إلى حيِّزٍ أو أمْرٍ: كجَذْب اللَّبَن إلى حيِّزه أو حيِّز الحالِبِ، وجَذْب النّاس إلى الوَليمة والاجتماع[3]، والمُراد بالدَّعوَة في الآية هو دعوةُ النّاس إلى دين التّوحيد والإيمان به، وترْك ما يُناقضُه.

3) ﴿أَجَلٖ﴾: الأجَل هو المُدَّة المَضْروبة للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، وقال: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ [القصص: 28]. ويُقال: دَيْنُه مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُه: جَعَلْت له أجَلًا، ويُقال للمُدّة المضروبة لحياة الإنسان: أجَل؛ فيُقال: دَنا أجَلُه، عبارةٌ عن دُنوِّ الموت، وأصْله: استيفاء الأجَل أي: مُدّة الحياة، وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ [الأنعام: 128]، أي: حدّ الموت، وقيل: حدّ الهَرَمِ، وهما واحدٌ في التّحقيق[4].

4) ﴿تَصُدُّونَا﴾: الصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، نحْو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾، [النساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومَنْعًا نحْو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: 1][5]، والمراد به في الآية الصَّدُّ عن دين الآباء الباطل، وتَرْك ما هُم عليه من عبادة الأوثان والأباطيل.

5) ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط)، السَّلاطَةُ: التَّمكُّن من القَهْر، يقال: سَلَّطْتُه فَتَسَلَّطَ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ﴾ [النساء: 90]، ومنه سُمّي السُّلْطانُ، والسُّلْطانُ يُقال في السَّلاطَةِ، نحْو: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الإسراء: 33]، وقد يُقال لذي السَّلاطَةِ، وهو الأكثر، وسمّي الحُجّة: سُلطانًا، وذلك لِما يلْحقُ من الهجوم على القلوب، لكن أكثر تَسَلُّطه على أهل العِلم والحكْمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ

(1) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(4) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(5) الرّاغب، المفردات: (صدد).

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35]، وقال: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[1]، والمراد في الآية هو الحُجَّة والبرهانُ.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اعتماد الفِطْرة والعقل في إقناع المخالِفين منهَجُ الرُّسل مع أقوامِهم

في الآية الكريمة رَدٌّ على الكُفّار الشّاكّين باللّه تعالى، وقد ساقَ الرُّسلُ أدلَّة عقليَّةً وفِطريَّة في إثبات أحَقّيَّة اللّه تعالى بأن يكون المُنفرِد بالعبادة دون سِواه، إذ كيف يكون في توحيد اللّه شكّ وهو فاطر السّماوات والأرض؟! فخالِق السّموات والأرض وحدَه لا يُعقل أن يكون له شريكٌ في عبادته، يدعوكم إلى الإيمان والعمل الصّالِح الخالي من الشِّرْك، لَمَحَبَّته غُفران ذُنوب عِباده مع تأخير العذاب عنكم لتَموتوا بآجالكم المُقدَّرَة لكم، لكن الكُفّار ظَلّوا مُتَّهِمينَ الأنبياء بأنَّهم بَشَر، كلُّ أهدافهم إبعادهُم عمّا ألِفوهُ واعتادوه، فحاوَلوا تعجيزَهم بأن طَلَبوا حُجَّة ظاهرةً تدلُّ على صِدْقهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّة الفصْل:

خيرُ الرَّدِّ ردُّ الأمور إلى أُصولِها

فُصِلت جملة ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ عمّا قَبلَها لأنَّها استئناف بيانيٌّ قامَتْ على سؤال يَنْساق إليه المَقالُ على طريقة المحاوَرات، كأنَّه قيلَ: فماذا قالتْ لهُم رُسلهم؟ فأُجيب بأنَّهم قالوا منكِرين عليهم ومُتعجِّبينَ من مَقالَتِهم الحَمقاء: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾[2]، وفيها أنَّ أصْل الدّعوة في كلِّ مِلَّةٍ التّوحيدُ، وكان الشّاكُّ فيه شاكًّا في اللّه[3].

عِلّة تأنيث الفعل:

الرُّسلُ جماعةٌ واحدة وقولُهم كلمةٌ واحدة

جاء فعل ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ مؤنَّثًا على إرادة جماعة الرُّسل، يقول السُّهيليُّ: "فإن كان الفاعلُ جمعًا مُكسَّرًا أُدخلَتِ التّاء لتأنيث

(1) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/391.

الجماعة، وحُذفَت لتَذْكير اللّف؛ لأنَّه بمنزلة الواحد في أنَّ إعرابَه كإعرابِه، ومجْراه في كثيرٍ من الكلام مجرى اسم الجنس"[1]، وقد يُراد بالتأنيث الجمْع، أي: جماعات الرُّسل، باعتبارِ كثْرة الأقوام، لا سيَّما مَن لَم نَعْلَمْهم.

بلاغةُ الاختزال:

دعــوةُ الـرُّسـل واحــدة، وملَّـة الكُفرِ واحدة

جمَع اللّه تعالى أقوال الرُّسل في قولٍ واحدٍ، وهم كانوا في أجيالٍ مختلفةٍ، وجمَع أقوال المشركين في قولٍ واحدٍ؛ لأنّهم جميعًا على قولٍ واحدٍ، وفي هذا إيجازٌ واختزالٌ لجميع ما نطقَتْ به الرُّسل الكِرام، كما أنَّ فيه اختزالًا لِما قالَتْه الأقوام بالألفاظ المباشِرة والضّمْنيَّة، فإنَّ المؤدّى واحدٌ، إذ لا خِلاف بينهم في الموقف من دَعوةِ الرُّسل، وفيه أنَّ ملَّة الكُفر واحدةٌ.

غرَضُ الاستفهام:

الـعـقـول الـصّحـيحـة لا تَقبل الدَّعـاوى الباطلة

الاستفهام في قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ للتَّقريع والتَّوبيخ والإنكار، أي: أفي وَحدانيَّتِه سبحانه شَكٌّ، وهي في غاية الوضوح والجلاء[2] لا تحتاج إلى دليلٍ وبرهان على وُجوده وعظَمته، فكيف تشُكّون؟ والاستفهام وصْفٌ لِحَيرة أهل الظّلام إذا رَأوا النّور تَحَيَّروا بين باطلٍ ألِفوه، وحقٍّ جاء إليهم هاديًا فارْتابوا[3]، وقد يكون الاستفهام بِمَعْنى نَفْيِ ما اعْتَقَدوه.

سرُّ ذِكر الاسم الأعظَم:

الـتَّـوحـيـد هو القضيَّة المركزيَّة الّتي ضلَّت فيها البشريَّة

علّق اسم الجلالة بالشّكِّ في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، والاسم العَلَم يدلُّ على الذّات، والمراد إنكار وقوع الشّكِّ في أهَمِّ الصِّفات الإلهيَّة وهي صِفة التَّفرُّدِ بالإلهيَّة، أي صِفة الوحدانيَّة[4]،

---

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 131.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/117.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3999.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/198.

وهي القضيَّة الّتي وَقع فيها التَّنازع العَريض في البشريَّة، الّتي أرادَتْ أن تَخرجَ عن منهج اللّه تعالى بعدَم توحيده، وترْكِ إفرادِه بالعبادة الحَقَّة، قصْدًا في اتِّباع الشَّهوات، وذَهابًا في التَّمويه، فأصْلُ الباطل الشِّركُ باللّه تعالى، وسَبَبه الحقيقيُّ اتِّباع الشَّهوات، والتَّمسُّكُ بشهوات الحياة الدُّنيا.

بلاغةُ جواب الرُّسُل:

مَن شكَّ في تنزيه الله تعالى وَقَع في قُبح الفَهم وسوء الطَّويَّة

عدل جوابُ الرُّسل عن إجابة أقوامِهم بأن يقولوا: (أأنتم في شكٍّ مُريب من اللّه)؟ إلى ما جاء عليه النَّظْم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟ وذلك للمبالَغة في تنزيه ساحة الجلال عن شائبة الشَّكِّ، وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي: أفي شأنه تعالى من وُجوده ووَحدته ووجوب الإيمان به وحده شكٌّ ما؟! وهو أظْهَر من كلِّ ظاهرٍ، وأجلى من كلِّ جليٍّ، حتّى تكونوا من قبَله سبحانه في شكٍّ عظيم مُريب[1].

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

تعيينُ المختلَف فيه هو مِحور الاهتمام في أيِّ قضيَّة

أُدخلَتْ همزة الإنكار على الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، دون أن يُقال: (أشكٌّ في اللّه)؛ لأنَّ الكلام والخِلاف ليس مُتسلّطًا على الشّكِّ، إنّما هو في المَشكوك فيه، وأنّه لا يحتَمِل الشّكَّ لظُهور الأدلّة وشهادَتها عليه[2]، فقدَّم متعلّق الشّكِّ للاهتمام به، وكون لفظ ﴿شَكٌّ﴾ نَكِرةً يقتضي نفْيَ أيِّ شكٍّ في اللّه ولو صغُر؛ لبيان الأدلّة الدّالّة عليه.

فائدةُ إيثار اسم ﴿فَاطِرِ﴾:

مخالَفةُ الفِطرة منكَرٌ بشريٌّ لا يردُّه إلّا فاطرُها

الفَطْر بمعنى الخَلْق والإبداع من غير سَبْقِ مِثال، وأصله: الشَّقُّ وفصْل شيءٍ عن شيء، ومنه فطرَ ناب البَعير أي: طَلَع وظهَر، واستُعمل في الإيجاد والإبداع والخلْق لاقتضائه التّركيب الّذي سبيله

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/185.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/542.

الشّقّ والتّأليفُ، أو لِما فيه من الإخراج من العدَم إلى الوجود[1]، واستعماله أنسَب في هذه الآية؛ لأنَّ فيه إشارةً إلى الفِطْرة وهي قوّة الإيمان المَرْكوزة في النّفْس البشريَّة[2]، وهم قد خالَفوا الفطْرة، وقد يُقال: إيثار ﴿فَاطِرِ﴾؛ لأنَّه المُخترِع المُبْتدي، وسَوق هذه الصِّفة احْتجاجٌ على الشّاكّين يُبيّن التّوبيخ، أي: أَيُشكُّ فيمَن هذه صِفَته؟ فساقَ الصِّفة الّتي هي منصوبةٌ لرَفْع الشّكِّ[3].

تَوجيه المخصوصِ بالذِّكر:

عظمةُ خلْقِ السّماوات والأرض لا تُنكَر

خصَّت الآية السّماوات والأرضَ بالذِّكر دون بقيَّة المخلوقات؛ لأنَّهما آيَتان عظيمتان، فالإشارة إليهما كافيةٌ، وتردُّ الشّارِد إلى الرّشدِ سريعًا، كما أنَّ وجود السّماوات والأرضِ دالٌّ على أنَّ لهما خالقًا حكيمًا؛ لاستحالة صُدور تلك المخلوقات العجيبة المُنظَّمة عن غير فاعلٍ مختار، وذلك معلومٌ بأدنى تأمُّلٍ، وذلك تأييدٌ لإنكار وقوع الشّكِّ في انفراده بالإلهيَّة؛ لأنَّ انفرادَه بالخلْق يَقتضي انفراده باستحقاقه عِبادة مخلوقاته[4]، إضافةً إلى أنَّ أحدًا لَم يدّعِ خَلقَ السَّماوات والأرض، فكان في ذِكرهما تفرُّد الخالِق وعجْز البشَر؛ ورَدّ أيديهم في أفواههم سُكوتًا وعجْزًا.

نكتةُ الجمْع والإفراد:

جمْعُ السّماوات لشَرفِها وأُفردَت الأرض لخفّة لفْظها

جُمعت السَّماوات وأُفْرد ذِكرُ الأرض للإشارة إلى تفاوتِهما في الشَّرف، فجُمع الأشْرَف اعتناءً بسائر أفراده، وأشرفيَّة السّماء؛ لأنّها محلُّ الملائكة المُقيمين على تَفاوتِ مراتبهم[5]، ولِما تميَّزت به من كونها موضعًا للعبادة، والتّقديس، والتّمجيد، وأنواع العبادات

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/528.

(2) الرّاغب، المفردات: (فطر).

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/327.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/198.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/80.

كلِّها، ولكونها مَحطًّا للرّحمة ونُفوذ الأوامر والأقضيَة، والتّدبيرات، ثمَّ عقَّبَها بذِكر الأرض مشيرًا إلى عِظَم منافعها وكونها مُتصرَّفًا للخَلْق، وبِساطًا مُمهّدًا للتّصرُّفات، واستصلاح الأقوات من الزّروع والثّمار، والفواكه وأنواع المعادن[1]، كما أنَّ القرآن آثَرَ إفرادَ الأرض لخِفَّته؛ لأنَّ الجمْع ثقيلٌ، وليس ذلك الثّقل في لفظة السّماوات فجاء جمْعًا، عِلمًا بأنَّ لفظة الأرض ورَدَت في القرآن (361) مرَّةً، وكلّها على الإفراد[2].

بديعُ فنِّ الطِّباق:

عَظيم القُدرة في كمال المتقابِلات وتمام المختلِفات

تتأتَّى قيمةُ الطِّباق في بيان عظيم القُدرة المُطلَقة لِفاطِر السّماوات والأرض من غير مثالٍ سابِق، لِما فيهما من باهِرِ القُدرة، وعِظَم المَلكوت، وعلى تباعُدِهما، إلّا أنَّ السّماوات والأرض خاضعةٌ لسُلطان رَبٍّ واحد.

بلاغةُ المَجاز في لفظ الدُّعاء:

الرِّفق بالعِباد والتّلطُّف بخِطابِهم عنوانُ الدَّعوة

الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ محمولٌ على الأمْر والإرشاد مَجازًا؛ لأنَّ الآمرَ يُنادي المأمور[3]، فالمعنى يَدعوكم آمِرًا ومُرشدًا أن تؤمنوا به وحدَه وتعبدوه دون سِواه، ففي الدَّعوة اهتمام الخالِق سبحانه بعبادِه، فهو يدعوهم لِما فيه مَصلحتهم، وفي استعمال هذا اللَّفظ مع إرادة أمْرِ العِباد بالإيمان والعبادة تمامُ اللُّطفِ، وكمال الرّحمة بهم.

نكتةُ إسناد فعل الدّعاء بصيغةِ المضارِع إلى الله تعالى:

بيان الاهتمام ودَيْمومة الدّعوة لكلّ قوم

أُسند فعل الدّعاء إليْه ﷻ في قوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ لمَزيد الحِرص على الهداية وجَلْب المغفرة، ولتَرْبية المَهابة في نفوسهم، ولتكون النِّسبة إليه سبحانه بيانًا لِوجوده، ورَقابَته لهم ولأعمالهم، وإشعارًا لهُم

(1) العلويّ، الطّراز: 1/76.
(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/199.

بالهَيْمنة عليهم[1]، والمضارِع هنا دالٌّ على دَوام الدّعوة واسْتمرارِها واستحضار صورتها، كأنّها ماثِلةٌ أمام أعيُن المَدعوّين لتَجذِبهم وتُرقِّقَ قلوبهم.

دلالة تعدّي الفعل باللّام:

التَّعليلُ المُقنِعُ وسيلةٌ ناجِعةٌ وهدايةٌ راسخة

عُدِّي فعل الدّعاء في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ باللّام لتعليل ما جُعل سببًا للدّعوة؛ فإنّ العلَّة تدلُّ على المَعلول، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ [نوح: 7]، أي: دعوتُهم إلى سَببِ المغفرة لِتَغفرَ، أي: دعوتُهم إلى الإيمان لِتَغفرَ لهم، أي: يَدعوكم إلى التّوحيد ليَغفرَ لكم من ذنوبكم[2]، وفي اللّام تَزيينٌ للدّعوة إلى الإيمان والرّغبة في دخولكم فيه، وهذا يَستدعي اللّام الدّالَّة على اختصاصكم بهذا الفضل مع التّعليل.

سرُّ جمْع لفظ الذُّنوب:

تصوير كثرة الذُّنوب مُشيرٌ إلى كبيرِ الرّحمة

جُمع لفْظ الذُّنوب في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ إشارةً إلى أنَّ هؤلاء المَدعوّين، هم كُتَلٌ مُتضخِّمةٌ من الذّنوب[3]، فالجمْع للكثْرة، وكأنَّ كلَّ واحِد ارتكب ما لا يُحصى من الذّنوب والآثام، على أنَّ أكبر ذَنْبٍ هو الكُفر والإعراضُ، ومن ثمّ فدعوَتُهم للمغفرة إغراءٌ وتَحفيز، وقد يُقال: إنَّ الكُفر عبَّر عنه بالجمْع لِبشاعته وفظاعته في جانب نِعَم اللّه وآلائه.

تَوجيه المتشابِه اللَّفظيّ في الحذْف والذِّكر:

إثبات (من) في سياق خِطاب الكافرين، وحذْفُها عند خِطاب المؤمنين

تعدَّى فعلُ المغفرة إلى المفعول به وهو (الذّنوب) بنفْسه في القرآن الكريم مرّات عدّة، وهي: [آل عمران: 16 - 31 - 147 - 193]، و[الأحزاب: 71]، و[الصف: 12]، وفي كلّ مرَّةٍ كان الخِطاب فيها للمؤمنين، وما عُدِّي منها بحرْف

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3999.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/198.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/157.

الجرِّ (من) جاء في ثلاثة مَواضع، وهي: [إبراهيم: 10]، و[الأحقاف: 31]، و[نوح: 31]، وفي كلّ مرَّة كان الخِطاب فيها للكافرين، وسرُّ ذلك التّفْرقةُ بين الخِطابين لئلّا يُسَوّى بين الفريقَين في الوعْد، فالكُفّار تُغفر بعضُ ذنوبهم بشَرْط الإيمان، وهو غفران ما بينَه وبينهم لا مَظالم العِباد؛ لأنَّ مقام الكُفر مقامُ قبْضٍ لا بسْطٍ، بخِلاف المؤمن فهو مقام البسْط والفُيوضات والرّحمة والمغفرة[1]، وهذا تفريقٌ مرتبِطٌ مَلحوظٌ في السّياق، ويُضاف عليه أنَّ الذُّنوب للكافرين كذلك تُغفر، وتكون ﴿مِّن﴾ بيانيَّة؛ لأنَّ الإسلام يجُبُّ ما قبلَه.

فائدة عطْف الجُمل على ما قبلها:

أعـظَـمُ عـطـاءٍ استثنائيٍّ عرَفَته البشريَّة عطاء المُـقـبِـلـين على الإيمان

تعدُّدُ العطاءات الرّبّانيَّة وأبواب الرّحمات؛ من مغفرة الذّنوب، والتّأخير إلى أجل مُسمًّى، وعدَمُ المُعاجَلة بالعذاب فالعطْف هنا فيه الكَرَم والإكرامُ، لإمالة القلب إلى الله، والاعتراف بآلائه ونِعَمه، وفي عطْف الوعْد: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ بتأخير الأجَل على الوعْد بمغفرة الذّنوب: ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ التّأخير يُعدُّ حقيقةً كمَغفرة الذّنوب؛ إذ لو كان العُمر لا يَزيد حقيقةً بفعل الطّاعة لَما عطَفَه على مغفرة الذّنوب؛ لأنَّ المغفرة حقيقيَّةٌ، فكذلك فلْيَكُن التّأخير في الأجَل[2].

نكتةُ إيثار استعمال لفْظ التّأخير دون الإمهال:

يغلِب استعمال الـتّـأخـير في الوعْد، والإمهال في الوَعيد

آثَر النَّظْم استعمال لفْظ التّأخير دون غيره من الألفاظ؛ لأنَّه وعْدٌ بخيرٍ، والسّياقُ سياقُ سَعَةٍ وبسْطٍ ومغفرةٍ، وهذا اللَّفظ هو ما يَتوارَد على ألسِنَة الأنبياء والدُّعاة، أمّا الإمهال فغالِب مجيئه في سياق الوعيد والتّخويف والزّجر، وهذا يُلحظ من لفظة (أمهل، مهّل) في القرآن، فقد ورَدَت اللّفظة ثلاث مرّات، كلّها في الكافرين؛

---

(1) محمد الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 377 وما بعدها.

(2) المقرن، الأحاديثُ المُشكِلةُ الواردةُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 88.

مثل قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾ [الطارق: 17]، وقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: 11][1]، فكان لفظُ التَّأخير أنسَبَ من لفظ الإمهال.

فائدة استعمال حرْف انتهاء الغاية:

البركة الزّمانيّة مَدْعاة للطّاعة عند المؤمنين

استُعمل حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ للدّلالة على انتهاء الغاية الزّمانيّة، وفيه دلالةٌ على القُدرة الإلهيّة المُطلَقة، قُدْرة الخلْق والإعادة، والتَّعبيرُ بالحرف ﴿إِلَىٰٓ﴾ فيه توسيعٌ للزَّمان وإفساحٌ له؛ لَمَنْح الوقت للطّاعة والمغفرة، وبخاصّة أنَّ اللّه هو الدّاعي، مع دلالة كلمة ﴿أَجَلٍ﴾ على الاستيفاء، أي استيفاء مُدّة الحياة[2] وعدَم المعاجَلة.

فائدة النَّعت ودلالته:

عِلْم الله محيطٌ بالزّمان والمكان

في نَعْت الأجَل بلفظِ ﴿مُّسَمًّى﴾ دليلٌ على العِلم المُطلَق للّه تعالى، دون أن يُشارِكه أحد فيه، فلا يَعلم الأجَل ومقدارَه إلّا اللّه، يبلِّغكُموه إنْ آمنتم، وإلّا عاجَلَكم بالهلاك قبل ذلك الوقت[3]، وقد يُقال: إنَّ فائدة نعتِ ﴿مُّسَمًّى﴾ الدّلالة على استيفاء الآجال، فلا يَستعجل ﷻ بالعقوبة، فإنَّ الطّاعة وصِلَة الرّحم يُزاد بهما في العُمر[4].

بلاغةُ التَّعبير بالضَّمير بدل الاسم الظّاهر:

اختزالُ الزّمان في ألفاظ البيان لا يكون إلّا بنَظْم القرآن

يؤتى بالضَّمائر كلِّها لضرْبٍ من الإيجاز؛ لأنَّ الضّمير يُستغنى به عن الاسم بكامله[5]، والتّعبير بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يوافق التّعبير بالضّمير في ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا﴾، فحصل التّناسُب بين القولَين، كما أنَّ الآية مبنيَّةٌ على الضّمير المخاطِب لهم

(1) قيس دوكس، فهرس جذور كلمات القرآن: (مهل).

(2) الرّاغب، المفردات: (أجل).

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/543.

(4) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 4/378.

(5) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/21.

﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ﴾، والتّعبير بالضّمير يدلُّ على اتّحاد القول واتّفاقِه الصّادِر عن الأقوام، كأنَّها قولةٌ واحدةٌ تلقّاها القوم خلَفًا عن سَلَف، وهذا لا يكون في التّعبير بأن يُقال: (قال قومهم)؛ لأنَّ القائل في الغالب يكون من المَلأ الكبار فيُعبَّر عنه بالقوم لمنزلته وعلوِّ شأنه وكأنَّه كلُّ القوم، كما أنَّ واو الجماعة قد يُراد بها كلّ أُمّةٍ من الأُمم[1]، فجاء بالضّمير الّذي هو أخصَرُ، والواو في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ تمهيدٌ لقولهم: ﴿تَصُدُّونَا﴾ فربّما كان يُمكن أن يُقال: (تصدّوا قومنا)؛ فيكونوا هم بُرَآء من الكُفر، وهذا ليس بواقِعٍ، فالجميع منكِرٌ شاكٌّ كافرٌ.

بلاغة القصْر:

التّعنُّت رائدُ المكابَرة وقائد المجاهَرة

جاءت جملة: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ قصْرًا بليغًا، فمَردُّ هذه الجملة إفحامُ الرُّسل بقطْع المجادَلة النَّظريّة، فنفَوا اختصاصَ الرُّسل بشَيءٍ زائدٍ في صورتهم البشريّة يُعلَم به أنَّ اللّه اصطفاهم دون غيرهم بأن جَعَلهم رسلًا عنه، وهؤلاء الأقوام يَحسبون أنَّ هذا أقطَعُ لحُجَّة الرُّسل؛ لأنَّ المماثَلة بينَهم وبين قومهم مَحسوسَةٌ لا تحتاج إلى تطويلٍ في الاحتجاج[2]، وأسلوب القصْر هنا يَحكي تَعنُّتَهم وغباءهم المَكينَ، فبدَلًا من أن يعتزَّ البشَر باختيار اللّه رسلًا من أقوامهم، فإنّهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مَثار ريبةٍ في الرُّسل المختارين.

موقعُ الجملةِ في البيان:

الأُمم السّابقة تَمتدحُ نفسَها من حيث هي مذمومةٌ

جملة: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ في موضع الحال، أو صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿بَشَرٞ﴾ أو مستأنفَة، وهي قيْدٌ لما دلَّ عليه الحصْر في جملة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، من جحد كونهم رسلًا

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/200.

من اللّه بالدّين الّذي جاءوهم به مخالِفًا لِدينهم القديم[1]، والجملة تحكي طبيعة الجُمود العقليِّ الّذي تَطْبعه الوَثنيّاتُ في عقول أصحابها، فلا يُفكِّرون فيما كان يعبده آباؤهم، وإن كان قصْدُهم المَدْح لحالهم الّتي أصرّوا على عدَمِ تغييرها، فيكونون قد أرادوا أنّها خُلُقُ أسلافهم وأُسوَتهم فلا يَقبَلون فيها عَذلًا ولا ملامًا[2].

صدُّ الرُّسل قومَهُم عن عبادةِ الأوثان يختصُّ بالحجّة والبرهان

نكتةُ التَّعبير بالصَّدِّ دون المنْع:

جاء التَّعبير بمُفرَدة الصّدِّ في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾، والصّدُّ انصرافٌ عن الشّيء وامتناعٌ عنه، وفيه إعراضٌ وصدوفٌ، وفي الصّدِّ هجْرٌ وترْكٌ وسُخريةٌ من الصّادِّ، فالصّدُّ منْعٌ وزيادة، مع دلالة التَّشديد في الفعل (صدَّ)، والتّشديد تَكرارُ عملٍ تِلْو عمل، كما أنَّ الصّدَّ هو منْعُ السّالك من إكمال طريقِه فيما يَراه حقًّا، فيدخل فيه الصَّدُّ المَعنويّ والمادّيّ، وصدُّ الرّسلِ الأقوامَ عن عبادة الأوثان هو صدٌّ معنويٌّ؛ لأنَّه بالحُجَّة والبرهان، بخِلاف صدِّ المشركين عن سبيل اللّه تعالى فهو خليطٌ من الصّدِّ المعنويِّ والمادّيِّ.

الكافر يَرى عقائدَه في خطرٍ عند رؤية أهلِ الحقِّ

نكتةُ استعمالِ المصدَر المؤوَّل دون الصَّريح:

آثَر النَّظْم استعمال المصدر المؤوَّلَ دون الصّريح في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾، وهو يدلُّ على الحدث وزمانِه، فالفعل ﴿تَصُدُّونَا﴾ مع ﴿أَن﴾ بمعنى (صدَّنا)، وهو يدلُّ على حدثِ الصُّدود دون زمانه؛ لوجود الفعل المضارِع الدّالِّ على الحال والاستمرار، فالّذي كرِهَتْه الأقوام من الرُّسل هو ثباتُهم على الدَّعوة إلى دين التَّوحيد والاستمرار على ذلك، الّذي عدّوه صُدودًا عمّا كان يعبد آباؤهم، ثمّ إنَّ من سِمات المصدَر المؤوَّل أنَّه لا يوصَف، فهو يُبْرِز الحدث باعتباره الذّاتيِّ أكثر من أيِّ اعتبارٍ آخَر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/172.

دلالة حذفِ المفعول:

دعوةُ التَّوحيد تَستأصل كلَّ باطلٍ وتأتي على كلِّ وهْمٍ

حُذف مفعول الفعل ﴿يَعۡبُدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، فلَم يَقُل: (يعبده آباؤنا)، وذلك للدّلالةِ على العموم[1] والشمول، بحيث يدخل في الدّلالة كلُّ ما يَعبدُه الآباءُ، فهُم يرَون أنَّ دعوةَ الرّسل قاضيةٌ على كلِّ متعلّقات الآباء ممّا له مَسيس صِلَةٍ بمفهوم العبادة الباطلة، وهذا إيذانٌ منهم بالمفاصَلة بين عبادة آبائهم الباطلة، وعبادة فاطِر السَّماوات والأرض.

فائدة ذِكر ﴿كَانَ﴾:

خلْعُ الباطِل القديمِ أشقُّ في دعوةِ الرُّسل

ضمّن النَّظْم الكريمُ فعل ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ دون أن يقول: (عما يعبد آباؤنا)، لبيان أنَّ هذا شأنهم ودَيْدنُهم الّذي كانوا وما زالوا عليه، فهم يُشيرون إلى عَراقة عبادةِ آبائهم، وأنَّها عِبادة قديمةٌ وما زالت مستمرّةً، وهذا أشَدُّ في رَفْض الأقوام، وأشَقُّ في دعوةِ الرُّسل.

غرضُ التَّعبير عن الدّينِ بالموصوليّة:

أهلُ الباطِل يُعظِّمون الباطل تقليدًا لا تحقيقًا

في التَّعبير عن الدّين بالمَوصوليّة في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ﴾ إشارةٌ إلى تعظيم ما يعبدون وتوقيرِه، فقد يُتَّخَذُ اسم الموصول مع صِلَته ذَريعةً لتعظيم الموصوف به، إذ اتّصافُه بما تضمَّنَته صِلة الموصول من وصْفٍ عظيم، إضافةً إلى أنّ الصِّلة جاءت بالفعل المضارِع ﴿يَعۡبُدُ﴾؛ لبيانِ أنَّ العبادة لَم تَنْقطع البَتَّة، فإذا عَبَد آباؤنا؛ فإنّا مثلهم عابدون، فالعبادة مستمرَّةٌ حاضرةٌ.

فائدةُ صيغة جمْع الآباء:

الآبــاء في الحقيقةِ هم من يُـزيِّـنـون باطلَ المعتقدات

آثَر النَّظم صيغةَ الجمْع في قوله: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ الدّالّ على الكَثرة، وتقادُم الزّمن، فالأمر متوارَثٌ قديمٌ، وليس بحادث، وهذا سرُّ تمسُّكِهم بما كان يَفعله آباؤهم؛ فإنَّ سيطرة العادة على المَرْء أشدُّ

---

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/496.

وأقوى من القوانين المفروضة، ويدلُّ هذا اللَّفظ على دخولِ المُعَلِّم والعالِم؛ فإنَّ الآباء يَسلكون مسالك من يُعلِّمونهم الباطل، فذِكر الآباء لبيان الانتساب إلى القبيلة، وإلّا فالآباء على التَّحقيق هم من نَقَل عِلم مُعَلِّمي الشَّرِّ من خُدّام الأوثان، وفي هذا إلماحةٌ إلى قوَّة أثَر المُعَلِّم في تلميذه.

لَجاجة الخصْم وقــاحــةٌ في المُطالَبة

معنى الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ هي الفصيحة[1]، وهي الّتي تُفصِح عن شرْطٍ مُقدَّر، فكأنهم يقولون: فإن كنتم صادقين في دَعْواكم هذه فأْتوا بسلطانٍ مُبين، والحذْف هنا واشٍ بشِدَّة اللَّجاجة والعِناد، فهم يُطالِبون بسلطان مبينٍ وحُجّة باهرة قاهرة، مع ظُهورِها للعيان.

تعجيز الرُّسل ظنُّ الجهلةِ ومنتهى طموح المكذِّبين

غرضُ الأمر:

الأمر في قوله: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ مشيرٌ إلى تعجيز الرُّسل في ظنِّ الأقوام، أو التَّعنُّت والاقتراح، وإلّا فما أتَوا به من الدّلائل والآيات كافٍ لِمَن استبْصَر، ولكنّهم قَلَّدوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضّلال، وكأنّ ما أتاهم به الرُّسل من حُجَجٍ باهرة تدلُّ على صِدْقهم ليس كافيًا في زَعْم هؤلاء المكذِّبين، بل عليهم أن يأتوهم بحُجَجٍ مَحسوسةٍ أخرى، وهكذا الجحود العقليُّ، والانطماس النّفْسي يحمل أصحابَه على قلب الحقائق، وإيثار طريق الضّلالة على طريق الهداية[2].

بيانُ الرُّسل باهِرٌ، وسلطان إقناعِهم قاهر

نكتةُ إيثار لفظ ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾:

آثَر النَّظْم استعمال لفْظ السّلطان وهو من الفعل (سلط) بمعنى: التَّمكُّن من القَهْر، والسّلطانُ هنا الحُجَّة، وسمّيَت الحُجّة سُلطانًا،

(1) دوريش، إعراب القرآن وبيانه: 5/164.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/530.

وذلك لِما يلْحقُ من الهجوم على القلوب، وكأنَّ السّلطان هو الّذي سَيُصَيّرُهم إلى أهل قَهْر وخُضوعٍ، ولقد كانوا آتَوهم من الآيات الظّاهرةِ والبيّنات الباهرة ما تَخِرّ له صُمُّ الجبال، ولكنّهم إنما يقولونَ ما يقولونَ من العَظائم مكابَرةً وعِنادًا وإراءَةً لَمَن وراءهم أنّ ذلك ليس من جِنس ما يُطلَق عليه السّلطانُ المبين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَطْر والخَلْق:

الفطر إيجادٌ من عَدَمٍ، والخلق تقديرُ الشَّيءِ بعد إيجادِه

الفاءُ والطّاءُ والرّاءُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على فتْح شَيْءٍ وإبْرازِه، من ذلِكَ الفِطْرُ مِنَ الصَّوْمِ[2]، وأصله: الشّقُّ طولًا، يُقال: فطَرَ فلانٌ كذا فطْرًا، وأفْطَرَ هو فُطورًا، وانْفَطَرَ انْفِطارًا، وفَطَرْتُ الشّاة: حَلَبْتها بإصْبعَين، وقيل للكَمْأة: فُطرٌ، من حيث إنّها تَفْطِرُ الأرض فتَخرج منها[3]، فالفَطْر هو الشَّقُّ والحَفْر بقصْد استخراجِ شيءٍ، هذا أصله، وقد استُعمِل في فَطْر السّماوات والأرض في إخراجها من العدَم على غير مثالٍ سابِق.

وأمّا الخَلْق فهو يدلُّ على تَقْديرِ الشَّيْءِ، ومنه: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاءِ، إذا قَدَرْتَهُ، ومن ذلِكَ الخُلُقِ، وهيَ السَّجيَّةُ؛ لِأَنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ[4]، وأصل الخَلْق: التَّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصْلٍ ولا احْتِذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدَعَهما، ويُستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء نحْو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليس الخَلْقُ الّذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى، وأمّا الّذي يكون بالاستحالة، فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال، كعيسى حيْث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110][5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).

(3) الرّاغب، المفردات: (فطر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

(5) الرّاغب، المفردات: (خلق).

فالخَلْق يَغلِب في التَّقدير، هذا أصله، واستعمالُه في خَلْق السّماوات والأرض باعتبارِ إيجادهما مُقدَّرَتين، فالفرْق بين فاطِر وخالِق، أنَّ الفَطْر مَلحوظٌ فيه الشَّقّ والإخراج من عَدَمٍ، وأمّا الخَلْق فملحوظٌ فيه التَّقدير.

التّأجيل والإرْجاء والإمْهال:

التّأجيل تأخيرٌ مع تعيين أجَل، والإرجاء مُطلَق التّأخير

التّأجيل: تأخيرٌ مع ضرْب مُدّة محدَّدةٍ للشّيء، وأصله استيفاءُ الأجَل[1]، والإرجاء تأخيرٌ وقد يكون معه الحَبْس كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36][2]، أمّا الإملاء فأشَدُّ من الإمهال بكثير، لأنَّه يَتَضاعَف به العذاب[3]، ويصاحبه استدراج لزيادة الإثم والخطأ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنّه قد نجا فيؤخَذ بالعقوبة[4].

الصّدّ والمنْع والصّرف:

الصّدُّ منْعٌ مقصود، والمنْع أعمُّ، والصّرف تحوّلٌ عن حالةٍ إلى أخرى

الصّدُّ هو المنْع عن قصْد الشّيء خاصّة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34] أي: يَمنعون النّاسَ عن قصْده، والمنْع يكون في ذلك وغيره، ألا تَرى أنّه يقال: مَنَع الحائطَ عن المَيل، ولا يُقال: صَدَّه عن المَيل؛ لأنَّ الحائطَ لا قصْد له، ويقولون: صدَّني عن لقائك، يريد عن قصْد لقائك[5]، وقد يُراد بالمنْع أن يُمنَعَ الشّخص وحدَه، وبالصّدِّ المنْع العامُّ له ولغيره[6]، أمّا الصّرْف فمنْعٌ وصَدٌّ، لكنّه يَزيد بأنّه تغيُّرٌ من حالةٍ إلى حالة، ومن أمْرٍ إلى أمرٍ؛ كتصريف الرّياح: هو صَرْفها من حالٍ لِحال[7].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/332.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 311.
(6) قليوبيّ وعميرة، حاشيتا القليوبيّ وعميرة: 4/294.
(7) الرّاغب، المفردات: (صرف).

السُّلطان حجَّةٌ قاهرةٌ باهرة، والحُجّةُ دليلٌ مقنِع

السّلطان والحجّة:

الحُجّة سلطان، وقد سمّيَت بذلك؛ لأنّ صاحب الحُجّة يَقهَر مَن لا حُجّة معه عند النَّظَر؛ كما يَقهر السُّلطان غيرَهُ، فلهذا توصَف الحُجّة بأنّها سلطان، قال الزّجّاج: السّلطان هو الحُجّة، والسّلطان سمّي سلطانًا لأنّه حُجّة اللّه في أرضهِ، والسّلطان لا يُجمَع لأنّ مجراه مجرى المصدَر[1]، أمّا الحُجّة فتُجْمع فيُقال: حُجَجٌ، والسّلطان يُذكَّر ويؤنَّث، أمّا الحُجّة فهي على التّأنيث دَومًا، وكلُّ سلطانٍ في القرآن حُجّةٌ[2]، وليسَتْ كلُّ حُجّةٍ سلطانًا، فالسّلطان يُفسَّر بالحُجّة، وليس شَرْطًا أن تُفسَّرَ الحُجّة بالسّلطان.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سلط)، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلط).

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [إبراهيم: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

مُتّكأ الكافرين في إنكار الرّسالات السّماويّة اجتماع الرّسالة مع وصف البشريّة

بعدما رصد القرآن الكريم ذلك التّكذيب الجماعيّ لإنكار اجتماع البشريّة مع الرّسالة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]، فجاءت الآية الكريمة هنا ردًّا على هذا الاستغراب، كأنّها جواب عن سؤال: فما كان جواب الرُّسل؟ فقيل: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَمُنُّ﴾: جذر الكلمة هو (منّ)؛ والمِنّة النّعمة الثّقيلة، فيُقال: مَنَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، والمِنّة في هذه الآية هي ما يَمُنّ اللّه به على أنبيائه ورُسله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤﴾ [الصّافات: 114]، أو ما يمُنّ اللّه به على المؤمنين من نعمة الإيمان، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164]، و﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النِّساء: 94]، و﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [القَصَص: 5]، وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا للّه تعالى. فالمَنّ إشارة إلى الإطلاق بلا عِوَض. وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39]؛ أيّ: أنفقه[1].

2) ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾: جذر الكلمة هو (سلط)؛ السُّلْطانُ: الحُجّة[2]، قال

(1) الرّاغب، المفردات: (منن).
(2) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم: (سلط).

تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقّة: 29]؛ أيْ: حُجّتِيَه. والسُّلْطان: قُدرةُ الملكِ، وقُدرة مَن جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكًا، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطانًا على أخذِ حقّي من فلان[1]. والمعنى في الآية: وما كان لنا أن نأتيَكم بسلطان إلّا بإذن اللّه؛ أيْ: ولسنا مالكين لسلطان اللّه؛ فهو وحده سبحانه مالك سلطان هذا الكون.

3) ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: جذر الكلمة هو: (وكل)؛ والتَّوَكُّلُ: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، واتَّكَلَ على فلان في أمره إذا اعتمده[2]. وهو الاعتماد، وتفويض التَّدبير إلى الغير، ثقة بأنَّه أعلم بما يصلح، فالتَّوكّل على اللّه تحقُّق أنَّه أعلم بما ينفع أولياءَه من خير الدُّنيا والآخرة[3]. والتّوكّل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبًا عنك، والوَكِيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول. قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النّساء: 81]؛ أيْ: اكتف به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّلَ لك، وعلى هذا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: 173][4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تفضيل الرُّسل على جنسهم من البشر مِنّة كبرى من الله، والإيثار بالمِنَن شأن الله في خَلقه

الآية الكريمة تُبيّن ردّ الرُّسل مقالة الكافرين الّتي أجملتها الآية السّابقة ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، والمعنى: أنّ اللّه فضّلنا على سائر البشر بالرّسالة، وهذه مِنّة من اللّه على مَن يشاء من عباده، أن جعلنا أنبياء وكلّفنا بالرّسالة. ولا سبيل لنا أن نأتيَكم بِسُلْطانٍ إلّا بإذْنِ اللّه؛ لأنَّ الأمر بيد اللّه تعالى وحده، وعلى المؤمنين أن يتوكّلوا على اللّه في جميع أمورهم وأحوالهم، ونحن أحوج إلى التّوكّل على اللّه في نُصرة دعوتنا طلبًا لهداية النّاس.

(1) الخليل، العين: (سلط).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وكل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(4) الرّاغب، المفردات: (وكل).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرض التّعبير بأسلوب شبه كمال الاتّصال:

فُصِلَت الآية ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ﴾ عن سابقتها لأنّ بينهما شبه كمال اتّصال؛ فهذه الآية جاءت ردًّا على اتّهام أقوامهم لهم بأنّهم بشر، فهي جواب عن سؤال مُقدّر: بماذا ردّ الرّسل عليهم؟ فبيّنت أنّ الرّسل بشرٌ مثل أقوامهم؛ بل هم مبعوثون من أقوامهم طلبًا لهدايتهم، واللّه يمنّ بالرّسالة على مَن يشاء من عباده، ليكونوا رُسلًا من عنده سبحانه إلى أقوامهم وأُممهم.

في الجواب عن التّساؤلات إزالة للوهم الحاصل

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ﴾ حرف جرٍّ للتّعليل، وتُفيد معنى الاختصاص؛ أيّ: إنّ الاسم الّذي يأتي بعد حرف الجرّ (اللّام) يكونُ مُختصًّا بالحَدَث، مثل قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [ق: 31]. وذكر ابن عاشور: (اللّامُ) الدّاخلة بعد فعل القول في نحو: أقول لك، لام تعليل؛ أيّ: أقول قولي لأجلك[1]. فاختصَّت تلك الأقوام بأقوال رسلهم طلبًا لهدايتهم، كي لا يكون للنّاس على اللّه حُجّة بعد الرّسل.

الرّسالات السّماويّة خطابٌ لأصحاب العُقول

نكتة تقديم شِبه الجملة: ﴿لَهُمۡ﴾:

وتقديم شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ للاختصاص؛ وفائدته قصر الفعل على المُتقدّم ﴿لَهُمۡ﴾، فبيّن هنا اختصاص الأقوام بما قالته الرّسل ردًّا على تعلّاتهم، وإنكارهم على الرّسل بشريّتهم، وتركوا الرّسالة الّتي هي محور المُحاججة والخطاب، فقوله: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ﴾ مجاراة معهم في أوّل مقالتِهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمۡ﴾ لاختصاص الكلام بهم؛ إذْ أُريد إلزامُهم، بخلاف ما سلف من إنكار وقوعِ الشّكِّ في اللّه سبحانه؛ فإنّ ذلك عامٌّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه[2].

كلّ رسول يكون نذيرًا لقومه خاصّةً؛ فهو أعرف النّاس بهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.

غرض عود الضّمير في: ﴿لَهُمْ﴾:

المُخاطَب الأوّل بالرّسالة هم الّذين عاصروا الرّسول

الضَّمير في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عائد على أهل القُرى الّتي كذّبت الرّسل وهم: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: 9]، فقد جمعتهم قضيّة واحدة هي أساليب تكذيبهم، وطريقة الإنكار على الرّسل، فهم لم يُنكروا عليهم الرّسالة، وإنّما أنكروا أحقيّة الرّسول بالرّسالة، فقد أنكروا عليهم بشريّتهم.

الفرق بين نظم آية ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ وسابقتها:

الخطاب للمكذّبين من النّاس والخطاب لعمومهم

وقف ابن عرفة على الفرق بين نظم الآيتَيْن: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، والّتي سبقتها: ﴿۞قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ [إبراهيم: 10]؛ إذ ذَكَرَ وجهًا للتَّفرقة بينهما: هو زيادة ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، فهذه قيلت خاصّةً بالمُكذّبين من أقوامهم؛ فهي جواب عن كلامٍ صدر منهم، والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم؛ أيْ: للمُصدِّقين والمكذِّبين. فهو خطاب لعموم الأقوام، كما أنّ وجود اللّه أمر نظريٌّ لِمَن خوطب أوّل مرّةٍ بالرّسالة والإيمان، فكان كلام الرُّسل في شأنه خطابًا لعموم أقوامهم، وأمّا بعثة الرّسل فهي أمرٌ ضروريّ ظاهرٌ بيّنٌ أمامهم، لا يحتاج إلى نظرٍ وتفكّر، فكأنّه قال: ما قالوا هذا إلّا للمكذِّبين لغباوتهم، وجهلهم لا لغيرهم(1).

سرّ إضافة الرّسل إلى ضمير أقوام:

الرّسل من جنس أقوامهم فذلك أدعى لتصديقهم

في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ أضاف (الرسل) إلى ضمير أقوامهم لبيان قُربهم إليهم، وأنّ أولئك الرّسل قد نشأوا مع أقوامهم، ويعرفونهم ويعلمون صدقهم ويعلمون صلاحهم، فيكون ذلك حجّة دامغة على الأقوام، وهذا من مقاصد القرآن في بيان أنّ اللّه يرسل الرّسل من الأقوام نفسها؛ ليكون الرّسول عالِمًا بلسان قومه، فيكون ذلك أنسب للبلاغ.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/444، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/201 - 202.

نكتة التّعبير بالقصر ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

المُنكِرون يخاطَبون بأقوى الأساليب في حمل المعاني للمُخاطب

جاء القصر بطريق النّفي والاستثناء تناسبًا مع ما جاء في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10] في الآية السّابقة، والقصر بطريق النّفي والاستثناء يكون فيما يُنكره المخاطَب، أو ما يُنزّل منزلته، والّذين كفروا نزّلوا المرسلين منزلةَ المُنكِرين؛ لاستعظام أن يأتي بشرٌ مثلهم برسالة من عند اللّه. فجاء ردّ الرّسل مقالتهم بالأسلوب نفسه، فالأنبياء بيّنوا أنّ التّماثل في البشريّة والإنسانيّة لا يمنع من اختصاص بعض البشر بالنّبوة؛ لأنّ النّبوّة من أعظم ما يَمُنُّ اللّه به على مَن يشاء من عباده[1].

نكتة الاقتصار في الخبر ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾:

البشريّة هي المشترك بين الرّسل وأقوامهم

قوله: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تسليم لقولهم ومسايرة لهم، وأنّهم بشر مثلهم، يعنون أنّهم مثلهم في البشريّة وحدها، فأمّا ما وراء ذلك فليس كذلك، فهم أنبياء مصطَفَون، ولكنّهم لم يذكروا فضلهم تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ بالنّبوّة؛ لأنّه قد علم أنّه لا يختصّهم بتلك الكرامة إلّا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد أوثروا بها على أبناء جنسهم[2].

غرض تنكير الخبر ﴿بَشَرٞ﴾:

العبرة تكون بالرّسالة لا بأشكال الرّسل وبَشريّتهم

وردت ﴿بَشَرٞ﴾ هنا مُنكّرةً، وقد خرج التّنكير إلى معنى التّهوين والتّحقير؛ إذ ليس من شأن البشر أن يدّعوا خبر السّماء، فردّ عليهم أنبياؤهم بأنّهم بشرٌ من باب المُجاراة، ولكنّهم اختُصّوا بالوحي.

سرُّ تقييد الخبر ﴿بَشَرٞ﴾ بوصف ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾:

جاء القيد في الآية ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُطابقًا للقيد في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/74.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/511.

مطابقة الـرّدّ لـلاعـتراض من أبلغ المناسبة

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، لتمام الجواب والإحاطة بما جاء في الاعتراض والتّكذيب استيفاءً للحُجّة، وإفحامًا للخَصْم، ببيان أنّ ما يرونه علّةً مانعةً هو وصف محقّق للبلاغ، وفي ذلك تأكيدٌ لنفي كون البشريّة مانعًا من الرّسالة، بل التّماثل أوْلى بالبلاغ وأنفى للالتباس، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

النّعمة كلّها في اصطفاء الرّسل من البشر للبشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ نجد أنّ الواو عاطفة، للجمع بين المعطوف والمعطوف عليه في حُكم واحدٍ، فلمّا ذكر المماثلة في البشريّة جمع معها المِنّة من اللّه، وهي مخالفة الآخرين بمزايا كثيرة، فمنهم مَنْ مَنَّ اللّه عليهم بالرّسالة والنّبوّة، ومنهم مَنْ مَنَّ اللّهُ عليهم بصُحبة الرُّسل والإيمان بهم، ومنهم مَنْ مَنَّ اللّه عليهم بالإيمان الصّادق واليقين دون الصّحبة، والمِنّةُ المخصوصة في الآية هي منّة الرّسالة والنّبوّة، وهي أعظم مِنن اللّه على عباده، فجَعَلت منهم أنبياء ورُسلًا.

غرض الاستدراك بالجملة الاسميّة ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾:

المِنّة بالرّسالة من الله وحده لأمـورٍ هو بها عليم

في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ جاءت أداة الاستدراك من بعدها جملةً اسميّةً، قدّم المُسند إليه على خبره الفعليّ، والمُسند إليه هو الاسم الجليل لتربية المهابة، وإشعارًا بعِظَم المِنّة، وجاء الخبر بالجملة الفعليّة لإفادة الاختصاص وتأكيده، وتقويةً للمعنى، وذلك يأتي من تكرار الإسناد؛ فالجملة الفعليّة أُسندت للمُسنَد إليه، والفعل فاعله ضمير مستتر يعود على الاسم الجليل، فكأنّه قيل: اللّهُ يمُنّ اللّهُ يمُنّ، وفي كلّ ذلك تعظيم لقدر هذه المِنّة.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَمُنُّ﴾:

التّعبير بالمضارع في موضع الماضي دلالة على تجدُّد النّعمة، وإيماء إلى امتداد آثارها، ومعاملة الآثار معاملة المؤثّر في الحضور الدّائم والتّأثير البالغ الّذي يظهر في الأجيال المتتابعة، فليست المنّة بالنّبوّة، والرّسالة مقتصرة على أزمنة الرُّسل لكنّها سارية ممتدة، وهذا ما يهدي إليه استخدام المضارع عكس الماضي الّذي يدلّ على مُضيّ الوقت وانتهاء الحدَث، وهو ممّا لا يليق بسياق السّباق ولا اللّحاق، فالفعل المضارع يفيد الاستمرار والتّجدّد، فمِنَّة اللّه تعالى على عباده مُستمرّة إلى يوم القيامة، فالمضارع يدلُّ على الحال والاستقبال[1]، إذ يشترك فيه الحاضر والمستقبل[2].

من شُكر المِنّة استحضارُها دائمًا وتجدُّد ذِكرها حالًا ومقالًا

سرُّ التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ﴾:

يدلّ الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ على الاستعلاء حقيقة كان أم مجازًا، وهو هنا في قوله: ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كاشف لفضل اللّه ومُفسّرٌ لمنّته التّامّة على عباده؛ إذ هو فضل اللّه في ذلك كلّه، ولا فضل لأحدٍ في ذلك غير فضل اللّه ومنّته على خلقه. والآية من قبيل الاستعلاء المجازيّ، فكأنّ المنّة عَلَت على مَن يشاء اللّه من عباده، فهي كالظُّلّة لهم، تصاحبهم بفضل اللّه ومِنّته.

المِنّة مظلّة رحمةٍ عالية من الله لعباده المؤمنين

نكتة التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَن﴾:

أفاد الموصول في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ التّعميمَ؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فُصّلت: 30]، و﴿مَن﴾ اسم موصول يختصّ بأولي العلم، وهو للمُفرد والمُثنّى والجمع والمُذكّر والمُؤنّث، فيكون في إيراده في هذا المقام دلالة شمول مِنّة اللّه على جميع عباده المؤمنين.

المِــنَنُ الإلـهـيّـة شاملةٌ لعموم أهل الإيمان

---

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 2/2.

(2) الزّمخشريّ، المُفصّل: 2/137.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَشَآءُ﴾:

فائدة الفعل المضارع التّجدُّد والاستمرار، وفائدة الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ بيان شمول المشيئة الإلهيّة لجميع الأزمنة في المِنّة والاختيار، والتّقدير: فلا يكون شيء إلّا بمشيئته واختياره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68]، وفائدة الفعل المضارع ﴿يَشَآءُ﴾ في هذا الخطاب إطماعُ المُخاطَبين بفضل اللّه تعالى ومِنّته؛ وفيه ردّ الأسباب إلى اللّه، وليس كلّ أمر تتبيّن أسبابه.

مـنّـة الـلـه على عباده المؤمنين لا تنقطع إلى قيام السّاعة

دلالة حرف الجرّ في: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾:

الرّاجح أنّ ﴿مِنۡ﴾ هنا للتَّبعيض، فاللّه تعالى يختصّ بعضًا من عباده ليمُنّ عليهم بالهداية والعلم والرّسالة والنّبوّة، وذُكر في (المُقتَضَب) أنّ كونها للتّبعيض راجع إلى ابتداء الغاية[1].

اصطفاء الرُّسل خاضع لمشيئة الله لبعض عباده

سرُّ إضافة (عباد) إلى ضمير العظمة: ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾:

أضاف لفظ (عباد) إلى ضمير العظمة لفائدة قرب النّاس من اللّه سبحانه فهو خالقهم وهم عباده؛ فإمّا أن يكونوا عبادًا طائعين، وإمّا أن يكونوا عبادًا عاصين. و(عباده) هنا بمعنى خلْقه الّذين خَلَق؛ فيُنعم على مَن يَشاء من عباده بالنُّبوَّة، وَقيل: بالتّوفيق والهدايَة[2]، وفي الإضافة تشريف وتعظيم لشأن العبوديّة للّه.

إضافة العبوديّة للضّمير العائد على الاسم الجليل تشريف

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ عاطفة للجمع؛ إذْ جمعت بين منّة اللّه تعالى على عباده من الأنبياء بإرسال الرّسالات وفضله عليهم، فعطف عليها ما يؤكّد هذه المنّة من كون حُجج الرّسالات وحيًا من اللّه لا اجتهادًا فرديًّا منهم، فهم مُبلِّغون.

الحُجج وحيٌ من الله وليست اجتهادًا فرديًّا

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 1/44.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/107.

سرُّ التّعبير بالكون المنفيّ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

التّركيب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أفاد نفي الماضي والحال والاستقبال، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان عن نفسه، أو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره؛ فمعناها: النّهي والحظر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه، فمعناها نفي ذلك الأمر جملةً، وكذا هي في الآية، قال المهدويّ: "لفظها لفظ الحظر، ومعناها النّفي"[1]؛ والمعنى: لم يكن في أصل خلقتنا أن تكون لنا قدرة على أن نأتيَكم بمعجزات تقترحونها، فما نحن إلّا بشرٌ مثلكم، فاللّه تعالى خلقنا بشرًا كما خلقكم بشرًا، وإنّما المعجزات هي أفعال للّه تعالى، فلن تجدوا منّا من خوارق الأمور إلّا بإذنه سبحانه.

خلق الله الرّسل بشرًا كما خلق أقوامهم، والمعجزات هي أفعال لله وحده

معنى اللّام في قوله: ﴿لَنَآ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ (اللّام) لام الملك، وفائدتها التّأكيد على عدم امتلاك القدرة على الإتيان بالحُجج والمعجزات من غير إذن، وليس بمقدور المُرسَلين أن يأتوا بالمعجزات من تلقاء أنفسهم.

المعجزات أفعال لله يختصُّ بها وحده دون غيره

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَآ﴾:

وتقديم شبه الجملة ﴿لَنَآ﴾ للاختصاص؛ أيْ إنّه قصر المُسنَد إليه على المُسنَد المُتقدّم، ونفيُ العبارة أفاد أنّهم اختصّوا أنفسهم بالعجز عن الإتيان بالمُعجزات، فجعلوا من أنفسهم أنموذجًا وقدوة لعجز البشر؛ وهم رسُلٌ من عند اللّه فكيف بغيرهم؟

نَفيُ الرّسل عن أنفسهم أفعال الله فهو وحده القادر

دلالة (أنْ) في قوله: ﴿أَن نَّأْتِيَكُم﴾:

تدخل (أنْ) على الفعل المضارع فتصرفه إلى الاستقبال؛ والمعنى هنا: وما كان لنا لنأتيكم؛ فـ ﴿أَن﴾ هُنا أفادت التّعليل، وتُعرَب مع ما بعدها على أنّها مصدر مؤوّل اسم كان، وهي كثيرة في القرآن الكريم،

لم يودِع اللهُ في البشر قدرة الإتيان بالمعجزات؛ بل اختصّ نفسه بها

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/329.

وجاء في (المُقتَضَب) أنّها تكون علّة لوقوع الشَّيء[1]؛ أي إنّ علّة عدم إتياننا بما اقترحتموه من المعجزات أنّ اللّه لم يودِع فينا تلك القدرة، فما نحن إلّا بشر مثلكم، قد مَنّ اللّه علينا بالرّسالة والهداية.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾:

نفي الرّسل قدرتهم على الإتيان بالمقترحات المُعجزة حاضرًا ومستقبلًا

التّعبير بصيغة المضارع ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾ لإفادةِ التّجدّد في إمكان حدوث الحدَث، فلمّا سُبق بالتّركيب: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ دلّ على نفي تجدّد واحتمال أن نأتيَكم مستقبلًا؛ فلن يكون منّا، ولا من رسول بعدنا أن يأتيَ قومه بآية من عند نفسه؛ إنّما هي أفعال اللّه تعالى يقدّرها متى شاء وأين شاء.

معنى الباء في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾:

معجزةُ الله جاريةٌ على يد مَن يُكلّفه بتبليغ الرّسالة

(الباء) في جميع أحوالها تُفيد الإلصاق، قال سيبويه: "وباء الجرِّ إنّما هي للإلزاق والاختلاط"[2]، وجاء في المُقتَضَب: "وأمّا الباء فمعناه: الإلصاق بالشَّيء"[3]، فقوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾ من الإلصاق المجازيّ؛ إذِ المعنى التصاق السُّلطان أوِ المعجزة بالقائلين، وفائدة ذلك، أنّ المعجزات إنْ أذن بها اللّه فهي قريبة جدًّا منهم ملتصقة بهم، وسائرة على أيديهم، وأمّا إن لم يأذن بها اللّه فلا يكون شيء من ذلك قطعًا.

غرض تنكير ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾:

السُّلطان الهيمنة والقدرة على تغيير نواميس الكون

فائدة التّنكير لكلمة (سلطان) في قوله ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾ هو التّعظيم لشأن المعجزة وما طلبوه واقترحوه منها؛ إذ لا يكون ذلك إلّا بإذنه سبحانه، والسّلطان يقتضي الهيمنة والقُدرة على تغيير نواميس الكون بحسب مشيئة الخالق لها؛ ولا أحد يملك مفاتيح

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 3/214.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(3) المبرِّد، المُقتضب: 4/142.

الخَلْق ولا مقاليد السّموات والأرض إلّا اللّه ﷻ، وهذا هو السّلطان الّذي معناه تغييرٌ لبعض نواميس الكون، فيظهر شيئًا خارقًا للعادة وللسُّنن الكونيّة.

معنى الباء في قوله: ﴿بِإِذۡنِ﴾:

(الباء) في جميع أحوالها تُفيد الإلصاق، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ من الإلصاق المجازيّ، والمعنى بأمر اللّه؛ فلا يكون شيءٌ ممّا اقترحتموه إلّا بأمر اللّه، فحدوث ذلك ملتصق بإذن اللّه تعالى في ذلك؛ و﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ تعني: بإرادته سبحانه في تغيير بعض نواميس الكون، يراه بعض النّاس في آية ماديّة، ثمّ تتناقلها الأخبار، وتحتفظ بذِكْرها الكتب السّماويّة؛ كدلالة على صدق الرّسل في رسالاتهم، وتأييد اللّه لهم.

الإتيان بالمعجزات ملتصق بإرادة الله سبحانه

سرُّ الإضافة إلى لفظ الجلالة في: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّـهِۚ﴾:

الإضافة نسبة اسم إلى اسم آخر، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ نسبَ الإذن إلى اسم اللّه الأعظم، فتعرّف المضاف بالمُضاف إليه، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ عمومًا تعني مشيئته سبحانه؛ والمشيئة تقتضي القُدرة، والقُدرة تقتضي القيّوميّة، وهكذا تتواصل أسماء اللّه وصفاته جميعها لتضمن إظهار عظمة قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ في إقامة سلطانه وإظهار وبيان معجزاته وآياته، لتكون أدلّة على وحدانيّته سبحانه.

معنى (بِإِذْنِ اللّه) تقتضي قدرة خارجة عن قدرات البشر

غرض القصرِ ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾:

عبّر بالقصر بطريق النّفي والاستثناء - وهو أقوى طرق القصر - للرّدّ على مُنكري اجتماع البشريّة مع الرّسالة، واصطفى أقوى الطّرق لكونها تأتي فيما يُنكره المخاطَب، فالغرض من التّعبير تمكين المعنى وتقويته، للتّأكيد على أنّه مع التّماثل في البشريّة ميّزتهم المنّة بهذه الخصوصيّة، فكما خصّهم اللّه بالرّسالة خصّهم بالحُجّة بإذنه.

لا حُجّة لأحدٍ من الرّسل المُكلّفين إلّا بإذن الله

بيان عظيم التّوكّل على الله ﷻ

معنى الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

عُطف قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وذلك تبيّينًا لمّا سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين؛ أنّه ليس ذلك إليهم، ولكنَّه بمشيئة اللّه، وليس اللّه بمُكرَه على إجابة مَن يتحدّاه[1]، فإنْ أيَّدَنا اللّه بالسّلطان فذلك حجّة على النّاس، وإلّا فإنّ اللّه قد مَنّ علينا بالإيمان، وفضّلنا على غير المؤمنين.

اللّه وحده ناصر عباده المؤمنين على أعدائهم

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مُؤذِن بالحصر؛ وأنّهم لا يرجون نصرًا من غير اللّه تعالى فهو ناصر المؤمنين سبحانه، وفيه إيماء إلى أنّهم واثقون بنصر اللّه. والجملة معطوفة بالواو عطفَ الإنشاء على الخبر[2].

لفت النّظر إلى عظيم شأن التّوكّل على الله

نكتة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أظهر البيان القرآنيّ لفظ الجلالة في موضع الإضمار؛ فلم يَقُل: (وعليه فليتوكل المؤمنون)، وفائدة ذلك الاهتمام ولفت النّظر إلى عظيم شأن التّوكّل على اللّه سبحانه، ولذلك فإنّ الرّسل هم أكثر النّاس وأصدقهم توكّلًا على اللّه تعالى؛ لأنّهم المَثَل الأعلى للنّاس في ذلك؛ وهذه واحدة من المِنَن الإلهية عليهم، فالتّوكّل على اللّه هو دأب المؤمنين، وهو السّبيل إلى فوزهم ونجاتهم.

التّوكّل على اللّه مفتاح النّصر والتّمكين لعباده المؤمنين

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

والفاء في قوله ﷻ: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لجملة (لِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ) بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشّرط الّذي يدلّ عليه المقام. والتَّقدير: إنْ عجبتم من قلّة اكتراثنا بتكذيبكم أيّها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيّها المؤمنون؛ فليتوكل المؤمنون على اللّه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.

فإنّهم لن يضيرهم عدوّهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23][1].

معنى اللّام في: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

الأمر أفاد تثبيت النّفوس المؤمنة بمعية الله وعنايته

و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر. وقرأها الجُمهور ساكنةً، وقرأها الحسَن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها. وتسكينها طلب التّخفيف؛ ولكثرة استعمالها وللفرق بينها وبين (لام كي) الّتي ألزمت الحركة إجماعًا[2]. فجاء الأمر بالتّوكّل على اللّه سبحانه؛ لأنّه لا ملجأ إليهم إلّا اللّه سبحانه والتّوكّل عليه، والتّعبير بالمضارع المُقترن الأمر لإفادة التّنفيذ العاجل وجعله حاضرًا، فاللّام جعلت للأمر سبيلًا وشبحُ الفعل المضارع بدلالته الحاليّة ماثل فيها أيضًا، وهذا فضل التّعبير بالمضارع المُقترن بلام الأمر على التّعبير بالأمر مباشرة، والمعنى: اجعلوا التّوكُّل حاضرًا.

الغرض من التّعبير بالجملة الإنشائيّة:

التّوكّل على الله استعدادًا للثّبات واليقين والمواجهة

الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ للاستئناف، لا للعطف كما زعم بعضهم، وفائدة الاستئناف هنا أنّ هذا المعنى جدير بالتأسيس؛ فهو معنى مستقلّ جارٍ في كل شئون الحياة، وهو هنا كأنّه جار مجرى المثل، لبيان أنّ حياة المؤمن على التّوكّل على اللّه تعالى.

معنى (ال) في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

التّوكّل على الله توفيقٌ ومِنّة منه ﷻ

في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تفيد (ال) التّعريف الاستغراقَ لكلّ مَن اتّصف بالإيمان؛ لأنّ غير المؤمنين لا يتوكّلون على اللّه، فهم غير مؤمنين بقدرته سبحانه، فخصّ جماعة المؤمنين بالتّوكّل عليه، وتلك مِنّةٌ عُظمى منه سبحانه أن وفّقهم إلى التّوكل عليه، والاستعانة به سبحانه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.

غرض تقديم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

التّوكّل الحقّ ما كان على الله وحده دون غيره

قدّم البيان القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ للاختصاص، تأكيدًا على أنّ الجدير بوصف التّوكّل، هو مَن كان توكّله على اللّه وحده لا غيره، فهو الفرد الصّمد المقصود بقضاء الحوائج.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآية والسّلطان والبرهان:

السّلطان هو عظيم شأن الله وقدرته بأن يأتي بالمعجزات والآيات والبراهين

السُّلطان قوّة اليد في القهر للجمهور الأعظم، وللجماعة اليسيرة أيضًا، يُقال: الخليفة سلطان الدُّنيا، يُقال لأمير البلد: سلطان البلد، ولا يُقال له: ملك البلد؛ لأنَّ المَلك هو من اتسعت مقدرته على ما ذكرنا، فالمُلك هو القدرة على أشياء كثيرة، وقيل: السُّلطان المانع المُسلّط على غيره من أنْ يتصرَّف عن مراده، ولهذا يُقال: ليس لك على فلانٍ سلطانٌ فتمنعه من كذا[1]. والسّلطان في سياق الآية بمعنى القادر على التّحكّم بنواميس الكون وسُننه. فيأتي بالآيات الّتي يطلبونها، أو يقترحونها. وهو عظيم شأن اللّه تعالى وقدرته بأن يأتي بالمعجزات والآيات والبراهين، فعبّر بلفظ (سلطان) وأراد قدرته في تغيير نواميس الكون وإظهار الآيات، أمّا الآية فهي المعجزة نفسها، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59]. أمّا البرهان فلا يكون إلّا قولًا يشهد بصحّة الشّيء، والبرهان ما يقصد به قطع حُجّة الخصم، ومنه البُرهة؛ وهي القطعة من الدّلالة، ولا يُعرف صحة ذلك[2].

نكتة التّعبير في: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

القول (إن شاء الله) يكون لطلب إنجاز عمل بأنفسنا

استخدام كلمة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 70] تكون عندما نقوم بأنفسنا بعمل حاجةٍ ما، أو نتدخَّل بإنجازها بأنفسنا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 282.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.

لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23 - 24]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾ [البقرة: 70]، فقالوا: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 70]؛ لأنّهم هم الفاعلون، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: 69]، وغيرها كثير في القرآن.

القول (بِإِذْنِ اللّه) يكون لعملٍ بتدبير الله تعالى

أمّا كلمة ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ فتكون لعمل ليس لنا أيُّ تدخُّلٍ أو يَدٍ فيهِ؛ بل هو بتدبيرٍ خارجٍ عن إرادتنا كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 97]، فإنزال القرآن على رسول اللّه ﷺ ليس له دخلٌ أو يدٌ فيه؛ بل هو فعلٌ من أفعال اللّه، وكقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 249]، فيظهر هنا انتصار القلّة على الكثرة بتدبير إلهيّ، وإلّا فالمنطق يقول: إنّهم يهزمون. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 102]، فالسّحر لا يضرّ النّاس إلّا بقضاء اللّه وإذنه.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: 12]

من نعم الله الكبرى توفيقُ الله عباده للتوكّل عليه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآية الكريمة استكمالٌ لجواب الرّسل المذكور في الآية السّابقة فـ(ما) هنا تتميم للمعنى السّابق "لمّا بيّنوا وجه المفارقة، عطفوا عليه بيان العُذر فيما طلبوه منهم؛ فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبُلَنَاۚ﴾: جَذْر الكلمة (سبل)؛ السّبيل: الطّريق، وما وضح منه، يُذكَّر ويُؤنَّث، وسبيل اللّه طريق الهدى الّذي دعا إليه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]؛ أيّ: في الجهاد وكلّ ما أمر اللّه به من الخير فهو من سبيل اللّه؛ أيّ: من الطُّرق إلى اللّه واستعمال السّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنّه السّبيل الّذي يقاتل فيه على عقد الدِّين، وقوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ أيّ: هدانا الشّرائع الّتي أنزلها اللّه إلينا مُضمّنة في الرّسالات السّماويّة.

2) ﴿ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾: جَذْر الكلمة هو (أذى)؛ وآذاه يؤذيه أذًى وأذاةً وأذِيَّة[2]، وهو ما يصل إلى الكائن الحيّ من الضّرر، إمّا في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته للإنسان دنيويًّا كان أو أُخرويًّا، قال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ [النّساء: 16]؛ إشارة إلى الضَّرب[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/176.
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أذى).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذى).

۞ المَعنى الإجْمالِيُّ:

التّوكّل على اللّه عقيدة وهي دعوة إليه سبحانه

يُقرّ الرّسل ﵈ بأنّ اللّه سبحانه قد تفضّل عليهم وهداهم للإيمان، وأنّ التّوكّل على اللّه يقتضي الصّبر والمرابطة على كلِّ أذى يمكن أن يواجههم، وتُختم الآية بأنّ التّوكّل على اللّه مطلوب من كلّ المؤمنين به.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ﴾:

التّوكّل على الله والدّعوة إليه مطلب المؤمنين جميعًا

الواو هنا عاطفة، والوصل بين الجملتيْن من قبيل عطف الجملة الإنشائيّة على الإنشائيّة، فعطف الجملة الاستفهاميّة: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ على جملة الأمر: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فبعد أن دعت الأولى إلى التّوكّل على اللّه، جاءت الثّانية مُنكِرةً على مَن لا يتوكّل على اللّه، ليُعلم أنّ التّوكّل على اللّه عقيدة دينيّة، وهي مطلب للرّسل والمؤمنين من بعدهم.

غرض الاستفهام ﴿وَمَا لَنَآ﴾:

ترك التّوكّل على الله مثار للعجب، ومدعاة للإنكار

في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ استفهام إنكاريّ على مَنْ تَرَكَ التّوكّل على اللّه من المؤمنين، وجاء الأسلوب عن نفي الصّارف بطريق الكناية، وهي قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ وهي أبلغ من التّصريح، و(ما) للسُّؤال عن السَّبب والعُذر، و(أنْ) على تقدير حرف الجرِّ؛ والمعنى: أيُّ عذرٍ لنا في عدم التّوكّل عليه سبحانه؟[1] فالاستفهام إنكارٌ لترك التّوكّل على اللّه؛ إذْ أوقفتهم الرُّسل على جهة التّعجيب والتّوبيخ، وبيان سبب عدم التّوكّل على اللّه سبحانه، وهو المُنعم عليهم الهادي لهم إلى طريق النّجاة، الّذي فضّلهم على خلقه بأعظم نعمة، وهي نعمة الإيمان، وطريق هذا الإنكار هو نفي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/187.

الصّارف عنه بطريق الكناية، فهو أبلغ من التّصريح بالأمر بالتّوكّل، ثمّ أقسموا أن يقع منهم الصَّبر على الإذاية في ذات اللّه تعالى[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَنَآ﴾:

التّعجيب من حال مَن لا يتوكّل على الله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي لام التّعجيب، وهي تدخل على المُتعجَّب منه صلة لفعل مُقدَّرٍ قبله، والمعنى هنا: اعجَبوا إن لم نتوكّل على اللّه. فلن يكون من المؤمنين إلّا التّوكّل على اللّه سبحانه؛ فهذا دأبهم، وفيه تنشيط هممهم، ففي التّوكّل عليه سبحانه أسباب النّصر والنّجاح، وسكينة النّفوس، وهو دليل الهداية، لذلك أردفها قوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

نكتة إضمار فاعل ﴿نَتَوَكَّلَ﴾:

التّوكّل على الله وحده نتاج الإيمان وعلامته

أفاد إضمار فاعل ﴿نَتَوَكَّلَ﴾ جمع المؤمنين، فلو قال: (نتوكّل نحن) لأفاد تخصيص أنفسهم، لكنّه أضمر لفائدة شمول المؤمنين جميعًا بقضيّة التّوكّل على اللّه سبحانه، فأصبحت قضيّة التّوكيد جزءًا من رواسخ الإيمان، وهو نتاجه وعلامته.

بلاغة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

بيان النّشاط بالتّوكّل على الله سبحانه

والإظهار لبيان النّشاط بالتّوكّل عليه سبحانه والاستلذاذ باسمه تعالى وتعليل التّوكّل ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾؛ أيْ: والحال أنّه سبحانه قد فعل بنا ما يوجب ذلك، ويستدعيه حيث هدانا سُبُلَنا؛ أيْ: أرشد كلًّا منّا سبيله، ومنهاجَه الّذي شرَعَ له، وأوجب عليه سلوكه في الدّين[2]. فأيّ عذر لنا في ألّا نتوكّل عليه؟ وحيث كانت أذيّة الكفّار ممّا يوجب القلق والاضطراب القادح في التّوكّل[3].

---

(1) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/187.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/306.

معنى الواو في قوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا﴾:

المؤمنون بتوكّلهم في أجَلِّ حالٍ وأحسنِهِ

في قوله عزَّ من قائل: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ (الواو) عاطفة؛ أو هي واو الحال الّتي تدخل على جملة سواء أكانت فعليّة أم اسميّة، وبشرط أن تكون هذه الجملة مسبوقة في الكلام باسم معرفة، وواو الحال تتضمَّن معنًى ظرفًا زمانيًّا. فالمعنى في الآية: وما لنا ألّا نتوكّل على اللّه في الوقت الّذي قد هدانا سبلنا، فهي تُبيِّن حال المؤمنين وهم في أجلِّ وأحسن حال من الهداية وطاعة اللّه؛ إذ تجسّد رضاء اللّه عنهم، وعن مسلكهم في هذا التّوكّل عليه سبحانه والهداية إلى السُّبُل باتّباع شرائعهم الّتي ارتضاها لهم.

دلالة دخول (قد) على الماضي ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا﴾:

تحقّق هداية الله تعالى لعباده المؤمنين

تفيد (قد) التَّحقيق والتَّوكيد إذا دخلت على الفعل الماضي المثبت، فالهداية قائمة مُحقّقة، وذلك بمَنّه عليهم سبحانه بالشّرائع والتزام الهدى باتّباع تلك الشّرائع.

نكتة الإضافة إلى الضّمير في ﴿سُبُلَنَاۚ﴾:

سبيل الهداية هو قرار الإنسان ومستوعب طموحه

إضافة السُّبل إلى ضمير المتكلّمين (الرّسل) أفاد معنى أنّ سبيل الهداية هو السَّبيل الّذي يتحقّق معه الانسجام والقرار، فمثله كمثل القرار للإنسان، والمستوعب له ولطموحاته، فهو الشّريعة وأساليب تطبيقها بما يحقّق رضا الإله سبحانه وفائدة الإضافة أنّ المُتكلّمين - وهم الرّسل - أهل الشّرائع والرّسالات السّماويّة، الّتي لا يكون تطبيقها إلّا من خلالهم، فهم أهل هذا السّبيل وتلك الشّريعة، وهم القدوات في المسلك.

سبب جمع (سبيل) في: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾:

لكلِّ رسولٍ من رسل الله شريعته ومنهاجه

في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ جَمَع البيان القرآنيُّ السُّبُل، بينما تقرّر في أكثر من موضع أنّ طريق الهدى واحدة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن

﴿سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153]؛ وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾ [المائدة: 48]؛ فلكلِّ رسولٍ طريقٌ باعتبار شريعته وأحكامه(1). فالآية جمعت (السُّبُل) باعتبارها الشّرائع، فلكلِّ رسولٍ شريعة سمّاها بالسّبيل، على طريق الاستعارة.

غرض الاستعارة في ﴿سُبُلَنَاۚ﴾:

تنزّلت الشّرائع الإلهية لهداية النّاس وفلاحهم

معنى السُّبل في قوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ الشّرائع الّتي توزّعت على الرّسل ﷺ، فالمعنى: وقد هدانا شرائعنا الّتي هي كالسُّبل للنّاس يهتدون إلى مطلبهم ومُبتغاهم، فحَذف المشبّه وهي الشّرائع، وذَكَر المُشبّه به، وهي السُّبل فالاستعارة تصريحيّة، والاستعارة أصليّة لأنَّها حصلت في اسم جامد.

معنى الواو في ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

النّصر والتّمكين مطلبٌ صعبٌ يقتضي الصّبر على الأذى

(الواو) استئنافيّة؛ إذ تدلّ على بدء فصل طويل من المجاهدة والصّبر والثّبات، لأنّ النّصر لا يكون بالأماني، وراحة المُقام، والتّشبّث بالدّنيا، فالنّصر لا يكون إلّا بالجهاد والصّبر والثّبات، والتّوكّل بعد الإيمان بأنّ النّصر آتٍ لا محالة، وأنّ النَّصر بيد الله سبحانه.

دلالة اللّام في ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

إصرار الرّسل على التّوكّل والصّبر وكمال العزيمة

في قوله سبحانه: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾ دخلت لام القَسَم على الفعل المضارع المؤكّد (نصبرنَّ)، وهي تفيد التَّوكيد والإصرار على التّوكّل والصّبر على ما سيُلاقون جرّاء ذلك من الإيذاء، فقالت الرّسل على سبيل التّوكيد القسميّ، مُظهرين كمال العزيمة: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾؛ أيّ: من الكلام السّيّئ والأفعال المؤذية.

نكتة توالي المؤكّدات في ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

توالت المؤكِّدات وهي: (لام القسم) و(نون التّوكيد الثَّقيلة)

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/444.

مضافًا إليها الفعلُ المضارع الّذي يُفيد التّجدّد فيظهر كمال العزيمة وينسجم ذلك مع قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ بما فيه من اهتمام بالتّوكّل عليه سبحانه لأنّ مقام الدّعوة يقتضيه، ولذا أعيد ذِكْره[1]، فتوالي المُؤكّدات يكشف عن حالات النّفوس الصّادقة المؤمنة العازمة على نصرة الدّين والشّريعة.

وصف حالات النّفوس المؤمنة الصّادقة في نصر دين الله تعالى

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

يفيد التّعبير بالمضارع التّجدّد والاستمرار، فمهما تنوّعت صنوف إعراض الأقوام وأساليب الإيذاء فلن يُثني الرّسل عن صبرهم على دعوتهم للنّاس، وجاءت نون التّوكيد لتحقّق ذلك الصّبر فيهم، وفيمَن اتّبعوهم؛ فالمضارع أفاد التّجدّد والتّنوّع في حالات الصّبر، وأفاد التّجدّد والتّنوّع في العزيمة والإصرار على المواقف الصّادقة الّتي يحبّها اللّه تعالى.

التّجدّد والاستمرار على المواقف الصّادقة

معنى ﴿مَآ﴾ والجملة بعدها:

و﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ مصدريّة، وهي اسم مع ما اتّصل بها من المصدر، أو أنّها موصولة اسميّة بمعنى: الّذي، والعائد محذوف على التّدرّج؛ إذ الأصل: آذيتمونا به، ثمّ حذف الباء فوصل الفعل إليه بنفسه[2]، تقديره: آذيتموناه، وهو يدلّ على عظيم إيذاء الكفّار للمؤمنين[3].

إيذاء الكُفّار للمؤمنين كبير وليس بمستغرب منهم

نكتة حذف متعلّق الإيذاء ﴿ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾:

وحيث كانت أذيّة الكفّار ممّا يوجب القلق والاضطراب القادح في التّوكّل، قالوا على سبيل التّوكيد القَسَميّ؛ مُظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾؛ أيْ: على إيذائكم إيّانا بالعناد واقتراح الآيات... وغير ذلك ممّا لا خير فيه. وحذف مُتعلّق

تنوّع الإيذاء على المؤمنين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/306.

(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3103.

(3) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.

الإيذاء لفائدة تنوّعه وشمول جميع أصناف الإيذاء على المؤمنين؛ إذْ لا تنتهي اجتهاداتهم في إيذاء المؤمنين إلى قيام السّاعة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

التّوكّل على الله في الدّعوة وفي الصّبر على أذيّة الكافرين

عطف قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أيِّ: فليَثبُت المتوكّلون على ما أحدثوه من التّوكّل، والمُراد بهم المؤمنون، والتّعبير عنهم بذلك لسبق اتّصافهم به؛ أيِّ: بالمؤمنين، وغرض المُرسَلين من ذلك نحو غرضهم ممّا تقدّم[1]. فأفاد العطف الوصل بين الجملتيْن الإنشائيّتيْن، والتّغاير في المعنى؛ لأنّ الأولى دلّت على التّوكّل على اللّه في الدّعوة إلى اللّه والتّحرّك في نشر الإيمان على سبيل الهداية، والثّانية دلّت على التّوكّل على اللّه في الصّبر على الإيذاء من الكفّار المعاندين.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

المتوكّلون الصّادقون يتوكّلون على الله وحده

تقديم شبه الجملة في قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أفاد الاختصاص، فينبغي على المؤمنين ألّا يتوكّلوا على أحدٍ سوى اللّه تعالى، فوصفهم في الآية السّابقة بالمؤمنين، ووصفهم هُنا بالمُتوكّلين، وربما يُتجوّز في المُسنَد إليه؛ فالمعنى: وعليه سبحانه فليتوكّل مريدو التّوكّل. لكنّ الأوّل أوْلى[2].

بلاغة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

توكيد قضيّة التّوكّل وتمكين المتوكّلين عليه سبحانه

وهو أسلوب يكثر وروده في القرآن الكريم، وأكثر ما يكون بإظهار الأسماء الحسنى - لا سيما الاسم الأجلّ واسم الرّبّ - في مقامات إضمارها. وأوثر المُظهَر على الضّمير؛ لأنَّ لفظ الجلالة وقعُهُ عظيمٌ في القلوب، ونجد في عموم النّصّ أنّه يدور حول قضيّة الألوهيّة، والدّعوة إلى التّوكّل على اللّه وحده. فوضعُ المُظهَر موضع المُضمَر أفاد توكيد قضيّة التّوكّل على اللّه، وتمكين المُتوكّلين عليه سبحانه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/188.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/188.

كما يُفيد هذا الإظهار الاستلذاذ بذِكْر المُظهَر ﴿ٱللَّهِ﴾، وبيان حاجة النّفوس في ساعات الشّدّة إلى ذكر الله لِما يُحدثه الذِّكر من راحة النّفوس واطمئنانها.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

التّوكّل من أهم أركـــان نـجـاح الدّعوة إلى الله سبحانه

الفاء في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لجملة (لِيَتَوَكَّلِ المُتوكلونَ) بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشّرط الّذي يدلّ عليه المقام. والتَّقدير: إنْ عجبتم من قلّة اكتراثنا بتكذيبكم أيّها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيّها المؤمنون؛ فليتوكّل المؤمنون على الله، فإنّهم لن يضيرهم عدوُّهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23][1].

معنى اللّام في: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

الـطّـلـب مـن المؤمنين التزام التّوكّل على الله

دخلت لام الأمر في قوله ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ على الفعل المضارع لتُفيد الطّلب والأمر، وقرأ الجمهور اللّام في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ ساكنةً، وقرأها الحسَن مكسورةً، وتحريكها بالكسر هو أصلها، وتسكينها طلب التّخفيف[2]، والمُراد بهذا التّوكّل على الله دفع شرّ الكفّار، فمن ثَمّ لا يلزم التّكرار، أو أن يكون الأوّل لاستحداث التّوكّل، والثّاني طلب دوامِه[3]. فهو طلب التزام التّوكّل على الله ﷻ؛ وبهذا الالتزام يكونون مُتوكّلين على الله حقّ التّوكّل، فوصَفهم بالمُتوكّلين بعد أنْ وصفهم في الأولى بالمؤمنين.

دلالة الأمر ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

الوصيّة الواجبة على أهل الإيمان بالتّوكّل عليه سبحانه

وجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أمرٌ لِمَن آمن من قومهم بالتَّوكّل على الله، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًّا؛ لأنَّهم أوّل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/329.
(3) ابن عادل، تفسير اللُّباب: 1/3103.

المؤمنين بقرينة قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾[1].

وفي هذا الخطاب تحريكٌ للمشاعر، وتثبيتٌ للنّفوس المؤمنة، وهم يواجهون عتوَّ الّذين كفروا وإصرارهم على إيذاء المؤمنين؛ فكانت هذه العبارة وصيّة الرّسل كلّهم - لِمَن أقنعوهم من المؤمنين - جاءت بصيغة الأمر لبيان أهمّيّتها، والوقوف على ضرورتها باعتبار التّوكّل على اللّه؛ فالتّوكّل هو جوهر قضيّة الإيمان.

والفرق بين الأمر المباشر والتّعبير بالمضارع المُقترن بلام الأمر أنّ الأخير يُراد منه التّنفيذ على الفور، بحيث يتحوّل المطلوب حاضرًا.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

تخصيص المتّصفين بالتّوكّل على الله وحده

(ال) التّعريف في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ تفيدُ الاستغراق، وقد وصَفَهم بالمتوكّلين؛ لأنَّهم أكثر توكّلًا من غيرهم، فمَنْ كانت صفتُه التّوكّلَ على عظيم؛ فلا يكون له إلّا أن يتوكّل على اللّه سبحانه، فخصّ جماعة المتوكّلين بالتّوكّل عليه سبحانه، كأنّ اللّام لام الكمال في الصّفة.

نكتة تعدّد احتمالات القائل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

العبارة بمثابة مثل قرآنيٍّ يُقال في كلّ موقف مُشابه

تتعدّد احتمالات القائل لعبارة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإمّا يكون قد قالها الرّسل أو الّذين آمنوا، وإمّا أنّها من سياق كلام اللّه، فإن كان قد قالها الرّسل؛ فهي من قبيل الإفصاح عمّا جاءوا به في رسالاتهم السّماويّة؛ أنها كلّها تجتمع على محور التّوكّل على اللّه سبحانه فهم قد وصفوا أنفسهم بالمُتوكّلين. وإن كان قول المؤمنين من أتباعهم، فهو نتاج ما قدّمته الرّسل من صحة العقيدة ورسوخ الإيمان، والمؤمنون هم أهل التّوكّل على اللّه والدّاعون إليه، وأمّا إن كان من سياق كلام اللّه سبحانه، فهو من قبيل استجابة اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.

للمؤمنين المتوكّلين حال توكّلهم عليه، وأنّه سبحانه سيمدّهم من عنده بسلطان ينصرهم به على أعدائهم. والعبارة عمومًا بمثابة مثل قرآنيّ؛ فهي تصلح أن تكون استعارة تمثيليّة؛ إذ إنّ هذه العبارة القرآنيّة يقولها كلُّ مؤمن متوكّل قد أسلم أمره إلى الله سبحانه، يقف في موقف تعجز عنه قدرات البشر، وهو يستدعي تنشيط الإيمان في النّفوس والثّبات على المواقف.

فائدة التّغاير في فواصل الآيتيْن السّابقتيْن:

التّغيير الإيجابي في حياة المؤمنين المتوكّلين

تغاير الفاصلة القرآنيّة[1] من المظاهر الصّوتيّة الّتي شكّلت لوحة الجمال والإعجاز للنَّصِّ الكريم؛ لأنَّها لا تقف عند المستوى الصَّوتيّ والدّلاليّ فحسب؛ بل تتّصل بالمستوى النَّحويِّ والبلاغيِّ.

وسميت (فاصلة) لأنّها تفصل بين الآية الّتي قبلها والآية الّتي بعدها. وأنّ تلك الفواصل كلَّها منتهى آياتٍ، ولو كان الكلام الّذي تقع فيه لم يتمَّ فيه الغرض المَسوقُ إليه، وأنّه إذا انتهى الغرض المقصود من الكلام، ولم تقع عند انتهائه فاصلة لا يكون منتهى الكلام إلّا نادرًا[2].

فقد أقيمت فواصل تلك الآيات الواقعة في أوّل السّورة على حرف مكسور بعده ياءُ مدٍّ بعدها حرف، مثل: ﴿عَظِيمٌ ٦﴾ [إبراهيم: 6]، ﴿شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم: 2]، ﴿حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: 8]، ﴿مُرِيبٍ ٩﴾ [إبراهيم: 9]. وهذه وقعت في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على حرفٍ مضموم بعده واو مدٍّ، بعدها حرف النّون، وقد اختُصّت هاتان الآيتان بكلام الرّسل، وخُتمت بصفتيِ الإيمان والتّوكّل. وتكمن فائدة هذا التّغاير في الإشارة إلى ما سيُحدثه التّوكّل على الله من التّغيير في حياة المؤمنين المتوكّلين عليه سبحانه. فالفاصلة القرآنيّة مهمّتها توضيح المعنى، وتوفير الرّونق اللّفظي.

(1) وقد عرّفها ابن عاشور في تفسيره بأنّها: "الكلمات الّتي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، مع تماثل أو تقارب صيغ النّطق بها، وتتكرّر في السّورة تكررا يُؤذِن بأن تماثلها أو تقاربها مقصود من النّظم في آيات كثيرة متماثلة، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/75.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/75.

الرّسل والذين آمنوا معهم سائرون بكُلّيتهم على نهج التّوكّل

جناس الاشتقاق ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

هو من المحسّنات اللّفظيّة؛ إذ يعتمد على التّحسين في الكلمات من ناحية اللّفظ. واللّفظان في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ مشتقّان من مادّة لغويّة واحدة، وأطلق عليه علماء البلاغة اسم (الجناس المُطلق) لتلاقي اللّفظيْن في الاشتقاق، وفائدته إطلاق صفة التّوكّل على المؤمنين؛ فجعلهم يتّصفون بالتّوكّل، وكأنّهم بكُلّيَّتهم سائرون على نهج التّوكُّل عاملون به.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّبيل والطّريق والصّراط:

الصِّراطُ والسَّبيلُ كلاهما يعنيانِ النَّهجَ المسلوكَ إلى الله

في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ حثٌّ على العمل بمقتضى ما يريده الله واتّباع سُنن الأنبياء والرّسل وما جاءوا به من البيّنات والهُدى والرّسالات، فلكلّ نبيٍّ سبيل وشريعة، واتّباع الشّريعة هو الهداية، وهو السَّبيلُ المُيَسّرُ الّذي لا غموض فيه؛ وتكون طاقة الإيمان من بعد ذلك هي الضّامن لديمومة المسير في هذا السّبيل، ومنهج التّوكّل على الله هو المنهج الحقّ، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ فحتمًا سينتهي السَّير في هذا السّبيل إلى رضوان الله تعالى وإلى جنّاته. وإنّما قيل للطَّريق الواضح سراط؛ لأنّه كأنّه يسترط المارّة لكثرة سلوكهم[(1)]، والصِّراط هو الطَّرِيق المُستَسهَل، أصله من: سَرَطْتُ الطَّعامَ: ابتَلَعتُه، فقيل: سراط تصوّرًا أنّه يبتلعه سالكُهُ، أو يبتلعُ سالكَهُ[(2)]، والصّراط: الطَّريق المُستقيم[(3)]، والصِّراط: طريق عُلمت للسّالك جميعُ معالمه، فهو يعلم جميع ما يلقاه أثناء الطَّريق من بدايته الى نهايته، فالله تعالى قد بيّن دينه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الرّاغب، المفردات: (صرط).

ووضّحه، ولا يخفى شيءٌ على مَن أراد أن يسلك صراط اللّه. وجاء الصّراط في القرآن الكريم في أغلب المواضع منسوبًا إلى اللّه تعالى؛ مثل قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: 126]. بينما خصّ السَّبيل للدّلالة على طريق أهل الضّلال. إلّا في المواضع الّتي جاءت معه القرينة المانعة من ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]. وقوله هنا: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾.

وأمّا السّبيل فمنها طريقٌ سالك ومنها غير ذلك؛ فالسَّبيل منها الطّريق الّذي لم يَطرقْه طارق، أو أنّ المُخاطَب به لم يسبق له أن سلكه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره. ومنها طريق سابِل، ونخلص بأنّ الصّراط يدلّ على الوضوح والاستقامة، والسَّبيل منها ما هو سالك ومنها غير ذلك.

الطَّريق يكون في الخير والشّر

أمّا الطّريق فيكون في الخير والشّرّ، ولكنّ السَّبيل أغلب وقوعًا في الخير من الطّريق، ولا يكاد اسم الطّريق يُراد به الخير إلّا مُقترنًا بوصفٍ، أو إضافة تخلصُه لذلك. كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 313.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾

[إبراهيم: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اتّفقت الأقوام على إخراج رُسلها كلٌّ في زمانه ومكانه

لمّا انقضت هذه المحاورة، وقد علم منها كل مُنصف ما عليه الرّسل من الحلم والعلم والحكمة، وما عليه مخالفُهم من الضّلال والجهل والعناد، ولمّا كان في الكلام ما قد يُشعر بانقضائه ابتدأ ﷻ عنهم محاورة أخرى، عاطفًا على ما مضى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ﴾"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: جَذر الكلمة (عود) يعودُ عوْدًا وعَوْدةً، والعَوْدُ: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[2]. قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، وسُميَّت العادة عادةً؛ لأنّ صاحبها لا يزال معاودًا لها[3]. والعَوْدُ: الطّريقُ القديم[4]. ورَجَعَ فلانٌ عَوْدَه على بَدْئه. وفعلتُ ذَلِك عَوْدًا على بَدْء[5]. والعَوْدُ هنا في الآية بمعنى أن تسيروا على طريقة ملّتنا.

2) ﴿مِلَّتِنَاۖ﴾: جَذر الكلمة هو (ملل)؛ سميت مِلَّة لاستمرار أهلها عليها، وقيل: أصْلها التّكْرار من قَوْلك: (طَرِيق مَلِيل) إذا تكَرّر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 177/4.
(2) الرّاغب، المفردات: (عود).
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (عود).
(4) الخليل، العين: (عود).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عود).

سلوكه حَتَّى توطأ، وَمِنْه: الْمَلَل، وَهوَ تكْرار الشَّيْء على النّفس حَتَّى تضجر، والْمِلَّة: مَذْهَب جماعَة يحمي بعضهم لبَعض عِنْد الأمور الْحادِثَة[1]. ومنه: المِلّة: الطّريقة المسلوكة، ومنها: ملّة إبراهيم خير المِلَل، وامتلّ فلانٌ ملّة الإسلام، ومنه: أملّ عليه الكتاب، ومنه: مَلمله المرض فتململ. وكحله بالململ: بالمكحال[2].

3) ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾: جذر الكلمة هو (هلك)؛ وهلك يهلك: مات[3]؛ وكلُّ شيءٍ يصيرُ عاقبتُه إلى الهَلاكِ[4]. وأهلكَ الشَّيء واستهلَكَه. وهوى في هلكٍ[5]. وفي الآية توكيدٌ معناه: إنزال عذاب الله على الكافرين، فأهلكهم واستبدل بهم المؤمنين.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الخطاب بجملته مواساة للرّسول ﷺ

توعّد الكافرون رُسلهم الّذين أُرسلوا إليهم بإخراجهم من أرضهم، أو عودتهم إلى ملّتهم زعمًا منهم أنّ رسلهم كانوا على ملّتهم، فجاء الوحي الإلهيُّ للرّسل بأنّ هؤلاء المتوعّدين هم الهالكون لظلمهم، وجاء الوعيد الإلهيُّ مؤكَّدًا بالقسم تنبيهًا على تحقّق وقوعه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التّهديد للرّسل بسبب إصرارهم على الإيمان

(الواو) استئنافيّة؛ وقد استؤنف هنا تهديد الّذين كفروا لرسلهم بعد ما ظهر منهم من الثّبات على الإيمان، وما أظهروا من الجَلَد والتّمسّك بمبدأ التّوكّل على الله مهما واجهوا من الأذى والخِذلان من أقوامهم؛ فهم رُسُلُ الله، العالمون بعظيم شأن الرّسالة،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 220 - 221.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ملل).
(3) ابن سِيده، المُحكم: (هلك).
(4) الخليل، العين: (هلك).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هلك).

المتّصلون بالوحي، ويمكن أن تكون الواو عاطفةً على ما تقدّمها من عطف القصّة على القصّة.

دلالة ذِكر الكافرين دون تعيين: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

من الّذين كفروا أهل حلّ وعقد يتضاعف جُرمهم بتضاعف مكانتهم

يمكن أن يكون هؤلاء القائلون هم بعض المتمرّدين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة الّتي نقلت مقالاتِهم الشّنيعة دون جميعهم كقوم شُعيَب؛ ولذلك لم يقل: (وقالوا لرُسُلهم لَنُخرجنَّكم من أرضنا أو لَتعودُنَّ في مِلَّتنا)، ويجوز أن يكون المُراد بهم أهل الحلّ والعقد الّذين لهم قدرة على الإخراج والإدخال، ويكون ذلك علّةً للعدول عن (قالوا أيضًا)[1].

نكتة التّعبير بالاسم الموصول وصلته الفعليّة:

رسوخ قضيّة الكفر عند المُعاندين للرّسول والرّسالة

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعبير بالاسم الموصول؛ غايته التّعريض بذِكر الصّلة، وأفاد هذا التّعبير كذلك شمول عموم الكافرين، ودلّ بالصّلة الفعليّة على رسوخ قضيّة الكفر لديهم؛ لأنّ الموضع موضع تعميم للمنطق الّذي تبنّته الأقوام في الرّد على الرّسل الّتي دعت إلى عبادة اللّه وحده، والاستعانة به والتّوكّل عليه. والاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للذُّكور؛ وإنّما كان التّغليب من باب المجاز؛ لأنَّ اللّفظ لم يستعمل فيما وُضِع له[2]، كما أنّ الاسم الموصول يتطلّب جملة صلة هي عنوان المُتَحدّث عنهم.

دلالة اللّام في: ﴿لِرُسُلِهِمۡ﴾:

تعيين المخاطَبين بخطاب مباشر واختصاصهم به

بالنّظر في قوله تعالى: ﴿لِرُسُلِهِمۡ﴾ نجد أنَّ (اللّام) هنا للتّبليغ، وهي الجارّة لاسم السّامع لقولٍ أو ما في معناه، كما ورد هنا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ﴾، وهي للاختصاص أيضًا، فقد اختصّ الّذين كفروا رسلهم بهذا الخطاب، وهو قولهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/189.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 3/135.

﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾، وفائدة ذلك كلِّه تعيين المُخاطَبين بخطابٍ مُباشرٍ، واختصاصهم به. وفائدة ذلك أيضًا ثبوتُ الحُجّة على الّذين كفروا، وإقامةُ الدّليل عليهم ورسوخه.

دلالة الجمع ﴿لِرُسُلِهِمۡ﴾:

جُمعت لفظة (رسل) في قوله تعالى: ﴿لِرُسُلِهِمۡ﴾ للدّلالة على أنّ مقالة الكافرين في كلّ زمنٍ واحدة، وهذا من الإيجاز لرحلة الرّسالات السّماويّة.

سُنّة الكافرين مع كلّ المرسلين واحدة

معنى اللّام في ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾:

قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ جواب قَسَم مُقدَّر، فائدته التّوكيد، فقد دخلت (اللّام) هنا على الفعل المضارع المُؤكّد (نُخرجنَّ)، ويكون ذلك في الأمر العظيم المُتعجَّبِ منه؛ إذ كيف يُطْرَدُ مَن يدعو إلى الخير، ومَن يدعو إلى عبادة اللّه وحده؟

إخراج الرّسل من أرضهم أمرٌ جَلَل مُتعجّب منه

نكتة توالي المؤكّدات: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾:

توالتِ المؤكِّدات في قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ وهي: لام القَسَم ونون التّوكيد الثّقيلة المتّصلة بالفعل المضارع الّذي يُفيد التّجدّد، فيظهر كمال العزيمة على إخراج المؤمنين، ويتّسق ذلك مع كمال العزيمة على الصّمود والبقاء على ما أمر اللّه به الرُّسُل والمؤمنين فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

إصرار أهل الحقّ على موقفهم، وإصرار أهل الباطل على موقفهم

دلالة ﴿مِّنۡ﴾ في: ﴿مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾:

ورد حرف الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ لابتداء الغاية في قوله: ﴿مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾ فأفاد معنى أنّنا سنُخرجكم من هذه البقعة من الأرض الّتي أنتم فيها إلى آخر حدود ما نملك منها، أو لنخرجنّكم من قريتنا أو مدينتنا. كما أنّ (مِنْ) تستعمل للابتداء عمومًا سواء أكان الحدَث ممتدًّا أم لا. فهي تفيد ابتداء وقوع الحدَث. فيكون تهجيركم ابتداءً من أرضنا إلى أيّ بقعة تصل قوّتنا وأيدينا إليها، فنُخرجكم ونُطاردكم.

مطاردة الرّسل وتهجيرهم من الأرض

دأبُ المكذبين أن يدّعوا ملكيتهم للأرض دون مخالفيهم وهذا تدليسٌ ظاهرٌ

سرّ الإضافة في قولهم: ﴿أَرۡضِنَآ﴾:

الإضافة في قوله: ﴿أَرۡضِنَآ﴾ بمعنى اللّام؛ أيّ: يكون المعنى (من أرض لنا)، ويرى آخرون أنّ الإضافة ليست على تقدير حرف أصلًا، وتُفيد هذه الإضافة ﴿أَرۡضِنَآ﴾ تعريفًا، لأنّ المضاف إليه معرفة، فقد عُلم أنّ الأرض الّتي تعود إلى الّذين كفروا ستكون محرّمة على رسلهم. وهو من قبيل التّعريف بالعهد؛ لأنّه يدلّ على واحد بعينه؛ وهي أرضهم الّتي يملكون، وهي معلومة لدى الرّسل المخاطبين. وهي هُنا بمعنى قريتهم أو مدينتهم الّتي يملكون أرضها، ويستثمرون مواردها، فيكون لهم التّأثير فيها، ويكون معنى ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾؛ أيّ: فلا نسمح أنْ يكون لدعوتكم أثرٌ فينا وفي ذرّيّاتنا.

الإخراج من الأرض أو العَوْد عن المِلّة خياران للرّسل وللمؤمنين لا ثالث لهما

معنى (أو) في قوله: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ﴾:

في ﴿أَوۡ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أنَّها على بابها من كونها لأحد الشَّيئَيْن، وهو الأظهر. والثّاني: أنّها بمعنى (حتَّى)؛ أي: إلى حتّى تعودنّ في ملّتنا، فنسمح لكم بالبقاء والعَودِ إلى أرضنا، والثّالث: أنّها بمعنى (إلّا)؛ كقولهم: لألزمَنَّكَ أوْ تَقْضِيِني حَقِّي. ويرى ابن عادل في تفسيره أنّ: القول بمعنى (حتّى) أو (إلّا) مردودان بخلاف المثال المُتقدّم[(1)]. ونُقل عن ابن هشام شارح (الإيضاح) أنّ (أو) لا تكون بمعنى (إلّا) إذا لم تدخل على الفعل[(2)].

أمر بعيد المنال فلا يمكن أن يُستجاب للكافرين

دلالة اللّام في: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾:

في قوله عزَّ من قائل: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ (اللّام) لام القَسَم؛ وهي مختصّة بلفظ اللّه تعالى، فقد دخلت على الفعل المضارع المُؤكّد (تعودُنَّ)[(3)].

---

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/189.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/445.
(3) سِيبويه، الكتاب: 2/144.

فاللّام دالّة على المُقسَم به المحذوف، وتقدير المعنى: والله لَتعودنّ في ملّتنا، وهو تأكيدٌ لعزم الكفّار على حصول أحد الأمريْن، وللّام والمضارع المؤكّد بالنّون دلالة اتّخاذ القرار فيما ذكروه. وإصرارهم على إيذاء رسلهم إن لم يرجعوا عن رسالتهم الّتي جاءوا بها. فموقفهم هو موقف الإصرار على الكُفر، وإيذاء الرّسل إن استدعى الأمر ذلك، ولا يصدّهم عن ذلك شيء.

نكتة التّعبير بالعَوْدِ رغم أنّهم لم يكونوا على دينهم:

يستحيل تصوّر أن الرُّسل كانوا على ملّة الكفر قبل الرّسالة

العَوْدُ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ بمعنى الصَّيرورة؛ إذ ليس المُراد حقيقة العَوْد؛ لأنَّ الرُّسل لم يكونوا من ملّة قومهم قبل الرّسالة[1]، وهو كثير في كلام العرب، أو أنّ الخطاب، وإن كان في الظّاهر مع الرّسل إلّا أنَّ المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم، فغلَّبوا في الخطاب الجماعة[2]، فيكون ذلك بحكم التّغليب؛ إذ لم يكونوا في مِلّتهم أصلًا حتّى يعودوا إليها، ومثله قوله: ﴿إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: 89][3]، أو المعنى: لَتعودنّ في سكوتكم عنّا إغفالًا، وذلك عند الكفّار كونٌ في ملَّتهم[4].

نكتة تقديم ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ على ﴿لَتَعُودُنَّ﴾:

المقامُ مقامُ تخويفٍ وتهديد وإصرار على الإيذاء

في الآية ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ قدّم البيان القرآنيُّ الإخراج على العَود؛ وسبب ذلك أنّ المقام مقام تخويف، فلذلك بدءوا بالإخراج[5] ولربّما كانوا قد علموا في دواخلهم أنّ الرّسل لن تعود عن دعوتها، فقدّموا الإخراج؛ لأنّهم قد همّوا به فعلًا، فقُدِّم الممكنُ على المستحيل.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/445.
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 3/54، وابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/309.
(4) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/445.

دلالة (في) المجازيّة: ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾:

تهديدُ الرّسل بإخراجهم من ديارهم أو التّخلّي عن دعوتهم

في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، نجد أنّ ﴿فِي﴾ ظرفيّة مجازيّة، فلم يَقُلْ لتعودنّ إلى ملّتنا أو مع ملّتنا، وفائدة ذلك معنى العَود إلى ما كنتم عليه قبل دعوتكم؛ إذ كان الأنبياء يعيشون بين أقوامهم قبل أن تأتيَهم الرّسالة. ووجه الاستشهاد: مجيء ﴿فِي﴾ مفيدة معنى المصاحبة؛ لأنّ المعنى: ادخلوا مع ملّتنا أو أمّتنا؛ و﴿فِي﴾ الّتي تفيد المصاحبة؛ هي الّتي نستطيع أن نضع مكانها (مع)[1]. فتكونون مُسالمين لأهل ملّتنا مصاحبين لهم، لا تدعونهم بدعوتكم، ولا تُنكرون عليهم ما هم عليه من العبادة والتّديّن، والاستسلام التّخلّي عن دعوتكم، فقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ أيْ: في ديننا وأهل ملّتنا[2]، وهو مجاز مُرسَل علاقته الحاليّة. فقُصد منه العوْدُ إلى العيش في مجتمعنا كما كنتم قبل رسالتكم، وتَذَرون ما تدعوننا إليه من الدّين الجديد.

سرُّ الإضافة في قولهم: ﴿مِلَّتِنَا﴾:

المِلَلُ الأرضيّة تُنسبُ إلى الأقوام، والرّسالات السّماويّة تُنسب إلى الله

أُضيفتِ الملّة إلى الضّمير (نا) في قوله: ﴿مِلَّتِنَا﴾، وتعريف الملّة أنّها عائدة إليهم، فتعرّفت بهم، لتدلّ على أنّها ملّة أرضيّة، ولهذا ربط شرط العَود إلى الملّة بالإخراج من الأرض، وكلاهما كانا مضافيْن إلى ضميرهم (نا)، فهذه أرضهم تحتكم إلى ملّتهم وملّة آبائهم، فمَن أراد تغيير ملّتهم فعليه أن يخرج من أرضهم.

دلالة القسَم في ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ و﴿لَتَعُودُنَّ﴾:

اشتمال ردود الكُفّار على التّهديد والتّعجيز

في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾، وقوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ جاء تأكيد الوعيد بلام القسَم، أيْ: ليكوننّ أحد الأمريْن لا محالة، إمّا إخراجكم وإمّا

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/35.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 336.

عودكم حالفين على ذلك[1]، وقد دلّ ذلك على تأكيد الوعيد تهديدًا للرّسل، وبدأوا بالأيسر وهو الإخراج، وأتبعوه الأصعب، وغرضهم من كلّ ذلك أن يتراجعوا عمّا يدعون إليه.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾:

جاء الوحيُ للرُّسل ببُشرى النّصر والتّمكين عقب تبجّح الكافرين وتوعّدهم

الفاء العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ أفادت التّرتيب والتّعقيب دون التّراخي؛ فهي توجب أنّ الثّاني بعد الأوّل، وأنّ الأمر بينهما قريب[2]، ففي الوقت الّذي قال فيه الّذين كفروا لرسلهم ما قالوا، وما توعّدوا وتبجّحوا به، جاء الوحي إلى الرّسل أنّ اللّه سيهلك الظّالمين، وأتاهم وعد اللّه بقوله: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾. فالتّعقيب معناه: وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه بغير مُهلة أو بمدّة قريبة، فتجعل ذلك متّسقًا بعضه في إثْر بعض[3]. فلمّا توكّلوا على اللّه حقّ التّوكّل جاءهم وعد اللّه بالنّصر والتّمكين.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

اختصّ اللّه تعالى رسُلَهُ بالنّصر والتّمكين

تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ يُفيد الاختصاص، وتدلّ على معيّة اللّه لرسله، وللمؤمنين وتأييدهم بالرّسالات السّماويّة، فهم المؤمنون به المتوكّلون عليه، الدّاعون إلى رسالاته، فاختصّهم اللّه تعالى بالقُربى منه وبالنّصر على أعدائهم، فكان وحيه إليهم: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾، وكان وعدًا مفعولًا مُحقّقًا، فضلًا عن أنّ هذا التّقديم يفيد تعجيل المسرّة.

نكتة الإتيان بلفظ (الرّبّ) دون لفظ الجلالة:

الآية مقام تغيير لنواميس الكون وقوانينه

يناسب لفظ (الرّب) الدّلالة على تغيير نواميس الكون وسُننه بـ(كُنْ فيكون)، وبما يؤدّي إلى إهلاك الظّالمين ونصر المؤمنين، أمّا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(2) المُبرِّد، المُقتضب: 1/10.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/304.

لفظ (اللّه) فهو الدّالّ على معنى الإله المعبود وحده، والمقام هنا هو مقام تغيير لقوانين الكون ونواميسه؛ إذ إنّ اللّه ينصر الضّعيف على القويّ، ويكون ذلك في الوقت الّذي يختاره تعالى، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68].

نكتة إضافة الرّبّ إلى ضمير الرّسل:

التّشريف بالإضافة تحقيقٌ للتّأييد الإلهيّ

الإضافة في قوله ﷻ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إضافة تشريفٌ وآية تأييد من اللّه لَمن انتسب إليه من الرّسل الّذين حملوا رسالة اللّه تعالى ليُبلّغوها للخلق، مُتحمّلين صنوف الأذى وأنواع العنت في سبيل ذلك.

سرُّ التّقييد بالبدل في قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾:

ما كان وحيًا لا يتخلّف وقوعه ولا حصول وعيده

قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ جواب قَسَم مُضمَر، وفي ذلك القسم وجوابه وجهان: أحدهما: أنَّه على إضمار القول؛ أيّ: قال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾. فيكون في العبارة إيجاز حذف كلمة، والثّاني: أنّه أجرى الإيحاء مجرى القول؛ لأنّه ضَرْبٌ منه[1]. والجملة بدلٌ من ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾، وسرّ وقوعها هذا الموقع بيان أنّ إهلاكهم خبرُ وحيٍ، فهو لا يتخلّف وقوعُه، وفي كلمة ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ ما فيها من قوّة الخطاب، إضافة إلى اقترانها بنون التّوكيد الثّقيلة، فقد تعدّدت فيها المؤكّدات، وجاء الخطاب للمُتكلّم بصيغة المضارع الّذي يُفيد التّجدّد والإصرار على تحقيق معنى الإهلاك للظّالمين.

نكتة توالي المُؤكّدات في ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾:

القَسَم الإلهيّ عظيمٌ مُحقَّقٌ فهو من الجليل سبحانه وتعالى

توالتِ المُؤكّدات في قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ وهي: لام القَسَم والفعل المضارع المُتّصل بنون التّوكيد الثّقيلة، فيظهر عظيم إرادة اللّه، وقسَمه سبحانه على إهلاك الظّالمين، فهنا هو مضمون الوحي

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

الإلهيّ للرّسل تطمينًا لهم، ونصرًا لهم ولدينهم ورسالتهم، ولأنّ عظيم المقام يقتضي تلك التّوكيدات.

الالتفات في ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾:

حضور المُهلِك يدلّ على شدّة الإهلاك

قال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ﴾ على الغيبة، ثمَّ قال: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على التّكلّم فيكون في العبارة التفاتٌ فائدته أنّ حضور المُهلِك الّذي بيده آلة الإهلاك، يدلّ على شدّة الإهلاك للظّالمين، وعلى وقوع الإهلاك حتمًا. ونُقل عن أبي حيوة في قراءة شاذّة: (لَيُهلكنّ الظّالمين ولَيُسكننّكمُ الأرضَ) بياء الغيبة اعتبارًا لـ ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾[1]، أو مناسبة لقوله ﴿رَبُّهُمۡ﴾ فلا يكون فيها التفات.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾:

يتجدّد وعد الله ووعيده مع كلّ جيل يستحقّه

يكون وعيد الله على أولئك الكفّار الظّالمين متجدّدًا منه سبحانه بإهلاكهم؛ إذ يتجدّد المشهد مع كلِّ رسول أو نبيٍّ، ويتجدّد المشهد بعد الأنبياء والرّسل مع كلّ جيل. ويكون ذلك وعدًا من الله للأنبياء والمُرسَلين والمؤمنين نصرًا وتمكينًا. فإنْ أهلك أعداءهم فقد تحقّق نصرهم وتمكينهم.

سرُّ التّعبير بلام الجنس في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

هلاكُ الظّالمين مؤكَّدٌ مهما بلغوا مع العَنَتِ والجبروت

في قوله تعالى ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ورد لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُعرّفًا بـ(لام الجنس) الّتي تستغرق أصناف الظّالمين؛ لبيان هوان شأنهم، مهما بلغوا من القوّة والجبروت، وخافت من سطوتهم الدّنيا؛ لكنّ قدَرَ الله فيهم نازلٌ، ووعيدَه عليهم آتٍ، فقوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحيٌ إلى الرّسل ﷺ، ووعدٌ لهم بنصرهم؛ بإهلاك الظّالمين، والتّعبير بالجمع بلام الجنس، بيان لسبب استحقاق الهلاك؛ فالظُّلم سببٌ كافٍ للهلاك، وهذا سرُّ العدول عن التّعبير

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.

بالكافرين إلى التّعبير بالظّالمين؛ لأنَّ الظّلم مُستبشَع عقلًا عند كلّ إنسان سويّ الفطرة.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِلّة والدّين والشّريعة:

المِلَّة اسْمٌ لجملة الشَّرِيعَة، والدّين اسْمٌ لما عَلَيْهِ كلّ واحِد من أهلها، فيُقال: فلان حسن الدّين، وَلا يُقال: حسَن المِلَّة، لِأن المِلَّة اسْم للشرائع مَعَ الْإِقْرار بالله، والدّين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنّه يُقرّبهُ إِلَى الله، وَإِن لم يكن فِيهِ شرائع مثل دين أهل الشّرك، وكلّ مِلَّة دين؛ وَلَيْسَ كلّ دين مِلَّة، فاليهوديّةُ مِلَّة؛ لِأَنَّ فِيها شرائع، وَلَيْسَ الشّرك مِلَّة، وَإِذا أُطلق الدّين فَهوَ الطّاعَة الْعامَّة الَّتي يُجازَى عليها بالثّواب مثل قَوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19].

الدّين والشّريعة:

الشّريعة نَظِيرُ المِلَّة، إلّا أنَّها تُفِيد ما يُفِيدهُ الطَّرِيق المأخوذ، والمِلَّة تُفِيد اسْتِمْرار أهلِها عَلَيْها

الشَّرِيعَة هِيَ الطَّرِيقَة المَأْخوذ فِيها إِلَى الشَّيْء، وَمن ثَمَّ سُمِّي الطَّرِيق إِلَى الماء شَرِيعَة ومشرعة، وَقيل: الشّارِع؛ لِكَثْرَة الْأَخْذ فِيه، والدّين ما يُطاع بِهِ المعبود، وَلكُلّ واحِد منّا دين، وَلَيْسَ لكلّ واحِد منّا شَرِيعَة، والشّريعة في هَذا المَعْنى نَظِير المِلّة، إلّا أنّها تُفيد ما يُفِيدهُ الطَّرِيق المَأْخوذ ممّا لا تُفيده المِلّة، وَيُقال: شرع في الدّين شَرِيعَة، كَما يُقال طرق فِيهِ طَرِيقًا، والمِلّة تُفِيد اسْتِمْرارَ أهلها عَلَيْها[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكـرُ الـوعـد لـلـمـؤمـنين المتوكّلين، بعد الوعيد بإهلاك الكافرين

وَعَدَ اللّه تعالى في الآية السّابقة الرّسل، ومَن آمن معهم بالنّصرِ على أعدائهم، وإهلاكِ الظّالمين، وأكمل وعده للمؤمنين بأنّه سبحانه سيُمكّن لهم في الأرض، ويسكنهم الأرض الّتي توعّد الأعداء بإخراجهم منها. ولا يكون ذلك إلّا لِمَن خاف اللّه وخشي وعيده الّذي توعّد به الكافرين، وعذابه لهم بما يستحقّون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾: جَذر الكلمة (سكن)؛ السَّكَنُ: المنزل، وهو المَسْكَنُ أيضًا. والسَّكَنُ: سكونُ البيت من غير مِلْك. والسَّكْنُ: السّكّان، والسُّكْنَى: إنزالُك إنسانًا منزلًا بلا كراء[1]. وسكنوا الدّار وسكنوا فيها، وأسكنتهم الدّار وأسكنتهم فيها[2]. وهذا معنى وعد اللّه ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الّذي ورد في الآية دون تكلُّفٍ ولا كِراء.

2) ﴿مَقَامِي﴾: جذر الكلمة (قوم)؛ المَقامُ والمُقامُ؛ بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنّك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضمومٌ، وقوله تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أيّ: لا موضعَ لكم وقُرئ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ بالضّم؛ أيّ: لا إقامة لكم، وقوله تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان: 76]؛ أيّ: موضعًا أو إقامة[3]. وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة:

(1) الخليل، العين: (سكن).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سكن).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (قوم).

125]، وقوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]، أيْ: ثابتًا مُقَوِّمًا لأمور معاشهم ومعادهم. وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة: 5]؛ فالْقَيِّمَةُ هاهنا اسم للأمّة القائمة بالقسط[1].

3) ﴿وَعِيدِ﴾: جذر الكلمة (وعد)؛ الوَعْدُ يكون في الخَير والشّرّ. يُقال: وَعَدْتُهُ بنفع وضرّ وَعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوَعِيدُ في الشّرّ خاصّة[2]. قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾، قال ابن عبّاس: خاف ما أوعدت من العذاب، وقال الواحديّ: الوعيد اسم من أوعد إيعادًا؛ وهو التّهديد[3].

المَعْنى الإجْماليّ:

الآيــة تتميمٌ لــوعــد الــلــه لــلــمـؤمـنـين المتُوكّلين عليه

وعد اللّه تعالى رُسله: لَنُسكننَّكمُ الأرض الّتي توعّدكم الكفّار بإخراجكم منها، ويكون ذلك بعد إهلاكهم. ولا يكون ذلك إلّا للمؤمنين، العارفين بمقام التّوكّل على اللّه، ولا يكون ذلك إلّا لِمَن آمن إيمانًا صادقًا لا يهتزّ، وخاف اللّه ووعيده، أيْ: مقامه يوم القيامة بين يدي ربِّ العالمين، وخاف عذاب اللّه للكافرين المُنكرين للدّين الحقِّ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف في: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾:

إفادة السّرعة في تحقّق نصر الله تـعـالى لـعـبـاده المؤمنين

الواو حرف عطف لمُطلق الجمع، فيحتمل أن يكون قد حصل الفعلان في زمان واحد؛ وهما الإهلاك والسُّكنى، إلّا أنّ السُّكنى قُيّدت بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾، ويدلّ حرف الواو على السّرعة في الإهلاك والسُّكنى وكأنّهما حدَث واحد. وفي ذلك معنى السّرعة في تحقّق وعد اللّه ونصره، ويمكن أن يُلحظ فيه التّرتيب المُراد منه عدم حضورهم مشاهد الإهلاك.

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(2) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/77.

معنى اللّام في ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾:

في قوله: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾: (اللّام) لام القَسَم، فائدتها التّوكيد، فلمّا توعّد الكافرون الرّسل والمؤمنين بإخراجهم من الأرض والدّيار، جاء القَسَم من الرّبّ العظيم بإهلاك الكافرين، وإسكان الرُّسل والمؤمنين في الأرض نفسها الّتي أُخرجوا منها.

وعدُ اللهِ عباده إسكانَهم الأرضَ الّتي رام الكفّار إخراجهم منها

فائدة توالي المؤكّدات ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾:

توالتِ المؤكّداتُ وهي (لام القسَم) و(نون التّوكيد الثّقيلة) مضافًا إليها الفعل المضارع (نسكن) الّذي يُفيد التّجدّد بأسلوب المُتكلّم، فيظهر كمال الوعد للمؤمنين في إسكانهم أرضهم الّتي نشأوا فيها، ويتّسق ذلك كلّه مع قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، إذ لا يستحقّ ذلك الوعدَ والإنجاز إلّا مَنۡ خافَ مقام اللّه سبحانه فلا أصدَق من وعد اللّه للمؤمنين في نصرهم على عدوّهم.

لا أصدق من وعد الله للمؤمنين وتحقيق وعدهم بالنّصر

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾:

يكون الوعد متجدّدًا من اللّه للأنبياء والرّسل، والّذين آمنوا معهمبسُكْناهم لتلك الأرض، وميراثها من الّذين كفروا بعد إهلاكهم، وما ذاك إلّا بصبرِ المؤمنين، وتوكّل المتوكّلين. وأنّ الوعد بإسكانهم مُتجدّدٌ إلى أن يرث اللّه الأرض ومَنۡ عليها. فقد بات ذلك سنّةً كونيّةً أمميّةً ومجتمعيّةً.

وعدُ الله للمؤمنين دائمٌ إلى قيام السّاعة

تكرار ذِكْر ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

كرّر ذكر الأرض وأكّد بمؤكّدات متوالية على أنّه سبحانه سيُسكّن الرّسل ومَن تبعهم من المؤمنين الأرضَ الّتي هي أرضه تعالى، إنكارًا على ما قاله الّذين كفروا للرّسل ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾، فكرّر الأرض توكيدًا على أنّ الأرض للّه يورثها مَن يشاء من عباده، وأنّ سُنّة اللّه في خلقه قد اقتضت أن يسكنها المؤمنون المتوكّلون على اللّه حقّ توكّله.

وعدُ اللهِ للمؤمنين بخلافة الأرض وعدٌ صادق غير مكذوب

الأرضُ هي ديار قوم النبيّ المُرسَل من عند الله لهدايتهم

معنى (اللّام) في (الأرض):

في قوله تعالى: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ (ال) عهديّة لفائدة معنى (الأرض) ذاتها الّتي قصدها الّذين كفروا حين قالوا للرّسل: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾، فهي الأرض الّتي كانت لهم سيادة عليها، وهم ينعمون بثمارها ومواردها، ويفرضون سلطانهم عليها، ويتّبعون ملّتهم فيها، دون أن ينازعهم فيها أحد، فوعدهم اللّه تعالى باستخلافهم على ذلك كلّه بعد إهلاك الكافرين، ونحوه ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: 137]، ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ﴾ [الأحزاب: 27][1].

إهلاكُ الكافرين ضرورة لإسكان المؤمنين وإقامة دين الله

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾، ﴿مِنۢ﴾ هنا لابتداء الغاية، وقد أفادت أنّ سُكناهم في هذه الأرض ستكون ابتداءً بعد هلاك الّذين كفروا؛ لأنَّهم توعّدوا الرُّسل، والّذين آمنوا بالإخراج والإيذاء، فلا ينعم المؤمنون بالسُّكنى إلّا بعد هلاكهم، ولن يسكن الأرض أحدٌ بعد إهلاكهم إلّا المؤمنين.

الكُفّار هم المقصودون بالإهلاك والإذهاب

عَوْد الضّمير في ﴿بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

يعود الضّمير في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ على الّذين كفروا، فيكون معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ أيّ: من بعد إهلاك الّذين كفروا، وزوال مُلكهم، وقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ لأنّهم كانوا المُتحكّمين بهذه الأرض وخيراتها.

مَن خاف مقام الله ووعيده يستحقّ ميراث الأرض

سرُّ فصل قوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ﴾:

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وهو مُشارٌ به إلى توريث الأرض[2]. وفصل الجملة عن سابقتها للاتّصال التّامّ بين الجملتيْن، وسبب الفصل الاستئنافُ البيانيّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

جوابًا عن سؤالٍ مُقدّر: لماذا سيُسْكنهم الأرضَ من بعدهم؟ فكان الجواب: لأنّهم يخافون مقام اللّه ووعيده.

فائدة الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ﴾ إشارةٌ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى البعيد؛ يعني إلى الموحَى به، وهو إهلاك الظّالمين وإسكان المخاطبين ديارهم، وبذلك الاعتبار وحّد اسم الإشارة مع أنّ المُشار إليه اثنان[1]. فيتحقّق الاثنان معًا كأنّهما أمر واحدٌ؛ أمّا كونه للبعيد فلإنزال البُعْد المعنويّ منزلة البُعْد الحِسّيّ؛ لأنّه وعد اللّه عزّ شأنه.

قد تأخذ المواجهة بين الحقِّ والباطل زمنًا طويلًا

معنى اللّام في ﴿لِمَنْ﴾:

في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ﴾ هي لام الجرِّ؛ وتكون مكسورة أو مفتوحة تدخل على الاسم الظّاهر، أو الضّمير فتجرُّه، ولها عدّة استخدامات منها: المِلكيّة والاستحقاق والتّخصيص، وكلّها محتمَلَةٌ هنا؛ فنصر اللّه تعالى يستحقّه مَن خاف مقامه ووعيده، وهو مُخصّصٌ لهم.

وعدُ الله بتمليك حقِّ النَّصر للمؤمنين

دلالة (مَن) في ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ﴾:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ﴾ اسم موصول بمعنى (الّذي)؛ أي: الّذي خاف مقامي، وفائدة الاسم الموصول هنا إرادة التّعظيم والتّعميم، فيشمل كلّ مَن خاف مقام اللّه تعالى من المؤمنين الّذين هم على الدّين الحقّ، ممّا أنزل اللّه من الرّسالات السّماويّة على الرّسل.

شمول عموم المؤمنين في هذا الخطاب

دلالة جملة الصِّلة ﴿خَافَ﴾:

تدلُّ جملة صلة الموصول ﴿خَافَ﴾ على رسوخ صفة الخوف عند ذلك المقصود بمكرُمة اللّه تعالى، و(المقام) إمّا موقف الحساب، فهو اسم مكان، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه، وإمّا مصدر ميميّ، بمعنى: حفظي وقيامي لأعمالهم ليُجازوا عليها، أو مُقحَم

الخوف لا يُحمد إلّا من الله ومن مقامه سبحانه

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/189.

للتّفخيم والتّعظيم كما يُقال: المقام العالي[1]. وخوف اللّه عقيدةٌ راسخة، والخوف لا يكون محمودًا إلّا من الذّات الإلهيّة، ومقامه العظيم سبحانه وقد ذكر ابن عادل في تفسيره ثلاثة أوجه في قوله: ﴿مَقَامِي﴾[2]: أحدها: أنّه مُقحم، وهو بعيدٌ؛ إذ الأسماء لا تُقحم. الثّاني: أنّه مصدرٌ مُضافٌ للفاعل. قال الفرّاء: ﴿مَقَامِي﴾ مصدر مُضاف لفاعله؛ أيّ: مقامي عليه بالحفظ. الثّالث: أنّه اسم مكان، قال الزَّجّاج: مكان وقوفه بين يدي الحساب، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرّحمن: 46]، فأضاف قيام العبد إلى نفسه.

سرُّ الإضافة إلى ضمير العظَمة ﴿مَقَامِي﴾:

لا أجَلَّ ولا أعظم من مقام الله سبحانه وتعالى

في إضافة المقام إلى ضمير العظَمة تعريف للمقام وجلالة شأنه هذا المقام، فلا أجَلّ من هذا المقام، وهو ممّا يقتضي التّفكّر فيه، والحرص على أن تكون الأعمال اليوميّة للفرد حائزةً على رضى اللّه تعالى لتكون مُنسجمةً مع خوف مقامه سبحانه. و﴿مَقَامِي﴾: موقفي، وهو الموقفُ الّذي يقفُ فيه العبادُ يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، أو قيامي عليه، وحفظي لأعماله[3]. وقيل: لفظ (مقام) مُقْحَمٌ؛ لأنَّ الخوفَ من اللّه تعالى؛ أيّ: لَمن خافني[4].

نكتة عطف ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾:

مقام الله مختلف عن وعيد الله تعالى

قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحديّ: الوعيد اسمٌ من أوْعَد إيعادًا وهو التّهديد، قال ابن عبّاس: خاف ما أوعدتُ من العذاب[5]. وقوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعيدي بالعذاب، أو عذابيَ الموعودَ للكفّار[6]. وذكر أولًا قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾، ثمّ عطف عليه قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/39.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.
(5) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/39.

فهذا يقتضي أن يكون الخوف من اللّه تعالى مُغايرًا للخوف من وعيد اللّه، ونظيره: أنّ حُبَّ اللّه تعالى مغاير لحُبِّ ثواب اللّه، وهذا مقامٌ شريفٌ عالٍ في أسرار الحكمة والتّصديق[1]. لأنّ العطف يقتضي المغايرة، فكلتا الجملتيْن خبرٌ، وعطفُ الخبر على الخبر يقتضي المُغايرة في المعنى.

فائدة تكرار التّعبير بالخوف:

الخوفُ من الله قضيّة عقائديّة جوهريّة راسخة

تكرَّر التَّعبير بالخوف في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ بغرض التّعظيم والتّخويف، والتّكرار أحدُ عَلامات الجمال البارزة، وهو مصدر دالٌّ على المبالغة، ويستدعي التّكرارُ كذلك التّأكيد، والتّذكير، فحدث من تكرار كلمة (الخوف) ترسيخ هذه المسألة العقائديّة؛ إذ إنّ الّذين كفروا لم يخافوا مقام اللّه، ولذلك فإنّهم أيضًا لم يخافوا وعيده، فتجرّأوا على رسل اللّه، وتوعّدوهم بالطَّرد، أو الإكراه على ترك دينهم.

نكتة تقديم خوف المقام على الوعيد:

خوفُ مقام الله يؤدّي إلى خوف وعيده سبحانه

في الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ سبق خوفُ مقام اللّه وعيدَه لأنّه هو الّذي يُنْتِج عنه خوف وعيد اللّه، فلولا خوفُ اللّه، وخوفُ مَقامه سبحانه ما كان شيءٌ يقتضي خوفَ وعيده سبحانه وهذا من قبيل ما يُسمّى بفنّ التّدلّي.

معنى الاستعارة في ﴿وَعِيدِ﴾:

الكفّارُ موعودون بعذابٍ أليمٍ يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ جاء لفظ ﴿وَعِيدِ﴾ على ظاهره ومتعلّقه محذوف، وجوّزَ أن يكون مصدرًا من الوعد على وزن (فعيل)، وهو بمعنى اسم المفعول؛ أيْ: عذابي الموعود للكفّار، وفيه استعارة الوعد للإيعاد[2]، فيكون المعنى: خاف ما وعدتُ به الكفّارَ من العذاب الشّديد.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

إثبات الياء وحذفها بين الوقف والوصل

بلاغة القراءات في قوله: ﴿وَعِيدِ﴾:

ياء المتكلّم في قوله سبحانه: ﴿وَعِيدِ﴾ محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف[1]، فوصل بياءٍ قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ورشٌ عن نافِع، وحذفها جَميع الرّواة في الْوَصْل والْوَقْف[2]، فقرأها ورش ﴿وَعِيدِ﴾ وقفًا و(وَعِيدِي) وصلًا؛ ففي الحذف وقفًا الدّلالة على معنى الحُكم القاطع الّذي لا يتبدّل، فلَنْ يتبدّل ذلك الوعيد، وسوف يُلاقونه حقًّا. وفي قراءة (وَعِيدِي) وصلًا معنى استدامة العذاب الّذي سيصيب الّذين كفروا.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307.

(2) ابن مجاهد، كتاب السّبعة في القراءات، ص: 364، والدّاني، التّيسير في القراءات السّبع، ص: 135.

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

يـبـدأ الـنّـصـر بـاسـتـفـتـاح الرّسول والّذين آمنوا

بعد أن جاء وعد اللّه للمؤمنين بالنّصر والتّمكين، وما أحدثه الصّبر والتّوكّل على اللّه من الاستعداد النّفسيّ للنّصر والتّمكين، جاءت الآية لتُظهر أوّل بوادر النّصر باستفتاح الرّسل، والّذين آمنوا معهم؛ إذ طلبوا النّصر والفتح من اللّه تعالى فهم المؤمنون بقدرته سبحانه المُتوكّلون عليه وحده، فجاءهم النّصر وخاب الجبّارون المتكبّرون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾: جذرُ الكلمة هو (فتح)؛ والفَتْح: النُّصرةُ، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ [الأنفال: 19]. واستَفْتَحْتُ اللّهَ على فُلانٍ؛ أيْ: سَألْتُه النَّصْرَ عليه. ونحو ذلك، والفَتّاح: الحاكم، وقوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ [القصص: 76]؛ يعني: الكُنوز وصنوُف أمواله، فأمّا المَفاتيح فجَمْع المِفتاح الّذي يُفتَحُ به المِغلاقُ، وفَواتِح القُرآن: أوائل السّوَر[1].

ويحتمل الاستفتاح الوارد في الآية معنيَيْن: **أحدهما**: طلب الفتح بالنُّصرة، أيْ: (واستنصروا اللّهَ على أعدائهم)، **والثّاني**: الحكم والقضاء، أيْ: (واستحكموا اللّه، وسألوه القضاء بينهم)، وهو مأخوذ من الفتاحة؛ وهي الحُكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89][2].

2) ﴿وَخَابَ﴾: جذر الكلمة هو (خيب)؛ الخَيْبَة: فوت الطَّلب، وهو المُراد في قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، ومنها، قوله تعالى:

(1) الخليل، العين: (فتح).

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.

﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشّمس: 10][1]، خيب: الخَيْبَةُ: حرمان الجدّ[2]. والآية ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أيْ: خسر وكُسِرت شوكتُه، وذهبتْ ريحهُ، وانتصرَ الحقّ على الباطل.

3) ﴿جَبَّارٍ﴾: جَذر الكلمة هو (جبر)؛ أصل الجَبرِ إصلاح الشَّيء بضربٍ من القهرِ، يُقال: جبرته فانجبر، والجبّار في صفة الإنسان، يُقال لَمَن يَجبر نقيصته بادِّعاء منزلةٍ من التَّعالي لا يستحقّها، وهذا لا يُقال إلّا على طريق الذَّمِّ؛ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: 35]؛ أي: متعالٍ عن قَبول الحقّ والإيمان له[3]، ورجل جبّار: مُتكبِّر[4]. والمعنى المُراد هُنا في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أيْ: هُزم الكفّار المُعاندون الّذين آذوا النّبيّ والّذين آمنوا، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

4) ﴿عَنِيدٍ﴾: جذر الكلمة هو (عند)؛ عَنَدَ الرّجل يَعْنُدُ عَنْدًا وعُنودًا فهو عاند وعنيد، إذا طغى وعتا، وجاوز قدره، ومنه: المعاندة، وهو أن يعرف الرّجلُ الشَّيءَ ويأبى أن يقبلَه، أو يُقِرَّ به[5]، فلانٌ عنيدٌ ومُعاند: يعرف الحقّ فيأباه ويكون منه في شقّ[6]، والعَنِيدُ: المُعجَبُ بما عنده، والمُعانِدُ: المُباهي بما عنده. قال: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤﴾ [ق: 24]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ [المدّثر: 16]، والعَنودُ قيل مِثلُه، قال: لكن بينهما فرقًا؛ لأنَّ العَنِيدَ الّذي يُعانِدُ ويخالف، والعَنودُ الّذي يَعْنُدُ عن القصْد، وعَنَدَ عنِ الطريق: عَدَل عنه، وعانَدَ: فارَقَ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليِّ:

الاستفتاحُ طلبُ الفتح من الله تعالى، ولا يكون ذلك إلّا للمؤمنين

طلب الرّسل والمؤمنون معهم الفتح من اللّه، وإنزال العذاب

(1) الرّاغب، المفردات: (خيب).
(2) الخليل، العين: (خيب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جبر).
(4) ابن سِيده، المُحكم: (جبر).
(5) الخليل، العين: (عند).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عند).
(7) الرّاغب، المفردات: (عند).

عليهم بعد يئسهم من إيمانهم، فجاءهم النّصر، وأصاب أعداءهم ما أصابهم من خيبة العتوّ والتّكبّر على الحقّ وأهله.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾:

(الاستفتاح): طلب الحُكم، وإنفاذه بالنّصر والتّمكين

في قوله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ إمّا أن تكون الواو للاستئناف، وإمّا أن تكون للعطف، ويترتّب على ذلك توجيه الضّمير في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾، فعن مجاهد قال: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾؛ يعني: الرّسل كلّهم[1]. ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ مُنقطعًا عن قصّة الرّسل ﵈ فتكون نازلة في أهل مكة؛ طلبوا الفتح الّذي هو المطرُ في سِنِيهم الّتي أُرسلت عليهم، بدعوة رسول اللّه ﷺ فخيّب سبحانه رجاءهم، ولم يَسْقِهم، ووعدَهم أن يسقيَهم في جهنّم - بدل سُقياهم - صديدَ أهل النّار، و(الواو) على هذا للاستئناف[2].

أو هي للعطف؛ إمّا على قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم: 2]، أو على خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم: 3] لقربه لفظًا ومعنًى، والوجه الأوّلُ أوجَهُ؛ وذلك لبُعد العهد، وعدم قرينة تخصيص الاستفتاح بالاستمطار؛ ولأنّ الكلام على ذلك التّقدير يتناول أهل مكّة تناولًا أوليًّا، فإنّ المقصود من ضرب القصّة أن يعتبروا[3].

والضّمير في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ للكفّار والعطف حينئذٍ على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أيّ: قالوا ذلك واستفتحوا على نحو ما قالت قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: 16]، وكأنّهم لمّا قوي تكذيبهم، وأذاهم ولم يعاجَلوا بالعقوبة؛ ظنّوا أنّ ما قيل لهم باطل؛ فاستفتحوا على

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 410.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

سبيل التَّهَكُّم والاستهزاء كقول قوم نوح عليه السلام: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: 32]، وقوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا﴾ [الشّعراء: 187] إلى غير ذلك. ويمكن أن يكون الاستفتاح للرّسل وللمؤمنين فيكون العطف على ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على هذا أيضًا؛ بل ظاهر كلام بعضِهم أنّ العطف عليه على القراءة المشهورة مُطلق[1]. فيكون الاستفتاح للرُّسُل وللمؤمنين طلبًا للنُّصرة على الكافرين.

دلالة القراءة بالأمر في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾:

الأمر بالاستفتاح وطلب النّصر من الله وتعذيب الكفرة

قرئَ شاذًّا (واستَفتِحوا) بلفظ الأمر[2]، على معنى الأمر للرّسل، قرأها ابن عبّاس ومجاهد وابن محيصن[3]. وعطفه على قوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾؛ أيّ: أوحى إليهم ربُّهم، وقال لهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا[4].

نكتة زيادة المبنى في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾:

دلالة حروف الزّيادة على عظيم شأن طلب الفتح من الله سبحانه

تدلّ زيادة المبنى على زيادة المعنى، فكلّما كانت الحروف المُضافة إلى مادّة من الموادّ أكثر، كلّما كان المعنى ذا دلالة أكبر، فدلّت زيادة الألف والسّين والتّاء على الفعل (فتح) على الصّعوبة والمُعاناة الّتي كانت قد واجهت المُستفتِحين، وما آلت إليه أمورُهم، وما واجههم من القتل والتّهجير، وهم يستفتحون من اللّه النّصر والتّمكين.

غرض الحذف في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾:

عدم ذِكْر نُصرة المؤمنين باعتباره أمرًا مُسلَّمًا به

في الكلام إيجاز بحذف الفاء الفصيحة والمعطوف عليه؛ أيِ: استفتحوا ففُتح لهم، وظفروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلُّ جبّار عنيد، وهم قومهم المعاندون[5]. أو استفتح الكفّار على الرُّسل وخابوا

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.
(2) الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر: 342.
(3) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/330.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

ولم يفلحوا؛ وإنَّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتَّجبّر والعناد، أو استفتحوا جميعًا فنُصر الرُّسل، وأنجز لهم الوعد، وخاب أعداؤهم. والجبّار: المُتكبِّر على طاعة اللّه تعالى وعبادته، والعنيد: المُعاند للحقّ[1]، والحذف يُتيح تقديراتٍ للمحذوف يُرشد إليها السّياق، والذِّكر يمنع ذلك، فوراء الحذف تغزيرٌ للمعاني كما مضى بيانه.

دلالة الواو في: ﴿وَخَابَ﴾:

الخَيْبةُ لاحقةٌ بالكافرين جَرّاء تجبُّرهم وعنادهم

في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، ﴿وَخَابَ﴾: (الواو) حرف عطف، (خاب) معطوف على محذوف، وتقديره: استفتَحوا، فنُصِروا، وخاب، ويجوز أن يكون عطفًا على ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ على أنَّ الضَّمير فيه للكافرين[2]؛ بمعنى أن يكون الكافرون هم الّذين استفتحوا ذلك باعتبار أنَّهم كانوا يزعمون أنَّهم على الحقِّ؛ أي: استفتح الكفّار على الرّسل عليهم السلام، وخابوا، ولم يفلحوا.

سرُّ التّعبير بالفاعل شاملًا مُضافًا ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾:

الجَبَروت والعناد صفتان مُتلازمتان عند الطّغاة

آثر البيان القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ﴾ ألّا يكون التّعبير على نحو: (وخابوا)؛ وإنّما جاء بالفاعل شاملًا كلَّ موصوف بالصّفتيْن المُضافتيْن تضمينًا لسبب الخَيبة، فقد أبرز صفتيْن لهؤلاء المُستحقّين للإهلاك في الدّنيا ولعذابٍ عظيم في الآخرة، فوصفهم بالجَبَروت والعناد، وسوف يُحاسب كلّ واحدٍ منهم على ما في نفسه من الجَبَروت والعناد، فكلٌّ يأخذ ما يستحقّ على قدْرِ تعاظم هاتيْن الصّفتيْن في قلبه ونفسه وأفعاله وأقواله؛ وهما صفتان متلازمتان عند رؤساء الكُفر من الطّغاة، وهو دالٌّ أيضًا على أنّ هاتيْن الصّفتيْن من صفات الكافرين المُستفتح عليهم فيما سبق،

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307 - 308.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

ولو عبّر بالضّمير بدل ذلك لما ظهرت هاتيك المعاني، فكأنّها وصفٌ لجرائمهم والدّوافع إليها من الجبروت والعناد.

نكتة الجمع بين ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾:

تجتمع الصّفتان لأنّهما من الطّبائع النّفسيّة المتقاربة

المُراد بالجبّار في قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ المتكبّر على طاعة الله تعالى وعبادته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم: 14]. أمّا العنيد فقد اختلف أهل اللّغة في اشتقاقه، قال النّضر بن شُميل: العُنود: الخلاف والتّباعدُ والتّركُ، وقال غيره: أصلُه من العند وهو النّاحية، وعاند فلانٌ فلانًا إذا جانبه وكان منه على ناحية. وكونه جبّارًا مُتكبّرًا إشارة إلى الطّبائع النّفسيّة، وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصّادر عن تلك الطّبائع وذلك الخُلُق، وهو كونه مُجانبًا للحقِّ مُنحرفًا عن الاستقامة، ولا شكّ أنَّ الإنسان الّذي يكون خُلُقه هو التّجبُّر والتّكبُّر، وفعله هو العنود، وهو الانحراف عن الحقِّ والصِّدق، كان خائبًا عن كلّ الخيرات خاسرًا عن جميع أقسام السَّعادات[1]، وهاتان الصّفتان متلازمتان أبدًا لا توجد إحداهما دون الأخرى.

بلاغةُ الجناس النّاقص في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مع قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾:

بيان الحالة القلبيّة بين المؤمن والكافر

ثمّة جناس ناقص بين (خاف) و(خاب)، فالشَّطر الأوّل من الجناس لِمَن خاف وعيدَ الله تعالى، بينما تكون الخَيبة للجبّار العنيد، فأفاد الجناس أنَّ الجامع بين الاثنَيْن حالةٌ قلبيّة؛ لكنّها معكوسة بين الفريقَيْن، فذكَر الفريقَيْن على سبيل المقابلة، ليكشف عن حالتِي النَّفس المتناقضتَيْن فيهما.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78 - 79.

نكتة تنكير ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾:

تحقير وتهوين صفتي التّجبّر والعناد

أفاد تنكير صفتي ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾ التَّهوين والتّحقير، فمهما كان ذلك الجبّار مُتغطرسًا عنيدًا في الدّنيا؛ فإنّه في الآخرة هيّنٌ حقير، وتصيبه الخَيبة والخِذلان لا محالة.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ [إبراهيم: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بيانُ جانبٍ من جوانب الخَيبة للجَّبّار العنيد

بعد أن بيّن ﷻ في الآية السّابقة خَيبةَ كلِّ جبّار عنيد؛ وما تلك الخَيبة إلّا لتوكُّله على ما يملك من قوّة أو سلطة من زخرف الدّنيا الزّائف، فتراه مُتكبّرًا متجبّرًا، جاءته نقمة اللّه، وجاءه من الخسران في الدّنيا، وجهنّم تلاحقه وتحيط به في الآخرة، وإذا بمشهد وحيد يتصدّر؛ وهو: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾؛ فلعلّه أبشع ما يمكن أن يتصوّره أولئك المتكبّرون المُتنعّمون بالدّنيا وزينتها أن يُسقَوْا يوم القيامة بماءٍ عفِنٍ خارج من أجساد الكافرين أمثالهم.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَرَآئِهِۦ﴾: جذر الكلمة (وري)؛ أَوْراه غيره، ووَرّاه تَوْرِيَةً: أخفاه، وتوارَى: استتر، ووَراء بمعنى: خَلْف، وقد يكون بمعنى قُدّام، وهو من الأضداد، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ [الكهف: 79]؛ أيَ: أمامهم، وتقول: وَرَّى الخبر تَوْرِيةً؛ أي: ستره، كأنّه مأخوذ من وراء الإنسان، كأنَّه يجعله وراءه حيث لا يظهر[1]. يُقال: وارَيْتُ كذا: إذا سترته، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26]، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]، ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد: 13]، ﴿فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ﴾ [النّساء: 102]، وقوله: ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ﴾ [الحشر: 14]، فإنَّ ذلك يُقال في أيّ جانب من الجدار، فهو وَراءَهُ باعتبار الّذي في الجانب الآخر[2].

2) ﴿صَدِيدٖ﴾: جذر الكلمة (صدد)، والصَّديد: ما يسيلُ من

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ورى).
(2) الرّاغب، المفردات: (ورى).

أجساد أهلِ النّار. وقيل: ما حالَ بين الجلدِ واللَّحم من القَيْح[1].

الصُّدودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النّساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمّد: 1].. إلى غير ذلك من الآيات[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جـانـبٌ من جوانب الخَيْبة في الآخـرة، هي الخَيْبة الكبرى

بيّنت الآية الكريمة جانبًا من جوانب الخَيْبة الّتي مُنِيَ بها الكافرون الّذين قد استفتحوا فخابوا، فأظهرت الآية صورة الخَيْبة الكبرى في نار جهنّم قد أحاط بهم العذاب من كلّ جانب، وإن طلب السُّقيا؛ سُقيَ من ماءٍ صديد؛ هو عُصارة ما يخرج من أجساد المُعذَّبين في النّار، وما أفظع ذلك العذاب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ ودلالته:

الـدُّنـيـا جسر الآخــرة، ومَـن خـاب في الدّنيا فإنّ خيبة الآخرة أعظم

قوله ﷻ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ جملة في محلّ جرٍّ صفة لـ ﴿جَبَّارٍ﴾؛ وهي كناية عن طلبها له وترصُّدِها إياه، فهي مُدرِكةٌ له لا مَحالة. وقيل: على تقدير مُضاف؛ أيْ: من وراء حياته وانقضاء عمره[3]. فتكون العبارة قد ذكرت الدّنيا والآخرة؛ لأنّ الدُّنيا ومواقفها هي جسر الآخرة، ومَن كُتبت عليه خَيْبة الدّنيا بالكفر والإصرار عليه، فقد خاب وخسر في الآخرة خسرانًا مبينًا.

غرض الكناية في ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

تهديدُ الجبّارين المـعـانـديـن كـسـرٌ لـشوكة عنادهم وهزيمةٌ لاستعلائهم

(وراء) من الأضداد، فهي تدلّ على الخلف المستور والأمام غير المنظور، وأصل المعنى من الوري والاستتار، والسّياق يمحّضها لمعنى

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3106.

(2) الرّاغب، المفردات: (وري).

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/308.

الأمام المستور، والغرض تهديد المُعاندين الجبّارين بما هو مُستتر عنهم وقادمون إليه لا محالة، وفي التّهديد كسرٌ لكبريائهم، فـ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾؛ بمعنى: من بين يديّه، وهذا وصف حاله وهو في الدُّنيا، لأنّه مرصدٌ لجهنّم، فكأنّها بين يديّه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف.

سرُّ تخصيص نوعٍ واحد من العذاب بالذّكر:

المـــاءُ مطلبٌ لاستمرار الحياة وهو في جهنّم سبب للعذاب

خصّصتِ الآية نوعًا واحدًا من العذاب بالذّكر، لبيان أنه هو النّوع الأفظع والأدْعى للاعتبار والكفّ في الدّنيا عمّا يؤدّي إليه من الكفر والإصرار، فجعل قولَه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ كافيًا عن ذِكر ما سواه.

معنى حرف الجرّ في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

العذاب يأتي المُتجبّر العنيد من ورائه ومن أمامه

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ ابتداء الغاية، فيكون الوراء وهو ما خفي عن الإنسان وغفل عنه هو الموضع الّذي يأتيه منه العذاب، بمعنى أنّه من المفترض أن يصيبه العذاب حتمًا، ثم إنّه يُسقَى مقابل ذلك، والسَّقْيُ يكون من أمامه ماء، هو ليس كالماء إنّما هو ماءٌ صديد.

بلاغة الاستعارة في: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

تنوّعُ دلالة (الوراء) في الآية الكريمة دليل ثراءٍ لغويٍّ

قوله عزَّ من قائل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أيْ: من قُدّامه وبين يديّه، واستعمال (وراء) في هذا وذاك بناء على أنّها من الأضداد عند بعضهم، ويمكن أن تكون من المشتركات المعنويّة؛ فهي موضوعةٌ لأمرٍ عامٍّ صادق على القُدّام والخلف، وهو ما توارى عنك، وقد تفسّر بالزّمان مجازًا فيُقال: الأمر من ورائك على معنى أنّه سيأتيك في المستقبل من أوقاتك[1]، فالوراءُ مُستعمَلٌ في معنى ما ينتظره ويحِلّ به من بعد، فاستُعيرَ لذلك بجامع الغفلة عن الحصول، كالشّيء الّذي يكون من وراء المرء لا يشعر به؛ لأنّه لا يراه[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/210.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ قدّم شبه الجملة الجار والمجرور ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾، تشويقًا للمُسنَد إليه من باب التّهكّم بهم، والتّشنيع عليهم، وذلك متناسب مع جُرم عملهم وتجاوزهم.

تقوية معنى الخفاء عن نظر الإنسان

غرض تنكير ﴿جَهَنَّمُ﴾:

جاء تنكير جهنّم للتّهويل في قوله جلّ ثناؤه: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ بيانًا لما يلحق بهم من خطرها، كما أنّ في تنكير (جهنّم) إشعارًا بما هو مُخبّأ لهم فيها من أصناف العذاب والأهوال ممّا لا يُعرف ولا يُدرك، ثمّ أبرز نوعًا واحدًا من أصناف العذاب الّذي لا يُطيقه أحدٌ قط؛ فقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

الإشعار بأنّ المخبّأ في الآخرة عظيمٌ

فائدة عطف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ على ما قبلها:

عُطف قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ على محذوفٍ تقديره: من ورائه جهنّم يُلقَى فيها، ويُسقَى من ماءٍ صديد[1]، وفيه بيان لتنوّع العذاب في الآخرة، ولعلّه من قبيل عطف الخاصّ على العامّ للإشادة بالخاصّ، لأنّه خصّص سُقيا الماء الصّديد من بين أصناف العذاب الكثيرة.

تنوّع العذاب في الآخرة بتنوع جُرم المُعذّبين، ولكلٍّ نصيبه المُقدّر

نكتة التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول: ﴿وَيُسْقَىٰ﴾:

في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أُسند فعل السُّقيا إلى المفعول، لعدم تعلّق غرضٍ بذكر الفاعل، أو يأتي البناء للمفعول للتّهوين، وعدم الاكتراث بحالهم، على الرّغم من سوء العذاب وشديده، ولتعظيم شأن الفاعل، فلا يُذكر صراحةً لما هم فيه من المهانة، حتّى ينشغلوا بالفعل عن الفاعل، وذلك على خلاف ذِكر الفاعل في وصف سُقيا أهل الجنّة قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21].

تصوير الحال المَهين لأهل النّار يوم القيامة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513، وابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

دلالة (مِن) في: ﴿مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾:

بيان جنس الماء الّذي يُسقَوْنَ منه وتصوير مهانتهم

في قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ تتجلّى فائدة (من)، وهي بيان جنس الماء الّذي يُسقَوْنَ منه، فخصّ هذا الوجه من عذاب أهل النّار دون غيره مع كثرتها، وسبب ذلك أنّه قد تكون هذه الحال أشدّ أنواع العذاب، فخُصِّصَ بالذِّكر مع قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾(1)، وتخصيصُه بالذّكر من بين عذابها يدلّ على أنّه من أشدّ أنواعِه(2)، وقد تكون ﴿مِن﴾ ابتدائيّةً على معنى أنّ أوّل ما يُبدأ فيه من السُّقيا هو الماء الصّديد.

نكتة تنكير ﴿مَّآءٖ﴾:

بيان طبيعة الماء الّذي يُغاث به الذين كفروا عند طلبهم السّقيا

جرى تنكير ﴿مَّآءٖ﴾ في قوله ﷻ: ﴿مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ للتّنويع، ويدلّ على أنّه ماءٌ لا يمتلك صفات الماء المعهود لدى المُخاطَبين، وإنّما سُمّي بالماء تماشيًا مع ما يجول في نفوس المُعذّبين من أمنيات، من طلب الماء والاستغاثة؛ فتكون إغاثتهم بما هو أبعد شيء عن صفات الماء وفائدة شربه؛ وهو الصّديد أو القَيْح النّازل من جلود أهل النّار، والعياذ بالله، فيطلبون الماء للرّيّ والتّبريد؛ فيأتيهم عذابٌ بما سُمّي بالماء الصّديد.

نكتة التّعبير بـ﴿صَدِيدٖ﴾:

الصّدُّ والصّديد من مادّة لغويّة واحدة

الصّديد: جذر الكلمة هو (صدد)؛ والصُّدودُ والصَّدُّ انصرافٌ وامتناعٌ عن الشّيء، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النّساء: 61](3)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [مُحمّد: 1]، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 25]، إلى غير ذلك من الآيات. وعلى مذهب البصريّين هو بدلٌ من ماءٍ؛ إن اعتُبِرَ جامدًا، أو نعتٌ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/79.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/39.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 309.

إن اعتُبِرَ فيه الاشتقاق من الصَّدِّ؛ أي: المنع من الشُّرب كأنَّ ذلك الماء لمزيد قُبحه مانعٌ عن شربه، أو هو بمعنى مصدودٌ عنه؛ أيِّ: لكراهته، وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة، وإنّما أُطلِقَ عليه باعتبار أنَّه بدله[1]. ونكتة اختيار لفظ صديد في عذاب هؤلاء الّذين كفروا بالرّسالات، وصدّوا النّاس عن الإيمان بها، أنّ المادّة اللّغويّة للصدّ والصّديد هي واحدة.

نكتة الإيضاح بعد الإبهام:

وصفٌ لطبيعة الماء الّذي يشربه الكفّار في جهنّم

في قوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾؛ الصّديد: هو الدَّمُ والقَيْحُ، وأعربه الزّمخشريّ عطف بيان لـ ﴿مَّآءٖ﴾، وفي إبهامه أولًا ثم بيانه من التَّهويل ما لا يخفى، وجواز عطف البيان في النّكرات مذهبُ الكوفيّين[2]. فلمّا قال: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ﴾، ناسب إيراد السُّقيا مع الماء، فالسّقيُ يكون بشرب الماء باسْتساغةٍ وراحة، لكنّه لمّا وضّح طبيعة الماء ظهرت شناعة صفاته وقبحُ حال مَن يشربه، فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

سرُّ تخصيص نوع واحد من العذاب بالذّكر:

الماء مطلبٌ لاستمرار الحياة وهو في جهنّم سبب للعذاب

خصّصتِ الآية ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ نوعًا واحدًا من العذاب بالذّكر، لبيان أنّه هو النّوع الأفظع والأدْعَى للاعتبار والكفّ في الدّنيا عمّا يؤدّي إليه من الكفر والإصرار، فجُعل قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ كافيًا عن ذِكر سواه.

التَّشبيه البليغ في قوله: ﴿مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾:

يشرب الكافرون ماءً يشبه الصّديد

جاء الوصف ﴿مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ على طريقة التَّشبيه البليغ في حذف أداة التَّشبيه ووجهه، أيِّ: ماء مثل صديد، وعلى هذا فليس الماء الّذي تشربونه صديدًا، بل مثله في النَّتنِ والغِلَظ والقذارة، كقوله تعالى:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/191.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/191.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: 29]. ولمّا كان الصّديد يشبه الماء في سيلانه، فقد أُطلق عليه ماءً، وهو ليس بماء حقيقةً، وعلى هذا فيكون: (يشربون الصَّديد نفسه) المشبَّه للماء[1]. وقيل: بأنّ يخلق الله تعالى في جهنّم ما يشبه الصَّديد في النَّتن والغِلَظ والقذارة، وهو أيضًا يكون في نفسه صديدًا، لأنَّ كراهته تصدُّ عن تناوله، وهو كقوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد: 15]، وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: 29][2].

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآية الكريمة استكمال لما ذُكر من العذاب الأليم المُعدّ للكافرين في النّار في الآية السّابقة؛ لأنّها صفةٌ له أو حالٌ منه، أو استئنافٌ بيانيٌّ فالعلاقة وثيقة.

تصوير مشهد من مشاهد العذاب في النّار يوم القيامة

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: جَذر الكلمة هو (جرع)؛ جرعَ الماءَ يجرَعه جرعًا، والجُرعة الْواحِدَة، والْجمع: جُرَعٌ[1]. والجُرْعَة: قدْر ما يتجرّع، بقدر جُرعة من النَّفَس[2]. وجَرِعْتُ الماءَ أجْرَعُهُ جَرْعًا، واجترعته، وكلّ شيءٍ يبلعه الحلق فهو اجتراع. وإذا جَرَعه بِمَرّة قيل: اجترعه. والاجتراع بالماء كالابتلاع بالطّعام[3]، وتجرَّعه إذا تكلّف جرعه[4]، والتَّجَرُّع: تتابعُ الجرعِ مَرَّة بعد مَرَّة[5]. وفي الآية: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: تصوير لطلب شُربه، لكنّه لا يستسيغه ولا يطيق شربه إلّا بدفعات متوالية.

2) ﴿يُسِيغُهُۥ﴾: جِذرُ الكلمة هو (سوغ)؛ ساغَ الشّراب في الحلق: سهُل انحدارُه في الحلق[6]، وأساغَهُ كذا، قال: ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النّحل: 66]، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، وفلان سوّغ أخيه: إذا ولد إثره عاجلًا تشبيهًا بذلك[7]؛ ساغَ الشّراب سهُل مدخلُه في الحلق.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن دُريد، جمهرة اللّغة، وابن سِيده، المُحكم: (جرع).
(2) الرّاغب، المفردات: (جرع).
(3) الخليل، العين: (جرع).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جرع).
(5) الخليل، العين: (جرع).
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، الصّحاح: (سوغ).
(7) الرّاغب، المفردات: (سوغ).

3) ﴿غَلِيظٌ﴾: جذر الكلمة (غلظ)؛ والغِلْظَةُ ضدّ الرّقّة، وأصله أن يُستعمل في الأجسام؛ لكنْ قد يُستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التّوبة: 123]؛ أيْ: خشونة. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: 24]، وقال: ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: 58]، وقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: 73][1]، واسْتَغْلَظَ: تهيّأ لذلك، وقد يُقال إذا غَلُظَ. واستَغْلَظَ النَّباتُ والشَّجَرُ. قال: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][2]. وأَغْلَظْتُ الثَّوبَ: وجَدْتُه غَليظًا، واستَغْلَظْتُه: تركتُ شراءه لِغلَظِه. وغَلَّظْتُ عليه، وأَغْلَظْتُ له في المنطق. وأمر غَليظٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـشــهــد من مشاهد القيامة لحال المشركين وعذابهم

في قوله ﷻ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ تَصويرٌ لِما سَيؤولُ إليه حالُ المُعاندِ الجبّار من الّذين جابهوا الرُّسُل وهدّدوهُم وآذَوهم، فبيّنت الآية صورةً واحدة من صور عذابهم يوم القيامة وهم يتجرّعون الماء الّذي ليس كالماء؛ بل صديدٌ خارج من أجساد المُعذّبين، فأنّى يقدرون على سوغه وشربه، فهم يتجرّعونه فيشربونه على دفعات، فيكون الموت محيطًا بهم من كلّ جانبٍ، لكنّه لا يأخذهم فيستريحوا، ولا يُخفّف عنهم من العذاب؛ بل ينتظرهم عذابٌ غليظ عظيم والعياذ بالله.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ممّا قبله ودلالته:

يـكــون شُـقـيـا الكافر من ماء لا يكاد يسيغه في جميع أحواله

قوله جلّ ثناؤه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، إمّا أن يكون صفةً

(1) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (غلظ).
(3) الخليل، العين: (غلظ).

لماء، وإمّا أن يكون حالًا من نائب الفاعل (يُسقَى)، والأظهر أنَّه استئنافٌ بيانيّ مبنيٌّ على السّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ فماذا يفعلُ به؟ فقيل: يَتَجَرَّعُهُ؛ أيْ: يتكلَّفُ جَرْعه مرّةً بعد أخرى لغلبة العطشِ واستيلاء الحرارة عليه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أيْ: لا يقارب أن يسيغه، ناهيك عن الإساغة؛ بل يغَصّ به فيشربُه جرعةً بعد جرعةً فيطول عذابُه[1].

دلالة التّعبير بـ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾:

يشرب الكافر جُرعةً بعد جُرعةٍ في عذاب دائم

قوله ﷻ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، يصور كيفية شرب الكافر للماء الصّديد، وتجرَّع: (تفعَّل)، فيكون للتّكلف؛ أيْ: يتكلَّف جرعهُ، أو أنَّه دالٌّ على المُهلة، نحو تفهَّمتهُ؛ أيْ: يتناوله شيئًا فشيئًا بالجرع كما يفهم شيئًا فشيئًا بالتّفهيم، أو أنّه بمعنى (جرع) المجرّد، والمعنى: يتحسّاه ويشربه لا بمرّة واحدة[2]. ودلالة المُضارع فيها على الاستمرار والتّجدّد لعدم ارتواء الكافر بشربه فهو يحتاج إلى هذا التّجرّع في كلّ وقت ولا ينتهي منه.

معنى ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾:

بيان حالات العذاب الّتي تحيط بالكافر وهو يتجرّع الماء

أورد الفخر الرّازيّ في تفسيره معنيَيْن لقوله ﴿يَكَادُ﴾[3]: الأوّل: (يكاد) نفيه إثبات، وإثباته نفي، فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أيْ: ويسيغه بعد إبطاء، والدَّليل على حصول الإساغة قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحجّ: 20]، ولا يحصل الصَّهر إلّا بعد الإساغة، وأيضًا فإنّ قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يدلّ على أنّهم أساغوا الشّيء بعد الشّيء. والثّاني: يمكن أن يفهم معنًى آخر باعتبار أنّ (كاد) للمقاربة؛ فيكون: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ لنفي المقاربة؛ يعني: ولم يقارب أن يسيغه؛ بمعنى: لا تحصل الإساغة، ومثلها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3106.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.

﴿يَرَىٰهَاۗ﴾ [النّور: 40]؛ أيْ: لم يقرب من رؤيتها فلا يراها، فيكون المعنى: ولا يسيغ جميعه؛ كأنَّه يجرع البعض وما ساغ الجميع. فمع وصول بعض ذلك الشَّراب إلى جوف الكافر، إلّا أنَّ ذلك ليس بإساغة، لأنَّ الإساغة في اللّغة إجراء الشّراب في الحلق بقبول النّفس واستطابة المشروب، والكافر يتجرّع ذلك الشَّراب على كراهية ولا يُسيغه؛ أيْ: لا يستطيبه ولا يشربه شربًا بمرّة واحدة، وعلى هذيْن الوجهيْن يصحّ حمل ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ على نفي المقاربة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾:

وصف حال الكافر وهو يتجرّع الصّديد

في قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، واو الحال، هي الواو الدّاخلة على جملة اسميّة أو فعليّة تكون في موضع الحال، فجملة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أو من مفعوله، أو منهما جميعًا(1). وفائدتها هُنا بيان حال الكافر وهو يشرب من الماء الصّديد، وما في ذلك من الكراهة والاختناق وتعسُّر البلع، وإرجاعه بعد شربه، وقُلْ ما شئت من حال صعوبة استساغة هذا الماء القَذر الكَريه.

دلالة التّعبير بـ ﴿يُسِيغُهُۥ﴾:

المعذَّبُ مكرَهٌ على ما يقبل ولا يسوغ جزاء عناده وتجبرّه

السّواغ هو انحدارُ الشّراب في الحَلق بسهولَةٍ وقَبولِ نفسٍ، ونفيُه لا يوجب نفيَ ما ذَكَرَ جَميعًا، وقيل: لا يكاد يدخُله في جوفه، وعبّر عنه بالإساغة لأنّها المعهودةُ في الأشربة، وهو حالٌ من فاعلِ يتجرّعه، أو من مفعوله، أو منهما جميعًا(2). و﴿يُسِيغُهُۥ﴾ مضارع يفيد التّجدّد، فدلّ على المحاولات المُتجدّدة التّي يبذلها المُعذَّب بُغية تقبّله وإساغته.

معنى الواو في: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

تنوّعُ حالات العذاب على الكافر واجتماعها قهرٌ لكبريائه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ عاطفة للجمع، فقد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.

جُمعت على الكافر أصنافُ العذابِ، وأتته من كلّ مكان، وأحاطت به مجتمعة عليه. كما أفادت تنوّع العذاب على الكافر، فالموت الّذي يأتيه من كلّ مكان لا يكون بسبب ما يتجرّعه من الصّديد، وإنّما من أسباب أخرى من العذاب.

بلاغة التَّتميم في: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾:

بيانُ سوء حال الكافر وهو يتجرّع الصّديد

التَّتميم في الآية أنواعٌ ثلاثة: تتميمُ النَّقص، وتَتْميمُ الاحتياط، وتتميمُ المبالغة، فقد قال: يتجرَّعه، ولو قال: يجرعه، لما أفاد المعنى الّذي أراده؛ لأنّ جرع الماء لا يُشير إلى معنى الكراهية، ولكنّه عندما أتى بالتّاء على صيغة التّفعُّل أفهم أنّه يتكلّف شربه تكلّفًا، وأنّه يعاني من جرّاء شربه ما لا يأتي الوصف عليه من تقزُّزٍ وكراهيّة، ثمّ احتاط للأمر؛ لأنّه قد يوهم بأنّه تكلّف شربه، ثم هان عليه الأمر بعد ذلك، فأتى بالكيدودة؛ أيْ إنّه تكلّف شربه وهو لا يكاد يشربه، ولو اكتفى بالكيدودة لصلح المعنى دون مبالغة، ولكن عندما جاءت ﴿يُسِيغُهُۥ﴾ أفهم أنّه لا يسيغه؛ بل يغصُّ به فيشربه بعد المحاولات والدّفع النّفسيّ، جرعةً بعد جرعة، فيطول عذابه تارةً بالحرارة ومرّةً بالعطش[1].

نكتة الكناية في ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾:

الشدَّةُ المحيطة بالمعذَّب زيادة في تعذيبه وقهره

في قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾؛ كأنّ أسبابَ الموت وأصنافَه كلَّها قد تألَّبَت عليه، وأحاطت به من جميع جهاته، تفظيعًا لما يُصيبه من الآلام؛ الّتي هي آلام الموت، وفي العبارة ما فيها من التّشخيص، فجعل الموت كرجلٍ مطاردٍ له يطلب قتله، فيعيش المُعذّب في فَزَعٍ دائم من أهوال الموت وعذابه، لكنّه ليس بميّت، وفي قوله: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾؛ أي: من جسده كلّه، حتّى من إبهام رِجْلِه[2].

(1) القِنّوجيّ، فتح البيان: 7/98.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513.

فجعل الموت شاخصًا أمامه ومن ورائه مُحيطًا به، يتجرّع آلامه دون أن يموت.

نكتة الاستعارة: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

موجباتُ الموت متحقّقةٌ فيه من كلّ جهاته

يظهر المجاز اللّغويّ في قوله تعالى ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ أيّ: أسبابه من الشّدائد وأنواع العذاب، فالكلام على المجاز المرسل[1]، ويمكن أن يكون استعارةً مَكنيّة، فالموت كإنسان يطلبُ قتلَ المُعذَّب من الكفَرة المارقين، فحذف الإنسان وهو المُشبّه به، وذكر شيئًا من لوازمه وهو الإتيان، وصرّح بالمُشبّه، فالموت لا يأتي، فأسند الإتيان إلى الموت على طريقة الاسْتعارة المكنيّة وهي تبعيّة؛ لأنّها وقعت في مشتقّ. والمعنى: أنّ موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات، ومع ذلك فإنّه لا يموت[2]. فتأتيه أسباب الموت من الشَّدائد وأنواع العذاب[3].

دلالة (اللّام) في: ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾:

عذابٌ عظيم بتحقُّق موجبات الموت دون أن يموت

الموتُ معرّفٌ هُنا بـ(اللّام) العهديّة لبيان عظيم شأنه، فالموت يأخذ الأرواح، يفْصلها عن أجسادها، فلا يبقى للجسد إحساسٌ بشيءٍ، لكنّه هُنا يكون إتيانُ الموت من كلّ مكانٍ، وفي كلِّ لحظة، لكنّه لا يموت أحدٌ منهم، ولا يُخفّف عن أحدهم شيءٌ: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾[4].

دلالة ﴿مِن﴾:

كلُّ مكان من جسد الكافر هو مبتدأ للموت

في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ جاءت ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، فيكون كلّ مكانٍ من حوله هو مبتدأ الموت إليه، ويكون هو منتهى الغاية؛ بمعنى أنّه كان من المُفترض أن يصيبه الموت حتمًا، إصابات لا حصرَ لها، فلا محالة أنّه ميّت، لكنّ يستدرك السّياق بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/140.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(4) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

الغرض البلاغي لتنكير ﴿مَكَانٖ﴾:

تنكيرُ المكان لفائدة العموم، فالمعنى المُراد من ذلك أنّ الموت يحيط به من جميع الجهات، من كلّ مكان من جسده، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز، وهذا الإتيان في الآخرة، والحال أنّه ليس بميّت حقيقة كما هو الظّاهر من مجيء أسبابه على أتمّ وجه، فيستريح ممّا غشيَه من أصناف الموبقات[1].

أهوال الموت تأتي من الأمكنة حول جسده كلّه

معنى الواو في قوله ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾؛ (الواو) فيه حاليّة، وحال الكافر الموصوف في الآية أنّه لن يموت مع تحقُّق أسباب الموت من كلّ جانب، فيبقى خالدًا على هذا الحال فلا موت في الآخرة، على الرّغم من أنّ الموت قد أحاط به من كلّ مكان وجانب، وأسبابه قائمة، ومظاهره على أشدّها، إلّا أنّه لا يموت أبدًا.

حالُ الكافر بالله ورسالاته الخلودُ في العذاب فلا يموت

نكتة تقديم النّفي ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾:

فائدة تقديم النّفي بـ ﴿وَمَا﴾ على المُسنَد إليه ﴿هُوَ﴾ والمُسنَد الفعليّ ﴿بِمَيِّتٖۖ﴾ يُفيد التّخصيص، كما هو مُقرَّرٌ في علم المعاني، على معنى أنّ غيره يموت، أمّا هو فلا، وفي هذا ما فيه من العذاب المعنويّ، والقهر النّفسيّ بتخصيصه بهذا النّوع من العذاب.

يخلد أهل النار فيها فلا يخرجون مهما استغاثوا من عذابها

فائدة التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾:

تُفيد الجملةُ الاسميّةُ دلالة الثّبوت؛ إذ يبقى هذا المُعذّب على هذا النّحو حِقبًا ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾؛ فتكون حياتُه حياةَ مَن يُنازع الموت، دون أن يموت، ودون أن يخفّف عنه بشيء.

دَيمومةُ هذه الحالة من العذاب للكافر حِقَبًا طويلة

معنى الباء في قوله ﴿بِمَيِّتٖۖ﴾:

في قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾، جاءت

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.

لا يموت الكافر في النّار وإن طلبَ الموت ليستريح

(الباء) ﴿بِمَيِّتٍۖ﴾ لتوكيد النّفي، فهو لن يموت أبدًا مهما بلغ به العذاب، وأحاط به الموت وعاش أسبابَه، وذاقَ أشدّ العذاب، ويكون الموت حينذاك مطلبًا عزيزًا لكنّه لا يُدركُه أبدًا. و(الباء) للإلصاق عمومًا، فقد أفادت (الباء) إلصاقَ الموت به وبجسده، وما هو بميّت، تهويلًا لما يلاقيه من العذاب.

معنى الواو في قوله ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

اجتماعُ أصناف العذاب الشّديد مع دَيْمومتِه

في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ (الواو) عاطفة، وهي للجمع، وأفادت وصل جملة: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ بجملة: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾؛ وذلك لإفادة حيثيّات العذاب وتنوّعه في الوقت ذاته؛ إذ تجتمع كلّها على الكافر، وفي الصّورة ما فيها من التّرهيب من عذاب اللّه وغضبه.

عَوْدُ الضّمير في: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

العذابُ الغليظ المصير الطبيعيّ المُعدّ لكلِّ جبّار عنيد

قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، في الضَّمير وجهان: أظهرُهُما: أنّه عائد على ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ ليناسب جبروتَه في الدّنيا، والثّاني: أنَّه عائدٌ على العذاب المُتقدِّم؛ أيْ: من ورائه جهنّم، ومن ورائه عذاب غليظ، فيكون من وراء هذا العذاب عذابٌ آخر؛ وُصِفَ بالغليظ، لتميّزه عن سابقه، فكأنّه أشدُّ وأقوى منه، فأفاد تعداد أنواع العذاب وتنوّع أشكاله وصوره[1].

معنى (من) في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

أشد المباغتة تكون من الخلف لغفلة صاحبها عنها

في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: (من) للابتداء؛ وفائدتها تحقيق معنى أنّ أشدّ العذاب مُبتدئٌ من ورائه ومتّجهٌ نحوه، والوراء يكون الإنسان عادةً في غفلة عنه، وهذا سبب تخصيص جهة الوراء بعد أن بيّن أنّ الموت يأتيه من كلِّ مكان.

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

الاهتمام بالوراء كونه جهة غفلة المقصود

في تقديم شبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ اهتمامٌ بهذه الجهة، باعتبارها جهة غفلة المقصود بهذا الوصف؛ وهم الّذين جحدوا بما جاءتهم به الرّسل من الرّسالة، فقدّم ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ليُعلم أنّه قد أُحيط به من كلّ مكانٍ وأكّد بإتيانه من الوراء، لأنّها جهة الهروب فيُفجأ بعذابٍ غليظ.

نكتة تكرار ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

الاهتمام بجهة الوراء لتواريها عن الأنظار

في تكرار شبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ للاهتمام بهذه الجهة لما فيها من الخفاء عن النّظر، وما تحتمله من غفلة الإنسان عنها، فيأتيه العذاب من حيث هو غافلٌ عن جهته، وما في ذلك من المبالغة في شدّة العذاب وقوّة مباغتته.

الغرض من تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

تعدُّد أصناف العذاب الغليظ المُعدّ للكافرين

تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ أفاد تهويل ما يقع عليهم من عذاب اللّه باعتبار أنّه موصوفٌ بالعذاب الغليظ؛ فلمّا نكَّرَهُ أفاد تعدّد أنواعه، وأخفى ما ينتظر الكافر من ذلك العذاب المُهين، ويمكن أن يفيد التّنكير التّنويع على أنّه عذاب ليس كأيّ عذاب.

نكتة التّعبير بالاستعارة ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾:

العذابُ الغليظُ هو الشّديد أو المستمرُّ بلا انقطاع

يقصد بالعذاب الغليظ في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: الخلود في النّار، أو أنَّهُ في كلّ وقت يستقبله يتلقّى عذابًا أشدّ ممّا قبله[1]. وفي الجملة استعارة؛ فقد ورد في تفسير قوله عزّ من قائلٍ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أنّ المُراد أنّه العذاب الدّائم غير المنقطع[2]. وهو العذاب الشَّديد، أو الموثوق الّذي لا يمكن للمُعذَّب أن يُفلت منه، فوجه الشّبه أنّ الشّديد كقوّة الحبل الغليظ الشّديد

---

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.

الوَثاق، فلا ينفكّ عنه المُقيّد لموثوقيّته، فيكون ﴿غَلِيظٌ﴾ استعارةً تصريحيّةً أصليّة.

الكناية في قوله: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾:

الغِلَظةُ تقتضي دَيمومة العذاب وخلودَهم فيه

في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يمكن أن تكون الجملة كنايةً عن الإحاطة والشّدّة، فوصف العذاب بالغلظة، كناية عن قوّته واتّصاله، ثمَّ إنّه قد أحاط بالمُعذّب؛ لأنّ الغلظة تستوجب القوّةَ وتستدعي أن يكون متّصلًا، تتّصل به الأزمنة كلّها فلا انفصالَ بينها[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البلْع والتّجرّع:

في التّجرّعُ شدّةٌ وتألُّمٌ، وفي البلْع سلاسةٌ واستمرارٌ

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ أيْ: يتكلّف تجرُّعَه لقهره عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولخُبثه[2]. والجَرْعَةُ قدْر ما يتجرّع، وهو المقدار المُحدّد من السّائل أو الماء، ونوقٌ مجاريع إذا لم يبقَ في ضروعها من اللّبن إلّا جُرَعٌ[3]، وفيها الدّلالة على القلّة، فقوله: يتجرّعه ولا يكاد يُسيغه، أيْ: مع قلّته فإنّه غير سائغ في حَلْقه، ويُقاسي العذاب في جَرْعه.

أمّا البلعُ ففيه إساغة، وليس فيه تكلّف، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: 44]؛ إذ يدلّ البلع على الكثرة في ابْتلاع السّائل أو الماء، ويدلّ كذلك على الاستمرار دون التّقطّع كما في حالة التّجرّع؛ فإنّه يبلعه متقطّعًا غير مستساغٍ.

الغليظ والشّديد والأليم والعظيم:

عذاب غليظ يدلّ على استمراره أو تنوّعه أو شدّته

الغليظ: الغِلْظَةُ ضدّ الرّقّة، واستُعيرَ هنا للدّلالة على العذاب الشّديد أو المستمرّ الّذي لا ينقطع، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٠﴾ [فُصّلت: 50]، وقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ

---

(1) الرّازيّ، الجدول في إعراب القرآن: 13/173.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 525.

(3) الرّاغب، المفردات: (جرع).

﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 73][1]، واستَغۡلَظَ النَّباتُ والشَّجَرُ. قال: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][2]. وأغۡلَظۡتُ الثَّوبَ: وجَدۡتُه غَليظًا، واستَغۡلَظۡتُه: تركتُ شراءه لغِلَظِه. وغَلَّظۡتُ عليه، وأغۡلَظۡتُ له في المنطق. وأمرٌ غَليظٌ[3].

العذابُ الشّديد الّذي يدلّ أثره على الإنسان وعلى الجسد

وأمّا الشَّديد: الشّدّ: العقد القويّ، والشّدّة تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب، ومن الأخير قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾ [ق: 26]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]؛ ففيه تنبيه على أنّ الإنسان إذا بلغ هذا القدۡرَ يتقوّى خَلۡقه الّذي هو عليه، فلا يكاد يُزايله بعد ذلك[4].

العذاب الأليم يدلّ على أثره في الجلد والألم الّذي هو أحد آثار العذاب

والأليم: الألم: الوجع الشّديد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ [النّساء: 104]، وقد آلمتُ فلانًا، وعذابٌ أليمٌ؛ أيۡ: مُؤلم[5]. والأليم أقلّ من الشّديد، والعذاب الأليم: عذابٌ حِسّيٌّ شديدٌ موجِع، ولعلّ أكثر ما يكون في آلام الجلد واحتراقه.

العذاب العظيم الّذي يدلّ على قوّته وهيبة ما فيه من الأهوال

والعظيم: وعَظُمَ الشّيء أصله: كَبُرَ عظمُه، ثمّ استُعيرَ لكلّ كبير، فأُجرِيَ مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى. قال: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾ [الزّمر: 13]. ويُقال: جيشٌ عظيم، ومالٌ عظيم، وذلك في معنى الكثير، والعظيمة: النّازلة[6].

المَيۡت والميّت:

المَيۡتُ مَنۡ فارقت روحه جسدَه

يُطلق (الميِّتُ) على مَنۡ مات، وعلى الحيّ الّذي لم يمُت بعد، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر: 30]، وبالتّخفيف (مَيۡت)

(1) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (غلظ).
(3) الخليل، العين: (غلظ).
(4) الرّاغب، المفردات: (شد).
(5) الرّاغب، المفردات: (ألم).
(6) الرّاغب، المفردات: (عظم).

لا يُطلق إلّا على مَن مات، وفارقت روحُه جسدَه[1]، ولعلّنا من جمال الضّبط بالشّكل وانسجامه مع معاني الكلمات أنّ (الميِّت) تكون ياؤه مشدّدةً مكسورة، فتشير إلى الحركة والشّدة والتزام الحياة والإقبال عليها. أمّا الميْت: فتدلّ على الّذي خرجت روحُه، فينسجم سكون جسده مع سكون الياء هنا، ومن جميل ما قيل في التّفريق بينهما:

وَتَسْأَلُني تَفْسيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ *** فَدونَكَ ذا التّفسيرُ إنْ كنتَ تَعْقِلُ

فَمَنْ كانَ ذا روحٍ فَذلِكَ مَيِّتٌ *** وَما المَيْتُ إلّا مَنْ إلى القَبْرِ يُحْمَلُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/308.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

أعمال الكفّار ستكون يوم القيامة هباءً لا قيمة لها

لمّا ذكرَ تعالى أنواعَ عذابِهم في الآية السّابقة بيّن في هذه الآية أنَّ أعمالهم بأسرِها تصيرُ ضائعةً باطلة، لا ينتفعون بشيءٍ منها، وعند هذا يظهر كمالُ خسرانهم؛ لأنّهم لا يجدون في القيامة إلّا العقاب الشَّديد، ووجدوا كلّ أعمال الدّنيا قد بطَلت وضاعت، وذلك هو الخُسرانُ الشَّديد، والضّلالُ البعيد[1].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿كَرَمَادٍ﴾: جذر الكلمة هو (رمد)؛ يُقال: رَمادٌ؛ والرَّماد: دُقاق الفحم، وما هبا من الجَمْر فصار دُقاقًا[2]، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾، ورَمِدَتِ النّارُ: صارت رَمادًا، وعبّر بِالرَّمَدِ عن الهلاك كما عبّر عنه بالهُمود، ورَمِدَ الماء: صار كأنّه فيه رماد لأُجونِه، والأَرْمَدُ ما كان على لون الرّماد[3].

2) ﴿عَاصِفٖۖ﴾: جَذر الكلمة هو (عصف)؛ العَصْفُ الّذي يُعْصَفُ من الزّرعِ، والعَصْفُ: ما على ساق الزّرع من الورق الّذي يبس فتفتّت[4]. أو هو عندنا دقاق التّبن الّذي إذا ذرّي البَيدر صار مع الرّيح كأنّه غبار[5]. قال تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ [الرّحمن: 12]،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80 - 81.
(2) ابن سِيده، المُحكم: (رمد).
(3) الرّاغب، المفردات: (رمد).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (عصف).
(5) الخليل، العين: (عصف).

﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝﴾ [الفيل: 5]، و﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22]، وعاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ: تَكْسِرُ الشَّيءَ فتجعله كَعَصْفٍ، وعَصَفَتْ بهم الرّيحُ تشبيهًا بذلك(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ مصير أعمال الخير الّتي قدّمها الكافر المعاند

قد يتبادر إلى الذِّهن سؤالٌ عن أعمال الخير الَّتي كانوا يعملونها كصلة الأرحام وعتق الرِّقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة، وغير ذلك من صنائعهم، ألا تشفعُ لهم يوم القيامة فتخفّف عنهم من عذاب النّار؟ فجاءت هذه الآية لبيان حبوطها وذهابها هباءً منثورًا؛ لأنّها لم تأتِ على أساسٍ سليم من معرفة الله، والإيمان به، إذ لم تكن لوجهه سبحانه فشبّهت في الآية برماد طيّرته الرِّيح العاصف ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ أيّ: لا يرون له أثرًا من ثواب، كما لا يقدر من الرَّماد المطيّر في الرّيح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ إشارةً إلى بُعد ضلالهم عن طريق الحقِّ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

لا تنفع أعمالُ أهل الكفر يومَ القيامة؛ لأنّها ليست لله

الجملةُ من قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ مستأنفَة بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنّه قيل: كيف مَثَلُهم؟ فقيل: كَيْتَ وكَيْتَ(3)، فالأولى تناولت حالَ الّذين كفروا في النّار، والثّانية تناولت مثَلَ أعمال الخير الّتي عملوها في الدّنيا كصلة الرّحم، وقِرى الضّيف وغيرها.

(1) الرّاغب، المفردات: (عصف).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/514.
(3) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

بلاغةُ التّشبيه التّمثيلّي في الآية:

تحتاجُ الأعمالُ إلى نيّة حُبِّ الله ورسوله لتأخذَ قيمتَها ووزنَها

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ مبتدأ خبره محذوف؛ أيِّ: فيما يُتلَى عليكم صفتهم الّتي هي في الغرابة كالمَثَل كما ذهب إليه سيبويّه[1]. والتّشبيهُ التَّمثيليُّ هو ما كان وجه الشّبه فيه صورةً منتزَعةً من مُتعدِّد، ولا يشترط فيه تركيب الوجه سواء أكان الوجه فيه حسِّيًّا أم عقليًّا، حقيقيًّا أم غير حقيقيّ، فيكون المُشبّه هو (مثَلُ أعمال الّذين كفروا) والمُشبَّه به: (رمادٌ اشتدّت به الرّيحُ في يوم عاصف). فأعمالُهم الحسنةُ في الخير مهما كثُرت فإنّها فاقدةٌ لوزنها ولأهمّيّتها، وتكون كتلتها مثل رماد متطاير بأدنى ريح، فكيف إنِ اشتدّت به الرّيح؟ إنّها حتمًا ستكون هباءً منثورًا.

وعلى هذا يكون حاصلُ التّمثيل تشبيهَ أعمالهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثورًا؛ لابتنائها على غير أساسٍ من معرفة اللّه تعالى، والإيمان به، فجاء تمثيلها برمادٍ طيّرته الرّيحُ العاصف وفرّقته، وهذه الجملة فَذْلَكةُ ذلك، والمقصود منه بيان عدم رؤية الأثر لتلك الأعمال، وفيه تهكُّمٌ بهم، ذلك - أيِّ: ما دلّ عليه التّمثيلُ دلالةً واضحةً من ضلالهم مع حسبانهم أنّهم على شيء - هوَ الضَّلالُ الۡبَعِيدُ عن طريق الحقّ والصّواب، وقد تقدّم تمامُ الكلام في ذلك غير بعيد[2].

المُراد بقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

تتمايز الأعمال بنيّات أصحابها

"المُراد بأعمالهم ما هو من باب المكارم كصلة الأرحام وعتق الرِّقاب، وفداء الأُسارى، وقِرى الأضياف، وإغاثة الملهوفين، وغير ذلك. وقيل: ما فعلوه لأصنامهم من القُرَب بزعمهم. وقيل: ما يعمُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.

هذا وذاك؛ ولعلّه الأَوْلى"[1]. فما كان للّه دام واتّصل، وما كان لغيره ضرب اللّه فيه مثَلًا عظيمًا، فما تلك الأعمال لا كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يومٍ عاصف.

نكتة تنوُّعُ أوجه إعراب ﴿مَّثَلُ﴾:

تنوّعُ آراء المفسّرين في أوجه الإعراب

ذهب الكِسائيُّ والفرّاء إلى أنّ ﴿مَّثَلُ﴾ مُقحَم، وقال الحوفيّ: هو مبتدأ و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره، و﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل اشتمال من المبتدأ؛ وجوّز الزّمخشريّ أن يكون بدلًا من ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لكنْ على تقدير: (مثَلُ أعمالهم)؛ فيكون التّقدير: مثَلُ الّذين كفروا مَثَلُ أعمالهم كرماد[2]، بينما ذهب الثّعلبيّ إلى أنّه[3] بدل الكلّ من الكلّ، وذلك لأنّ مثَلَهم، ومَثَل أعمالهم متّحدان بالذّات؛ فيكون بدل اشتمال أيضًا كما أشرنا آنفًا؛ لأنَّ مَثَل أعمالهم كونها كرمادٍ ومثلهم كون أعمالهم كرمادٍ، فلا اتّحاد لكنَّ الأوّل سببٌ للثّاني، والرَّماد معروف[4]. وذكر صاحب الكشّاف أنّ قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويْه، وتقديره: وفيما يُقصُّ عليك ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: مثَلُ أعمال الّذين كفروا بربّهم، أو تكون هذه الجملة خبرًا للمبتدأ؛ أيْ: صفةُ الّذين كفروا أعمالُهم كرماد، أوتكون ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدلًا من جملة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5].

سِرُّ مجيء جملة الصّلة بوصف الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكافر هو الّذي يطمس الحقيقة ويأباها

ضُرِبَ هذا المثَلُ لبيان حال الكفّار الّذين أنكروا الرّسالات وتوجّهوا بالتّهديد لرسلهم بإخراجهم من أرضهم أو العَوْد إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513.
(3) الثّعلبيّ، الكشف: 5/311.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/514.

ملّتهم، فأهلكهم اللّه بأعمالهم وما يستحقّون، وقد أطلق صفة الكفر عليهم؛ لأنّ أعمالهم كانت تروم طمس الحقّ ممّا جاءت به الرّسل، فكان هذا الموضع تكرارًا لصفة الكفر عن موضع سابق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ فكرّر وصف الكفر عليهم لتوكيدِ هذه الصّفة، وانطباقها على أقوالهم وأفعالهم، وتلازمها فيهم.

غرضُ التّعبير عن الكفّار بالاسم الموصول ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾:

التّعريضُ بالأفعال الشّائنة الّتي تؤدّي إلى تزييف الأمور

تكرارُ الاسْم الموصول بعد أن بيّن أقوالَهم وأفعالَهم بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، فجاء وصفُ حال هؤلاء بالكفر، وفائدةُ الاسْم الموصول التّعريضُ بأفعالهم وأقوالهم؛ لأنّهمُ اعتمدوا أسلوبَ التّكذيب القائم على التّهديد والوعيد، وقصدُهم من ذلك طمسُ الحقِّ الّذي جاءت به الرّسل عليهم السلام.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾:

يكفر المُكذّبون بجميع ما أتى من جهة الرّسول

أتت باء الجرّ في قول المولى جل جلاله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ للإلصاق والاختلاط[1]، والإلصاق هُنا مجازيٌّ، فإنّ كُفر أولئك لا يكون إلّا باللّه سبحانه، وهم يُنكرون كلّ ما يأتيهم من اللّه بالرّسالات والرّسل، وهي قضيّة عَقَديّةٌ عُظْمَى، فمن شروط الإيمان التّوحيد، فمَن كفر بالتّوحيد، وأشرك باللّه غيره فلا إيمان له قطعًا، فانتفاءُ الإيمان يكون بسبب الشّرك باللّه، فيكون السَّبَبُ الأوّل لكفرهم هو إنكارهم ألوهيّة اللّه سبحانه.

نكتة التّعبير بلفظ (رَبّ):

الكافرون يؤمنون بالرّبوبيّة، ولا يؤمنون بأحقيّة الله بالعبادة

يُشعِر التَّعبير بالرّبوبيّة في الآية الكريمة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ بالعناية والرّعاية، وأنّ من شأن هذا اللّفظ أن يستوجب طاعةَ وحبَّ هذا الرّبّ الّذي يُصلِحُ رعيّته، ويعتني بهم، تمامًا كما

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

يقوم ربّ الأسرة بالعناية بأُسرته؛ لذا فإنّ تذكيرهم بالرّبوبيّة في هذا الموضع فيه امتنانٌ وتذكيرٌ لهم بأنّه حريٌّ بأن يُطاع مثلُ هذا الرّبّ وألّا يُعصَى، فكيف يكفرون به؟!

نكتةُ فصل قوله ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ وإعرابه:

أعـمـالُ الكافرين تزول وأجـسـادُهـم خالدة في النّار

لو جاء البيان القرآنيُّ على نحو: (مثَلُ الّذين كفروا وأعمالُهم) لأفاد ضمّ الأعمال إلى الّذين كفروا أنفسهم، ولكان المصيرُ للكفّار والأعمال واحدًا، ولكنّ هذا لا يُراد في الآية؛ لأنّ أعمالهم ذهبت وتلاشت، بينما الكفّارُ أنفسُهم سيكونون خالدين في النّار يوم القيامة، فلن تتلاشى أجسادُهم، وسيُحيط بهم الموتُ من كلّ مكان، ولا يموتون، ليذوقوا العذاب، فقوله سبحانه: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لبيان مثَلِهم ومثَلِ أعمالهم، ورجّح ابن عطيّة كون ﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره[1].

معنى الكاف في قوله ﴿كَرَمَادٍ﴾:

أعمالُ الكفّار لا وزنَ لها ولا قيمة

الكافُ تُفيد التّشبيه، وما ذُكر لها من معانٍ أخرى ترجع في حقيقتِها إلى معنى التّشبيه، فقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾؛ أيْ: إنّه شبّه أعمالَهم برماد، ووجهُ الشّبَه فيه خفّتُه وتطايرُه بأدنَى نَسمة هواء، أمّا إن تعرّضَ لريح عاصف، فإنّه لن يبقى له أثرٌ حتمًا.

الغرضُ من تنكير ﴿كَرَمَادٍ﴾:

تشبيهُ الأعمال بأهون الموجودات

تنكيرُ ﴿كَرَمَادٍ﴾ هنا للتّحقير من شأن ما توصف به أعمالُهم أو ما تُشبّه به، فهي مثل رمادٍ لا قيمةَ له في هذه الدّنيا تُفرّقه الرّيح فلا يكون له شأن. ولعلّ الرّماد هو أهون الموجودات ممّا عرفه الإنسان، فكذلك ستكون أعمالُهم في الآخرة.

بلاغةُ التّشبيه التّمثيلّي ﴿كَرَمَادٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/331.

الـكـافـرون يخلدون في النّار وأعمالهم تزول وتتلاشى

بِهِ ٱلرِّيحُ﴾. وحاصلُ التّمثيل: تشبيهُ أعمالهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثورًا لابتغائها على غير أساسٍ من معرفة اللّه تعالى والإيمان به وكونها لوجهه برمادٍ طيّرته الرّيحُ العاصفُ وفرّقته، فالمُشبّه مُركّب، وهم الّذين كفروا وأعمالُهم، والمشبَّه به الرّماد، ووجه الشَّبه أنّ الرّيح العاصفَ تُطيِّرُ الرّمادَ وتُفرِّقُ أجزاءه، كما أنّ الكفر يُحبط الأعمال[1]. وتأتي بلاغةُ التّشبيه التّمثيليّ المُضمّن في التّشبيه الأوّل، أنّه جعل الأعمال في تشبيه داخليّ، وجعل مثَلَ حال الكافرين في تشبيهٍ تمثيليّ أوسعَ وأعمّ، وذلك لتُفصلَ الأعمالُ عن الأشخاص، فلكلٍّ مصيرٌ خاصٌّ به، فالأعمالُ تفقد قيمتَها وتتحوّل إلى الشّيء المعدوم، بينما يبقى الكافرون في عذابٍ وخلود.

أوجُهُ الشّبَه بين أعمال الكفّار وبين الرّماد:

تـتـعـدَّد أوجُـهِ الشّبَه بين الكُفّار وبـين الـرّمـاد المتطاير

في قول المولى ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ شُبّهت أعمالُهم بالرّماد؛ لأنّ الرّمادَ يتطاير بأدنى ريح، فكيف بريحٍ عاصف؟!، فلا تُبقي له أثرًا، وكذلك أعمالهم لا يبقى منها أثرٌ نافعٌ لهم يوم القيامة؛ لأنّها لا قيمةَ لها، ومن ثَمّ ستذهب وتتلاشى، وسوف يأتيها أمر اللّه فتتناثر فلا يُعرَف لها قيمةٌ ولا قرار ولا أثَر، ثمّ إنّ اختيار الرّماد دون غيره من الموادّ كالرّمل مثلًا؛ لأنّ ذرّاتِ الرّماد نتجت عن حطام الشَّيء واحتراقه، فنتاج أعمالهم هي الرّماد؛ لأنّ أعمالهم تحترق فلا يبقى من أثرها إلّا الرّماد. والرّماد فاقدٌ للكتلة فلا وزنَ له، وهو كأعمالهم الفاقدة لقيمتها قد أحرقها شِركُهم وكفرُهم، فهو تشبيهٌ مركّبٌ لتعدّد أوجه الشّبه فيه.

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/174.

دلالة الباء في قوله ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾:

إذا بلغت الرّيح ذروتها لم تَذَرِ الرّماد على حاله بل تبدّده

الباء في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ للإلصاق؛ والمعنى أنّ الرّيح لمّا وصلته بلغت ذروة شدّتها، ومعلومٌ أنَ ذرّاتِ الرّماد دقيقةٌ غاية الدّقّة، خفيفةٌ غاية الخفّة، فلمّا اشتدّت الرّيح بها، لم تُبق لها أثرًا. وذكر الآلوسيّ أنّ الباء للتّعدية أو للمُلابسة، وجوّزَ أن يكون من الشّدّة بمعنى القوّة؛ أيّ: قويت بمُلابسة حمله[1].

نكتة تقديم شِبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

الرّيحُ تختصُّ الرّماد بشدّة عصفها وقوتها الّتي وهبها الله إيّاها

أصل الجملة: (اشتدّت الرّيح به) لكنّه قدّم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ للتّخصيص، فكأنّ شدّة الرّيح قد اختصّت ذلك الرّماد بعصفها وقوّتها. فلم تُبقِ منه ومن آثاره شيئًا، فكذلك أعمالهم تذهب أدراج الرّياح، فلا يبقَى من آثارها شيء ولا يكون لهم في الآخرة منها نفع.

دلالة تنوع القراءات في ﴿ٱلرِّيحُ﴾:

الأصل في التعبير القرآنيّ أن تأتي (الرِّيح) في معرض الشّرّ و(الرّياح) في الخير

قرأ نافع وأبو جعفر (الرِّياح) على الجمع، فجُعل العصفُ لليوم، وهو لما فيه، وهو الرّيح أو الرّياح[2]. وتفسير قراءة الرّياح هنا مع أنّ الموضع للعذاب؛ هو أنّ الرّياح هنا تكون في أجواء الحياة الطّيّبة؛ لكنّها اشتدّت بذلك الرّماد واختصّته بذلك، فأزاحتّه عن الأماكن الطّيّبة، فلا يبقى منه إلّا ما يستحقّ البقاء من الجمال والحيويّة، فهي تمثيلٌ أيضًا لقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ ومناسبةٌ له. بينما قوله: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فهي على الإفراد، ولفظ الرّيح ناسب حالة العقوبة والعذاب، وما تؤدّيه هذه الرّيح من إذهاب الرّماد المُشبّه بأعمالهم.

معنى (اللّام) في ﴿ٱلرِّيحُ﴾ و(الرّياح):

اشتداد الرّيح لا يُستهانُ به لما تُحدثُه من الضّرر والإيذاء

التّعريف في: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ عهديٌّ على الرّيح الّتي نعرفها، وأفادَ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/81.

التّهويلَ من شأن هذه الرّيح الّتي قد أُرسِلَتْ بأمر اللّه لتشتدّ في موضع الرّماد الّذي يتطاير بأهون الرّياح، فإنْ أصاب الرّماد فلن يبقى منه شيء، فكذلك أعمالهم.

بلاغة التّعبير بالمجاز في ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾:

شـــدّةُ الـرّيـح قوّتها وهي دليلُ تأثيرها

إسناد العصف لليوم في قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ هو من قبيل المجاز العقليّ، فالعصفُ اشتداد الرّيح، وصف به زمان هبوبها على الإسناد المجازيّ العقليّ للمبالغة لعلاقة الزّمانيّة. و(اشتدّ به) من (شدّ) أو من (الشّدّة) بمعنى القوّة؛ أيْ: قويت بمُلابسة حمْلِه. وإسناد الشّدّة إلى الرّيح ليُعلم أنّها ريحٌ قد أُرسلت خاصّةً لتفعل فعلها في هذا الرّماد المتناثر(1).

الغرض من تنكير ﴿يَوْمٍ﴾:

احـتـمـالاتٌ ما يقع ويحدث في ذلك اليوم

التّنكيرُ في قوله ﴿يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ تعظيمٌ لشأن ذلك اليوم، وتخويفٌ من مآله، لجهالة ما قد يقع فيه من الأحداث، فأفاد التّنكيرُ زيادةَ تصوّرات المُتأمِّل فيه من عظيم تلك الأحداث، وآثارها وأضرارها.

بلاغة فصل قوله ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾:

الـتّـأكـيـدُ على أنّ الـكـافـر لن يكسب شيئًا ممّا عمل في الدّنيا

قوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: فيه إجمالٌ بعد تفصيل، فبعد أن ضرب المَثل وعُلم منه أنّهم لن يكسبوا من أعمالهم شيئًا؛ لأنّها أصبحت متناثرةً، فقد أخذتها الرّيح العاصف، تمَّمَ التَّعبير بقوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ توكيدًا لما عُلم سابقًا، فأجمَلَ بعد أن كان قد فصّل، فيكون بين الجملتيْن كمال اتّصال، ويمكن حملها على الاستئناف البيانيّ على أنّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حالهم.

المُتشابه اللّفظي بين آيتي البقرة وإبراهيم:

اختلافُ خطاب المؤمن والكافر نـــابـــع مـن عقيدتهما

في سورة إبراهيم نجد أنّ السّياق يتحدّث عن أعمال الّذين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/309.

كفروا: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ لأنّهم كانوا قد كسبوا بأعمالهم ثناءَ النّاس وقَبولهم، فقدّم الكسب، أمّا في سورة البقرة، فالحديث عن الّذين يُبطِلون أعمالهم بالمَنّ والأذى ومن ثَمّ قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: 264]؛ فأخّر الكسب؛ لأنّهم أنفقوا ولم يكسبوا حتّى مدح النّاس فهم أعطوا أموالهم مع المَنّ والأذى، فإن أخذ منها المحتاج والفقير فلن يذكر صاحبها بخير، وذلك على خلاف موضع سورة إبراهيم، لذلك فقد أخّر الكسب هنا.

دلالة التّعبير بالمضارع: ﴿يَقۡدِرُونَ﴾:

يحاولون التكسُّب من أعمالهم لكنّها قد مُحيت من موازينهم

التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾، أفاد دلالةَ الفعل على الحال والاستقبال، فإذا جاءهم عذاب يوم القيامة، فإنّهم لن يكسبوا من أعمالهم شيئًا، فتنتفي القدرة لديهم على الكسب من أعمالهم الّتي ربّما سيذكرونها وهم في أشدّ الحاجة إليها فيحاولون الكسب منها فلا يستطيعون، وهي ما عملوه من أعمال البرِّ كالصّدقة، وصلة الرَّحم، وبرّ الوالدين، وإطعام الجائع، فتُبطَل وتُحبَط بسبب كفرهم بالله، ولولا كفرهم لانتفعوا بها(1). فتكون قد مُحيت وتطايرت من موازينهم كما تطاير الرّماد في اليوم العاصف.

معنى (من) في قوله ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

يستحيل عليهم تحصيل بعض ما فعلوه

(من) تفيد التّبعيض؛ فهم لا يقدرون على تحصيل بعض ما فعلوه مهما قلّ ذلك الشّيء، ولعلّه يريد الأعمال الصّالحة وفضائل الأعمال، فقد ذهب بها كفرهم، وإنكارهم على الأنبياء والرّسل.

دلالة (ما) وموقع الجملة بعدها، ونكتةُ تقديم ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

الاسم الموصول (ما) بمعنى (الّذي)، ويقع على ذوات ما لا يعقل،

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

وعلى صفات مَن يعقل، كما ورد في الآية الكريمة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾، وفي تقديم جملة: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ الاهتمام بقضيّة الكسب، والدّلالة على أنّهم كانوا يظنّون أنّهم سيكسبون جرّاء هذه الأعمال، وتُحقّق لهم مجدًا ومكانة، لكنّهم يُفاجَؤون بأنّهم لا يُحقّقون منها كسبًا مهما كان قليلًا.

لا يحقّقُ الكُفّارُ مكسبًا يوم القيامة مَهْما كان قليلًا

الغرضُ من تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

تنكيرُ ﴿شَيۡءٖ﴾ لفائدة التّهوين والتّحقير؛ فهم لا يقدرون على أدنى ما يمكن أن يحصل عليه إنسانٌ في الآخرة أجرًا لعمله في الحياة الدّنيا؛ فيجدون ما عملوه قد صار هباءً منثورًا، ويخرجون من هذه الحياة صفر اليدَيْن، والشّيءُ هو أقلّ القليل من القول أو الفعل.

التّعبيرُ عن أهون ما يوصَف من أعمالهم

بلاغة فصل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾:

الفصل هنا؛ لأنَّ جملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ والّتي قبلها وهي قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ هو أنَّ الجملة الثّانية بيان لما قبلها، فيكون بين الجملتَيْن كمال الاتصال، ولذلك كان الفصل، ويمكن أيضًا أن يكون سبب الفصل شِبه كمال الاتّصال (الاستئناف البيانيّ) بأن كانت الجملة الأخيرة جوابًا عن سؤالٍ مقدّر بعد الجملة الأولى مفاده: ما حالهم عند ذلك؟ أو ما مصيرهم؟

الضّلالُ كلُّ الضّلال في السّير في طريقٍ ينتهي بصاحبه إلى الهلاك

الغرض من التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ باسم الإشارة تنزيلَ الأشياء المعقولة أو غير المُشاهَدَة منزلة الأشياء المحسوسة المُشاهَدة، كما أفاد التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد للتَّحقير، فالإشارة للبعيد يُقصَدُ منه الدّونيّة والانحطاط، وهو ما يناسب قوله تعالى: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

الإشارةُ إلى ما سيحصل للكافرين يوم القيامة

بلاغةُ القصر في: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ قصرٌ موصوف على صفة،

تصوّرات الكافرين عن حالهم، ثمَّ انقلاب ذلك التّصور

وهو من قبيل قصر القلب؛ إذ لم يكن مُتصوّرًا لدى الّذين كفروا ما سيصيبهم يوم القيامة من العذاب المهين؛ وأنَّهم لن يقدروا على شيءٍ ممّا كسبوا، فذلك الحال هو الضّلال المبين.

معنى (اللّام) في قوله ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾:

المبالغةُ في وصف ضلال الكافرين يوم القيامة

من فوائد التّعريف بـ (ال) القصرُ حقيقة أو تجوّزًا بقصد المبالغة؛ وفي قوله: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ هو من قبيل التّجوّز، ويمكن أن يكون على الحقيقة، فلا يستحقّ أن يوصَفَ حالٌ بأنّه ضلالٌ بعيد أكثر من حال هؤلاء.

نكتةُ وصف الضّلال بالبُعد:

الضّلالُ البعيدُ يكون للكافرين بعد الموت فلا يمكن لصاحبه أن يعود عنه

وصف الضّلال بالبُعد استعارةً مَكنيّة على تشبيه الضّلال بشيٍ من شأنه أن يبتعد؛ لأنّ الضّلال لا يكون قريبًا أو بعيدًا، ولكنّه ضلال يذهب بصاحبه إلى ساحة البُعد عن اللّه وعن رضاء اللّه سبحانه، وفائدته تهويل ما آل إليه حال هؤلاء الكافرين الّذين تجرّأوا على الرّسالات السَّماويّة والرّسل، وأنكروا عليهم دعوتهم، فآل حالهم إلى ما وصفته الآية، فهم في ضلالٍ بعيدٍ لا ينتهي؛ لأنّهم قد هلكوا على الكفر.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّيح والرّياح:

وردت الرّيح والرّياح في القرآن الكريم بما يناسب المقام

الرّياح جمع ريح، والرّيح نسيم الهواء، ونسيم كلّ شيءٍ[1]، واستقراء أساليب القرآن يُظهر لنا أنّ لفظ الرّيح والرّياح؛ كلٌّ منها يرد في موضعه اللّائق، في مقامها، فالمواضع الّتي وردت فيها لفظة الرّياح نجدها تدلّ على معاني الخير والرّحمة[2]، وإظهار فضل اللّه على خلْقه. وما كان من عذابٍ فقد جاء على المفرد (ريح)، ومردّ ذلك أنّ رياحَ الرَّحمة مختلفةُ المنافع، على عكس ريح العذاب.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(2) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/20.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠﴾

[إبراهيم: 19 - 20]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبط بين مصير الكافرين، وقدرة الله على إهلاك الإنسان واستبداله

لمّا ذكر في الآية السّابقة "مَثَلَ أعمال الكفّار في الآخرة أتْبَعَ ذلك الدّليلَ عليه، وعلى أنَّه لا يَسوغ في الحكمة في أعمال الضَّلال إلّا الإبطال فقال: ألم تر أنَّ الله الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا وقُدرةً، خلق السَّماوات على عِظَمِها وارتفاعها، والأرض على تباعُد أقطارها واتّساعها بالحقِّ الثابت من وضْع كلِّ شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة لا بالخيال والتمويه كالسِّحر"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أصلُ (حقّ): يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، يُقال: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقّاً، أيْ: ثَبَتَ[3]. وضِدُّه: الباطِلُ، والحقُّ يقال على أوجه: الأول: يُقال لموجِد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى: هو الحقُّ، قال الله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، وقيل بُعَيد ذلك: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: 32]، والثاني: يقال للموجِد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فِعل الله تعالى كلّه حَقٌّ[4]. والمرادُ بالحقِّ في الآية: الحِكْمَةُ، أيْ ضِدُّ العَبَث[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 10/401.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(4) الراغب، المفردات: (حق).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/214.

2) ﴿جَدِيدٍ﴾: أصلُ (جدّ): يَدُلُّ على القَطْعِ، يُقالُ جَدَدْتُ الشَّيْءَ جَدًّا، وَهوَ مَجْدودٌ وَجَديدٌ، أيْ مَقْطوعٌ، وَقَوْلُهُم: ثَوْبٌ جَديدٌ، كَأَنَّ ناسِجَهُ قَطَعَهُ الآنَ، هذا هو الأصلُ، ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ تَأْتِ عليه الأيّامُ جَديدًا؛ ولذلكَ يُسَمَّى اللَّيْلُ والنَّهارُ الجَديدَيْنِ والأجَدَّيْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما إذا جاءَ فَهوَ جَديدٌ[1]، والجِدَّةُ: نَقيض البِلى، والجَمْعُ أجِدَّةٌ وجُدُدٌ وجُدَدٌ[2]، والجديد: ما لا عهد لَك بِهِ؛ وَلِذَلِك وُصِفَ المَوْتُ بالجديد[3]. والمقصودُ بالجَدِيد في الآية: الشَّيْءُ الَّذي في أوَّلِ أزْمانِ وُجودِهِ.

3) ﴿بِعَزِيزٍ﴾: العِزُّ في الأَصْلِ: القوَّة والشِّدَّة والغَلَبَة والرِّفعة والامْتِناع، خِلاف الذُّلِّ[4]. يقال: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع - إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمُضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر[5]. ويقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صار عَزيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعَزَّهُ اللّه، وهو يَعْتَزُّ بفلان[6]، ورَجُلٌ عَزيزٌ: مَنيعٌ، لا يُغْلَب، وَلا يُقْهر. وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقْدَر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئَ من الذُّل[7]. والمقصود بالعزيز في الآيةِ: القويُّ المُمْتَنِعُ، والمُرادُ بِهِ: المُتَعاصِي عليهِ المُمْتَنِعُ بقوَّته وأنْصارِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآن الكريم يعتمد التّدليل المنطقيّ المفحِم، في القضايا العقديّة الكبرى

يخاطب اللّه تعالى نبيَّه، ﷺ، مذكِّرًا له بعظيم خَلْقِ اللّه تعالى، وجليل صُنْعِه، قائلاً له: ألَمْ تعلم أيّها الرسول أن اللّه تعالى أنشأ السماوات والأرض من العدمِ؟ وخلق فيهما بالحقِّ والحكمة؟

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدّ، جدد).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدد).
(3) ابن سيده، المحكم: (جدد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزز).
(5) النحاس، معاني القرآن: 1/379.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(7) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).

وخلقهما على الوجه الصحيح الذي يحقُّ أن يخلقهما عليه لِيستدلَّ الخَلْقُ بهما على كمال قدرة اللّه تعالى، وعدم حاجته إلى أحد من خلقه، بل إنْ يشأ اللّه يُذْهِبِ الخلْقَ هذا كُلَّهُ ويأتِ بخلق جديد على شكلٍ جديد، وما ذلك على اللّه تعالى بعزيز، ولا صعب، بل هو هيِّن عليه، يسير لديه؛ إذ هو القادر على كل شيء قُدرةً ذاتية مطلقةً، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

إنعام النّظر في خلق السّماوات والأرض، مسلك للتّفكر والعبر

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ "استئناف بيانيٌّ ناشئٌ عن جُملة ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾ [إبراهيم: 13]؛ فإنَّ هلاك فئة كاملة شديدة القوَّة والمِرَّة أمرٌ عجيب يثير في النّفوس سؤالًا: كيف تهلك فئة مثل هؤلاء؟ فيجاب بأن اللّه الذي قَدَرَ على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونَها، فمبدأ الاستئناف هو قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾"[2]. و"هذا التّعبير قد يُذكر لِمَن تَقَدَّمَ عِلْمُه فيكون للتعجُّبِ، وقد يُذكر لِمن لا يكون كذلك، فيكون لتعريفه وتعجيبه. وقد اشتهر في ذلك حتى أُجْرِيَ مجرى المثل في هذا الباب، بأنْ شُبِّه مَن لم يَرَ الشيء بحالِ مَن رآه في أنَّه لا ينبغي أن يَخفى عليه، وأنه ينبغي أن يَتعجّب منه، ثم أُجْرِي الكلام معه كما يُجرى مع مَن رأى؛ قصدًا إلى المبالغة في شُهرته، وعراقته في التعجّب"[3].

دلالة التّعبير بضمير الخطاب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الدّعوة إلى التّدبّر في خلق السّماوات والأرض، تطال المؤمن وغير المؤمن

"﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ خطابٌ للرّسول ﷺ، والمرادُ به أمّتُه، وقيل لكلِّ أحد من الكفرة، لقوله تعالى: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾"[4]، فهو "خطابٌ عامّ لكلّ

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/255.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/213.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/541.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/40.

إنسان من شأنه أن يخاطَب في هذه الصّورة، التي تعرضها الآية الكريمة لقدرة اللّه تعالى، وأنَّ اللّه سبحانه خلق السّماوات والأرض خلقًا مقصودًا لحكمة يعلمها اللّه ﷻ، وليس عبثًا ولهوًا"[1].

الغرض من الاستفهام في قوله ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

المتبصّرُ في خلق السّماوات والأرض، يُقرُّ لله بطلاقة قدرته

المراد بالاستفهام في قوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ "التّقرير. أي: لقد علمت أيُّها المخاطَب فاشهد بما تعلم"[2]، و"إنْ كان الخطاب به لرسول اللّه ﷺ فيصير كأنَّه قال: قد رأيتَ وعلمتَ أنَّ اللّه خالقُ السماوات والأرض بالحقِّ، وإنْ كان الخطاب به لغيره من أولئك يقول: اعلموا أنَّ اللّه خلق السماوات والأرض بالحقِّ؛ لم يخلقهما عبثًا باطلًا"[3].

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

ليس من رأى كمن سمع

عبّر عن العلم بالرّؤية؛ لأنّ الرّؤية من أقوى وسائل العلم، فليس من رأى كمَنْ سمع، فهو مجاز مرسل علاقته المسببيّة، والتّعبير عن العلم بالرّؤية، من فصيح البيان في السّياق.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، في السّياق:

النّاظر بِتَجَرُّدٍ في كون الله، يتبيّن أسرارًا وعجائب لا نهاية لها

التّعبير بصيغة المضارعة، في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يدعو كلَّ مخاطَبٍ - يتأتّى منه وَعْيُ هذا الخطاب - أنْ يُجدِّدَ إمعان النّظر في خلق السماوات والأرض؛ ليرى بديع صنع اللّه تعالى في خلقهما، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 3 - 4]، كما أنَّ في المضارعة إيحاءً بأنَّ النّاظر بِتَجَرُّدٍ في خلق السّماوات والأرض، لا يزال يتبيّن أسرارًا وعجائب لا تنتهي، وأنَّه تَتَجَدَّدُ له الأسرار بحسب تجديده الرّؤية وإمعان النّظر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/165.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/482.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/381.

والتّأمُّل، والمقصود بالرّؤية في قول اللّه تعالى: "﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ رؤيةُ القلب"[1]؛ "لأنّ المعنى: ألم ينته علمك إليه؟"[2]، وهي "مستعملةٌ في العِلم النّاشئ عن النّظر والتّأمُّل؛ لأنَّ السّماواتِ والأرض مشاهَدة لكلِّ ناظر، وأمّا كونها مخلوقةً للّه فمحتاجٌ إلى أقلِّ تأمُّل؛ لسهولةِ الانتقال من المشاهدة إلى العلم، وأمّا كون ذلك ملتبسًا بالحقِّ فمحتاجٌ إلى تأمُّل عميق؛ فلمّا كان أصلُ ذلك كلِّه رؤية المخلوقات المذكورة علَّق الاستدلال على الرّؤية، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101]"[3].

دلالة التّعبير باسم الجلالة اسمًا لـ ﴿أَنَّ﴾:

نسبة الخلق إلى الاسم الأعظم، تكسوها هيبة وعظمة

في التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، اسمًا لـ ﴿أَنَّ﴾ التّوكيدية في نسبة خلق السّماوات والأرض إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ ﷻ إيذانٌ بِفخامة شأنِ خلقِهما، وجليلِ إبداعه فيهما.

سرُّ التّعبير بالمفعول به ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

خلق السّماوات والأرض أعظم من خلق النّاس

آثر الذّكر الحكيم في هذا المقام، التّنبيهَ إلى عظيم خلق اللّه تعالى، ووفْرة قدرته على إهلاكهم، واستبدالهم بخير منهم، فوجَّه انتباههم إلى خلق السّماوات والأرض بخاصّة؛ لأنّهما أعظم ما يرى الإنسان في هذه الحياة الدّنيا من خلق اللّه تعالى فالسّماواتُ ببروجها، وكثرة كواكبها ونجومها، واتّساع أفلاكها... والأرضُ بواسع بحارها، وملوحة مياهها، وعذوبة أنهارها، وعظيم جبالها، وتنوّع ثمارها... كلّ ذلك جدير بأن يستوقف العبد، ويستثير فيه البصر والبصيرة، ليلتمس الحِكَم، وينتهي إلى الإيمان بالخالق العظيم ﴿ٱللَّهَ﴾ ﷻ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/40.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214.

نكتة تقديم السّماوات على الأرض، في السّياق:

خلق السّماوات هو الأعظم والأعجب

يقدّم القرآن الكريم في الغالب المعتاد ذكر السّماوات على الأرض، وفي ذلك للعلماء أقوال، لعلّ من أقواها أنّ خلق السّماوات وما فيهنّ أعظم من خلق الأرض؛ وقيل لأنّ السّماوات لم يُعص الله تعالى فيها إلّا مرّة واحدة بخلاف الأرض.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

القرآن أخبر عن تعدّد السّموات، ولم يخبر عن تعدّد الأرض

ذكر القرآن الكريم أنّ السّماوات سبع، ولكنّه كان يفرد ذكر الأرض، فقيل لأنّها أرض واحدة وليست متعدّدة، وقيل: لأنّ الإنسان يعيش عليها، ولا يعرف غيرها فناسب أن يُخاطب بها دون غيرها.

دلالة (ال) في لفظي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

السّموات والأرض، دلالة مرئيّة، على بديع الصّنعة الإلهيّة

التّعريف هنا للعهد فهي السّماوات والأرض التّي يعرفونها، والمعهود في مظاهر الكون المتجلّية، استيعابها لحركة الحياة، ودلالتها على عظمة التّسخير، وقدرة التّدبير، من المسيّر القدير، الّذي أحسن كلّ شيء صنعًا.

الغرض من التّعبير بالقيد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

من حكمة الله في خَلْقِ السّماوات والأرض، الاستدلال بها على قيّوميّته

المعنى: للحقِّ الّذي وجب له عليهم بالامتحان والابتلاء، خلقهما للشّهادة له على المُمْتَحَن، أو يقول: خلقهما ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: بالحكمة. وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾"[1]، "أي: لم يخلقهنَّ عبثًا، وإنَّما خلقهنَّ لأمر عظيم"[2]؛ "بدليل مقابلته به، في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ [سورة الدخان: 38 - 39]"[3]. وكذلك يفيد القيد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ الله تعالى خلقهما "لِيُتَفَكَّر

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/380.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التفسير: 2/509.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214.

في خلقِها، ويُستَدَلَّ بها على وجود بارئها، وقدرته، ووحدته"[1]، "لا بالخيال والتمويه كالسِّحر"[2].

معنى الباء ودلالتها في شبه الجملة: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الجارّ والمجرور "﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ متعلّقان بـ﴿خَلَقَ﴾، أو بِمحذوفٍ حال؛ فالباء لِلسّببية على الأوَّل، ولِلمصاحبة على الثّاني"[3]، أي بسبب الحقِّ وإحقاقًا له، ومصاحبةً للحقِّ واختلاطًا به؛ والله تعالى أعلم.

ما خلق الله الخلق، إلّا بالحقّ المفضي إلى اليقين

بلاغة توجيه القراءات القرآنيّة في السّياق:

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وفيه وبه "قرأ الجمهور ﴿خَلَقَ﴾ بِصيغة الفِعل؛ على أنَّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعوله ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عطف على المفعول بالنصب، وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف (خالق السّماوات والأرض) بصيغة اسم الفاعل مضافًا إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وبِخفض ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾"[4] معطوفًا عليها، ولكلٍّ من الماضي ﴿خَلَقَ﴾، واسم الفاعل (خالق) دلالتُه المتناغمة مع مفردة (الخلق)؛ فالفعل الماضي ﴿خَلَقَ﴾ يفيد تحقُّقَ أمر الخلق له، واستقراره على أدقِّ ما يكون؛ إذ (الخلق) هو التّقديرُ الدّقيق، واسم الفاعل (خالق) صريحٌ في أنَّه ﷻ لا يزال خالقًا، فكلُّ لحظةٍ من الزمن يـخْرجُ إلى الوجود خلقًا جديدًا، ممّا قضى أزلًا أنّه كائنٌ، واسم الفاعل يدلّ على تمكّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: 47]، فهو لا يزال قائمًا على خلقه لا يَكِلُهُم إلى سواه، ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: 33].

الله تعالى خَلَقَ خلقَه، ولا يزال خالقا قيّومًا على الدّوام

موقع جملة الشّرط ممّا قبلها، ودلالته في سياق الآية:

فُصِلت جملة الشّرط ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، عن جملة الاستفهام

ورود السّياق بملمح التّهديد، من قادر على التّنفيذ، أوقع في النّفوس

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/310.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 10/402.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214.

التّقريري ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، لكمال الانقطاع؛ إذ الثانية خبرية لفظًا ومعنى، والأولى إنشائية لفظًا ومعنى.

والمراد بها ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ التّهديدية؛ ووقعت من الجملة السّابقة ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، موقع المعلول من العلّة وموقع المدلول عليه من الدّليل، تحقيقًا للتّهديد، فمن رأى رؤيا عينٍ ورؤيا تفكُّرٍ وتدبُّرٍ عِظَم خلق السّماوات والأرض وما فيهما؛ تقرَّر لديه يُسْرُ إهلاك اللّه تعالى إيّاه واستبداله بخيرٍ منه؛ وذلك أوقع في النّفس، وأشدّ عليها، فقد جاءت جملة الشّرط ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ "تقريرًا لاستغنائه ﷻ "[1]، وتنديدًا بكفرِهم مع كمال قدرته ﷻ على إبادتهم بالكلّيّة، واستبدالهم بمن هم خيرٌ منهم خلْقًا ودينًا؛ وفي ذلك تهديد وترهيب ما بعده تهديد وترهيب؛ لأنّه إهلاكٌ بالكلّيّةِ، واجتثاث أصلٍ ليغرس مكانَه غرسًا أنقى وأطهر، كما أنَّ في جملة الشّرط - بتفاصيل دقائق نظْمها - ترغيبًا باغتنام الفرصة قبل فواتها، وتنفيذ ذلك التّهديد فيهم.

دلالة استعمال ﴿إِن﴾:

الاغـترار بحِلم اللـه تـعالى، لا يـركـن إليـه الكيّس اللّبيب

في تقييد فعل الشّرط بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى عظيم حِلْم اللّه سبحانه عليهم، وكريم مِنَحِه تعالى إياهم؛ وذلك بِمَنْحِهِمْ فرص التوبة الفرصة بعد الفرصة؛ فينبغي للعبد اقتناصها، وعدم الاغترار بحلم اللّه تعالى وذلك لما فيها من الدلالة على تقليل حصول مدخولها.

وعلى هذا فلا يناسب المقام - مِن أدوات تقييد الشرط الثلاثة - إلا ﴿إِن﴾؛ لأنّ النظم الكريم لو قيّد المشيئة بـ (إذا) لَرَجَّحَتْ إهلاكهم، وقطعتْ بالإتيان بخيرٍ منهم، ولو جاء التقييدُ بـ (لو)

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/356.

لَقالَتْ (لو) باستحالة ذلك الإهلاك والاستبدال، ولكان ذلك باعثًا على تزهيد الكفار في التوبة والإنابة - كلٌّ بحسبها -، أما ﴿إِن﴾ فتُلَوِّح بالتهديد ولا تنفِّذه، كما أنَّها لا تُحيله، والله تعالى أعلم.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَشَأۡ﴾:

التّهديد بإهلاك الله تعالى للكافرين، مستمرٌّ متجدِّدٌ في كلّ حين

صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ تُلَوِّح بالتهديد ولا تقطع بوقوعه، وتظلُّ عنصرَ تهديدٍ قائمًا يثير الفَرَق في نفوسهم؛ ويتناغم عطاءُ المضارعة في ﴿يَشَأۡ﴾ مع دليلِ يُسر حصول المفعول المحذوف المفسَّرِ بالمذكور - إذ التقدير: "إن يشأ أن يذهبَكم يذهبْكم، أي: يفنيكم"[1]، ويأت بخلق جديدٍ يُذهبكم ويأت بخلق جديد -، ودليل يُسر ذلك خلْقُه ﷻ السماوات والأرض - المذكور في مطلع الآية الكريمة - كما أنَّ في هذه المشيئة إشارة إلى "غناه وقدرته، وأنَّه لو شاء أذهبكم لِتَعْلَموا أنَّه لم ينشئكم، ولا أمركم، ولا نهاكم لحاجةِ نفسه ولا لِمنفعةٍ له، ولكنْ لحاجةِ أنفسكم"[2]؛ "فلا تَعصوه؛ فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أفضلَ وأطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثل الأوَّلين فلا فائدة في الإبدال"[3]، كما أنَّ فيه تنبيهًا على أنْ ليس "إذهابكم موقوفًا إلا على مشيئته، بخلاف الشيء المحتاج إليه؛ فإنّ المحتاج لا يقول فيه: إن يشأ فلان هَدَمَ داره وأعدم عقاره، وإنما يقول: لولا حاجة السُّكنى إلى الدار لَبِعتُها، أو: لولا الافتقار إلى العقار لتركتها"[4] وفي تعليق إهلاكهم على مشيئته ﷻ إيحاءٌ برحمته تعالى بهم؛ إذ لم يعاجلْهم بالإهلاك والاستبدال، وهذا من شأنه إغراؤهم على التوبة، وسرعة الأوبة إلى الإيمان الصادق بالله ﷻ .

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/337.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/380.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/354.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/230.

الغرض من حذف المفعول به في السّياق:

مجردُ انعقاد مشيئة الله تعالى إيذانٌ بوقوع الأمر

في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ "مفعول فعل المشيئة محذوف استغناءً بما دلَّ عليه جوابُ الشرط - وهو ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ - أي: إن يشأ إذهابكم، ومثلُ هذا الحذف لِمفعول المشيئة كثيرٌ في الكلام"[1] وفي الذكر الحكيم بخاصّة؛ لأن الله ﷻ هو القادر على كلّ شيء؛ فمجرّد مشيئته الأمرَ إيذانٌ بوقوعه، كما أنَّ فيه اكتفاءً بالدليل عليه في الجواب.

دلالة جواب الشّرط فعلًا مضارعًا:

الله تعالى يمهل الكفّار، لعلّهم يرجعون إلى الجادّة

جاء جواب الشرط ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ مُتَّسِقًا مع شرطه ﴿يَشَأۡ﴾ المضارع، فكلاهما يتهدَّدُ الكافرين، وفي المضارع تلميحٌ بالمعاجلة بالوقوع، لما في المضارع من الدلالة على الحضور وهو أعلى في التهديد.

دلالة التّعبير بضمير الخطاب في: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

النّاس رهن مشيئة الله تعالى، في إرادة استبدالهم عوض استعمالهم

قال العلماء: هذه المخاطبة يخاطِب بها أهل مكة؛ يذكّرهم قدرته وسلطانه على بعثهم بعد الموت والهلاك؛ وأنَّهُ يقدر على إذهابهم وإهلاكهم، ويقدر أيضًا أن يأتي بغيرهم، فعلى ذلك: يقدر على بعثهم بعد مماتهم[2]، يريد: أميتكم يا معشر الكفّار، وأخلق قومًا غيركم خيرًا منكم وأطوع[3] "أو إنّه خطاب عامٌّ للناس... ويَحۡتَمِل أن يكون المعنى: إن يشأ يذهبْكم أيُّها الناس ويأت بناس آخرين من جنسكم آدميين، ويحتمل من غير جنسكم"[4]، وكلاهما مرادٌ، وفي التّعبير بضمير الحضور مواجهة بالتهديد لكلِّ المعاندين في كلِّ زمان.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/287.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/381.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/28.
(4) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 6/424.

بلاغة الاستعارة في: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

ما أيسر على الله، أن يفني العُصاة، ويستبدلهم بتقاة

في قول اللّه تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ استعارةٌ تصويرًا للإهلاك بالإذهاب "فالإذهاب مستعمل في الإهلاك، أي: الإعدام من هذا العالم، أي إن يشأ يسلِّط عليهم موتًا يعمُّهم، فكأنَّه أذهبهم من مكانٍ إلى مكانٍ؛ لأنَّه يأتي بهم إلى الدّار الآخرة"[1]؛ وفي التعبير عن الإهلاك بالإذهاب إيحاءٌ بيُسره عليه ﷻ وهذا اليُسر في حقِّ اللّه تعالى حقيقةٌ لا مبالغة فيها، فَيوقفهم من حاله على قدرته المطلقة.

بلاغة الطّباق بين (يُذْهِبْ) و﴿وَيَأۡتِ﴾:

لا يقدر على الفعل وضدّه في الآن، إلّا العزيز المنّان

الجمع بين المعنى (يُذهِب) وضدِّه ﴿وَيَأۡتِ﴾ يُجَلِّي عظيم القدرة الإلهية، التي لا يُعجزها شيء؛ فهو ﷻ القادر على "أن يُعدِم الناس ويَخلق مكانهم خلقًا آخر - على شكلِهم أو على خلافِ شكلِهم -، إعلامًا منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، فهو يقدر على الشيء وجنس ضدِّه، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بمتعذّر، بل هو هيِّنٌ عليه يسير"[2]، ففيه "مبالغةٌ في الاقتدار، يعني: أنَّه ليس بقادر على الضدِّ فقط، بل هو قادر على الضدِّ وأمثاله، كالتباين والتماثل والتقابل والنظير والنِّدِ وغيرها"[3]، "قال بعض السلف: ما أهونَ العبادَ على اللّه تعالى إذا أضاعوا أمره!"[4].

دلالة عطف ﴿وَيَأۡتِ﴾، على جواب الشّرط:

إهلاك العُصاة جملةً، لا يعجز قدرة الله وأمره

في عطف الجملة الخبرية ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ على جملة الشرط ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ إمعانٌ في بيان طَلاقة القدرة الإلهية؛ إذ إنَّ الجمع بينهما بالعاطف (الواو) يؤكّد تفرُّد قدرته وقوّته ﷻ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/286.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/547.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/576.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/367.

دون سواه في تنفيذ هذا التهديد الكبير، كما "يعني إن كان يَتوهّم مُتوهِّم أنّ هذا المُلك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال مُلكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقًا جديدًا أحسن من هذا وأجمل وأتمَّ وأكمل"(1) "والإتيان بخلق جديد مستعملٌ في إحداث ناسٍ لم يكونوا موجودين، ولا مترقَّبًا وجودُهم، أي: يوجد خلقًا من الناس يُؤمنون باللّه ﷻ"(2).

سِرُّ تقييد الفعل بالمجرور ﴿بِخَلۡقٖ﴾:

إنِ استبدل الله الكفّار، فقد يستبدلهم بأجناسٍ أبرار

"الخَلْق هنا بمعنى المخلوق، مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11]، وهذا في معنى قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: 38]"(3). ولفظ ﴿بِخَلۡقٖ﴾ منكّرٌ للنّوعيّة والتّعميم، فهو مبهمُ النّوع ليس كخلقكم، فقد يكونون ملائكة، وقد يكونون أجناسًا أخرى لا يعرفها البشر، وتقييد الفعل بالمجرور بيانٌ للقدرة المتجلّيّة في استعمال المصدر في معنى اسم المفعول، حيث إنّ النظم قد "رَتَّب قدرتَه تعالى على ذلك - قدرتِه على خلقِ السمواتِ والأرضِ - على هذا النمط البديعِ -؛ إرشادًا إلى طريق الاستدلالِ؛ فإنَّ مَن قدَر على خَلق مثلِ هاتيك الأجرامِ العظيمةِ كان على تبديلِ خلقٍ آخرَ بهم أقدرَ"(4).

دلالة تقييد الخلق بصفة ﴿جَدِيدٖ﴾:

الله ﷻ قادر على استبدال العُصاة، استبدالًا جذريًا

يدعم عطاء الوصف ﴿جَدِيدٖ﴾ هنا غرض التهديد دعما كبيرًا، إذ يفيد تمام إفنائهم - حينئذ -، ويؤكّد في صراحةٍ لا تقبل الشكَّ عدمَ إبقاء بَقِيَّةٍ منهم، ويقرِّر أنَّ الخلق البديل لن يكون فيه من المهلَكين أثر، حتى ولو كان من ذرّيّتهم - كما جاء في تأويل بعض

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/286.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/286.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/41.

العلماء - وهذا المعنى يتآزر مع القول بطلاقة القدرة الإلهية، المعزِّز بيانُها بِخَلْق تلك الأجرام العِظام ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

دلالة العطف في قوله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ في السّياق:

الواو في جملة ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ "عاطفةٌ أو حاليّة"[1]، أو "حرف استئناف"[2]، والمقصودُ "أنه سبحانه كما خلق هذا الوجود قادرٌ على أن يُهلك الناس جميعًا، وأن يأتي بِخلق جديد غيرِهم، مِن جنسهم أو من غير جنسهم، وأنَّ ذلك ليس بالعزيز على اللّه تعالى"[3]، وهو "عطفٌ على جملةِ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ مؤكِّدٌ لمضمونها، وإنَّما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لِما فيه مِن المغايرة للمؤكّد في الجملة بأنَّه يفيد أنَّ هذا المشيء سهلٌ عليه هيِّن، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: 27]"[4].

لا يعزّ على العزيز ﷻ عزيز

سرُّ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾:

التعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يُقَرِّر دوامَ القدرة الإلهيّة على إفنائهم واستبدالهم بغيرهم متى شاءه ﷻ، وأنه لا يطرأ على ذلك الثبات تغيير، لا من حيث المبدأ، ولا من حيث القدرة.

قدرة الله تعالى على إفناء الكفور، دائمة لا تعمل فيها الدّهور

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إشارة البعيد في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ تنويه بخطورة الأمر؛ وبيان لعظيم القدرة، لأنّه استبدال كامل بإفناء أناس وإحلال بديل أفضل، وهو ما لا عهد لأحد من الخلق به؛ فلا يكون إلا من الذي هو "قادر لذاته على جميع المكِنات، لا اختصاصَ له

عمليّةُ الاستبدال، لا يقدرُ عليها إلّا اللهُ ذو الجلال

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/180.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/129.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/165.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/215.

بمقدور دون مقدورٍ؛ ومَنْ هذا شأنُه حقيقٌ بأن يؤمَنَ به ويرجى ثوابُه ويخشى عقابه"[1].

سرُّ تقديم ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، على ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

اللّه تعالى، قادر على إفناء من كفر، في لمح بالبصر

تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر المؤكّد ﴿بِعَزِيزٍ﴾، يفيد اختصاص اللّه تعالى بنفي العجز عن إهلاكهم واستبدالهم بخلق جديد، يَعبد اللّه تعالى، ويَسعد بعبادته، ويَشرُف.

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

تقديم النّفي على المسند إليه والمسند الفعليّ، مُفصح في البيان

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: وفيه قرّر علماء البيان أنّ تقديم النّفي على المسند إليه والمسند الفعليّ يفيد التّخصيص إلّا إذا قامت القرائن على غير ذلك، على معنى أنّ غير هذا عزيزٌ عليه، ولذا فإنّ الأفضل حمل هذا الأسلوب على التّأكيد وتقوية الحكم لأنّنا لا نعلم شيئًا عزيزًا عليه ﷻ. وحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في سياق نَفْي استعصاء المشار إليه ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ وتَصَعُّبِه على قدرة اللّه تعالى يفيد سهولة هذين الحدثين؛ إهلاكهم واستبدالهم بغيرهم - على عِظَمه - عليه ﷻ وفيه إشارة أخرى جليلة، هي هوانُهم على اللّه تعالى، وضياع كرامتهم بالمرّة؛ فـ"ذهابكم وفناؤكم وبقاؤكم عليه واحد"[2]؛ فلا وزن لكم في ملكه، ولا إضافة بكم، وذلك لما في ﴿عَلَى﴾ من معنى الاستعلاء.

دلالة التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

التّعبير باسم الجلالة الأعظم، يناسب المقامات الأفخم

الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ العَلَمُ الدّالُّ على الذات المقدَّسة يشتمل على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، بما فيهما من صفات الجلال والجمال، ولذلك كان إيثار التعبير به في هذا السياق الخطير أنسبَ؛ من حيث إنه سياقٌ يفتقرُ إلى القدرة المطلقة،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/41.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/28.

والجبروت القاهر في إهلاك الكافرين بأدنى كُلفة، كما أنَّه سياقٌ يفتقر إلى الرحمة المطلقة، واللُّطف العظيم في اصطفاء أجيالٍ أطهرَ يستبدلهم بهم ولا يبالي.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

عزّة الله تعالى، كمال واقتدار ومكنة

الباء في قوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ "حرفُ جرٍّ زائدٌ... تُفيد التّوكيد"[1]، ويُسهم في تقرير يُسْرِ إفنائهم، والإتيان بعُبّادٍ يَلِيقون بعبادته ﷻ ويستأهلون عطاءاته وفيوضاته التي لم يَرْقَ لاستقبالها هؤلاء المشؤومون.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإرادة والمشيئة:

بين اللّفظتيْن عموم وخصوص من جهتيْن

الإرادة تكون لِما يتراخى وقتُه، ولِما لا يتراخى، والمشيئة لِما لَمْ يتراخ وقتُه، والشاهد أنَّك تقول فعلت كذا شاء زيد أو أبى، فيقابل بها إياه، وذلك إنَّما يكون عند محاولة الفعل، وكذلك مشيئته إنَّما تكون بدلًا من ذلك في حاله، وقيل: الإرادة هي العزم على الفعل، أو الترك بعد تصوّر الغاية المترتّبة عليه من خير أو نفع، أو لذّة ونحو ذلك، وهي أخصُّ من المشيئة؛ لأنّ المشيئة ابتداءُ العزم على الفعل، فنِسْبتها إلى الإرادة نسبةُ الضعف إلى القوة، والظنِّ إلى الجزم، فإنَّك ربَّما شئت شيئًا ولا تريده، لِمانعٍ عقلي أو شرعي، وأما الإرادة فمتى حصلت صدر الفعل لا محالة، وقد يطلق كلٌّ منهما على الآخر توسّعًا، وإرادته ﷻ للشيء نفس إيجاده له، ويشهد لذلك الأخبار[2].

(يذهب) و(يهلك):

الذّهاب يعمّ الإهلاك وغيره

يقال: ذَهَبَ بالشيء وأَذْهَبَهُ، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8] كناية

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/176.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 35، 36.

عن الموت، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، وأهلكَ يُهلك، إهلاكًا، فهو (مُهلِك)، والمفعول (مُهلَك) للمتعدِّي، أهلك فلانٌ: ارتكب أمرًا عظيمًا، وأهلَك اللّهُ الظّالمين: جعلهم يهلكون أو يموتون، أبادهم ولم يترك لهم أثرًا"[2].

(يأت) و(يجيء):

المجيء أعمّ من الإتيان، في الاستعمال والبيان

"الْمَجِيء: أعمُّ لِأَنَّ الْإِتْيان مَجِيء بسهولة، وَيُقال: جاءَ: في الْأَعْيان والمعاني، وما يكون مَجيئه بِذاتِهِ وبأمر، وَلمن قصد مَكانًا وزمانًا، وَذكر الزَّمَخْشَرِيّ أَنَّ أَتَى: يَجِيء بِمَعْنَى صار... ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: 69]: أي كانَ. وأتَى وَجاء: يطلقان بِمَعْنَى فعل فيتعدَّيان تعديته؛ وَيُقال: أَتَى زيد أَتْيًا وإتيانًا، إذا كانَ جائيًا، وأتَى بزيد وبمال مثلًا: إذا أجاءه، أي: جعله جائيًا، وأتى المَكان: حَضَره"[3].

(1) الراغب، المفردات: (ذهب).
(2) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هلك).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 34.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط ذكر قدرة الله على الكفّار في الدّنيا، بما يصيرون إليه في الآخرة

"لمّا ذَكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفّار، ثم ذكر عقيبه أنَّ أعمالهم تصير محبَطةً باطلة ذَكر في هذه الآية كيفية خَجالَتِهم[1] عند تمسُّك أتْباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم، وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني، الحاصل بسبب الفضيحة والخَجالَة"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَرَزُواْ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ وبُدوِّه. فالبَرازُ: المَكانُ البَعيدُ الواسِعُ الخالي مِن الشَّجَرِ ونحْوِه، يُقالُ: بَرَزَ الرَّجلُ، يَبْرُزُ، بُروزاً: إذا خَرَجَ إلى الفَضاءِ الواسِع لِحاجَة، ويُطْلَقُ البَرازُ على الصَّحْراءِ البَعيدَةِ. والبَرازُ: الغائِطُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنّهم كانوا يَقْضونَ حاجَتَهُم في الأَمْكِنَةِ الخالِيَةِ البَعيدَةِ عن النّاسِ[3]. ومن الباب: المُبارزة للقتال، وهي الظُّهور مِن الصَّفِّ[4]. والمرادُ بالبُروزِ في الآية: الخُروجُ مِنْ مَكانٍ حاجِبٍ. والمَعْنَى: حُشِروا مِنَ القُبورِ.

2) ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾: أَصْلُ الضَّعْفِ: الوَهَنُ، وَضِدُّهُ القوَّة، يُقالُ:

(1) "خجالة: حياء خجل، كدر يسببه الخزي والعار - وارتباك يسببه التواضع والحياء". يُنظر: آن دوزي، رينهارت بيتر، تكملة المعاجم العربية: (خجل).

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/82.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برز).

(4) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (برز).

ضَعُفَ الرَّجُلُ يَضْعُفُ ضَعْفًا وَضُعْفًا، أيْ: وَهَنَ، فَهوَ ضَعِيفٌ. والضَّعيفُ: اسْمُ فاعِلٍ مِنَ الضَّعْفِ، وهو المَرَضُ والهُزالُ، تَقولُ: ضَعُفَ إذا مَرِضَ، والجَمْعُ: ضُعَفاءُ وَضِعافٌ. والمَقصودُ بالضَّعْفِ في الآيةِ: الوَهْنُ والذُّلُّ[1]. والمُرادُ بالضُّعَفاءِ هنا: عَوامُّ النّاسِ والأَتْباعُ الذين فقدوا نِعمةَ التَّفكير، ونِعمَةَ حريَّةِ الإرادة، فهانوا وذلّوا[2].

3) ﴿تَبَعًا﴾: أَصْلُ (تبع): التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وَأَتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[3] كأنَّما لَحِقَ أو التصق به وتَطَلَّبه مُتبعًا له[4]. والاِتِّباعُ: اقْتِفاءُ أثَرِ الماشِي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ[5]. يُقال: تَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتَ مَعَه، واتَّبعتُه إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[6]. والتَّبيعُ: النَّصير. والتُّبَّعُ والتُّبَّعُ: الظِّلّ؛ لأنَّه مُتَّبِعٌ حيثما زال[7]. والتَّبَعُ: اسْمٌ لِمَنْ يَتْبَعُ غَيْرَهُ، يَسْتَوِي فِيهِ الواحِدُ والجَمْعُ، وهو مِثْلُ خَدَمٍ وَحَشَمٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَصْدَرٌ؛ فَلِذَلِكَ اسْتَوَى فِيهِ الواحِدُ والجَمْعُ، وقِيلَ التَّبَعُ: جَمْعٌ لا يَجْرِي على الواحِدِ، فهو مِنَ الجُموعِ النّادِرَةِ. وعليه فالمُرادُ بالتَّبَعِ في الآيةِ: اسْمُ جَمْعِ التّابِعِ، وهو الَّذي يَتْبَعُ غَيرَهُ[8].

4) ﴿مُّغْنُونَ﴾: أصلُ (غني): يَدُلُّ على الكِفايَةِ. الغِنَى في المالِ. يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ: الكِفايَةُ. يُقالُ: لا يُغْنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أيْ: لا يَكْفِي كِفايَتَهُ[9]. والإغناءُ: مُرادِفُ الغِنَى، وهُما مَعًا ضِدُّ الفَقْرِ، وَكَثُرَ اسْتِعْمالُ الغَناءِ في الإجْزاءِ والكِفايَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَجْزَأَ وَكَفَى فَقَدْ أَذْهَبَ عَنْ نَفْسِهِ الحاجَةَ إلى المُغْنِينَ وأذْهَبَ عَمَّنْ أَجْزَأَ عَنْهُ الاحْتِياجَ أيضًا. وَتَخْصِيصُ الغِنَى في مَعْنَى ضِدِّ الفَقْرِ وَنَحْوِهِ حَتَّى صارَ الغَناءُ لا يَكادُ يُسْمَعُ في مَعْنَى ضِدِّ الفَقْرِ[10]. والغُنْيَةُ: اسْمٌ من الاسْتِغْناءِ عن الشَّيْءِ[11]، والغانِيَةُ: المُسْتَغْنِيَةُ بزوجها عن

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/543.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/423.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(7) الخليل، العين: (تبع).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216، و24/161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/22.
(11) ابن عباد، المحيط في اللغة: (غني).

الزِّينة، وقيل: المُسْتَغْنِيَةُ بحسنها عن التّزيّن[1]. والمرادُ بالإغناءِ في الآية: حُصولُ النّافِعِ المُحتاجِ إليهِ.

5) ﴿أَجَزِعۡنَآ﴾: أصلُ (جزع): يدلُّ على الانْقطاعِ، يُقالُ: جَزَعَ الأرْضَ والوادِي: قَطَعَهُ[2]، والجَزَعُ: أشدُّ الحُزْن الَّذي يَمنَعُ الإنسانَ ويصرفُه عمّا هو بِصَدَدِه، ويَقطَعُهُ عَنْهُ قَهْرًا[3]. وهو نَقيضُ الصَّبر، يُقالُ: جَزِعَ وجَزَعَ، يَجْزَعُ، جَزَعًا، فهو جازِعٌ وجَزِعٌ: إذا لَمْ يَصْبِرْ على ما أصابَهُ. والجَزوعُ: الشَّدِيدُ الجَزَعِ[4]. والمُرادُ بالجَزَعِ في الآيةِ: حُزْنٌ مَشوبٌ بِاضْطِرابٍ[5].

6) ﴿مَّحِيصٖ﴾: أصلُ (حيص): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَيْلُ في جَوْرٍ وَتَلَدُّدٍ. يُقالُ: حاصَ عَنِ الحَقِّ يَحِيصُ حَيْصًا، إذا جارَ[6]. والحَيْصُ: الحَيْدُ عَنِ الشَّيءِ. حاصَ عَنْهُ يَحِيصُ حَيْصاً: رَجَعَ. وَيُقالُ: ما عَنْهُ مَحِيصٌ، أي: مَحِيدٌ ومَهْرَبٌ[7]. والمَحِيصُ: مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ كالمَغِيب والمَشِيبِ، وَهوَ النَّجاةُ. يُقال: حاصَ عَنْهُ، أيْ نَجا مِنْهُ. وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ اسْمَ مَكانٍ مِنْ حاصَ أيْضًا، أيْ ما لَنا مَلْجَأٌ وَمَكانٌ ننجو فيه[8]. وهو المُرادُ في الآيةِ.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

"في هذه الآيات صورة شاخصة تمثّل المستضعفين، والمستكبرين وثالثهم الشيطان، وقد قاموا يتحاورون بين يدي اللّه، وكلٌّ يلقي اللوم على الآخر، ولكن ذلك لم يغن عنهم أمام اللّه شيئًا"[9]، "والمقصود

معـاتـبـة الـضـعـفـاء للمستكبرين، حيث لا يغني متبوع عن تابع يوم الدّين

(1) الراغب، المفردات: (غني).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (جزع).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جزع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/217.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيص).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيص).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 13/217.
(9) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/182.

مِن وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه، لأنَّ هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضمار الشرِّ لهم فيما وعدهم في الدنيا ممّا شأنه أن يستفزّ غضبهم من كيده لهم وسخريّته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له، وسوء ظنِّهم بما يتوقّعون إتيانه إليهم من قبله، وذلك أصل عظيم في الموعظة والتّربية"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَبَرَزُواْ﴾:

بروز العباد للمحاسبة العامّة، في ميدان الحشر يوم القيامة

جاءت (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ "حرف استئناف"[2]، أو "عطف على جملة ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ باعتبار جواب الشرط - وهو الإذهاب - وفي الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم، وبرزوا للّه جميعًا، أي: يوم القيامة"[3].

دلالة العدول إلى التّعبير بالماضي في ﴿وَبَرَزُواْ﴾:

الخبر عن الله تعالى متحقِّقٌ، وكأنَّه وقع بالفعل

قال العلماء في معنى الماضي ﴿وَبَرَزُواْ﴾: "أي: يبرزون يوم القيامة، وإيثار الماضي لتحقّق الوقوع، أو لأنَّه لا مُضِيَّ ولا استقبال بالنّسبة إليه سبحانه "[4]؛ فجِيء به بلفظ الماضي لأنّ ما أخبر به ﷻ لِصدقه كأنَّه قد كان ووجد، ونحوه ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 44]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 50][5]؛ فلمّا كان هذا البروز أمرًا متحقّقًا كائنًا لا محالة، عبَّر عنه بصيغة الماضي، كأنَّه وقع فعلاً ودخل في دائرة الوجود، وإنْ كان لا يزال مستقبَلًا واقعًا بعد الموت[6]

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/129.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/215.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/484.

وبَرَزَ معناه في اللغة: ظَهَرَ بعد الخفاء[1] وهم لم يكونوا بمختفين عنه ﷻ قبل ذلك؛ بل كانوا له في كلِّ وقت بارزين، ولكن مَن أنكر ادِّعاء الإخفاء في الدنيا يُدَّعَ في ذلك اليوم، ويُقرّ بالبروز[2]؛ فالكلام خارج على ما يعتقدونه[3] في الدنيا في كونهم فائتين غائبين عن اللّه تعالى؛ فيومئذ يعلمون أنَّه كان لا يخفى عليه شيء من أفعالهم وأحوالهم[4] أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب اللّه وحُكمه[5].

دلالة اللّام في شبه الجملة ﴿لِلَّـهِ﴾:

يوم القيامة تظهر البواطن، وتنكشف الكوامن

اللّام الدّاخلة على لفظ الجلالة في قول اللّه تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ "مُعَدِّية فعل ﴿وَبَرَزُواْ﴾ إلى المجرور اسم الجلالة"[6]، وهي للتّعليل[7]، "أي: برزوا لأمر اللّه تعالى أو لوعده الذي وعد أنَّهم يبعثون. أو يريد الحكم، اللّه سبحانه يحكم في بعثهم"[8] "وفي الكلام حذفُ مضاف، وجوَّز أن تكون اللام صلة البروز وليس هناك حذفُ مضاف، ويراد أنَّهم ظهروا له - عزَّ شأنه - عند أنفسهم وعلى زعمهم"[9].

كذلك من إشارات اللّام أنّه "لا يُنازِع أحدٌ في البروز في ذلك اليوم؛ وقد ينازعونه في الدّنيا. أو خُصَّ ذلك البروز بالإضافة إليه لِما هو المقصود من إنشائه إياهم وخلقهم. ليس المقصود في خلقهم وإنشائهم الأول، ولكن خلقهم الآخر؛ فخصّ ذلك بالإضافة إليه... فيومئذ يعلمون أنَّه كان لا يخفى عليه شيء؛ وكأنَّهم لم يكونوا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/446.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/178.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.
(8) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(9) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

يعلمون؛ قبل ذلك"[1]؛ فـ "اللام هاهنا لام أجل، لأجلِ أمر اللّه إيّاهم بالبروز"[2]، فإن كانوا من السّعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسيّة وأحوالهم العلوية، ووجوههم المشرقة وأرواحهم الصافية المستنيرة؛ فيتجلَّى لها نور الجلال، ويعظم فيها إشراق عالم القدس، فما أجلَّ تلك الأحوال، وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة ومنازل الكبرياء ذليلين مَهينين خاضعين خاشعين، واقعين في خِزْيِ الخَجالة ومَذَلَّة الفضيحة، وموقف المهانة والفزع"[3].

دلالة التّعبير بالاسم الجليل ﴿لِلَّـهِ﴾:

التّعبير باسم الجلالة، أنسب لسياقات التّهديد

سبق القول بأن الاسم الجليل (اللّه) العلمَ الدالَّ على الذات المقدّسة يشتمل على معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى جميعها، بما فيهما من صفات الجلال والجمال، ولذلك كان إيثار التعبير به هنا في مقام التهديد والتخويف بذكر مشهد خطير من مقام الحشر والنشر والحساب أَمْلَأ لسياق التهديد.

سرُّ التّعبير بالمسند إليه، الضّمير في ﴿وَبَرَزُواْ﴾:

الضّميرُ عنصرٌ للإيجازِ؛ يضمن بلاغة المؤدّى، وروعة الإعجاز

التّعبير بضمير الغَيْبَة في ﴿وَبَرَزُواْ﴾ يتَّسع ليستوعب صنوف الناس جميعًا - مؤمنهم وكافرهم -، بخلاف التعبير بالاسم الظاهر، الذي كان سيتعدَّد تَعدُّدًا يخرج عن حَدّ الإيجاز، بل عن حدِّ الإطناب البليغ إلى التطويل المعيب؛ إذ لو لم يُعبَّر بهذا الضمير (واو الجماعة) لتحتَّم ذكر الصنفين (الضعفاء، والذين استكبروا) على الأقلّ - دون المؤمنين - وحينئذ يقع التكرار الذي يخرج عن حدّ البلاغة والإعجاز.

سرُّ القيد بالحال، في لفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

الحشر لا يُغادِر أحدًا من مؤمن أو كافر، سادةً أو سَوادًا

عَمَّمَتِ الآية الكريمة حكم الحشر والنشر بالتوكيد المعنوي

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/447.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/83.

﴿جَمِيعًا﴾ "لأنه لا يُغادَر أحدٌ إلا بُعث"[1]، "قال أبو إسحاق: أي: جمعهم اللّه في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع"[2]. "و﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد ليشمل جميعهم مِن سادة ولفيف، وقد جيء في هذه الآية بوصف حال الفِرق يوم القيامة، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشّيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بِنُزُلِ الكرامة. والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارُك شأنهم قبل الفوات. فالمقصود: التحذير ممّا يُفضي إلى سوء المصير"[3].

دلالة الفاء في جملة ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾:

كلُّ ضالٍّ في دنيا الغرور، ضعيفُ الحجّة في يوم النّشور

في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ جاءت "الفاء عاطفة"[4]، تَعطف جملة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ على جملة البروز ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ وذلك يعكس تجرُّد الضعفاء مِن تحمُّل مسؤولية أنفسهم؛ لأنَّهم هكذا كانوا في الدنيا، وهكذا انتقلوا إلى الآخرة، إمَّعةً لا يَستقلّون بقرار، ولا يجرؤون على احتمال تبِعة. فالفاء لتفريع الاستكبار على التبعية؛ لأنَّها سببٌ يَقتضي الشفاعة لهم[5].

دلالة (الْ) التّعريف في لفظ ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾:

سبيل نجاة الأتباع الأذلّة، التّأبّي على التّبعيّة المذلّة

﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ "همُ الأتباعُ"[6]، "ضِعاف الرأي"[7]، "الذين فقدوا نعمة التفكير، ونعمة حرية الإرادة، فهانوا وذلّوا"[8].. و"الآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة، وهي أقوال يبدو فيها طابع الذلّة والمهانة كما

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/448.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) الدعاس، إعراب القرآن: 2/129.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(6) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.
(8) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/543.

هو شأنهم في الدنيا"[1]، ففي وصفهم بهذا الوصف ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ وتعريفهم بـ (ال) إزراءٌ عليهم، وتحذير لهم، وتنبيههم إلى ضرورة الخروج من عباءة المستكبرين الواهية، فإن فعلوا فقد خرجوا إلى سبيل النّجاة، وإلا فطريقهم إلى دركات النيران وبئس القرار، أو أنَّ اللّام تدلُّ على كمالهم في الصّفة القبيحة وانطباق معانيها كلِّها عليهم، وفي الاصطفاء بيان لعلَّة التبعيّة الممقوتة.

دلالة حروف الطلب في ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:

"الذين استكبروا: ساداتهم وكبراؤهم، الّذين استتبعوهم واستغووهم وَصَدّوهُمْ عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم"[2]، والسين والتاء للمبالغة في الكبر[3].

يوم القيامة تتهاوى الكبرياء، ويتساوى النّاس في العقاب والجزاء

وقد آثر النظم الكريم زيادة حروف الطلب في كلمة ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ ولم يكتفِ بـ (تكبَّروا) ليكشف عن طلبهم ما ليسوا له أهلًا؛ فهم ليسوا بِكِبار ولن يكونوا، ولا يمتلكون من أسباب ما ادَّعوه من العظمة شيئًا.

سرّ تقديم المقول على القول، في السّياق:

قدَّم النظمُ الكريم المقولَ لهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ على القول: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ لأنَّهم المَتْبوعونَ[4]، والسّادة للأتباع الضعفاء، المأمونون عندهم، وقد اعتادوا أن يرجعوا إليهم في أمرهم كُلِّه؛ فمن المؤكَّد - الذي يُعَبِّر عنه تقديمُ ذكرهم هنا - أن يفزعوا إليهم في هذا الموقف العصيب؛ فهم "أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله"[5] في الدُّنيا فأضلّوهم عن سواء السبيل، وفي ذلك التقديم - الذي لا يؤدّي بالضعفاء إلى شيء من النجاة، وما يترتّب عليه من

استنجاد التّابعين بالمتبوعين يوم الدّين، خيبة ومذلّة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/544.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 12/448.

خيبة أمل - تتحقّقُ فجيعتهم في كبرائهم الموهوم عظمتهم؛ وما أشدَّها حينئذ من حسرة!

سرُّ الاسم الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾، مقابل لفظ ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾:

الاستكبار يذهب بموت المستكبرين، والذّلّ يبقى إلى يوم الدّين

قابَل النظمُ الكريم المقولَ لهم اسمَ موصولٍ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ بالقائلين معرَّفًا بـ (ال) ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ لِما يُلمِح إليه الأوّلُ من أن صِفة الاستكبار المزعوم قد فاتت وتلاشت وانتهت بانتهاء دنياهم، وذلك ما تُفْصِح عنه صيغةُ الماضي التي أتاحها الموصول في صلته، ولن تتجلّى بهذه الدقة لو جاء معرَّفا بـ (ال) كالثاني هكذا (فقال الضعفاء للمستكبرين)؛ فقد ذهب الاستكبار الموهوم، ولم يَبْقَ مِن آثاره إلا خِزْيُه وآثامه.

أما تعريف الثاني بـ (ال): ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ فَلِلُزوم الضعف لهم، وثبوته فيهم، ودوامه عليهم حتى هنالك في العذاب؛ لأنهم تشبَّعوا بالانكسار والذُّلِّ والتبعيّة، وصار من الصعب عليهم الفكاك منها، إلا بعد تَبَيُّنِهم الحقيقةَ المُرَّة، وهنالك يفيقون من غفلتهم، ويَنتفضون من سكرَتِهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]. ولكن هيهات هيهات أن ينفع النّدم!

سرُّ التّعبير بمقول القول جملة اسميّة:

التَّبَعِيَّةُ المقيتة في الحياة، يتواصل شؤمها بعد الممات

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾، آثر النظم الكريم صياغة مقولِ القول جملةً اسميَّة لِما سَبقَتِ الإشارة إليه من ديمومة انكسار الأتْباع المخزي، وتبعيَّتهم المقيتة مدّة حياتهم الدنيوية، خانعين أذلّاء، غير متحرِّرين من قيد التبعية؛ حتى صارت ملازمة لهم مختلِطة في كيانهم؛ ودليل ذلك نُطْقُهم بِمقول قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في الآخرة، بل في العذاب المهين والأليم.

دلالة التّوكيد بـ ﴿إِنَّا﴾ والجملة الاسميّة:

أكَّد ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ تَبعِيَّتَهُم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ بـ ﴿إِنَّا﴾ في قولهم

يأمل الأتباع في الآخرة الخلاص، ولات حين مناص

لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ إمعانًا في الحسرة على ضياع أعمارهم في تبعيَّةٍ خاسرة، وتعلُّقهم بأسباب واهية لم تُغن عنهم شيئًا، كذلك أكَّدوا هذا الخبر المتحسِّر ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ محاوَلةً منهم لاستدرار أي نفْعٍ يُمكن أن يُحصِّلوه من هؤلاء (الذين استكبروا) عليهم وخدعوهم.

دلالة ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ دون (تَبِعْناكم):

مرارةُ التَّبَعيَّة، تلاحق الأتباع الأذلّاء إلى الآخرة

آثر الأتْباعُ ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ التعبيرَ بفعل الكينونة ﴿كُنَّا﴾ - أي: في الدُّنيا[1] - مع ما فيه مِن نقصِ عُنْصر الحَدَثِ - على التعبير بِفِعْلِ الحَدَث (تَبِعْناكم) مباشَرَةً لِما لِلجملة الاسمية مِن دَعْمِ فكرة المُلازَمة لِلخبر ﴿تَبَعٗا﴾ بمصدريته الثابتة، وعطائه البالغ في وصف التبعيّة مبلغا لا يُعطيه غيره من عناصر.

معنى اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾، وأثرها في المعنى:

التّبعيّة حبسٌ للحريّات، وهدر للكرامات

اللّام هنا إمّا أن تكون للتّخصيص على معنى: كنّا مخصّصين لكم، أو للتّمليك على اعتبار أنّهم تنازلوا عن أخصّ خصائصهم لأولئك المستكبرين.

الغرض من تقديم المجرور على خبر كان:

الأتباع يُخْلِصون حياتهم خانعين؛ فيخذلهم سادتهم يوم الدّين

قُدّم الجارّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ في مقول الأتباع للّذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ لقصد إفادة الحصر، "أي: تبعًا لكم لا لغيركم. وقيل: المعنى إنّا تبع لكم لا لرأينا؛ ولذا سمّاهم اللّه تعالى ﴿ضُعَفَـٰٓؤُاْ﴾ ولا يلزم منه كون الرّؤساء أقوياء الرّأي؛ حيث ضلّوا وأضلّوا، ولو حُمل الضّعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسن"[2].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/448.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

نكتة تنكير لفظ ﴿تَبَعًا﴾:

التّنكير هنا يفيد التّحقير، أو للتّعميم ليشمل كلّ أنواع التّبعيّة فكل التّبعيّات العمياء تعيس بئيس.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿تَبَعًا﴾، دون (تابعين):

شعور الضّعفاء يتفاقم في الآخرة لتعاظم خيبة الأمل

قال العلماء: "﴿تَبَعًا﴾ جمعُ تابع. يقال: تابع وتَبَعٌ، مثل: غائب وغَيَبٌ. وجائز أن يكون تَبَعٌ مَصْدَرًا سُمِّيَ به، أي كنّا ذوي تبع"[1]، فإذا أُرِيد به الجمع فقد حصل التناسب بينه وبين اسم كان في ﴿كُنَّا﴾ وإن كان ﴿تَبَعًا﴾ مصدرًا ففيه الدلالة على خلوصهم لتبعيّتهم، حتى كأنهم قطعة منحوتة من مادّة التبعية الخالصة التي لا يشوبها شيء آخر، وذلك لما في التعبير بالمصدر من دلالةٍ على اسم الفاعل من المبالغة كقولنا: رَجُلٌ عَدْلٌ.

الغرض من حذف متعلّق لفظ ﴿تَبَعًا﴾:

اتّباع المستكبرين، يُفعِمُ الضّعفاء حسرةً يوم الدّين

في قول الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ لم يُحدِّدوا ما كان الأتْباع يتبعونهم فيه، وقد قدَّره المفسرون بقولهم: "اتبَعناكم فيما دعوتمونا إليه"[2]، و"في الكفر بالإجابة لكم"[3]، وفي "أحوال الدنيا"[4]، و"تكذيب الرّسل عليهم السلام، والإعراض عن نصائحهم"[5]، ومِن لطائف تركهم تحديد جهة الاتِّباع إفادةُ التعميم، أي: أنَّ تبعيتهم لهم كانت تبعيَّة مطلقة، واستسلامًا أعمى، وذلك أدْعى لتمام حسرتهم.

دلالة الفاء مع أداة الاستفهام ﴿فَهَلۡ﴾:

التماس (الضّعفاء) ما أوهمهم السّادة أنَّهم يمتلكونه

جاءت (الفاء) في قول الأتباع للذين استكبروا: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/129.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/83.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

عَنَّا﴾ "حرف استئنافٍ"(1)؛ "للدّلالة على سببيَّة الاتِّباع للأغنياء، وهو مِن الغَناء بمعنى الفائدة"(2). فقد فرَّعوا طلبهم منهم أن يُغنوا عنهم بعض هذا العذاب على تبعيَّتهم لهم في الدنيا، ثمرةً طبيعيّةً لِما أفهموهم إياه مِن قوَّة السلطان، ووفرة الإمكانات: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾.

الغرض من الاستفهام بالأداة ﴿فَهَلْ﴾:

الـضّـعـفـاء في الآخـرة، يأملون غَـوْث الّـذيـن استـكـبروا دون جدوى

"إيلاء المسند إليه حرف الاستفهام قرينةٌ على أنه استفهام غير حقيقي، وبَيَّنه ما في نظيره: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: 47 - 48]"(3) وعلى ذلك فقد خرج الاستفهام في قولهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ عن قصد طلب الفهم إلى جملة من الدلالات، منها "التوبيخ والتقريع"(4)، ومنها طلب دفع بعض العذاب عنهم، قال الماتريدي: "الأشبه أنَّهم يطلبون عنهم رفع بعض العذاب عنهم، وتحمُّل بعضٍ؛ لأن مؤنة الأتباع في العرف يتحمّلها المتبوع؛ فيطلبون منهم رفع شيء وتحمُّل بعض ما حلَّ بهم؛ وهو ما ذُكر في آية أخرى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، طلبوا منهم تحمّل بعض ما حلَّ بهم"(5).

دلالة الجملة الاسميّة المصدّرة بالضّمير ﴿أَنتُم﴾:

صار الضّعفاء منتظرين من الذين استكبروا نفعًا بدفع ضُرٍّ

جاء سؤال الأتْباع، وهم: ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ جملةً اسميّة تشبُّثًا بدوام حالة النَّجاة

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/195.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/195.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/383.

والدفاع والنُّصرة التي يطمحون إليها، والمسند ﴿مُّغۡنُونَ﴾ "من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة"[1]، و"يقال: أغنى عنه إذا دَفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع"[2] كذلك يكمن في صياغة الاسميَّةِ هذه مع تقديم المسند إليه ﴿أَنتُم﴾ مزيدُ تبكيت وإهانة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ إذ كانوا يزعمون لأنفسهم مكانةً عند اللّٰه تعالى كما سيأتي قريبًا.

الغرض من التّعبير بالمسند إليه ﴿أَنتُم﴾:

(الـضـعـفـاء سـيـنـدمـون، ولات ساعـــة مندم)

في التعبير عن المسند إليه بضمير خطاب الجمع ﴿أَنتُم﴾ بيانٌ لفجيعة الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ إذ كانوا يُمارسون عليهم دَوْرَ السّادة المتميِّزين بمزايا الاصطفاء الإلهي المتمثِّل في الإمكانات الموهومة فيهم، فَعَبَّؤوا خطابهم إياهم بـ ﴿أَنتُم﴾ مزيج الدلالات المتكاثرة في نفوسهم، من الفجيعة، والحسرة، والندامة، والتوبيخ، والتقريع، وغيرها.

نكتة تقديم المسند إليه على المسند:

الـضّـعـفـاء سـيـوبِّـخـون مـتـبـوعـيـهـم الّذين استكبروا بمرارة وحسرة

قال ابن عاشور: "وموجب تقديم المسند إليه ﴿أَنتُم﴾ على المسند ﴿مُّغۡنُونَ﴾ في جملة ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ أنَّ المستفهَم عنه كونُ المستكبرين يُغنون عنهم لا أصل الغناء عنهم؛ لأنهم آيسون منه لما رأوْا من آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم. كما تدلُّ عليه حكاية قول المستكبرين ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾، فعلموا أنهم قد غَرّوهم في الدنيا، فتعيّن أنَّ الاستفهام مستعمَلٌ في التورُّك والتوبيخ والتبكيت، أي: فأظهروا مكانتكم عند اللّٰه تعالى التي كنتم تدّعونها وتُغَرونَنا بها في الدنيا"[3].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/543.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.

الأتباعُ يَطلبون دفْعَ بعض العذاب عنهم، وهو سراب الأماني

دلالة التّعبير بحرف الجرّ (عن):

عُدِّي الاسمُ ﴿مُّغۡنُونَ﴾ بـ ﴿عَنَّا﴾ لأنه "ضُمِّنَ معنى الدفع... أي: إنا اتبعناكم فيما كنتم فيه مِن الضّلال؛ فهل أنتم اليوم دافعون عنا مِن عذاب اللّه من شيء؟"[1]، يودّون لو دفع (الذين استكبروا) عنهم شيئًا ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، مع كمال علمهم بأنَّه لا يكون، وإنَّما هو الأمل الذي يمنّون به أنفسهم، ويقرِّعون متبوعيهم، الذين تجلَّى عجزهم عن الدفع عن أنفسهم.

العاجز عن دفع بعض العذاب، عاجز عن دفع العذاب كلّه

دلالة حرف الجر ﴿مِنۡ﴾ في السّياق:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ "بدلِيَّة، أي: غَناءً بدلًا عن عذاب اللّه"[2]، أو تبعيضيّة، يقول الزمخشري: "إن قلتَ: أيُّ فرق بين ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وبينه في ﴿مِن شَيۡءٖ﴾؟ قلتُ: الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنَّه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب اللّه. ويجوز أن تكونا للتبعيض معًا، بمعنى: هل أنتم مغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب اللّه؟ أي: بعض بعض عذاب اللّه"[3].

عذاب الضعفاء لا يُحتمل، فكيف بعذاب المستكبرين؟

سرُّ إضافة ﴿عَذَابِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

في إضافة ﴿عَذَابِ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ إيحاءٌ بخطورته؛ وترهيب من استحقاقه بمخالفة دينه وشريعته ﷻ، بالاستكانة والاستسلام والخنوع للمستكبرين، وقد أوضح اللّه تعالى سبيل النجاة: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [النساء: 97]. وقد ساق اللّه ﷻ هذا الوعيد ليحذره العباد مُجانبينَ أسبابه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/195.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في السّياق:

﴿مِن﴾ في قولهم: ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ "مزيدةٌ لِوقوع مدخولها في سياق الاستفهام بحرف هل"[1]، وقد سبق في كلام الزمخشري "أنها للتبعيض... والمعنى: هل أنتم مغنون عنّا بعض شيءٍ هو بعض عذابِ اللّٰه؟ أي: بعضَ بعضِ عذاب اللّٰه؟"[2].

التّعبير عن عذاب اللّٰه بالبعضيّة، تقريب للصّورة الحسّيّة

الغرض من تقديم القيد ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾:

أصل ترتيب عناصر الجملة: فهل تغنون عنّا شيئًا من عذاب اللّٰه؟ غير أنَّ القيد بالحال ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ "قُدِّمَتْ لأنَّ ذا الحال نكرة، والحال وصاحبها في الحقيقة صفة وموصوف"[3].. ومن أسرار ذلك التقديم البوحُ بشدّة ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وقوّة إيلامه الذي لا يُحتمل؛ ففي تقديم ذكره صرخةُ ألم من هؤلاء الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ لا تُتصوَّر، فكيف بعذاب اللّٰه ﷻ للذين استكبروا ومنحوا أنفسهم بعض اختصاصات اللّٰه تعالى ومنها استعباد العباد؟

دفع العذاب في الآخرة شغلُ أهل العذاب الشّاغل

دلالة التّنكير في لفظ ﴿شَيۡءٖۚ﴾ في السّياق:

آثر النظم الكريم تنكير المفعول ﴿شَيۡءٖۚ﴾ لإفادة "التقليل"[4]؛ فأيُّ ﴿شَيۡءٖۚ﴾ وأيُّ قدْر مِن غَناء عنهم، ومن دفْع لـ ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فيخفِّف عنهم ولو القليل من ذلك العذاب هو مَحَلُّ رِضًا واعتبارٍ لَوْ حَصَّلوه هنالك، وذلك القليل الذي يطلبونه في الآخرة من سادتهم الذين استكبروا يُرضيهم اطِّرادًا على طبيعتهم غير الطموحة؛ إذ كان يُرضيهم منهم القليل في الدنيا.

الأتْباع الأذلّاء يَرضَون من سادتهم بالقليل، في الدّنيا والآخرة

الغرض من شبه كمال الاتّصال في سياق المقال:

جاء ردُّ الذين استكبروا بأنْ ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾،

جواب الذين استكبروا، لا يغني عن الضّعفاء شيئًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/577.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/577.

وهو "جملة مستأنفة، بتقدير سؤال، كأنَّه قيل: كيف أجابوا؟"[1]، و"فيه ثلاثة أوجه أحدها: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. الثاني: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. الثالث: لو نجّانا الله من العذاب لنجّيناكم منه"[2]"وجواب المستكبرين اعتذارٌ عن تغريرهم بأنَّهم ما قصدوا به توريط أتباعهم، كيف وقد ورَّطوا أنفسهم أيضا؟ أي: لو كنا نافعين لَنَفَعْنا أنفسنا، وهذا الجواب جارٍ على معنى الاستفهام التوبيخي العِتابي؛ إذ لم يُجيبوهم بأنّا لا نملك لكم غَناء، ولكن ابتدؤوا بالاعتذار عمّا صدر منهم نحوهم في الدنيا، علمًا بأنَّ الضعفاء عالمون بأنهَّم لا يملكون لهم غَناء من العذاب"[3].

سرُّ التّعبير بمقول القول جملة شرط:

ردود المستكبرين مغالطة، بتنصّلهم من مسؤوليتهم الآثمة

جاء ردّ الذين استكبروا ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ مراوغًا؛ لا يغني عن الأتْباع شيئًا، "أي: لو رزقنا الله الهدى، وأكرمنا به لهديناكم؛ ولكن لم يرزقنا ذلك، ولم يكرمنا"[4]. وجاء الرَّدُّ في صورة شرط وجوابه تنصُّلًا من المسؤولية، وإحالةً لسبب العذاب على غيرهم، وكأنهم أبرياء بل كأنَّهم مظلومون، وتلك مغالطةٌ يتَّخذها الكَذَبَةُ في كلِّ زمان ومكان، نعم، هم جميعًا حينئذ في العذاب مشتركون، لكنّ وعود الذين استكبروا الدنيويّة ذهبت بلا طائل يعود بالنفع على أتْباعهم الضعفاء.

الغرض من التّعبير بـ ﴿لَوۡ﴾ في السّياق:

يوم القيامة تكشف الحقيقة المؤيّسة من النّجاة

علَّق الذين استكبروا هدايتَهم الأتْباعَ سبيلَ النجاةِ على هداية الله تعالى إيّاهم، وجاء تعليق تلك السبيلِ بأداةِ الشرط ﴿لَوۡ﴾ في قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ لإغلاق باب الأمل في الخلاص من

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/383.

العذاب؛ لأنَّهم عاينوا الحقيقة، وانكشفت لهم بما لا رجاء معه في النّجاة، أي: "لو أرشدنا الله لأرشدناكم، يريدون أنَّهم إنما دعوهم إلى الضلال لأنَّ الله تعالى أضلَّهم ولم يهدهم، فَدَعَوْا أتباعَهم إلى ما كانوا عليه من الضلال، ولو هداهم الله ﷻ لَدَعوْهم إلى الهدى"[1].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿قَالُواْ﴾:

القـرآن الكريم يحكي ما سيكون بصيغة ما كان؛ إشارة إلى تحقُّقِ وقوعه

هذا المشهد بما يشتمل عليه من مجاذبة الحوار سيكون كلُّه في الآخرة، ومع ذلك حكاه الذِّكر الحكيم بصيغة الماضي؛ وذلك لِما تقدَّم من الإشارة إلى القطع بوقوعه، وأنَّه كائنٌ لا محالة؛ فإن الزَّمن كلَّه للّه تعالى فلا ماضٍ ولا حاضرَ ولا مستقبلَ بالنسبة للّه ﷻ؛ لأنَّه مالك الزمان والمكان، "إنَّ الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذُّلِّ. ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ ومن المعلوم أنَّ اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة، والخزي الكامل التامّ، فكان المقصود من ذكر هذه الآية: استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدَّم ذكرُه من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب"[2].

دلالة التّعبير بالاسم الجليل مسندًا إليه:

سيلجِئُ العذاب الّذين استكبروا إلى الاعـتراف بالحقِّ

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، نجد في إسناد الّذين استكبروا الهدايةَ - الّتي لم تحصل لهم -إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في جوابهم الأتْباع ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ رجوعًا إلى الحقِّ، واعْتِرافاً بما كانوا في الدُّنيا ينكرونه، ويردّونه على رُسُل الله تعالى عليهم السلام جميعا، ولا يؤمنون به.

(1) الواحدي، الوسيط للواحدي: 3/28.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/83.

عذاب الآخرة يجبر المستكبرين على الذِّلَّة

دلالة اللّام في جملة ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾:

أكَّد الذين استكبروا في ردِّهم ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ على طلب الضعفاء بأنَّ الأمر كلَّه للّه ﷻ بـ "(اللام) واقعة في جواب ﴿لَوۡ﴾"[1]، وذلك يَنِمُّ عما في سريرة نفوسهم بأنَّهم لا حولَ لهم ولا قوة، وأنَّهم ما كانوا سوى أسباب لهدايتهم أو لضلالهم، وذلك من الاعتراف بالذِّلَّة والصَّغار بحيث يجرِّدهم من كلِّ استكبار كانوا يدَّعونه لأنفسهم.

طغيانُ نزعة التَّسَيُّد على الضّعفاء، حدّدت صيغة الخطاب

نكتة ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾، بدل إسنادها لله تعالى (لَهَداكُمْ):

معنى قول الذين استكبروا: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ "لو خلَّصنا اللّه من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم، والدَّليل على أنَّ المراد من الهُدَى هذا الذي ذكرناه أنَّ هذا هو الذي التمسوه وطلبوه؛ فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى"[2].

ونكتة تحويل الذين استكبروا إسنادَ هدايةِ اللّه تعالى إيّاهم في قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى إسناد هداية الضعفاء إليهم هم: ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ بَدل إسنادها إلى اللّه تعالى (لهداكم) طغيانُ نزعة التَّسَيُّد عليهم وبقاء بقيَّة منها فيهم، وأنَّهم كما كانوا أسباب ضلالهم حين أضلّهم اللّه تعالى كانوا سيكونون هُداة لهم لو هداهم اللّه ﷻ.

صبرُ أهل العذاب في الآخرة، وجزعهم سيّان

دلالة الاستئناف في قوله ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾:

"جملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ من كلام الذين استكبروا، وهي مستأنَفةٌ تَبْيِينٌ عن سؤالٍ مِن الضعفاء يستفتون المستكبرين: أيصبرون أم يجزعون تَطَلُّبًا للخلاص من العذاب، فأرادوا تأييسهم من ذلك، يقولون: لا يفيدنا جزع ولا صبر، فلا نجاة من العذاب،

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/177.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.

فضمير المتكلّم المشارِك شامل للمتكلّمين والمجابين، جمعوا أنفسهم إتمامًا للاعتذار عن توريطهم"[1]" وقد ورد: إنَّ أهل النار يقولون: يا أهل النار إنَّ قومًا جزعوا في الدُّنيا وبكوا ففازوا، فيجزعون ويبكون. ثم يقولون: يا أهل النار إنَّ قومًا صبروا في الدنيا ففازوا، فيصبرون. فعند ذلك يقولون ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾"[2]، "قال زيد بن أسلم: جزعوا مئة سنة، وصبروا مئة سنة، فلم ينفعهم أحدهما، فقالوا هذا"[3].

الغرض من تقديم الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾ في السّياق:

عند التّيئيس من النّجاة، يكون الجزع والصَّبْرُ سيّان

تقدَّم الخبرُ ﴿سَوَآءٌ﴾ على المبتدأ المؤوَّل لِيَبين أنّ جزعهم وصبرهم لتأكيد التيّئيس في نفوس الضّعفاء، وحسمًا لصبِّ الضّعفاء التقريع عليهم؛ وتخلُّصًا من مرارة العتاب والتوبيخ، التي الذي غلّفه الضعفاءُ في سؤالهم: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾، و"المقصود من قول المستكبرين للمستضعفين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ مُبالغتهم في النهي عن التوبيخ، بإعلامهم أنّهم شركاءُ لهم فيما ابتُلوا به؛ وتسلية لهم"[4] و"الهمزة و﴿أَمۡ﴾ قد جُرِّدَتا عن الاستفهام لِمجرّد التسوية؛ ولذا صارت الجملة خبريةً، فكأنّه قيل: جزعُنا وصبرُنا سواء علينا، أي: سِيّان، وإنما أفرد الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾ لأنه مصدرٌ في الأصل"[5].

دلالة التّعبير بحرف الجرّ على في ﴿عَلَيۡنَآ﴾:

يحاول الذين استكبروا تقرير ما يعتقدون فيه براءتهم من التّبعة

في تعدية التسوية إلى الجزع والصبر بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَآ﴾ في جملة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ تضمين لمعنى القضاء والحُكم، أي: قضى الله تعالى علينا، وحكم باستواء الأمرين؛ فلا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(3) الواحدي، الوسيط: 3/28.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/485.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/196.

مَخْلَص لنا ولا منجى من هذا العذاب الذي نُعانيه، وكأنَّ الذين استكبروا يُلْمحون بهذا المعنى التضمينيّ إلى براءتهم من التبعة، وهذا يتآزر مع عناصر إحالتهم عدم الهداية إلى اللّه تعالى مغالَطَةً، كما سبق في مَظِنَّته.

أهل الباطل بعضهم من بعض في باطلهم الدنيويّ، وفي عذابهم الأخرويّ

الغرض من التّعبير بالضّمير الجامع لطرفي الحوار (نا):

"إنّما أسندوا كُلًّا مِن الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلم (نا) المنتظم للمخاطبين أيضا؛ مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنَّهم شركاء لهم فيما ابتُلوا به وتسليةً لهم.

وجوّز أن يكون هذا من كلام الفريقين فهو مردودٌ إلى ما سيق له الكلام وهم الفريقان، ولا نظر إلى القرب كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52] وأيّد ذلك ما ورد في الأثر: "يقول أهل النار: هَلُمّوا فَلْنَصْبِرْ فيصبرونَ خَمْسَمئةِ عام؛ فلمّا رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هَلُمّوا فَلْنَجْزَعْ فيبكون خمسمئة عام؛ فلمّا رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ الآية"[1].

"وإلى كون هذه المحاورة بين الضعفاء والمستكبرين في النار ذهب بعضهم؛ ميلًا لظواهر الأخبار. واستظهر أبو حيان أنَّها في موضع العَرْض وقت البروز بين يدي اللّه تعالى وقول الأتباع: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ جزع منهم، وكذا جواب الرؤساء باعترافهم بالضلال، واحتمال أنَّه من كلام الأوّلين فقط خلافُ الظاهر جدًا، وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ جملة مفسّرة لإجمال ما فيه الاستواء؛ فلا محلَّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة أو بدل منه"[2].

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور: 5/17، وجمع الجوامع: 13/313 برقم: (1570/28197)، والمتّقي الهندي، كنز العمال: 2/28، رقم الحديث: (3003).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

دلالة التّعبير بالهمزة ﴿أَجَزِعۡنَآ﴾:

في قول الذين استكبروا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ جاءت "الهمزة وأم للتسوية"(1)، و"ليست الهمزة للاستفهام، بل هي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: 6]"(2).

إذا استوى المتناقضان عند المرء، دلّ قوّة القلب، وعلوّ الهمّة

دلالة ﴿أَمۡ﴾ في قول الذين استكبروا:

جاءت ﴿أَمۡ﴾ في قول الذين استكبروا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ عاطفة(3)، عطف تسوية بين المعطوف عليه والمعطوف، فيقول أهل النار: "إنَّما نال أهلُ الجنة الرحمة بالصبر على طاعة اللّه، فَتَعالَوا فَلْنَصْبِرْ، فيصبرون خمسمئة سنة، فلا ينتفعون، فيقولون هلمَّ فلنجزع فيَضِجّون ويصيحون ويبكون خمسمئة سنة أخرى فلا ينتفعون، فحينئذ يقولون هذا القول الذي في الآية، وظاهر الآية أنَّهم إنما يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي اللّه تعالى"(4).

عند البروز بين يدي الله يوم الحساب، لا ينفع فخر ولا ذكر ولا شعار

الغرض من الطباق بين ﴿أَجَزِعۡنَآ﴾ و﴿صَبَرۡنَا﴾:

الطباق بين (الجزع) و(الصبر) في قول الذين استكبروا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ يستوعب الحالتين المكنتين لحسم قضية التقريع؛ فلا يَتْرك للضعفاء مأمَلًا يُؤمِّلونه، كما أنَّ إثبات الذين استكبروا كلا الوصفين لهم جامعين معهم الضعفاء قد يَصْرف عنهم توبيخهم بتوحيد فريقَيْهِم، ويوهم الضعفاء باستوائهم مع الذين استكبروا في شيء، وإن كان ذلك الشيء ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى.

لا يسوِّي السّادةُ أتباعَهم الضعفاءَ بأنفسهم إلا في عذاب الآخرة

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/549.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/332.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/332.

الغرض من تقديم الجَزَعِ على الصَّبْر:

الموقف يناسب الجزع، ولكلّ مقام مقال

"الجزعُ حزنٌ يَصرِف عمّا يُراد؛ فهو حزنٌ شديد"[1]، "مشوبٌ باضطراب"[2].. وقد قدَّم الذين استكبروا ذِكرَه على ذكر الصّبر لأنَّ المقام للجزع والتَّألُّمِ وتجرُّعِ المعاناة التي لا تُحتمَل.

دلالة جملة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في السّياق:

لا مناص في الآخرة، من المصير المحتوم، للظّالم والمظلوم

"جملة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ واقعةٌ موقعَ التّعليلِ لِمعنى الاستواء، أي: حيث لا محيصَ ولا نجاةَ فسواءٌ الجزعُ والصبر، والمحيصُ: مصدر ميمي كالمغيب والمشيب، وهو النّجاة. يقال: حاص عنه، أي نجا منه. ويجوز أن يكون اسم مكان من حاص أيضًا، أي: ما لنا مَلجأ ومكان ننجو فيه"[3]، "وحاص فلان عن كذا، أي: فرّ وزاغ"[4]، وكذلك في جملة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ تقرير ما قالوه وتأكيده، أي أنَّهم لا مناص لهم ألبتّة بما هم فيه. ويجوز أن يكون هذا من قول المستكبرين والمستضعفين جميعًا، يُسَلِّي بعضُهم بعضًا، ويتأسَّى بعضهم ببعض. ولكنَّ الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزخرف: 39].

والظاهر أن تكون محاورتهم هذه في النّار بعد دخولهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر: 47 - 48]"[5].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾، في السّياق المحكم:

الإخبارُ بنفي زوال العذاب عن أهل النّار، يُضاعف الألم والحسرة

تَدُلُّ ﴿مَا﴾ في قول الذين استكبروا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/485.

ثبوت يقينهم بانتفاء المَخْلَص من ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وعلى تأكُّدهم مِن البقاء فيه إلى ما لا نهاية؛ وذلك مما يضاعف عليهم الألم والحسرة.

نكتة تقديم خبر ﴿مَا﴾، على اسمها ﴿مَّحِيصٍ﴾:

تقَدَّم الخبر - الجارَّ والمجرور ﴿لَنَا﴾ - في قولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ على اسم ﴿مَا﴾ وهو ﴿مَّحِيصٍ﴾ لِما تأكَّد لدى المستكبرين أنَّ المؤمنين إلى الجنان جميعًا، بِمَن فيهم مقارفو ذنوب قد تقتضي تطهيرًا في النار إلى أجلٍ مسمًى محدَّد عند الله تعالى، لذلك قصر الذين استكبروا انتفاء المحيص عليهم هم بخاصّة دون سواهم؛ فهم الخالدون المخلَّدون في النار، لا إلى نهاية يؤمِّلونها.

الّذين ديدنهم في الدّنيا الاستكبار، يجازون في الآخرة، بالخلود في النّار

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في السّياق:

حرف ﴿مِن﴾ في قول الذين استكبروا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ "حرفُ جرٍّ زائدٌ"[1]، يعنون ما لنا من "منجى أو ملجأ، "[2]، أو معدل عن العذاب[3]، ومَخْلَصٍ[4]، ومَفَرٍّ، مأخوذ من حاص، يَحِيص: إذا نَفَرَ وفرَّ[5]، وزيادة ﴿مِن﴾ التبعيضية قبل الـ ﴿مَّحِيصٍ﴾ يُفصح بتمام يأسهم مِن الظَّفر ببعضِ مهربٍ؛ مما يقطع على الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ الرجاء في النجاة، ويُعجِّل باستسلامهم للحال الراهنة؛ وكفِّهم عن لومهم الذين استكبروا وتوبيخهم.

الكفّار في الآخرة ييأسون من الخلاص، ويُيَئِّسون أتباعهم منه

دلالة التّنكير في ﴿مَّحِيصٍ﴾:

"المحيص قد يكون مصدرًا كالمغيب والمشيب، وقد يكون مكانًا كالمبيت والمَضِيق"[6]، وتنكيرُه في قول الذين استكبروا: ﴿مَا لَنَا

لا مفرّ في الآخرة من العذاب، للأتْباع والمتبوعين، من الضّالين والمضلّين

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(3) الواحدي، الوسيط: 3/28.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/384.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/332.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.

مِن مَّحِيصٍ﴾ يؤكِّد تمام يأْسهم مِن الظَّفَرِ بأيٍّ مَهْرَبٍ يمكن أن يَهربوا إليه.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجزع واليأس:

"الجزعُ: إظْهار ما يلحق المُصاب من المضض والغمّ"[1]، و"اليأس: انقطاع الطمع من الشّيء"[2].

كلا اللّفظين، معبّر عن لون من الحالات النّفسيّة المدمّرة

المحيص والمناص:

"المَحِيصُ: المَحِيدُ، والمَعْدِلُ، والمَمِيلُ، والمَهْرَبُ"[3] قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾ [الشورى: 35] و"المَناصُ: المَنْجاةُ والفَوْتُ، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص: 3]"[4].

المحيص المحيد، والمناص المنجاة، وكلاهما يعني أن لا مفرّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 201.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 436.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (حيص).
(4) الحربي، غريب الحديث: (منص).

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أهل الضّلال بعضهم من بعض، وكلُّهم يَلوم يوم القيامة

"لـمّا ذكر اللّه تعالى المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتْباع من كَفَرَةِ الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾"(1)؛ "وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبُّس بالإضلال"(2)، فـ "أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة - وهو الشيطان - إما لأنَّهم بعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان من الهدى علموا أنَّ سبب إضلالهم هو الشيطان؛ لأنَّ نفي الاهتداء يرادفه الضلال، وإما لأنَّ المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وكلُّ ذلك بعلم يقع في نفوسهم كالوجدان"(3).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قُضِيَ﴾: أصْلُ (قضي) يدُلُّ على إحْكام أمرٍ وإتقانِهِ وإنفاذِهِ لِجِهَتِهِ(4). القَضاءُ: الـحُكْمُ والفَصْلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمْرِ، أيْ: حَكَمَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/427.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).

وفَصَلَ فيه[1]. ويأْتي بمعنى: الأداء، تقول: قَضَى دَيْنَهُ، أيْ: أدّاهُ، والقضاءُ أيضًا: الإنْهاءُ والإتْمامُ، يُقالُ: قَضَيْتُ عَمَلِي، أيْ: أنهَيْتُهُ وأتْمَمْتُهُ، وسُمِّيَ القاضِي قاضِياً؛ لأنّه يَحْكُمُ في الأشْياءِ ويُنْهِي الخِلافَ فيها[2]. والقَضاء كذلك: الأمر. قالَ اللّه تعالَى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر رَبك. والانقضاءُ: ذَهابُ الشَّيْءِ وفَناؤه، وَكَذَلِكَ التَقضِّي[3]. والمقصود بالقضاء في الآية: الفَراغُ والإتْمامُ.

2) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: أصلُ (أمر): الأَمْرُ مِنَ الْأُمُورِ[4]. يُقالُ: أَمْرُ فلانٍ مستقيمٌ وأُمورُهُ مستقيمةٌ. والأَمْرُ: الحادِثَةُ، والجَمْعُ أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غَيْرِ ذَلِكَ[5]. وَيُذكَر الأمرُ وَيُراد به الدِّين، نَحْو: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، يَعْنِي: دين اللّه[6]. والأمر: المجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، قالَ الزَّجّاج: أَمْرُ اللّهِ ما وَعَدَهم بِهِ مِن المُجازاةِ على كُفْرِهم مِن أصنافِ العَذاب[7]. والمقصود بالأَمْرِ في الآية: الشَّأْنُ والفِعْلُ. والمُرادُ بـ ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: تُمِّمَ الشَّأْنُ، أيْ: إذْنُ اللّه وَحُكْمُهُ[8].

3) ﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾: أصلُ (وعد): كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ. يُقالُ: وَعَدْتُهُ أَعِدُهُ وَعْدًا. وَيَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ. فأمّا الوَعِيدُ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[9]. والوَعْد: مَعْروف، وعدتُ الرجلَ أعِده وَعْداً حسنا من مال وَغيره. وَفُلان وَفيّ الوَعْد والموعود[10]. والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ[11]. والحَقُّ: هُنا بِمَعْنَى الصِّدْقِ والوَفاءِ بِالْمَوْعودِ بِهِ. وَضِدُّهُ: الإِخْلافُ. أي: الوَعْدُ الحَقُّ الَّذي لا نَقْضَ لَهُ[12].

4) ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: أصلُ (سلط): أصلٌ واحدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ[13]. السُّلْطانُ: الحاكِمُ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قضي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 176.
(7) الزجاج، معاني القرآن: 3/189، والزبيدي، تاج العروس: (أمر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعد).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).

والوالي، وأصلُ الكلمةِ من السَّلاطَةِ، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليْهِ، أيْ: مَكَّنَهُ منْهُ وحَكَّمَهُ فيهِ، ويأتي بمعنى الخَليفَةِ، والإمام، والقاضي[1]. والسُّلْطانُ أيضاً: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ[2]. والسُّلْطان كذلك: قُدرةُ المُلْكِ، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكاً[3]؛ سُمِّيَ سُلطاناً لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالفهِ ومُجادِله[4]. والسَّليطُ مِنَ الرِّجالِ: الفَصِيحُ اللِّسانِ الذَّرِبُ، وامرأةٌ سَليطة: طويلة اللِّسان صخّابة[5]. والمَقصودُ بالسُّلطانِ في الآية: اسْمُ مَصْدَرِ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ، أيْ: غَلَبَهُ وَقَهَرَهُ، والمُرادُ: لَمْ أكُنْ مُجْبِرًا لَكُمْ على اتِّباعي فيما أمَرْتُكُم[6].

5) ﴿تَلُومُونِى﴾: أصلُ (لوم): يَدُلُّ على العَتْبِ والعَذْلِ، فاللَّوْمُ: العَذْلُ، تقولُ: لامَهُ على كذا لَوْماً ولَوْمَةً، فهو مَلومٌ ومليم؛ إذا أتى ذَنْباً يُلامُ عليهِ[7]. واللوم أيضًا: "تعنيفٌ يردعُ عن التَّجاوز"[8]، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30][9]، واللّائِمَةُ: الأمر الَّذي يُلامُ عليه الإنسان[10]، والمُرادُ باللَّوم في الآية: إنْكارٌ مُتَوَسِّطٌ على فِعْلٍ أوْ قَوْلٍ، وهو دونَ التَّوْبيخِ وَفَوْقَ العِتابِ.

6) ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾: أصلُ (صرخ): أُصَيْلٌ يَدُلُّ على صَوْتٍ رَفِيعٍ، مِنْ ذلكَ الصُّراخُ، يُقالُ: صَرَخَ يَصْرُخُ، وهو إذا صَوَّتَ. ويُقالُ: الصّارِخُ: المُسْتَغيثُ، والصّارِخُ: المُغيثُ، ويُقالُ: بَلِ المُغيثُ مُصْرِخٌ[11]. والصَّريخُ يكون فَعِيلاً بِمَعْنَى مُصْرِخ، مثلُ نذير بِمَعْنَى مُنْذِر، وسميع بِمَعْنَى مُسْمِع[12]. والاصْطِراخُ: التَّصارُخُ[13]، والمُرادُ بالإصْراخِ في الآية: الإغاثَةُ، اشْتُقَّ مِنَ الصُّراخِ؛ لِأنَّ المُسْتَغيثَ يَصْرُخُ بِأعْلَى صَوْتِهِ[14].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير: (سلط).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(3) الخليل، العين: (سلط).
(4) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/232.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلط).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوم).
(9) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).
(10) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (لوم).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صرخ).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرخ).
(13) الخليل، العين: (صرخ).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/220.

7) ﴿كَفَرۡتُ﴾: أَصْلُ الكُفْرِ: السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ، يُقالُ: كَفَرَ الشَّيْءَ، أيْ: سَتَرَهُ وغَطّاهُ، ومِنْهُ سُمِّيَ الزّارِعُ كافِراً؛ لأنَّهُ يُغَطِّي البَذْرَ بالتُّرابِ. ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِراً؛ لأنَّهُ غَطَّى الحَقَّ والإيمانَ[1]، والكُفْرُ: نَقِيضُ الإيمانِ، يُقالُ: كَفَرَ بِالشَّيْءِ، يَكْفُرُ، كُفْراً وكُفوراً وكُفْراناً: إذا أَشْرَكَ باللّهِ ولم يُؤْمِنْ به، ويأتي الكُفْرُ بمعنى الإنكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بالنِّعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها وجَحَدَها[2]. والمُرادُ بالكُفْرِ في الآيةِ: الجَحْدُ والإنكار. والمَقصودُ منه: شدَّة التَّبرّي مِنْ إشْراكِهِم إيّاهُ في العِبادَةِ.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الـشّـيـطـان يخذل أولياءه، ويعنّفهم على اتّباعه، وعصيان الله تعالى

"وقال الشّيطان لأتْباعه بعد أن قَضَى اللّه تعالى بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة وأسكن الكافرين النار - قال الشيطان لأتباعه - لِيَزيدهم حُزنًا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ على ألسنة رُسُله أنْ يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ووعْد اللّه تعالى حقٌّ، وخبرُه صدق، وقد أنجز اللّه ما وعد، ووعدتكم ألّا بَعْثَ ولا جزاءَ، ولو صحَّ أنَّكم تُبعثون فلِأصنامكم شفاعةٌ عند ربكم، وقد أخلفتكم فيما وعدتُكم، فحَقَّ عليكم وعيد ربكم، وقد كان عليكم ألّا تنخدعوا بما زخرفتُه لكم من القول، وأن تعصوني فيما أمرتكم به، وما كان لي عليكم من جبروت وسلطان يقهركم على اتِّباعي؛ فلا قوّة لي ولا حجّة معي، حتى تستجيبوا إلى ما دعوتكم إليه، لكنكم أسرعتم إلى إجابتي تلبية لشهواتكم وإشباعِ نزواتكم؛ فلا تلوموني اليوم على ما انتهى أَمْرُكم إليه من عذاب النار، ولوموا أنفسكم، فإنَّ لكم النصيب الأَوْفى من اختيار السبيل الموصل إليه، لسْتُ اليوم

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (كفر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).

بمغيثكُم ممّا أنتم فيه من عذاب الضَّلال ووباله، ولستم بمُغيثيَّ ممّا أنا فيه من عذاب الإضلال ونكاله، إنِّي برئت من إشراككم إيّاي مع اللّه في الدنيا، حيث أطعتموني في الشرِّ كما يطاع اللّه في الخير كأنّي معبود معه، إنَّ الظّالِمِينَ لهمْ عَذابٌ أَلِيمٌ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

قول الشّيطان حجّة، على كلّ من اتّبع الشّيطان، وعصى الرّحمن

"قول الشّيطان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، معطوف على قول الضعفاء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾، فكلتا القضيّتين حكايةٌ لقول الفريقين، ومخاصمةٌ جَرَتْ بين الحِزبين، وهما تفصيلان لِما أُجمل في قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، ذكر في الآية الأولى احتجاج المستكبرين على المستضعفين - وهو قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ - فكما دلّ قول الشيطان على ظاهر مذهبكم، دلّ قول المستكبرين على خلافه"[2]، والمقصود بالشَّيْطان هنا إبليس الأقدم نفسه[3]؛ فيا حسرة على أتباع الشّيطان ويا خيبتهم![4].

الغرض من العدول إلى الماضي ﴿وَقَالَ﴾:

المستقبل عند الله تعالى كالماضي، متحقّق لا محالة

دَرَجَ الذكر الحكيم على التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في كثير من مواضع ذكر الأحداث المستقبلة التي لـمّا تقع بعد؛ ووراء ذلك العدول تنبيه للناس إلى تحقُّق وقوع تلك الأحداث وحصولها قطعًا لا محالة، ذلك أنَّ المتكلِّم هو اللّه ﷻ؛ والزمان ملكه كما المكان ملكه، فإذا أخبر بوقوع أمر وقع على الوجه الذي أخبر، فالمستقبل عنده كالماضي سواء بسواء.

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/486.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 8/581.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/333.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/256.

خطيب الشّياطين في النّار، هو إبليس الأوّل الغرّار

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ معرفًا بـ (الْ):

تعريف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في الآية الكريمة "يعني إبليس. قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيبًا في جهنّم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعًا"[1]، و"لِأنَّ لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لفظٌ مفرد فيتناول الواحدَ، وإبليسُ رأس الشياطين ورئيسُهم؛ فحَمْل اللفظ عليه أولى"[2].

خطبة الشّيطان تكون فور قضاء الله تعالى الأمر بين الخلائق

دلالة القيد بالظّرف ﴿لَمَّا﴾ دون (حين):

﴿لَمَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ "ظرف بمعنى حين"[3]، "متضمّن معنى الشرط، بمعنى (حين)، مبني في محلّ نصب، متعلّق بمضمون الجواب"[4]، وهي تُفيد تقليص الزمن بين جزائها وشرطها؛ وذلك يعني أنَّ خطبة إبليس كانت فور قضاء الأمر، وانقطاع الرجاء في الخلاص مما سقطوا فيه من غضب اللّه تعالى وعذابه.

أما كلمة (حين) فلا تفي بترجمة هذه السرعة الخاطفة، وطَيِّ الزمن بين الحَدَثَيْن، فلو وُضِعتْ (حين) موضع ﴿لَمَّا﴾ - في غير القرآن الكريم طبعًا - هكذا: وقال الشيطان حين قُضي الأمر، لما أوحتْ (حين) بتلك السرعة المؤيسة من كلِّ رجاء وتعلُّق بالنجاة، ولاحتمل السياق بعض الفتور الذي لا يلائم معالجة اللحظة.

خُطبة الشّيطان، تُزلزل مِن أتباعه الأركان

الغرض من تقديم الظّرف وشرطه:

أصلُ تركيب الجُملة الشريفة أن يقال: ولَمّا قُضِي الأمر قال الشيطان... ، فَتُقَدَّم ﴿لَمَّا﴾ الشرطيّة مع شَرطِها ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ على جوابها ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، غير أنَّ النظم الكريم قَدَّم جواب ﴿لَمَّا﴾ فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾؛ وذلك

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/179.

مراعاةً لمقتضى حالٍ كان فيها "لأهل الكفر لَجاجاتٌ ومُنازَعاتٌ فيما بينهم يوم القيامة؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]؛ وكقوله: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ [المجادلة: 18] الآية يكذبون في الآخرة، ويكون لهم لجاجة على ما كان منهم في الدنيا، أو يحتجّون فيقولون: إنَّ إبليس هو كان غَلَبَنا وقَهَرَنا؛ لأنه كان يرانا ونحن لم نكن نراه؛ فالمغلوب المقهورُ غير مأخوذ بما كان منه في حكمك، يحتجّون بمثل هذه الخرافات واللجاجات، ويقولون: هو الذي أضلّنا، فيقوم عند ذلك إبليس خطيبًا بينهم"[1].

دلالة التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿قُضِيَ﴾:

ما أخبر الله تعالى أنَّه سيكون، فهو كائنٌ لا محالة

معنى ﴿قُضِيَ﴾ هنا: "فُرغ من الأمر"[2]، وقد آثر النظم الكريمُ التعبيرَ عن فِعل القضاء الأخرويِّ بصيغة الماضي ﴿قُضِيَ﴾، ليؤكّد للعباد أنَّه أمرٌ قَطْعيٌّ محكومٌ بوقوعه، مجزوم بحصوله؛ إذ إنَّ الزمان مِلك للّه تعالى يتصرَّف فيه كيف يشاء، ولا يتخلَّف أمرٌ يقول له: ﴿كُن﴾ [البقرة: 117]، وكذلك تُنَبِّه صيغة الماضي إلى أنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وواقعٌ حتمًا.

وسرُّ حذف فاعل ﴿قُضِيَ﴾ وبنائه للمفعول تَعَيُّنُه، وتَفَرُّدُه؛ لأنَّه لا شريك للقاضي الأوحد في ذلك اليوم؛ يوم يفرض ﷻ وحدانيّته على رؤوس الأشهاد: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16]؟ فلا يجرؤ أحدٌ على مجرَّدِ أن يجيب، ويعمُّ الصمت والرعب ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: 108].

دلالة تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ بـ (ال):

الأمر المراد، هو فصلُ الله يومَ القيامة بين العباد

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ هنا هو حساب الخلائق يوم القيامة، وإدخال أهل الجنةِ الجنةَ، وإدخال أهلِ النارِ النارَ، ولا أمرَ أعرفُ من ذلك يوم

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/384.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/450.

القيامة؛ فـ (ال) عهديّة لأنَّه الوعدُ الحقّ، الذي تنتهي إليه مسيرة العباد في الدنيا وما بعدها حتى بلوغ لحظة التخليد - تخليد المؤمنين في الجنان، وتخليد الكافرين في أودية النيران - لذلك جاء معرَّفًا في النظم الكريم.

سرُّ حذف مقول الشّيطان لهم:

لا يلوم الشّيطان يوم القيامة، إلّا من كانوا أولياءه في الدّنيا

سكت النظمُ الكريم عن ذِكر الفِئَة التي يوجِّه إليها الشيطان قوله لتعيُّنهم والعلم بهم؛ فهم أولياؤه الذين تولّوه في الدنيا، الذين استمعوا له، وصدَّقوه ووثِقوا في وعده بالنجاة في الآخرة، ويتطلَّعون في الآخرة إلى تنفيذِ وعْدَه الذي وعدهم "وقريب من هذا مَن يقتدي بآراء الرجال المخالفة لِما في كتاب اللّه سبحانه ولِما سنَّهُ رسوله ﷺ، ويؤثرها على ما فيهما، فإنَّه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حُجَّةٌ ولا دلّ عليه برهانٌ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتَدين بالرجال المتكّبين طريق الحق بسوء اختيارهم"[1].

أما المؤمنون فما استمعوا إلى الشيطان، ولا تبعوا شياطين الإنس، ولا وثقوا فيه قط، بل كانوا يحذرونهم، ويتعوَّذون باللّه تعالى منهم إنْ حاولوا التأثير على عقيدتهم؛ فهم في الآخرة آمنون في مأمنهم، لا ينالون منهم شماتةً.

سرُّ التّعبير بجملة القول الاسميّة:

الشّيطان يُضلُّ أتباعه في الدّنيا، ثم يَتشفّى منهم في الآخرة

جاء قول الشيطان في خطبته لأتباعه يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ جملةً اسميّة لِما تتَّسم بها من الدلالة على توكيد الخبر، إلى أن هيَّأت من دخول أداة الناسخ المؤكِّد ﴿إِنَّ﴾؛ فتكاثف التوكيد حسْمًا للموقف، وقطعًا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.

للرجاء، وتحزينًا للأتْباع، وتشفِّيًا منهم، وبذلك يجمع عليهم الإضلال في الدنيا والشماتة في الآخرة، وتحذيرًا من ذلك يسوقه اللّه تعالى برحمته إلى عباده في الدنيا صريحًا فصيحًا، فمن انتبه واحترس، وإلّا فلا يلومنَّ امرؤٌ إلا نفسه.

الغرض من تقديم المسند إليه، على خبره:

وعد الله تعالى هــو الــوعــد الــكــريــم، لا وعْـد الشّيطان الرّجيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾، نجد في خطبة الشّيطان، أنّه لم يُقَدِّم المسندَ - الفعلَ - فيقول: وعدكم اللّه.. ليوازي به قوله: ووعدتكم، بل قدَّم المسند إليه اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند في ﴿وَعَدَكُمۡ﴾ لِيُقرر أنَّ وعد اللّه تعالى هو الوعدُ، الوعد الذي ينبغي ألّا يكون إلا صدقًا - لا وعده هو الكاذب؛ لأنَّه مجرَّد وهم وسراب خادع، فتقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي أفاد قصر الوعد الحقِّ على اللّه تعالى وهذا ما يتّسق مع عطاء الجملة ومعناها العامّ: إنَّ اللّه وعدكم وعدَ الحقّ فوفَّى لكم بوعده، ووعدتكم وعد الباطل فكذبتُكم وأخلفتُكم، والقصر بناءً على ذلك قصرُ إفراد؛ حيث كانوا يعتقدون الشركة بين وعد اللّه تعالى ووعد اللعين كما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

سرُّ التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّـهَ﴾ مسندًا إليه:

(الله) تعالى، هـو المنـوط به الـتّـكـلـيـف في الدّنيا، والمجازاة في الآخرة

آثر الشيطان الرجيم التعبيرَ باسم الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، دون غيره من الأسماء الحسنى والصفات العُلى - مثل اسم الربّ لأنّ المقام للمجازاة، والألوهية هي المنوط بها التكليف، والمحاسبة به وعليه.

سرُّ التّعبير بالفعل الماضي ﴿وَعَدَكُمۡ﴾:

وعْدُ الله تعالى حـقٌّ واقـعٌ، وحتْمٌ لازمٌ

الفعل الماضي هنا على بابه من الدلالة على حدثٍ حصلَ وتمَّ وانقضى، "الوعد في هذه الآية على بابه في الخير، أي: إنَّ اللّه وعدهم النعيم إنْ آمنوا، ووعدهم إبليس الظفر والأمل إنْ

كذَّبوا، ومعلومٌ اقترانُ وعد اللّه تعالى بوعيده، واتفق أن لم يتبعوا طلب وعد اللّه تعالى فوقعوا في وعيده، وجاء مِن ذلك كأنَّ إبليس أخلفهم"[1].

مرجع ضمير الخطاب في ﴿وَعَدَكُمْ﴾:

الكفّار يُفجَعون في الشّيطان، حين يتبرّأ من كفرهم بخسَّةٍ ونذالة

المخاطبون بضمير الخطاب في قول الشّيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ الكفّار، الّذين خدعهم الشّيطان في الدّنيا، ثم خذلهم في هذا المقام في الآخرة، وهو ليس بمقدوره إلّا أن يخذلهم، بل ليس بمقدوره إنجاء نفسه ممّا يعانيه من العذاب في ذلك اليوم العصيب، وإنَّما تكون الفجيعة عند أتْباعه يومئذٍ من تَبرِّيه منهم صراحة، ومِن كُفْرهم الذي دعاهم إليه ودلَّهم عليه في الدنيا، وتزداد الفجيعة مرارةً عليهم أن يكون تبرِّيه منهم ومن كفرهم بصيغة مَنْ يتشفَّى فيهم بتلك الصفاقة والخسَّة والنذالة.

سرُّ التّعبير بالقيد ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾:

الوعد الحقّ ما وعد الله، والزّيف ما وعد الشّيطان

جاءَ المفعول الثّاني في قول الشّيطان الرّجيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ بهذا الوصف ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إذعانًا منه بحقّ اللّه ﷻ، وأنَّ وعده هو الوعد، "والحقُّ: هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به. وضدُّه: الإخلاف؛ ولذلك قال: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أي: كذبت موعدي"[2]﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ هو ما "وعد اللّه تعالى على ألسن الرُّسُل: أنَّ البعث، والجنة، والنار، والحساب، والعذاب - كائن لا محالة. أو جميع ما أوعد من مواعيده - فذلك كلُّه حقٌّ، أي: كائنٌ لا محالة"[3] فقد "وَعَدَ مَن أطاعه الجنة ووعد مَن عَصاه النّارَ"[4]، "وشمل وعد الحقِّ جميع ما وعدهم اللّه بالقرآن على لسان رسوله

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/333.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.

ﷺ، وشمل الخُلْفُ جميعَ ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه وما يعدهم إلا غرورًا"(1).

سرُّ إضافة الوعد إلى الحقّ ﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾:

﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ في قول الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ "من باب إضافة الشيء إلى نَعْته، كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩﴾ [ق: 9]، ومسجد الجامع... أو وعْدَ اليومِ الحقِّ، أو: الأمرُ الحقُّ، أو يكون التقدير: وعدكم الحقَّ، ثم ذكر المصدر تأكيدًا، وفيه إضمار لأنَّ تلخيصه: وعدكم وعدَ الحقِّ فَصَدَقَكُم"(2) وفي تلك الإضافة إلماحٌ إلى أنَّ وعد اللّه تعالى لا يكون إلا حقًّا، وفيه أيضًا "مبالغةٌ في الاتِّصاف، أي: الوعد الحقُّ الذي لا نقض له"(3).

وعد الله تعالى لا يكون إلّا حقًّا، لأنّـه لا يخلف الميعاد

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

(ال) هنا جنسيَّة لتعمّ اليومَ والأمرَ وكلَّ ما من شأنه أن يوسم بأنّه حقٌّ.

الـحـقّ عـدل وإنصاف، تحمى به العلاقات

بلاغة تتابع المؤكّدات، في السّياق المحكم:

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ جاء التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة وتكرار ذكر المسند إليه، تارة بكونه اسم ﴿إِنَّ﴾ وتارة بذكره مضمرًا فاعلًا للفعل ﴿وَعَدَكُمۡ﴾ وذلك لأنّها جاءت في موضع الإقرار وتبرئة نفسه في ذلك المشهد العظيم.

كلّ ما أكّده الله فهو واقع، ولن يـكـون لـه من دافع

بلاغة حذف المعطوف في سياق الآية:

قوله: ﴿وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، تقدير الكلام إنَّ اللّه "وعدكم وعد الحقِّ فصدقكم، وحُذف ذلك المعطوف لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد والوفاء به، ولأنه ذُكر في وعد الشيطان

صِدق وعدِ الله تعالى لا يحتاج إلى بيان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/450.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.

الإخلافُ، فدلَّ ذلك على الصدق في وعد اللّه"[1]. و"في الآية إضمارٌ مِن وجهين: **الأول**: أنَّ التقدير: إنَّ اللّه وعدكم وعد الحقِّ فصدقكم، ووعدتكم فأخلفتكم، وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صِدق ذلك الوعد، لأنهم كانوا يشاهدونها، وليس وراء العيان بيان؛ ولأنَّه ذكر في وعد الشيطان الإخلاف فدلَّ ذلك على الصدق في وعد اللّه تعالى، **الثاني**: أن في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ الوعد يقتضي مفعولًا ثانيًا، وحذف هاهنا للعِلم به، والتقدير: ووعدتكم أن لا جنَّةَ ولا نارَ ولا حشرَ ولا حسابَ"[2].

دلالة العطف في ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾:

وعد الله شريف صـادق، ووعـد الشّيطان لئيمٌ كاذب

الواو في قول الشيطان: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ عاطفة على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾؛ فكلاهما من كلام الشيطان، وذلك مِن جوامع العطف المصحِّحة، وكذلك توفُّر عنصر التَّضادِّ المتحقِّق في تراكيب الجملتين - مذكورِهما ومحذوفِهما - مِن جوامع العطف المصحِّحة له هنا، وفي هذا العطف يتحقّق الجمع بين النقيضين؛ فيبدو وعد اللّه تعالى في غاية الشرف والعزّة القادرة على الإنجاز، ويُفتَضَح وعد الشيطان الكاذب بعجزه وتخلُّفِه عن أن يتحقَّق.

سرُّ توكيد جملة وعد الله دون سواه:

وعدُ الله تعالى حـقٌّ مـنـجَـزٌ، ووعـد الشيطان كَذِبٌ وغرور

في توكيد جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾ إيحاء بقوَّة وعده ﷻ وصدقه، وتنبيهٌ إلى ما جاء فيه من تواكيد لا نهاية لها، ومع ذلك لم يصدِّقوه، ولم يستجيبوا له، بخلاف وَعْدِه فهو الهشُّ الضعيف الكاذب، الخالي من التوكيد، ومع ذلك استجابوا له، وسارعوا فيه؛ لذلك ساقها لهم في الآخرة جُملة خالية من التوكيد: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ "حيث قال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 48]، وأمثاله من

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/450.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/85.

عداته؛ كانت كلُّها أمانيَّ وغرورًا وكذبًا"[1]؛ ذلك لم يجرؤوا على تعنيفه حينئذ، بل علاهم الانكسار والذّلُّ.

مرجع الضّمير في ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ ودلالته:

مِــنْ أتــبــاع الـشّـيـطـان، مـسـتـكـبرون طغاة، وضعفاء منكسرون

ضمير الخطاب في قول الشيطان: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ يعود إلى الكفار من الذين استكبروا ومن الضعفاء المذكورين جميعًا في الآيات السابقة، الداخلين جميعًا تحت قول اللّه تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقد "أفضتْ مجادلةُ الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نُطق مصدر الضلالة وهو الشيطان: إمّا لأنّهم بَعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان مِن الهدى عَلِموا أنّ سبب إضلالهم هو الشيطان؛ لأنّ نفيَ الاهتداء يرادفه الضلال. وإمّا لأنَّ المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى مَلامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وكلُّ ذلك بعلمٍ يقع في نفوسهم كالوجدان"[2].

دلالة الفاء في ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾:

وعود الشّيطان كاذبة مُخْلَفَةٌ، مـنـذ لـحـظة صدورها

"المفعول الثاني محذوف، أي: أخلفتكم الوعد"[3]، "أي: نقضتُه، جعل وَعْدَه كالإخلاف منه، كأنَّه كان قادرًا على إنجازه وأنَّى له ذلك"[4]، والفاء في القول المحكيّ عن الشيطان الرجيم ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ تنبِئُ عن أنَّ كلَّ وعود الشيطان كاذبةٌ، متحقّقة الكذب فور صدورها مهما تأخَّر وقتُ الإخلاف، وهو أعرف الخلق بكذبه منذ لحظة الوعد؛ إذ إنّ وعودَه تنطلِي على أتْباعه، أما على نفسه فلا، "والمراد بالإخلاف في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ الكذبُ، والغدر، وعدم الوفاء بما منّاهم به من أمانٍ باطلة"[5].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/179.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/42.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/545.

بلاغة الاحتباك في السّياق المحكم:

الشّيطان يقرُّ بصدق وعد الله تعالى، وبخُلْف وعده هو

في خطبة الشيطان جاء التعبير في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ على تقدير الاحتباك؛ إذ التقدير: (إنَّ اللّه وعدكم وعد الحقِّ فوفَّى لكم به)، و"هو وعده سبحانه بالبعث والحساب، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته"[1]. (ووعدتُّكم وعْد الباطل فأخلفتكم إياه)، وهو "أنَّه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك"[2]؛ فحُذف من كلّ جملة مقابلَ ما ذُكر في الأخرى، لكنَّ الحذف جاء من كلٍّ ما يعبّر عن معتقد إبليس بما يناسب الحال.

فالمحذوفة الأُولى: (إنَّ اللّه وعدكم وعد الحقَّ فوفَّى لكم به)، حذف منه وفاء اللّه تعالى بوعده الحقِّ؛ لأنَّهم قد عاينوه واقعًا.

والثانية: (وعدتُّكم وعْد الباطل فأخلفتكم إياه)، حذف منها وصف وعده الباطل؛ ليتحاشى وصف وعده الباطل، وكأنه يقول لهم: "فذلك هو أنا، وهذا هو شأني مع أتْباعي. وإذن فموتوا بغيظكم"[3].

دلالة الواو في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الشيطان الرجيم يعترف لأتباعه بتجرُّده من كلّ سلطة

الواو في قول الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ واو الحال؛ أي: إنَّكم استجبتم لي وذَعِنْتُم حالَ تجرُّدي من كل سُلطة يمكنني أن أجبركم بها على ترك دينكم واتِّباعي؛ فكان انجرافكم إلى الضلال بِتَهَيُّؤٍ منكم واستعداد ورِضًا. مما ترتّب عليه نهيُه إيّاهم عن لومه، وأمرُه إيّاهم بلَوْمِ أنفسهم هم.

سرُّ التّعبير بـ ﴿كَانَ﴾ المنفيّة في السّياق:

الماضي المعبَّر به عن المستقبل، خاصٌّ بمالك الزّمان

يُلقي الشيطان تلك خطبته في أتباعه يوم القيامة، ويُذكِّرهم

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/168.

بما كان منهم من استسلامهم الذّليل له في الدنيا؛ فمجيئه بصيغة الماضي باعتبار ذلك اليوم، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم﴾، فالماضي المنفي ﴿كَانَ﴾ هنا على بابه، وليس من الماضي المعبَّر به عن المستقبل لتحقُّقِ الوقوع. والماضي المعبَّر به عن المستقبل خصيصة للّه تعالى مالك الزمان والمكان، واللّه تعالى أعلم. أمّا هنا فالكلام للشيطان الرجيم نعوذ باللّه العظيم من شرِّه.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿لِيَ﴾:

الشّيطان يُمعن في تحسير أتباعه، بصيغة التبرّي منهم في الآخرة

في تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿لِيَ﴾ في قول الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ إمعان في تحميلهم مسؤولية الضَّلال، وإلقاء التبِعة عن كاهله - لعنه اللّه - إذْ نَفَى امتلاكه، واختصاصه بِأيِّ قوةٍ يكون قد مارس بها الضغط عليهم ليكفروا باللّه تعالى ويتبعوه هو، وهكذا يُمعن الشيطان في تحسيرهم وتحزينهم في هذا الموقف الشديد؛ فهلّا انتفعوا بهذا البيان القرآني المحذِّر لهم منه ومن كيده وتربُّصه هنا في الدنيا قبل فوات الأوان!

دلالة (على) في قوله ﴿عَلَيۡكُم﴾:

ليس للشّيطان سلطان على الكفّار، بل هم الّذين يملّكونه أمرهم

ومن إمعان الشيطان في تحسير أتباعه وتحزينهم في الآخرة تقييدُه بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُم﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم﴾؛ إذ أقام به جناحَيْ مقابلة المتجاورَيْن: ﴿لِيَ﴾، ﴿عَلَيۡكُم﴾؛ فأفصح عن أنَّه في الحال التي لم يكن يمتلك فيها سلطانًا لم يكن له عليهم أيّ استحقاق يستوجبه عليهم، وبهذا يصبُّ عليهم اللوم كلَّه، ويتبرَّأ من اللوم كلِّه؛ فما أشدَّها من حسرة يُجَرِّعُهم إياها!

معنى حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في السّياق:

في نفي أيّ لون من السّلطان، تحسيرٌ لأتباعه وهوان

قوله: ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾، كان يمكن أن تكون العبارة بدون حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ فيقال: وما كان لي عليكم سلطان. لكنّ النظم جاء على هذه الهيئة للكشف عنْ خُبثه وقصده التبرُّؤ التامَّ من ضلال أتباعه

وإضلالهم فجاء حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قول الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ لنَفْي امتلاكه أيَّ قدْرٍ من سلطان، فـ ﴿مِّن﴾ في سياق النَّفْي تزيد إذلالَه أتباعَه وتحسيرَه إياهم إذلالًا وتحسيرًا، ومن شأن ذلك البيان القرآني الواضح أن يوقظ الناس من غفلتهم؛ فيحترسوا من إغوائه وتزيينه في الدنيا، وألّا يغفلوا عن دفعه كلَّما اقترب منهم أو حاول.

الغرض من تنكير ﴿سُلْطَانٍ﴾ اسم كان:

لا سلطان للشّيطان، ولخوفه وهروبه من الاستعاذة بالرّحمن

من أهمّ وُجوه التناسُب بين تراكيب قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ تنكير المسند إليه ﴿سُلْطَانٍ﴾ "أي: ما أظهرتُ لكم مِنْ حُجّةٍ"[1]؛ "حتى أقهركم وأغلبكم إلا الدّعاء؛ فاستجبتم لي طائعين؛ غير مقهورين ولا مضطرين"[2]، و"ما اضطررتكم ولا خوّفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئًا، فأتى رأيكم عليه"[3] فبِتَنْكير كلمة ﴿سُلْطَانٍ﴾ تكون عناصر الجملة كلُّها قد التقتْ وتناغمت في التآزر على بيان ضعف أتْباعه، وتأكيد أنَّ ارتماءهم في أحضانه كان رغبةً لا رهبة؛ إذ لم يكن لديه أيّ سلطان أو قهْر من أي نوع يمكنه السّيطرة عليهم به، ومع ذلك أجابوه إلى طلبه، بل استجابوا له، واستحبّوا ما دعاهم إليه، وآثروه، فالتّنكير للتّعميم أو للتّعظيم، أي ما كان لي عليكم من سلطانٍ عظيم.

دلالة التعبير بالاستثناء ﴿إِلَّآ أَن﴾:

لا يُستهان بتزيين الشّيطان؛ فقد يبلغ ببعضٍ مبلغ السّلطان

قال بعض المفسّرين بأنَّ "هذا من الاستثناء المنقطع؛ أي: لكن دعوتكم"[4]، وقد رجّح الفخر الرازي كونه استثناء مُتَّصِلًا، فقال: "وعندي أنَّه يمكن أن يقال: كلمة ﴿إِلَّآ﴾ هاهنا استثناءٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ قدرة الإنسان على حمل الغير على عملٍ من الأعمال تارة يكون

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/452.

بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسلُّط. ثم إنَّ ظاهر هذه الآية يدلُّ على أنَّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان، وعلى تعويج أعضائه وجوارحه، وعلى إزالة العقل عنه "[1].

بلاغة القصر على كون الاستثناء متّصلًا:

أهمّ أسلحة الشّيطان الإغواء، وهو سلاح فتّاك

إذا كان الاستثناء متّصلًا كان هناك قصرٌ، أي: قصر صفة على موصوف، حيثُ قصر سُلطته عليهم بصفة الإغواء، وهو قصر إضافيّ، لأنّ وسائله في الإضلال كثيرة متنوّعة.

دلالة التّعبير بالماضي في قوله ﴿دَعَوۡتُكُمۡ﴾:

أتباع الشّيطان يتّبعونه لأيسر إغواء، وأتفه تزيين

لا زال الشيطان الرجيم يتنصَّل من التَّبِعة، ويُذَكِّر أتْباعه بما كان فيقول: ما كان مني إلّا أنْ دعوتُكم "أي: أغويتُكم وأضللتُكمْ"[2] و"إلّا دعائي إيّاكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني"[3].. ومن إشارات التعبير بالماضي إلى ذلك الإيحاء بأنَّ طلبه منهم اتِّباعه كان خاطفًا ليس فيه إلحاح؛ كناية عن كمال وثوقهم فيه لأوّل وهلة، وأنَّه لم يجدِّد عليهم بصيغة المضارع الدعوة ولم يُلِحَّ عليهم بالإغواء.

سرُّ التّعبير بالمفعول به الضّمير ﴿دَعَوۡتُكُمۡ﴾:

كثرة أهل الكفر، أعمت البصائر، ولم تكشف لهم خداع الشّيطان

في تعبير الشّيطان عن المفعول به المخاطب بضمير الجمعِ في قوله: ﴿دَعَوۡتُكُمۡ﴾ إشارةٌ إضافيّةٌ إلى هشاشةِ عزيمتهم وضعف قَرارِهم إزاء إغواء الشيطان، وبيان أنَّهم على كثرتهم واجتماعهم كانوا فاقدي الصلابة والاستعصاء على اتِّباعه، وأنَّهم لم يكتشفوا كَذِبَه وخِداعه بل انطلى عليهم زورُه فصدَّقوه، ولم تنفعهم كثرتهم أمام عَرْضه الضعيف ووعدِه الخادع الكاذبِ؛ مما يهيِّئ لتوجيه اللوم إليهم وصَبِّ التقريع عليهم.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/85.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/550.

دلالة الفاء في ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾:

أتباع الشّيطان انساقوا لاتّباعه، ولم يحتاطوا لإغوائه

معنى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾: (فاتبعتموني)[1]، "طائعين؛ غير مقهورين ولا مضطرين"[2].. وقد عطف استجابة أتباعه له على دعوته إيّاهم بفاء التعقيب، التي تترجم سرعة استجابتهم له، وعدم تردُّدهم وعدم مقاومتهم وجهادهم إيّاه، وتقرّر تمام قناعتهم بما دعاهم إليه من الكفر بالله تعالى وباليوم الآخر بما فيه من حسن جزاء لمن آمن وعمل صالحًا، وسوء عقاب لمن كفر وعمل السيئات.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾ بدلًا من (أجَبْتُمْ):

طبائع أهل الضّلال توافق طبيعة الشّيطان الضالّ

تَدلُّ حروف الطلب في قول الشيطان الرجيم: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾ على أنَّ طبائعهم كانت مهيَّأة للانحراف عن الدين الحقِّ قبل أن يدعوهم، وكأنَّهم هم الذين طلبوا هذا الطريق - طريق الكفر والضلال -، وإلا لَقال: (فأجبتم دعوتي)، ويتَّسق مع ذلك قول اللّه تعالى في قوم فرعون: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54].

سرّ التعبير بالخطاب في قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾:

الفاسقون مؤهّلون نفسيًا للوقوع في شَرَك الشّيطان

لا يزال الخطاب الصادر من الشيطان الرجيم في قوله ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ موجَّها إلى أتباعه من أهل الكفر والضلال، الذين سبق القول بأنَّهم الضعفاء المذكورون في الآيات السابقة، والذين استكبروا عليهم في الدنيا، وأهل المعاصي على الإجمال، حيث يقوم الشيطان فيهم خطيبًا يبكِّتهم، ويصبُّ عليهم الحسرات، بعد أن منّاهم الأماني الكاذبة في الدنيا.

معنى اللّام في شبه الجملة ﴿لِيۖ﴾:

المخذول الشّقيّ، يستجيب لوساوس الشّيطان الغويّ

ومن تمام التّبكيت الذي يَصُبُّه الشيطان الرجيم على أتْباعه في

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.

الآخرة تقييدُه استجابتَهم بكونها له هو، حيث يُفصح بذلك فيقول: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾، وفي ذلك دليلُ خِذلانهم، وفيه تعريضٌ بغبائهم وفسادِ جِبلَّتهم؛ حيث دعاهم الله تعالى على ألسنة رُسله عليهم السلام إلى توحيده ﷻ، فأبَوْا، واستجابوا لمجرَّد وساوس من هذا الكاذب اللعين.

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾:

صدَق الشّيطان - وهو الكذوب - في أنَّ الأوْلى باللّوم هم الأتْباع

الفاء في قول الشيطان الرجيم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ تفريعيَّةٌ؛ حيث "تفرع نهيُهم عن لومه وتوجيهُه إلى أنفسهم على قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾. والمقصود: لوموا أنفسكم أي: إذ قبلتم إشارتي ودعوتي"[1]. و"ليس مراده - لعنه الله - أنَّه لا يُلام؛ ولكن مراده: أن ارجعوا إلى لائمة أنفسكم واشتغلوا بها؛ فإنَّ ذلك كان منكم، لم يكن مني إلّا الدعاء"[2].

الغرض من أسلوب النّهي في ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾:

انهزام الأتباع أمام الشيطان، يلاحقهم إلى الآخرة

في التّعبير بالنّهي في قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾، إظهار التبرُّؤ من ضلالهم؛ "أراد بذلك: فلا تلوموني على ما فعلتم، ولوموا أنفسكم عليه، لأنَّكم عدلتم عما توجبُه هداية الله تعالى لكم"[3]، "ومجموع الجملتين يفيد معنى القصر، كأنَّه قال: فلا تلوموا إلّا أنفسكم، وهو في معنى قصر قلب بالنسبة إلى إفراده باللوم وحقهم التشريك فقلب اعتقادهم إفراده دون اعتبار الشركة، وهذا من نادر معاني القصر الإضافي، وهو مبنيٌّ على اعتبار أجدر الطرفين بالرَّدِّ، وهو طرف اعتقاد العكس"[4].

دلالة العطف بالواو ﴿وَلُومُوٓاْ﴾:

ترجيح قول الشّيطان، علَى هداية الرّحمن، جعل اللّوم عليهم لا عليه

عطف الأمر على النهي فيه بيان لسبب النّهي، أي: ﴿وَلُومُوٓاْ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/88.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/220.

﴿أَنفُسَكُم﴾ بسبب "سوء نظركم وقلة تثبّتكم؛ فإنَّكم إنَّما أتيتم اتّباعي عن بصيرة منكم وتكسُّب"[1]، "حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربَّكم إذ دعاكم"[2]، "يعني: ما كان مني إلّا الدُّعاء والوسوسة، وكنتم سمعتم دلائل اللّه تعالى وشاهدتم مجيء أنبياء اللّه تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغترّوا بقولي، ولا تلتفتوا إليَّ، فلمّا رجَّحتُم قولي علَى الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا عليَّ في هذا الباب"[3].

الغرض من التّعبير بفعل الأمر ﴿وَلُومُوٓاْ﴾:

الشّيطان يُعنِّف أتباعه في الآخرة، بعدما أرهقهم باتِّباعه في الدّنيا

اللوم "تعنيفٌ يردع عن التجاوز"[4] ففعل الأمر يَردُّهم إلى الجهة الجديرة بالتعنيف، وهي أنفسهم لا هو؛ وفي ذلك "زيادةٌ في تأنيبهم وفي حسراتهم على انقيادهم له"[5]، وهو في ذلك "أشبه بالصائد الذي ينصب شباكه للطير، ويضع فيها الحَبّ فتسقط عليها، وتَعْلَق بها، وتصبح صيدًا في يده"[6]، فقد أفرغ النظم عليهم الحسرة إفراغًا؛ فالمعنى: "أنتم الذين فعلتم، واخترتم، واتجهتم ناحية الشر، وتركتم ناحية الخير، رغم دعاء اللّه تعالى لكم، وتحذيره الشديد من سلوك سبل الشّيطان"[7]، لكنَّكم "أجبتموني وصدَّقتموني من غير برهان"[8].

دلالة التّعبير بصيغة القِلَّة مفعولًا به:

الجاني الأكبر على العبد، نفسه الّتي بين جنبيه، لا الشّيطان

قوله: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾، استنبط الإمام الرازي من قوله: ﴿أَنفُسَكُم﴾ أنَّ "هذه الآية تدلُّ على أنَّ الشيطان الأصلي هو

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/550.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/85.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوم).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/546.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/168.
(7) حجازي، التفسير الواضح: 2/257.
(8) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.

النفس، وذلك لأنَّ الشيطان بيَّن أنَّه ما أتى إلّا بالوسوسة؛ فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير ألبتّة؛ فدلَّ هذا على أنَّ الشيطان الأصلي هو النفس"[1] وقد قرَّر الرازي ذلك بقوله: "صُدورُ الفعلِ عن مجموع القُدرة والداعي الحاصل أمرٌ واجبٌ؛ فلا يكون للشيطان مدخل فيه. وصدورُ الميلِ عن تصوُّر كونه خيرًا أو تصوُّر كونه شرًّا أمرٌ واجب؛ فلا يكون للشيطان فيه مدخل، وحصولُ كونه خيرًا أو تصوّر كونه شرًّا عن مطلق الشعور بذاته أمرٌ لازمٌ فلا مدخل للشيطان فيه، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلّا في أنْ يُذَكِّرَه شيئًا بأنْ يُلقِي إليه حديثَه، مثل أنَّ الإنسان كان غافلًا عن صورةِ امرأةٍ فيُلقي الشيطانُ حديثها في خاطره، فالشيطان لا قدرة له إلّا في هذا المقام، وهو عينُ ما حكى الله تعالى عنه أنَّه حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي﴾ يعني: ما كان مني إلّا مجرد هذه الدعوة، فأما بقية المراتب فما صدرت منّي وما كان لي فيها أثر البتّة"[2].

دلالة جملة ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

الشّيطان يقرُّ أنَّ عَجْزه مثل عجز أتباعه، وهو فجيعة لهم

معنى قول الشّيطان الرجيم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ "بمغيثكم ولا منقذكم"[3]، وهو "بيان لجملة النهي عن لومه؛ لأنَّ لومه فيه تعريضٌ بأنَّهم يَتَطَلَّبون منه حِيلةً لِنَجاتهم، فنفَى ذلك عن نفسه بعد أنْ نهاهم عنْ أن يَلوموه"[4]، كذلك بين جُملة ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ وبين قوله - قبلها -: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ كمالُ انقطاع؛ حيث إنَّ الأولى إنشائيةٌ نوعُها نهيٌ، والثانية خبرية؛ فلا تتعاطفان.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/86.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/86.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/453.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/220.

الغرض من الاستعارة التّمثيليّة في السّياق:

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾: تمثيل لحالتهم جميعًا في استصراخهم من يُغيثهم ويستنقذهم مما يعالجونه من عذاب الآخرة بحالة من يستصرخ أحدًا واغوّثاه، واصَرْخَتاه[1]، أُغيث أم لم يَغثْهُ أحدٌ، والمعنى: "ما أنا بمنجيكم، وما أنتم بمنجيَّ، أو: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي، والمصرخ: المغيث. والصارخ: المستغيث"[2]، فلا ينجي بعضنا بعضًا من عذاب اللّه ولا يغيثه[3] وقد عبّر بالاستعارة التّمثيلية استحضارًا للهيئة التي يكون عليها الشيطان ومن أطاعه، تقبيحًا لتلك الحالة ودعوة للإقلاع عن اتباعه ومتابعته في الدنيا، وذلك لما في تحويل المعاني إلى هيئات من التجسيد والاستحضار.

استصراخ الضّعيف لا يُجدي، وفاقدُ الشّيء لا يُعطيه

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّآ﴾ النّافية:

تدُلّ ﴿مَّآ﴾ النّافية في: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ على تمام عجزه وعجزهم عن نفع بعضهم بعضًا في ذلك المقام الشديد؛ مما يفاقم اليأس في هذه النفوس المأزومة، ويضاعف عليها الحسرات بفوات وعود الشيطان الرجيم الكاذبة، التي طالما وعدهم بها في الدنيا.

الشّيطان عاجز تماما، فلا يغني عن نفسه، ولا عمّن استصرخه شيئًا

الغرض من التّعبير بضمير المتكلّم ﴿أَنَا۠﴾:

في التّصريح بالضّمير العائد على مقدَّم مسبوق بالنفْي، في قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠﴾ دليلُ ضعفه وهوانه في ذلك المقام، وكأنَّه يُلَمح إلى أنَّ القادر على الإنجاء والإغاثة في ذلك المقام إنَّما هو اللّه ﷻ لا أنا؛ فايْأسوا منِّي؛ فلست هُنالك. كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠﴾

الشّيطان أضعف ما يكون، وكيده كان وسيبقى ضعيفًا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرخ).
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/131.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/551.

"إرشادٌ لهم إلى أنَّ الشيطان في تلك الحالة مُبتلى بما ابتُلوا به من العذاب؛ محتاج إلى مَن يُغيثه ويخلّصه مما هو فيه، فكيف يطمعون في إغاثةِ مَن هو محتاج إلى من يغيثه؟"[1].

إقرار الشّيطان، بأنّه لا نفع من تابع لمتبوع، ولا من متبوع لتابع

دلالة تقدّم النّفي على القصر في السّياق:

في قوله ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾، و﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾، يفيد هذا التّقديم عند البلاغيّين من علماء المعاني القصر والتّخصيص، حيث نفى عن نفسه وعنهم وأثبت لغيره القدرة على ذلك، فالله هو المغيث لي ولكم.

تأكيد الشّيطان، أن لا نصرة له ولا أمان

معنى حرف الباء في شبه الجملة ﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾:

زِيد حرف الباء لتأكيد الخبر، في قول الشيطان: ﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: "ما أنا بناصركم... وما أنا بمانعكم"[2] فالباء داعمة لمضمون الخبر؛ مما يحسم الأمر هنا، ويقضي عليهم باليأس، ويفقدهم الأمل في قدرته على تنفيذ شيء مما يأملون.

التّأكيد على عجز الشّيطان عن نصرتهم، وعجزهم عن نصرته

دلالة العطف في قوله ﴿وَمَآ أَنتُم﴾:

في عطف جملة ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ على جملة ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ إيغال في المعنى؛ إذ المنتظَر منه أن يغيثهم هو، وليس مطلوبًا منهم أن يغيثوه هم؛ كيف وهو زعيمهم الذي منّاهم الأمانيّ، وهم مجرّد أتْباع؟ فقد "تعرّض لذلك مع أنّه لم يكن في حيّز الاحتمالِ مبالغةً في بيان عدمِ إصراخِه إياهم، وإيذانًا بأنَّه أيضًا مبتلى بمثل ما ابتُلوا به ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف من إصراخِ غيره؟"[3].

الشّيطان يقرّ أمام أتباعه في الآخرة، بالتّساوي بينه وبينهم

الغرض من أسلوب المقابلة في السّياق:

في المقابلة المعبّرة عن المشهد الحواريّ الدائر في خطبة إبليس

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/42.

بين جملتي: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ يتجلَّى العجز، ويتأكّد المصير المحتوم بخلودهم جميعًا في ذلك العذاب؛ إذ أغلقت الأبواب المحتملة، وفاتت الأسباب المأمولة من كلّ جانب، وبخاصّة أنَّ الذي يُقرّه إمامهم الذي كانوا إليه يأوونَ، وملجؤهم الذي كانوا إليه يلتجئون.

نكتة تقديم نفي إغاثته، على نفي إغاثتهم:

الشّيطان يتشبّث في الآخرة بالصّدارة بين أتباعه رغم عجزه

ولا شكّ أنَّ طلب الأتّباع من الشيطان أن يُغيثهم كان هو الأصل؛ لأنَّه أملُهم الذي ركنوا إلى قدرته - بحسب إغوائه وتزيينه لهم - لذلك تقدَّمت جملة: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾، وتأخَّرت جملة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾؛ إذ ليست إغاثتهم إياه في الحسبان أصلا.

موقع جملة ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

الشّيطان يوهم في الآخرة، أنّه كفر بشرك أتباعه

"جملة ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ مستأنَفةٌ؛ لإظهار المزيد من التَّنَصُّلِ والتَّبَرِّي مِن كُلِّ عَلاقةٍ بينه وبينهم"[(1)]، ومعناها: إني "جَحَدْتُ أنْ أكون شريكًا للّه تعالى فيما أشركتموني"[(2)]. فهي "استئنافُ تَنَصُّلٍ آخرُ من تبِعات عبادتهم إيّاه، قُصِد منه دفعُ زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع للّه تعالى. وأراد بقوله: ﴿كَفَرۡتُ﴾ شدّة التبرّي من إشراكهم إياه في العبادة فإنْ أراد مِن مُضِيِّ ﴿كَفَرۡتُ﴾ مُضِيَّ الأزمنة كلِّها - أي: كنت غيرَ راض بإشراككم إيّاي - فهو كَذِبٌ منه أظهرَ به التذلُّل، وإن كان مرادُه من المُضِيِّ إنشاءَ عدم الرِّضى بإشراكهم إيّاه فهو نَدامةٌ بِمنزلة التوبةِ حيث لا يُقبلُ مَتابٌ"[(3)]، ويمكن أن يكون الاستئناف هنا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدّر: وماذا يترتّب على ذلك؟

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/546.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/461.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/221.

سرّ التّعبير بالجملة الاسمية المؤكّدة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾:

جاءت الجملة اسميّة مؤكّدة لكل ما مضى فـ "كأن ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعِهم، وهذا جوابٌ عن استغاثتهم واستعانِتهم به في استدفاع ما دَهَمهم من العذاب"[1].

لا مجال للشّيطان يوم القيامة، إلا البراءة صراحة من الكفر

سرُّ تقديم ياء المتكلّم، في قوله ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾:

تقديم المسند إليه (ياء المتكلم) على الخبر الفعلي ﴿كَفَرْتُ﴾ يفيد توكيد نسبة كفره بِشِركهم، وأنَّه لا يوارب في ذلك ولا يتردّد. وإنَّما يقول لهم ذلك بعد فوات فُرَص التوبة سواء منه أو منهم، ولا قيمة لهذا التبرُّؤ في ذلك اليوم العصيب؛ مما يُضاعف على أتْباعه الحسرة، ويُفعمهم ندامة.

الشّيطان يبدي تبرُّؤه مِن كفر أتْباعه، فتزداد الحسرة

معنى التّعبير بقوله ﴿بِمَآ﴾ في السّياق:

في الجملة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾، الباء هنا سببيّة، على معنى: بسبب شرككم، ولا يخلو معنى الإلصاق والملابسة عن الباء. وقد تكون (ما) هنا موصولة على معنى: (بالّذي أشركتُموهُ)، وتكون الجملة بعدها صلة الموصول، لا محلّ لها من الإعراب، أو مصدريّة على معنى: بشرككم.

كُفر الشّيطان ادّعاء للتّخلّص من تبعة أتباعه

سرُّ تقييد كفر الشّيطان، بالجارّ والمجرور:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾، قيَّد النّظم الكريم كُفْرَ الشّيطان بشيءٍ واحد، هو ما أشرَكَه أتْباعُه فيه مع اللّه ﷻ ؛ وذلك أنَّ المقام أكبر مِن أن يكابر - لعنه اللّه - أو يُغالط؛ ولا شكَّ أنّه يبتغي بذلك تخفيفَ عقوبات ضلاله وإضلاله، ولكن هيهات! برغم أن يصرّح بها: إني "جَحَدْتُ أن أكون شريكًا للّه تعالى فيما أشركتموني"[2]، وذلك تصديق قول اللّه ﷻ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: 14].

إعلان الشّيطان كفره بمعبودات المشركين، ليس بنافعه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/42.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.

إطلاق الإشراك على التّبعيّة، تقبيح لها

بلاغة الاستعارة في كلمة ﴿أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾:

في قوله تعالى حكاية لمعنى مقولة الشّيطان الرّجيم: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ استعارة تصريحيّة؛ إذ "الإشراك استعارةٌ بتشبيه الطاعةِ به، وتنزيلها منزلته، أو لأنَّهم لـمّا أشركوا الأصنامَ ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنَّهم أشركوه، والكفر مجاز عن التبرِّي، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: 14].

والمراد: إنّ كان إشراككم لي باللّه تعالى هو الذي أطمعكم في نُصرتي لكم، وخيَّل إليكم أنَّ لكم حقًّا عليَّ، فإني تبرَّأتُ من ذلك ولم أحمده، فلم يبق بيني وبينكم علاقة، وقد حَذف المشبّه وأبقى المشبّه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية"[1].

الـشّرك قبيح، بغضّ النّظر عمّا يشرك به

سرُّ حذف متعلّق الشّرك في السّياق:

متعلَّق الإشراك في قوله: ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾، أي: "في العبادة بأنْ عبدوه مع اللّه تعالى؛ لأنَّ من المشركين مَن يعبدون الشياطين والجنَّ فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرةً، ومنهم مَن يعبدون الأصنام، فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته"[2]، و"في الطاعة، التي ينبغي أن يُفْرَدَ اللّه تعالى بها"[3]، و"﴿بِمَآ﴾ في قوله: ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ مصدرية، و﴿مِن قَبۡلُۗ﴾ متعلقة بـ ﴿أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ يعنى: كفرت اليوم بإشراككم إيّاي مِن قبل هذا اليوم"[4]، "وقيل: موصولة بمعنى الذي، والتقدير: كفرت بالصنم الذي أشركتمونيه، فحذف العائد"[5] فالمقصود من حذف المتعلِّق توفير العناية على ذمّ الشرك في حدِّ ذاته، ويؤيّده استخدام (ما) وهي أعمُّ الموصولات

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/182.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/221.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/551.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/429.

وأدخلها في الإبهام ليشمل كلَّ معبود من غير اللّه بشرًا أوحجرًا أو شجرًا أو أيَّ شئٍ.

سرُّ تقييده عبادة الشّيطان، بالظّرف ﴿مِن قَبۡلُۗ﴾:

أتْباع الشّيطان أطـاعــوه، مع عِـلـمـهـم أنَّـه مــطــرودٌ مِـن الرّحمة

تقييدُ الشّيطان الرّجيم كُفْرَه بقبليَّةٍ محذوفة المضاف إليه فتح أوجهًا تأويلها: أيقصد: أنَّه كفر في الدنيا مِن قبل أن يكفروا؟ أم يقصد: أنَّه كفر بعد البعث لكن من قبل تلك اللّحظات التّي يخطب فيها؟ فيكون معنى "﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أنَّه قد كان مشركًا قبلَهم، وقيل: مِن قبل الأمر"[1]، "ويحتمل أن يكون اللفظ إقرارًا على نفسه بكفره الأقدم، فتكون ﴿بِمَآ﴾ بمعنى الذي، يريد اللّهَ تعالى أي: خطيئتي قبل خطيئتِكم؛ فلا إصراخ عندي"[2]. "ويجوز أن يكون هذا إقرارًا منه بالكفر باللّه تعالى من قبل. أي: مِن قبلهم، وذلك حين دعاه اللّه سبحانه مع الملائكة للسُّجودِ لآدمَ، فسجد الملائكة وامتنع هو، فطرده اللّه سبحانه، ولعنه وأصبحَ من الكافرين. فكأنَّه بهذا يقول لهم: إنَّكم تعلمون أنّي على الكفر، وقد دعوتكم فأطعتموني، فلا تلوموا إلّا أنفسكم، فأنا - كما تعلمون - قد كفرت باللّه الذي أشركتموني معه في عبادتِكم له"[3]؛ فتكون جريمتهم كبيرة إذ أطاعوه وقت عِلْمِهم بأنَّه كافرٌ مطرود.

موقع جملة ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ممّا قبلها:

إبليس يعترف بظلمه، ليخفّف وطأة العذاب عنه، ولكن هيهات

المقصود بالظالمين في جملة ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ كما "قال ابن عباس: يريد المشركين... فهم الذين وضعوا العبادة والطاعة في غير موضعها"[4] الجملة إمّا أن تكون من تمام معنى ما يقوله إبليس: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، قال صاحب

(1) النحّاس، إعراب القرآن: 2/231.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/169.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/461.

البحر وغيره: "الظاهر أنَّه من تمام كلام إبليس، حَكى اللّه تعالى عنه ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون تنبيهًا للسامعين على النظر في عاقبتهم، والاستعداد لِما لا بُدّ منه، وأن يَتصوَّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، ليخافوا ويعلموا ما مايُخَلِّصُهم منه ويُنْجِيهم، وعلى ذلك تكون استئنافيّة تعليليّة فهي "في موقع التعليل لما تقدّم من قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾"[1].

فتكون قد جاءت "قطعًا لأطماع أولئك الكفّار عن الإعانة والإغاثة"[2]، فبهذا التذييل سجَّل الشيطان اعترافه على نفسه وعلى أتباعه بأنَّهم ظالمون فيما أحدثوه من الضَّلال والإضلال، وأنهم مستحِقّون بسبب ذلك العذابَ الأليمَ. وإما أن تكون من كلام الخَزَنَةِ يوم ذاك"[3]، ويأباه السياق حيث لم يسبق لهم ذكر.

وإما أنَّها "حكم من اللّه ﷻ على هؤلاء المتخاصمين جميعًا من مستكبرين، ومستضعفين، وشياطين إنهم جميعًا ظالمون، وليس للظالمين إلّا أن يصلوا هذا العذاب الأليم، الذي هم مساقون إليه"[4] ويكون ذلك إقناطًا لهم من رحمة اللّه تعالى تابعين كانوا أو متبوعين؛ أي: إن الظالمين لهم منّا عذاب أليم؛ فلا ينفعهم في ذلك اليوم الندمُ، ولا إلقاءُ بعضهم التَّبِعة على بعض"[5].

سرُّ التّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة في السّياق:

العـذاب الأليم محقّق للظّالمين لا محالة

قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وفيه أكَّد النّظمُ الكريم الحكمَ للظالمين بالعذاب الأليم بِمُؤَكِّدَين كبيرين هما: ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة؛ وذلك بغرض "قطعِ أطماعهم في الإغاثة أو النصر، وتنبيهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/430.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/169.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/488.

المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى عداوة الشيطان لهم، وتحذيرهم من اتِّباع خطواته"[1]. وكذلك في تأكيد هذا الخبر وفاءٌ بالمقام؛ لأنَّه يعالج لحظات خطيرة، حيث أتى في نهاية كلام الشيطان العجيب، الذي صدمهم بوجهٍ غير الوجه الذي أَلِفوهُ منه طوال أعمارهم.

دلالة التّعبير بخبر ﴿إِنَّ﴾ جملة اسميّة:

الـحُـكـم على الــظّــالمــين بالعذاب الأليم، حُـكـمٌ نـافـذ، لا يتخلّف

إيثار خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملةً اسمية: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يدُلُّ على تأكُّد هذا الحكم، والقطع بوقوعه، حكمًا ثابتًا، وقضاء نافذًا، لا يتخلّف، ولا يتبدَّل.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظّـلـم ظلمات يـوم القيامة، وكـلّ ظلم آيل إلى سوء عاقبة

التّعريف هنا للجنس والاستغراق، ليعمّ سائر أصناف الظّلمة.

معنى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾، في السّياق الكريم:

بـقـدر بشاعة الـظّـلـم، تكون فداحة العذاب

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ هنا، إمّا أن تكون للتّخصيص، على اعتبار أنّ العذاب محصورٌ في الظّلمة؛ لأنّ الظّلم يعمّ سائر الذّنوب: صغيرها وكبيرها، وإمّا أن تكون للتّمليك استهزاء بهم، على اعتبار أنّهم أصحاب النّار.

سرُّ تقديم الخبر ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٌ﴾:

لـلـظـالمـين في الآخــرة عــذابٌ خـاصٌّ، يناسب جُرمهم

تقديم المسند ﴿لَهُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في جملة التذييل: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يختصّ هؤلاء بنوع عذاب لا يراه غيرهم من أهل الضلال والمعاصي، ويقرِّره في حقِّهم، ويقضي بأنّهم حقًّا ملاقوه، فالتّقديم إمّا للتّخصيص وإمّا لتعجيل ما يضرّهم.

نكتة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ في السّياق الكريم:

كــلّ أنــواع العذاب مرهقة، ولـكـنّ عـذاب الـظّـلـم أقسى وأبشع

تنكير العذاب قد يكون للتّعظيم أو للنوعيّة، على معنى نوع مختلف من العذاب.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/547.

بلاغة المجاز العقلّي في السّياق:

عذاب الظّالمين في الآخرة (أليمٌ)، لأنّه بلغ الغاية في بابه

العذاب في الحقيقة مؤلمٌ، غير أن إيلامه حين يبلغ الغاية التي لا غاية وراءها يترقّى في الإيلام إلى درجة أن يكون هو نفسه أليمًا، وفي ذلك مجاز عقلي علاقته الفاعلية؛ وهذا ما يستحقه الظّالمون الّذين وثقوا في الشّيطان واتَّبعوه، ودابروا طريق الرّحمن وعادَوْه، لذلك وُصف العذاب هنا بالـ ﴿أَلِيمٌ﴾.

سرُّ وصف العذاب بلفظ ﴿أَلِيمٌ﴾:

العذاب في الآخرة، ينتهي ألمُه إلى القلوب حِسّيًّا ومعنويًّا

العذاب الأليم هو الوجيعُ المُؤلمُ[1]، ووصْف العذاب بالأليم لمناسبة المقام هنا؛ إذ المقام مقامَ عقوباتٍ تُؤلم، ويتغلغل إيلامها إلى القلب، كما عرَّف ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما الأليمَ بأنه "الوجيع الذي يخلص ألمه وينتهي إلى القلب"[2]، حسّيًّا كان أو معنويًّا، والعياذ بالله تعالى من حال أهل النّار.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشّيطان وإبليس:

إبليس هو أبٌ للشّياطين جميعهم، والكلمتان تعبّران عن المخلوق نفسه

"الشَّيطانُ: فيعال من شطن، أي: بعُد. ويقال: شيطن الرَّجلُ، وتشيطن، إذا صار كالشَّيطان"[3]، والشّيطان "من شاط يَشيط وتشيّط، إذا لفحته النارُ فأثّرت فِيه، والنّون فِيهِ زائِدَة... وَمن قالَ إن النّون فِيهِ أَصْلِيَّة فَهوَ من **شَطَنَ** فَهوَ شاطن، أي بعُد عَن الْخَيْر. وَقَرَأ الْحسن: (وَما تنزّلتْ بِهِ الشّياطون)، قالَ أبو بكر: هَذا خلاف الخطّ"[4].

إبليس من "أَبْلَسَ، أي: يئس من رحمة الله، وأبلس الرجل: سكت، وأيضًا: يَئِسَ من كل خير"[5]، و"المُبْلِسُ: الكئيبُ الحزين

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/160.
(2) الفيروزابادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: 1/4.
(3) جمهرة اللغة، وابن دريد: (شطن).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (شطن)، وقراءة (الشياطون) ذكرها ابن جني في المحتسب: 2/133.
(5) ابن القوطيّة، كتاب الأفعال: (أبلس).

المُتَنَدِّم. وسُمِّي إبليسَ لأنَّه أُبلسَ من الخَيْر أي أوِيسَ، وقيل: لُعِن. والمُبلِسُ: البائِسُ"[1].

اللّوم والذّمّ والعتب:

يكون اللّوم للفعل الحسن والقبيح، والعتاب على تضييع الحقوق

"أنّ اللّوم هو تنبيهُ الفاعل على موقع الضّرر في فعله، وتهجين طريقته فيه، وقد يكون اللّوم على الفعل الحسن كاللَّوم على السخاء والذمّ لا يكون إلا على القبيح واللّوم أيضًا يواجَهُ به الملوم، والذمّ قد يواجه به المذموم ويكون دونه، وتقول حمدت هذا الطعام أو ذممته وهو استعارة ولا يستعار اللّوم في ذلك"[2]. و"العتاب: هو الخطاب على تضييع حقوق المودّة والصداقة في الإخلال بالزيارة وترك المعونة وما يشاكل ذلك، ولا يكون العتاب إلا ممن له موات يمتّ بها، فهو مفارق للوم مفارقة"[3].

(1) الخليل، العين: (بلس).
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 471.
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 350.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

[إبراهيم: 23]

المؤمنون في الآخرة آمنون من مشاهد الجدال الدّائر بين الشّيطان وأتباعه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لما ذكر ﷻ جزاءَ الأشقياءِ بما صاروا إليه من الخزي والعذاب الأليم - أتبع ذلك جزاءَ السعداءِ بما أعدَّ لهم من النعيم المقيم؛ فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾"[1]، "فكما قضتْ سُنَّةُ الله الشرعيةُ أن يعاقَب المتمرِّد على أمر ربه فقد قضت السنة الشرعية أن يُكافأ المحسن على إحسانه بفضلٍ وكرمٍ من الله تعالى وكان من تمام التوجيه أن يستكمل عرض مشهد الجزاء ببيان عاقبة المحسن والمسيء؛ لئلا يبقى لأحدٍ على الله تعالى حجّة"[2]، و"لم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيهًا لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنهم حينئذ في سلامة ودعة"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِإِذْنِ﴾: الإِذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[4]. ويُطْلَقُ الإذْنُ على الإعْلام، ومنه الأذان: وهو الإعْلامُ بدخول الوقتِ[5]. وتَقولُ العَرَبُ: قَدْ أذِنْتُ بِهَذا الأَمْرِ، أيْ: عَلِمْتُ. وآذَنَنِي

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/488.
(2) فتح الله، أساليب التربية والدعوة والتوجيه من خلال سورة إبراهيم، ص: 65.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(4) المناوي، التوقيف على أمهات التعاريف، ص: 44، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).

فُلانٌ أعْلَمَنِي. وَفَعَلَهُ بِإِذْنِي، أيْ: بِعِلْمِي، وَيَجوزُ بِأمْرِي، وَهوَ قَريبٌ مِنْ ذَلِكَ[1]. والإسْتِئْذانُ: طَلَبُ الإذْنِ. والمقصود بالإذْنِ في الآية: الأمْرُ، والمُرادُ بِهِ: أمْرُ العِنايَةِ بالمُؤمنين[2].

2) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾: أصْلُ التَّحِيَّة: الدُّعاءُ بالحَياة، يُقال: حَيّاهُ، يُحَيِّيه، تَحِيَّةً، أيْ: دَعا له بالحَياة. والتَّحِيَّةُ: قَوْلُ: حَيّاكَ اللّهُ، أيْ: أبْقاكَ وأدامَكَ، والرَّجُلُ: مُحَيِّي، والمَرْأةُ: مُحَيِّيَةٌ[3]. وقِيل أصْلُها: اسْتِقْبالُ المُحَيّا وهو الوَجْهُ[4]. وتأْتي التَّحِيَّةُ بمعنى المُلْك، وحَيّاكَ اللّهُ، أيْ: مَلَّكَكَ. والتَّحِيّاتُ لِلّه، أي: البَقاءُ والمُلْكُ لِلّه. والتَّحِيَّةُ أيضاً: الدُّنوُّ[5]. وتُطْلَق على كُلِّ قَوْلٍ أو فِعْلٍ يُؤْتَى بِهِ عند اللقاءِ بِقَصْدِ التَّكْريم. والمراد بالتَّحية في الآيةِ: الكَلامُ الَّذي يُخاطَبُ بِهِ عِنْدَ ابْتِداءِ المُلاقاةِ إعْرابًا عَنِ السُّرورِ باللِّقاءِ مِنْ دُعاءٍ وَنَحْوِهِ.

3) ﴿سَلَٰمٌ﴾: أصْلُ السَّلامِ: السَّلامَةُ. فاسْتُعْمِلَ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأْمِينِ المَرْءِ مُلاقِيَهُ وَأنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فَصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ لِلْإكْرام. والسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، واللّه جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلْحَقُ المَخْلوقِينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ[6]. وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَنَّة: دار السَّلامِ؛ لأنها دارُ السَّلامةِ مِنَ الآفاتِ[7].

والمُرادُ بالسَّلام في الآية: اسْم لِلكَلام الَّذي يُفاتِحُ بِهِ الزّائِرُ والرّاحِلُ فِيهِ ثَناءٌ أوْ دُعاءٌ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أي: "أُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ أُعِدَّت لهم، تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا، لا يَخرجون منها، ولا يُخْرجهم منها أحدٌ؛ فنعيمهم دائم، وسعادتهم لا نهاية لها. وكلُّ ذلك بِإذْنِ رَّبهمْ وأمره وفضله لا بِعملهم فحسب، ومصداق ذلك قوله ﷺ: "لَنْ يُدْخِلَ أحدًا عملُهُ الجنَّةَ، قالوا ولا أنت يا رسول

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حيا، حيي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حيا).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).

مآل المؤمنين يوم القيامة الخلود في الجنّة، وتحيّات السّلام

اللّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه بفضل ورحمة"(1). يُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، والسلامُ هو تحيةُ اللّه تعالى وملائكته - الأبرار -، اختارها اللّه تعالى لعباده المؤمنين في الدُّنيا وفي الجنة دار السَّلام"(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَأُدۡخِلَ﴾:

حروف المعاني تتعانق دلالاتها، للإبانة عن المراد في السّياق

الواو إمّا أن تكون استئنافية، وإمّا أن تكون عاطفةً، وإمّا أن تكون للحال، وكلُّ اعتبار يضيف معنى، والعجيب أنَّ المعاني كلَّها تتعانق فقد "جاء هذا الوعد الحسن ترغيبًا بعد بيان مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنَّكال"(3)، وجملة ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مستأنفَةٌ خبرًا جديدًا من نوعٍ جديد، يَخصُّ الفِئة المؤمنة الصالحة الناجية، يقول ابن جِنّي: "قولِه: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على فِعل المتكلم؛ قَطْعٌ للكلام واستئنافٌ، فقال اللّه تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: أنا أُدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار بإذْن ربِّهم، أي: بإذني"(4).

أو أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ "عطفٌ على جملة ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين؛ لأنَّ حال المؤمنين يومئذ مِن جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارًا لتفاوُت الأحوال"(5).

"ويجوز جعل الواو للحال، أي: برزوا، وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان - إلخ - وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات، فيكون إشارة إلى أنَّهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة"(6).

(1) الألباني، مختصر صحِيحُ الإمامِ البُخاريِ برقم: 2474.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/488.
(3) فتح الله، أساليب التربية والدعوة والتوجيه من خلال سورة إبراهيم، ص: 65.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 8/589.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 13/222.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 13/222.

دلالة بناء الفعل الماضي للمفعول، ﴿وَأُدۡخِلَ﴾:

كلُّ مستقبل بالنّسبة لله تعالى واقع لا ريب فيه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ "لتحقيق الوقوع، وتعجيل البشارة"[1]، فاللّه تعالى مالك الزّمان والمكان والمكين؛ فما أخبرَ أنَّه واقع في المستقبل، كأنَّه وقع وتمَّ وتحقَّق في الماضي، قال أبو السّعود: "والمُدْخِلون هم الملائكةُ - عليهم السلام"[2] وبُنِيَ الفعل للمفعول لتعيّن الفاعل وهم الملائكة بأمر اللّه. وفي البناء للمفعول إشغالٌ بالفعل عن فاعله.

سرُّ ورود نائب الفاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمًا موصولًا:

من أسباب دخول الجنّات، ضَمُّ الإيمان إلى عمل الصّالحات

إيثار النظم الكريم تعريف نائب الفاعل بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون الاسم (المؤمنون) يُتيح جملة من الدلالات الشريفة بالنسبة لهؤلاء المؤمنين، من تلك الدلالات الإيماء إلى وجه بناء الكلام؛ فالمترقَّب بالنسبة لمن آمن وعمل صالحًا سيكون من جنس الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، كذلك أتاح الاسم الموصول ذكر أسباب فوزهم بذلك الأجر العظيم، والسّبب الجالب فضل اللّه هو إيمانهم، وعملهم الصّالحات. وفي التّعبير بالاسم الموصول وصلته مدحٌ وثناء على المؤمنين.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

دليل كمال الإيمان، ترجمته إلى عمل الصّالحات

يَدلُّ عطفُ عمل الصّالحات على الإيمان - في سبب استحقاق هؤلاء تلك الجنّات الكريمات - على التّنويه بقيادة الإيمان أصحابَه إلى عمل الصّالحات، التي يَعْمُرُ بها الكون، وترتقي بها أحوال العباد والبلاد، كذلك يَدلُّ عطفُ جملة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ على أنَّ من كمال الإيمان العمل الصالح.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/548.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/43.

العمل الصّالح ما أقرّه الدّين الحنيف، من كلّ خلق رضيّ منيف

سرُّ تعريف المفعول به ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بـ (ال):

تعريف ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ باللّام تعريفُ عهدٍ؛ يقول بأنّها ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المعلومة المعهودة لدى المؤمنين. وهي التي شرحها الدين الحنيف، ولخَّصها الذكر الحكيم، وفصَّلتْها السنة الشريفة، وأقرَّتْها الطِّباع القويمة والنفوس المستقيمة، وليس من ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما تستحسنها النفوس الضالة، ولا كلُّ التي تُقرُّها القوانين الوضعية الضّارّة؛ فتلك لا ترقى في مجموعها إلى الإحاطة بكل حيثيات الخير التي راعاها الدين القويم في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المطلوبة، وقد يكون التّعريف بها تعريف جنس لتعمّ كلّ الأعمال الصّالحة.

جنات الخُلد مِن الفخامة والعظمة، بحيث لا يحيط بها التّصوّر

الغرض من تنكير لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

تنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ يُضفي عليها الفخامة والعظمة، وكذلك يوحي بأنَّ أحدًا من المؤمنين ولا غيرهم، يمكنه أن يصل بخيالِه مهما اجتهد في التّخيُّل إلى ما فيها من عظمة وفخامة ومتاع، وفي هذا الصَّدَد يقول الحبيب ﷺ: "قالَ اللّهُ ﷻ: أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، مِصْداقُ ذَلِكَ في كِتابِ اللّهِ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السّجدة: 17]"[1].

جنان الخلد متجدّدٌ نعيمها أبدًا

سرُّ التّعبير بجملة ﴿تَجۡرِي﴾:

وصف الـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالجملة الفعليّة ﴿تَجۡرِي﴾ يُترجم تَجَدُّدَها الدّائم، ويكشف عن عدم رتابة مُتَعها المتعدّدة من صنوف نعيمها المذكورة في سورة الرحمن، من مأكل ومشرب، ومن أزواج ومتَّكأ، وغير ذلك، وقد ورد كثير من ذلك مفصَّلًا في الحديث النبوي الشريف، في أبواب ذكر الجنة ونعيمها.

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2824)، كتاب الجنّةِ وصِفة نعِيمِها وأهلِها: 4/2174.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾:

﴿مِن﴾ هنا ابتدائيّة، فالأنهار تبدأ من تحتهم.

متع الجنّة في جمال مناظرها، وجريان أنهارها

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾:

الجارّ والمجرور ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ "متعلّق بـ ﴿تَجْرِى﴾، وهو على حذف مضافٍ، أي: تحتَ أشجارها أو بيوتها"[1]، و"من تحتِ ما علا منها"[2]، وتقديم هذا القيد ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على المسند إليه ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى أثر تلك الخصيصة في تتمَّة جمال الجنة؛ حيث إنّ لارتفاع نسبة العذوبة وتجدّد المياه ووفرتها أثرًا مباشرًا في غَناء الجنات، ووفرة جمالها، وتنوّع ثمارها، وكثرة عطائها.

جنان الخلد وفيرة الخيرات، تامّة أسباب الجمال

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ معرفا بـ (ال):

جاء المسند إليه ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمعًا، وذلك قائل بكثرتها، وتَنوُّع ما يجري فيها - من ماء غير آسن، ومن لبنٍ لم يتغيّر طعمه، ومن عسل مصفًّى - كما جاء بيانه في قوله ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد ﷺ: 15] وتعريف المسند إليه ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بـ (ال) يقرِّر أنها وفيرة خصائص النهريّة من عذوبة وخضرة وجمال، وأسماكٍ، وغيرها مما تحويها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الكاملة في أوصافها، فالتّعريف للاستغراق.

أنهار الجنّة متنوّعة الجريان، وفيرة الخيرات

سرُّ التّعبير بالحال، في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

تقييد إدخال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بالحال ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يتمِّم فرحتهم، ويكمِّل

إخبار أهل الجنّة بالخلود، يُسَكِّن النّفوس، ويُتَمِّم الفرحة

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/183.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.

سعادتهم؛ إذ دخول الجنة ثم الإخراج منها ينغِّص على الداخل، أما ضمان عدم خروجه منها فيطمِّئنه، ويسكِّن نفسه، لذلك كان "(الخلود) في هذه الآية على بابه في الدوام"[1] الذي لا ينقطع، ولا يحول، ولا يزول.

معنى الباء في قوله ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾:

لا حركة ولا سكون في الكون، إلّا بإذن الله

الباء هنا للملابسة والملاصقة، ويمكن حملها على السّببيّة، على معنى: بسبب إذنٍ من ربّهم.

سرُّ التّعبير بالقيد ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾:

المؤمنون بإذن ربهم، يُدخَلون الجنة، ويُحَيَّوْن فيها بالسّلام

في القيد ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ إشارة إلى العناية والاهتمام، فهو إذن أخصُّ من أمر القضاء العامّ[2]، والإذْن هاهنا كأنَّه الرحمة؛ أي: خالدين فيها برحمة ربهم[3]، أو بأمره سبحانه، أو بتوفيقه وهدايته جلَّ شأنه[4]، أو بالقضاء والإمضاء[5]، وهذا القيد بالجارّ والمجرور والمضاف إليه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ "متعلّق بـ ﴿وَأُدۡخِلَ﴾، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذْن اللّه تعالى وأمرِه. "فالإيمان باللّه تعالى، والعمل الصالح طريق إلى جنّة اللّه ورضوانه، ولكنهما لا يوصِّلان إليها إلّا بإذن اللّه تعالى، وعونه، وتوفيقه، إنّهما أشبه بالطّرقات التي يستأذن بها على ربّ الدار لدخول داره، وإنه لا يأذن إلا لمن يشاء ويرضى"[6].

سرّ إضافة الضّمير، إلى الربّ القدير:

إدخال المؤمن الجنّة بكرم الله تعالى ورحمته، لا بسعيه وعمله

"في التعرُّض لوصفِ الربوبيّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم إظهارُ مزيدٍ مِن اللطفِ بهم"[7]، كذلك فيه "إشارة إلى أنَّ هذا الرضوان،

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/386.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/200.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/170.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/43.

وذلك النعيم الذي صار إليه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إنما هو من فضل اللّٰه تعالى عليهم ومشيئته فيهم، وليس ذلك لِما كان منهم مِن إيمان وعمل صالح وحسب؛ إذ إنَّ هذا النعيم لا يَعدِله عملٌ ولا يؤدّي حقَّه إنسان."[1] و"أعاد ذكر (الربّ) ليضيفه إليهم؛ فتَقْوَى الملابسة باللفظ؛ فيكون أحنى عليهم، وأذهبَ في الإكرام والتقريب منه تعالى ومثلُه قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50]، وقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 96]، هذا كله تقرّب منه وانتساب"[2].

دلالة جملة ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾:

أهـل الجنّـة يـتـلـقّـون الـتّـحـايـا من الله وملائكته والمؤمنين

موقع جملة ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ "النصبُ على الحال، إمّا من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضّمير المستكِنّ في ﴿خَٰلِدِينَ﴾. وقد جوِّز أن تكون في موضع الصفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ كـ ﴿تَجۡرِى﴾"[3]، و"يحتمل السلامُ الثناءَ، أي: يثنون على ربهم، كقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34] الآية... وقال بعضهم: يُسَلِّم بعضُهم على بعض، ويُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، وقال بعضهم: السلام هو اسمُ كلِّ خيرٍ ويُمْنٍ وبركة؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾ [مريم: 62] الآية، واللّٰه أعلم"[4]، و﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا﴾ أي: "تحيّتهم في الجنة سلامٌ لهم مِن خالقهم ﷻ ومِن الملائكة، ومِن بعضهم لبعض"[5].

نكتة تعريف ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ بالإضافة:

لأهل الجنّة تحيّة مخصوصة، لا يهنأ بها غيرهم

التعريف بالإضافة في ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ يوحي بأنها تحيّةٌ خاصّة بهم، معروفة لهم، لا ينالها غيرهم من بقية أهل المشهد الذين ﴿وَبَرَزُواْ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/169.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 8/589.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/27.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/386.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/548.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ "وجهان: أحدهما: أنَّ تحيّة أهل الجنة إذا تلاقَوْا فيها السلامةُ... الثاني: أنَّ التحيّة ها هنا المُلك، ومعناه أنَّ ملكهم فيها دائم السلام، مأخوذ مِن قولهم في التشهُّد: التحيّاتُ للّه، أي المُلك للّه"[1] و"جائز أن يكون الضمير للمفعول أي: تُحَيِّيهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي يُحَيِّي بعضُهم بعضًا. و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ رفع بالابتداء، و﴿سَلَٰمٌ﴾ ابتداء ثان، وخبره محذوف تقديره (عليكم)، والجملة خبرُ الأول، والجميع في موضع الحال من المضمرين في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو يكون صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾"[2] و"منهم مَن يحيِّيهم ربُّهم وهم أهل الصفوة والقُرْبة، ومنهم مَن تُحيِّيهم الملائكة وهم أهل الطاعات والدرجات، وما أطيبَ سلامَ المحبوب على مُحبِّه، وما ألذَّه على قلبه:

أشاروا بتسليم فَجُدْنا بأنفسٍ *** تسيلُ مِنَ الآماقِ والاسمُ أدمع"[3]

سرّ تقديم ﴿فِيهَا﴾، على خبر المبتدأ:

في جنة الخُلد، سلامٌ مخصوص لأهلها المنعّمين

تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المسند ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يُنَوِّه بما تشتمل عليه تلك الجنة مِن ﴿سَلَٰمٌ﴾ مُتَفِرِّد النوع والكَمّ، وأنَّ هذا الخير لا يوجد إلا فيها، ففي هذا التقديم قَصْرٌ لهذا الـ ﴿سَلَٰمٌ﴾ العظيم على جنة الخُلد التي يُدخَلُها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

غرض تنكير المسند في ﴿سَلَٰمٌ﴾:

سلام الجنّة متفرّدٌ في السّلامة والأمن والنّعيم

تنكير المسند ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يفيد تَفَرُّدَه في باب السلامة والأمن والأمان، ويقرِّر أنَّه سلام تامٌّ شامل جميع نواحي الجنة، وجميع مناحي الحيوان فيها، والسّلام: "مشتقٌّ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/131.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/334.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/218.

مِن السلامة. والأظهرُ أنَّ المراد أنَّهم سَلِموا من آفات الدنيا وحَسراتها، أو فنون آلامها وأسقامها، وأنواع غمومها وهمومها، وما أصدق ما قالوا، فإنَّ السلامة مِن محن عالَم الأجسام الكائنة الفاسدة مِن أعظم النِّعم، سيّما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوزُ بالبهجة الرّوحانية والسعادة الملَكِيّة"[1].

والسّلامُ يأتِي فِي استعمال التّحيّة مُنكّرًا مرفوعًا ومنصوبًا، ومُعرّفًا بِاللّام مرفوعًا لا غير؛ فأمّا تنكِيرُهُ مع الرّفعِ، فهو على اعتِبارِهِ اسمًا بِمعنى الأمانِ، وأمّا تعرِيفُهُ مع الرّفعِ فلِدُخولِ لامِ تعرِيفِ الجِنسِ عليهِ، وكلِمةُ (على) فِي الحالتينِ لِلدّلالةِ على تمكُّنِ التّلبُّسِ بِالأمانِ، وأمّا إن نصبوا مع التّنكِيرِ فعلى اعتِبارِهِ كمصدرِ (سَلّم)، فهو مفعول مُطلق أتى بدلًا مِن فِعلِهِ. تقدِيرُهُ: سلّمتُ سلامًا[2].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/257 - 258.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمثال القرآن توضِّحُ المعاني، وتُقَرِّرُمنها السّابق واللّاحق

"لـمّا شرح اللّه تعالى أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ذَكَر مثالًا يُبَيِّن الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل"(1)؛ وساقه بإثْر ذكر أحوالهما "زيادة في التوضيح والتقرير"(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبَ﴾: أصلُ الضّربِ: إيقاعُ شيء على شيء وإصابتُهُ بِه، يُقالُ: ضربهُ بِالعصا، يضرِبُهُ، ضرباً، أي: أوقعها عليه(3). والضّربُ الصِّنف من الأشياء؛ يُقال: هذا من ضربِ ذاك، أي: من نحوه، وجمعُه ضروب(4)، وضربُ الأمثالِ: اعتِبارُ الشّيءِ بِالشّيءِ وتمثِيلُه بِهِ، يُقال: ضرب اللّه مثلاً، أي: وصف وبيّن، قِيل مأخوذ: من ضرب الدِّرهم صوغُه لإيقاعِ المطارِق، سُمِّي بِهِ لتأثِيرِه في النُّفوس، وقِيل: إنّه مأخوذ من الضّرِيبِ أي المِثيلِ. تقولُ: هو ضرِيبُه، وهُما من ضرِيب واحِد؛ لأنّه يجعلُ الأوّل مِثل الثّاني(5). والمقصودُ بضربِ المثلِ في الآية: نظمُ تركِيبِه الدّالِّ على تشبِيهِ الحالة(6).

2) ﴿كَلِمَةٗ﴾: أصلُ الكلامِ: النُّطقُ المفهومُ، يُقالُ: كلّم يُكلِّمُ تكلِيمًا وكلامًا، أي: نطق نُطقًا مفهومًا. وقِيلُ: أصلُ الكلامِ مِن الكلم وهو الجرحُ والشقُّ؛ لِأنّهُ يشُقُّ الأسماع بِوُصولِهِ إليها، وقِيل: لِأنّهُ يشُقُّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضرب).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (ضرب).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.

المعاني[1]. والكلِمةُ تقعُ على الحرفِ الواحِدِ مِن حُروفِ الهجاءِ، وتقعُ على لفظة مُؤلّفة مِن جماعةِ حُروف ذاتِ معنىً، وتقعُ على قصيدة بكمالها وخُطبة بأسرها[2]، والمُتكلِّمُ: النّاطِقُ، والكلِمُ أيضًا: القولُ واللّفظُ، وقِيل: الكلِمُ لا يقِلُّ عن ثلاثِ كلِمات، والكلامُ يشملُ القلِيل والكثِير[3]. والمرادُ بالكلِمةِ الطّيِّبةِ في الآية: كلِمةُ الإسلامِ، وهي: شهادةُ أن لا إله إلّا اللّه وأنّ مُحمّدًا رسولُ اللّه[4].

3) ﴿طَيِّبَةٗ﴾: أصلُ (طيب): يَدُلُّ على خِلافِ الخَبيث. مِنْ ذلكَ الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبِيثِ[5]، وهو ما تستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النّفس[6]، يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطِيبُ، طِيبًا وطابًا، أي: لَذَّ أو زَكا، وطابَتِ الأَرْضُ طِيباً: إذا أَخْصَبَت[7]. والطَّيِّبُ: الأفضَلُ والنّافِعُ من كلِّ شَيْءٍ[8]. ويأتي بِمعنى الحلالِ[9]. والمُرادُ بالطَّيِّبَةِ في الآيةِ: النّافِعَةُ.

4) ﴿كَشَجَرَةٍ﴾: أصلُ (شجر): يدلُّ على تداخُلِ الشّيءِ بعضِهِ في بعض، وعلى عُلوّ في شيء وارتِفاع. فالشّجرُ معروف، الواحِدةُ شجرة، وهِي لا تخلو مِن ارتِفاع وتداخُلِ أغصان. وواد شجِر: كثِيرُ الشّجرِ[10]. والشّجرُ: أصناف، فأمّا جِلُّ الشّجرِ فعِظامُه الّتي تبقى على الشِّتاءِ، وأمّا دِقُّ الشجرِ فصِنفانِ: أحدُهُما تبقى لهُ أرومة في الأرضِ في الشّتاءِ، وينبُتُ في الرّبيعِ، ومِنه ما ينبُتُ مِن الحِبّة كما تنبُتُ البُقولُ، وفرقُ ما بين دِقِّ الشّجرِ والبقلِ، أنّ الشّجر تبقى لهُ أرومة على الشِّتاءِ، ولا يبقى لِلبقلِ شيء[11]. ويُقال: شجر بين القوم الأمرُ، إذا اختلف أوِ اختلفوا وتشاجروا فِيه، وسُمِّيت مُشاجرةً لِتداخُلِ كلامِهِم بعضِهِ في بعض[12]. والمقصودُ بالشّجرةِ في الآية: الأصلُ الّذي تخرُجُ فِيه الأغصانُ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 523.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (كلم)، والنّووي، تهذيب الأسماء: 4/118.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كلم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(6) الراغب، المفردات: (طيب).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (طيب).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة: (طيب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شجر).
(12) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (شجر).

5) ﴿أَصْلُهَا﴾: أصلُ الشّيءِ: أساسُهُ، وكُلُّ ما يستنِدُ إليه غيرُهُ، ويبتنِي عليه، ويتفرّعُ عنه فهو أصل، وخِلافُه: الفرعُ، فالأبُ أصل لِلولدِ، وأصلُ الشّجرةِ: جِذرُها[1]. وجمعُهُ: أُصول.

6) ﴿ثَابِتٌ﴾: أصلُ (ثبت): كلمة واحِدة، تدلُّ على دوامِ الشّيءِ، يُقالُ: ثبت الشّيءُ، يثبتُ، ثباتًا وثُبوتًا: إذا دام واستمرّ، فهو ثابت[2]. ورجُل ثبت: أي حُجّة. والثّابِتُ: اللّازِمُ الواقِفُ[3]. والثّابتُ أيضًا: الصّحيحُ، يُقالُ: ثبت الأمرُ، أي: صحّ[4]، والمُرادُ بالثّابت في الآية: الشّيء الدّائم المُستقِرُّ.

7) ﴿وَفَرْعُهَا﴾: أصلُ الفرعِ: أعلى كُلِّ شيءٍ، يُقالُ: فرع الرّجُلُ في الجبلِ، أي: صعِد وعلا[5]. والفرعةُ: رأسُ الجبلِ وأعلاهُ[6]. والفارِعُ: المُرتفعُ العالِي[7]. والجمعُ: فُروع. وفُروعُ الشّجرةِ: أغصانُها، وفُروعُ الرّجُلِ: أولادُهُ، وفرع المرأة: شعرها[8]. والمقصودُ بالفرعِ في الآيةِ: ما امتدّ من الشّيءِ وعلا. والمُرادُ بفرعِ الشّجرةِ: غُصنُها[9].

8) ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: أصلُ (سمو): أَصْلٌ يَدُلُّ على العُلوِّ. يُقالُ سَمَوْتُ، إذا عَلَوْتَ. وَسَما بَصَرُهُ: عَلا. وَسَما لِي شَخْصٌ: ارْتَفَعَ حَتَّى اسْتَثْبَتُّهُ[10]. والسَّماءُ: كلّ ما ارتفعَ وعَلا قد سَما يَسمو، وكلُّ سَقْف فَهوَ سَماء، وَمن هَذا قيل للسَّحابِ: السَّماءُ؛ لِأَنَّها عاليَة[11]. والسَّماء عِنْد العَرَبِ مُؤنَّثة؛ لأنَّها جمعُ سَماءَة، وَإذا ذَكَّرتِ العَرَبُ السَّماءَ عَنَوْا بها السَّقْف[12]، ويُسَمَّى العشبُ أيضاً سَماءً؛ لأنَّه يَكونُ عَنِ السَّماء الَّذي هوَ المَطَرُ، كَما سَمَّوا النَّباتَ نَدًى؛ لأنه

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ثبت).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ثبت).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (فرع).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (فرع).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فرع).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرع).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سمو).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (سمو).

يَكونُ عَنِ النَّدى الَّذِي هوَ المَطَرُ[1]. وحقيقةُ السَّماءِ في الآية مُستَعْمَلَةٌ فِي الارْتِفاعِ؛ وَذلكَ مِمّا يَزِيدُ الشَّجَرَةَ بَهْجَةً وَحُسْنَ مَنْظَرٍ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

الكلمة الطيّبة تثمر لصاحبها وللناس الخير والمبرّة والسّلام

"ألم تر - أيها المخاطب - كيف اختار الله تعالى مثلاً، ووضعه في موضعه اللائق به، والمناسب له، وهذا المثل لِكلمتي الإيمان والكفر، حيث شبَّه سبحانه الكلمة الطيّبة وهي كلمة الإسلام، بالشجرة الطيّبة، أي النافعة في جميع أحوالها، وهي النخلة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بصفات حسنة فقال: أَصْلُها ثابتٌ ضارب بعروقه في باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان، أعلاها... في جهة السماء من حيث العلوِّ والارتفاع، وهذا مما يزيد الشجرة جمالًا وحُسْنَ منظر"[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في جملة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

كلّ ما خلق الله في وجوده، يستحقّ أن ينبّه عن عجيب صنعه

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾، "استئنافٌ ابتدائيٌّ اقتضتْه مناسبةُ ما حُكِي عن أحوال أهل الضّلالة، وأحوال أهل الهداية، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾"[4]، قال صاحب تأويلات أهل السُّنَّة: "﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ حرفُ تنبيهٍ عن عجيبٍ كان بَلَغَهُ فغفل عنه، أو تنبيهٍ عن عجيبٍ لَمْ يَبلُغه"[5].

الغرض من الاستفهام في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

مَثَلُ الكلمة الطيبة وأثرها في حياة الأُمّة

المراد بالاستفهام في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ "الإنكارُ؛ حيث نُزِّل المخاطَبُ منزلة مَن لم يَعْلَم؛

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سمو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/550.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.

فأنكر عليه عدمَ العلم، أو هو مستعمل في التعجيب من عدمِ العلم بذلك مع أنَّه مِمّا تتوفَّر الدواعي على عِلمه، أو هو للتقرير، ومثله في التقرير كثير، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك"(1)، ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ "ألم تعلم"(2)، وفيه "شُبِّه حالِ مَن لم يَر الشيء بِحال مَن رآه، في أنَّه لا ينبغي أن يَخفى عليه، ثم أُجري الكلام معه كما يُجرى مع مَن رأى، قَصْدًا إلى المبالغة في شُهرته وعَراقته في التعجُّب"(3).

التّعبير بالمضارع المجزوم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

يحسُن التّبصّر بآثار الكلمة الطيّبة؛ وتمثّلها على الدّوام

مِن شأن التعبير بالمضارع في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أنْ يَحُضَّ على تجدُّد الرؤية واستمرار التبصُّر في مَثَل الكلمة الطيّبة - وهو الشّجرة الطيبة بكلِّ منافعها - الّذي ساقه اللّه تعالى لعباده لينتفعوا به ويتمثَّلوا الكلمة الطيّبة في معاملاتهم؛ فبها تسمو الأرواح، وتنشرح الصدور، وتنزاح الهموم، وتهدأ النفوس، وترتقي الطباع... إلى آخر تلك الآثار الطيبة التي لا تُحدّ بِحَدّ.

دلالة الخطاب في الفعِل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

المخاطبون مدعوون لتدبُّر مَثَل الكلمة الطّيبة في الفرد والمجتمع

"الخطاب في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾... للرسول ﷺ أو لِكل مَن يَصلح للخطاب"(4)؛ لأن المخاطب الأوّل بالقرآن الكريم هو الرسول ﷺ، وأُمَّتُه مخاطبة به مِن بعده، ويُفترَض أنَّ الناسَّ كلَّهم من أُمَّته بناءً على عموم دعوته الزمان والمكان؛ وعليه فالخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجَّهٌ إلى كلِّ مَن هو بمثابة أن يَتلقّاه وينتفع به.

بلاغة المجاز في التّعبير عن العلم بالرّؤية:

من علم فقد رأى الحقائق، وما راءٍ كمن سمعا

عبّر عن العلم بالرّؤية، لأنّ الرّؤية هي أقوى وسائل العلم؛ فهو مجاز مرسل علاقته السّببيّة والمسبّبيّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.

سرّ الاستفهام بالأداة ﴿كَيۡفَ﴾:

أمثال القرآن الكريم عجيبة، ورائقة شائقة

غرض الاستفهام في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ "الإلفات إلى هذا المَثل، والوقوفِ عنده وَقفة تدبّر وتَذكُّر واعتبار؛ فالمراد بالاستفهام الأمرُ، أي: انظر كيف ضرب الله تعالى مثلًا..."[1]، و"إيثار أداة الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ هنا للدلالة على أنَّ حالةَ ضَرْب هذا المثلِ ذاتُ كيفيَّةٍ عجيبة مِن بلاغته وانطباقه"[2].

المقصود بالخطاب في جملة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

لا يسلس العلم لأهله، حتى يبلُغوا فيه مبلغ الرّؤية البصريّة

المقصود بالخطاب كلّ ذي عقل فالرّؤية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تَرَ "رؤيةٌ عِلْميَّة، معلَّقٌ فِعلُها عن العمل بِما وَليَها من الاستفهام بـ ﴿كَيۡفَ﴾"[3]، فهي "مستعملة في العِلم الناشئَ عن التَّأمل والتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض"[4]، وكأنَّ فيها دعوة لأهل العلم أن يُخلصوا له حتى يبلُغ فيهم مبلغ الرؤية البصريّة، لا العلم العقليّ المجرَّد فقط.

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿ضَرَبَ﴾:

قد يُصاغ المعنى صياغة الماضي للتّشويق

التعبير بالماضي فيه إشارة إلى استقرار معنى هذا المثل عند ذوي العقول فأُخْرِجَ مخرج المخبَرِ به عمّا كان واستقرَّ وقوعه وتحقُّقه، وغرضُ سَوْقِ هذا المثل "إيقاظ الذهن؛ ليترقَّب ما يَرِد بعدَ هذا الكلام، وذلك مِثْلُ قولهم: ألم تعلم، ولم يكن هذا المثل مما سَبق ضربُه قبل نزول الآية، بل الآية هي التي جاءت به، فالكلام تشويق إلى عِلم هذا المثل، وصوغ التشويق إليه في صيغة الزمن الماضي الدّالِّ عليها حرف ﴿أَلَمۡ﴾ التي هي لِنَفْيِ الفعل في الزمن

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/170.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.

الماضي، والدّال عليها فعل ﴿ضَرَبَ﴾ بصيغة الماضي لِقصد الزيادة في التَّشويق؛ لمعرفة هذا المثل، وما مُثِّل به"[1].

ومعنى ﴿ضَرَبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً﴾ أي: "بيَّن اللّه مثلًا وأظهر"[2]، و"بيّن شَبَهًا"[3]، و"اعتمد مثلًا ووضعه"[4].. وكذلك "ضَرْبُ المثل: سَوْقُه وعَرْضه، والأصل فيه ضرْب الشيء بالشيء لِيَخْرُج منهما شيءٌ آخر، كضرْب اللَّبن بالمَخْض ليَخرج منه الزُّبد، ومنه الضّرب وهو عسَل النَّحل الذي يكون مِن ضرْب أخلاطِ رحيقِ الزَّهْر بعضها ببعض"[5].

سرّ التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مسندا إليه:

هيبةُ لفظ الجلالة (الله)، تعكس سوانح العظمة والكمال

في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أُسْنِد الفعل ﴿ضَرَبَ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ ﷻ "لأنَّ اللّه تعالى أوحى به إلى رسوله - عليه السلام - "[6]، ولأنَّ اسم الجلالة هو العَلَم الدّالُّ على الذات المقدَّسة؛ ففيه تجتمع كلُّ صفات الجلال، كما فيه تجتمع كلُّ صفات الجمال، والمقام لإنكار عدم العِلْم بما ينبغي أنْ يكون معلومًا، وحَثٌّ على العِلم الذي يبلغ مبلغ الرؤية البصريّة؛ ففي إسناد ضرْب المثل إليه سبحانه وتعالى حثٌّ وحضٌّ، وفيه كذلك شِبْهُ عِتاب ولَوم لمن لم يرْقَ إلى ذلك.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿مَثَلًا﴾:

التشويق إلى الشّيء، إسعادٌ للنّفوس، بِتَحْصِيله بعد تَرقُّب

جاء المفعول به ﴿مَثَلًا﴾ نكرةً في جملة ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للتشويق إلى تفسيره التالي: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ فإذا بلغَ المتلقِّي إلى المَثَل المفسّر تَمَكَّنَ في نفسه خيرَ تَمَكُّنٍ، وسعدتْ به أتمّ سعادة، و"المثل في كلامهم قولٌ موجَزٌ سائرٌ، يَملك الألباب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 2/552.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/171.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.

ويأسر العقول؛ لِما فيه من تصويرٍ رائع ودِقَّة مُحكَمة"[1]، وكذلك "المثَلُ الصفةُ العجيبة"[2]، و"يطلق على القول السائر المعروف؛ لِمُماثلة مَضربِه لِموردِه"[3]"والمثل لَمّا كان معنًى مُتضمِّنًا عِدَّةَ أشياء صحّ الاقتصارُ في تعليقِ فِعْل ﴿ضَرَبَ﴾ به على وجه إجمالٍ يفسّره قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ﴾ إلى آخره"[4].

سرُّ التّعبير بالبدل ﴿كَلِمَةً﴾ نكرةً موصوفةً:

الكلمة الطيّبة، تُفعم العبدَ والكونَ، مِن حوله بِرًّا وبركة

جاء تفسير المثل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ تنويهًا بعظمتها، وتنبيهًا على يُسرها على من يسَّرها اللّه تعالى عليه من عباده؛ فإنّها ﴿كَلِمَةً﴾، وصورتها ﴿كَشَجَرَةٍ﴾، وكلاهما ﴿طَيِّبَةً﴾، ولا مشقّة في تلك الـ ﴿كَلِمَةً﴾ التي ستفعم الدنيا خيرًا وبرًا وبركة حين تنفصل من صاحبها، بَدْءًا بكلمة التوحيد، ولوازمها من شُعَب الإيمان، وانتهاءً بالعبد الذي يُثري بها نفسه والكون من حوله، وقد قالوا: "في الكلمة الطيّبة قولان: أحدهما: أنَّها الإيمان... الثاني: أنَّه عنى بها المؤمن نفسه"[5] فـ "ضرب اللّه تعالى مَثَلَ (الشجرة الطيبة) مثلًا للمؤمن؛ فهوفي الأرض وعمله يصعد إلى السماء كلَّ يوم؛ فكما تؤتي الشجرة أكلها كلَّ حين كذلك المؤمن يعمل للّه في ساعات الليل والنهار"[6]، وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ "نُصِبَ بِمُضْمَر، أي: جَعل كلمة طيّبة كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، وهو تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: شرّفَ الأميرُ زيدًا، كَساهُ حُلَّةً، وحَمَلَه على فرسٍ، ويجوز أن ينتصب ﴿مَثَلًا﴾ و﴿كَلِمَةً﴾ بـ ﴿ضَرَبَ﴾، أي: ضرب كلمة طيبة مثلًا، بمعنى: جعلها

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/285.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/489.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/388.

مثلًا، ثم قال ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوف، بمعنى هي كشجرة طيبة"[1].

الغرض من وصف الكلمة بوصف ﴿طَيِّبَةً﴾:

وراء الكلمة الطيّبة إيمانٌ راسخ، ونفسٌ تَنْشُر الطِّيب في الخَلْق

في وصف الكلمة بالطيّبة "دليلُ الإيمان الثابت في قلب المؤمن، الذي يرفع به عمله إلى السماء"[2]، "وتشبيهُ الكلمة الطيّبة بِالشجرة الطيّبة لأنها ثابتة في القلب كثبوت أصل النخلة في الأرض، فإذا ظهرت عَرَجَتْ إلى السماء كما يعلو فرع النخلة نحو السماء؛ فكلَّما ذُكرت نفعت كما أنَّ النخلة إذا أثمرت نفعت"[3]. وفي وصف ﴿طَيِّبَةً﴾ "استُعير الطِّيب للنفع؛ لِحُسن وقْعه في النفوس كوقع الروائح الزَّكِيَّة"[4].

وفي المقصود بـ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ تآويل غزيرة ثريّة، منها أنَّها "هذا القرآن... شبَّه القرآن بالشجرة الطيّبة؛ وهي النخلة على ما ذكر إن ثبت، أو كلّ شجرة مثمرة"[5]، "وقال بعضهم: الكلمة الطيّبة: هي الإيمان والتوحيد؛ شَبَّهَها بالشجرة الطيّبة؛ وهي التي تُثمر، وتنمو، وتَزكو، هي على ما وصفها ﷻ في قوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؛ فعلى ذلك الإيمانُ والتوحيدُ لا يزال يُثمر لأهله الخيراتِ والأعمالَ الصالحات، كالشّجرة التي وَصَفَها أنَّها تؤتي أهلَها أُكُلَها في كلِّ حين وكلِّ وقت، أصْلُها ثابتٌ بالحُجَج والبراهين، وفرعها في السماء، في كلِّ وقتٍ يرتفع، ويصعد به العمل إلى السماء"[6]. و"قال ابن عباس: يريد لا إله إلا اللّه، وهو قول الجميع"[7]، وعلى الجملة فـ (الكلمة الطيّبة) "هي كلُّ كلمة جاءت من واردات الحقّ، والخير...

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/552.
(2) حجازي، التفسير الواضح: 2/259.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/131.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.

وكلمة (لا إله إلا اللّه) هي مَجْمَعُ كلِّ كلمةٍ طيّبة، فمن لم تَسكن نفسه إلى هذه الكلمةُ، لا يجيءُ منه طِيبٌ أبدًا"[1].

الغرض من حذف المسند إليه المقدّر (هي):

البيان القرآنيّ يُرَكِّز على ذِكر المعاني الأهمّ، ويبكِّر إليها

حُذِف المسند إليه في عبارة التّمثيل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ إذ التّقدير: كلمة طيّبة هي كشجرة طيّبة؛ وذلك طيًّا للعبارة ومبادرةً إلى المشبّه به العامر بالخير ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وما دامت القرينة متوفِّرة والمعنى جليًّا فلا حاجة إلى ذِكر الضمير المشبَّه (هي)، فعجَّل إلى ذِكر المشبَّه به (الشجرة الطيبة) التي "ينتفع بها الناس بجميع أنواع المنافع، ولا يقطعونها؛ فهي تدوم وتبقى دهرًا، فعلى ذلك القرآنُ ينتفع به الناس وهو دائم أبدًا"[2].

دلالة التّشبيه بالكاف في لفظ: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾:

الكلمة الطيّبة يسيرة، لا كُلفة فيها، ولا عناء في التزامها

مع أنَّ النّظم الكريم يصرِّح بأنَّ هذا مَثَلٌ، وحقُّ المَثَل أن يُعقَد بين طرفيه بالاسم (مِثْل)، وقد آثر أداة التشبيه الخاطفة (الكاف) فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ وفي ذلك إلماحٌ إلى يُسر القضيّة، وسهولة الأمر على العباد، "والكاف في قوله: كَشَجَرَةٍ في موضع الحال، أي: حالةَ كونها مشبهة شجرة..."[3].

الغرض من تنكير المسند ﴿كَشَجَرَةٍ﴾:

النّوع ليس غاية في ذاتـه، وإنّما المهمّ في الصّفة الّتي يوصف بها

تنكير المشبَّه به ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ يفيد عموم الأشجار الطيّبة؛ فكلُّ شجرة طيّبة مثالٌ للكلمة الطيّبة في النفع بالظلّ، والثَّمر، والخُضْرَة، والجمال، وما إلى ذلك، و"كلُّ شجرة مثمرة طيّبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمّان وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول اللّه ﷺ قال ذات يوم: "إن اللّه ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي" فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًّا، فوقع في قلبي

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/171.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/335.

أنَّها النخلة، فَهِبْتُ رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم... فقال لي عمر: (يا بُنيَّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليَّ من حُمْرِ النَّعِم)، ثم قال رسول الله ﷺ "ألا إنَّها النخلة" وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (شجرة في الجنة)"(1).

الغرض من وصف الشّجرة بـ ﴿طَيِّبَةٍ﴾:

لا يـوَفِّي الكلمةَ الطّيبةَ حقَّها، إلّا الـشّـجـرة الطّيبةَ

التّشبيه بالـ ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ بلا وصفٍ دليل خيريَّتها، وعِظمها، وجمالها، وخضرتها، وروائها... إلخ. ومع ذلك وصفها البيان القرآنيّ بالطّيّبة لِتوَفِّي الكلمة الطّيّبة حقَّها تمام الوفاء؛ لأنَّ المشبّه هنا عظيم الثَّراء في كلِّ الجوانب؛ فاحتاط التشبيه هنا بذكر الوصف ﴿طَيِّبَةٍ﴾ من أيّ وَهْم يَحتمله العقل لـ ﴿كَشَجَرَةٍ﴾؛ لأنَّه قطعًا سينعكس على المشبَّه به الـ ﴿كَلِمَةً﴾ الـ ﴿طَيِّبَةً﴾ وقد اجتهد العلماء في تحديد الشجرة الطيِّبة التي ستمثِّل الكلمة الطيِّبة، فتنوَّعت تأويلهم إلى: "أنها النخلة... وأنَّها شجرة في الجنة"(2)، وأنَّها "المؤمن"(3).. وقالوا إنّ "أكثر الشجر الطيِّب طِيبًا هو ما كثُر خيرُه، واتَّصل عطاؤه، وقلّ الجهد المبذول في تنميّته وتثميره، ولعلَّ (النخلة) أطيب شجرة وأكرمها، وأقربها وفاءً بهذه الصفات التي وصف الله سبحانه وتعالى بها تلك الشجرة الطيِّبة"(4).

بلاغة التّشبيه التّمثيلّي، في السّياق:

تحقيق التّصوير البيانيّ، كأنّما يـــشـــخّـــص أمـام المخاطب بالسّياق القرآنيّ

في تشبيه الكلمة الطّيّبة بالشّجرة الطّيبة الّتي أصلها ثابت وفرعها في السّماء...تشبيه تمثيليّ لحالة منتزعة من عدّة أوصاف وأحوال، ومن شأن هذا التّشبيه أن يحقّق التّصوير البيانِيّ له كأنّه يجري أمام القارئ المتدبّر.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/553.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/171.

دلالة فصل ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ ممّا قبلها:

بسط صفات الموصوف، بيان لقدره

"قوله: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾: هذه الجملة صفة ﴿كَشَجَرَةٍ﴾"[1] "أصلها ثابت لها قرار، فالفصل لكمال الاتّصال، فعلى ذلك: القرآن هو ثابت بالحجج والبراهين"[2] وفي بسط صفات الموصوف بيان لعظمته وكشف عن جماله ومقداره.

سرُّ التّعبير بالجمل الاسميّة في الآية:

الكلمة الطّيبة، لا يتغيّر خيرها إلى شرٍّ مطلق، ولا يتحوّل

قوله تعالى: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾: فيه إيثارُ التّعبير في الصفة بالجُمَل الاسميّة: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دليل على ملازمة تلك الصفات للشجرة، وذلك يعود على الكلمة الطّيبة ببيان المقصود؛ فصفاتها الطيِّبة ليست طارئةً عليها، ولا قابلة للتّغيُّر إلى الخُبْث، ولا إلى الزّوال عنها بالكلّية، واللّه تعالى أعلم.

سرُّ تعريف المسند إليه بالإضافة:

الكلمة الطيّبة راسخة لا تتزلزل في قلب المؤمن

أصل الشّجرة هو جذرها[3]، وقاعدتها التي تَشُدُّها، وتثبِّتها في الأرض، وعليها تتّكِئُ الشجرة، ولولاه لاهتزَّت وزالت بالمَرَّة، ولكي تُناسبَ الشجرةُ - (المشبَّه بها) - الكلمةَ الطيِّبةَ (المشبَّهة) - يُشتَرَط أن يكونَ أصلها الضارب في أعماق الأرض نفسُه ثابتًا راسخًا؛ وفي ذلك كنايةٌ عن ثبات الشجرة وعدم اهتزازها؛ وكلُّ ذلك يكشف عن تغلغل الكلمة الطيِّبة (المشبَّهةِ) في نفس المؤمن، وعدم اهتزاز يقينه بها.

دلالة المسند ﴿ثَابِتٞ﴾ اسم فاعل:

في الإخبار بثبات الأصل المحبوب، تَتِمَّةُ إسعاد صاحبه

صياغة الخبر ﴿ثَابِتٞ﴾ اسمَ فاعلٍ يناسب معناه، فصيغة اسم الفاعل تَدلُّ على الثبوت والدوام، ومادّته ﴿ثَابِتٞ﴾ صريحة كذلك

(1) الأنصاري، إعراب القرآن العظيم المنسوب لزكريا، ص: 354.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.

في الثبات والدوام، فناسبتْ صيغة اللفظ معنى مادته اللغوية، ولا أدقّ من هذا فصاحةً وبيانًا، ولعلّ في ذلك للمؤمنين بشارة بأنَّ كلمة التوحيد (لا إله إلا اللّه) الراسخة في قلوبهم لن يُزلزلها شيء - إن شاء اللّه تعالى -، وأنها ستَجْنِيهم الخيرَ كلَّه، عاجلًا وآجلًا.

وثبات أصل الشّجرة يعني في الأرض[1]، وثبات الكلمة الطيِّبة يعني في القلب، فهو "راسخٌ باقٍ آمنُ الانقلاع، والانقطاع، والزوال، والفناء؛ وذلك لأنَّ الشيء الطيِّب إذا كان في معرِض الانقراض والانقضاء فهو وإن كان يَحصُل الفرح بسبب وُجْدانه إلّا أنَّه يعظُم الحُزن بسبب الخوف مِن زواله وانقضائه، أما إذا عُلم مِن حاله أنه باقٍ دائمٌ، لا يزول ولا ينقضي فإنَّه يعظُم الفرح بِوُجْدانه، ويكمُل السرورُ بِسبب الفوز به"[2].

سرُّ تقديم جملة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ على ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

لكل فرعٍ سامق، ممتدّ الأواخي والأفنان، أصل راسخ الجذور في الأعماق

في ترتيب المعاني القرآنيّة أسرار ولطائف، منها تقديم السبب على المسبَّب كما هنا؛ فجملة الصّفة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾، سببٌ في افتراع الفروع وشموخها، فكلَّما كان أصل الشجرة راسخًا ضاربًا بجذوره في أعماق الأرض كلَّما كانت فروعها باسقة شامخة في جوّ السماء؛ لذلك بَنى النظم الكريمُ على ثبات الأصل وسموِّ الفرع، فقال تعالى: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ولن يكون فرعها باسقًا في السماء من غير أن يكون له سَنَدٌ ثابت في الأرض، وجاء النّسق على هذا الحال بدءًا بالأصول وانتهاءً بالفروع، مراعاة للترتيب في الممثَّل به.

دلالة الواو العاطفة في جملة: ﴿وَفَرۡعُهَا﴾:

فـرع الـشّيء يَحمِل خصائصه في المعتاد

الواو في جملة: ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ عاطفة على جملة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾؛ فكلتاهما صفةٌ لـ ﴿كَشَجَرَةٍ﴾، وبهما اتَّضح الرسوخ والشموخ، وتكاملا على بيان غَناء الشجرة بالخيرات المطلوبة من

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.

الشجرة الطيِّبة، فقوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ "يدلُّ على كمال حال تلك الشجرة من وجهين: الأول: أنَّ ارتفاع الأغصان وقوَّتها في التّصاعد يدلُّ على ثبات الأصل ورسوخ العروق. والثاني: أنّها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عُفونات الأرض وقاذورات الأبنيّة؛ فكانت ثمراتُها نقيَّةً ظاهرةً طيِّبة عن جميع الشوائب"(1).

سرُّ التّعريف بالإضافة في الجملة المعطوفة:

الكلمة الطيّبة في قلب المؤمن، فارعة الامتداد، عميقة التّجذّر

"الفرع: ما امتدَّ من الشّيء وعَلا، مشتقٌّ مِن الافتراع - وهو الاعتلاء - وفرعُ الشجرة غصنُها"(2)، و"فرعُ كلِّ شيءٍ: أعلاه، وتفرَّعت أغصانُ الشجرة: كبرت"(3)؛ و"يَجوز أن يُريد: وفروعها؛ على الاكتفاء بلفظ الجنس"(4) فكما عرَّف الذِّكرُ الحكيم ﴿أَصْلُهَا﴾ بالإضافة لتمييزه بمزايا الشجرة الطيِّبة، ولإضفاء خَصيصَة الشجرة الطيِّبة عليه - كذلك عرَّف ﴿وَفَرْعُهَا﴾ بالإضافة تمييزًا له بمزاياها، وإضفاءً لخصائصها عليه؛ إذ المضاف يكتسب من المضاف إليه؛ فتعريف الفرع بالإضافة يمنحه طِيبًا من طيبها، ويُضفي عليه خصوصيّتها المباركة، فهو فرع محمَّل بالخيرات، باسقٌ نحو الأعالي.

دلالة حرف الجرّ ﴿فِي﴾ على الظّرفيّة:

فضائل الكلمة الطّيبة تسمو بصاحبها، كالشّجرة نحو السّماء

معنى حرفِ الظرفيّة في المسند ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: "في جهة العُلوّ والصعود، ولم يُرِدِ المظلَّة، كقولك في الجبل: طويلٌ في السماء تُريد ارتفاعَه وشموخه"(5)؛ فليس المقصود به الظرفية، بل الجهة والناحية "أي: نحو السماء"(6)، و"في الهواء..."(7).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/591.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 8/590.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/553.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/335.

سرُّ تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

الكلمة الطيّبة فيها معاني الشّموخ والرّفعة

المقصود بتعريف السّماء في مسندِ جملةِ ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: السماءُ الحقيقيّة، لا السماءُ بمعناها اللغوي كما قالوا: "السماء: كلُّ ما علاك فأظلّك"[1]؛ لأنَّ المقصود في الآية شموخُ الفرع نحو السماء العالية لا الأسقف الدانية. و"ذلك مما يزيد الشجرة بَهْجَةً وحُسْنَ منظر"[2]، وينعكس على الكلمة بالإبانة عن المقصود من شرافتها، وسموّها، ووفرة خيراتها، واللّه تعالى أعلم.

دلالة التّشبيه في الآية الكريمة:

الكلمة الطيّبة تنضح على اللّسان، وتثمر في عمل الأبدان

آثر البيان القرآنيّ "التّشبيه التّمثيلي في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فقد ذكر تعالى في هذا التشبيه شجرةً موصوفة بأربع صفات، ثم شبَّه الكلمة الطيبة بها: الصفة الأولى: ﴿طَيِّبَةٍ﴾ والثانية: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ والثالثة: ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ والرابعة: (دائمة الثمر) ووجه الشبه في تمثيل الإيمان بالشجرة أنَّ الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وفرع عالٍ. كذلك الإيمان لا يتمّ إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان، فوجود الصفات الثلاث في جانب المشبَّه به حِسِّيَّةٌ بينما هي في جانب المشبَّه معنويّة"[3]؛ وبذلك أحال النّظمُ الكريم المعنى إلى حِسٍّ؛ فتمَّ البيان.

الغرض من التّشبيه في سياق الآية الكريمة:

تشبيه الكلمة الطّيبة بالشّجرة الطّيبة، تشويق إليها، وإغراءٌ بها

في الأمثال القرآنية "زيادةُ فَهْم وتذكير؛ لأنَّها تُخرِجهم مِن دائرة المعقول إلى المحسوس، ومن دائرة المعنى الجَلِيِّ الذي لا يَشكُّ فيه أحدٌ، كلُّ ذلك لَعَلَّهم يتذكَّرون ويتَّعظون"[4]، وفي هذه

(1) الجوهري، الصحاح: (سمو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/185.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/259.

الآية الكريمة صورة تشبيهية مبينة؛ حيث اشترطت في المشبَّه به أوصافًا دقيقة تنعكس على المشبّه بالتحرير والإبانة، "ضرب اللّه ﷻ للإيمان به مثلًا... فجعل مَثل المؤمِنِ في نُطْقِه بِتَوْحِيده والإيمان بِنَبِيِّه واتِّباع شريعته - كالشجرَة الطيِّبة؛ فجعل نَفْع الإقامة على توحيده كنَفْعِ الشجرة الطيِّبة التي لا ينقطعُ نفعُها وثمرها، وجاء في التفسير أنَّ الشجرةَ الطيِّبةَ النخلةُ، والدّليلُ على أنَّ هذا المثلَ يُراد به توحيدُ اللّه تعالى، والإيمانُ بنَبيِّه وشرِيعَتِه قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]"[1] وقد "جعل اللّه تعالى هذه المحسوسات والأشياء الظّاهرة دليلًا وشاهدًا لِما غاب عنهم ولا يقع عليه الحِسُّ"[2].

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/160.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/388.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ [إبراهيم: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تمثيل الكلام الطَّيب بالأشجار؛ أعقبه ببيان إتيانها بالثِّمار

لمّا بيَّن النَّظم الجليل في الآية السّابقة مَثَلَ الكلمة الطَّيبة؛ أتمَّ بيان ذلك التَّمثيل، فلمّا ذكر هناك حالها؛ ذكر هنا ثمرتها(1)، فبعد أن بيَّن هناك كونها ثابتةَ الأصل، وفرعها شامخ في السَّماء؛ أتبع ذلك ببيان أنَّها مثمرة؛ ليتمَّ التَّمثيل على أتمِّ تصويرٍ، فأكمل هنا بيانَ المشبَّه به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُكُلَهَا﴾: أصلُ (أكل): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، ومعناها: التَّنَقُّصُ، قالَ الخَليلُ: الأَكْلُ معروفٌ، والأَكْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ حتَّى يَشْبَعَ، والأُكْلَةُ اسْمٌ كاللُّقْمَةِ(2). والأُكُلُ: بِضَمِّ الهَمْزَةِ والكافِ هو المأكولُ، والأُكُلُ أيضًا: طُعْمَةٌ كانَتِ المُلوكُ تُعْطيها الأشرافَ، وهو كذلك: الرِّزق، والجَمْعُ آكالٌ(3). والإِكْلَةُ: هَيْئَةُ الأكْلِ(4)، والأكولَةُ: الشّاةُ تُرْعَى للأكْلِ لا لِلبَيْعِ والنَّسْلِ(5). والمقصود بالأُكُلِ في الآية: المَأْكول، مع اختلاف طعومه وتفاضله.

2) ﴿حِينٍ﴾: أصْلُ الحيْن يدلُّ على الزَّمانِ، فالحينُ الزَّمانُ قليلُهُ وكَثيرُهُ(6). قالَ الرّاغِبُ: الحينُ وقْتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/411.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حين).

مُبهَمُ المَعْنى، ويَتَخَصَّصُ بالمُضافِ إلَيْه، ومَنْ قالَ: (حيْن) تأْتي على أوْجُهٍ: للأجَلِ، والسَّنَة، وللسّاعَة، وللزَّمان المُطْلَق؛ فإنَّما فسَّرَ ذلِكَ بحَسَبِ ما وجدَ وعلقَ به[1]، وقالَ الفَرّاءُ: الحينُ حينانِ، حينٌ لا يوقَفُ عَلَى حَدِّه، وهو الأكْثَرُ، وَحينٌ ذَكَرَهُ اللّه تَعالَى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾. وهذا مَحْدودٌ؛ لأنَّهُ سِتَّةُ أشْهُرٍ[2]، وأمّا المَحْمولُ على هذا؛ فَقَولُهُم للهَلاكِ: حَيْنٌ، وهو مِنَ القياسِ؛ لأنَّهُ إذا أتَى؛ فلا بُدَّ لَهُ مِنْ حين، فكأنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ المَصْدَرِ[3]. والمقصود بـ ﴿حِينِۭ﴾ في الآية: المُدَّةُ مِنَ الزَّمَن.

3) ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: أصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[4]. ويُستَعمَلُ للتَّسويَةِ بين شَيئَيْن، يُقال: هذا مِثْلُهُ ومَثيلُهُ، كما يُقال: شِبْهُهُ وشَبيهُهُ، ويأتي بمعنى نَفْسِ الشَّيْءِ وذاتِه[5]. وَضَرْبُ المَثَلِ: نَظْمُ تَرْكيبِه الدّالِّ عَلَى تَشْبيهِ الحالَةِ[6]. والمقصودُ بـ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في الآية: جَمْعُ مِثْلٍ، وهو المُماثِلُ المُساوي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ضَـرْبُ الأمثال تقريبٌ للبعيد، وتقريرٌ للقريب، وتصويرٌ للمعاني المعقولة بالصّور المحسوسة

ضرب اللّه مثلًا للكلمة الطَّيبة - وهي كلمة التَّوحيد والإسلام ودعوة القرآن - بالشَّجرة الطَّيبة، وهي النَّخلَة، فقال سبحانه: تُخرِجُ هذه الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ ثَمَرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا في كلِّ وقتٍ وساعةٍ مِن ليلٍ ونهارٍ، وصيفٍ وشِتاءٍ، بمَشيئةِ خالِقِها وأمْرِه وتيسيره، وكذلك كَلِمةُ التَّوحيد؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ الصّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ

(1) الرّاغب، المفردات: (حين).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/45.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (مثل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.

حين، ويمثِّلُ اللّهُ الأمثالَ للنّاسِ، ويُشبِّهُ لهم الأشْباهَ، ويُبيِّنُها لهم؛ ليتذَكَّروا حُجَّةَ اللّه عليهم، ويَفهَموا ما أراد اللّهُ منهم، فيتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع الجملة مما قبلها ودلالتُهُ:

تمام أوصاف الشَّجرة لا يتمُّ إلّا بذكر الإثمار

تنتظم الجملة في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ مع الجمل السّابقة بكونها سيقت لبيان صفات الشَّجرة التي شُبِّهَت بها الكلمةُ الطَّيِّبة، "فقد ذكر تعالى في هذا التشبيه شجرة موصوفة بأربع صفات، ثمَّ شبَّه الكلمة الطيِّبة بها، الصِّفة الأولى: كونها طيِّبة، والثّانية: كون أصلها ثابتًا، والثّالثة: كون فرعها في السَّماء، والرّابعة: كونها دائمة الثَّمر"(2). وذلك لأنَّ الشجرة لا تكون إلّا بثلاثة أركان: جذور راسخة، وأصل قائم، وثمر دائم، وكذلك حال المشبَّه، وهو الإيمان؛ فإنَّه لا يتمُّ إلّا بثلاثة أركان: التَّصديق بالقلب، والقول باللِّسان، وثمرة ذلك الأعمال، فذكر هذه الصِّفات من تمام التشبيه، فأعقب ذلك بجملة بيان الإثمار في تلك الأشجار.

بلاغة المجاز في إسناد الإيتاء إلى الشَّجرة:

إسناد الفعل إلى غير الفاعل مجاز عقليٌّ اعتبارًا بمشاهدة العين

أسند النَّظم الجليل فعل الإيتاء إلى الأشجار في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾، فهو من المجاز العقليِّ؛ إذ إنَّ الأشجار لا تؤتي الأُكُل، فأسند فعل الإيتاء إلى غير فاعله الحقيقيِّ؛ وإنَّما الفاعل هو اللّه تعالى(3)، وإنَّما أسند الفعل إلى الأشجار لما جرت عليه العادة من رؤية ذلك يظهر من فروعها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/635، والواحدي، التفسير البسيط: 12/468، والزمخشري، الكشاف: 2/553، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 425.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/185.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/187.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُؤۡتِيٓ﴾:

إعطاء الأثمار دائمٌ غير منقطع تعبيرًا عن دوام فوائد الكلمة الطَّيِّبة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا﴾ تعبيرًا عن الإتيان بالإثمار، لما في الفعل المضارع من دلالة على التَّجدُّد والدَّوام، فالصِّفة في الشَّجرة المشبَّه بها أنَّها دائمة الإتيان بثمارها لا تتخلَّف عمّا عوَّدت النّاس عليه، وهذا من حسن الأوصاف، وكذلك الكلمة الطَّيبة دائمة الفائدة.

سرُّ الإضافة في ﴿أُكُلَهَا﴾:

من حسن صفات الأشجار دوام حسن ثمارها

أورد النَّظم الكريم لفظ الأكل في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا﴾ مُضافًا إلى الضَّمير العائد إلى الشَّجرة، فهو أكل خاصٌّ بها، وفي هذه الإضافة مدح وثناء على الشَّجرة؛ فهي تأتي بالأكل المعهود منها لا يتغيَّر، ولا يوصف بغير ما يوصف به على الدَّوام، ومن حسن أوصاف الأشجار أنَّها تأتي بالثَّمر على وفق ما يراد منها، وما تعوَّد النّاس عليه.

غرض تقييد الفعل بالزّمن المستمر ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾:

دوام البركة وجودة الثَّمرة بمجيئها في وقتها

قيَّد النَّظم الجليل إتيان الشَّجرة بثمرها بأنَّه كائنٌ في كلِّ وقت في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ تعبيرًا عن إيفائها بثمرها في الوقت الذي وقَّته اللّه تعالى لإثمارها[1]، وليس المراد أنَّها تؤتي ذلك في زمان، فهي إنَّما تؤتي في وقت دون وقت، فيكون المعنى: أنَّها كشجرة لا تنقطع عن الإتيان بالأكل في الأوقات المعلومة[2]، وهذا يدلُّ على الثَّبات في العطاء، فهو تشبيه لبيان جودة تلك الكلمة الطَّيِّبة، فهي مثل شجرةٍ بالغة الجودة لا تقصر في الإيفاء بثمرها، فهو يجتنى في كلِّ وقت، فلا تنقطع بركاتها وخيراتها[3].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/553.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/336.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/314.

دلالة القيد بشبه الجملة ﴿بِإِذۡنِ﴾:

مــن كـمــال الـجـودة ثباتُها عـلـى مـا خُلقت له متابعة سنَّة ربِّها

أتمَّ النَّظم الجليل وصف الشَّجرة بصفات الكمال والجودة بأن جعل إثمارها مقيَّدًا بإذن اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾؛ إذ إنَّ الشَّيء يكون بالغًا بصفات الجودة على وفق ما في صاحبه من كمال، فلمّا "كان الشَّيء لا يكمل إلّا بكمال مربيه؛ قال: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾، فهي بحيث لا يستجيز عاقل أن يتسبَّب في إفسادها، ومَن سعى في ذلك منعه أهل العقول، ولو وصلوا إلى بذل النُّفوس"(1)، فهي لا تخالف سنَّة ربِّها في توقيت إثمارها؛ وفي ذلك دليلٌ على كمال جودتها وحسن وصفها، فهي خالية من صفات الخبث والرَّداءة بأيِّ حال من الأحوال.

سرُّ الإضافة إلى الربوبية ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾:

مــن تـمــام الــكــمــال في حسن الأوصاف نـسـبـتـهـا إلى كمال خالقها

أضاف النَّظم الجليل لفظ الرَّبِّ تعالى إلى ضمير الشَّجرة في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ لبيان أنَّ شأنها كلَّه كائنٌ على وفق إرادة الخالق تعالى الّذي أوجدها وخلقها(2)، وإضافة لفظ الرَّبِّ إلى شيء ما في سياق الثَّناء تشير إلى كمال المُضاف إليه، فإنَّ الشَّيء لا يكمل كماله إلّا بكمال موجِده.

دلالة الواو في ﴿وَيَضۡرِبُ﴾:

الاعــتراض قبل مقابلة التَّمثيلَيْن دعـوة للاعتبار بالأمثال

أدخل النَّظم الجليل الجملة الاعتراضيَّة في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بين المثلَين، مصدَّرة بواو الاعتراض(3)، والغاية من ذلك التَّنبيه على عظم هذا المثل ليقبل النّاس على تفهُّم المراد منه، داعيًا إيّاهم إلى تدبُّره ومعرفة غايته، فيلزمون ما يدركون منه(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 10/412.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/412 - 413، والمراغي، تفسير المراغي: 13/149.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيَضۡرِبُ﴾:

ضربُ الأمثال للبيان سُنَّةٌ من سُنن الجليل لا تنقطع

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ للدَّلالة على أنَّ ذلك من سنَّته ﷻ في خلقه، فهو يبيِّن لهم بما تعاهدوه من وسائل البيان، ومن ذلك ضرب الأمثال، فجرت إليهم الأمثال في كلِّ زمان لا تنقطع عن البيان الذي كفله الله تعالى لعباده، يفصح عن ذلك دلالة الفعل المضارع على التَّجدُّد والدَّوام.

دلالة الإسناد إلى الاسم الجليل:

نسبة الفعل إلى الجليل تعظيم لشأنه وتفخيم لأثره

أسند النَّظم الجليل فعل ضرب الأمثال في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إلى لفظ الجلالة، للدَّلالة على أنَّ الّذي يضرب هذه الأمثال مَن له الإحاطة الكاملة[1]، والغرض من ذلك تعظيم ضرب الأمثال، وفيه إيماءٌ إلى كفاية هذه الأمثال في البيان والتَّبليغ؛ لكونها صادرةً من المولى تعالى جدُّه، فهي واردة على الغاية القصوى من البيان، فتنتفي بعدها حُجج المكذِّبين بغياب البيان.

دلالة التَّعبير بالمفعول به جمعًا مُعرَّفًا:

أكثر القرآنُ من الأمثال لبلاغتها في الإيفاء بالبيان

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الأمثال بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ للدَّلالة على أنَّ الأمثال كثيرة، والكثرة تشير إلى كون ذلك منهجًا متَّبعًا، فتتابع الأمثال لغاية الكشف والبيان، فإنَّ "الأمثال لدى العرب هي الطريق المتَّبع، لإيضاح المعاني؛ إذا أريد تثبيتها لدى السامعين، والقرآن الكريم مليء بها، والسُّنّة النَّبويّة جرت على منهاجه، فكثيرًا ما تُتبَع المسائل المُهمّة بضرب الأمثال لها، لتستقرَّ في النفوس، وتُنقَش في الصدور"[2]، فيشير الجمع إلى أنَّ الأمثال أسلوب كثير الورود في ثنايا الكلام،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/413.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 13/148.

وتعريف هذه الأمثال يشير إلى أنَّها معهودة، فالقرآن اتَّخذ من ذلك وسيلة معهودة متكرِّرة فيه.

غرض تقييد الفعل بشبه الجملة ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تحديد المخاطَب بالقول من كمال البيان

قيَّد بليغ المنظوم ضرب الأمثال بأنّه كائن للنّاس في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الغاية الرَّفيعة من ذلك، وهي أنَّ الله تعالى قصد بها جميع عباده، صالحهم وغير صالحهم، وهذا ينفي عبثيَّة إيراد الكلام، فإنَّ القائل يقصد من كلامه أحدًا ما، فالآية تبين أنَّ المخاطَب بهذه الأمثال عموم النّاس، فهو خطاب شامل عامٌّ لا يخصُّ أحدًا ما دون أحد، فقد جرت العادة أن يحدِّد صاحب الكلام المخاطَب بكلامه، فتقييد ضرب الأمثال في الآية بكونه للنّاس يشير إلى أنَّ المقصود بالكلام هم النّاس جميعًا.

سرُّ التَّعبير بالنّاس بدل المؤمنين:

ضرب الأمثال للتَّذكير عامٌّ للنّاس جميعًا

جعل النَّظم الكريم ضرب الأمثال كائنًا للنّاس دون المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الغاية من ذلك أن يكون البيان بالتَّمثيل للنّاس جميعًا، وليس خاصًّا بالمؤمنين، وضربُ المثل وارد في القرآن، يسمعه المؤمن وغير المؤمن، وليس في اختصاص ذلك بالمؤمنين من مزيَّة؛ بل المزيَّة في تحقيق التَّذكُّر بالمثل والانتفاع به، فذلك يختصُّ بفئة من النّاس، أمّا ضرب المثل؛ فهو عامٌّ لجميعهم، فجاء التَّعبير بالنّاس دون المؤمنين لبيان ذلك العموم.

غرض التَّعبير بالفاصلة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

رجاء تحقُّق الذِّكرى هو العلَّة والمقصد من ضرب الأمثال

الجملة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ استئنافيّة استئنافًا بيانيًّا[1]، جيء بها إجابة لسؤالٍ نشأ عن البيان السّابق، فكأنَّه قيل: لماذا يضرب الله تعالى الأمثال للنّاس؟ فقيل: "رجاء تذكُّرهم، أي:

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/185.

تهيئة التذكُّر لهم"[1]، وفيه إشارة إلى أنَّ المراد من ضرب الأمثال، وإيرادها بصور مختلفة، إنَّما هو لغاية التَّذكير للعباد، فالمرجوُّ من ذلك هو تحقيق الذِّكرى.

غرض التَّعبير بأسلوب التَّرجّي:

يُنزَّل الرَّجاء في القرآن منزلةَ الواعظ المشفق فليس كمِثْلِه سبحانه محبٌّ لعباده

جعل النَّظم الكريم الغايةَ من ضرب الأمثال رجاءَ تذكُّر النّاس، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ومعنى الرَّجاء لا يصحُّ إسناده للّه تعالى، فيكون المعنى: يضرب اللّه تعالى الأمثال لعباده ليكون حالهم كحال من يرجى له التَّذكُّر[2]، "فالرّجاء ليس من اللّه تعالى الذي يعلم كلَّ شيء، ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السّماء"[3]. فإنَّ اللّه تعالى يخاطب النّاس في القرآن على وفق ما جرت عادتهم في التَّعبير، فالشَّخص المحبُّ للنّاس يقف واعظًا للنّاس، راجيًا من ذلك أنْ يفقهوا، ويؤمنوا، فخطاب الرَّجاء في القرآن منزَّل منزلة خطاب ذلك المحبّ الحريص على هداية النّاس يرجو لهم الفقه والإيمان.

دلالة التَّعبير بخبر لعلّ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾:

ضرب الأمثال متجدِّد وما يرجى منه متجدِّد بالضَّرورة

جيء بخبر حرف الرَّجاء جملة فعليَّة فعلها مضارع في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ للدَّلالة على ضرب الأمثال، يُرتجى منه تحقُّق التَّذكُّر على وجه الدَّوام والاستمرار، أي: يُرتجى من تلك الأمثال دوام تذكُّرهم وتجدُّده، لا سيَّما، وأنَّ ضرب الأمثال عبَّر عنه بالفعل المضارع في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ فلمّا كان ضرْبُ الأمثال متجدِّدًا؛ كان ما يرجى من ذلك الضَّرب المتجدِّد هو التَّذكُّر الدائم المستمرُّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/413.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4021.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(تؤتي) و(تعطي):

الإيتاء أثبت وأبلغ في إيصال الشَّيء

جاء في البرهان للزَّركشيِّ: "إنَّ الإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له مطاوع، يُقال: أعطاني، فَعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإتيان: أتاني، فأتيتُ، وإنَّما يُقال: آتاني، فأخذْتُ، والفعل الذي له مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الّذي لا مطاوع له؛ لأنَّك تقول: قطعته، فانقطع، فيدلُّ على أنَّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قَبول المحلِّ، ولولاه لما ثبت المفعول، ولهذا يصحُّ: قطعْتُه فما انقطع، ولا يصحُّ فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربتُه، فانضرب، أو ما انضرب، ولا: قتلتُه، فانقتل، أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعال إذا صدرت من الفاعل؛ ثبت لها المفعول في المحلِّ، والفاعل مستقلٌّ بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإيتاء إذًا أقوى من الإعطاء"[1]، وفي الآية الكريمة عبَّر بالإيتاء؛ لأنَّ إيتاء الثَّمر دائمٌ ثابت كلَّ حين.

(أُكُلها) و(ثمرها):

أُكُل الأشجار أخصُّ من ثمارها لدلالته على صلاح الأكل

الأُكُل: الشَّيءُ المأكولُ، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35]؛ أيْ: مأكولُها، وقوله: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]، أي: ما تُثمرُه، فيؤكَلُ[2]. وأمّا الثَّمر؛ فهو شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا[3]، وهو: حَمْلُ الشَّجَرِ، وأنواعُ المالِ. والولدُ: ثَمَرَةُ القَلْبِ[4]. فالثَّمر لفظ عامٌّ بحمل الأشجار، وما يتولَّد منها في النتيجة، أمّا الأُكل؛ فهو ما يؤكَل، وفي الآية آثر النَّظم الجليل التَّعبير بالأُكل دون الثَّمر؛ لأنَّه يتضمَّن التَّصريح بصلاح الثَّمر لأن يؤكل، فهو أخصُّ من الثَّمر؛ إذ ليس كلُّ ثمرة

(1) الزّركشي، البرهان: 4/85.
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (أكل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمر).
(4) ابن منظور، اللسان: (ثمر).

صالحة للأكل، وهذا أنسب في التَّمثيل بالشَّجرة الطَّيِّبة، فمن تمام كمالها أنَّ ثمرها مأكول مستساغ.

(حين) و(وقت):

الحــين زمــان حصول الشَّيء، والـوقــت حـدُّ الــشَّيء زمـانًـا ومكانًا

الحين في الأصل الزَّمانُ، فهو الزَّمانُ قَليلُهُ وَكَثيرُهُ(1). ويتعيَّن بأنَّه وقت بلوغ الشَّيء وحصوله، وهو مبهم المعنى، ويتخصَّص بالمضاف إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص: 3](2)، أمّا الوقت؛ فهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَدِّ شَيْءٍ وَكُنْهِهِ في زَمانٍ وَغَيْرِهِ، مِنْهُ الوَقْتُ: الزَّمانُ المَعْلومُ(3). وهو: مقدارٌ مِنَ الزمانِ، وكلُّ شَيْءٍ قَدَّرْتَ لَهُ حيناً، فَهوَ مُؤَقَّتٌ(4)، وهو: نهاية الزّمان المفروض للعمل(5)، فيلاحظ أنَّ الحين هو الزَّمان، ويختصُّ بأنَّه زمان حصول الشَّيء، أمّا الوقت؛ فهو لا يختصُّ بالزَّمان؛ بل بكونه حدًّا لشيء وضع له وقت أو غير وقت، وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الجليل التَّعبير بالحين تعبيرًا عن زمان حصول إثمارها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(2) الراغب، المفردات: (حين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(4) ابن منظور، اللسان: (وقت).
(5) الراغب، المفردات: (اوقت).

المحتويات